A.U.B. LIBRARY

NICOLA A. ZIADEH
American University of Beirut
Beirut, Lebanon

الحركات الاستقلالية في المغرب العربي

961
F248haA
c.2

علال الفاسي

الحركات الاستقلالية في المغرب العربي



شارع المنصور ـ طنجة

دار الطباعة المغربية ـ شارع محمد الطريس ١٧ ـ تطوان (المغرب)

الفـاتحـة

بسم الله الرحمن الرحيم

«ونُريدُ أَنْ نمُنَّ عَلَى الذينَ اسْتُضْعِفُوا فى الأرضِ ونَجْعلَهُمْ أَئمَّةً ونَجْعلَهم الوَارثينَ وَنمكِّنَ لهمْ فى الأرْضِ وَنرى فِرْعَوْنَ وهامَانَ وَجُنودَهُمَا منهُم ما كانُوا يَحْذَرُون» .

قرآن كريم

يرجع الفضل الاول فى تأليف هذا الكتاب لتوجيه الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية، فقد قررت استكتاب أدباء العرب عدة موضوعات ترجع لتصوير الحالة الحاضرة فى العالم العربى. وبناء على ذلك طلب منى رئيسها الاستاذ الكبير أحمد أمين بك أن أكتب للجامعة فصلا عن (الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى).

وقد رأيت أن موضوعا بالغ الاهمية مثل هذا لا يكفى فيه فصل واحد تنشره احدى المجلات او يطبع ضمن مجموعة تحتوى على فصول متنوعة، فقررت أن أكتب خلاصة وافية عن المقاومة المغربية فى شتى صورها الحربية والدبلوماسية والسياسية أعرضها على الناس ضمن كتاب خاص، ثم استخرج منها فصلا مختصرا يفى بالحاجة التى قصدتها الادارة الثقافية، وهكذا تم هذا المؤلف الذى أقدمه اليوم للجامعة العربية وأنصارها.

وقد توخيت فى هذا العمل غايات قومية مفيدة . اولاها أن أعرف الناشئة العربية عموما والمغربية خصوصا بالاطوار التى مرت فيها حركة بلادنا، والمجهودات التى بذلها مؤسسوا هذه الحركة ومغذوها المتعاقبون ليكون لهم فى ذلك عبرة طيبة وقدوة حسنة ، وليسهل عليهم ان يجعلوا مما يبذلونه من جهد فى سبيل تحرير أمتهم وبعثها امتدادا لسلسلة الحلقات محكمة الافراغ يتمم بعضها بعضا، ويكون اللاحق منها والسابق عناصر تناسق تلقائى شبيه بهذه الانغام الموسيقية التى يجعل منها التناسق وحدة بديعة وكلية رفيعة .

وثانيها : أن أعرف العرب وخاصة المسؤولين بما لا يزالون يجهلون من أمانى الامة المغربية وما تبذله فى سبيل تحقيقها ؛ لان ذلك سيعرفهم عن يقين باتحاد الغاية التى يجاهدون من أجلها مع غايتنا نحن، وسيوضح لهم ضرورة تنسيق الكفاح العربى وان تعددت الوانه واختلفت مظاهره، وذلك من شأنه ان يساعد على تكوين الشمول فى التفكير العربى حتى لا يبقى كل اقليم من أقاليم الامة العربية ينظر لمصالحه الخاصة وحدها، وهى فى الحقيقة جزء من صالح عام عربى، وحبنئذ يتسنى للجامعة العربية أن تسوق السبعين مليونا من العرب لحظيرة كفاح قوى من أجل التحرر الكامل والانبعاث العظيم .

اما الثالثة : فهى اقامة الحجة أمام الرأى العام الدولى على أن شعوب المغرب العربى لم تقبل أبدا الاحتلال الاجنبى وعلى أن القوات القاهرة والاساليب السياسية الماكرة كلها لم تستطع أن ترضى المغاربة بالحقيقة المرة التى هى حكم الفرنسيين والاسبانيين لبلادنا، وهذا الصراع الذى يجليه للناس هذا الكتاب دون أن يكتم بواعثه وعوامل تطوره أعظم حجة على أن مشكلات المغرب العربى ليس لها الا حل واحد هو الحل المعقول العادل؛ غياب عهد الاستعمار، واشراق عصر الاستقلال التام الكامل.

ولقد بذلت جهدى فى أن أكون أثناء تجلية الاحداث التى مرت فى هذه الفترة من تاريخنا القومى وفى تعليلها بعيدا عن كل تعصب او غرض خاص لاننى أعتبر أن الحقيقة واضحة من نفسها، وأن محاولات تدعيمها بما لا يتفق والواقع ليس من شأنه الا ان يضر بها ويعفى عليها. وكذلك كان موقفى مع الحركات المختلفة التى ورد لها ذكر فى كتابى، فقد وفيت كلاحقه، ونسبت لكل عامل عمله .

وسيلاحظ القارىء أن القسم المراكشى أكبر الاقسام الثلاثة حجما وأغزرها مادة. ولى فى ذلك أعذار كثيرة، منها أن ما عندى من الوثائق عن قضية مراكش اكثر مما عندى عن القطرين الشقيقين تونس والجزائر. ومنها أننى آثرت أثناء شرحى لمبادىء حركاتنا التى هى فى الحقيقة مبادىء الاحزاب الاستقلالية كلها أن أتكلم عنها باسم حزب الاستقلال الذى أمثله لاننى أملك فى ذلك من الحق ما لا أملكه فى بقية الاحزاب الصديقة التى لا أشك فى أن زعماءها مشاركون لى فيما أعربت عنه من أفكار. ومنها : أن بعض المسائل كالسلفية مثلا واتجاهاتها السياسية كان يمكن أن يكتب فى أثناء تاريخ كل حركة من حركات الاقطار الثلاثة،

لانها جميعا شاهدت فى أوائل عهدهـا بالنهوض هذه الدعـوة السلفية النبيلة ، ولكن كتابته فى كل قسم يصبح تكرارا لا فائدة له ، وبما أن ازدهار هذه الدعوة فى مراكش كان موازيـا تماما للتطور الذى طـرأ على السلفية فيمـا بعد الحرب الكبرى ـ فقد كان ذلك مرجحا للحديث عنها فى القسم المراكشى .

والحقيقة أن الحركات المغربية ـ وإن تعددت أسماؤها ـ حركة واحدة تنشد الحرية والوحدة والنهوض .

وإذا كان من حسن النية شفيع ، فانى أعتذر به عن كل ما يمكن أن يكون قد وقع فى هذا الكتـاب من خطأ غير مقصـود، على أن الخطأ فضيلة الانسان؛ لانـه علامة الفكر وعنوان الاعتبار، وليس الا الانسان الآلى يستطيع أن يعمل من غير أخطاء .

(القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٤٨) **علال الفاسى**

امتداد

اذا نحن بحثنا فى تاريخ المغرب العربى وجدنا أن الوطنية بمعنى الدفاع عن النفس والذب عن الكيان والميل للحرية الفردية والاجتماعية صفة من أظهر الصفات التى امتاز بها المغاربة فى جميع مراحل حياتهم وتجاربهم التاريخيـة .

فلم تقف أمة من الامم ولا شعب من الشعـوب فى وجه الدولـة الفاتحة أو العناصر الاجنبية المهاجرة كمثل ما وقفته أمة المغرب العربى فى جميع عصورها . واذا كان الفاتحون قد استطاعوا أن يتغلبوا أحيانا على بعض أجزاء المغرب دون أن يمتلكوا الشواهق أو ينفذوا لمراكش الممتنعة ، فان وجودهم لم يكن وان طال أمده الا مرورا عاديا وعبورا لا يترك من خلفه أثرا ولا ذكرا .

ولقد اختلطـت على بعض الباحثين الغربييـن بسبب ما يملك نفوسهم من توجيه استعمارى بغيض مظاهر هذا الدفاع المستمر عن النفس وأعلام هذا الحب للحرية الى حد المغالاة فى الاعتداد الفـردى فحسبوها حبا فى الفوضى أو تطاحنـا بين أجزاء البلاد ، واتخذوهـا دليلا على أن المغرب لا يمكن أن يكون وحدة قومية بمعنى الكلمة وعلى أنه لم يعرف الاستقلال التام فى تاريخـه ، وفوق هذا وذاك على أنـه أقرب الى الامم الاوربية الفاتحة اليوم من الامم الشرقية العربية .

وقـد كان العلامة جوتيـه الفرنسى فـى مقدمة هـؤلاء المغالين المتعصبين الذين يستعملون البحـث وأساليبه ، والعلـم وصوره أداة لخدمة الغايات الاستعمارية ، رغبة تجريد الشباب المغربى من الاعتقاد فى نفسه وتوجيهه وجهة الاندماج فـى الوحدات الاجنبية لينشد بذلك وحدة غير مغربية واستقلالا غير وطنى .

على أننا نحن المغاربة نحس من حاضرنا وكفاحنا بما يشعرنا بأن عواطفنا التى تدفعنا اليوم لمقاومة المستعمرين فى غير هوادة وفى غير بغض ، ليست الا العواطف التى كانت تمـلأ روح أجدادنا منذ أقـدم العصور الى اليوم . ولقد أنكر جوتيه على المغرب العربى حتى اسمه

التاريخى ، وهذا أشد ما يمكن من المغالطات فقد عرف المغرب من قبل أن يعرف الافرنج ببلاد إمازيغ أى الوطن الحر ، وعرف سكانه أسلاف البربر بالايمازيغن، ومعناها الرجال الاحرار، وهذه التسمية وحدها دليل على الروح التى كانت تملأ أسلافنا الاولين من حب للحياة الحرة فى وطن حر .

ولقد أطلق القدماء المصريون على هذه البلاد أمانتى أى عروس المغرب ، وسماها اليونانيون بالهيسبيريا أى المغرب، ومن هنالك أطلق العرب والساميون قاطبة عليها اسم المغرب.

اذن فقد كانت دائما المغرب وكانت دائما بلاد الاحرار .

ولكن الأمازيغ عرفوا بعد ذلك باسم البربر ، ولقد حاول ابن خلدون أن يعلل ذلك باستعجام الكنعانيين لهم ، وحاول غيره أن يعلله باستعجام الرومانيين . وسواء صح هذا أم لم يصح فانه يدل على أن كلمة البربر كانت تدل فى لغة الكنعانيين والرومانيين على العجمة أو الكلام غير المفهوم بالنسبة اليهم .

وعندنا أن هذا الاطلاق كان سابقا ، وأن وجوده هو الذى كون الكلمة فى اللغة الرومية أو الكنعانية ان صح ما يدعيه الباحثون . اذن فما أصل كلمة البربر ؟ ...

يروى المؤرخ مومسان فى كتابه تاريخ الرومان (فصل ١٧ جزء أول) أن من الاغانى الدينية القديمة فى روما التى كانت تصحب رقص الكهنة على شرف مارس إله الحرب هذه الاغنية :

(Satur tu Fere Mars, Limen Sali ¡Sta! Berber)

ليكتف مارس الجبار . ارقصوا على السدد ، قفوا ، سيروا .

فكلمة بربر تدل على السرعة والمسير ، وقد عرف فى كتب العصر الاول أن المؤرخين أطلقوها على البرابرة المقيمين على شاطىء النيل . ويقول رينان : ان عائلة من الشعوب الناطقة بالبربرية كانت تمتد من مصر وحتى من البحر الاحمر الى السينغال، ومن المتوسط الى النيجيريا . ويظهر أن البرابرة والتوارجة يمثلون لليبيين والنوميديين (الرحل) القدماء .

ومن المعروف أنه يوجد فى شعب النيل واد يسمى بوادى البربر.

اذن فالاطلاق ورد على هذه العناصر ذات العائلة اللغوية الواحدة من جهة السرعة فى كلامها او اقامتها بشاطىء النيل السريع، أو من حيث انها كانت تمثل القبائل الرحل الذين يسيرون من محل لآخر ،

ومن هنالك دخلت فى اللغة الرومية والكنعانية . وأيا ما كان فهى تسمية قديمة قبل اليونان وقبل الرومان وأحرى قبل العرب الذين استعملوا هذا الاسم أيضا قبل الفتح الاسلامى على خلاف ما يزعمه بعض المؤرخين ، فقد جاء فى شعر امرىء القيس هذان البيتان :

على لاحب لا يهتدى بمناره اذا سابه العود النباطى جرجرا
على كل مقصوص الذنابى معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا

وهذا الاشتقاق اللغوى وحججه تدلنا على ما هو أعظم من ذلك ، وهو وحدة هذه العناصر التى تقيم فيما بين البحر الاحمر والمتوسط وتمتد للسنيغال والنيجيريا . وهذه العائلة الافريقية هى التى امتازت بحضارتها وحبها للحرية ونضالها فى سبيل العزة والكرامة .

ولقد شهدت هذه البلدان هجوما أجنبيا واحدا ، وهجرة مشتركة من الشرق أحيانا ومن الغرب أخرى . ولكنها استطاعت فى كل أوقاتها أن تحتفظ بمشخصاتها الاقليمية ، وتدمج فى عائلتها الفاتحين والمهاجرين حتى تغمرهم ذهنيتها وأخلاقها وعاداتها . وبذلك حفظت تبلورها القومى وكيانها المسدود فى وجه كل غاصب مهما كانت قوته عظيمة ، واستعدادته جسيمة .

ولسنا نريد أن نتكلم عن الحضارة المصرية وآثارها ، فانها شىء لا يناقش فيه أحد ، ولكن الذى لا يعترف به المستعمرون هو الحضارة المغربية مع أنها كانت موازية لحضارة مصر ومشاركة فى تكوينها . ولقد أثبت المؤرخون أن مدينة قرطاجة كانت معروفة فى المغرب قبل مجىء الفينيقيين ، فهى مدينة أنشأها أسلافنا البرابرة كما أنشأوا غيرها من المدن التى تشبه فى أساليب بنائها الهندسة المتوسطية، ولقد كانت قرطاجة عاصمة الملك البربرى إرباس . كان يؤمها المهاجرون الفينيقيون للتجارة، وانتشرت جاليتهم فيها وفى أطرافها حتى أصبحت فينيقية سنة ٨١٠، وهذه الجالية التى امتزجت بالبرابرة وتمغربت، هى التى كونت الدولة القرطاجية التى لم تكن دولة فاتحة، وانما كانت عبارة عن تسلط أسرة أجنبية على القطر، نتيجة لنشاط أكبر من نشاط الاهلين، ولم تكن مقاومة المغاربة للقرطاجيين مقاومتهم لفاتح أجنبى أو دولة استعمارية متسلطة عليهم، وانما هى مقاومتهم لبعض الحكومات التى فرضت عليهم دون رغبتهم . ولذلك استطاعت قرطاجة أن تعيش فى افريقيا أمدا طويلا، واستطاعت ان تمزج الحضارة السامية بالحضارة البربرية فتكون من عروس الغرب بلادا

مغربية متحدة فى لغتها وديانتها وامانيهـا، لا تعكر على هذه الوحدة ولا ذلك الوجود القومى ثورات محلية من حين لآخر، ولا خيانات يرتكبها بعض الاقطاعيين الذين يمدون ايديهم للاجنبى تقديما لمصلحتهم الخاصة على مصالح الوطن العليا.

وأعظم مظهر لهذه الوحدة وأكبر حجة على أن المغاربة لم يعتبروا الفينيقيين دولة استعمارية اتحاد المواطنين المغاربة كلهم والتفافهم حول هانيبال بمجرد ما دعاهم لانقاذ الوطن من المستعمرين الرومانيين، ولقد كانت الحـرب الفينيقية الثانيـة عنـوان القومية المتجسمة فى احدث صورها، اذ اجتمع المغاربة قاطبة حول راية واحدة يدافعون عن وطـن محدود بحدوده الجغرافية التى يسدها البحر من كل جهاتها فلا تنفتح الا عن طريق الصحـراء لتتصل بالبلاد التـى ورد منها اخاء الفينيقيين ليمهد من بعده لنور الاسلام ووحدة اللسان العربى.

وما كانت الانباء تصل بانتصار هانيبال فى مواقعه واجتياز جيوشه المغربية مضايق البحار لمقاومة المستعمر فى عقر داره – حتى كانت الحفلات تقام مـن طنجة الـى قرطاجة، والاعلام ترفع، وأغانى القومية والحرية تتردد فـى شواهـق الاطلس وتتجاوب فى شواطىء النيل بعد أن تمر فى قصبة رعـاء الصحراء ليرددهـا الحداة فى أطراف الجزيرة العربية . وهكذا اعتبر المغاربة قرطاجة وطنهم والفينيقيين اخوانهم وان كانوا قاوموا استبدادهم فى الحكم على مثل ما قاوموا الدولة الفاطمية، اعتزازا منهـم بقومية ضيقة كثيرا ما كانـوا يضحون بها اذا دعا داعى الوحدة لصالح انقاذ الوطن والدفاع عن حريته .

ولقـد استمرت قرطاجنة قبل الهدم الرومانى تسعة قرون كاملة واستمرت بعد ذلك ستة اخرى. ولم يقض هدم الرومانيين لها ولا للمدن التابعة لحكوماتها ومنها تونس Thunes التى هى احدى الاسماء الليبية القديمة الدالة على معنى مكان لانس الليل – على سامية افريقيا الشمالية التى غرستها الحكومة الفينيقية، أى لم يقض على وحدة هذه البلاد فى لغتها ولا فى اتجاهاتهـا القومية، وقد بقيت العملة فينيقية، أى مغربية، واللسان العام فى جميع اجزاء البـلاد هو اللسان الفينيقـى الذى بقى اللسان الرسمى فى العقود والوصايا وغيرهما من المعاملات حتى القرن الثالث بعد المسيح. ولقد تكلم بلين Pline باحترام كامل عن الثمانية والعشرين كتابا التـى كلف مجلس الشيـوخ الرومانى د. سيلالينيس D Silanus بترجمتها الـى اللاتينية عن اللغـة الفينيقية. ولقد كان

كليطو ماشو أحد خلفاء أفلاطون ومن كبار الكتاب اللاتينيين يكتب باللغة الفينيقية، وكذلك غيره من كبار القرطاجيين واليونانيين المتصلين بالثقافة المغربية الفينيقية. وقد أكد سان أوغستان القديس المغربى أن اللغة الفينيقية كانت فى عهده هى اللسان العام فى الشمال الافريقى برمته .

وقد اضطر الرومانيون أنفسهم لاستعمال الفينيقية فى ادارتهم مع المغاربة على غرار ما تضطر اليوم فرنسا واسبانيا لاستعمال العربية، فكان التراجمة موجودين فى كل المكاتب والمصالح، ولم يكن ذلك ناشئا عن تسامح من الرومانيين، ولكنه اضطرار لمتابعة الروح القومية المغربية التى كانت تحتقر المستعمر ولغته وتأبى استعمالها ولو عرفتها، فقد ذكر المؤرخ المغربى لوسيوس ايبيليوس أثناء تحدثه عن ذهنية الاهالى الذين يرفضون التردد على المدارس اليونانية، ويقول عن احدهم : (انه لا يتكلم الا الفينيقية، وأحيانا اليونانية التى تعلمها من أمه، أما اللاتينية فلا يعرفها ولا يريد ان يتعلمها) .

ويقول شارفيريا : «ان الفينيقية بقيت هى اللغة المستعملة فى أغلب الاوساط حتى التى حسب انها تأرومت جدا»، ويقول جوتيه : «انه اذا كان البربر قد استعربوا بسهولة فذلك على ما يظهر لانهم لم ينسوا قط الفينيقية». ويروى الجنرال بريمود فى كتابه البربر والعرب عن جوسيل فى تاريخ افريقيا الشمالية القديم ما يأتى :

«ان العربية ذات رحم مع الفينيقية، ولذلك أمكن بسهولة ان تحل محلها ».

ونحن لا يهمنا من هذا الا اثبات شىء واحد هو سهولة تغلب النفوذ السامى او الشرقى على النفوذ الاوربى او اللاتينى (ولا أريد أن أقول الغربى لاننى أعتبر الساميين قاطبة فى عداد الغربيين) فى بلاد افريقيا الشمالية، وذلك بدون شك لان الساميين لم يكونوا فاتحين وانما كانوا فارضين وجودهم ضمن العائلة المغربية التى سرعان ما نسيت هذا الفرض اولا وتآخت معهم اذ وجدت فيهم كل ما تحس به من عواطف وصفات متماثلة .

وعلى العكس من ذلك فان الفتح اللاتينى وان استمر خمسة قرون كاملة فانه لم يستطع ان يغرس لا فى البلاد ولا فى نفوس المغاربة اثرا ما، وليس ذلك لعلة الشرقية والغربية على ما نرى، ولكن لان روما لم تكن تهتم بأكثر من الاستعباد واستغلال المواطنين وابتزاز خيراتهم فهى

التى كانت تأخذ من البلاد المفتوحة دون ان تعطيها شيئا، فأسباب الفشل هى من طبيعة الرومانيين المستعبدة التى لا تقدر مهما عظمت قوتها أن تمس القوة المعنوية للذين يؤمنون بأنفسهم ويستميتون فى سبيل الحرية والوحدة.

ولقد حاول بعض المؤرخين المستعمرين أن يؤكدوا نجاح روما فى افريقيا الشمالية ولكن الادلة التاريخية كلها مجمعة على ان الفشل كان حليف السياسة الرومانية فى المغرب العربى، وقد اكد مرسية وشارفيريا وفورنيل هذا الفشل الرومانى الذريع. وقال بواسيه : (ان روما لم تحاول قط ان تصبح الوطن الوالد، وانما كانت تستغل المغلوبين فى اوربا وفى افريقيا، وهى لم تقدر قط على ان تكون حاملة للحضارة ولا للمدنية، ولقد حكمها ملوك البربر الذين تأرووا احسن مما حكمت هى نفسها).

لقد كان القرطاجيون هم الذين بنوا الطرق وعبدوها فى المغرب كما يؤكد ذلك ايزيدور، ولكن الرومانيين هدموا كل ما بنته قرطاجة .

وكان القرطاجيون هم الذين نشروا الوحدة والسلام فى انحاء المغرب ولكن أمبراطور روما نفسه لم يكن يستطيع التجول فى شمال افريقيا الا مع جيش قوامه عشرات الآلاف .

ولقد كتب د. هـ. ميلية D. H. Muller ان روما لم تعرف قانون الاثنى عشر لوحا الا من الجالية الفينيقية القرطاجية فى بلاد الرومان، ومن المعروف ما لهذا القانون من التشابه مع شريعة حمورابى.

ولم تكن لروما فى الشمال الافريقى جالية كبرى يمكن ان تؤثر فى الاهالى كما يزعم المستعمرون، وقد أكد ذلك حتى مسيو لوى برتران المعروف بتعصبه ضد الاسلام وفى سبيل المدنية اللاتينية .

والحقيقة ان روما لم تستطع ان تقوم فى الشمال الافريقى بأكثر من الهدم. ولم يكن ذلك شأنها فى المغرب فقط، بل فعلته مع كل البلدان التى احتلتها، ويعجبنا ان ننقل دليلا على ذلك هذه الفقرة من كلام الجنرال بريمود : (لم تتمهر روما فى اى ميدان دخلته ولم تبتكر شيئا بل تركت الكل يضيع، وفى اثناء القرون السبعة التى ملكت فيها علم البحر الابيض المتوسط، لم يدن لها هذا العالم بأى تقدم انسانى، ولم يجىء من عندها شىء مما نجز فيه، انها لم تستطع الا ان تفرض قهرا سياسيا وسيطرة مالية ادتا الى سقوط العالم القديم وبالاخص فى شمال (افريقيا) .

ان هذه الشهادة من جنرال فرنسى كانت له جولات فى الحروب المغربية أعظم دليل على ان العالم المتوسطى برمته لا يحمل للرومانيين أثر اطمئنان ولا شعورا بأى انعطاف او انجذاب، وليس ذلك الا امتدادا حقيقيا للعاطفة التى كان يحملها أبناء هذا العالم القدماء للمستعمرين الرومانيين، ولقد وصل ذلك بالافارقة بصفة خاصة الى الاستعانة باعداء الرومانيين عليهم والانضمام للوندال والبيزنطيين الذين سرعان ما وجدوا المعارضة المغربية حينما حلوا محل روما فى الحكم والاستعمار.

رفض المغاربة كل رابطة تقربهم من الرومانيين، فقد تمسحوا او تهودوا يوم كانت روما كافرة، ودخلوا الاريانية يوم تمسحت روما، وشايعوا دونا الاسقف القرطاجى المغربى فى نحلته التى انشق بها عن البابوية الرومانية وكون بها الكنيسة المغربية، ولكنهم رفضوا مشايعة القديس اوغستان الذى اخلص للبابا وقدس روما فقاومه اخوانه ورأوا فيه خائنا لوطنه يريد تعبيد مواطنيه لروحانية الدولة المستعمرة ، ولم يكن نفورهم من مسيحية روما الشرقية اقل من نفورهم من الخضوع لكنيسة روما الغربية، لان البيزنطيين يدينون بتلك، كما يدين الرومانيون بهاته .

ولكن قلوبهم انفتحت للاسلام ودعوته التى رأوا فيها اداة للتحرير القومى والاستقلال الوطنى، الى جانب الانعتاق الفكرى والروحى. ولم تكن الدعوة الاسلامية فى نظرهم الا امتداداً لعقائد الوحدة الالهية التى تنسجم مع طابع الوحدة الذى يريدونه ويعملون له.

وهكذا نجد فى تاريخ المغرب القديم صراعا مستمرا بين نفوذى العائلة اللاتينية والعائلة التى تسمى اليوم بالعربية والتى تتركب ذهنيتها من مجموع تأثيرات الحضارة المغربية واليونانية والسامية، ولكننا نجد ان النصر كان دائما حليف هذه الحضارة العربية التى تكون الاساس الاصيل لحضارة البحر الابيض المتوسط، ذلك الاساس الذى لا يعنى بالمادة بقدر ما يعنى بالروح، وذلك ما يساعد على تكييف الذهنية المغربية على مركب هذا الاساس الذى يحس بالقرابة الاصيلة بينه وبين سائر انحاء العالم العربى .

على ان المغرب بالرغم من ارتضائه الاسلام دينا والعربية لغة، ظل دائما معتدا بوجوده الخاص، ناشدا مكانه تحت شمس العروبة، غير راض أن يكون فى مؤخرة القافلة العربية او بعيدا عن مركز القيادة منها، ولقد ظهر تبلور اخلاص المغرب للعروبة يوم تأسست الاسرة المغربية

المالكة من صميم البربر دون ان تفكر فى غير امتداد الحكم الاسلامى والسلطان العربى الى ما وراء البحار، لنشر السلام المغربى وطبع الحضارات المحلية بالطابع العربى المحض، وتجلت الى جانب هذا التبلور روح قومية مغربية بكل معانيها، وهل هنالك دليل اكبر من ان يموت المهدى بن تومرت مؤسس دولة الموحدين وهو من قرى الجنوب المراكشى، ويترك الخلافة من بعده لعبد المؤمن الجومى من بلاد الجزائر.

فالقومية المغربية موجودة منذ القديم فيما قبل الاسلام وبعده مبثوثة فى كل الآثار المغربية التى سلمت من عوادى الدهر، وانك لتجد فى كتب ابن جبير وابن خلدون وفى شعر ابن هانىء متنبىء المغرب وغيرهم، من الادلة الواضحة على تمسك المغربى بوطنه، وحبه لبلاده، وتفضيله لها حتى على الاوطان الشقيقة ما لا تجده فى آثار أدباء الامم المعاصرة لهم، وهذه الروح القومية هى التى دفعت بأمتنا للاستبسال فى سبيل الذب عن كيانها طيلة العصور الوسطى الاوربية كلها، خصوصا وقد توالت عليها هجمات عديدة من دولتين شديدتى التعصب هما اسبانيا والبرتغال .

واليوم وقد تألبت دول الاستعمار الاوربى على العالم العربى والاسلامى جميعه وكانت أقاليم المغرب العربى فى مقدمة من نكب بهذا الاستعمار، فقد سجل ايضا فى تاريخه الحديث ما لا يقل عن بطولة أسلافه الذين قاوموا الفاتحين الاولين وصمدوا فى وجوههم برغم ما لهم من قوة وما عندهم من بأس .

لقد طال امد الاستعمار الرومانى والبيزنطى والوندالى فى البلاد ولكنه لم يستطع ان ينال من معنوياتها أو يقضى على شخصياتها، وها هو ذا الاستعمار الفرنسى والاسبانى يزداد طغيانا علينا اليوم ويحسب انه بالارهاب والعسف والكيد للعروبة وللقومية سيقضى على وجودنا كأمة عربية مستقلة، ولكن التاريخ سيعيد نفسه وسينتهى هذا الاستعمار كما انتهى من قبله ولن يبقى من اثره الا ما يسجله من صفحات للكفاح المغربى ومن ضعف معنوى للطغيان الاوربى .

ان طغيان روما وعدم مقدرتها على غير الاستغلال قد تجدد فى الذين يفتخرون اليوم بأنهم ورثوا الامبراطورية الرومانية فى القرن العشرين، وان بطولة المغاربة واستماتتهم فى سبيل الحياة الحرة التى عشقها اسلافهم الامازيغ والعرب لتتجدد هى الاخرى فى نفوس شعب الشمال الافريقى الذى يحتشد اليوم ضمن هذه الحركات الاستقلالية

ليرفع عنه عـار الاحتلال ويستخرج من الغاصبين الاعتراف بالحـريـة والاستقـلال .

وهذه الصفحات التى يعرضها هذا الكتاب ليست الا امتدادا لسجل الكفاح الوطنى فى المغرب العربى، وسيرى فيها القارىء سر الاسلاف، وروح السلالة، وتحرر الامازيغ، وشهامة العرب، ودعوة الرسالة الخالدة.

وان الصراع اليوم على المغرب فى أشد ما يكون بين نفوذ الشرق العربى، وبين نفوذ الغرب اللاتينى، وان المغرب قد اختار، وان النصر حليف العروبة باختياره، والحرية بكفاحه، وذلك هو مجده المقبل الذى يبنيه اليوم بالعرق والدم ويقوم على تشييده أبناؤه الاستقلاليون الابرار.

فى المغرب الاوسط
أو
الجـزائـر

فى العام الماضى تقدم وفد من حركة انتصار الحريات الديموقراطية التى ليست الا مظهرا رسميا لحزب الشعب الجزائرى الى الولاية العامة فى الجزائر يطالب بنقل رفات بطل الاستقلال الجزائرى الاول الامير عبد القادر من مرقده فى ضواحى دمشق الى وطنه الاصلى بالمغرب الاوسط . ولم يقصد هؤلاء النواب الاحرار بهذا الطلب الذى يعلمون عدم استعداد الوالى العام الفرنسى لتحقيقه، الا تأكيد ما صرح به زعيمهم السيد مصالى الحاج حين قال : «ان حركتنا ليست الا رفعا جديدا لعلم الامير عبد القادر الذى ناضل طيلة حياته عن حرية الشعب الجزائرى واستقلاله» .

واذاً فحركة الاستقلال القائمة الآن فى بلاد الجزائر، ليست الا امتدادا لحركة المقاومة الاولى التى ظل الامير عبد القادر ومن بعده قائمين عليها مستميتين فى سبيل مثلها العليا منذ هجمت قوات المارشال دوبورمو على سيدى فرج فى ١٣ يونيه سنة ١٨٣٠

لقد اعتدت فرنسا على الجزائر فى وقت كانت السيادة فيها للدولة العثمانية التى لم تستطع من المقاومة الا قليلا، ولكن ما استسلم الولاة الاتراك بالجزائر حتى كانت المقاومة العربية اولا قد ابتدأت بفضل وصول الجيش المراكشى (فى اكتوبر سنة ١٨٣٠) الى مدينة تلمسان تحت رئاسة القائد المراكشى أبى الحسن على الذى استطاع ان يؤلب قبائل الناحية كلها تحت رايته لمقاومة الفرنسيين، ورفض الاستسلام التركى . وبعد ان انضم اليهم محيى الدين قرروا تأييد سلطان المغرب فى الجهاد لحماية المغرب العربى من الاعتداء الاجنبى. وبرغم الدسائس الفرنسية التى عينت بايا تونسيا على عمالة وهران لضرب العرب بعضهم ببعض فان التضامن المغربى فى المقاومة كان قد تأسس، وزاده قوة تنزه الامير عبد القادر عن قبول أية صفة من صفات الحكم، الا على كامل الاتفاق مع الحكومة المراكشية. وبعد احداث وتقلبات لا يسع المجال ذكرها أسس الامير عبد القادر الايالة الجزائرية المستقلة عن الفرنسيين

وعن الترك معا. وكـون جبهة قوميـة متحدة أمام العدو فبعث بذلك فى نفوس الجزائريين شعورا بروح وطنية وعربية طالما أخمدها الاضطهاد التركى والاضطراب القبلى. ولعـل من أكبر دلائل النبوغ والذكاء فى عبد القادر تنبهه لضـرورة تضامن شعـوب المغرب العربى للدفاع عن نفسها. ومن الحـق ان نعترف بأن عدم استمـرار الدولة المراكشية فى تأييد مقاومة الجزائر لاسباب قاهـرة، وعدم انتباه التونسييـن للخطر الفرنسى الى جانب الاهمال العثمانـى قد ادى الى هجوم الغربيين على العالم العربى وتقسيم السكسونيين واللاتينيين للشعوب العربية كلها .

ومن أبطال المقاومة الجزائرية أبو معزى وهو مراكشى من أولاد سيدى الطيب بنواحى وزان، دخل الجزائـر حوالى سنة ١٨٣٥ ، وقام بنشر دعاية ضد الفرنسيين فى مناطق وهران الجنوبية، ثم انتقل الى زواوة حيث أهلها على الجهاد فاستطاع أن يجمع حوله خلقا كثيرا. وبما أنه كان مستقلا فى حركته عن الامير عبد القادر فقد ظن الفرنسيون أولا أنه يمكنهم الاعتماد عليه فى اضعاف سلطة الامير، ثم عادوا يرهبون منه بعد أن نازلهم سنتين كبدهم فيها خسائر فادحة، وتوج عمله بالانضمام الى الامير عبد القادر الذى عينه خليفة له على جبال زواوة، فقاتل معه الى أن اضطر الامير سنـة ١٨٤٥ الى الالتجاء لمراكش فعاد أبو معزى الى الجزائر واستمر فى قتاله، ولما عاد الامير فى نفس السنة انضم اليه مرة أخرى أبـو معزى والتفت من حولهما كافـة قبائل وهران والجزائر وسجلوا النصر العظيم على الفرنسيين فى معركة سيدى ابراهيم بغرب جامع الغزوات، الامر الذى اضطر من اجله «بيجو» لطلب جيش قوامه عشرة آلاف جنـدى قسمها الى ثمانية عشر جحفـلا طارد بها الاميـر وخلفاءه، فوقف أبو معزى وقفة عظيمة، واستمر فى القتال حتى تغلبت عليه الجحافـل، واضطر للاستسلام فاعتقل فى حصن (هام) بشمـال فرنسا فى نفس الغرفة التـى كان نابليون الثالث معتقلا فيها قبل توليه الحكم. وبعد ما وقع العفو عنه انتقل لتركيا حيث رحب به العثمانيون وخصصوا له معاشا .

وفى حرب القرم انضم للجيش العثمانى وقاتل فى صفوفه وسقط فى القوقاز فى أسر الروس، ثم توفى فى مدينة باطوم .

وقد ادعى من بعده ستة افراد جزائريين انهم هم أبو معزى وبعضهم ادعى انه أخوه وتسمى باسم مولاى احمد أبو معزى، وقد جرح هذا الاخير فى احدى المعارك وأسر، ثم أحيل على المحكمة العسكرية فكان موقفه رهيبا، وجرى بينه وبين رئيس المحكمة الحوار الآتى :

ـ سأله الرئيس من أنت ؟ قال : أنا أبو معزى.
ـ لماذا قاتلت فرنسا ؟
ـ لكونها دولة باغية طاغية معتدية علينا.
ـ ألم تر أن العرب انضموا الينا ؟
ـ هؤلاء العرب قسمان : الاكثرية منهم أبرياء يخافون على حياتهم، والاقلية سفلة خونة لا يبحثون الا عن ارضاء الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط احمر.
ـ ماذا تنتظر منا ؟
ـ لا يهمنى ما أنتظره منكم .
ـ واذا اطلقنا سراحك ماذا تفعل ؟
ـ أعود للجهاد فى سبيل الله.
ـ واذا قتلناك ؟
ـ سأتقدم لله ناطقا بالشهادتين.
ـ واذا سجناك ؟
ـ سأقضى اوقاتى عابدا طالبا من الله أن ينصر العدل على الظلم.
ـ لماذا تكرهنا ؟
ـ لانكم ظلام طغاة.

وقد حكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك .

وفى سنة ١٨٤٩ اعتدى حاكم الزعاطشة (قبيلة فى جنوب قسنطينة على مقربة من مدينة بسكرة) على قائدها السابق الذى كان معينا عليها من طرف الامير عبد القادر، وهو القائد أبو زيان، فأخذ هذا يحرض الاهالى الذين كانوا استسلموا للفرنسيين سنة ١٨٤٧ على استئناف القتال. وفعلا التف من حوله جمع تمكن من القضاء به على جفحل فرنسى كان مارا بقرب بسكرة . فأرسل عليه الفرنسيون حملة تأديبية قوية حاصرت هذه الواحة التى لم تكن تؤوى اكثر من ثلاثة آلاف من السكان كلهم غراس نخيل. ومع ذلك فقد قاوموها ستة أشهر كاملة، وتمكن ابو زيان من الانتصار على ثلاثة قواد فرنسيين ارسلوا بالتتابع للقضاء على هذه الواحة البسيطة الى أن اضطر الحاكم العام لتجهيز جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل و ٤٥ مدفعا وعدد كبير من المهندسين العسكريين المختصين فى فن الالغام. ومع ذلك فلم يستطيعوا التغلب على الواحة الا بعد قتال شديد دار بين النخيل وفى ارجاء البيوت، وتكبد فيها الاهالى اكثر من الف قتيل. وبعد ما احتل الفرنسيون الواحة أمر القائد العام

الجنرال هيربيو الكولونيل كربير الذى اصبح بعد مارشالا فرنسيا أن يتوجه بالجيش للتنكيل بجميع من بقى من الاهالى بما فيهم النساء اللائى شاركن جنبا لجنب مع الرجال طيلة امد القتال. وقد حشر الجيش بقية الاهالى فى الواحة، ثم نسفوها بعد ما قبضوا على ابى زيان الذى كان جريحا وقطعوا رأسه ورؤوس اولاده الثلاثة الذين لا يتجاوز اكبرهم ست عشرة سنة. وارسلت هذه الرؤوس وغيرها لبسكرة حيث علقت على ابواب المدينة. اما السكان فلم ينج منهم احد، فالبعض مات فى اثناء القتال، والآخرون قتلوا بالحراب بعد استسلامهم ومن بينهم ١١٧ امرأة .

استمرت هذه الحرب القومية للدفاع عن استقلال الجزائر مدة ثمانية عشر عاما انتهت بانتصار القوة الغاشمة على الحق، وكانت خلالها السلطات الفرنسية تغرس نفوذها فى باقى البلاد، ولكن لتزرع فى نفوس الاهالى روح الثورة الدائمة التى سنرى كيف كان الضغط يخمدها احيانا، ولكن طموحها للتحرر يبعثها لتعلن حكم الشعب الجزائرى الذى لا يرضى بالحرية بديلا.

ولقد كان التكتيك السياسى الفرنسى ماهرا فى التلويح بمبدأ الحرية والمساواة فى حظيرة الاخاء الفرنسى كلما دعا لذلك داعى الضغط القومى، حتى تحول مجرى الحركة التحريرية الى مجرى مطالبة للتساوى بين العناصر الساكنة فى البلاد. وسنرى كيف تلونت هذه السياسة وكيف تلونت الحركة الجزائرية بما يقتضيها .

ففى سنة ١٨٣٤ ضمت الجزائر لفرنسا بمرسوم من لويس فيليب ملك فرنسا اذ ذاك، ولكن هذا الانضمام لم يكن له اثر مفعول؛ اذ كانت الحرب الفرنسية الجزائرية على أشدها. وفى سنة ١٨٤٦ قررت فرنسا اعتبار الجزائريين فرنسيين واعتبار الجزائر بلادا مفتوحة، وهذا القرار هو الذى علم الحد الفاصل بين استقلال الشخصية الجزائرية وبين الحكم الفرنسى المباشر، وهو الذى قضى على كل اساليب المجاملة فى العلاقات، ولذلك يسميه الاهالى الجزائريون بتاريخ ابتداء حكم السيف، واستمر حكم الارهاق هذا حتى جاء الامبراطور نابليون الثالث فأصدر فى سنة ١٨٦٥ مرسومه المشهور (سيناتوس كونسيت) الذى أعلن فيه مساواة الجزائريين للفرنسيين فى الحقوق والواجبات مع السماح لهم بالرجوع فى أحوالهم الشخصية الى أحكام الشريعة الاسلامية، وقد زار الامبراطور بلاد الجزائر حيث ألقى خطبته الشهيرة التى استهلها

بقوله: «إننى أعد نفسى امبراطور العرب كما أننى امبراطور الفرنسيين، وكلهم فى نظرى متساوون » .

وإذا كانت سياسة نابليون ترمى الى مدى بعيد فان المستعمرين الفرنسيين الذين كانوا قد رحلوا الى الجزائر ثاروا على هذه التسوية المزعومة، وقاوموا بكل ما لهم من جهد سياسة نابليون مبرهنين بذلك على ما استمروا عليه من تقديم مصلحتهم الخاصة والمستعجلة على مصلحة فرنسا نفسها .

واذا كانت هذه المحاولة الامبراطورية لم تستطع أن تتغلب على مقاومة المستعمرين لكل ما من شأنه ان يحسن حالة الشعب الجزائرى او يمتعه ببعض حقوقه فانها قد استطاعت ان تجعل من مشروع نابليون مثالا عاليا تلوح به فرنسا للعرب، وسببا طالما حول وجهة المقاومة العربية عن المطالبة الصريحة بالاستقلال الى المطالبة بالمساواة ظنا منها أن الوصول الى هذه الغاية أسهل بكثير من الوصول الى الحرية القومية الكاملة، واعتقادا منهم بأن الاستقلال الذى عجزوا عن بلوغه بطريق الحرب لا يمكنهم ان يبلغوه الا بطريق التدرج فى المطالبة.

وما سقطت الامبراطورية سنة ١٨٧١ وأعلنت حكومة الجمهورية الثالثة حتى تقدم غامبيتان رب الجمهوريين والههم المعبود بعملين خطيرين جدد بهما استعباد الشعب الجزائرى، ذلك الاستعباد الذى لا يزال الجزائريون يرزحون فيه الى الآن : الاول قانون كريمو (وزير العدل اليهودى فى حكومة غامبيتان) وهو القانون الذى منحت فرنسا بموجبه يهود الجزائر صفة المواطن الفرنسى لتكثير سواد الفرنسيين فى هذه البلاد. والثانى اصدار عدة مراسيم استثنائية ضدا على المسلمين الجزائريين أبعدهم بمقتضاها عن دائرة الحق العام، وجعلهم تحت التصرف المطلق لحاكم الجزائر العام وادارته، وبموجب ذلك اصبح للادارة الحق فى اعتقال كل جزائرى يشك فى ولائه للسيادة الفرنسية ، وكذلك طرده من البلاد وحجز امواله ومصادرة املاكه. وقد اوغل غامبيتان فى هذا الاستثناء فمنع حكومة باريس والبرلمان الفرنسى من حق التدخل فى أعمال الولاية العامة الراجعة لاضطهاد الاهالى من أجل توطيد دعائم الحكم الفرنسى فى الجزائر .

رد الفعل :

ولكن الشعب الجزائرى لم يقف ازاء هذا التصرف الجائر مكتوف الايدى بل اندفع يعلن غضبه المطلق على السلطة الفرنسية وتدخلها فى

الشؤون الدينية للمسلمين واتخاذها سياسة التفرقة المبنية على الميز العنصرى والاضطهاد الدينى، فاندلعت ثورة كبيرة شملت كل بلاد زواوة ومقاطعة قسنطينة وعمالة الجزائر، وكان يتزعمها الباشا أغا الحاج محمد المقرانى والشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية الدرقاوية.

استمرت هذه الثورة الخطيرة ستة اشهر كاملة كلفت المسلمين ما لا يقل عن ستين الف شهيد، وكلفت الفرنسيين عشرين الف قتيل، ولم تخمد الا عند ما اسرع بسمارك باطلاق سراح الجيش الفرنسى الذى كان معتقلا فى المانيا (بعد حرب السبعين)، فقام هذا الجيش بالتنكيل بالثائرين، وقد استشهد الحاج محمد المقرانى يوم ٥ مايو سنة ١٨٧١ وخلفه من بعده عمه الشيخ أبو مزراق .

وليس من الممكن لنا ان نصور فى هذه العجالة مقدار الفظائع التى ارتكبها الجيش الفرنسى فى قمع هذه الثورة، ولكن يمكن لنا ان نحيل القارىء الى كتاب السيد اوجين رين الذى سماه (الاخوانية) فانه يجد فيه من صور الوحشية ما يثير الاحساس ويهيج النفوس .

وبعد ان استسلم الثوار حكم على ستة آلاف منهم بالاعدام ، وأقصى أبو مزراق والشيخ الحداد وابناه محمد وعزيز الى جزيرة كاليدونيا الجديدة فى المحيط الهادى، ومعهم خمسمائة من اعيان الثوار واستمروا فى هذا المنفى القصى حتى ماتوا جميعا. أما الجزائر نفسها فقد حكم عليها بغرامة قدرها ستة وثلاثون مليونا من فرنك ذلك الوقت ، ولما عجزت القبائل عن دفعها قرروا مصادرة املاكهم واجلاءهم عنها ، واحلال مهاجرى الالزاس واللورين اللذين اختاروا الحكم الفرنسى فيها .

وبرغم نجاح الفرنسيين فى اخماد هذه الثورة بوسائلهم الجهنمية، فقد كان لها اثرها البعيد فى نفوس الجزائريين عامة، وسرعان ما اعقبتها ثورة كبيرة فى عمالة وهران يتزعمها الباشا اغا سليمان بن حمزة قائد اولاد سيدى الشيخ، استمرت خمس سنوات كاملات بدون انقطاع . واستشهد اثناءها الباشا اغا المذكور بعد ما قتل بيده الجنرال بوبيريتى المعروف بجلاد زواوة.

وفى سنة ١٨٨٢ قامت ثورة قبائل المهرانية بزعامة الشيخ ابى عمامة المراكشى واستمرت الى سنة ١٨٨٥

والى جانب هذه الثورات المسلحة كانت حركة المطالبة السلمية تنتظم من حين لآخر وتتطور بحسب ما تقتضيه الظروف السياسية ، واول حركة من هذا النوع كانت سنة ١٨٧١ ـ حيث انتهز السيد محمد

البدوى أحد مثقفى مدينة الجزائر فرصة ثورة العموم التى قامت بباريس فنظم هيأة تطالب بمنح حقوق كاملة للجزائريين، ولكن عملهم لم يستمر الا بقدر ما استمرت ثورة العموم الباريسية .

وفى سنة ١٨٩٢ أحس الفرنسيون بمظاهر الاستياء العام فى الشعب الجزائرى، فحاولوا التمويه على ابناء البلاد ببعض الاصلاحات الجزئية والمشوهة، فأسسوا النيابات المالية على ان يكون ثلث اعضائها من الاهالى، والثلثان من الفرنسيين.

وفى سنة ١٩٠٤ أخذت مراكش تتحرك للدفاع عن نفسها ضدا على المؤامرة الفرنسية الانجليزية، فأثرت حركتها على عمالة وهران التى تجاور شرق المغرب الاقصى، وتكونت هنالك جماعة اطلق عليها البعض جماعة اللصوص الشرفاء أخذت على عاتقها اغتيال كل حاكم فرنسى او رئيس جزائرى متهم بموالاة الفرنسيين، واشهر هؤلاء الابطال أبو زيان القلعى (١).

وقد خمدت هذه الحركة لتنبعث فى شكل هجرة احتجاجية للاراضى العثمانية سنة ١٨٩٨ و ١٨٩٩، فقد هاجر عدد كبير من العائلات المحترمة الى المشرق وتركيا فرارا من الحكم الفرنسى، وطلبا لميدان يمكنهم فيه ان يتحينوا الفرص لطلب النجدة من الدولة العثمانية التى ظلت الجزائر تعلق عليها املا كبيرا .

وفى سنة ١٩١٠ بدأت الاقلام الجزائرية تتحرك للمطالبة بالمساواة؛ اذ تكون الرعيل الاول من المثقفين العصريين الذين درسوا بفرنسا ورجعوا الى بلادهم فأخذوا يبحثون عن وسائل لتحسين حالة أمتهم ومقاومة اليد الحديدية التى تضغط عليها. وقد كان على رأس هذه النخبة الاستاذ احمد ابو دربة أول محام جزائرى تخرج من كلية الحقوق بباريس (بعد مضى ٧٥ سنة على الحكم الفرنسى فى الجزائر)، والصحافى السيد صادق دندان، والنائب المالى الحاج عمار. أما برنامجها فقد كان المطالبة بالاصلاح على اساس قانون سنة ١٨٦٥، وأما غايتها فقد كانت العمل على تحقيق الجامعة الاسلامية، ووسيلتها ـ زيادة على الدعاية الداخلية ـ الاستعانة بالدولة العثمانية، ووضع الآمال الكبيرة فى رجالها. ويجب ان لا ننسى لهذه الفئة المجاهدة الحملات العنيفة التى قام بها السيد صادق دندان لتأييد الاستقلال المراكشى والتشنيع على غزو فرنسا لمراكش .

---

(١) قلعية قبيلة من قبائل الريف المراكشى .

ثم اعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فجند الفرنسيون أبناء المغرب العربى وخصوصا الجزائريين، فأخذ هؤلاء يفرون من الجندية ويلتجىء الكثيرون منهم الى شواهق الجبال حتى بلغ عدد اللاجئين مائة وعشرين ألفا، ونشأ عن ذلك اضطراب كبير أدى الى مظاهرات عدائية قتل فيها عدد من الموظفين والمعمرين الفرنسيين من بينهم العامل كاسى لونى والمدبر الرئيس مارساى . وقارنت ذلك حركات منظمات فى المدن تنادى بالتحرر وتطالب بالجلاء، وفرت فرق من المجندين الاهالى الى صفوف الدولة العثمانية من أهمها فرقة اليوطنا الحاج محمد بوكابويا، فأخذت حكومة باريس تشعر بالخطر الذى يهددها من الجزائر، والتجأت الى سياستها التقليدية التى هى الوعود الخلابة والتلويح الكذوب . وهكذا بعث المسيو بريان رئيس الوزارة الفرنسية للمسيو كليمنصو الذى كان فى ذلك الوقت رئيس لجنة الخارجية فى مجلس الشيوخ وللمسيو ليق الذى كان رئيس الشئون الخارجية فى مجلس النواب كتابا يعترف فيه رئيس الحكومة بأنه قد حان الوقت الذى يفسح فيه المجال للجزائريين كى يتمتعوا بسائر الحقوق المدنية .

وما انتهت الحرب سنة ١٩١٨ حتى تشكل وفد من الضباط الجزائريين يترأسه الامير خالد وتقدم الى الرئيس ولسون وهو فى فرنسا يطالبه بتطبيق المبادىء الولسونية على الامة الجزائرية .

ولم يكن هذا الوفد الا محاولة أولى لتكوين حركة سياسية واسعة النطاق، فما أصدرت فرنسا سنة ١٩١٩ قانون ٤ فبراير الذى قررت بموجبه الغاء قانون (الانديجينا) وتوسيع الحقوق المعطاة للجزائريين فيما يخص انتخاب نوابهم فى المجالس البلدية والمالية حتى أحيل الامير خالد الذى كان ضابطا بالجيش الفرنسى على التقاعد، وعاد الى الجزائر حيث شكل هيئة سماها «كتلة المنتخبين (بالفتح) المسلمين الجزائريين»، وقد قامت هذه الكتلة تحت زعامة الامير بحركة قوية ترمى الى أمرين :

أولا ـ الحصول للجزائريين على كامل الحقوق .

ثانيا ـ اصلاح أحوالهم الاجتماعية .

ومن أهم المطالب التى دافعت عنها هذه الكتلة ايقاف الهجرة الاجنبية للبلاد الجزائرية على أساس أن الجزائر للجزائريين . وقد أسس الامير لنشر فكرته والنضال عنها جريدة «الاقدام» التى كان يصدرها باللغتين العربية والفرنسية .

والحقيقة أن هذه الحركة لم تكن الا رد فعل عنيف للارهاب الفرنسي، ولذلك كانت في طبيعتها عنيفة قوية . ولكن كان ينقصها التدقيق في برامجها والتبلور في مبادئها ، ومع ذلك فقد وصلت بأسلوبها الشديد الى زعزعة النفوذ الفرنسي من نفوس الاهالى اللذين كان الرعب يملأ قلوبهم، وسمحت للاحساس القومي المكبوت أن يتفجر محتقرا جبروت المستعمر وطغيان الحاكم .

وقد تآمر المستعمرون وعدد كبير من الخونة على الامير، فطلبوا اخراجه من بلاده، ولما كان الغاء قانون الانديجينا يحول بين الادارة وبين اقصاء الامير بغير حكم شرعي فقد طالب المستعمرون باعادة قانون الانديجينا الملغى. ولم ينتظر الوالى العام المسيو ستيغ رجوع هذا القانون ، بل طبقه على الامير بصورة رجعية ، وقرر ابعاده عن الجزائر ، فالتجأ الى مدينة الاسكندرية .

ولما سقطت وزارة بوانكاريه سنة ١٩٢٤ وانتصرت كتلة اليسار بزعامة بلوم وهيريو سمح للامير خالد بالعودة لفرنسا حيث أسس لجنة من أبناء الشمال الافريقي ضمت عددا من العاملين، من بينهم السيد مصالى الحاج (رئيس حزب الشعب الجزائرى اليوم) وعبد القادر بن الحاج على وعبد العزيز المنور والسيد على الحمامى من مراكش ثم عاد الى الاسكندرية ، وقد اشتد القتال بين الفرنسيين وبين بطل الريف الزعيم عبد الكريم في مراكش . فاتهم الفرنسيون الامير خالدا سنة ١٩٢٥ بالتآمر على فرنسا وهجم البوليس الانجليزى على منزله، وقد اعتبر هذا العمل مهينا له فطلب القنصل الفرنسي للبراز، وعد السفير جايار بدوره عمل الامير اهانة لفرنسا فطالب باسمها حكومة مصر باخراجه من بلادها ، فأخرج مكبولا بالحديد الى سوريا حيث بقى الى أن مات في سنة ١٩٣٦ .

وأما الدعوة التي نشرها الامير خالد أثناء اقامته بفرنسا بين الجالية المراكشية والجزائرية فلم تضع بذهابه، بل استمرت في نشاط لا يمكن لمؤرخ الحركة في الشمال الافريقي أن يتناساها سواء فيما يرجع الى الجزائر او مراكش ومن أهم مظاهر هذا النشاط المؤتمر المغربي الذى انعقد لمعالجة شؤون الشمال الافريقي السياسية والاقتصادية والنقابية في اواخر سنة ١٩٢٤، وكان في جملة مطالبه حرية الصحافة والقول، والتجول للدعاية من اجل القضية المغربية ، والغاء قانون الانديجينا.. الخ. وقد ختم اعماله ببعث برقية للشعب

المراكشى فى شمال المغرب الاقصى وزعيمه عبد الكريم، واخرى للشعب المصرى والتونسى. ومن المفيد اثبات نص البرقية الاولى :

«ان العمال المغاربة لمعامل الناحية الباريسية المجتمعين بمؤتمرهم الاول فى هذا اليوم التاريخى ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ يهنئون اخوانهم المراكشيين وزعيمهم البطل عبد الكريم بانتصارهم على الاستعمار الاسبانى، ويصرحون بتضامنهم معهم فى كل ما من شأنه ان يحرر بلادهم، ويشاركونهم فى الهتاف باستقلال الشعوب المضطهدة وسقوط الاستعمار العالمى والأستعمار الفرنسى»

ان هذه البرقية وحدها دليل على الروح التى كانت تملأ المواطنين منذ ذلك العهد، والتى كان الاستعمار يكبتها فى الداخل، ولكنها تجا من النظام الديموقراطى فى فرنسا وسيلة للتعبير عن نفسها. أليست هذه التحية النبيلة منطوية على كل برنامجنا القومى الذى نناضل عنه اليوم : الاستقلال التام، والتضامن مع الشعوب العربية كلها، والعمل على تحرير الشعوب المستعبدة فى كل مكان ! ؟

لقد استمرت حركة اخواننا فى باريس، واكتست عدة الوان يهمنا منها فى موضوعنا هذا اللون الجميل الذى سيخرج بحركة المقاومة الجزائرية من طورها العقيم المتردد الى طور مليء بالجدة والعزيمة . فهذا اللون هو تأسيس «جمعية نجم شمال افريقيا» التى كانت فى بدئها الاول عبارة عن هيئة اغاثة للمغاربة، ثم اصبحت فى مارس سنة ١٩٢٦ جمعية سياسية تعمل للدفاع عن كيان المغرب العربى وتطالب بحقوقه، وأسست لها جريدة باللغة الفرنسية تحمل اسم (الامة) .

وقد بذلت هذه الجمعية مجهودا كبيرا فى تنظيم العمال المغاربة بفرنسا وتربيتهم تربية سياسية واجتماعية على غرار الاحزاب السياسية الفرنسية، ومن الحق ان ننوه بما قام به رئيسها السيد مصالى الحاج الذى ظل هو واخوانه العمال المراكشيون والجزائريون مثال الكفاح المتجرد والتضحية النادرة . وبما ان هذه الجمعية قد ضاعفت نشاطها وطالبت بالتحرر الكامل للشمال الافريقى فى لهجة عظيمة لم يعهدها الاستعمار الفرنسى من قبل ذلك فقد رأت فيها حكومة فرنسا خطرا قويا لا يمكن استمراره. فقاومتها بأمرين : أولا نشر دعاية قوية ضدا عليها فى الجزائر وتونس بدعوى انها فرع من الحزب الشيوعى، وبكونها متطرفة فى مطالبها ولا تريد العمل الا لصالح موسكو والشيوعية الدولية، وقد اغتر بهذه الدعاية نواب الجزائر وانصارهم. وثانيا : قدم وكيل الجمهورية

بمحكمة السين دعوى على «نجم شمال افريقيا» فأصدرت المحكمة حكما بحلها فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٩ لأسباب لم تعين، ولكن هذا الحكم لم ينفذ قط بصفة رسمية؛ الامر الذى سمح لرجال الجمعية ان يستأنفوا نشاطهم فيها بعد ان مضت ستة اشهر من صدور الحكم وعدم تنفيذه طبقا للمادة ١٥٠ من قانون المسطرة المدنية

نعم : ان نجم الشمال الافريقى سار بعد ذلك ببطء اقتضته ظروف الضغط الذى وجد فيها، وعدم فهم الكثيرين ممن بيدهم مقاليد الرأى العام فى داخل الجزائر. وفى سنة ١٩٣٣ نفيت الى فرنسا ووقع بينى وبين الزعيم مصالى اتصال مباشر ادى الى تفاهم كبير بين هذه المؤسسة المغربية وبين «كتلة العمل الوطنى» المراكشية التى كنت من رجالها . واشتركنا فى عدة مؤتمرات كانت ترمى لتنوير الرأى العام فى فرنسا كما أن اجتماع مؤتمر «طلبة شمال افريقيا المسلمين» بفرنسا أتاح لى الفرصة أن أدافع عن مبدأ الاستقلال الجزائرى ضدا على الذين يدعون للتجنيس. وقد وقعت بينى وبين تونسيين هما عبد الرحمن يس والسيد اليعلاوى محاورة شديدة فى احدى جلسات المؤتمر فكنت ادافع عن رفض قبول المتجنسين الجزائريين فى مؤسساتنا المغربية فى فرنسا، وكان السيدان المذكوران يعارضان رأيى. أما السيد مصالى واخوانه فقد كانوا كلهم يؤيدون الوجهة التى ادافع عنها وقد انتهى الامر بانتصارها واتخذ التونسيون والجزائريون والمراكشيون الموجودون فى فرنسا بمناسبة ذلك المؤتمر قرارا حاسما بضرورة احتفاظ سائر اقطار الشمال الافريقى بشخصيتها العربية الخاصة .

وفى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٣ انعقد اجتماع عام لجمعية نجم شمال افريقيا فاتخذت البرنامج الآتى :

١ ـ الاصلاحات المستعجلة :

(أ) حرية الصحافة والاجتماع والجمعيات.

(ب) تعويض المجالس المالية فى الجزائر ببرلمان قومى جزائرى منتخب بتصويت عام.

(ج) احلال الجزائريين فى سائر وظائف الدولة بالجزائر.

(د) التعليم الاجبارى باللغة العربية.

(هـ) تطبيق الحقوق الاجتماعية والنقابية على العمال المغاربة

٢ ـ جلاء جيوش الاحتلال وتأسيس جيش قومى

٣ ـ الاستقلال الكامل للجزائر واعتبار جميع التراث الاقتصادى ملكا للدولة الجزائرية، ونزع الملكية لجميع المستعمرين الغاصبين وأبنائهم وارجاع الاراضى المغتصبة لملاكها الاصليين .

وفى مـارس سنة ١٩٣٤ تابعـت محكمة السين الفرنسية السادة مصالى الحاج وايماش عمار والرضا ابو القاسم بدعوى انهم اعادوا تركيب جمعية صدر حكم سابق بحلها. وقد خرج المتهمون منتصرين لان الحكم السابق لم يطبق فى ظرفه القانونى، وهكذا استمر نجم الشمال الافريقى موجودا بصفة رسمية بفضل ثبات رجاله ونشاطهم المتواصل حتى سنة ١٩٣٦ حيـث دخلـت المؤسسة المغربية فى صراع عنيف مع الحزب الشيوعى الفرنسى ادى الى تظافر احزاب الجبهة الشعبية الفرنسية عليها وانتهى الامر بأن أصدر المسيو بلوم قرارا مؤرخا بالسادس والعشرين من مارس سنة ١٩٣٧ بحل «جمعية نجم شمال افريقيا» مطبقا عليها القانون الفرنسى المتعلق بالعصب .

ومـن جهة اخرى فقد نبغ فى الجزائر عالم دينى مغربى كبير هو الشيخ عبد الحميد ابـن باديس المنحـدر من سلالة عريقة فى المجد هى عائلة الزيريين الذيـن أسسوا امارتى بجايـة وقلعة بنى حماد . وكانوا السبب فى قطع صلة المغرب بدولة الفاطميين .

تخرج هذا العالم من جامع الزيتونة بتونس، وبعد أن أتم دراسته وعاد الى وطنه قام بحركة سلفية خطيـرة اسس لها جريدة اسبوعية هى «الشهـاب» التى ظلت فى وقت الحرب الريفية منبرا عاما لرجال الاصلاح الدينى فى سائر المغرب وخاصة فى مراكش، حيث كنا نحن الآخريـن نقوم بحركة عظيمة لمقاومة الطرق التى كان الفرنسيون يستغلون بعض رجالها ضدا على الحرب التحريرية الريفية، وفى سنة ١٩٢٨ أسس الشيخ ابن باديس «جمعية العلمـاء المسلمين» فى الجزائر فانضم اليهم عدد من مثقفى القطر الشقيق، وكان لها أثر فعال فى تنوير الرأى العام الاسلامى بالجزائر ونشر الثقافة العربية فى سائر الاوساط زيادة على بعثها للوعى العربى فى نفوس ثلة كبيرة من انصارها العديدين .

واذا كانت هذه الجمعية ترمى بصفة رسمية الى غاية غير سياسية، وهى تطهير العقيـدة الاسلامية فى الجزائـر من الخرافات، واحياء اللغة العربية فى البلاد وتقويـة الشعور بالشخصية العربية فى الجزائر، فان هذه المبادىء نفسها تعتبر فى ارض ترزح تحت الاستعمار الفرنسى الذى يرمى رسميا للقضاء على الاسلام الصحيح واللغة العربية والشخصية القومية

فى مستعمرة الجزائر التى يجب ان تعد جزءا لا يتجزأ من الوطن الوالد ، وان لم يتمتع ابناؤها بما يتمتع به المواطن الفرنسى من الحقوق ـ هذه المبادىء نفسها تعتبر من صميم السياسة فى نظر المستعمرين ورجالهم، والدعوة الى تحقيقها تدخل الجمعية ـ أحبت أم كرهت ـ فى منازعات قوية ومشادات صميمة مع الحكام الفرنسيين من جهة، ومع رجال الطرق الذين كانت السلطة الفرنسية لا تتأخر عن استغلالهم لصالحها من جهة اخرى .

على ان هذه الصبغة الدينية المحض التى اكتسبتها الجمعية جعلت فى سياستها كثيرا من الغموض احيانا؛ لان رجالها لم يكونوا ينضمون للحركة السياسية الا كأفراد مستقلين لا بصفتهم اعضاء فى جمعية العلماء ثم هى بصفة عامة لم تكن تتقيد بالتعاون مع حزب من الاحزاب بل كانت تعمل مع الكل، وتستغل الحركات القائمة لتنشر دعوتها وأفكارها فى أنصار كل هيئة وكل حزب. ولكن يمكننا أن نؤكد بأن العقيدة الحق التى يحملها الشيخ ابن باديس هى ضرورة استقلال الجزائر عن الحكم الفرنسى، وليس أدل على ذلك من هذه الفقرات التى نقتبسها من مقال نشرته مجلة «الشهاب» فى ابريل سنة ١٩٣٦ :

«اننا نرى أن الامة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الارض، وهى لا تزال حية ولم تزل، ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية اللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة كمثل سائر أمم الدنيا . وهذه الامة الجزائرية ليست هى فرنسا ولا تريد أن تصبح هى فرنسا ، ومن المستحيل أن تصبح هى فرنسا حتى ولو جنسوها» .

ومن المستحيل على المؤرخ أن يتجاهل الدور الكبير الذى لعبته وما زالت تلعبه هذه الجمعية المخلصة فى ميدان العمل القومى فى داخل الجزائر ، فقد كانت لها فروع ومدارس منبثة فى مختلف الجهات ، وصحف عديدة بالعربية والفرنسية ، ودعاة يتجولون لنشر السلفية والوطنية، ناهيك من بينهم ابن باديس والشيخ الابراهيمى والشيخ العمودى والمليلى والشاعر محمد العيد، وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم . وقد ظلت هذه الجمعية فى الداخل و «نجم الشمال الافريقى» فى فرنسا الهيئتين العاملتين وان اختلفت مناهجهما لخير الشعب الجزائرى منذ سنة ١٩٢٨ الى سنة ١٩٣٤ حيث حدث فى قسنطينة حادث كان له أثر كبير فى تطوير الحركة الجزائرية على الشكل الذى سنبينه .

فى مساء اليوم الثالث من شهر أغسطس سنة ١٩٣٤ عمد اليهودى المسمى خليفة اليالو من عساكر زواف والقسنطينى الاصل الى البول فى مرحاض أحد المساجد الاسلامية، وسب المسلمين جهارا، فأدى ذلك الى تبادل مشادة بين المسلمين والاسرائيليين تجرأ فيها الاخيرون على رمى الاولين بالرصاص. فاضطر المسلمون للدفاع عن أنفسهم بالحجارة وتم اليوم بتسجيل عديد من الموتى وعدة عشرات من جرحى الفريقين . ومن الغد أصبح عربيان مقتولين برصاص يهوديين ودفنا بهدوء ، وعقد المسلمون مهرجانا للاحتجاج على تحيز السلطة الى جانب اليهود فى المشادات ، وقد كاد يقف الامر عند هذا الحد لولا أن السلطات العسكرية أرسلت فرقا من الجند بدعوى حفظ الامن، وكان من بين أفرادها عديد من اليهود الذين سرعان ما تألبوا مع الاسرائيليين المدنيين الذين هبوا من أماكنهم لمواصلة الانتقام من المسلمين، وانتهى الامر بقتال عنيف بين الشعب والجند من جهة ، وبين المسلمين واليهود من جهة أخرى. وقد قتل فى هذا الحادث عدة مئات من الجزائريين وغيرهم.

وطبيعى ان نأخذ هذه الحوادث على انها نتائج للسياسة العنصرية التى اتبعتها الحكومة الفرنسية فى الجزائر منذ تشريع كريميو الذى أشرنا اليه من قبل؛ اذ لولا اعطاء اليهود الاهالى حقوق المواطن الفرنسى لما تجرأوا على مس المسلمين الذين أصبحوا فى نظرهم مجرد أهالى منحطين لا يستحقون من كل فرنسى أو متفرنس غير الاهانة والاحتقار، ولذلك فان أثر الحوادث كان عظيما فى بعث الشعور بالكرامة فى نفوس المسلمين الذين جددوا نشاطهم ولموا شعثهم وقاموا بمحاولات جديدة متنوعة للمطالبة بحقوقهم الطبيعية معلنين سخطهم على السياسة الفرنسية المبنية على التفرقة وضرب العناصر المتساكنة بعضها ببعض.

وقد تخوفت الحكومة الفرنسية ومستعمروها من تطور الحالة فى الجزائر حتى طلب النائب الفرنسى رئيس بلدية قسنطينة من حكومة باريس أن تعد خمسمائة طائرة حربية لتهدئة الجزائر، وقد صرح هذا النائب بما يأتى :

«يجب أن نحتل البلاد احتلالا عسكريا بجيش كاف وموثوق به، وللاحتياط من تكرر هذه الوقائع الخطيرة يجب أن نكون حماة أقوياء ذوى بوليس منظم ومنسجم، وأن يعطى الوالى العام الحق فى تجنيد جميع المواطنين الفرنسيين فى حالة الخطر» .

وهكذا أصبحت الجزائر فى حالة حرب مع فرنسا ، وقد كانت محاكمة الدكتور ابن جلول فرصة أخرى لتظاهر السلطة بقواتها العسكرية، وتظاهر الشعب برغبته فى الحرية والمساواة . ثم زار الجزائر وزير الداخلية مسيو رينيه بدعوى دراسة الاحوال ، وبعد ما عرف اتجاهات الاهالى التحريرية أصدر قراره المعروف بقرار رينيه القاضى بالعقاب الصارم لكل الذين يقاومون النفوذ الفرنسى، وقد طبق هذا القانون بعد ذلك على تونس ومراكش أيضا .

أسفرت حوادث قسنطينة عن حقيقة بينة، وهى أن المنتخبين الاهالى فى المجالس المحلية لا يملكون من النفوذ الشعبى شيئا، وظهر على المسرح السياسى الى جانب العلماء المسلمين أشخاص جدد هم الدكتور ابن جلول وعباس فرحات وقد بينا فيما سبق الاتجاهات الرسمية وغير الرسمية لجمعية العلماء ، أما الدكتور ابن جلول فقد كان كثير التقلب فى مبادئه ، وأما عباس فرحات فهو فى الحقيقة شخصية ممتازة بثقافتها وذكائها ، ولكنه فى الوقت نفسه كان من أنصار الاكتفاء بالمطالبة بالمساواة مع الفرنسيين فى الحقوق ، وقد سبق لى أن اجتمعت به فى باريس سنة ١٩٣٣ وناقشته فى فكرته ، والذى فهمته من حديثه أن المطالبة بالحقوق الفرنسية ليست الا مرحلة يجب أن تجتازها الجزائر، وأن استقلال الامة الجزائرية يجب أن يكون الغاية البعيدة التى نعمل لها .

ومعنى هذا أن هذه المرحلة من الحركة كانت ترمى الى الحصول على الحقوق الفرنسية لا لترتبط بفرنسا بل لتنفصل عنها، مثلها فى ذلك مثل ارلندة التى اعتبرت انجليزية، ثم توصلت بعد ذلك الى تحقيق حكومة ذاتية واستقلال نوعى .

ومهما يكن رأينا فى هذه الخطة فالواقع الذى لا شك فيه أن زعماء هذه المرحلة أعطوا للجزائر الحركة الاكثر تنظيما ، والدعاية الاعظم تأثيرا، وقد استطاعوا أن يؤلبوا من حولهم سائر أفراد الشعب الجزائرى وأن يمدوا يدهم لجمعية العلماء وجمعية «النجم الافريقى» على ما بينهم من تباين فى المبادىء ؛ لان الغاية كانت هى مقاومة السياسة العنصرية والقضاء على نفوذ المستعمرين من جهة، وعلى مبدأ التجنس الفرنسى من جهة أخرى . وهكذا انبعثت من جديد مسألة دخول المسلمين للبرلمان الفرنسى، واشتدت الدعاية لمشروع فيوليت الذى يرمى لاعطاء هذا الحق للجزائريين تدريجيا .

كتب عباس فرحات كتابه «الشاب الجزائرى» ليشرح أفكاره ومبادئه وكتب مسيو فيوليت كتابه عن الجزائر ليدافع عن مشروعه ، وليقول للفرنسيين اننا اذا لم نعجل بتحقيق ما ترمى اليه هذه الفئة الجزائرية فسنرمى بها فى أحضان دعاة الجامعة العربية، وخصوصا بعد الحركة الاستقلالية النشيطة فى مراكش، والحركة الدستورية المنتعشة فى تونس، وتوالت النشرات فى الصحف واستطاعت الدعاية أن تربح لفائدتها كل أحزاب اليسار فى فرنسا، خصوصا بعد حوادث ٦ فبراير التى شارك فيها العمال المغاربة فى باريس لمناصرة الديموقراطية ومقاومة الفاشيين الفرنسيين .

بعد انتصار الجبهة الشعبية الفرنسية

كان لتأسيس الجبهة الشعبية الفرنسية وانتصارها فى الانتخاب أثر عظيم فى نفوس المغاربة وخاصة الجزائر؛اذ اعتقد اخواننا أن هذه الاحزاب اليسارية التى طالما تبرأت من كل ما يرتكبه المستعمرون الرجعيون من ظلم وعدوان سوف لا تتأخر عن تحقيق رغائب الاهالى على الاقل فى دائرة المبادىء التى ادعت أنها تعمل لها وتجاهد فى سبيلها وتريد الحكم من أجلها .

«الخبز ، السلم ، الحرية» تلك هى المبادىء الاساسية التى بنيت عليها حكومة الجبهة الشعبية، وتلك هى الاقساط الضرورية لتحقيق العدالة الشعبية لكل شعب وكل فرد . لذلك لا غرابة اذا رأينا أن قسما كبيرا من الجزائر يضع أمله العظيم فى هذه الحكومة الجديدة التى ليست الا مظهرا لارادة الطبقة المستضعفة من الشعب الفرنسى نفسه. وقسما آخرا ينتهز الفرصة ليطالب للشعب ببعض حقوقه وان لم تتبدل نظرته للمستعمر بتبدل حكومته . وهكذا ما بزغ نجم الحكومة الجديدة حتى انعقد فى الجزائر يوم ٧ يونية سنة ١٩٣٧ مؤتمر اسلامى جزائرى تحت رئاسة الدكتور ابن جلول ومشاركة سائر النزعات السياسية والاهلية، ومن بينها جمعية العلماء المسلمين مع استثناء رجال نجم الشمال الافريقى. وقد قرر هذا المؤتمر المطالبة بالنقط الآتية :

١ ـ انتخاب المسلمين الجزائريين فى البرلمان فى غرفة انتخابية متحدة مع الاحتفاظ للناخبين بحالتهم المدنية .

٢ ـ نسخ قانون الانديجينا، واصلاح قانون الغابات، والغاء قانون ٤ أغسطس سنة ١٩٢٦ المنقح بقرار ٤ ابريل سنة ١٩٢٨ المتعلق بتنقلات الاهالى الجزائريين فى فرنسا، والغاء قرار رينيه الراجع لمقاومة الذين يمسون بالسيادة الفرنسية فى الجزائر .

٣ ـ الغاء الادارة العامة للشئون الاهلية وأقاليم الجنوب .

٤ ـ الاعتراف باللغة العربية كلغة قومية فى الجزائر .

٥ ـ القيام بتطهير عام فى الادارات الجزائرية .

هذه هى المطالب المتواضعة التى قررها المؤتمرون وهى فى ذاتها قليلة الاهمية بالنسبة لصورة المؤتمر والجو الذى أحدثه فى البلاد الجزائرية كلها. ولقد أراد أصحابه أن ينظموه على غرار المؤتمر الهندى فيصبح حزبا يعبر عن أمانى الامة الجزائرية ويضم مختلف هيئآتها. ولكنهم اختصروا فيه آمال هذه الامة ولم يعبروا الا عن جزئيات مما يشغل بال الشعب الجزائرى الذى يريد حرية حقيقية ونهوضا جديا.

عين المؤتمر وفدا من أعضائه يحمل للحكومة الفرنسية مطالبه، وقد سافر هذا الوفد بعد ما ودعته الامة كلها بمظاهرات عظيمة كانت تهتف بالاستقلال والتحرر وسقوط الظلم والعدوان . وفى يوم ٢٣ يوليه من السنة استقبله رئيس الحكومة مسيو ليون بلوم الذى صرح لاعضائه بسروره من استقبال فرنسى لفرنسيين وديموقراطى لديموقراطيين ويهودى لمسلمين . ثم أخبرهم بأن الحكومة تستعد لتحقيق عدة اصلاحات فى الجزائر ، وأنها ستدرس مطالب الجزائريين بكل ما يقتضيه العدل والاخاء .

كان لهذا الاستقبال صداه الحسن فى نفوس الجزائريين ، وتكون بين أنصار المؤتمر وأنصار الجبهة الشعبية من الفرنسين شبه تحالف للمطالبة بحقوق المستضعفين ومقاومة كبار المستعمرين فى الجزائر الذين لا يرغبون الا فى مصالحهم الخاصة . وهكذا توالت المظاهرات المشتركة التى تهتف للخبز والسلم والحرية . ومن أهم هذه المظاهرات الاستعراض الشعبى الكبير الذى وقع يوم ١٤ يونيه وشاركت فيه المرأة الجزائرية المسلمة حيث مرت فى موكب خاص وهى تحيى بالتحية الديموقراطية . ولكن هذا التظاهر السلمى لم يدم الا بضعة أيام ، حتى بدأت الحركة الشعبية التى تطالب بتحقيق الوعود المعطاة ، فتضاعف اضراب العمال المسلمين فى المصانع والمعامل التى يملكها أفراد وشركات الاستعمار الفرنسى، وانتشرت دعوة الاضراب حتى فى اوساط العمال الفلاحين الذين أخذوا يثورون على نير المعمر، ويطالبون بالارض وبالمساواة فى الحياة، وقد احتل المضربون الطرق واخلوا العزب، ومن الايام الشهيرة : يوم ١١ يونيه فى سيدى موسى ، و ١٣ فى بئر توتا، و ١٥ فى حسين داى، وروفى جو، وقوة الماء، وبئر خادم، و ١٦ فى ستولى وبوجى، وتطورت الحالة فى بعض الجهات الى مظاهرات عنيفة، ففى يوم ١٤ يونيه تجمع جمهور كبير فى سيدى بالعباس، ووقعت مشادة بين المسلمين والمستعمرين أسفرت عن ٤٠ جريحا، وكذلك فى

وهران وتلمسان ومستغانم حيث قتل بعض المستعمرين وجرح بعض المتظاهرين ومات بعضهم. ويظهر ان شهر يوليه كان اكثر من يونيه اضطرابا، اذ وصل عدد المضربين فيه الى ٤٠ ألفا حسب الايضاح الذى أعطاه مسيو أوبو فى مجلس الشيوخ الفرنسى، ولم يخف شأن الاضرابات الا فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ . وفى ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٧ وقع صراع عنيف فى سيدى بالعباس، ثم فى فاتح مارس الموالى اجتمع فى قرية مرسى لا كونت (عمالة وهران) مئات من العمال الفلاحين وقرروا الاضراب والتظاهر. وفى الغد توجهوا الى السوق العظيم الواقع فى طريق معسكر ليمنعوه من الانعقاد، (وهذا ما يسمى فى العرف القبلى فى المغرب بكسر السوق، وهو رمز اعلان الثورة فى القبيلة) . فحاصروا الطرق المؤدية اليه، ولما عجز العامل عن ردهم استدعى القوات المسلحة فانضم الى العمال اكثر من ١٠ آلاف شخص من القرى المجاورة للسوق، وما وصلت فرقة اللفيف الاجنبى الاولى حتى هاجمها المتظاهرون بالحجارة، ووقعت معركة عنيفة بين الجانبين.

وفى يوم ٩ من الشهر نفسه أضرب عمال المعامل ومناجم النحاس فى نواحى قسنطينة، ولما أبى العملة الاوربيون التضامن معهم جرت بين الفريقين مشادة تدخل فيها الجيش وسقط فيها عديد من القتلى.

* * *

لقد تعمدنا سرد امثلة من الحوادث التى جرت فى الجو الذى كونه انعقاد المؤتمر الاسلامى الجزائرى فهل كان هذا الجمهور المتحمس المندفع يؤيد رجال المؤتمر فى مبادئهم التى لا تصرح بالاستقلال ولا تطالب به؟ الحقيقة ان هتافات المتظاهرين ومطالبهم كانت ابعد بكثير من طلبات الدكتور ابن جلول وشيعته. وأن المؤتمر لم يفعل الا أن أزال الحاجز الذى كان يمنع الجمهور من اعلان صوته والابانة عن رغائبه. واذا كانت ظروف الجبهة الشعبية او الحكومة اليسارية فى فرنسا قد وجهت الحركة توجيها نحو التطاحن بين الطبقات، فيجب ان لا نخطىء، فالطبقة فى الجزائر ليست الا صورة من صور الفوارق التى كونها الاستعمار، وليست البروليتاريا الجزائرية الا الامة بأسرها تثور ضدا على المستعمرين بقطع النظر عن كونهم أغنياء او فقراء، رأسماليين او اصحاب مهن، ومهما يكن فان الصراع المغربى لم يشمل ايامـا مثل هذه التى سمح له الجو فيها ليعلن كرهه للمستعمر ورغبته فى التحرر من عبوديته، وطموحه لاسترجاع كل الحقوق التى اغتصبت منه سواء كانت مادية او معنوية .

يقول المثل القديم : ان الحقيقة يخدمها اصدقاؤها واعداؤها على السواء، وكذلك الاستقلال الجزائرى خدمه اصدقاؤه الذين يطالبون به علنا، وخدمه كذلك خصومه المستعمرون ومن اليهم من اليائسين والجامدين الاهالى، وكذلك وقع، فانه ما اخذ المؤتمر الجزائرى ينعقد، وما اخذت دعوته تنتشر فى الاوساط الفرنسية والاهلية حتى هبت طوائف المستعمرين تبذل الجهود المختلفة للقضاء على المؤتمر وعلى مطالبه التى عرضها بباريس. اما الوسائل التى استعملت فيهمنا ما يتعلق منها بموضوعنا، وهو احتضان المستعمرين وادارة الشئون الاهلية فى الجزائر للفكرة الصحيحة، وهى ان واجب فرنسا ان تحتفظ للجزائريين بشخصيتهم الاهلية، وأن لا تدمجهم فى فرنسا، أو تجنسهم بجنسيتها؛ لان ذلك يتنافى مع الوعود المعطاة. ولقد استعملت الادارة لهذا الغرض بعض رجال الدين فى البلاد ممن عرفوا بموالاتهم للسلطة الفرنسية ومعاداتهم لجمعية العلماء وأفكارها السلفية. وقد كان فى مقدمة المتزعمين لمعارضة المؤتمر مفتى الجزائر ابن دالى كحول الذى كان معروفا باخلاصه للولاية العامة وادارتها السياسية، فانتهز بعض المتطرفين حماسة الجمهور فى استقبال وفد المؤتمر بعد رجوعه من باريس، وطعن المفتى طعنة كانت القاضية عليه. وقد كان لقتله صدى كبير فى الاوساط الفرنسية التى أقامت حول اسمه دعاية قوية ادت الى اجتماع مؤتمر ثان من رجال الطرق تحت رعاية المسيو ميو مدير الشؤون الاهلية اذ ذاك، قرر مطالبة فرنسا بحفظ الشخصية الاسلامية فى الجزائر، وقال ان المؤتمر الاول لا يعبر عن امانى الامة الجزائرية .

واذا لم يكن لمؤتمر هؤلاء الذين خانوا خيانتهم الاثر الشعبى الذى كان لرجال المؤتمر الاول فان فئة من الامة على كل حال أخذت تفكر فى حقيقة ما يراد منها. ولم يعد التيار الذى ساقه ابن جلول يجرف كل الذين يتعاونون معه، ثم سرعان ما تكون فى وسط المؤتمر الاول انشقاق أدى الى اخراج ابن جلول من رئاسة المؤتمر لان أفكاره وتوجيهاته وتصريحاته لم ترق الهيئة التنفيذية. وفى يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٣٧ عرض على مجلس النواب الفرنسى مشروع (بلوم فيوليت) القاضى باعطاء طوائف من الجزائريين الحق فى النيابة والانتخاب للبرلمان الفرنسى دون ان يضطروا لالغاء أحوالهم الشخصية الاسلامية. وقد عارض فرنسيو الجزائر المشروع بكل ما أوتوه من قوة، وعقد جميع رؤساء البلديات والعمالات الجزائرية الذين هم فرنسيون مؤتمرا ضموا فيه صوتهم لشيوخ الطرق المطالبين برفض المشروع لانه يؤدى للقضاء على السيادة الفرنسية فى الجزائر .

حزب الشعب الجزائرى :

كتب لى الامير شكيب ارسلان من جنيف فى اوائل سنة ١٩٣٦ رسالة يخبرنى فيها بالتجاء الزعيم مصالى الحاج الى جنيف، ويثنى على شهامته وغيرته وذكائه. وقد ظل مصالى هناك حتى قامت حكومة الجبهة الشعبية فشمله العفو العام فعاد الى بلاده وعاد الى هذا الجو المرتبك الذى تحدثنا عنه، وبعد أن أقفلت نهائيا جمعية نجم شمال افريقيا. ومن حسن حظ مصالى واخوته أنهم لم يشتركوا فى كلا المؤتمرين الذين ذكرناهما، فأمكنهم بذلك أن يستغلوا الحوادث ويعملوا بمقتضى الروح القومية الصحيحة، فأخذوا يدعون كأفراد لرفض مشروع فيوليت، ويبثون الروح القومية فى اجتماعات وتجولات خاصة، ثم أسسوا فى مارس سنة ١٩٣٧ منظمة جديدة سموها (حزب الشعب الجزائرى) .

لقد ولد هذا الحزب فى ظروف عصيبة، واستمد نظامه من حزبى الدستور التونسى والحزب الوطنى المراكشى، وورث خلايا وأنصار نجم الشمال الافريقى وكان لرئيسه اتصال كبير باخوانه فى مراكش وتونس وبعطوفة الامير شكيب ارسلان. وهذا ما ادى فعلا بالفرنسيين لمقابلة الحزب الوليد بكل ما فى استطاعتهم من استنكار وغضب. وفى ١٧ أغسطس من السنة نفسها اعتقل الزعيم مصالى وجماعة من اخوانه من بينهم الشاعر الاديب مفدى زكريا وحكم عليهم بالسجن سنتين بدعوى انهم عاودوا تأسيس جمعية النجم المنحلة باسم حزب الشعب، وأنهم يقاومون السيادة الفرنسية فى الجزائر ويعملون لصالح الوحدة العربية.

وفى سنة ١٩٣٨ رفضت الاغلبية من النواب الفرنسيين مشروع بلوم فيوليت فتأكد لمن لم يكن يعلم ان سياسة الادماج لم تكن الا اداة تستعملها الادارة الفرنسية كلما دعت اليها حاجة الظروف والاعتبارات لكسب الوقت ريثما يتسنى لها أن تضرب. وهكذا انفصل عباس فرحات أيضا عن هيئة المؤتمر، ولكن ليعلن ما وصلت اليه تجربته من ضرورة اعطاء الشعب الجزائرى كيانا ذاتيا يتمكن معه من أن يحكم نفسه بنفسه ما دام الحاكمون يأبون عليه حتى أقل مظاهر المساواة مع غيره من الجماعات الانسانية. ثم اطلق سراح مصالى فى أغسطس سنة ١٩٣٩ فوجد القادة الجزائريون أنفسهم جميعا متفقين بحكم الواقع على استنكار التلاعب الفرنسى، وعلى الرغبة فى العمل لتحرير الامة الجزائرية من هذه الاساليب الاستعمارية المملة. ولكن الوقت كان على مقربة من اجتماع

ميونيخ، والحرب على الابواب، والفرنسيون غير مستعدين لاكثر من العنف واستعمال القوة فى كل مكان. ولذلك ما حاول مصالى الحاج استئناف نشاطه حتى اعيد هو وثلة من المخلصين الى السجن فى ٤ اكتوبر سنة ١٩٣٩ اى بعد شهرين فقط من اطلاق سراحه، وبعد ما بقى فى السجن الاحتياطى ١٧ شهرا حكم عليه يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٤١ بالسجن ١٦ عاما مع الاشغال الشاقة، وبالنفى ٢٠ عاما، وبثلاثين مليونا من الفرنكات كغرامة .

حزب أصدقاء البيان :

وفى ٣ فبراير سنة ١٩٤٣ حدث ما لم يكن فى حسبان الفرنسيين ان يقع، فقد احتاط المحتلون بجميع الجهات، واعتقلوا قادة حزب الشعب الجزائرى كبارا وصغارا، واتخذت حكومة فيشى اساليب الدعوة القديمة للتجنيس، فاستدعت بعض النواب المسلمين وأكثرت الخطب والتصريحات ولكن ذلك كله لم يعق الشعب الجزائرى عن أن يبحث عن الحرية التى يريدها، وكانت الضربة هذه المرة من جانب لم تعتقد فرنسا أنه سيواجهها بغير النغمة الفرنسية؛ فقد تجمعت الامة الجزائرية كلها بما فيها من قدماء دعاة التجنيس، الى انصار حزب الشعب الكثيرين، ورجال جمعية العلماء وأسسوا هيئة جديدة تحمل اسم «أصدقاء البيان» يتزعمها الاستاذ عباس فرحات. وقد قرر هؤلاء المتكتلون قطع كل صلة مع الحركات التجنسية القديمة، والمطالبة بالشخصية الجزائرية المحضة، وتأسيس جمهورية جزائرية ذات برلمان جزائرى منتخب انتخابا حرا كاملا .

واذا كانت هذه الحركة معتدلة فى مطالبها بالنسبة لحزب الشعب فانها تعتبر انتصارا من الجزائريين على انفسهم لانها خروج من فكرة الاختلاط بالفرنسيين والتبعية المطلقة لدولتهم الى فكرة الذاتية الجزائرية، وقيامها فى ظروف عصيبة يعتبر اغاثة كاملة للحركة الوطنية فى الجزائر.

وللجواب على هذه المطالب القومية المحضة قررت وزارة الشؤون الاسلامية للجنة التحرير الفرنسية أن يعلن ديجول قبول فئات من المثقفين الجزائريين فى حظيرة العائلة الفرنسية، لكن الوقت قد فات والشعب الجزائرى وجد طريقه فلم تعد هذه النغمة البالية تطربه، ولا هذه الاساليب العتيقة تخدعه، فعوضا عن ان تهدأ الحالة خطبة ديجول بقسنطينة التى صرح فيها بهذا القرار لم تفعل الا ان أذكت الشعور وهاجت النفوس ، فأعيد مصالى الحاج للجزائر فى طيارة خاصة بقصد المفاوضة معه ،

ولكن الزعيم الجزائرى أبى أن يقنع بغير المبادىء التى اعتقل من اجلها. وهكذا أعيد مرة ثالثة لجنوب الجزائر منفيا محصورا، ثم دعى عباس فرحات وعبد القادر السايح للحضور فى اجتماعات فى الولاية العامة فامتنعا عن الحضور وارسلا للسجن أيضا .

وفى سنـــة ١٩٤٥ بعد ان استسلم المحور أطلق سراح فرحات ، ولكنه عاد للعمل ضمن حزب البيان، وقاد مظاهرات فى الجزائر وقسنطينة ووهران وسطيف شارك فيها انصار حزب الشعب غير المعتقلين، وحياها مصالى فقد نقل الى الكونغو حيث مر علي فى قرية مايامـا بمنفاى، وقد الشعب قواتهم بمـا فيها من دبابـات وطيارات، وقبض على عباس، أما مصالى فقد نقل الى الكونغو حيث مر على فى قرية مايامـا بمنفاى ، وقد حاولت مقابلته أثناء مـروره فمنعنـى الحرس الذين كانوا معه، وهددت السلطة طباخى الاسود من أجل أنه بلغه وجودى فى القرية وتحيتى له .

مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥

شارك المسلمون الجزائريون فى الدفاع عن الديموقراطية اثناء الحرب الاخيرة، ومات منهم عشرات الآلاف فى صفوف الحلفاء ، كما مات من اخوانهم التونسيين والمراكشيين وغيرهم من العرب عدد كبير ، وأبلوا جميعا بلاء حسنا فى صد الطغيان النازى والفاشى عن البلاد الاوربية ظانين أن ما يبذلونه من جهد فى سبيل التحرر لن يضيع، وان الانسانية لن تسف الى الدرجة التى بلغها المستعمرون فى القرن العشرين ، فتنكر جميل هؤلاء الشهداء ، ودمهم ما يزال طريا. وتنسى كل ما فعله العدو بأبنائها لتنتقم من الانسانية فى الشعب الجزائرى المسكين.

والحقيقة أن الذين يبتلون بمصائب فى هذه الحياة ثم ينجون منها قسمان : قسم يتذكر حالته الماضية فيشعر بما فيها من آلام واحزان ، ويتسع شعوره الى الاحساس بما يعانيه الغير من امثالها، وتتحرك غيرته، فيبذل من الجهد لتخليص المنكوبين مثل ما بذل لتخليص نفسه، ويجد فى ذلك العمل من اللذة والمثوبة ما تطمئن له نفسه ويرضى به ضميره ، وهؤلاء هم الشرفاء . ولا شك أن من بينهم أبناء العرب فى الجزائر وغيرها الذين تجاوز شعورهم بالاستعمار فى بلادهم الى التألم منه وهو فى ديار خصومهم، فضحوا لمقاومة الاحتلال الاجنبى عند غيرهم كما ضحوا ويضحون لمقاومته بين ظهرانيهم.

وأما القسم الثانى فلا يحس بعد نجاته من المصائب التى ابتلى بها الا برغبة ملحة فى زيادة الابتعاد عن ظروفها وصورها، وتصل به هذه الرغبة الى حب التظاهر بكل ما من شأنه أن يجعله يحس بوجدان غير وجدان الطبقة التى نكبته ؛ يريد أن يتقمص روح الذين نكلوا به، ووجدان الذين عذبوه، ونفسية الطغاة الذين احتقروه وأهانوه، ومن أجل ذلك ولكى يرضى حاجته ويظهر للناس انه من اولئك يرتكب مع غيره نفس الفظائع التى ارتكبت معه؛ يريد أن يحس أنه القاتل بعد أن أحس أنه المقتول ، والشاتم بعد ان شعر انه المشتوم، والمستعبد لغيره بعد ان أحس بأنه مستعبد لسواه . ولا يزال يمعن فى هذه الرغبة حتى يتفوق على

الظالمين الاولين ، ويأتى من الجرائم فى حق اخوانه البشر ما يرتقى به أعلى مراتب الاجرام ، ويهوى به فى أحط درجات التسفل ، ولا شك أن المستعمرين الفرنسين فى الجزائر من بين هذا القسم الثانى .

وليس هناك تفسير نفسى غير هذا الذى قلناه يمكننا من فهم الاسباب التى دعت مستعمرى الجزائر لاقامة هذه المذبحة الخطيرة يوم ٨ مايو وما بعدها .

ان يوم ٨ مايو هو اليوم الذى احتفلت فيه الامم الديموقراطية كلها بعيد النصر بعد عراك خمسة أعوام تكبدت فيه الانسانية من الخسائر فى المال والانفس والضمائر ما لم يسبق أن جرى مثله فى العالم منذ بدء الخليقة الى اليوم. ولقد ظن اخواننا الجزائريون أنهم – وقد شاركوا فى هذه التضحيات بأرواحهم وكل ما يملكون – لهم الحق فى ان يحتفلون كغيرهم من الحلفاء بعيد طالما منتهم به الايام؛ ذلك العيد الذى سيشعرون فيه لاول مرة أنهم يشاركون أبطال العالم كله فى فرح واحد وسرور متحد، كما شاركوهم فى اسالة الدموع والدماء . ولذلك فقد خرجوا يوم الاحتفال يطوفون الشوارع مع غيرهم من المتظاهرين ويحملون علم الجزائر الذى يمثل راية الامير عبد القادر مؤسس الاستقلال الجزائرى، ولكن كبر على المستعمرين الفرنسيين أن يتركوا هؤلاء الاهالى يتنفسون قليلا فى هذا اليوم، ويعلنون رجاءهم فى أن يتحقق أملهم فى بعث الدولة الجزائرية المستقلة، واحياء كيانها. فهاجموا الجزائريين العزل وأسقطوا العلم، ونشبت معارك عنيفة بين المسلمين والفرنسيين، ضرب فيها الاولون بالعصى والحجارة، وضرب فيها الآخرون بالحديد والنار؛ أى بالاسلحة التى هيأتها لهم الاعارة والتأجير الامريكية، وأسفرت المعارك الكبيرة عن سقوط أقل من مائة قتيل فرنسى وعشرات الآلاف من القتلى المسلمين .

ولم تكن هذه المعارك فى مكان واحد، بل كانت فى جهات متعددة، وأهمها سطيف، وأفظعها قالمة حيث اصطيد آلاف الشبان المسلمين ، وسيقوا افواجا الى المذبحة ، وقتلوا رميا بالرصاص .

ان من المستحيل أن تكون هذه المهاجمات التى قام بها المستعمرون فى الجزائر وليدة الصدفة، بل انها كانت مدبرة مبيتة سلح فيها الفرنسيون والفرنسيات وتضامنت فيها الاحزاب الفرنسية كلها لتقتل الشعب الجزائرى المنكوب الاعزل من كل سلاح، لا لشىء الا لانه يريد

أن يأخذ حقه من النصر، كما أخذ حقه من الحرب، ويفوز بقسط من حريته القومية، كما شارك فى تحرير غيره من الشعوب .

لقد حاول المستعمرون أن يبرروا هذه المهاجمة بدعوى أن مصالى زعيم حزب الشعب الجزائرى تجول لالقاء خطب مهيجة فى بعض الجهات، ولكن هل من الحق أن يقابل خطاب يلقيه زعيم فى جهة ما ـ مهما كان هذا الخطاب قاسيا وعدائيا ـ باغراق الشعب بأحدث انواع الاسلحة الجهنمية واصلائه نارا حامية يتلظى اوارها، وحربا طاغية لا قبل له بصدها ؟...

الواقع أنه كبر على الفرنسيين ما ظهر به الجزائريون من وعى قومى وطموح للحرية ورفض للتجنيس. لقد كانت الجنسية الفرنسية هى الاغنية التى يهدىء بها الفرنسيون أعصاب الاهالى كلما ثاروا واحتجوا، لانها ستجلب لهم الحرية والسعادة والهناءة الدائمة، ولكن الفرنسيون اصطدموا هذه المرة بالحقيقة الجزائرية، وهى أن الشعب الجزائرى لا يرضى بغير الحرية الكاملة والاستقلال التام، وأن المائة وعشرين عاما التى قضاها تحت حافر المستعمر لم تقتل فى نفسه شعوره بقوميته وملته وعروبته، بل زادته حنقا على الاستعمار، وتشبثا بأهداب حقه الضائع. وحنق المستعمرون فلم يستطيعوا هضم هذا الواقع وتريثوا مدة الحرب ـ وهم يستعدون ـ حتى اذا تم الظفر على المحور وعادوا بمنجاة من مخاوفهم انتفشوا كما تنتفش الهررة، وانطلقوا على المساكين ينتقمون منهم ويحذرونهم من الغلط ويثبتون لهم أن القوات الفرنسية ما تزال قاهرة، وأن فرنسا الخالدة لا تنفك بالمرصاد للذين يطالبون بالحرية أو ينادون بالاستقلال .

ومهما يكن فان هذه المسألة اثبتت للعالم فظاعة الاستعمار الفرنسى وأكدت للذين يجهلون : أن الامة الجزائرية لم تقبل ابدا حكم فرنسا لها ولقد زاد هذه الحقيقة وضوحا روح الشجاعة التى ظهر بها المعتقلون من مختلف الاحزاب الجزائرية، حيث أكدوا فى صراحة ووضوح ثباتهم على المبادىء واستعدادهم للبذل فى سبيل الوطن المنكوب . وقد احتج العالم المتمدين على هذه الفظائع وأشعرت الحكومتان الانجليزية والامريكية الحكومة الفرنسية باستنكارها لهذا العمل الشنيع، ولكن الامر لم يتجاوز هذا الاحتجاج وما زال الجزائريون يرزحون تحت ضروب العسف وانواع الارهاق الى اليوم بمرأى ومسمع من الامم المتحدة ودولها المتمدينة.

حلول معروضة

وبالرغم عن كل ما جرى ، وبالرغم عن كل ما يدعى ، فقد انتهت الحرب وهى تعلن حقيقة واضحة هى تقهقر موقف فرنسا فى الجزائر . وعبثا حاول الفرنسيون أن يوقفوا تيار المطالبة بالاستقلال الذى جرف كل نواحى القطر ، وأصبح العقيدة الخالدة التى يدين بها كل جزائرى من أى حزب كان. ولم يزد استدعاء بعض طبقات الشعب للانتخاب للنيابة فى البرلمان الفرنسى الا تعقيدا للمسألة ، وتصعيبا لحلها ، اذ أدرك رجل الشارع بصفة عملية أن هذه النيابات التى طالما وعد بها لا قيمة لها ما دامت فى مجلس غير وطنى ، مركزه فى عاصمة المحتل، ويستمد نفوذه من سيادة الشعب الفاتح وأمانيه .

وازاء هذه الحقيقة أخذت الحكومة الفرنسية وأحزابها يبحثون عن حق يوفق بين رغبتهم فى الاحتفاظ بالجزائر كجزء من فرنسا نفسها وتحقيق أمانى الشعب الجزائرى لاستقلاله، ولكن ليس فى متناول القدرة البشرية أن تجمع بين متناقضين أو توفق بين مختلفين . لان الاستقلال يعنى الانفصال أو على الاقل الارتباط بعقد تحالف يتساوى فيه المتعاقدان ، بينما اتمام الشخصية الفرنسية يقتضى انمحاء فى الغير ، أو على الاقل تبعية ضيقة المعنى كاملة المدلول . ولذلك فان كل الحلول التى عرضها الفرنسيون، لم تكن غير شكل جديد لمشروع (بلوم ـ فيوليت) الذى سبق أن أشرنا اليه .

ومن هذه الحلول ما عرضه الشيوعيون والاشتراكيون من اعتبار الجزائر وطنا قائما بنفسه ، له حكومته ومجلسه ، ولكن محتفظ فيه بالسيادة الكاملة المنفردة لفرنسا الوطن الوالد كما يقولون . أما أحزاب اليمين فلا زالت تغنى بنشيد وحدة الوطن الفرنسى الذى لا يقبل القسمة، ولذلك لم يسعها الا أن تصادق على المشروع الحكومى الذى عرضته على مجلس الامة الفرنسية بعد زيارة وزير الداخلية ديبروه للجزائر فى اوائل العام الماضى .

ويتخلص المشروع الحكومى فى أن يعطى للجزائر نظاما يقضى :

١ ـ بأن تعتبر مجموعة عمالات فرنسية تتمتع بشخصيتها المدنية وباستقلال نوعى مالى ، وتنظيم خاص .

٢ ـ السلطة التنفيذية فى يد الوالى العام .

٣ ـ للجزائر سلطتها التشريعية يمثلها مجلس حكومى يتكون من ستة أعضاء ، تعين ثلاثة منهم الولاية العامة ، يضاف اليهم رئيس ونائب رئيس ، ورئيس المالية . ومهمة هذا المجلس الحكومى مراقبة المجلس النيابى الجزائرى الذى قرر المشروع وضعه وتنظيم شكله .

٤ ـ ويتركب المجلس النيابى الجزائرى من مائة وعشرين عضوا، نصفهم للاهالى ونصفهم للفرنسيين ، ينتخبون انتخابا عاما لمدة ستة أعوام فى دورتين وبالاقتراع السرى . أما اختصاصات هذا المجلس فتنحصر فى المناقشة والمصادقة على ميزانية الجزائر التى تعرضها مصالح الولاية العامة . كما أن له حق الاقتراع فيما يرجع للضرائب والاداءات . وكل مناقشة خارج هذه الدائرة تعتبر منعدمة ولا قيمة لها. وليس للمجلس أثناء معارضته لعمل الحكومة حتى فى الشئون المالية ان يقترع ضدها بحال، كما أن مقرراته لا تعتبر نافذة الا بعد مصادقة الحكومة عليها بمرسوم اعتيادى.

وقد صادق مجلس النواب الفرنسى على هذا المشروع يوم ٢٧ أغسطس ١٩٤٧ بثلثمائة واثنين وعشرين صوتا مع تغيب سائر النواب المسلمين، وكل من الممثلين الشيوعيين وبعض أعضاء التجمع اليسارى. أما ممثلو الجالية الفرنسية بالجزائر فقد صوتوا لرفضه .

لكن هذا التصويت يعتبر عديم القيمة ؛ لان المسلمين الذين يهمهم الامر قد رفضوه، وتغيب ممثلوهم عن قبول الحضور لمناقشته . كما أن أعضاء مجلس الدولة المسلمين استعفوا احتجاجا على عرض مثل هذا المشروع على مجلس النواب وهو لا يحقق آمال الشعب الجزائرى ولا يتفق مع رغائبه .

ومقابل هذه المشروعات الفرنسية عرض حزب البيان الذى أصبح يسمى (بالاتحاد الديموقراطى لمسلمى الجزائر) حلا جديدا ظن واضعوه أنهم يستطيعون أن يوافقوا به بين وجهة النظر الفرنسية ووجهة النظر القومية فى الجزائر . وهذا الحل يتطلب اعطاء الجزائر استقلالا نوعيا بتكوين جمهورية جزائرية ، لها حكومتها وبرلمانها ، وارتباط هذه الجمهورية بالاتحاد الفرنسى ، وتضامنها مع فرنسا فى سياستها المتعلقة بالشئون الخارجية والمالية والعسكرية، على أن يكون هذا

الارتباط مؤقتا الى اليوم الذى تستطيع فيه الجزائر أن تنال استقلالها الكامل. وطبيعى أن لا ينال هذا المشروع الاهلى نصيبا من النجاح كبيرا لا فى الوسط الفرنسى ولا فى الوسط القومى فى الجزائر ؛ لانه يتعارض مع روح الامتلاك المسيطرة على السياسة الفرنسية الجزائرية، كما يتعارض مع الوطنية الجزائرية التى ترمى الى التحرير الكامل الناجز. ولذلك لم يصادق عليه حزب الشعب الجزائرى الذى ظل مخلصا للمطالبة بالذاتية الجزائرية بكل ما تدل عليه الكلمة وهو لا يمسك مع ذلك عن وضع مشروع لتكوين جمهورية جزائرية، لها دستورها الذى تضعه جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا عاما يشارك فيه مجموع الشعب الجزائرى دون تميز بين عناصره ودياناته . ويقترح لتنظيم علاقاته مع فرنسا عقد محالفة بين الطرفين على قدم المساواة تضمن مصالح المتعاقدين معا ، لكن دون أن تعترف بأى نوع من أنواع الاستعباد ، ومن بينها الانخراط فى سلك الاتحاد الفرنسى .

الحالة الحاضرة :

وضوح العقيدة التى أعلنها حزب الشعب الجزائرى بواسطة زعمائه ورجاله فى المشرق والمغرب ، واستمرار رئيسه السيد مصالى الحاج فى منفى أبى زريعة بالجزائر بعد أن أعيد من الكونغو ، ومهزلة مشروع الحكومة لما سمته بالنظام الجزائرى، وقبول حزب البيان للانخراط المؤقت فى الاتحاد الفرنسى ـ كل هذا هيأ للرأى العام الجزائرى وسيلة الحكم على الاشياء ، واتخاذ الخطة المثلى التى يتجه صوبها بعد أن وقف برهة يتريث فى اختيار الطرق المعروضة عليه . وقد جاءت الانتخابات البلدية الاخيرة فى القطر الجزائرى برمته دليلا قاطعا على أن الامة اختارت طريق التحرر الكامل والاستقلال التام. ولذلك فقد نال مرشح حزب انتصار الحريات الديموقراطية (الذى هو الاسم القانونى لحزب الشعب الجزائرى الممنوع) أكثر من ستين فى المائة فى سائر القطر، زيادة على تغيب فريق من الامة يفوق ثلث الناخبين احتجاجا على الاجحاف الواقع والضغط المستمر . كما أن حزب الاتحاد الديموقراطى الذى هو الاسم الجديد لحزب البيان فشل فى هذا الانتخاب من أجل قبوله سياسة الاتحاد الفرنسى، ومن أجل تحالفه مع بعض الهيئات الفرنسية فى الجزائر .

وهكذا أصبحت الحالة الحاضرة تؤكد أن الامة الجزائرمة مجمعة على غاية واحدة ، هى غاية الاستقلال ، ومتجهة اتجاها سياسيا واحدا هو اتجاه الوضوح فى عرض المطالب بالصراحة المطلقة فى الدفاع عن الحق .

ويبدو أن الحزبين الجزائريين آخذان فى الاقتراب من بعضهما ، فقد أعلن مسيرو حزب البيان رغبتهم فى العدول عن فكرة الاتحاد الفرنسى ، كما أن عباس فرحات زعيم هذا الحزب أدلى بتصريحات تدعو الى التفاؤل، وأعقبها بتغيير اسم جريدة حزبه «المساواة» الذى يدل على أنه لا يطلب أكثر من تسوية الاهالى الجزائريين بالفرنسيين فى الحقوق والواجبات فأصبحت اليوم تحمل اسم «الجمهورية الجزائرية» الذى يدل على اتجاه أوضح فى ناحية الحكم الذاتى .

وقد وجه مصالى الحاج زعيم حزب الشعب من منفاه ببوزريعة نداء حارا لاصحاب البيان يذكرهم فيه بضرورة الاتحاد والعمل على ازالة الفوارق التى لم تكن الا اثرا من آثار الاستعمار الاجنبى .

ويظهر أن جمعية العلماء المسلمين مقتنعة كامل الاقتناع بضرورة العمل على تقوية الروح الاستقلالية فى البلاد ، والتوسط لتوحيد الصفوف بين الحزبين الجزائريين على أساس ما اختارته الامة فى انتخاباتها الاخيرة . وقد صادق حزب الشعب على تأسيس لجنة التحرير فى القاهرة ، وعين له ممثلين دائمين بها . ولعلنا لا ننتظر طويلا حتى نرى حزب البيان منضما الى هذه اللجنة التى تعمل على تحرير سائر أقطار المغرب العربى باذن الله .

في تونس
أو
المغرب الادنى

لقد كـان احتـلال تونس ومراكش النتيجة المتوقعة لفتح الجزائر ، ولذلك ما انتهت الحـرب الجزائرية حتى أخذت فرنسا تدبر الوسائل التى توصلها لغايتهـا من فتح تونس اولا، ثم مراكش ثانيا كما سنرى . أما العلل التى تعللت بها فهى الدفاع عن المصالح الاقتصادية، وضرورة عدم وجود دولة قوية تناوئها فى شرق الجزائر وغربها .

واذا كانت المحاولة الفرنسية فى الجزائر لم تهم كثيرا الدول الكبرى فان طمـوح فرنسا لفتح تونس ومـراكش هاج كثيرا من الدول التى انبعثت فى نفسها مطامح تقسيم هاتين الامتيـن، وعدم تركهما لفرنسا وحدها. وهكذا تكونت مسابقـة ديبلوماسية بين هذه الـدول صعبت على تونس، كما صعبت بعد على مراكش الدفاع عن نفسهما اذ احدثت لهما ارتباكات مالية واضطرابات داخلية .

ونحـن لا يهمنـا أن نتعرض فـى بحثنـا هذا لمختلف المراحل الدبلوماسية التى اجتازتها القضية التونسية فذلك موضوع آخر يحتاج لدراسـة وتفصيـل. وانما الذى يهمنا أن نشير اليه هو ان توقيع عقد الحماية لم يتـم الا بعد أن استمرت تونس تدافع عن نفسها ضدا على محاولات فرنسا والدول الاخرى مدة خمسين سنة كاملة. وهذا يعنى أن تونس كمراكـش لم تقبل الحماية قط، وانها حاولت بكل ما تملكه من جهـد أن تحتفـظ باستقلالها وأن تعمل على توطيد أواصر الصداقة مع جيرانها. ولسنا نقول ان محاولتها هذه كانت كلها سائرة فى الخطة التى كان ينبغـى أن توجه فيها؛ فان حياة الشعوب فى أوقات مرضها تكون معرضة لمختلف الاعراض الخارجية، وتتجاذبها شتى النزعات والاهواء ولذلك لا محيد لنا عن الاعتراف بضعف السياسة الحكومية وخصوصا المالية التى سهلت على المستعمر أن يستفيد من الحال، ويصطاد فى الماء الذى عكرته تصرفاتها، انما يجب ان نؤكد ان الشعب التونسى لم يخطىء فى يوم من الايام تقديره للاحوال، ولا اعتباره لمصائر الاشياء ، فكان يقاوم شتى النزعات، ويثور على الذين يعبثون بخيراته، كما يثور على الاجانب الذين يريدون التدخل فى شئونه.

ومن أهم ما يلفت النظر فى تاريخ هذه المرحلة تنبه الحكومة التونسية بارشاد المفكر المغربى الوزير خير الدين الى أن خير وسيلة لمقاومة اوربا هو النهوض بالبلاد، واصلاح انظمة الدولة العتيقة، وتوجيه الامة نحو الرقى الصحيح الذى كان السبب فى رفع منار الغرب عاليا .

وكان خير الدين من المصلحين الذين تأثروا تأثرا عميقا بمبادىء الثورة الفرنسية وافكارها، واقتنعوا بأن على الشرق أن يغير اساليب الحكم الاستبدادى الذى جرى عليه، وبما أنه عاصر أواخر أيام نابليون، وشاهد بنفسه ما اصيبت به الجزائر وما منيت به المقاومة التى نظمها الامير عبد القادر فقد ادرك أن الخطر الاكبر ليس هو فى مهاجمة الغربيين للبلاد، ولكنه فى الامراض الاجتماعية والاخلاقية التى نكبت بها. وقد درس خير الدين القوانين والتنظيمات الجديدة التى صدرت فى تركيا على عهد الخليفة عبد المجيد الاول، واستمع لنصائح وأفكار المصلحين العثمانيين الكبار أمثال فؤاد محمد باشا، ورشيد على باشا التى كانت ترمى الى التخفيف من استبداد الحكم المطلق، وتعمل على ايجاد دستور عثمانى مقتبس لا من الدستور الانجليزى، بل من دستور كافور الايطالى ـ تلك الافكار النيرة التى بدت بعد بأجلى مظاهرها فى شخصية المصلح الدستورى العثمانى الكبير مدحت باشا. وقد وضع خير الدين كتابا لخص فيه آراءه ونظراته الدستورية .

حاول المصلح التونسى أن يطبق آراءه الحديثة فى تونس، ولكنه اصطدم بعقبتين كبيرتين : أولاهما استبداد الوزير الاكبر مصطفى خازندار الذى حكم تونس مدة اربعة وثلاثين عاما، كان فيها مثال الجور والارهاب والابتزاز لاموال الشعب وذخائر الدولة. وثانيتهما مشائخ الدين الذين كان لهم نفوذ مطلق على ذهنية الامة. مع عامل ثالث هو تخوف الشعب التونسى من الاصلاحات التى كانت تقتبس من الغرب . ظنا منه أن كل شىء غربى يمس بكيان الامة ووجودها. وقد حاول خير الدين أن يستعمل كل الوسائل لكسر شوكة الخازندار فلم ينجح . واهتدى بعد الى أن الوسيلة الوحيدة هى استجلاب عطف الباى عليه . فقدم لبساطه شابا يدعى مصطفى بن اسماعيل، سرعان ما استولى على عقلية العاهل، وأثر فى تصرفاته. وانتهى الامر بتغلغل نفوذ خير الدين فى البلاط، فاستطاع أن يقنع الملك بقبول الفكرة الدستورية، فأعلن سنة ١٨٥٧ دستور المملكة التونسية الجديد. (قانون عهد الامان) على

يد محمد باى ودخل قانون عهد الأمان فى حيز التنفيذ بتأسيس «المجلس الاكبر» ثم أوقف العمل به موقتا بمرسوم ملكى مما اثار الشعب التونسى بقيادة البطل على بن غذاهم فى ثورته الشهيرة سنة ١٨٦٤ .

وقد كانت هذه الخطوة الجريئة خير وسيلة لانهاض الدولة التونسية وحمايتها، ولكن الدول المتهافتة على تونس لم يكن يسرها هذا العمل البنائى الكبير، فقاومته بأنواع كثيرة من أهمها تشجيع المجاهدين من رجال الدين على استنكارها. وقد تظاهر بالمعارضة ممثلا فرنسا وايطاليا بعد ان كانا يظهران رغبتهما فى تأسيس نظام حى بتونس وأسندهما بقية الدول الاخرى الموقعة على معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ التى ختمت حرب القرم، وحددت مدى الوضع الراهن فى الشرق . واستطاع هؤلاء المستعمرون بدعاياتهم وتدخلاتهم أن يهيجوا الشعب نفسه ضدا على هذا الدستور، وكان لهم فى مصطفى بن اسماعيل اداة فعالة فى معاكسة خير الدين الذى خلقه وجعل منه شخصية مسيطرة فى بلاط الباى. وهكذا عاد الدستور التونسى حبرا على ورق .

لم يكن خير الدين باشا من أبناء الشعب الصميمين، بل كان من أصحاب الاراضى الواسعة ، ومن ذوى المصالح المادية الكبيرة ، وهذا بالطبع ما جعله يصرف طرفا من وقته فى استغلال امواله وتنميتها ، وتأجير العقارات وبيعها، وما جعله ينفعل كثيرا لروستان قنصل فرنسا العام الذى لم يكن يتأخر هو ايضا عن الاشتراك فى المضاربات المالية واستغلالها. وهذا ما هاج عليه الرأى العام التونسى، وأغضب الباى الذى أخره عن الوزارة فى ٢١ يوليه سنة ١٨٧٧ .

ويجب أن نلاحظ أن الباى كان قد جدد تبعيته للباب العالى، واعطى حق العقد مع الدول الاجنبية فيما يخص تونس للخارجية العثمانية. وذلك دفعا لمطامع الفرنسيين وابعادا لهم عن كل محاولة لفتح البلاد .

خرج خير الدين من تونس ملتجئا للباب العالى. ولما اغتيل السلطان عبد العزيز ومات السلطان مراد الخامس معتقلا ، وارتقى عبد الحميد العرش قرب اليه خير الدين نظرا لمواهبه العالية. وكان عبد الحميد ميالا للدستور فى أول عهده. ولما كان ناقما على مدحت أبى الدستور العثمانى فكر أن يسند لخير الدين الصدارة العظمى حتى ينفذ شخصيا الاصلاحات المرتقبة. فتولى المصلح التونسى الصدارة العظمى فعلا، وحاول بكل اخلاص وذكاء أن يطبق دستور مدحت على ضوء تجارب التنظيمات، ولكنه اصطدم بعد سنة واحدة بجمود العثمانيين فى

فهم الفقه الاسلامى، وتذبذب عبد الحميد الذى فضل الرجوع للحالة التقليدية التى ظل عليها من قبله من الخلفاء. فاضطر خير الدين للانسحاب وبقى فى الاستانة الى ان مات .

لكن خروج خير الدين من تونس، وبيعه لعقاراته بالنفيضة لشركة مارسييز الفرنسية، ورفض الباى الاعتراف بهذا البيع أدى الى استفحال الحالة فى الداخل. وتطور الامر الى أن طلب قنصل فرنسا من الباى اعلان الحماية، فرفض العاهل، واستعد الشعب للمقاومة ، وحدثت بعض الوقائع من سكان جبل ضمير فى حدود الجزائر، فاحتجت فرنسا، ولكن محمد الصادق باى تونس رفض معاقبة القبيلة على عملها البسيط، فقررت الحكومة الفرنسية غزو تونس وسلطت عليها جيشا يشتمل على ثلاثين ألف مقاتل، واضطر الباى تحت الضغط والاكراه الى توقيع معاهدة باردو واعلان الحماية على البلاد (١٢ مايو سنة ١٨٨١)

لكن الشعب التونسى لم يعترف بهذا التوقيع، وسرعان ما قامت ثورات متعددة فى الجنوب خاصة فى صفاقس والقيروان، وصرح الباى بأن الفرنسيين أرغموه على امضاء المعاهدة التى لا يعترف بها، فغزت فرنسا تونس للمرة الثانية حيث سلطت على صفاقس نيران بحريتها وجرت معارك شديدة احتلت بعدها الجيوش الفرنسية جارة قابس؛ منزل قابس ؛ جربة ؛ جرجيس ، ولكن لم تستطع ان تقهر المقاومين الذين اعتصموا بالداخل. وقد برز فى هذه المقاومة رئيسان تونسيان هما على ابن خليفة، وعلى بن غدان .

وفى خريف السنة هجم الجنرال سوسيى بثلاثة جحافل على القيروان ، حيث احتلها بعد صراع عنيف ابلى فيها التونسيون بلاء حسنا. وفى الربيع استؤنف الهجوم (ابريل ـ مايو سنة ١٨٨٢) على بقية الجنوب. ولكن المقاومة الوطنية استمرت حتى فصل الشتاء (١٨٨٢ ـ ١٨٨٣).

وعلى الرغم من احتلال الجيوش الفرنسية لسائر مناطق القطر التونسى فان فريقا من المقاتلين التجأوا الى طرابلس حيث استمروا فى تنظيم حرب العصابات فى الجنوب التونسى حتى سنة ١٨١٨ التى تنازلت فيها تركيا عن حقوقها فى تونس .

الحركة الوطنية بعد الحماية

انتظم الامر للفرنسيين فى تونس، وتركزت جيوشهم فى جميع المواقع الاستراتيجية، ولم يعد من الممكن للشعب الاستمرار فى المقاومة المسلحة، ولكن ذلك لم يقتل الروح القومية، ولا فت فى عضد العاملين خصوصا بعد ان شاهد المثقفون إخلاف فرنسا لجميع وعودها التى ادعت أنها لم تجىء لتونس كدولة فاتحة، وانما يهمها ارشاد الحكومة الوطنية، ومساعدتها على اقرار الامن والسكينة، فتكونت حركة قوية يتزعمها الشيخ محمد السنوسى، وألفت وفدا يحمل عريضة ممضاة من مختلف طبقات الشعب لسمو الباى يحتجون فيها على شكل الحكم المباشر الذى تجريه السلطات الفرنسية فى البلاد، فاستقبلهم سمو الباى، ولما القى الشيخ السنوسى بين يديه خطابا فى تصوير حال الشعب التونسى تحت النظام الحاضر بكى الملك وأكد للمحتجين تضامنه معهم فى المطالبة بالحقوق المرسومة.

ومن الغد ابعدت السلطات المحتلة الشيخ السنوسى الى مدينة قابس واعتقلت السيد حسونة بن مصطفى فى مدينة قابس، وسجنت غيرهما من انصار الحركة .

والشيخ السنوسى زعيم اول حركة وطنية فى تونس بعد الحماية من علماء الزيتونة المتنورين، وهو استاذ محمد ناصر باى الذى سنرى من بعد تضامنه مع الوطنيين التونسيين، وكان السنوسى محررا فى الرائد الرسمى قبل الاحتلال .

وبعد سنتين من هذه الحركة ظهر فى البلاد عالم جديد، هو الشيخ المكى ابن عزوز من شيوخ الزيتونة السلفيين، فنشر فى الوطن دعوة لمقاومة الشيوخ الجامدين الذين كانوا السبب فى عرقلة الاصلاح الذى اراده خير الدين ومن بعده، وكان لهذا الشيخ فضل فى تكوين ثلة من المتنورين، من بينهم الشيخ عبد العزيز الثعالبى ..

هاجر الشيخ المكى الى الشرق، ومات فيه، ولكن افكاره التى غرسها فى تلامذته الكثيرين ظلت قائمة مستمرة الترعرع، وسرعان ما اجتمع هؤلاء التلاميذة، وأسسوا جريدة باللغة الفرنسية للدفاع عن

مصالح التونسيين اسموها (المستقبل التونسى) ، واخرى عربية تحمل اسم (حبيب الامة)، وأخرى هى سبيل الرشاد كان يديرها الشيخ الثعالبى بنفسه، ومن ابطال هذه المرحلة الانتقالية للحركة التونسية : على كاهيا، والشيخ زروق، والهادى السبعى .

جماعة الحاضرة :

وفى سنة ١٩٠٥ كان جماعة من الطلبة الذين سبق أن أوفدتهم الحكومة التونسية قبل الحماية من متخرجى المعهد الصادقى لاتمام دراستهم فى الخارج، وأذنت لهم السلطة الفرنسية بالرجوع بعد ما استتب لها الحال ـ قد عادوا يحملون من الافكار التحريرية ما يخولهم حق التقدم لتنوير الرأى العام التونسى وقيادته وكان ابرز هؤلاء الشبان وأقواهم شخصية هو السيد على أبو شوشة صاحب جريدة (الحاضرة) فاستطاع أن يجمع من حول الجريدة كتلة قوية من أصدقائه وغيرهم من مثقفى الزيتونيين والمدرسيين، وقاموا بحركة قومية ودينية ترمى من جهة الى تقوية روابط القطر التونسى بحركة الجامعة الاسلامية ، وتطالب من جهة ثانية بتنفيذ الدستور التونسى الذى ظل معترفا به بعد اتفاقية المرسى، ومعاهدة باردو وهما الوثيقتان اللتان تستند عليهما الحماية .

والحق أن هذه الحركة كانت تتغذى بالروح التى ترد عليها من مصر، كصدى للدعاية التى قام بها جمال الدين ومحمد عبده، وتقتدى بالحركة الوطنية التى انبثقت من روح الزعيم مصطفى كامل .

وقد زاد هذه الحركة توجيها صحيحا اتصال رجالها مباشرة بالشيخ محمد عبده والاستاذ محمد بك فريد، حين زارا تونس وناقشا رجالها وحدا خطة المطالبة الاسلامية. واليها يرجع الفضل فى تأسيس معهد ابن خلدون الذى اريد منه تكوين ثانوية عربية عصرية .

ومن رجال جماعة الحاضرة الاستاذ بشير صفر ابو النهضة الثقافية التونسية، والذى لا ننسى مقالاته العديدة فى (الحاضرة) دفاعا عن استقلال المغرب الاقصى ووحدته ، وكذلك عمر ابو حاجب وحسن القلاتنان .

وقد كان لهذه الجماعة اتصال بالحركة الدستورية المراكشية التى كانت تنشر مقالات عديدة فى (الحاضرة) تنقد بها سياسة المولى عبد العزيز، وتطالب بسياسة اقوى لحماية المغرب من الدسائس الفرنسية بعد الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤

وفى سنة ١٩٠٧ قامت فى القصرين (جنوب غربى تونس) ثورة تحت زعامة عمر بن عثمان احد شيوخ القبائل كرد فعل للاستعمار الفلاحى واغتصاب المعمريـن للاراضى، وقد وجهت الحماية عليها حملة عسكرية انتهت باخمادها واعتقال رئيسها الذى اعدم رميا بالرصاص .

حـزب تونـس الفتـاة

لم تكن الجزائر للفرنسييـن الا مدرسة لتخريج ساستهـم على المبادىء التى يمكـن تطبيقها فى كل الشمال الافريقى. وقد رأينا كيف استعانـت الجمهوريـة الثالثة لتقوية جانب المستعمرين فى الجزائر باصـدار مرسوم (كريميـو) القاضى بتجنيس سائر اليهود الجزائريين دفعة واحدة، وقد حاول الفرنسيون تطبيق السياسة نفسها فى تونس ، فحملوا يهودها سنة ١٩٠٧ على شن حملة شعواء على العدلية التونسية، والمطالبة بالجنسية الفرنسية. وقد كانت صحف المستعمرين كلها فى جانبهم نظرا لما تؤمله من وراء ذلك من تقوية عدد الجالية الفرنسية التى لم تكن ضعيفة بالنسبة للاهالى فقط، بل حتى بالنسبة للايطاليين الذين استمرءوا الهجرة لهذه الارض الافريقية السمحاء ، وقد تقدمت فئة من الشباب التونسى المثقف لمقاومة هذا التيار، ومنع الحماية من التجنيس الاجماعى لليهود باعتبار ان ذلك يمس سيادة البلاد وسلطة مليكها. وكان يتزعم هذه الحركة المرحوم على باش حانية، وثلة من اصدقائـه الذين انضم اليهم وقتها الاستاذ احمد الصافى، وقد تطورت هذه المقاومة الى حركة عدائية لليهود أدت الى نشر دعوة ناجحة فى مقاطعتهم ماديا وأدبيا وانتهى الامر باحجام الحماية عن تطبيق خطتها الجزائرية .

ولقد استفـادت تونس من مقاطعـة اليهود كثيرا فتحفزت همم المسلمين للتجارة ومزاحمة غيرهم فى الميادين الاقتصادية، والى ذلك يرجع الفضل فى انبعاث الروح التجارية فى تونس وتطورها اليوم برغم فقدان وسائل التشجيع والتنشيط .

انتهت المعركة مع اليهود بظفر كبير، فشجع ذلك الشباب الذى التف حول محركه العظيم على باش حانية، وكون حزب المقاومة الذى اطلق عليه من بعد (حـزب تونس الفتاة) سنة ١٩٠٨، واسس الحزب جريدة (التونسى) بالفرنسيـة، ثم اخذ ينشر منها طبعة عربية يدير تحريرها الشيخ الثعالبى .

كان اتجاه هـذه الحركة كماليا على غرار تركيا الفتاة، ولكنه فى الوقـت نفسه بما انضم اليه من رجـال جماعة (الحاضرة) الاولى اصبح يؤيد فكرة الجامعة الاسلامية ويتعاون مع رجالها .

والحق ان تونس لم تشهد نشاطـا اعظم من نشاط هؤلاء الشبان المخلصين، كمـا انها لم تنجب فى تاريخها الحديـث شخصية اقدر ولا اكثر جاذبية مـن شخصية الزعيم علـى باش حانية. ولذلك لا يمكننا ان نمر بهذه المرحلة من تاريخ الكفاح القومى فى تونس دون ان نقف عند هذه الشخصية النبيلة ونسرد بعض اعمالها .

يمت على باش حانية لعائلة تونسية عريقة فى المجد، وكان طفلا صغيرا عند ما عقدت معاهدة الحماية. وقد ترعرع فى ظروف شادة كانت لا تبخل فيها فرنسا بنشر ثقافتها فى المدن. وبعد أن درس العربية فى جامع الزيتونة دخل بعض المدارس الفرنسية، وحصل فيها على قسط وافر من الثقافتين ثم سافر الى باريس حيث انخرط بكلية الحقوق وعاد الى تونس، فانضم الى سلك الموظفين بالعدلية التونسية، ولكن روحه الطموح ونفسه الجموح أبتا أن تشغلاه بقضاياه الخاصة، فقصر اهتمامه على خدمة بلاده وتأليب الشعب للتحرر من الحكم الفرنسى. وقد كانت آراؤه شبيهة بآراء مصطفى كامل، وأشد تطرفا من أفكار جماعة (الحاضرة) وهو أول زعيم فكر فى ضرورة توحيد المغرب العربى فى ميدان الكفاح، وقد مد يده للمقاومين الجزائريين ، وأسس أخوه فى برلين لجنة تسمى باللجنة التونسية الجزائرية . وفى الوقت نفسه اتصل برجال الحركـة فى مراكش ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه البلاد تدافع عن كيانها . وتعـاون فى الاستانة مع المجاهـد المغربى السيد العتابـى بعد ذلك كمـا سنبينـه .

أما فـى تونس فكانـت دعوتـه موثرة فى تهييج الرأى العام على الفرنسيين ، وتأكيد الاعتراف بالخلافة العثمانية وسلطتها على تونس ، واستمر جهاده تارة يعلو ، وأحيانا يضعف ، حتى سنة ١٩١١ .

وفى سنة ١٩١١ احتلت ايطاليـا طرابلس الغـرب فهـاج العالم الاسلامى وكان لباش حانية دور فعال فى المغرب ، فكان هـو وأنصار صلة الوصل بين السفارة العثمانية فى بـاريس والقيادة العثمانية فـى طرابلس ، وبذلك صارت تونس بفضله ممرا سريا للضباط والاختصاصيين العثمانيين القادمين من أوربا الى طرابلس .

وفى السنة نفسها حدثت فى تونس حادثة الجلاز، وكان سببها عمال الترام الذين أضربوا عن العمل أمدا طويلا تحت اشراف باش حانية وجماعته . ولما كانت تونس تحتوى على عديد من الايطاليين ، وكانت العداوة مستحكمة بين التونسيين والايطاليين من أجل احتلالهم لطرابلس فقد أدى جو الاضراب الى مظاهرات انتهت بحادثة تصادم عنيف بين التونسيين والايطاليين ، كبد الطرفين عديدا من القتلى والجرحى . وقد اغتنم المقيم العام الفرنسى مسيو أ. لابوتيت الذى كان من أمهر المستعمرين الفرنسيين هذه الفرصة فاعتقل الوطنيين على باش حانية، وأخاه محمد، وعبد العزيز الثعالبى، وعبد الجليل الزاوش ، والبشير صفر، ونعمان وقلاتى، ودارغوث، والمختار كاهية، وحل حزب تونس الفتاة وأقفل صحفه. أما المعتقلون فقد أبعد بعضهم للجنوب، ونفى الثعالبى وعلى باش حانية، واخوه لخارج البلاد. فأما الثعالبى فسافر لفرنسا، ثم ذهب للاستانة، وانتقل منها للهند وجاوة، ثم رجع لتونس قبل اعلان الحرب الكبرى بقليل. وأما باش حانية فقد أقام فى الاستانة الى ان مات كما سنبينه .

على باش حانية بالاستانة :

كانت الاستانة فى هذا العهد ملجأ لجميع الزعماء المضطهدين من كافة العالم الاسلامى، فما وصل لها على باش حانية حتى ظفر فيها بعديد من أبطال الجهاد العربى والاسلامى اللاجئين؛ امثال محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، والبارونى، وعبد الحميد، واحمد فؤاد، وعلى الشمسى، وأبى سعيد هندى، والشيخ على كاسبيرينكى، وأحمد أغايف من مسلمى روسيا. وكان هذا الوسط كله يمثل نزعة الانبعاث الجديد فى العالم الاسلامى، والانبعاث الروحى السلفى واليقظة القومية السياسية. وكان عبد الحميد يساعد الكثيرين من رجال هذه النزعة، كما كان (حزب الاتحاد والترقى) يعطف على جناح خاص من رجالها، فوجد الزعيم المغربى فى هذه البيئة ميدانا لاستئناف نشاطه، والعمل على خدمة القضية التونسية خصوصا والمغربية عموما، فأخذ يستفزز هم العثمانيين لمناصرة العرب وتحريره بما كان يكتبه من مقالات ممتعة فى جرائدهم التى تعبر عن لسان حال الخلافة ومناصريها، كجريدة (الشباب التركى) وجريدة (تصوير الافكار) وجريدة (طنين) التى هى منظمة العثمانيين الرسمية. وقد اثرت دعايته كثيرا فى توجيه نظر المشتغلين بالقضايا الاسلامية الى حالة المغرب،

واكسبه عمله نفوذا فى هذا الوسط الكبير. كما وطد صلاته مع شكيب ارسلان. والبارونى، وجاويش، ومحمد فريد. الامر الذى قربه لرجال الدولة العثمانية، حين عين مستشارا فى العدلية، ثم عضوا فى مجلس الدولة، وحينما اعلنت الحرب عين رئيسا لهيئة التشكيلات، وهى هيئة تشبه وزارة الدعاية. فسنحت له الفرصة لان يلعب دورا كبيرا فى الدعاية ضدا على الفرنسيين وحلفائهم، ونشر فظائعهم فى الشمال الافريقى كله. وفى سنة ١٩١٦ عين مستشارا لوزارة الخارجية ثم مستشارا للصدارة العظمى .

وفى هذه السنة قررت الحكومة العثمانية أن تؤسس فى الاستانة هيئة لغزو شمال افريقيا بالاتفاق مع رجالها اللاجئين. وقد كان من نتيجة ذلك أن ثارت طرابلس الغرب وبرقة، وأبعدت الايطاليين عن كل ما عدا المدن الكبرى من طرابلس وبرقة، فطلبت الهيئة المذكورة من أنور باشا تعيين البارونى واليا عاما على المناطق المحررة، فصادق أنور على طلبهم، وذهب البارونى على ظهر غواصة ألمانية لميناء بولا ، ونزل بطرابلس، واعتصم بجبل غريان حيث نظم المقاومة العظيمة ضدا على ايطاليا فى طرابلس ، وأخذ يبعث رسله فى نشر الدعوة للجزائر وتونس، وربط الصلة بين أنور وحسن قلاتى أحد الذين بقوا فى تونس من حزب باش حانية، وكان يحمل الرسائل بينهما مجاهد اسمه الحاج عمار ابو طارة .

وفى سنة ١٩١٧ ثار (التوارجة) بقيادة زعيمهم موسى وعق المصطاتى ثورة عمت الصحراء كلها من أعالى النيل الى أدرار فى الساحل الاطلسى. فاضطرت جميع المراكز الصحراوية الفرنسية للانسحاب الى الواحات، وقتل فى هذه الحركة الاب الجاسوس دوفوكو الذى كان معتكفا فى تامزاست (على ألف كيلومتر من ورجلة التى هى اقصى واحة فى عمالة الجزائر). واضطرب الامن، وأصبح لزاما على فرنسا أن تسحب الجنرال لابيريس الاختصاصى فى شؤون الصحراء من ميدان القتال الاوربى ، وتعطيه قيادة الجنوب الجزائرى، فظل هناك الى أن قتل سنة ١٩١٨ . ثم غزت بعض الواحات تونس الجنوبية حيث دارت معارك عظيمة قتل فيها الكولونيل لوبوف الذى تسمى به «برج البوف» الذى أصبح بعد معتقلا للاحرار التونسيين. وقد دامت المناوشات فى الجنوب التونسى من سنة ١٩١٦ الى سنة ١٩٢١ .

وهكذا استطاع ابناء الشمال الافريقى بفضل مجهودات البارونى وباش حانية ومن معهما من أبطال الجهاد العربى أن يفتحوا فى افريقيا جبهة جديدة لفرنسا وايطاليا شغلت عديدا من قواتهما أمدا غير قصير .

وفى سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨ تشكلت فى الاستانة هيئة كانت تعمل لمحاولة جديدة، هى جمع اسارى المغاربة فى ألمانيا وتركيا، وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزود بالسلاح والذخيرة، وترسل عن طريق الغواصات لطرابلس. وكان مقررا أن يرأسها على باش حانية بنفسه ليكون مندوبا عن الخليفة العثمانى لتحرير مسلمى الشمال الافريقى من الأستعمار المسيحى، وفعلا. ابتدأ فى نقل اركان هذه الحملة من عثمانيين ومغاربة لطرابلس ، ومن جملة من نقل فعلا من كبار الضباط الامير عثمان فؤاد حفيد السلطان مراد الذى التحق بالبارونى كمرافق له وضابط من ضباط اركانه .

وينبغى ألا ننسى ربط هذه الحركة التى وقعت فى طرابلس بالحركة التى وقعت سنة ١٩١٥ و ١٩١٦ على الحدود المصرية فى السلوم وفى سيوه عند ما ارسل المرحوم أنور باشا للشيخ السنوسى الكبير قوة عسكرية تحت قيادة أخيه نورى بك، والضابط العراقى جعفر العسكرى أخى تحسين بك. فقامت بمقاومة عنيفة أقلقت الانجليز حتى قهرت، فعاد نورى بك للاستانة، وانتقل السنوسى الكبير لتركيا حيث نال تقديرا عظيما الى حد أنه فوض اليه تنصيب الخلفاء العثمانيين بعد ما كان ذلك منذ عهد السلطان عثمان الاول محصورا فى يد احفاد الملوك الجوقيين .

وقبل أن يحين الموعد الذى كان مقررا لمغادرة باش حانية الاستانة للقيام بمهمته التحريرية أصيب بمرض خطير يعتقد انه سرطان، فاضطر لملازمة الفراش، وكانت الدول الوسطى قد أخذت فى التدهور، فأهمل الامر حتى حدثت كارثة استسلام الدولة العثمانية، وشاءت الاقدار أن يموت على باش حانية قبل اسبوع واحد من هدنة (مدرس)، فدفن باحتفال مهيب مشى فيه الوزراء العثمانيون، وقواد الجيش، وقائد البلاط نائبا عن السلطان محمد السادس وجيد الدين، ودفن بمقبرة (باشيكتاش) .

ان هذه الشخصية التونسية لخير مثال يجب أن يقتدى به الشباب المغربى وزعماء الحركة المعاصرة لانه يمثل حركة دائمة وجهادا مستمرا وتفانيا فى خدمة القضية المقدسة. ولذلك لم نرد أن نغفل بحثنا من تتبع اعمالها فى سبيل الاستقلال المغربى. ونحن نرى ان حركة «تونس الفتاة» كانت أكبر مظهر للصراع التونسى، ونرجو ان يكون فى هذا التذكير بها ما يساعد على الاقتداء بها والعمل على غرارها.

أما محمد أخو باش حانية الذى كان محاميا مثله فقد توجه باتفاق مع اخيه سنة ١٩١٦ الى جنيف، حيث قام بتأسيس مجلة اسبوعية باللغة الفرنسية سماها (مجلة المغرب)، وقد كافحت هذه المجلة مدة

عامين مكافحة عظيمة، ثم وقفت بعد انقطاع المدد الذى كان يأتيها من اسطنبول .

ومن الاعتراف بالجميل أن نسجل المساعدة التى أسداها لهذه المجلة المرحوم فؤاد سليم الحجازى المصرى صديق مصطفى كامل وسفير الدولة العثمانية فى مدينة برن .

ولما انتهت الحرب وتوفى على باش حانية عاد محمد الى برلين واستأنف الجهاد فى الاوساط الشرقية المهاجرة بالمانيا الى ان توفى هناك سنة ١٩٢٠، ودفن بمقبرة «تمبلهوف» الاسلامية، ويعود فضل تشييد قبره للمرحوم طلعت باشا الصدر الاعظم العثمانى واسماعيل بك لبيب الوطنى المصرى الشهير .

أما فى داخل القطر التونسى، فبالرغم من حل الحكومة لحزب «تونس الفتاة» فقد ظل رجاله الباقون هناك يعملون فى الخفاء تحت زعامة الشيخ الثعالبى. وقد رأينا كيف أن قلاتى أحد رفقائه كان على اتصال بأنور باشا والبارونى، وقد كان عملهم ينحصر فى توزيع بعض المنشورات. والقيام بدعاية عظيمة. وكانت السلطة تتابعهم متابعة فعالة، فكانوا يجتمعون بمنزل الامير محمد الحبيب الذى اصبح بايا بعد وفاة محمد الناصر اختفاء عن الناس، ولما لبيت الامير من الحصانة. ومع ذلك فقد اعتقلت السلطة سنة ١٩١٤ جمعا من أنصارهم، من بينهم الاستاذ توفيق المدنى الذى اتهم بتعليقه فى جدران الجامع الاعظم نشرات تحث الجيش على العصيان. ولما فتش بيته عثر فيه على مراسلات بينه وبين السيد الحسين الجزيرى صاحب جريدة «النديم»، فاعتقل هذا الاخير أيضا، وحينما فتش منزله عثر عنده على اوراق تدل على اتصال بينه وبين المدنى من جهة، وبين الأثنين والشيخ عمر بن قدور احد المصلحين السلفيين فى الجزائر وصاحب جريدتى (الفاروق) و (الصديق) من جهة اخرى. وقد بقى هؤلاء وغيرهم فى السجن طيلة امد الحرب الكبرى

الوفد الوطنى لمؤتمر الصلح

انكشفت الحرب العالمية الاولى عن انتصار الحلفاء وانهزام الدولة العلية التى كانت حركة «تونس الفتاة» تعلق عليها أملا كبيرا، كما انكشفت عن يقظة العالم الشرقى برمته من أقصى الهند والصين الى المغرب الاقصى، وظهر فى العالم تياران خطيران كلاهما يبشر بحقوق الانسان وينادى بحرية الشعوب ؛ فمن جهة الثورة السوفييتية التى اندلعت فى روسيا باسم التحرر، والتى ملأت العالم اذ ذاك دعاية ضد الامبريالية الفرنسية والغربية، ومن جهة ثانية دعوة الرئيس ولسن التى توج بها خطته السلمية، والتى اعلن فيها مبادئه الاربعة عشر .

وهكذا تنفس الوطنيون التونسيون بعد ما كبتوا مدة الحرب. ومن الطبيعى ألا يتجهوا لمناشدة العون من الجانب الثورى الروسى؛ لان دعاية الروس غامضة من أول عهدها، ثم هى تؤدى الى تضحية كثير من العقائد الوطنية التى يؤمن بها الثعالبى وصحابته، فكان الاتجاه المنتظر الذى ينحون صوبه هو مؤتمر الصلح الذى يدعى انه يعمل لتنظيم العالم على اساس من العدل والحرية .

وفعلا تقدم الثعالبى وزميله احمد السقا الى الرئيس ولسن بمذكرة يطالبان فيها باستقلال تونس فى الوقت الذى قدم فيه الضباط الجزائريون برئاسة الامير خالد نفس الطلب. ولكن قضيتى تونس والجزائر كقضايا مراكش ومصر وسوريا لم تجد من رسل السلم والحرية فى المؤتمر الا اهمالا كاملا او توجيها استعماريا باطلا فتوجه الثعالبى نحو العمل على تنوير الرأى العام الفرنسى عاقدا بعض الامل على رجال اليسار الذين كانوا شديدين فى معارضتهم لحكومة الجبهة الوطنية التى تكونت فى فرنسا بعد الحرب من احزاب اليمين، فأصدر فى سنة ١٩٢٠ كراسته القيمة (تونس الشهيدة) باللغة الفرنسية، شرح فيها أعمال الاستعمار الفرنسى بتونس التى انتهكت جميع حقوق الشعب التونسى القومية والسياسية والفردية، وخاصة منها ما يتعلق باغتصاب الاراضى، ومقاومة التعليم، وكبت الحريات العامة والخاصة، وفتح باب الهجرة للايطاليين والفرنسيين وأخيرا كل الوسائل التى ترمى لفرنسة الشعب التونسى

على مثال الخطة المتبعة فى الجزائر. وقد لخص الثعالبى كل ما كتبه النائب الفرنسى مسيو بول فينييه دكتو الذى كان اوفد لتونس سنة ١٩٠٦ بشأن يتعلق بالميزانية التونسية فى كتابيه الذين أحدثا ضجة عظيمة فى فرنسا ومستعمرتها وهما (لوبانا ماتونسيان) (١) و (عرق البرنس)(٢) فيما يتعلق بلصوصية ولاة الفرنسيين التى كانت تدفعهم الى اقتطاع العقارات الواسعة التى تتراوح مساحاتها بين الالفين والعشرين ألف هكتار، مسجلا أسماء الاراضى المغتصبة، وأسماء رجال فرنسا وقوادها، وأصحاب جرائدها الكبرى، والشركات العقارية التى أصبحت مستولية عليها، مصورا ما أدى اليه ذلك من انتشار الفقر المدقع بين الاهالى وسوء حالهم، الامر الذى يبين بوضوح فشل الحماية التى تجاوزت كل حدود الرقابة الى الحكم المباشر والسيطرة الاستبدادية ، وانتهى الى المطالبة بتأسيس حكومة تونسية مسؤولة أمام مجلس يمثل الامة التمثيل الصحيح حتى يتمكن الشعب من ضمان مصيره ومراقبة شؤونه .

وبينما كان الوفد الذى يترأسه الثعالبى يوالى جهوده بباريس كان رفقاؤه بتونس ينظمون اتصالات اخرى بسمو الباى ومقيم فرنسا العام . ولكن الظروف الداخلية التى وجدوا فيها كانت تجبرهم على أن يكونوا أقل حدة فى نقدهم وتطرفا فى مطالبهم. فكان حديثهم مع المقيم العام فلاندان فى المقابلة التى جرت لهم معه فى شهر مايو ١٩١٩ لا تتعدى موضوع اعطاء تونس نظاما دستوريا. وفى يونيه سنة ١٩١٩ تقدموا لسمو الباى بمناسبة الاحتفال بعيد الفطر ورفعوا له عريضة يطالبون فيها باسم الشعب بالتصريح بالدستور، فأظهر الباى عطفه عليهم، ووعدهم بارضائهم فى مطالبهم .

وازاء هذا الوعد الصريح قرر رجال الحركة تأسيس حزب جديد يقوم على أساس المطالبة بنظام دستورى ، وأطلقوا عليه اسم «حزب الدستور» وقد أعربوا عن غايتهم من هذه المنظمة فى بيان نشروه على الشعب جاء فيه ما يأتى :

«الغاية من تأسيس الحزب هى تبليغ الوطن رشده ، وتحريره من الاستعباد كى يصبح الشعب التونسى حرا متمتعا بكامل الحقوق التى

---

(١) لوبانا ماتونسيان Le Panama Tunisien

(٢) عرق البرنس La Sueur du Burnous

تتمتع بها الشعوب الحرة ، وهو يريد أن يصل لهذه الغاية عن طريق التحقيق العاجل لنظام دستورى يسمح لهذا الشعب بحكم نفسه بنفسه، وفاقا للاسس التى يسير عليها كل العالم المتمدين » .

واذن فقد تأسس هذا الحزب الجديد على غير ما كانت عليه حركة «تونس الفتاة» التى كانت ترمى الى الاستقلال التام قبل كل شىء ، وعلى غير ما صار عليه الوفد التونسى برئاسة الثعالبى . وليس معنى هذا أن مؤسسى الدستور لم يكونوا يرمون – على الاقل فيما بينهم وبين انفسهم – الى نفس المبدأ الاستقلالى الصحيح ، ولكنهم فيما يظهر اتخذوا خطة أقل وضوحا من خطة سلفهم ، ولعلهم كانوا يرون فى هذا الغموض سياسة تسمح لهم بقطع مرحلة يتمكنون فيها من اعادة تنظيم أنفسهم ، انما ستظل هذه السياسة خطة الحزب حتى سنة ١٩٢٥ كما سنبنيه . وهل كانت البقية الباقية من رجال «تونس الفتاة» كلها راضية على هذا الاتجاه الجديد ؟ وهل كان عمل الاخوان فى تونس متفقا مع ارادة الشيخ الثعالبى وأحمد السقا ؟ الذى نعلمه أن الذين قاموا بهذه المحاولة الدستورية كانوا كلهم من متخرجى الجامعات الفرنسية ، وأن الزيتونيين من الوطنيين لم ينضموا اليهم الا بعد رجوع الثعالبى وترؤسه للحزب .

أما الشيخ الثعالبى نفسه فيظهر أنه لم يكن مصادقا فى قرارة نفسه على هذه الخطة ، وانما اضطر الى مسايرة التيار العام حتى غادر البلاد الى أرض العروبة التى تمكنه من المجاهرة برأيه الكامل .

أخبرنى السيد محيى الدين القليبى أنه فى وقت شبابه الاول دخل عليه الثعالبى ليطلعه على مقال كتبه فى بعض الجرائد ، فسر به الشيخ وقال له : يجب أن تنخرط فى الحزب الدستورى ، فقال له محيى الدين : انى مستعد للعمل معكم ، ولكنكم تطالبون بالاصلاح الدستورى، وأنا أريد الاستقلال ، ولا يمكننى أن أقسم يمين الحزب الا اذا كانت غايته هى الاستقلال ، فتبسم الشيخ الثعالبى ، وظهر على وجهه تأثر كبير، وقال له : يا ولدى : ان هذه خطة ارتضاها اخواننا تحايلا فى السياسة ، أما أنا فقد كنت أفضل الصراحة التى قلت عنها، ومع ذلك فلا تقسم الا على الاستقلال لان تلك هى غايتنا جميعا .

سارت هيئة الحزب الجديد على خطتها ، وعمدت الى استغلال كل الظروف والحوادث لتحقيق مهمتها الدستورية . وحدث أن الحماية حاولت الاستيلاء على الاوقاف الخاصة التى تتصرف فيها بعض العائلات

وفقا للفظ الواقفين ، وأن المقيم العام م. فلانـدان حاول استقـراض تونس لمائتين وخمسين مليونـا من الفرنكات لتكميل عجـز الميزانية ، فأثار ذلك غضب الجمهور ، وخاصة المنتفعين بالوقف ، فتركـب وفد جديد تحت اشراف الدستوريين يشتمل على الشيخ مصطفى الباهى ، والشيخ البشير البكرى ، والشيخ حمودة المستيرى ، والاستاذ البشير عكاشة ، والاستاذ صالح بن العجـوزة المحاميين . ثم سافر لفرنسـا بقصد الاتصال بالحكومة ، والاحتجاج على عمل فلاندان . وقد قدم هذا الوفـد زيادة علـى ما يرغب فيـه من ميثـاق الوفـد الاهلى مطـالـب الدستوريين التسعة وهى :

١ ـ تأسيس مجلس تشريعى متركب من التونسيين والفرنسيين ينتخب انتخابا عاما ، على أن يكون له الحق فى وضع محضر جلساته ، وذا اختصاصات واسعة فيما يرجع للميزانية .

٢ ـ تأسيس حكومة مسؤولة أمام هذا المجلس .

٣ ـ الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية .

٤ ـ تخويل التونسيين الحق فى سائر الوظائف اذا توافرت فيهم الشروط التى تجب على المرشح الفرنسى .

٥ ـ المساواة فى أجور الموظفين التونسيين والفرنسيين .

٦ ـ تأسيس مجالس بلدية منتخبة .

٧ ـ التعليم الاجبارى .

٨ ـ تشريك التونسيين فى حق شراء الاراضى الراجعـة لادارة الفلاحة، او لاملاك الدولة .

٩ ـ حرية الصحافة والاجتماعات والجمعيات .

وهـذه المطالب التسعـة تدل على تقهقـر حتى عن المرحلـة من تأسيس الدستور ، ولكن يظهر لنا أنها لم تقدم على هذه الصفة الا لانها كانت استغلالا لوفد ركب أولا وقبل كل شىء للدفاع عن الوقف الاهلى، وفعلا فقد عاد الوفد من باريس دون الحصول على شىء الا الغاء مشروع فلاندان من الوقف ، ومشروعه فى القرض . وقد توجه وفـد جديد الى باريس فى ديسمبر من آخر سنة ١٩٢٠ ، ولكنه عاد أيضا دون الحصول على نتيجة كبـرى .

لكن هذه التجربـة التى قام بهـا مؤسسو الدستـور لم توقـف الثعالبى عن دعايته فى باريس . وقد اعتقلته السلطة هناك بتهمة التآمر على أمن الدولة الفرنسية ، ونقل الى تونس حيث زج به فى السجـن

العسكرى ، كما قبض على صديقيه فى الجهاد محمد الرياحى والشيخ صالح بن يحيى. وبعد ٩ أشهر أطلق سراحهم ، فعاد الثعالبى وصديقاه للعمل ضمن الحزب الجديد مكونين جناحيه الايسر ، ونظموه تنظيما متينا حيث اصبح الثعالبى رئيسا له ، والاستاذ احمد الصافى أمينه العام ، وامتدت دعايته وتشكيلاته فى أهم جهات الايالة التونسية فاضطرت الحكومة الفرنسية لاحداث تغيير مؤقت فى سياستها ، وذلك باعفاء فلاندان وتعيين لوسيان سان خلفا عنه .

وفد الاربعين وتضامن البـاي

ما كاد المقيم العام الجديد يصل يوم ٦ يونيه سنة ١٩٢١ حتى كان الدستوريون قد هيأوا وفـدا جديدا يحتوى على أربعين عضوا يمثلـون مختلف طبقات الشعب التونسى ، وقدموا اليه المطالب الدستورية التى سبق للوفود الاخرى أن رفعتها بباريس . وقد أصبح هذا الوفد يعرف بوفد الاربعين ، وقد أجابهم المقيم بأنه مستعد للتفاهم معهم فى تحقيق بعض الاصلاحات التى لا تتنافى مع نظـام الحماية، أما الباقى فهـو من اختصاص الخارجية الفرنسية ، وكان المقيم يرمى بذلك للتنويه بتنفيذ بعض الاصلاحـات الجزئية التـى لا تقرر تكويـن دستور صحيـح ولا مسئولية الحكومة أمام ممثلى الشعب . وقد توجه الوفد فى الوقت نفسه عند سمو الباى الناصر فاقتبلهم فى احترام كبير ، وأعلن لهم تضامنـه معهـم فى مطالبهـم ، واستعداد سمـوه للمصادقة علـى مبدأ تكويـن حكومـة دستوريـة .

وكان رئيس الجمهورية الفرنسية م. ميلران قد زار مراكـش ، وتقـرر أن يعرج على تونـس ، فأرادت الخارجيـة الفرنسية أن يكـون وصوله لها فى جو هدوء وطمأنينة ، فبعثـت لسمو الباى تخبـره بأن الاصلاحات تقرر تحقيقها ولكن بعد رجوع المسيو ميلران من رحلتـه ، وطلبت منـه أن يتدخل لدى رجال الحـزب لاقناعهم بضرورة مجاملـة رئيس الجمهورية أثناء مروره بالايالة التونسية، فبعث سمو الباى كبير حجابه محمد العيد، وأميرالاى العسة الملكية الشاذلى خازندار، فاقتبلهما بمركز الحزب الحر الدستورى الشيخ الثعالبى والاستاذ احمد الصافى، وأبلغ رسولا الباى للزعيمين أن م. بوانكاريه أكد لسمو الباى استعداد الحكومة لتحقيق المطالب بمجرد ما تنتهى الزيارة الرئيسية.

زار الرئيس ميلران تونس وقوبل بالحفاوة المناسبة، ولكنه خطب فأعلن أن تونـس ستظل مرتبطة بفرنسا الى الابد، فغضب الشعب لهذا التصريح، وقارن بينه وبين الوعد الرسمى الذى أعطاه بوانكاريه لسمو الباى وللحزب، وتقدم لوسيان سان ببعض ما سماه بالاصلاحات ليعرضه

على سمو الناصر الباى، فرفض سموه المصادقة عليها نظرا لكونها غير كافية ولكونها مشوهة.

وبينما كان الجو السياسى مضطربا، وكانت العلاقات بين القصر والاقامة فى اشد ما يمكن من التوتر حدث أن نشر صحافى فرنسى من جريدة البيتى باريسيان حديثا زعم انه جرى له مع الباى ادعى فيه غضب سموه على رجال الحركة الوطنية واتهمهم بالشيوعية. وما اطلع الباى على هذا التصريح حتى ثارت ثائرته، وأمر رجال حكومته بتكذيبه رسميا، ولكن كلا من رئيس الوزارة ووزير التشريفات خافا على نفسهما ورفضا ان يعلنا التكذيب، فدعا الباى الصحفيين بنفسه وأعلن تكذيبه للخبر وعزمه على عزل رئيس الوزارة ووزير التشريفات.

وحاول البـاى ان يحقـق ما اراد من اعفاء الوزيرين، ولكن الاقامة العامة تشددت فى الموضوع، ورفضت كل الرفض أن تترك لسموه هذه السابقة التى تنم على نوع من السيادة فى تولية الوزراء واعفائهم، وهنا ظهرت شهامة محمد الناصر ونخوته العربية حيث قابل هذا التحدى باعلان تنازله عن العرش.

ولكن الشعب الذى رأى مليكه وعظيم ثباته لم يكن ليخذله فى مثل هذا الاوان، فثار هو الآخر معلنا تضامنه مع الملك، وغضبه على سياسة الحماية واعتدائها، ووقعت المظاهرة الكبرى يوم ٥ ابريل سنة ١٩٢٢ التى أدت الى اعتقال عدد كبير من الاشخاص البارزين. وبعد المظاهرة واقتناع الباى بالاستمرار فـى الملك توجه لوسيان سان بصحبة فرقة من جند أفريقيا أحاطت بالقصر، وقدم لائحة للمك تشتمل على اسماء ٣٦ شخصا من زعماء الحركـة وأقطابها طالبـا من سموه المصادقة على ابعادهم، فأجابه سمو الباى : «ان لائحتك ناقصة العدد، وكان من حقك أن تضم اليها اسمى وأسمـاء أفراد عائلتـى». فرد المقيم عليه ردا غير لائق« وكان ولده المنصـف الذى اصبح بايا بعـده، ثم نفى الى جنوب فرنسا، حاضرا فزجر المقيم وطلب منه ان يتكلم فى حدود الادب .

رجع رئيـس الجمهوريـة لباريس، ومرت هـذه الحوادث سراعا، وبينما الشعب ينتظر الاصلاحات الموعودة اذا بسمو الباى يموت فجأة بمـرض غير معـروف، وظل موته مـوضع الريبة والتقول فى الوسط التونسى الى اليوم، وخلفـه سمو محمـد الحبيب بـاى فصادق على الاصلاحات التى رفضها الناصر، وبدأت سياسة القمع من جديد.

رحلة الثعالبى للشرق

بينا فيما سبق ان دار الأمير محمد الحبيب كانت وقت الحرب هى مجتمع رجال الحركة، يعملون فيها فى مأمن من أعين الرقباء والحماة، وكانت أوراقهم ووثائقهم كلها محفوظة فى بيت الامير الحبيب، ولكن عمل الحبيب بعد ما اعتلى العرش كان غير عمله وهو ما يزال اميرا بعيدا عن كل المسؤوليات. وقد حدث انه أمضى الاصلاحات التى تقضى بتأسيس المجلس الكبير المختلط، والغرفتين التجارية والفلاحية بعد ما وعد الشيخ الثعالبى وصاحبه بعدم المصادقة عليها، فأدى ذلك الى حدوث اختلاف شديد بين الدستوريين والباى، وخشى الاولون من أن يستغل الباى مركزه لينتقم من أصدقاء الامس وخصوم اليوم، خصوصا بعد ما هدد الباى الثعالبى مذكرا له بالاسرار التى بين يديه، فقرر الحزب أن يسافر الثعالبى للشرق واضعا بذلك حدا لهذا الخلاف الذى يمكن ان يتطور – لو استمر الزعيم الكبير فى عناده – لغير صالح التونسيين وقضيتهم .

سافر الثعالبى للشرق سنة ١٩٢٣، ولم يرجع لتونس الا سنة ١٩٣٧، وقد زار اثناء هذه المدة مصر وسوريا والعراق والحجاز والهند وغيرها من البلدان وقام بدعاية قوية فى الاوساط العربية والاسلامية لصالح القضية التونسية. وشارك فى مؤتمر فلسطين عام ١٩٣٠ وانتخب عضوا بلجنته التنفيذية، ووجه من قبله للبحث فى قضية المنبوذين فى الهند ، وظل موطن الاحترام من جميع الاوساط التى ما زالت تذكر فضله وعلمه ونشاطه فى قضايا العرب كلها. ومن أحسن الشهادات التى سمعتها فيه شهادة السيد الفاروقى رئيس القسم الشرقى فى المؤتمر الهندى وأحد زعماء المسلمين بالهند فقد قال لى : انه لم يصلنا للهند احد أعلم ولا أحب الينا من الثعالبى. وناهيك بهذه الشهادة التى تشرف الحركة الدستورية وتنوه بقيمة مؤسسها العظيم .

أما فى الداخل فقد استمر الحزب سائرا فى خطته تحت اشراف الامين العام السيد احمد الصافى، وعين مديرا لتشكيلاته السيد محى الدين القليبى، واستمر فى التوجيهات التى ترد عليه من الشيخ، وبرغم

انشقاق احد اقطابهم السيد قلاتى الذى أراد أن يعتدل فى مطالبه فان ذلك لم يؤثر على مصير الحركة، ولا على التفاف الامة التونسية حول المطالب الدستورية ورجالها، وقد كان من اثر هذا الانشقاق الصغير أن تزايد اهتمام اقطاب الدستور بتنظيمه وتكثير شعبه حتى اصبح له فى العاصمة وحدها سبع شعب كبرى، وفى خارج العاصمة ٨٣ شعبة، وشملت دعوته النساء فأحدث عدة تشكيلات نسوية، ونظم فرق الشباب الدستورى الذى سنرى عمله فى الخطوة بالحركة خطى بعيدة الى الامام، وقد كان من أهم التوجيهات التى قامت بها الحركة الدستورية فى هذه المرحلة بعثها على تأسيس عدة جمعيات وفرق رياضية وكشفية.

وفى سنة ١٩٢٥ نصبت الحماية فى تونس تمثالا للكاردينال دولا فيجرى يمثله آخذا الصليب بيده اليمنى، والانجيل فى يده اليسرى، فهاج التونسيون من اجل ذلك، ونظم زعماء الدستور مظاهرة كبرى ادت الى تضارب قوى بين المتظاهرين وبين الفرنسيين فى باب البحر، وابعد فيها السيد عبد الرحمن اليعلاوى، والسيد المكى ابو شامى، وأخوه محمد لنجزائر، ونفى لجهات مختلفة كل من الشيخ العربى القروى من علماء الزيتونة، والشيخ احمد الشطى، والسيد محمد النجار، وحكم على الرياحى والحبيب المعوى بالسجن .

وكانت حرب التحرير الريفية بمراكش فى عنفوانها، وكان صداها يتردد فى تونس وسائر العالم العربى، فيبعث على الامل ويشجع على الكفاح، فتغنى التونسيون كالمغاربة والجزائريون بأمجاد البطولة المغربية، وعملوا على التذكير بأبطال الكفاح القديم الذين يظهرون اليوم مجسمين فى شخصيات مراكشية جديدة. ونظم الحزب فى تونس تمثيل عدة روايات وحفلات، ولكن السلطة كانت واقفة بالمرصاد، فمنعت تمثيل رواية (فتح الاندلس) لمصطفى كامل، وجمع التونسيون مبالغ من المال لاسعاف جرحى الريف، فاستولت الادارة الفرنسية على هذه المبالغ كما غضبت منا نحن بعد ذلك فى مراكش عند ما قمنا بمثل هذا العمل لفائدة فلسطين، وقد اعتقل من أجل هذه المحاولة السيد عمر بن ڤفراس وحكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة خمسة اعوام، وابعد السيد توفيق المدنى لنجزائر ولا يزال مبعدا الى الآن من اجل كتاباته عن بطولة الريف وشهامة الزعيم عبد الكريم.

وفى سنة ١٩٢٦ ارادت السلطة ان تهاجم السيادة التونسية مهاجمة جديدة وذلك باسناد المحاكم التونسية بقضاة فرنسيين، فأضربت البلاد

من أقصاها لاقصاها اضرابا شمل حتى موظفى الدولة ورجالها. ووقعت مظاهرات كبرى فى مختلف جهات المملكة، وتقدم وفد برئاسة الاستاذ احمد الصافى الامين العام للحزب ومعه الشيخ راجح ابراهيم، والحاج على كمون، فقابله سمو الباى واكد له تضامنه مع الشعب فى احتجاجه. وقد رجعت الحماية عن مشروعها، ولكنها نظرا لتضامن القضاء الأهلى مع الوطنيين قررت احالة القضايا السياسية للمحاكم الفرنسية، وضيقت على الوطنيين وحريتهم.

كان للحزب الدستورى اكثر من ٢٠ صحيفة عربية تؤيده وتنشر دعوته، وصحيفة فرنسية هى (الحر)، ودعاة ينبثون فى كل الجهات . ولكن السلطة سرعان ما ولت وجهتها نحو هذه الادوات العاملة لنشر الوطنية فى ربوع تونس ، وأصدرت قرارات تقيد الصحافة، وتمنع الاجتماعات، وتحرم الاكتتاب والتجول لنشر الافكار .

وفى سنة ١٩٢٤ وصلت الحركة النقابية دروتها بفضل زعيمها البطل محمد على الذى نجح فى الخروج بالعمال من حظيرة النقابة الفرنسية الى مؤسسة تونسية مسلمة؛ لان البلد الذى ينشد الاستقلال لا يمكنه الا ان يعمل لاستقلال سائر حركاته ، وابتعادها عن كل تبعية مادية او معنوية للبلد الذى يحتله ، ولكن المقيم لوسيان سان قاوم هذا المظهر من مظاهر الحركة القومية ، كما قاوم غيره ، وأبعد السيد محمد على وثلة من أصدقائه الى خارج القطر ، حيث ماتوا جميعا بعيدا عن أهلهم ومواطنيهم ، كما حوكم فى هذه الظروف الدكتور ابن ميلاد ، وحكم عليه بالنفى خمسة أعوام .

الشباب الدستورى فى الميدان :

قلنا ان أبرز ما قامت به الحركة الدستورية بعد سفر رئيس الحزب هو تشكيلاتها ، وبالاخص ما يرجع منها لاعداد الشباب الذى يجب أن يغذى دائما الحركات ويزيدها نشاطا وقوة . وفعلا فما رجع الجيل الجديد من وجهاته الدراسة حتى فسح له الحزب مجال العمل، فانضم للمسيرين القدماء السيد الشاذلى خير الله بصفته سكريترا للغة الاجنبية فى اللجنة التنفيذية . ولما أوقفت الحكومة جريدة الحزب أسس السيد الشاذلى جريدة فرنسية أخرى تحمل اسم «العلم التونسى» سنة ١٩٢٧ . وقد نجحت هذه الجريدة برغم أنها لم تكن لسان الحزب الرسمى فى ان تلف من حولها الشباب الدستورى

المثقف. ولكن الحماية لم تمهل هذه الجريدة الا قليلا، ثم اوقفتها سنة ١٩٢٩ فلم يتقهقر الدستوريون، بل سرعان ما عوضوا العلم التونسى (بصوت التونسى)، وتكونت حول هذه الجريدة لجنة من الشباب الدستورى للاشراف على توجيهها وتحريرها، وكان من بين اعضائها الاستاذ الحبيب ابو رقيبة، والسيد صالح فرحات، والطاهر صفر، والدكتور الماطرى وغيرهم. وقد كان لهذا التنظيم أثره المحسوس فى الحملات الصحفية التى رددت صدى الاستياء التونسى. ثم اسس الشباب التونسى بعد ذلك جريدة (العمل التونسى) مستقلا عن السيد الشاذلى خير الله. وقد كان الاستاذ ابو رقيبة هو رئيس تحرير الجريدة الجديدة . اما الحزب الدستورى فقد اسس صحيفته الرسمية باللغة الفرنسية تحت اسم (صوت الشعب)

ظاهرة مريبة فى الاستعمار الفرنسى :

بينما يقف الشعب التونسى كأخيه المغربى موقف المطالبة بحرياته المغصوبة وحقوقه المسلوبة اذا بالسياسة الاستعمارية الفرنسية تتقمص شكلا جديدا اشد وأدهى من كل الأشكال التى ظهرت بها من قبل؛ فقد وجهت حملتها العنيفة هذه المرة لا للسيادة القومية فى شمال افريقيا ، ولا للثروة الشعبية فى يد أبنائها، ولكن للعقيدة الاسلامية التى ظلت الغذاء الوحيد للنفوس فى هذا البلد المنكوب. وهكذا تقرر انعقاد المؤتمر الافخارستى فى تونس فى الوقت الذى قررت فيه فرنسا تدشين سياستها البربرية فى مراكش، وذلك بمناسبة مضى ٥٠ عاما على احتلال تونس .

ولم تكن هذه الظاهرة مجرد عمل قام به الولاة الرجعيون خارج فرنسا بل كان سياسة جديدة قررت الحكومة الفرنسية نفسها اتباعها والعمل عليها، وقد اعلن وزير الخارجية الفرنسية أمام مجلس النواب أثناء عرض الوزارة لفصل من الميزانية يرمى لمساعدة الجمعيات التبشيرية ومعارضة بعض الاحزاب اليسارية له : «ان فرنسا اذا كانت لا دينية فى داخل حدودها فانها دينية فى الخارج»، فالمسألة اذن لم تعد قضية بعيدة عن المسؤولية الرسمية للجمهورية الثالثة التى تعتبر اللائكية من اجلى مظاهرها التى تفتخر بها .

وهذا الاتجاه الجديد شجع المبعوثين المسيحيين فى شمال افريقيا على التظاهر برغباتهم فى استغلال ظل السلطة بتبشير المسلمين بالمسيحية، مرتكبين فى ذلك مختلف الوسائل، غير مبالين بما يجرح

عواطف المغاربة واحساساتهم الدينية، وهكذا عرضت الاقامة العامة على المجلس الجديد مشروع مليونين من الفرنك لتنظيم المؤتمر الافخارستى. ولما عارض الاعضاء المسلمون فى المصادقة على المبلغ منعتهم السلطة من المناقشة وأقرت مشروعها كما تشاء . ثم صرح الاسقف بأن المؤتمر الافخارستى حملة صليبية على تونس، وان كان ملؤها المحبة والسلام .

وازاء هذا التحدى لعواطف المسلمين قرر الشعب الاحتجاج والتظاهر واحتشد بأندية الحزب الدستورى، ووقعت مظاهرات كبيرة فى سائر أنحاء المملكة، وأضرب عمال الرصيف ببنزرت وتونس يوم نزول المؤتمرين بالتراب التونسى؛ كما اضرب تجار القطن وعمالهم فى سائر الجهات ، وقام الشباب بأعمال جليلة فى اسعاف المنكوبين ومساعدتهم، كما حملت الصحافة الوطنية (العمل التونسى) و (صوت الشعب) وغيرهما حملات موفقة، وانتهى كل ذلك باخفاق المؤتمر وعدول السلطة الفرنسية عن الاحتفال الخمسينى الذى قررته .

ولعل القارىء غير المسلم يظن ان فى هذه المظاهرات ما يدل على تعصب من التونسيين ضدا على مؤتمر لا يرمى الى اكثر من اجتماع ممثلى المسيحية للنظر فى شؤونهم الدينية، وأنه لا يعدو أن يكون مثل المؤتمرات التى يعقدها ذوو العقائد والنزعات المختلفة فى البلاد المسيحية والمسلمة على السواء . ولكن الحقيقة ان الدافع لمقاومة التونسيين لم تكن هى روح التعصب كما يظن، وانما هى المقاومة للسياسة الاهلية الفرنسية التى ترمى لفرنسة المغاربة عن طريق تمسيحهم، فاستغلال الدين ورجاله ، واستعمال القوة الروحية التى تمثلها المسيحية لتمكين المستعمرين من الوصول الى أغراضهم فى هدم الكيان التونسى هو الباعث الاول فى الموضوع. وزيادة على ذلك فان الحماية لا يمكنها أبدا ان تسمح للمسلمين بعقد مؤتمر كبير اسلامى على نمط المؤتمر الافخارستى فى أرض الحماية، ولو كان مجرد مؤتمر دينى لا محل للسياسة فيه، فالمسألة تكتسى أيضا صبغة المقاومة لروح التحيز المبنى على تعصب ممقوت ، وأيضا فان السلطة لم تتعفف عن التذكير بفتحها لتونس وبعزمها على الاحتفاء بمرور خمسين عاما على الحماية، فلم يكن المؤتمر الافخارستى الا جزءا من هذه الاحتفالات التى يراد بها الامتنان على التونسيين بنعمة استعبادهم واحتلال بلادهم. ولم تزل الحماية فى تونس تذكر بالحرب الصليبية التى قادها سان لوى، وقد كان اول تصرف قامت به فرنسا فى تونس هو وضع تمثال فى قرطاجنة لسان لوى الذى قضى نحبه على

أبواب تونس ولم يتمكن من فتحها. فالدفاع القومى اولا واخيرا هو الذى حمل اخواننا فى تونس على معاكسة امانى الفرنسيين ومقاومة اعمالهم المصطبغة بصبغة الدين.

قضية التجنيس :

ولعل السياسة الفرنسية أحست بفشلها فى فرنسة التونسيين عن طريق المسيحية، فبدأت تنشر دعوتها لتجنيس المسلمين بصفة اجماعية بعد ان كانت فتحت لهم باب التجنيس الفردى، ولكن الروح القومية لا يمكنها أن تترك هذه المهاجمة الجديدة تفتك بالامة فى صميم وجودها ، فما ألقى مسيو بول بونكور خطابه فى مجلس النواب الفرنسى معلنا ان الحماية التونسية عازمة على اتخاذ سياسة تجنيس اجماعى لأهالى تونس حتى ثارت البلاد ثورتها، وقامت الصحافة الوطنية بحملة صادقة. وقد قرر الشعب مقاطعة المتجنسين وعدم التزاوج معهم، ومنعهم من الدخول للمساجد، وحرمانهم من الدفن فى مقابر المسلمين. وقد نجحت هذه المقاطعة نجاحا كبيرا ادى الى التقليل من عدد الذين حاولوا التجنس اولا، ثم انقطاعه نهائيا، وسجلت الحركة الوطنية بذلك انتصارا كبيرا على سياسة الادماج الفرنسية. وقد كان لهذه الحركة ضحاياها وحوادثها التى أصدر عنها مكتب الانباء التابع للجنة التنفيذية للحزب الحر الدستورى رسالة خاصة يمكن لمن شاء الرجوع اليها .

مؤتمر قسم الجبل :

ازاء هذه المهاجمات المتوالية، وازاء الحماس الذى أظهره الشعب وخاصة الشباب الدستورى الجديد قررت اللجنة التنفيذية عقد مؤتمر للحزب للنظر فى الخطة التى يجب اتخاذها والتى تتفق مع التطورات التى أنتجتها مختلف الحركات الشعبية فى البلاد. وانعقد المؤتمر يومى ١٢ و ١٣ مايو سنة ١٩٣٣ بنادى الحزب فى قسم الجبل من رجال اللجنة التنفيذية وممثلى شعب الحزب، وانضمت اليهم جماعة العمل التونسى التى كانت تمثل النزعة اليسرى للشباب الدستورى، وبعض استعراض الحالة، واعتبار التقلبات التى مرت بها الحركة الوطنية منذ سفر رئيسها الثعالبى للشرق، ودرس النوايا السيئة التى رمت اليها السياسة الفرنسية من حملاتها التبشيرية والتجنيسية ـ اتفق المؤتمرون على ضرورة العدول عن كل خطة تدعو للتعاون مع النظام القائم، ورفض الاعتراف بالمجلس

الكبير وما اليـه، والعودة بالحزب للسياسة الحازمة التى سار بها وفده الاول بباريس بعد الحرب، وأصدر قراره بعد الاعتبارات الاولية معلنا :

« ان الغاية التى يرمى اليها الحزب من العمل السياسى هى تحرير الشعب التونسى، واعطـاء البـلاد نظاما صالحا مستقرا فى شكل دستور يحفظ الشخصية التونسية، ويحقق سيادة الشعب بواسطة :

ـ برلمان تونسى منتخب انتخابا عاما مالكا لاعداد محاضر جلساته ومكتسبا لكامل السلطة التشريعية .

ـ وحكومة مسؤولة امام هذا البرلمان .

ـ والفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية .

ـ وامتداد اختصاص القضاء التونسى لجميع المقيمين فى الايالة التونسيـة .

ـ واعطاء الحريات لجميع المواطنين من غير استثناء .

ـ والتعليم الاجبارى للجميع .

ـ وحماية الحياة الاقتصادية للبلاد .

ـ وبصفة عامة، كل ما من شأنه ان ينهض بالبلاد من هذه الوهدة التى هى فيها ماديا ومعنويا، ويعطيهـا المحل اللائـق بها بين الشعوب المتمدنة التى تملك مصيرها » .

وقد قام المقيم العـام مانصورون برد فعل لهـذا العمل، فقرر حل الحزب الحر الدستـورى واقفـال سائر صحفه، ولكنه فى الوقت نفسه أحدث مقبرة خاصة للمتجنسين. وبعد ذلك بقليل أعفى مسيو مانصورون، وعين عوضا عنه المسيو بيرتون فأراد المراقبون المدنيون انتهاز فرصة تعيين المقيم الجديد لارغام المسلمين على قبول المتجنسين فى مقابرهم، الامر الذى ادى الى حادثـة المنستير يـوم ٨ أغسطس، ذلك أن متجنسا قضى فى تلك المدينـة، فأصدر المراقب المدنى جريميقيق الامر بدفنه فى المقبرة الاسلامية، وبعث لاتمام ذلك كوكبة من الجند المسلح، فأدى الامر الى اصطدام الكوكبة بجمهور المتظاهرين ضد هذا العمل ومات واحد منهم وجرح الكثيرون.

الانشقـاق فى صفـوف الدستور :

لقد كانت النزعة الجديدة التى تمثلها كتلة شباب العمل التونسى التى يظهر أنها أخذت تتكيف بالشكل الذى كانت تكيفت به كتلة العمل المغربى بمراكش مختلفـة من حيث حماسها مع النزعة التى كان يمثلها

رجال اللجنة التنفيذية فى الدستور القديم ولكن رجال اللجنة التنفيذية حاولوا تلافى اى انشقاق فى الصفوف فدعوا لمؤتمر قسم الجبل الذى أشرنا اليه، وقرروا ادخال ممثلى جناح العمل التونسى بما فيهم السادة قيقا وأبو رقيبة فى اللجنة التنفيذية، لان ذلك من شأنه أن يوفق بين النزعات التى أخذت تبدو فى توجيه الحركة، ولكنه للاسف لم تؤد هذه الحركة للغاية منها، فسرعان ما عين مسيو بيرتون حتى أخذ يظهر للدستوريين عطفه واستعداده للتعاون معهم، وبعد أن اجتمع باقطابهم أعلن لهم موافقته على بعض المطالب التى منها تقليل عدد الموظفين الفرنسيين، واحلال الاهالى محلهم سيرا فى طريقة التشريك فى الحكم التى تؤدى فى النهاية لان يتولى التونسيون حكم نفسهم بنفسهم. ولكنه اشترط عليهم عدم اعلان موافقته هذه ليتمكن من تنفيذها دون ان تمنعه من ذلك معارضة الفرنسيين. واذا لم يكن حتى الوعد بهذا الاصلاح البسيط قد نجز، فان هذه السياسة عجلت حدوث ما كان يخشى وقوعه من خلاف بين الشباب الدستورى ورجاله القدماء ؛ ذلك أن السيد قيقا لم يتأخر عن اعلان ما صرح به بيرتون من شأن التقليل من الموظفين، وأخذ عليه أصدقاؤه اخلافه للوعد، وادعى الشباب انه لا يمكن ان يكون بين الوطنيين وبين الاقامة العامة سر يكتم على الجمهور، وزعم الآخرون ان السياسة تقضى بتأخير الاعلان للوقت المناسب لتعطى للمقيم الفرصة التى يتبين فيها صدقه من كذبه، ومهما تكن أهمية هذا الامر ضئيلة فقد كان السبب المباشر او (نقطة الماء التى تفيض الاناء) لحدوث الانشقاق الذى أدى الى تكوين صفى الدستور الجديد والقديم .

واذا كان الدستور القديم من الوجهة القانونية قد انحل بمقتضى قرار مانصورون الذى أشرنا اليه، فقد أغضى بيرتون عن تأسيس الدستور الجديد واصداره جريدة «العمل» باللغة العربية، الامر الذى مكن المنفصلين من الدعاية لحزبهم وضم العديد من الشعب الى جانبهم .

وفى مؤتمر «قصر هلال» ولد يوم ٢ مارس سنة ١٩٣٤ حزب الدستور التونسى الجديد، وانتخب الدكتور الماطرى رئيسا له، والاستاذ الحبيب ابو رقيبة أمينه العام. وللتميز عن الحزب القديم أعطى لهيئته الادارية اسم «الديوان السياسى» بينما احتفظ القدماء باسم اللجنة التنفيذية.

لم يعلن الحزب الجديد اختلافا عن المبادىء التى يدافع عنها الاولون، ولكنه انتقد انتقادا مرا ما يسميه بالبرودة وقلة الحركة، وأخذ ينشر

الدعوة لتكوين هياج شعبى للضغـط على الادارة وارغامها على الاعتراف بالحقوق .

واذا كان بيرتون اولا قد اغضى عن حركة الديوان السياسى، واذا كان قد حاول الاستفادة من الخلاف باستدعـاء الطرفين للمشاركة فى ما سماه بلجنة المباحث، وباستدعائهما لبعض حفلات الشاى التى كان يقيمها بالاقامة العامة ـ فانه سرعان ما اضطر الى مواجهة الحقيقة، وهى استفحال المظاهرات والمطالبات الشعبية والحملات الصحافية التى أثارها حماس شباب جديد الدخول لميدان الصراع الوطنى. فأصدر أمره بتعطيل جريدة «العمل» واعتقال الزعماء وبعثهم الى برج البوف وغيره من مراكز الصحراء وكان ذلك يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٤

وتضامنا مع الزعماء المبعدين ودفاعا عن المطالب التى اعتقلوا من اجلها توالت المظاهرات فى تونس وغيرها من المـدن التونسيـة. وجرت مشادة بين الجمهور والجيش اضطر فيها المقيم العام للالتجاء لبعض الزعماء الذين لم يعتقلوا بعد، ولكن الشعب قد هاج وصعب حتى على أقطاب الحزب الباقين أن يردوه عـن المظاهرة والمطالبـة بعودة المعتقلين وتحقيق امانى البلاد . وانتهى الامـر باعتقـال البقيـة من القادة ، وسجن سائر اعضاء الدواوين السياسية التى تعاقـب تشكيلها، كمـا اعتقل زعمـاء اللجنة التنفيذية، لان مسيو بيرتون عرف ان الخـلاف السياسى فـى المغرب لا يمس اتحاد الكل فى مقاومة المحتل ، وقد استمرت القلاقل والاضطرابات حتى قررت الحكومة فى النهاية اعفاء مسيو بيرتون، ثم نقله للمغرب حيث يلاقى مصيره النهائى بتضامن الوطنيين المراكشيين، وعين محله مسيو ارمان قيون فى ابريل سنة ١٩٣٦ .

تونس والجبهة الشعبية الفرنسية

لم تكن تونس اقل انخداعا بالجبهة الشعبية من الجزائر، خصوصا بعد ما كان الاشتراكيون الفرنسيون ـ وعلى رأسهم ليون بلوم ـ قد شاركوا عمليا فى مقاومة بيرتون والعمل على اخراجه من تونس، على أن المقيم الجديد مسيو ارمان قيون قد ابتدأ مهمته مظهرا رغبته فى تحسين حالة الاهالى واتباع سياسة تحريرية تهىء التونسيين لمستقبل حسن . وقد كان اول تصريح فاه به أثناء وصوله للعاصمة هو أنه يريد ان يحكم بقلبه ، وقد افتتح عمله بالعفو عن سائر المعتقلين السياسيين ، وسمح للاستاذ الحبيب ابو رقيبة وصالح بن يوسف والطاهر صفر وقيقا وغيرهم من قادة الدستور بالعودة الى مراكزهم .

وقد كان لهذا العمل أثره الحسن فى نفوس التونسيين فاستبشروا خيرا، ووضعوا الامل فى روح الجبهة الشعبية، وشاركوا انصارها فى احتفال توليها الحكم فى فرنسا، وصرح الزعماء بثقتهم فى رجالها، وأكد ذلك فى نفوسهم ما اتخذه مسيو قيون من السماح بفتح اندية الحزب الدستورى، واباحة الاجتماع والجمعيات، وتحرير الصحافة من عقالها ، ولم يغفل الدستوريون الجدد هذه الفرصة ، بل انتهزوها، فنظموا انفسهم وضاعفوا التشكيلات والخلايا فى كل مكان، ونشطوا بدورهم فى تأسيس الفرق الرياضية والكشفية التى تعتبر الهيئات الموازية الضرورية لتقوية الحزب واسناده، كما أن النقابيين التونسيين استغلوا الظروف فأعادوا استئناف العمل الذى بدأه زعيمهم الاول محمد على، واسسوا (الاتحاد النقابى التونسى) بزعامة القناوى منفصلا عن الاتحاد النقابى الفرنسى الامر الذى ظهر لرجال الجبهة الشعبية كشىء متناقض مع ما تقتضيه سياسة التعاون والاخاء

وأعيد الشيخ الثعالبى الذى لم يتمكن من الرجوع لتونس منذ سنة ١٩٢٣ الى البلاد. فاستقبله الشعب استقبال الرجل الذى ظل طول عمره عاملا لمصلحته، باذلا جهده فى خدمة قضيته .

وفى هذا الجو الذى يحتوى على شىء غير قليل من الحريات العامة واصل الدستوريون كفاحهم واتصالهم بمختلف الهيئات الفرنسية فى

تونس وفرنسا، وعقد الاجتماعات والمهرجانات التى تتناول مختلف المطالب الشعبية، وتشعل الحماس فى نفوس الجماهير، كما ظهرت عدة صحف حزبية ومستقلة .

وأعلن حزب الدستور الجديد أن الخطة التى قررها مؤتمر قسم الجبل سنة ١٩٣٣ هى التى ستظل اساس سياسته الحزبية، اى ان الغاية لعمله هو الحصول لتونس على نظام الدولة ذات السيادة ، او على ترشيد التونسى حسب تعبير الزعيم ابى رقيبة فى خطبه. لكن الحزب مع ذلك فكر فى اتباع سياسة المراحل، وبما ان معاهدة الحماية لم تحترم او بالاحرى اولت على خلاف المقصود منها، فالحزب يطالب كمرحلة اولى بالرجوع لروح الحماية ومعناها، مع اعتبار ان وصاية فرنسا غير دائمة ، ولكى يمكن الرجوع تدريجيا لروح الحماية يجب تنفيذ بعض التدابير المستعجلة، وهى التى اقترحها الحزب الجديد بمجرد رجوع زعمائه من المنفى :

١ ـ الغاء الثلث الاستعمارى (١).

٢ ـ توقيف الاستعمار الفلاحى الرسمى .

٣ ـ التعليم الاجبارى للجميع .

٤ ـ تكوين بلديات منتخبة .

٥ ـ تعيين التونسيين فى مختلف الوظائف الحكومية، مع تشريكهم فى مراكز الحكم المهمة .

٦ ـ تنظيم جدى لوسائل الاسعاف .

٧ ـ مقاومة الربا .

٨ ـ الغاء المجلس الكبير وتعويضه ببرلمان تونسى وحكومة مسؤولة أمامه .

* * *

والحقيقة أن هذه السياسة التى تعرف بسياسة المراحل خدعت كثيرا من الوطنيين لا فى تونس وحدها بل حتى فى المغرب الاقصى ، وقد اعتبرناها جميعا ـ والحق يقال ـ وسيلة للوصول الى أهدافنا العليا، لكن التجربة أثبتت لنا كما أثبتت لاخواننا التونسيين خطأها. نعم اذا كانت هذه السياسة مقبولة فى طور تكوين الحركة، فلم يكن من المعقول

---

(١) يعطى للموظفين الفرنسيين بتونس ومراكش والجزائر علاوة على مرتباتهم الاصلية ثلث المرتب. وهو ما يسمى بالثلث الاستعمارى .

أن يرجع اليها ولو كوسيلة بعد أن قرر المؤتمر الوطنى الدستورى سنة ١٩٣٣ العدول عنها بالمرة. ولكن انتهاجها فى الواقع كان نتيجة الدعاية الناجحة التى قامت بها الجبهة الشعبية فى شمال افريقيا ولبعض الترضيات التى طبقها المسيو إرمان قيون .

وهذه الخطة السياسية لا يمكن ان يتحمل مسؤوليتها الدستور الجديد وحده بل ان القديم لم يكن أكثر تطرفا منه(١)، ونحن لا نريد من تسجيلها ها هنا الانتقاد على اخواننا بشىء وقعنا فيه نحن ايضا، وانما نذكر بها للاتعاظ بالماضى ولاظهار خطأ الذين يريدون اليوم استئناف سياسة المراحل، أو المطالبة بالتدريج فى الاستقلال. فما دمنا قد انتصرنا على أنفسنا، واستطعنا أن نجمع كلمة الشعب كلها حول الرغبة فى هذا الاستقلال الكامل، والتحرر الشامل. فلم يعد من الخطأ فقط بل صار من الاجرام ان نعود القهقرى لسياسة لمسنا بانفسنا خطأنا الاول فيها. فان الغلط اذا وقع مرة اولى كان غلطا، أما اذا استمر فيه او تكرر عن قصد لم يعد من الخطأ فى شىء ، بل أصبح من العمد فى ارتكاب الجريمة وانتحال مبرراتها .

سافر الأستاذ ابو رقيبة الى باريس فى أغسطس سنة ١٩٣٦ وقام بدعاية كبيرة، واتصالات مفيدة فى أوساط الجبهة الشعبية، واستقبله سكرتير الخارجية فى ما يرجع لشؤون سوريا ولبنان وافريقيا الشمالية مسيو فيينو الذى كان يريد ان يبعث سياسة فرنسية اسلامية. فيها نوع من المجاملة وان لم يكن فيها شىء من التسامح او الانصاف، وزار مسيو فيينو تونس، وألقى فيها خطابا بمحضر زعماء الدستور الذين رحبوا به حاول أن يرجع فيه أسباب الازمة التونسية الى أنانية بعض المغرضين من المستعمرين الذين لا يفرقون بين مصالحهم الخاصة ومصالح فرنسا العامة. وطالب بتحسين حالة الفلاح والعامل وتنظيم البلاد تنظيما عصريا، ولكنه فى الوقت نفسه أكد تصريح مسيو ملران القديم : بأن تونس ستظل مرتبطة بفرنسا الى الابد.. هذا التصريح الذى ادلى به وهو فى باريس عن مراكش .

لكن تصريح مسيو ملران السابق كان له صدى استياء كبير فى الاوساط التونسية كتصريح فيينو فى مراكش. أما فى تونس فان روح المجاملة التى أظهرها فيينو استوجبت اغضاء الكل عن تصريحه الخطير،

---

(١) حذرت اللجنة التنفيذية الشعب التونسى من الارتماء فى احضان الواجهة الشعبية فى اجتماعاتها سيما الذى عقد فى مدينة ماطر.

على الاقل فيما يظهر للناس. لكن الطبقة العاملة للشعب ليس من عادتها ان تقتنع بالخطب او تتبع سياسة المجاملات، ولذلك لم يغادر المسيو فيينو تونس حتى بدأ العمال يطالبون بحقوقهم المغصوبة، فأضرب رجال منجم الفوسفات بالمتلوى، ومديلا (ناحية قفصة)، ووقعت بينهم وبين فرق الجندرمة مقاتلة اسفرت عن خمسة وعشرين قتيلا، وثلاثين جريحا وقد تكررت الحوادث فى أوساط العملة بسائر جهات المملكة، الامر الذى دعا رئيس جمعية المستعمرين مسيو فبنيك لينذر الاقامة العامة فى يناير سنة ١٩٣٧ (بأنها اذا لم تتخذ التدابير الصارمة فان الدماء ستسيل) .

ذهب فيينو وانتظر الشعب وانتظر الدستوريون تنفيذ الوعود التى صرح بها وزير الجبهة الشعبية، واذا بها سراب لا ثبات له، فتضاعف غضب الشعب وازداد هياجه، وتغيرت من اجل ذلك لهجة الصحافة الدستورية من أسلوب المجاملة الى أسلوب التهديد بأن الرشد التونسى واقع لا محالة، وأن فرنسا اذا لم تساعده فانه سيقع بدونها .

مؤتمر الحزب سنة ١٩٣٧

وفى هذه الظروف كانت مراكش تعانى قساوة السياسة الفرنسية التى لم تتبدل ولو قليلا فى زمن الجبهة الشعبية، وفى بحر سنة ١٩٣٧ توالت اعتقالات انصار الحزب الوطنى فى قبائل البوادى كما سنبينه ، فكان ذلك من اسباب انعقاد المؤتمر الوطنى بالرباط فى اكتوبر من السنة نفسها، وانتهى بقطع الحزب الوطنى لكل علاقة مع الاقامة العامة بالمغرب، وأبعدت فى ٢٠ من الشهر نفسه الى الجابون، كما نفى أصدقائى الاخرون لجهات مختلفة، وجرت فى البلاد أحداث هوجاء سيأتى تفصيلها. ولم تكن الجزائر أسعد حالا من مراكش، بل ان القمع والاضطهاد قد امتدا اليها.

كل هذا الى جانب الاخلاف بالوعود حمل الدستور الجديد على عقد مؤتمر وطنى فى نوفمبر ١٩٣٧ للنظر فى الموقف الذى يجب أن يتخذه الدستور ازاء سياسة القمع التى سارت فيها حكومة شوتان فى الجزائر والمغرب الاقصى، وقد قرر أن ينزع ثقته من هذه الحكومة، وأن يدعو الشعب للتحفظ ازاء رد الفعل الذى يريد الرجعيون القيام به ضدا عليه.

وللتضامن مع اخوانهم فى مراكش والجزائر أعلن المؤتمرون اضرابا عاما لمدة أربع وعشرين ساعة، وقد نجح الاضراب نجاحا كبيرا.

جواب الحماية :

وقد كانت الادارة الفرنسية بدأت عمليا فى الاستعداد لقمع التونسيين أيضا فأصدرت أوامرها بمنع الاجتماعات العامة، لكن ذلك لم يعق الدستوريين عن موالاة أشغالهم بوسائل الاجتماعات الخاصة ، والمظاهرات التى تنظم فى محلات محدودة، ولكنها لا تقل قيمة عن التظاهر العلنى من حيث اشهارها للاستياء واذكاؤها لحرب الاعصاب . فاتخذت الحماية تدابير مضادة لعمل الحزب، وطاردت مسيرى الحركة، فاعتقلت الاساتذة الزعيم أبو رقيبة والدكتور ابن سليمان والصالح ابن يوسف والهادى نويرة .

وفى اليوم التاسع من ابريل سنة ١٩٣٨ اعتقلت السلطة الاستاذ علال البهلوان ، فأدى اعتقاله الى اضطراب كبير فى العاصمة تدخل فيها

الجند وأسفرت عن مائة قتيل ، وبضع مئات من الجرحى، كما وقعت مظاهرات فى مختلف أنحاء الايالة .

اعتقل قادة الحزب الدستورى كلهم، وأحيلوا على المحكمة العسكرية بدعوى تآمرهم على سلامة الدولة كما اعتقل آلاف من أنصارهم، وهكذا أصيبت تونس كغيرها من البلدان المغربية العربية بالاضطهاد الذى استمرمنذ ذلك الوقت دون أن ينال من قيمة الحركة، او يرجع رجالها عن الكفاح .

لجنة الدفاع عن الحريات بتونس :

ازاء الضغط الذى أصاب البلاد من جراء اعتقال سائر القادة لم يعد من الممكن تسيير الحركة بالداخل على الصفة التى كانت عليها، ولكن الشباب التونسى الذى كان يتم دروسه فى باريس قرر ان يتحمل مسؤولية العمل الى اليوم الذى يتحرر فيه الزعماء ، وتعود الحالة لمجراها الطبيعى، فأسسوا لجنة الدفاع عن الحريات العامة فى تونس بقيادة الدكتور سليمان بن سليمان، الذى يعتبر من أقطاب رجال الديوان السياسى اليوم. وقد والت هذه اللجنة مجهوداتها بعقد مهرجانات ، وتنظيم حملات صحافية، والاتصال بأنصار الحزب فى الداخل، وتوجيههم وسرعان ما تم تنظيم حركة مستمرة خفية توالى مقاومتها المتنوعة ، وتوالى حرب أعصاب أقلقت المستعمر كل هذه المرحلة الطويلة، وقد كان على رأس هذه العمليات الدكتور حبيب ثامر، وقد أصدرت عدة صحف وشجعت اقامة مظاهرات بمختلف المناسبات، وتوزيع المنشورات السرية، والقيام بتخريب بعض وسائل المواصلات وتعطيل اسلاك التليفون، وغير ذلك من أساليب التهييج والتهريج .

الحرب العالمية الثانية :

وطبيعى ان تزيد الحرب العالمية هذه الثورة اشتعالا، فانها فرصة لاغراء الشعب بعدم الأشراك فى الجندية، وفعلا لم ينخرط فيها الا من أخذ عن طريق القوة او سبيل الاحتياج، وتضاعفت أعمال (السابوتاج) برغم تهديدات الجنرال بلان الذى كان حاكما بفاس أثناء ابعادى، وقام بها بضروب القساوة العظيمة، ثم نقل لتونس كحاكم عام للجيش، الامر الذى حمل الادارة على اتخاذ تدابير شديدة كالحكم بالاعدام، وتحميل الاهالى مسؤولية حراسة الاسلاك التليفونية بارغامهم على حراستها بالمناوبة ،

وبلغ الخوف بالاقامة العامة الى أن منعت توزيع السلاح على الجند التونسى المقيم بالحصون التونسية. ومع ذلك فان (السابوتاج) استمر وظهرت بوادر العصيان المدنى بين المجندين، حتى اضطرت السلطة من أجل دفعهم لنزول بنزرت، والسفر الى ميادين القتال فى بلجيكا وايطاليا، الى استعمال الحيلة والشدة، فوقعت مشادة بينهم فى قابس والقيروان. وهكذا بقيت المحاكم العسكرية قائمة، وملئت السجون والمنافى بأفراد الشعب .

وحينما وقعت الهدنة الفيشية انتهز الدستوريون الفرصة، فطالبوا بالاستقلال نظرا الى أن الحماية لم تعد قادرة على الدفاع عن الوطن . وقد تقدم يوم ٥ يوليه سنة ١٩٤٠ وفد من الدستور الجديد لسمو الباى رافعا له عريضة يطالب فيها باطلاق سراح أبى رقيبة واخوانه المعتقلين فى (بور سان نيقولا) بمرسيليا، والغاء عقد الحماية. وفى الوقت نفسه وزعت الفروع الحزبية بيانا عاما على الشعب بنفس المعنى، وقد أجاب المقيم العام الاميرال استيفان على هذا العمل باعتقال سائر أعضاء الوفد وبفضل تدخل الباى نفسه فان اعتقالهم لم يدم الا بضعة اسابيع .

واخيرا اعتقل الدكتور ثامر وسائر اعضاء الديوان السياسى الذين لم يعتقلوا فى المدة السابقة، ولكن ذلك لم يؤثر فى سير الحركة التى استمرت على هذا الهياج والفتنة حتى ديسمبر سنة ١٩٤٢

وفى ١٩ يونيه سنة ١٩٤٢ ارتقى صاحب السمو المنصف عرش البلاد، وهو المعروف بعواطفه الوطنية، والذى تغذى بالروح القومية وهو فى أحضان والده محمد الناصر، فكان ارتقاؤه مناسبة سرور عام وحماس هائل للشعب كله، وقد أعلن تضامنه مع الوطنيين التونسيين .

وفى اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٩٤٢ قدم سموه للاميرال استيفان دفتر المطالب المستعجلة التى تتفق فى الكثير منها مع رغبات الدستوريين المقدمة سنة ١٩٣٦، وقد وعدت الحكومة الفرنسية بانجازها، ولكن هذا الوعد لم يحقق. وفى ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٢ احتلت الجيوش الالمانية تونس فتدخل الباى لاطلاق سراح المعتقلين السياسيين، فعاد الدكتور ثامر لقيادة الحركة الدستورية بصفة علنية حيث قام بتجديد تنظيم الحزب، وتكثير خلاياه، واصدار جريدته العربية، والقيام بتجولات للدعاية فى انحاء الايالة. وهكذا استعاد الحزب مركزه بالتفاف سائر الامة من حوله. ونقل ابو رقيبة ومن كان معه الى روما حيث لم يتمكنوا من العودة لتونس الا فى ابريل سنة ١٩٤٣ .

وفى ٨ مايو سنة ١٩٤٣ وقع تحرير تونس، ودخلتها جيوش الحلفاء فانتهزت الادارة الفرنسية فرصة الاضطراب القائم، وقررت القضاء على الوطنيين التونسيين بدعوى تعاونهم مع سلطات المحور .

وفى ١٤ مايو سنة ١٩٤٣ أعلن الجنرال جيرو خلع سمو المنصف، بالرغم من أن سموه أعلن فى الوقت المناسب حياده، ورفض كل عروض الالمانيين، ونقل الباى بالطيارة الى (الاغواط) فى الصحراء الجزائرية، ثم الى (تنس) وأخيرا الى (بو) فى اكتوبر سنة ١٩٤٥ حيث بقى معتقلا الى أن قضى نحبه شهيد الشهامة والوطنية يوم فاتح سبتمبر ١٩٤٨ م. ووقع اعدام مئات من الافراد، وحكم على الآلاف بسنوات مختلفة من السجن القاسى، وبفضل تدخل بعض الدوائر الاجنبية فان الاستاذ ابو رقيبة سلم هذه المرة من الاعتقال هو وبعض اصدقائه، أما الشعب فقد عاد الى الكفاح فى السر، ووجدد محاولاته للثورة، تلك المحاولات التى كانت تسرع القوة الغاشمة لاخمادها .

وفى هذه المرحلة اعلن الحزب فى بيان اذاعه رغبته فى ان تعطى تونس نظام الحكم الذاتى موحدا بذلك صفوف الامة حول مطلب معين .

وفى ٢٦ مارس سنة ١٩٤٥ غادر الزعيم ابو رقيبة تونس بصفة سرية وبصحبة بعض اصدقائه، وبعد سفر طويل وصعب وصل الى القاهرة لموالاة الكفاح فى سبيل الحرية التونسية المنكوبة .

اما الزعماء الذين بقوا فى تونس فقد استطاعوا ان يعيدوا تنظيم الديوان السياسى بزعامة امينه العام المجاهد الكبير الاستاذ صالح بن يوسف الذى قدر على تجديد الاساليب الدستورية فى الدعاية والنظام، وبدأ يواصل العمل الذى أسسه الدستوريون الاولون .

ونظرا لظروف ما بعد الحرب فقد اتفق الديوان السياسى واللجنة التنفيذية للدستور القديم على عقد مؤتمر عام لدراسة الاحوال وتوحيد خطة الكفاح. فانعقد هذا المؤتمر يوم ٢٣ اغسطس سنة ١٩٤٦ تحت رئاسة السيد العروسى الحداد وشارك فيه زيادة على الحزبين الدستوريين الاتحاد العام التونسى للشغل، وأساتذة جامع الزيتونة ، واتحاد الموظفين التونسيين .

وبعد ما استمع المؤتمرون للبيانات السياسية التى ادلى بها الاستاذ عباس فرحات عن اللجنة التنفيذية، والاستاذ صالح بن يوسف عن الديوان السياسى صادق المؤتمر على ميثاق وطنى سنذكره من بعد.

وبينما المجتمعون يتداولون فى نتائج أعمالهم اذا بالبوليس يحتل قاعة الاجتماع، وفى يده امر ممضى من المقيم العام، وبعد ان حاضر الحاضرين فتشهم واحدا بعد الآخر، واعتقل ستين منهم فى مقدمتهم زعماء الدستور بدعوى تآمرهم على سلامة الدولة ، وتجديد حزب منحل.

أما الرئيس الحداد فلم يعتقل وانما استدعى للمحكمة العسكرية بتهمة رئاسته المؤتمر، وبسؤاله عن ذلك وعن الميثاق أجاب بأنه أطلع عليه قبل المؤتمر بـ ٤٨ فوجده مطابقا للقانون والواقع .

وقد استمر المعتقلون فى السجن شهرا واحدا، ثم اطلق سراحهم. وفيما يلى نص التصريح الذى أعلنه المؤتمر :

ميثاق المؤتمر الوطنى التونسى

حيث كانت البلاد التونسية قبل سنة ١٨٨١ دولة مستقلة تربطها بالخلافة الاسلامية روابط روحية اكثر منها سياسية.

وحيث كانت السيادة التونسية معترفا بها دوليا، وقد أيد هذا خاصة ما أبرمته تونس من مختلف المعاهدات مع الدول.

وحيث عمدت فرنسا، بعد ان دافعت عن استقلال البلاد لدى الدولة العثمانية نفسها الى ارغامها على قبول حمايتها بمقتضى معاهدة اجبر الملك محمد الصادق على امضائها بالقوة القاهرة، ولم يصادق عليها الشعب يوما من الايام .

وحيث ان معاهدة باردو لم تخرج الدولة التونسية من الاسرة الدولية، ولم تجردها من سلطتها الداخلية والخارجية.

وحيث ان الحماية قد استحالت ـ بعد مضى خمس وستين سنة ـ الى نظام استغلالى استعمارى، جردت به تونس من سيادتها ومن خيراتها تجريدا منظما، فى حين ان مفهوم معاهدة باردو واتفاقية المرسى ومنطوقهما يقضيان بأن تكون الحماية نظاما وقتيا شبيها بوصاية بسيطة.

وحيث ان الدولة الحامية لم تلتزم حدود سلطة المراقبة، وحلت محل الدولة المحمية فى مباشرة الحكم والتصرف فى الشؤون العامة .

وحيث ان السلطة الفرنسية قد استحوذت على السلطة التشريعية التى هى حق خاص لجلالة البای حتى اصبح جلالته شبيها بموظف شرفى سام مضغوط على حريته الشخصية، وان وزراء الدولة التونسية صاروا مجرد شخصيات لتزيين المحافل، وان العمال (المديرين والمحافظين) أصبحوا أعوانا ينفذون اوامر المراقبين المدنيين الفرنسيين وحيث انها نزعت سلطات جميع الموظفين التونسيين وأسندتها لموظفين فرنسيين لم تكن خبرتهم ولا نزاهتهم فى غالب الاحيان سالمتين من الطعن .

وحيث ان فرنسا التى التزمت علانية بحماية شخص البای وعائلته قد خرقت المعاهدة مرة اخرى فخلعت عنوة ملك البلاد الشرعى جلالة محمد المنصف معتدية حتى على القواعد الاصلية للدين الاسلامى .

وحيث ان هذه الاعتداءات قد نشأ عنها نظام ادارى مضطرب لا هو الحاق ولا حكم ذاتى، وقد ضاعت فيه الاصول التشريعية، وتلاشت فيه المسؤوليات .

وحيث سلكت فرنسا منذ اول عهد الحماية سياسة تفقير الاهالى مغتصبة أخصب اراضيهم، ومخصصة اكثر من ثلثى الميزانية التونسية للموظفين (وجلهم من الفرنسيين)، وهى ميزانية لا رقابة للشعب عليها تتكون من جبايات تفرض على عدد السكان لا على الثروات، وقد فرضت على تونس سياسة نقدية وجمركية وتجارية تضر باقتصادها، ولا تعود بالفائدة عليها فى مبادلاتها مع البلاد الاجنبية .

وحيث كانت سياسة التفقير هذه هى نتيجة سياسة تعمير البلاد بواسطة المعمرين والموظفين، وفتح باب التجنس للاهالى، ومنح الجنسية الفرنسية للمالطيين الانجليز والروس البيض والاسبان الجمهوريين وحتى الايطاليين فى العهد الاخير لاكثار عدد الرعايا الفرنسيين بالنسبة لعدد الاهالى والقضاء على شخصية البلاد التونسية.

وحيث ادى الاسراف المالى الذى تقتضيه هذه السياسة الى عجز سلطة الحماية عن القيام بواجباتها الاجتماعية نحو السكان العرب من حيث التغذية والسكن والاسعاف والتعليم .

وحيث أهملت سلطة الحماية واجباتها الانسانية لفائدة الرأسمالية المسيطرة على البلاد ولم تؤد رسالتها التمدينية المزعومة التى تريد ان تبرر بها فرض حمايتها على البلاد .

وحيث ان فى تمثيل الجالية الفرنسية المقيمة فى تونس بالبرلمان الفرنسى اعتداءً جديدا على السيادة التونسية ، ونقضا خطيرا لأساس الوضعية الدولية للحماية .

وحيث ان التونسيين قد حرموا فى بلادهم من الحريات الاولية ، وهى حريات التفكير والنشر والقول والاجتماع والتنقل، وعاشوا اكثر من عشرين سنة تحت الاحكام العرفية .

وحيث لم تحترم الدولة الحامية تعهداتها فى حراسة أمن الدولة ، وسلمت البلاد لدول المحور ، بينما بذل التونسيون دماءهم فى كل مناسبة للدفاع عن فرنسا وحلفائها .

وحيث ان معاهدة باردو نصت على ان الحماية فى جوهرها نظام وقتى، وأن مصالح الفرنسيين الناتجة عن هذا النظام المؤقت لا يمكن بحال أن تكون لها صفة الدوام والاستقرار .

وحيث انه من جهة اخرى لا يمكن لمصالح دولة حامية ان تحول دون حقوق الشعب الثابتة فى تقرير مصيره بكامل الحرية .

وحيث ان الأستعمار يعتبر بحق سببا للتنافر بين الدول، ومثارا لمشاكل دولية، وقد عبرت الامم المتحدة عن استنكارها له بحكم صريح وجعلت من بين الاهداف التى خاضت من اجلها غمار الحرب : «حق الشعوب كلها فى اختيار نوع الحكم الذى ترتضيه لنفسها، واسترجاع حقوق السيادة والاستقلال الى الامم التى انتزعت منها قهرا» .

وحيث ان هذه النظرية الجديدة أخذت تتجلى وتتأكد أثناء المؤتمرات العالمية المختلفة، وقد كانت فرنسا من بين الدول الاستعمارية التى صادقت على المبدأ القائل : «ليس لاية أمة الحق فى ان تحكم الشعوب الواقعة تحت سيطرتها حكما ابديا » .

لهذا كله فان المؤتمر الوطنى التونسى يعلن : أن نظام الحماية نظام سياسى واقتصادى لا يتفق مطلقا مع سيادة الشعب التونسى ومصالحه الحيوية، وان هذا النظام نظام استعمارى قضى على نفسه أمام العالم بالاخفاق بعد تجربة خمس وستين سنة، كما يعلن عزم الشعب الثابت على استرجاع استقلاله التام، والانضمام ـ كدولة ذات سيادة الى جامعة الدول العربية وهيئة الامم المتحدة والمشاركة فى مؤتمر الصلح .

الحالة الحاضرة

وهكذا وضع المؤتمر الدستورى حدا للغموض والتحول الذى كان يكتنف خطة الحركة القومية بتونس. فقد أصبح المطلب العلنى الصريح هو الاستقلال التام بدون قيد ولا شرط. وقد صادق على هذه الغاية والتزم العمل فى سبيلها رجال اللجنة التنفيذية ورجال الديوان السياسى، ومن حولهم الشعب التونسى كله من غير استثناء .

ولكن تحقيق الاستقلال يتوقف طبعا على كفاح آخر، وهذا الكفاح يتطلب توحيد الصفوف وتنسيق الاعمال. ولذلك فقد اتفق الحزبان التونسيان على تكوين لجنة تنسيق مشتركة تدرس المسائل القائمة وتوجه الحركة توجهيها الصحيح .

ومن الحق أن نعترف بأن الاغلبية التونسية اليوم هى فى صف الدستور الجديد . ولكن الاقلية قوية ايضا فى اخلاصها لهذا المبدأ المشترك ، وبموقفها من جانب التعاون الذى رغب فيه الدستوريون انجدد بعد أن كانوا رفضوه من قبل. فالحركة التونسية سائرة سيرها الطبيعى اليوم . ورجالها لا يألون جهدا فى العمل داخل البلاد وخارجها لتحرير وطنهم وتحقيق أمانى شعبهم المجيد .

ولقد شارك كل من الحزبين فى تأسيس (لجنة تحرير المغرب العربى) بزعامة الامير عبد الكريم، ويمثل الديوان السياسى فيها الزعيم أبو رقيبة والدكتور ثامر ، كما يمثل اللجنة التنفيذية مديرها السيد محى الدين القليبى .

والاستاذ أبو رقيبة لا يقصر عمله على القاهرة ، ولكنه يعمل فى حركة دائمة مترددا بين الشرق وأوربا وأمريكا ، وهو فى تجولاته بمثل الحركة الدستورية كلها .

مراكش
أو
المغرب الاقصى

لقد كانت مراكش تعتبر دائما القطر الجزائرى بمثابة الحصن الامامى لحمايتها. ولذلك ظلت سياستها التقليدية ترمى الى امتداد نفوذها المعنوى للجزائر أو على الاقل العمل على حمايتها من الاحتلال الاجنبى الذى من شأنه أن يحاول ـ متى استقر بها ـ التوسع يمينا ويسارا . فلما وقعت الجزائر تحت الحكم التركى ظل المراكشيون متخوفين من أن يمتد سلطان الترك لبلادهم ، وسارت حكومتهم على منهج مؤيد لجميع الحركات الوطنية المناوئة للاتراك والتى ترمى لتكوين مملكة جزائرية مستقلة . وهذا ما دفع بجلالة السلطان عبد الرحمن الذى ظل على عرش المغرب الاقصى من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٩٤ لتأييد مقاومة التيجانيين للترك، برغم أن العقيدة التى أيدها سلفه مولاى سليمان كانت مستمدة من الوهابيين ومنافية لروح الطريقة التى انتحلها التيجانيون .

واذا كانت هذه هى سياسة مراكش مع دولة مستعمرة اسلامية فمن الطبيعى أن يكون موقفها مع المحتلين غير المسلمين مضاهيا أو أحرويا ولذلك ما حاولت فرنسا احتلال الجزائر حتى تقدمت الحكومة المغربية بالاحتجاج وتنشيط المقاومة ، وما رأت عجز الترك عن الدفاع حتى تقدمت ببعث مندوب لجلالة الملك الذى دشن المقاومة العربية فى تلمسان، وساعد على تكوين سلطنة الامير عبد القادر تحت رعاية ملك المغرب وتأييده ، كما نشطت شخصية أبى معزى المراكشية التى نظمت مقاومة زواوة منفصلة عن عبد القادر اولا ثم بالاتفاق معه ثانيا . وقد استمر تأييد الدولة الشريفة للمجاهدين الجزائريين حتى كانت موقعة ايسلى فى ٤ أغسطس سنة ١٨٤٤ حيث انهزمت الجيوش المغربية انهزاما شنيعا ، وكادت فرنسا تحتل القسم الشرقى من مراكش بعد ما هددت بمدافعها مينائى طنجة والصويرة .

ولقد كان انهزام الجيش المراكشى فى هذه الموقعة برغم حسن القيادة التى رأسها خليفة الملك وابنه محمد بن عبد الرحمن الذى أصبح من بعد محمد الرابع سلطان المغرب باعثا للشعب المغربى ونخبته على التدبر والتفكير فى أسباب الهزيمة وظروفها . وقد تنبه المغاربة منذ

الساعة الى أن الانظمة العتيقة فى الجيش وفى الدولة لم تعد مجدية ازاء التقدم الاوربى الحديث وتكون فى نفوس القادة شعورهم بالحاجة للتجديد وانتحال وسائل التقدم والنهوض . وتعتبر هزيمة ايسلى الفجر الاول للنهضة المراكشية الحديثة التى لا نريد أن نفصل مراحلها ، وانما نريد الاشارة الى بعض ما له علاقة منها بتسيير الآلة النفسية لتكوين حركات المقاومة الاستقلالية فى مراكش .

سارت فى البلاد فورة الالم من الهزيمة بما يتبعها من خطر احتلال مستعمر غشوم ، وأنشد الشعراء من قصائد الرثاء لما جرى ، والتحذير مما يمكن أن يقع ما يعتبر من أطرف الشعر وأصدقه . وألف العلامة الكردودى رسالة أسماها : (كشف الغمة بأن الحرب النظامية واجبة على الامة) ، وهى دعوة صارخة لتجديد التنظيم العسكرى بمقتضى القواعد الحديثة ، واهتم غيره بالدعوة الى ضرورة القيام بنهضة اقتصادية ، من شأنها أن تقلل من حاجة البلاد من الموارد الاجنبية . وما ولى سيدى محمد الرابع الملك حتى أخذ يعمل لتحقيق ما رجته هذه النخبة من استعداد اقتصادى وعسكرى ، فأسس مدرسة للطبجية ، وجدد غراسة قصب السكر بالجنوب المغربى ، وبدأ بتأسيس معمل للسكر ، وأنشأ المطبعة المحمدية التى كان لها فضل نشر كثير من الكتب .

ثم خلفه جلالة الملك مولاى الحسن (١٨٧٣ ـ ١٨٩٤) الذى يعتبر بحق من أكابر مصلحى المغرب وأعاظم ملوك الاسلام ، فوجه همته لتوطيد النفوذ المعنوى للدولة ، واسترجاع هيبتها ازاء الدول الاجنبية ، واستطاع أن يحمى الاستقلال المراكشى طول حياته بسياسته الرشيدة التى عرفت كيف تستغل تزاحم الدول على البلاد ، وكان من أعظم ما قام به تنظيم الجيش المغربى على أحدث الطرق ، وتوجيه البعثات للتمرن فى مختلف الاقطار الاوروبية ، مع استعمال الفنيين الأجانب من سائر الدول دون تفضيل احداهن على الاخرى . وفى عهد جلالته واصلت الحكومة الشريفة التنظيم الجديد الذى وجدته الحماية قائما فقضت عليه ، ثم فى عهده انتقلت الوزارة المغربية من شكلها العتيق الى شكل ديوان حكومى بالمعنى الحديث ، وتأسست الخارجية والعدل والحربية والبحرية والمالية وغيرها من المصالح التى كانت متراكمة من قبل فى يد كتاب يرجعون للصدر الاعظم الذى لم يكن هو الآخر الا مساعدا للملك الذى يقوم هو بكل شىء فى الدولة .

ولتجهيز البلاد بالرجال القادرين على تنظيمها النظام الحديث بعث جلالته بعثات للدراسة فى مختلف فروع المعرفة بفرنسا وايطاليا وألمانيا وانجلترا .

ولتمكينها من وسائل الدفاع جدد الاسطول المغربى ، وانشأ معملا للسلاح فى مدينة فاس .

ولتحسين حالتها الاقتصادية أخذ ينشىء بعض المصانع ويشارك فى عرض الانتاج الاهلى فى مختلف المعارض الاجنبية ، وينشط استعمال المال المغربى فى الانتاج الاجنبى لمزاحمة الموردين الاجانب.

وبما أن سياسة الامتيازات الاجنبية التى أكدها مؤتمر مدريد المنعقد سنة ١٨٨٠ ، والتى نشأت عن عرف كونه الاجانب فى البلاد فى غفلة من رجالها المسؤولين كانت قد استفحلت وأصبحت تهدد الحكومة بفوضى اجتماعية وسياسية فان جلالته عمل بمختلف الوسائل على التخفيف من آثارها بالاحتجاج تارة، والصرامة فى المقاومة أخرى . وفى الوقت نفسه حاول ان يعمل على ازالة كل الاسباب التى تجعل الدول الاجنبية تطالب بالاحتفاظ بمحاكمها القنصلية، فعمد الى تكوين تدريجى للقضاء المدنى . وقد كانت القضايا كلها من اختصاص المحاكم الشرعية ، وبما ان الاجانب يعتبرون بحق او بباطل المحاكم الشرعية كمجالس الاكليريكية ـ وهم غير مسلمين ـ ان يخضعوا لها فقد رأى جلالته أن وجود محاكم تخضع للقانون المدنى من شأنه أن يسد فى وجوههم هذه الوسائل التى تذرعوا بها، فبدأ يرد كثيرا من الشؤون المدنية والجنائية الى أيدى الباشاوات والقواد الذين لم تكن مهمتهم فى الماضى قضائية بالمرة. كما أعلن تحرير الرقيق ومنع الاسترقاق، وقرر اعتبار اليهود المغاربة مواطنين، لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات .

ثم نظر جلالته فى شأن تهافت الدول الاجنبية على البلدان الاسلامية، ففكر فى أن خير وسيلة للقدرة على دفع الأجانب هو التعاون بين هذه البلدان ضمن الجامعة الاسلامية التى كانت الدعاية لها اذ ذاك آخذة فى الازدهار، فقرر جلالته ان يجدد علاقاته الدبلوماسية بالباب العالى، ويعمل على الاستفادة من خبراء العثمانيين ورجالهم . وفعلا وجه بعد مؤتمر مدريد وفدا برئاسة الوزير بريشة للاستانة حيث اقتبل بحفاوة بالغة من السلطان عبد الحميد الذى كان عظيم الاهتمام بقضية الشمال الافريقى؛ لان سياسته لم تكن قومية بل مبنية على روح الجامعة

الاسلامية، ووقع الاتفاق على تبادل التمثيل السياسى، وقررت الدولة العلية ان تبعث الامير محيى الدين نجل الامير عبد القادر الجزائرى سفيرا لها فى مراكش. ولكن ما علمت فرنسا بهذه النتائج السعيدة للمفاوضة بين الدولتين الاسلاميتين حتى بادرت لاغراء دول معاهدة مدريد بالوقوف ضد هذا التيار، واستطاعت ان تقنع السلك الدبلوماسى فى طنجة بعدم قبول تسرب الدعوة للجامعة الاسلامية فى مراكش ، وأبلغ السفراء كلهم جلالة مولاى الحسن بأنهم لا ينظرون بعين الرضا لما يقوم به من سياسة مع الدولة العلية تعتبر عدائية لحلفاء المغرب ، لما لها من الصبغة الاسلامية، ولم يشذ من هذه الدول الا انجلترا التى لزمت جانب الصمت لسببين رئيسيين :

اولا – أن سياستها كانت تقوم على ترك مراكش كأداة تهدد بها فرنسا كلما حاولت هذه مناوشتها فيما يرجع لوادى النيل.

ثانيا – أنها كانت ترغب فى عدم ازعاج السلطان عبد الحميد الذى كانت سياسته معارضة لمطامع روسيا التى كان زحفها قد وصل الى جنوبى مناطق بحر القزوين، وأصبحت تهدد حدود الهند .

وقد اضطر مولاى الحسن الى ارجاء مشروعه الرامى لتنسيق سياسته الخارجية مع سياسة الدولة العلية. ولكنه ظل يفكر فى مشروعه الى أن مات قبل انجازه، ولما ولى المولى عبد الحفيظ الملك حاول تنجيزه فوجه وفدا برئاسة السيد شمس الذى استقبل من السلطان رشاد الخامس استقبالا حسنا، وحصل على وعد من الدولة العلية بعدم الاعتراف بالحماية الفرنسية اذا نجحت فرنسا فى بسطها على البلاد .

وهكذا نرى ان تيار الدعوة للجامعة الاسلامية وتيار الهجوم على البلاد المجاورة – كل ذلك شارك فى بعث روح اليقظة المغربية، وتعبئة الجهود لاحياء الوجدان القومى لمقاومة الأحتلال، والعمل للاحتفاظ بالاستقلال .

* * *

ولم تكن تيارات المبادىء السلفية والاصلاحات العربية بعيدة عن وطننا، فقد رجع المصلح السيد عبد الله السنوسى من الشرق يحمل مبادىء الدعوة الجديدة التى نشرها رجال الاصلاح الدينى وهب ينعى على المغاربة خضوعهم لمشايخ الطرق، وتعلقهم بالاموات، ويهيب بهم للرجوع للحالة التى كان عليها السلف الصالح، وقد لقى من جمود بعض المشايخ ما كان يقعد به عن اداء مهمته لولا رعاية مولاى الحسن له،

واحتضانه للدعوة التى قام بنشرها. وسنرى كيف أن هذه الدعوة ازدهرت بعد حتى اصبحت هى المصدر الاول لحركة الاستقلال القائمة الآن .

اما من الناحية الثقافية فطبيعى ان تتجه همة المصلحين لتذكير الشعب بحالته، وبما كان عليه سلفه الاولون من مجد وعظمة، ومن هنا تكون عهد ملىء بالمؤلفات التاريخية والوعظية التى تعتبر رائدا اولا لنهضتنا الثقافية الجديدة اليوم .

كل هذه الاشياء عملت عملها فى توجيه الروح للمقاومة والمطالبة بالاستقلال، ولم تكن كلها فى الحقيقة الا مظهرا تلقائيا للرغبة فى الدفاع عن الوطن والتخلص من سيطرة الاجنبى، ولذلك لا يمكننا ان نغض النظر عنها حينما نريد تأريخ الحركة الاستقلالية فى مراكش ؛ لان هذه الحركة كما سنرى لم تعد مجرد دفاع يرمى الى طرد الاجنبى، بل أصبحت عقيدة قومية تحاول التحرر من كل عرقلة فى سبيل الاستقلال، لتجعل من هذا الاستقلال اداة تحقق بها برامجها البنائية التى كان لهذه العمليات التى سبقت الحماية الاثر البالغ فى تكييفها .

وعليه فالحركة الاستقلالية فى مراكش شيئان ؛ المقاومة للاجنبى ، والعمل على ترميم حالة الشعب واصلاحه. وكلا الامرين يسيران جنبا لجنب فى تناسق تلقائى ليس للزعماء الا فضل اعطائه الصبغة الفنية التى تجعله بارز الصورة، بين الدلالة والمقاومة تتجلى فى مراحل او صور ثلاث : المقاومة الدبلوماسية اولا، والمقاومة السياسية والعسكرية ثانيا ، والمقاومة السياسية ثالثا . والاصلاح يتجلى فى العمل على تنظيم الدولة ، وتنظيم الشعب ، وتكوين تجاوب معنوى بين الحاكم والمحكوم على أساس مثل أعلى هو التضامن بين افراد الامة لحمايتها واسعادها .

١ ـ المقـاومة الديبلوماسية

وليس فيما سردنـاه اولا من أعمال مولاى الحسن الا نماذج من المقاومة الدبلوماسية التى ظل مسيرا لها طول حياته. وليس من شأننا هنا أن نؤرخ المغرب الدبلوماسى مدة خمسين عاما، بقدر ما نستخرج طابع السياسة المغربيـة وما فيها من مجهود لحماية الاستقلال فالطابع الذى اتبعه مولاى الحسن، وأصبح سياسة تقليدية ينحو عليها من بعده من الملوك هو عدم تفضيل دولة على اخرى فى المغرب، وتكوين الدولة المغربية بالمعنى الحديث، أى تسوية الشعب فى الحقوق والواجبات دون تمييز بين دين ودين، وعنصر وآخر، والمحافظة على الاستقلال ازاء كل دولة اجنبية مسلمـة او مسيحية . وبفضل الصرامة التى اتبعها جلالته ظل المغرب بمأمن من سائر الاعتداءات الاجنبية، والثورات الداخلية برغم ما بذله الفرنسيون والاسبان من محاولات لتوطيد أقدامهم فى البلاد .

وقد وضعت هذه السياسـة الرشيـدة الاجانب المتزاحمين على المغرب فى معركة تسابق عنيف للحصول على الحظوة لدى الملك، ونيل مصادقته على بعض أمانيهم، كما الزمت فرنسا التى تعتبر الدولة الاكثر الحاحا فى اضاعة الاستقلال المغربى وامتلاك دولته بجهود جبارة لتصفية طريقها من العراقل التى تضعها الدول المزاحمة لها . وهكذا نراها تعمد الى ايطاليـا فتتفق معها على التنـازل على صوتها فى مراكـش مقابل تنـازل فرنسا لهـا عن أى ادعاء فى طرابلـس وليبيا ، وذلـك فى سنة ١٩٠٢. ثم تنجح فى عقد الاتفاق الودى المشهور سنة ١٩٠٤ الذى تتنازل فيـه عن مزاحمتها لانجلتـرا فى وادى النيـل بينما تعتـرف لهـا هذه بمراكش كمنطقة نفوذ فرنسى ، ثم تكمل دسائسها بتقسيم البلاد بينها وبين اسبانيا على أساس أن تكون لاسبانيـا منطقة فى شمال المغـرب لحماية شواطئها من الجوار الفرنسى .

قضى مولاى الحسن، وولى بعده مولاى عبد العزيز، وكان ما زال صغير السن، فاستمر وصيه الوزير احمد فى متابعة السياسة الحسنية، ولكنه لم تمض عليـه خمسة أعوام حتى قضـى نحبه، وبقيت المملكـة

الشريفة فى يد عاهل حسن النية ، ذكى الفؤاد ، ولكنه حديث السن ، وليس له من الارادة ما يستطيع بها القضاء على دسائس الانتفاعيين الذين أحاطوا بالقصر ، يكيدون للدولة ، ويعملون للاجنبى . ولكن سياسة التوازن الدولى ظلت مع ذلك هى سياسة الدولة الخارجية إلى النهاية.

وطبيعى أن يتقوى شره فرنسا بعد أن ضمت لصفوفها دولا ثلاثا طالما زاحمتها فى الموقف ، وقاومتها فى التنفيذ ، ولكن دولة رابعة كانت ما تزال تنتظر حصتها، وقد تجاهلتها فرنسا أولا اعتمادا على انها أيدتها من قبل فى مؤتمر مدريد؛ تلك هى الدولة الالمانية التى حاولت الحكومة الشريفة أن تمد لها اليد ، وفى جانبها الدولة العلية . ولكن المانيا اتبعت سياسة غامضة لا ترمى لاكثر من الحصول على قسط من النفوذ الاقتصادى أو السياسى فى بقعة ما، ولذلك انتهى الامر بتنازلها لفرنسا مقابل قطعة من الكونغو والتوغو .

ولكن الشعب المغربى لم يقف عند انتظار العون الذى تسديه دول مزاحمة أو حليفة بل بحث عن مخرج ينجيه من تهافت المستعمرين وتآمر الكائدين والخائنين، وقد قامت فى البلاد حركة وطنية ابتدأت أولا تحت رعاية الشيخ ماء العينين لمقاومة الفرنسيين فى أقصى جنوب المغرب الذى هو شنقيط ، والتف من حولها مختلف القبائل وشتى الاوساط العاملة . وكانت هذه الحركة تنتظر من المولى عبد العزيز ان يقوم بالمستحيل لدفع كل اعتداء أجنبى ، كما كانت ترجو الحصول على نظام دستورى من شأنه أن يساعد على المقاومة .

وقد فكر الملك فى ارضاء شعبه واتقاء الاجنبى بتأسيس مجلس للاعيان يعتبر نواة صالحة للتطور الدستورى المنشود . وطالما تحدث الفرنسيون عن المقاومة التى قام بها مجلس الاعيان المغربى ، وطالما أخذوا على عبد العزيز اعتذاره عن قبول اقتراحات الدبلوماسية الفرنسية بأن ممثلى الشعب قد رفضوها ، وان رجال الدين لم يقبلوها . كما فكر الملك فى وضع حد للموقف الفرنسى ، وانتبه هو وانتبه مستشاروه الى أن وضعية المغرب يجب أن توضع تحت البحث الدولى ، وان رغائب الملك ورغائب الاجانب يجب ان تواجه فى مؤتمر عام يلتزم فيه الكل بما يجب أن يمضى . وهكذا انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء فى ١٥ يناير الى ١٦ يونيه سنة ١٩٠٦ من ممثلى خمس عشرة دولة .

* * *

لقد قضى هـذا المؤتمر على الامتيـازات التى اعترف بها مؤتمر مدريد لفرنسا ، وقضى على كل معاهدة سريـة بينها وبين غيرهـا من الدول ، واعترف بحريـة المغرب واستقلاله ، ولكنـه وضع فرنسا فى موقف ممتاز من جهة تكليفها ببعض الاصلاحات البوليسية وغيرهـا ، ولكن هذه الاصلاحات أصبحت تعتبر مهمة دولية كلفـت بها فرنسا من طرف دول المؤتمر ، وهى مسؤولـة عنها أمامها ، فوضعية البـلاد بهذا الاعتبار أصبحت وضعيـة دولية ، لا ثنائيـة بين المغرب وفرنسا، كما كانت تريد ذلك هـى . ولقد صرح وزير خارجيـة انجلترا لفرنسـا : (بأن عقد الجزيرة يلغى الغاء تاما كل المعاهدات السرية التى سبقت، بيد أنك اذا حصلت فى مراكـش على مركز خاص . واذا لعبـت دورك مع ألمانيا بلباقة وحزم فلا مفر لنا مع مرور الزمـن من أن نعترف لك بحمايتك على مراكش . الخ) واذا فالدبلوماسية المغربية ، والحركـة الشعبية نجحتا الى حد ما فى مقاومة الدسائس الفرنسية ، فقد أصبحت الدول ، ومن بينها فرنسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا، ملتزمة بالمحافظة على وحدة المغرب وضمان استقلاله .

واذا كانـت الدول قد صادقـت على هذه المعاهـدة فان الشعب المغربى لم يقنع بما احتـوت عليه ، لانها وان قضـت على ما هو أخطر منها ، فانهـا سمحت لفرنسا بمركـز ممتاز فى البلاد ، والمغاربـة لا يريدون أن يعترفوا لفرنسا ولا لغيرها بمركز لا يعترفون بـه للجميع ، والاجانب بالنسبة اليهم كلهم سواء. وبما أن مولاى عبد العزيز قد تورط فى المصادقـة على ما فعله ممثلـوه فى المؤتمر ، وبما انه لم يعد قادرا على مقاومة التغلغل الفرنسى فى أقصى الجنوب ، فقـد رأى الشعب أن خير وسيلة للتحرر من التزاماته القديمة والاخيرة هو الثورة التى هى العملية الاخيرة التى تفـرغ اليها الشعوب عندمـا تريد المحافظـة على ثراتها وتقدم الوطنيون يلهبون حماس الشعـب ، ووضع رجـال الدين كتبا تدعو لمقاومة البضائع الفرنسيـة ، وتغنى الشعراء مـرة أخـرى بأناشيد الجهاد، واندلع لهيب الثورة، وأعلن خلع عبد العزيز، ومبايعة المولى عبد الحفيظ .

بويع عبد الحفيظ أولا بمراكش تحت اشراف الشيخ ماء العينين الذى رأى أن صديقه عبد العزيز قصر فى حق الدفاع عن موريتانيا ، ولكن الامر لم يتم له الا بعد بيعة مدينة فاس وجامعتها الكبرى .

وتعتبر البيعة الحفيظية التى كتبها بفاس وطنيون ممتازون ، ووضع صيغتها السيد احمد ابن المواز احد رجال الفكر اذ ذاك ـ ميثاقا قوميا ودستوريا من الطراز الاول ، وهى تشترط على الملك الجديد :

أولا ـ أن يعمل جهده فى استرجاع الجهات المتقطعة من الحدود المغربية .

ثانيا ـ أن يبادر بطرد الجنس المحتل من الاماكن التى احتلها .

ثالثا ـ أن يسعى جهده فى الغاء معاهدة الجزيرة لانه لم يرجع للشعب فيها .

رابعا ـ أن يعمل على الغاء الامتيازات الاجنبية .

خامسا ـ الا يستشير الاجانب فى شئون الامة .

سادسا ـ الا يبرم مع الاجانب عقودا سلمية او تجارية الا بعد استشارة الامة .

وهكذا تعتبر البيعة عقدا بين الملك والشعب يخرج بنظام الحكم من الملكية المطلقة الى ملكية دستورية . فليس من حق السلطان منذ الآن ان يبرم اية معاهدة تجارية او سلمية (مدنية او اقتصادية) الا بالرجوع للشعب ومصادقته . وتقييد المعاهدات المسموح بعقدها بعد الاستشارة بالمدنية والاقتصادية يرمى لمعنى بعيد هو تجريد الملك والشعب من حق عقد أية معاهدة من شأنها أن تمس بشؤون الامة . ونحن نرى فى هذه العبارات العتيقة معنى يتفق وروح ميثاق حقوق الانسان الفرنسية الذى ينص على أن السيادة كامنة فى الشعب ولا تقبل التفويت ، كما نرى فى روح العقد وضع أساس الدبلوماسية العلنية من قبل أن يضعها الاوربيون أنفسهم .

واذا فالثورة الحفيظية رمت الى أمرين أساسيين :

أولا ـ القضاء على الدسائس الاجنبية بالمحافظة على الاستقلال التام.

ثانيا ـ القيام باصلاح سياسى يسير بالامة نحو نظام دستورى متين

وسنرى كيف أن هاتين الغايتين ظلتا المحور الذى تدور عليه كل حركتنا الاستقلالية منذ ذلك العهد الى اليوم . ولم تمض الا مدة يسيرة على هذه البيعة حتى نشط الدستوريون الذين سبق لهم أن كانوا السبب فى تأسيس مجلس الاعيان ، وكانوا السبب فى الثورة ، ووضعوا مشروع دستور كامل نشروه فى جريدتهم «لسان المغرب» التى أصدروها بطنجة . ولا يمكننا أن نمر دون الوقوف عند هذه الحركة النبيلة التى تعتبر السلف الصالح لحركتنا الاستقلالية التى نتشرف بالانضواء تحت لوائها اليوم .

جماعة لسان المغرب

لم يُمنَ بلد بضياع فى تاريخه كمثل ما منيت به مراكش فى جميع عصورها ولهذا فاننا لا نستطيع ان نعرف كثيرا عن هؤلاء الوطنيين الذين كانوا يقومون بهذه الحركات العظيمة ، وكل ما نعلمه أن هنالك جماعة من الشباب الناهض من بينهم السيد المهدى بن الطالب الفاسى، والسيد سعيد الفاسى ، والسيد عبد الحفيظ الفاسى ، والسيد احمد ابن المواز ، والسيد احمد الزبدى ، كانوا يقومون على جمعية سرية لتنوير اذهان المغاربة ، ومقاومة الاحتلال الاجنبى ، وان جماعة منهم ومن غيرهم كانت تتحرك أقلامها بالكتابة فى الصحف الحرة التى أنشئت بطنجة، وفى جريدة «الحاضرة» التى كانت لسان الوطنيين التونسيين. ومن جهة اخرى فقد كانت فئة من المشايخ ترمى للمشاركة فى وضع انقلاب مغربى متخذة فى ذلك منهج التصوف والاغراق فى ادعاء الكرامات، بعضها كان يستمد قوته من رجال الدولة العثمانية ، وبعضها من بعض الدول المستعمرة، وكانت هذه الفئة تلاقى معاكسة من الوطنيين أنفسهم ومن بعض المصلحين السلفيين، وتختلف هى الاخرى فيما بينها ، فيبدو فى الميدان الشيخ ماء العينين بفكرة شبيهة فى الوانها بمناهج الشيخ السنوسى لتوحيد الطرق واتباعها، ويدعى أنه مؤاخ لها، وانه حصل على اذن روحى بتلقين سائر الاوراد وكل الادعية. وينجح الشيخ ماء العينين فى دعوته وينضوى تحتها جماعة من المخلصين من رجال الدولة ورجال الوطنية، وتسود البلاد روح صوفية فى الدين وفى القومية، وتمتزج العادات الطرقية بالرغبة فى الاصلاح السياسى الى حد ان بعض المرتزقة من قراء المولد يضطرون لاستعمال كلمة الدستور فى قصة المولد النبوى بجانب التصلية التى كان يرددها الجمهور، فيقرأ الفاصلة من فواصل المولد، ويردد معه الجمهور : (دستور يا الله... دستور يا رسول الله !) وهكذا تتصوف الدعوة السياسية لتكوين الروحانية

الشعبية، ويشترك الخرافى والمجدد والخائن والمخلص فى خدمة غاية واحدة، هى غاية الوطنية المغربية فى التحرر والاستقلال والاصلاح انسياسى والاجتماعى !

ولكن المحرك الداخلى للحركة عقل جبار مساير للتطور الفكرى فى العالم الاسلامى والعربى، يجد فى طريقه الخرافة فيستغلها، ويؤلب الكل لتحقيق ما يريده من اصلاح وتحرير. وليس فى استطاعتنا ان نعرف تماما هذه العقول التى وضعت الدستور المغربى لانها كانت تضفى على نفسها كثيرا من الغموض الذى كانت ترى فيه سر نجاحها .

ومهما يكن فان (لسان المغرب) الاسبوعية الوطنية قد حفظت لنا من حسن الحظ مشروع الدستور المغربى، وبعض المقالات التى تدل على ما كان يجيش بخواطر رجال العمل الوطنى فى ذلك العهد .

وقد نقلت مجلة (المغرب الجديد) فى أحد اعدادها الفقرة الآتية من احدى مقالات (لسان المغرب)، وهى كافية للتدليل على أن الحركة حركة شباب ناهض ذى اتجاه قومى مضبوط. وها هى ذى الفقرات :

بما أن الوقت قد دعا الى الاصلاح، والشبيبة العصرية قد هللت قلوبها، وانشرحت صدورها له، وجلالة سلطانها الجديد (عبد الحفيظ) يعرف لزومه. فنحن لا نألوا جهدا فى المناداة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته، وهو يعلم اننا ما قلدناه بيعتنا، واخترناه لامامتنا، وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير ان يجلب علينا بخيل ولا رجال، الا املا فى ان ينقذنا من وهدة السقوط التى أوصلنا اليها الجهل والاستبداد، فعلى جلالته أن يحقق رجاءنا، وأن يبرهن للكل على أهليته ومقدرته على ترقية شعبه، وعلى رغبته فى الاصلاح، وجدارته بادارة ما قلدته أمته .

والذى نرجوه منه قبل كل شىء هو فتح المدارس ونشر المعارف، وأن يكون التعليم الابتدائى اجباريا، وأن يولى ذوى الكفاءة والاستحقاق والاهلية ويقرب اليه ذوى العقول الراجحة والافكار الحرة الراقية، ويحترس من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه، ويحولون بينهم وبينه. وفى بلاطه الشريف من هذه الميكروبات القتالة جيش كبير؛ فان لم يحترس منها ويقاومها نقلت اليه جراثيم وبيئة معدية. وبما ان يدا واحدة لا تقدر على انهاض شعب من وهدة السقوط ولا على اصلاح ادارة مختلفة كادارة حكومتنا فيجب ان تكون الايدى المتصرفة والعقول المفكرة والافكار المدبرة كثيرة متكاثفة على العمل. وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته من ان يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب، ومن اعطائها حرية العمل

والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية. والدول الحاضرة يوم كانت مستبدة، وكانت سلطتها مطلقة لم تكن لها كلمة مسموعة، ولا ما يدل على انها دول قديرة، وحيث خلص الله تلك الارواح من شبكة الاستبداد والرق نهضت تلك الدول من وهدة سقوطها، وتنقلت فى اطوار الكمالات حتى وصلت اليوم الى ما وصلت اليه، وكفى حجة على هذا امة اليابان؛ تلك الشمس المشرقة فى آفاق آسيا التى كانت فى مؤخرة الدول قبل اربعين سنة، وأصبحت اليوم فى مصاف الدول العظيمة، وانتصرت ذلك الانتصار العجيب على أعظم دولة من دول العالم (روسيا)، وغير بعيد عنا الانقلاب العجيب الذى حصل فى دولة تركيا العلية اثر منح جلالة امير المؤمنين لشعبه الدستور، وأمره بجمع (مجلس المبعوثان) . فعسى أن نقتدى به ونقوم بخدمة بلادنا ونسعى جهدنا فى اصلاح حالتها » .

أليس فى هذا النموذج من المقالات التى كان يدعو بها الوطنيون لافكارهم فى ذلك العهد ما يكفى للدلالة على أن أمتنا كانت سائرة فى طريق الخلاص لولا استعجال المستعمرين الامر، وهجومهم علينا بطريق القوة الغاشمة التى شغلتنا فى شأن الدفاع عن النفس امدا طويلا ؟ !

* * *

يشتمل مشروع الدستور المغربى على أربعة اقسام : القسم الاول يتضمن القانون الاساسى للامة، والقسم الثانى هو النظام الداخلى لمنتدى الشورى، والقسم الثالث يتضمن نظام الانتخابات العمومية، والقسم الرابع يتضمن ما سماه واضعوا المشروع بقانون الجزاء المغربى .

ويقضى المشروع بتأسيس هيئة تعرف (بمنتدى الشورى) تتركب من مجلسين : مجلس الامة، ومجلس الاشراف. والهيئة بمجلسيها تعتبر أعلى هيئة فى البلد، ورأيها فوق كل رأى، ولها حق مراقبة كافة الادارات والدوائر الحكومية وحق الالغاء والايقاف. والتنقيح بالزيادة والنقص فيما يخص مواد الدستور خاص بمنتدى الشورى، ولا يعمل بقراره فى هذا الموضوع الا بعد المصادقة الملكية عليه .

ويهتم القسم الاول من الدستور بشأن «الحمايات الخاصة» التى وطدها عقد مدريد فينص على ما يأتى :

المادة الخامسة والسبعون : لا يسوغ لاحد من ابناء الدولة المغربية أن يتخذ حماية دولة من الدول الا فى الحالات الاستثنائية المذكورة فى المادة التاسعة والسبعين ...

المادة السادسة والسبعون : كل شخص يحتمى بدولة من الدول سرا بدون أن يعلم المخزن (الحكومة) ويأخذ رخصة بالحماية لا تعتبر حمايته، ويجرى عليه الجزاء المرتب على ذلك فى قانون الجزاء .

المادة السابعة والسبعون : لا يجوز لاحد من أبناء السلطنة المغربية المتخذ حماية دولة من الدول ان يدخل فى الوظائف المخزنية .

المادة الثامنة والسبعون: كل موظف فى احدى وظائف الدولة اتخذ سرا حماية دولة من الدول ثم ظهر انه من المحتمين يعزل للحال من وظيفته دون أن تعتبر حمايته، ويجرى عليه الجزاء المرتب على ذلك فى قانون الجزاء .

المادة الحادية والثمانون : كل محتم قديما قبل اعلان الدستور بدولة من الدول يبقى على حمايته، وعلى الحكومة أن تعاملهم معاملة تبعية تلك الدولة المحتمى بها بدون فرق ولا تمييز .

المادة الثانية والثمانون : كل من رجع من المحتمين الى تبعية الدولة المغربية يقبل رجوعه ويحق له ان يتمتع كسائر ابناء الامة بكل حقوقه الشخصية والمدنية .

وينص الدستور فيما يرجع للتعليم على وجوب تأسيس مدارس ابتدائية للبنين وأخرى للبنات، ومدارس ثانوية، وتنظيم جامعة القرويين على أساس عصرى .

وتنص المادة الثامنة والثمانون على ان التعليم بالمدارس كله بالمجان، اى بلا عوض، والنفقات اللازمة للمدارس ينظر فيها منتدى الشورى ويقررها، فيأخذ بعضها من خزينة الدولة، وبعضها من ريع الاوقاف وأملاك الدولة وبعضها من الامة، وخصوصا الاغنياء ، كما تنص على أن التعليم الابتدائى اجبارى للذكور .

وتسمح المادة التسعون بتأسيس المدارس الحرة لكل راغب فى ذلك من المغاربة والاجانب .

وتلزم المادة الثانية والتسعون منتدى الشورى بأن (يهتم فى سنته الاولى بسن وتنظيم قوانين لكل ادارة من ادارات الحكومة للوزارات وللمحاكم فى القصبات ولدار النيابة، وللمحاكم القضائية، والعدول ، ولامانة المستفاد (وزارة المالية)، وللحسبة، ولامانة الديوانات، وللعسكرية وللضرائب، وللجبايات وغيرها. فيكون لكل من هذه الادارات والامور المخزنية قانون خاص بها تسير بموجبه وتعمل بمقتضاه .

* * *

لقد اشتمل مشروع الدستور على الجوانب التى كانت تشغل بال النخبة المثقفة فى البلاد، وهو وان لم يكن الدستور الذى يمكننا ان ننشده اليوم فهو يشتمل على النواة الصالحة التى وضعت الاتجاه المغربى فى ناحية الديموقراطية الشعبية . وقد كان لنشر هذا الموضوع فى صحف المغرب صدى رددته تونس وغيرها من البلاد العربية .

والذى يهمنا من هذا هو أن الحركة الشعبية فى البلاد كانت ترى فى المولى عبد الحفيظ رمزا لمقاومة الاجنبى، وتنشد منه فيما يخص المصلحة القومية الغاء سائر الامتيازات، وفيما يخص الاصلاح السياسى الخروج بالدولة من النظام الاوتوقراطى الى حكم ديموقراطى تتمكن به الامة من مراقبة احوالها واصلاح شؤونها، ولكن الضغط الدولى ورفض فرنسا الاعتراف بجلالته أدى به الى سلوك سياسة رأى فيها الشعب مهاوده لم ينتظرها منه، ولذلك بدأ يغلى ويفور ملتمسا من ملكه تنفيذ الوعود، وانتهى الامر بهجوم الجيش الفرنسى على فاس (حاضرة البلاد) واعلان الحماية فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢

٢ ـ المقاومة العسكرية

لم يكد خبر اعلان الحماية يشيع فى المدينة الفاسية، حتى أعلن الجيش الملكى الثورة على قائده الاعظم، وقتل الجنود ضباطهم الفرنسيين وامتد الهياج للشعب فثار هو الآخر، ووقعت معارك لا تزال تعرف بالايام الدامية. وحاصر ٢٠ ألفا من البوادى المجاورة المدينة برياسة الزعيم الحجامى، وسرت الثورة فى سائر الشمال والجنوب والاطلس المتوسط. ولقد وجد الجنرال غورو فى (الحجرة الكحلا) على بعد ١٥ كيلومترا من فاس خريطة مجموع العمليات محضرة على أحسن ما يرام من الوجهة العسكرية، وقد حددت بها مذاهب المحلة (الجيش) والتكتيكات التى ستتبع، وتشتمل على دعوة للكفاح من أجل الوطن : (الى الحرب المقدسة التى أصبحت واجبا على المغاربة والمسلمين من غير استثناء).

وقد وحد الفرنسيون القيادة، وعينت فرنسا الماريشال ليوطى - الذى كان بالفيلق العاشر ببروتانيا - مقيما عاما وقائدا أعلى لجيش الغزو الفرنسى فى مراكش كلها. وقد كلفه حصوله على بعض المراكز التى هيأت له طرق المواصلات بين عملياته فى المجموع : ٥٦ ألف جندى فى سنة ١٩١٢ ، و ٧٠ ألفا سنة ١٩١٣ ، و ٦٣ الفا سنة ١٩١٤ ، وأدى ذلك الى مصاريف باهظة، وقروض عديدة، هيجت انتقاد البرلمان الفرنسى.

ولقد أعلنت الحرب الكبرى، والمغرب كله - باستثناء أكبر المدن والموانىء - فى ثورة عنيفة ضد الاحتلال الاجنبى. وتنقسم مناطق الثورة الى اربع جهات :

١ - جبالة والريف (فى شمال المغرب).
٢ - مركز الاطلس المتوسط .
٣ - الاطلس الكبير (بجنوب المغرب).
٤ - تافيلالت وآيت عطا (فى الجنوب المغربى أيضا).

١ - جبالة والريف :

نزل الاسبان مدينة مليلية وسبتة المغربيتين فى القرن الخامس عشر عند ما كان بنو الاحمر ملوكا على غرناطة، وجعلوا منها مدينتين

اسبانيتين باضافة بعض الجزائر الصغيرة الملاصقة للساحل الريفى وهى بادس والنكور (الحسيمات) والجعفرية .

وفى سنة ١٩٠٣ عقد بين فرنسا واسبانيا اتفاق بايعاز من الوزير دولكاسى تقرر فيه اعطاء المنطقة الشمالية لاسبانيا فى حالة غزو فرنسا لمراكش .

وفى سنة ١٩٠٩ جمع الاسبان بضواحى مليلية جيشا ذا ثلاث فرق، وقرروا غزو الريف، فانبرى لمقاومتهم بطل الريف الاول السيد محمد أمزيان، واشتد القتال بين الفريقين مدة سنتين تكبد فيها الاسبانيون خسائر كبيرة يقدرها مؤرخوهم بعشرة آلاف قتيل ، من بينهم الجنرال بينيتو، والجنرال فيكاريو، وقد أبلت قبيلة القلعية فى هذه المواقع البلاء الحسن .

وفى سنة ١٩١٣ حاول الاسبان الهجوم على الشاون فاصطدموا بقبائل جبالة، ودار بين الفريقين قتال كبير انتهى بحصر الاسبان فى مدينة تطوان، ولم يخمد الا بعد ان اتفق الاسبان مع الريسولى الذى استطاع ان ينشر نفوذه على قبائل جبالة الشمالية، ثم عقد مع الاسبان هدنة دامت الى سنة ١٩١٨، ولذلك اضطرت اسبانيا لمهادنة قبائل الريف طيلة الحرب الكبرى تأمينا لمواصلاتها بين مليلية وسلوان والناظور، واستمر الحال هادئا حتى بدأت معارك البطل عبد الكريم التى سنجمل الحديث عنها من بعد .

٢ - مركز الاطلس المتوسط :

أما مراكز الاطلس المتوسط فقد جرت به معارك عديدة منذ سنة ١٩١١ الى سنة ١٩٣٣ . ويمكننا ان نستلخص منها - اذا نظرنا الى مجموعها - أربع مراحل عظيمة الاهمية :

الاولى - اقتراب الجيش الاجنبى ومحاولة اتصاله بالجبال ؛ وتشتمل على :

أ) مواقع بنى مطير سنة ١٩١٣ .

ب) مقاومة تادلة حتى احتلالها سنة ١٩١٣ .

ج) مواقع خنيفرة سنة ١٩١٤ .

د) عمليات تادلة من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩١٧ .

الثانية - مهاجمة عقر كتلة القبائل فى الاطلس المتوسط؛ وتشتمل على :

أ) خرق أزرو ـ ميدلت سنة ١٩١٧ .
ب) مواقع زايان وبنى مقيلد من سنة ١٩٢٠ الى ١٩٢٣ .
الثالثة : مهاجمة الشاطىء الشمالى لوادى العبيد ؛ وتشتمل على :
أ) مقاومة عربالة سنة ١٩٢٦ .
ب) مهاجمة وادى العبيد سنة ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣١ .
الرابعة : مهاجمة العدو للاطلس المتوسط ؛ وتشتمل على :
أ) مقاومة آيت يحيى سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ .
ب) استبسال آيت اسحاق سنة ١٩٣٢ .
ج) مهاجمة بساط البحيرة سنة ١٩٣٢ .
د) مواقع ملول والاطلس الاعلى، وحصار كردوس وبادو وصراع الكوسى سنة ١٩٣٣ .

٣ ـ الاطلس الكبير بجنوب المغرب :

كانت سياسة ليوطى فى هذه الجهة التى تشتمل على قواد كبار هى مجاملة هؤلاء القواد واستمالتهم فرادى لما لهم من السلطة فى وسط القبائل . ولكن الروح القومية قضت على نفوذ هؤلاء الافراد ، وأفسدت على ليوطى سياسته التى لم يستطع انجازها فى الاطلس المتوسط نظرا للنظام الديموقراطى السائد هناك والذى لا يكاد يوجد معه تسلط معنوى لفرد ما . ويرجع الفضل فى توحيد قبائل الجنوب الى الشيخ ماء العينين وولده الهبة الذى كون من حوله حركة وطنية بالمعنى الدقيق للكلمة، وكافح الفرنسيين مطاردا هؤلاء القواد الكبار حتى احتل مدينة مراكش، ثم انهزم فى موقعة سيدى ابى عثمان، واستمر هو والقبائل الملتفة من حوله بالساقية الحمراء طيلة أمد الحرب الكبرى، ولم تنته مقاومة الاطلس الكبير وسوس الا سنة ١٩٣٥ .

٤ ـ تافيلالت وآيت عطا فى الجنوب المغربى ايضا :

استمرت هذه الجهة فى مقاومتها للفرنسيين مدة ٢٣ عاما قاد معاركها اولا الشريف السملالى الذى يعرف بموحا حمو نيفروطن، وهو بطل تافيلالت الذى هدد الفرنسيين بخطر كبير سنة ١٩١٧ فوجهوا عليه جيشا من مكناس بقيادة الجنرال بويميرو ذراع ليوطى الايمن، وأمدوه بجيش عين الصفراء من الجزائر واستمر الجيشان فى قتاله مدة اربع سنين تكبد فيها الفرنسيون خسائر عديدة ومات بها كثير من الضباط

وأصيب بويميرو برصاصة ـ في عموده الفقرى كانت السبب فى موته بعد سنتين. أما الشريف السملالى فقد اغتيل، وخلفه فى تدبير القبائل وقيادة حملاتها أبو القاسم النقادى الذى واصل المقاومة الى سنة ١٩٣٥ حيث استسلم، ولا يزال معتقلا بمدينة عيون سيدى ملوك الى اليوم .

* * *

ذلك هو اجمال مراحل المقاومة المغربية للدفاع عن الاستقلال ، ولو أردنا أن نفصل هذه المواقع ونتحدث عن رجالها، لاضطررنا الى كتابة مجلدات، كلها مليئة بأخبار البطولة وأنباء الشهامة المغربية التى لم يسبق أن سجل التاريخ الحديث مثلها لشعب من شعوب الارض على الاطلاق. ولذلك نرى أن نجتزىء باجمال الحديث عن الحرب الريفية لما لها من العلاقة بتكوين الحركة الوطنية القائمة، ولان بطلها الكبير قد عاود الجهاد على رأس «لجنة تحرير المغرب العربى» منذ نزوله بأرض الكنانة.

الحرب الريفية

أشرنا فى الحديث عن مواقع الاطلس الكبير الى الروح القومية التى بعثها الشيخ ماء العينين وولده الهبة كرد فعل لروح القبيلة التى أراد ليوطى بسياسة القواد الكبار أن يبعثها من مرقدها. والحقيقة ان الدفاع الاقليمى الذى كان يسود المقاومة المغربية فى كثير من الجهات كان يخيل لبعض الاجانب وبالاخص الفرنسيين أن الروح القبلية تفيدهم كثيرا فى كسب الانصار وتشتيت المقاتلين، كما أنها تمهد السبيل لادارات الشؤون السياسية لتعمل عملها فى تفرقة شمل الكتل المتحدة كى تسود عليها، وقد كانت حركة الهبة الوطنية أكبر مظهر رأته السلطات الفرنسية للتكتل القومى فى المغرب ؛ اذ شاهدت القبائل العديدة المتساكنة فيما بين مدينة مراكش والسنغال كلها تتجمع تحت قيادة شخص واحد، متناسية كل الاعتبارات المحلية، مدافعة عن فكرة واحدة هى استقلال المغرب ووحدته .

ولقد شهد احد كبار الفتح الفرنسى الجنرال أ. جويوم فى كتابه عن «برابرة المغرب وعمليات استتباب الامن فى الاطلس المركزى» بما يأتى : (الاسلوب العزيز على الماريشال ليوطى : «أظهر القوة لئلا تستعملها ـ ورب طريق ساوت جحفلا» لا يمكن تطبيقه على هذا الشعب المتحمس فى الدفاع عن استقلاله الى آخر رمق من حياته . والذى أدهشنا كثيرا هو أن أخلص القبائل للسلطان ثارت عليه حينما وقع الحماية، وكانت أشد مقاتلة لنا وتعصبا علينا من بعض القبائل التى عرف عنها انها تثور بمختلف المناسبات) . ويقول بعد ذلك : (اذا كانت مجهودات ادارة الشؤون الاهلية قد كللت بالفشل، فذلك لان خصومنا يرفضون أن يتقهقروا ازاء قوتنا الا اذا بذلوا كل ما يملكونه من جهد فى المقاومة) . ويقول قبل هذا : (انه كثيرا ما نستحضر أمام فشل محاولتنا هذه الكلمة التى قالها الماريشال بيجو : «حقيقة من المضحك والمؤلم معا أن نسمع ونقرأ ما يقوله كتابنا وخطباؤنا الذين ينصحوننا بأن نستعمل كوسيلة لجلب خصومنا أسلوبا عادلا، وأن نجعل العرب يحسون

عذوبة تقاليدنا وفوائد مدنيتنا، ان هذا شيء جميل وعال بدون شك ، ولقد تذوقته أنا اكثر من كل أحد، ولكن كيف نفعل هذا مع شعب يفر من قربنا، ولا يترك أمامنا الا مقاتلين أشداء يجيبون عن الجمل العاطفية باطلاق الرصاص ؟ ! ») .

تلك هى الروح المغربية حقا . ان الشعب لم يقبل الاقتراب من الفرنسيين ولا من الاسبان، ولم يرد الاغترار بادعاءاتهم أنهم لم يجيئوا الى المغرب فاتحين، وانما وردوا عليه ممدينين مساعدين . ولقد ظهر باجماع الكل على الدفاع مهما كانت الوسائل المتبعة أن القومية المغربية راسخة، وأنها فوق كل الاعتبارات العصرية مستمدة من روح الدفاع عن النفس الذى هو حق طبيعى للانسانية كلها .

ولكن هذه الروح ستتجلى اكثر من كل مرة أخرى فى الحرب الريفية التى عرف بطلها عبد الكريم كيف ينسق اساليبها وينظم مناهجها

كان والد محمد عبد الكريم هو الذى استأنف تنظيم المقاومة للاسبانيين بعد أن فشلت كل محاولات هؤلاء لاقناعه بالخضوع لهم والامتثال لحكمهم، وحاصر (تفريست) حيث وقف عندها نيفا وعشرين يوما، ثم سقط مريضا، وخلف لابنيه محمد ومحمد ميراث الدفاع عن الريف وتخليص المغرب كله من يد الاجنبى. وكان اول ما قام به الزعيم عبد الكريم هو تحرير مركز (دار ابارا) الذى استولى عليه الاسبان، وقد استطاع أن يخلصه بثلاثمائة مقاتل كانوا معه، وأن يطرد العدو بعد معركة شديدة خسر فيها الاسبان أربعمائة جندى وستة من الضباط ، وغنم فيها الريفيون كثيرا من البنادق والمدافع والذخيرة .

وكان لهذا النصر اثره فى توحيد صفوف الريفيين من حول الامير، والقضاء على كل الدعايات التى كان يقوم بها خونة مغرضون ضدا عليه وعلى عائلته. ثم هجم الجنرال سيلفستر فى جهة (سيدى بيسان) فى الشمال الغربى من (أنوال)، ولكن جنود الامير دحرته وكبدته خسائر فادحة تقدر بثلاثمائة واربعة عشر قتيلا بينما خسر الريفيون سبعة عشر من رجالهم .

ثم جزت احدى المعارك الكبيرة التى تعرف بمعركة (أنوال) وكانت شديدة وقوية ؛ اذ كان الجنرال سيلفستر يهجم فيها كل يوم ، ويزداد اشتدادا وقوة فى كل هجوم، واستمرت المعركة ستة ايام اضطر فيها العدو الى الانسحاب واخلاء مركز أنوال وكل المراكز التى من حولها. وكان تقهقر الاسبانيين فى شكل هروب لم يحتج معه

مواطنونا الريفيون أثناء متابعتهم لاستعمال السلاح، وسقط بانهزام الاسبان أكثر من مائة مركز حربى فى يد عبد الكريم ، وكانت الطريق مليئة بالقتلى ، وغنم المجاهدون مائتى مدفع وعشرين ألف بندقية وكميات وفيرة من المعدات والذخيرة وزهاء المليون خرطوشة وعددا كبيرا من السيارات والحافلات وغيرها من حاجيات الجيش ، وبلغ عدد الاسرى سبعمائة شخص . وتعتبر هذه الهزيمة الأداة الفعالة التى منحت عبد الكريم الوسيلة المادية لتنظيم جيش ذى عتاد ومواد لم تكن له وسائل لاكتسابها ، زيادة على ما بعثته فى نفوس قومه من الروح المعنوية التى يذكيها النصر ويبعثها اليقين بالظفر .

وأعقبت هذه المعركة موقعة حربية عظيمة أخرى هى « موقعة عريت » ، فقد انكسر فيها الاسبانيون انكسارا شنيعا وفظيعا ، وقد وصل الجيش الريفى الى قرب مليلية .

وفى سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ كان الاسبان قد أعدوا تنظيم فلولهم وتجهيز جيوش عديدة ، فارسلوا قوات عظيمة بقيادة الجنرال برانجى ، فهاجمت الريفيين وجرت بين الفريقين معارك على طول خط مليلية ـ كوبا ـ الحسيمة ، كانت سجالا بين الطرفين . ثم هجم الريفيون هجوما صادقا على الاسبان فردوا العدو على اعقابه الى مليلية بعد ما كبدوه خسائر كبيرة ، وسلبوا كل ما معه من ذخيرة وعتاد .

وحينما علمت الحكومة الاسبانية بهذه الكارثة عقدت مجلسا حربيا قرر وقف الزحف والسعى للاتفاق ، فسافر رئيس الوزراء وزملاؤه الى مالقة واستدعوا الجنرال برانجى القائد العام بمنطقة الريف والمقيم انعام بالمنطقة الاسبانية من المغرب فبلغوه قرار الحكومة ولكنه عارض فى ذلك كل المعارضة .

وقد استأنف برانجى هجومه الجديد فى شهر مارس من سنة ١٩٢٢ حيث حشد ٥٠ ألف مقاتل بالحسيمة ، وقوى عظيمة أخرى بناحية مليلية للاحداق بجبل بنى عروس أملا فى مهاجمة عبد الكريم بأجدير .

وفى اليوم الخامس والعشرين من الشهر قام الريفيون بهجوم عنيف عام على طول الخط ، وحمى وطيس المعركة حول الحسيمة ، وشاركت فيه المدفعية الريفية للمرة الاولى ، ودامت المعركة كامل أسبوع فتك فيه الريفيون بالعدو فتكا ذريعا ، وتم لهم النصر ، وقتل من جيش الجنرال برانجى ٥ آلاف جندى وأسر ٣ آلاف ، وجرح

الجنرال نفسه بجرحين خطيرين فى صدره ، وسافر الى مدريد حيث قرر مع أركان حربه العدول عن خطة الهجوم على أجدير ، والاكتفاء بجمع القوى حول مليلية لتوسيع منطقته حول مينائها .

أما الريفيون فلم يحفلوا بقرار أركان حرب الاسبانيين ، بل واصلوا هجومهم ودمروا عدة مراكز أسبانية ، وأغرقوا بوارج حربية ، وشاركت سفينتهم الوحيدة فى هذا الهجوم ، وقد أثر عمل الريفيين أثرا كبيرا فى معنوية الاسبان فهاجت خواطر الشعب .

وعلى أثر هزيمة الحسيمة انتدبت حكومة مدريد المثرى الاسبانى (ارشيفاتا) للتفاهم مع عبد الكريم على عقد هدنة تعتبر مقدمة لصلح يعقده الطرفان ، وتفك فيها الاسارى فوصل السفير لاجدير ، وعقد مع الامير عدة اجتماعات انتهت بالاتفاق على الهدنة المؤقتة، وفك أسرى الاسبان مقابل مبالغ تؤديها أسبانيا لحكومة الريف ، مع تسريح جميع المسجونين الريفيين . وقد جرت عدة مخابرات لعقد الصلح لم تؤد الى نتيجة عملية ؛ اذ كان الريفيون يطالبون باستقلال المغرب الشمالى عن أسبانيا ، بينما لا تريد أسبانيا أن تعد بأكثر من استقلال داخلى .

وفى سنة ١٩٢٣ عاود الريفيون الهجوم بقوة تبلغ ٧٠٠٠ مقاتل على سفح جبل درسة ـ شفشاون فاستولت على مراكز العدو الامامية. ثم لما لم تنجح فى التغلب على مركز ترياس ـ وجهت همتها الى مدينة (داغيت) حيث وقعت هناك معارك هائلة أصلى الريفيون فيها الاسبان نارا حامية ، وحاقت أثرها بالعدو موقعة (عريت ـ أنوال) وأصبح الجيش الاسبانى فى خطر ، وصرح المسؤولون بأن القضية أصبحت حرجة جدا .

وقد اجتمع مجلس الوزراء الاسبانى على اثر هذه الحوادث ، وقرر انتداب وفد للمفاوضة مع عبد الكريم فى عقد الصلح ، فوصل الوفد لتطوان، وانتدب الامير اثنين من رجاله وعقد بين الطرفين مؤتمر هام تكررت فيه الاجتماعات دون أن يصل الى حل مرض . وقد كان الوفد الريفى متمسكا بمقتضيات الميثاق الوطنى ، بينما كان الاسبانيون لا يمنحون الا بعض الترضيات البسيطة . وقد كتب سكرتير الوفد الاسبانى الى وزير خارجية الريف رسالة ، كل ما يعرض فيها هو أن لا تقع المفاوضة الا فى منح نوع من التغيير الادارى والاقتصادى فى القبائل الريفية ، وفى الوظيفة أو المنصب الذى يشغله الأمير عبد الكريم

بصفته نائبا عن خليفة السلطان فى حكومة الريف ، وقد صرح السكرتير بأنه لا تمكن أى مفاوضة فيما يرجع للاستقلال أو لالغاء معاهدة الحماية .

ولكن وزير خارجية الريف أجاب على هذا العرض بكتاب طويل من أهم ما جاء فيه: (ان الحكومة الريفية التى تأسست على قواعد عصرية وقوانين مدنية تعتبر نفسها مستقلة سياسيا واقتصاديا آملة أن تعيش حرة مثل سائر الشعوب ، وترى لنفسها أحقية امتلاك تراثها قبل كل دولة، وتعد الجانب الاستعمارى الاسبانى معتديا غاصبا لا حق له فيما يزعمه من نشر الحماية على حكومة الريف؛ لان الريف لم يعترف بهذه الحالة أصلا ولن تعترف بها ، بل يرفضها رفضا ، ويلتزم أن يحكم نفسه بنفسه ، ويسعى فى نوال حقوقه الشرعية التى لا نزاع فيها ويدافع عن استقلاله التام بكل الوسائل الطبيعية الخ) .

ولما لم ينجح مؤتمر تطوان عادت الحرب الى الاشتعال ، وتوالت المواقع التى أصبح النصر فيها حليف الريفيين ، والتى لا نريد أن نسردها جميعا . وفى سنة ١٩٢٤ انضمت القبائل التى تقيم فى المربع الواقع بين نهر تطوان والانجرة ووادى اللو ، وطريق تطوان ـ شفشاون الى المجاهدين ، وانقضت على جيوش الاسبان من كل جهة ، فزاد ذلك وضوحا فى الحركة القومية التى لم تعد خاصة بقبائل الريف ، بل شملت غيرهم من قبائل الجبل ، كما أعطوا الحرب قوة مادية ومعنوية كان لها أثر مفعول فى انهزام كل الجبهات الأسبانية ، وتابعتها القوات المغربية من (الفندق) الى (العرائش) ، وسدت الطريق بين طنجة وتطوان ، واقتربت من تطوان من الجبهة الاخرى .

وحينئذ جاء الجنرال بريمو دى ريفيرا الدكتاتور الاسبانى الى تطوان ، وعقد مؤتمرا عسكريا ضم اثنى عشر قائدا أسبانيا ، وقرروا اعلان الاحكام العرفية فى سائر انحاء المغرب الشمالى ، واستقدام سائر القوات التى باسبانيا ، وتولى بنفسه وظيفة المقيم العام زيادة على كونه رئيس حكومة مدريد ، وقرر عدم مهاجمة النواحى الداخلية ، والاكتفاء بحماية الموانىء والدخول فى مفاوضات مع البطل عبد الكريم.

انتدب بريمو دى ريفيرا السنيور (ارشيفاتا) ، وعين الامير صهره السيد محمد بن محمدى ، وقد عرضت أسبانيا على الامير الصلح على أساس تخليها عن المواقع التى جلت عنها ، فلم يقبل المندوب المغربى ذلك وطالب :

١ ـ بأن تدفع أسبانيا ٢٠ مليونا من (البسيطات) كتعويض .

٢ ـ وأن تسلم أسبانيا لحكومة الريف ١٥ طائرة ، ومائة بندقية ، ومائة وعشرين بطارية مدافع جبلية .

٣ ـ وأن يجلو الاسبان عن مراكش الى حدود مليلة وسبتة .

٤ ـ واذا قبلت أسبانيا هذه المبادىء يبحث فى أمر الصلح وتبادل الاسرى .

ولكن الاسبانيون لم يقبلوا هذه الشروط ، وبدأوا ينسحبون من مائتى مركز من مراكزهم تطبيقا لقرار المجلس الحربى .

وما صل الجيش الاسبانى للخط الذى قرر الوقوف عنده حتى ثارت قبائل الانجرة القاطنة وراء ذلك الخط فيما بين تطوان وحدود طنجة ثورة ألقت الرعب فى نفوس الحماة ، وهددت جيشهم بنكبات عظيمة ، وقطعت عليهم وسائل المون والاتصال .

الحرب مع فرنسا

لقد كانت سياسة الامير عبد الكريم فى بادىء الامر تعمل بكل مجهوداتها لئلا تنضم فرنسا لاسبانيا فى مقاومة الحركة التحريرية ، وكان يرى أن الاوفق لنجاح القضية هو العمل على كسب الوقت ، وتمديد أمد المجاملة لفرنسا ريثما يتم اقصاء أسبانيا عن المنطقة الشمالية بالمرة ، وكان الفرنسيون فى بادىء الامر ينظرون الى عمل عبد الكريم بكامل التحفظ ، وحاول الماريشال ليوطى أن يربط مع عبد الكريم علاقات ظاهرها الود وباطنها المكر والخداع . ولكنه فى الوقت نفسه كان يرفع تقاريره للحكومة الفرنسية ، مبينا ضرورة الحذر من قيام حكومة حرة فى جزء من المغرب مجاور للمنطقة الفرنسية، لما فى ذلك من خطر على سلامة الشمال الافريقى . نعم كان ينصح فرنسا بالتربص عسى أن تستطيع أسبانيا قهر الريفيين وحدها فلا تضطر فرنسا لخوض غمرات حرب ، ربما تواجه فيها تضحيات مادية ليست بحاجة اليها .

ولكن الفرنسيون لم يستطيعوا الصبر ، بل تقدموا لمهاجمة قبائل ورغة التى تعتبر حصونا أمامية للمناطق الريفية بدعوى حماية القبائل التى تحت النفوذ الفرنسى من مهاجمة الريفيين .

* * *

وقد روى مؤلف « مذكرات عبد الكريم » بقلمه : أن الامير كتب اليه فى بيان الاسباب التى حملته على الدخول فى حرب فرنسا ما نرى فائدة نقله لما فيه من الدلالة على الرغبة القومية التى كانت تملأ نفس الزعيم الريفى ، وتدفعه للعمل على تحرير شامل لسائر مناطق المغرب الاقصى :

قال الزعيم «لقد احدث تقدم الفرنسيين الى «وادى ورغة» ثورة كبيرة بين القبائل الريفية، فتوسلت بذلك لاخضاع بعض القبائل الجبلية الريفية التى كانت ما تزال معتصمة بجبالها لا تحرك ساكنا لمساعدتنا فى هذه الحرب التى نتوسل بها للوصول الى استقلالنا، ولما تمكنت من

اخماد الفتنة بين قبائل غمارة وصنهاجة أخذت أهاجم المراكز الاسبانية واحدا بعد الآخر، ولقد حدثت مناوشات على الحدود بين الفرنسيين والريفيين أثناء جلاء الاسبان كان السبب المباشر لوقوعها عدم وجود حدود طبيعية بين المنطقتين؛ فان هناك شقة واقعة فى الشمال الشرقى من فاس تسمى (وادى ورغة العليا) لم يقدم احد على احتلالها للآن، ولكن الفرنسيين يدعون انها جزء من البلاد المشمولة بحمايتهم، فالى هذه الشقة بعثت سنة ١٩٢٤ قوة من المجاهدين انضم اليهم رجال القبائل الوطنية، واعتصموا كلهم بمواقع منيعة، وأخذ رجال الامير يتلقون تعليماتهم منه رأسا» قال الامير :

«ان هذه الشقة كانت تحت سيطرة الريف المباشرة لما اقدم الفرنسيون على احتلالها أخيرا، وسيان عندى اذا كانت اسبانيا تعدها تابعة لها او كان الفرنسيون يحسبونها جزء من البلاد المشمولة بحمايتهم، ما دامت الحكومة الريفية لم تعترف قط بتقسيم المغرب الاقصى الى مناطق مشمولة بحمايات أجنبية مختلفة» (١)

وايا ما كان فان فاتح مايو من سنة ١٩٢٥ كان بدء حرب شديدة بين حركة التحرير الريفية وقوات فرنسا.

ولقد استمرت المعارك الشديدة بين الطرفين، وتوالى انهزام الفرنسيين أمام المقاومة العظيمة التى بذلها الوطنيون المغاربة من اجل التحرر، وبدأت القبائل تنضم من تلقاء نفسها للاتحاد القومى الملتف حول الامير عبد الكريم، واضطرت الحكومة الفرنسية لنقل الماريشال ليوطى وتعيين مسيو ستيغ بدلا عنه، كما عينت الجنرال نولان قائدا أعلى للعمليات، وكلفت الماريشال بيتان بمهمة تسييرها. وبعد ما نظم الماريشال وسائل القتال فى المنطقة الفرنسية توجه الى سبتة وتطوان لتنسيق العمليات مع الجنرال بريمو دى ريفيرا .

وقد اندهش الفرنسيون والاسبان لاستمرار المقاومة المغربية وقوة الدفاع والهجوم التى ظهر بها المكافحون المغاربة ، ودقة الخطط والتوجيهات العسكرية حتى رددت الصحف الفرنسية والاجنبية اعجابها ببطولة الشعب المغربى واستبساله فى الدفاع عن نفسه. وقامت فى كل من اسبانيا وفرنسا حركة شعبية تعلن الاستياء من عمليات استعمارية أدت الى تيتيم كثير من الابناء وانزال الشقاء بعديد من الارامل وطالب

(١) ترجمة الاستاذ عمر ابو النصر فى كتابه: بطل الريف ص ١٧٨

العملة فى كل من البلدين بتوقيف الحرب الريفية والاتفاق مع المغاربة على أساس مقبول .

وازاء ذلك صرح رئيس الوزارة الفرنسية بأنه تم لاتفاق مع اسبانيا على شروط الصلح المراد عرضها على عبد الكريم، وهذه الشروط تضمن لاهل الريف حريتهم التامة فى شؤونهم الزراعية والاقتصادية والادارية تحت سيادة سلطان المغرب الاقصى الاسمية، وقد يطلب من الامير التسليم ببعض المطالب الخاصة بالسلاح، ولا يطلب منه تسليم كل معداته الحربية، ولكن هذه المطالب لم تتفق مع ما يريده الامير من حرية تامة لسائر مناطق المغرب، ولذلك لم تؤد الى النتيجة المقصودة منها .

لقد كانت الحرب مع فرنسا قاسية شديدة، وكان الامر فيها سجالا بين المغاربة والفرنسيين، ولا يمكننا ان نسرد هنا مواقعها ولا أيامها المجيدة لان ذلك يخرج بنا عن الغاية التى نقصدها من هذا البحث، ويكفى أن نقول ان موقعتى (البيبان) و (الكيفان) وأمثالهما هزت اركان القوة الفرنسية ـ الاسبانية، وجعلت الماريشال بيتان يجلب كل ما لفرنسا من مختلف القوات البرية والبحرية والجوية التى قهرت من قبل بها المانيا فى فيردان، ولذلك لا غربة ان نرى القوة تفوز على الحق مؤقتا، خصوصا بعد أن قام جماعة من أدعياء المشيخة كعبد الرحمن الدرقاوى وحميدو الوزانى ببعث الضعف فى نفوس بعض اتباعهم باسم الدين، والدين منهم ومن تعاليمهم براء ، وانتهت هذه الحرب التحريرية بتسليم الامير يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٢٦ فنقل الى فاس ومنها الى منفى (لارينيون) حيث بقى هو واخوه وعمه واحدا وعشرين سنة .

* * *

هذه الحرب الريفية من الوجهة العسكرية، وقد رأينا كيف استطاع قائدها العظيم أن يحشد فيها كل القوات المعنوية التى كانت كامنة فى الشعب ومحتاجة لمن يحركها فى سبيل الدفاع عن حريته، ولقد اخبرنى الامير عبد الكريم : أنه وصل الاتفاق بين الافراد والجماعات الى حد ان ذوى الثأر الذين لم يكونوا يكلمون رازئيهم تئاخوا معهم، وتناسوا كل ما بينهم من حزازات، وسامحوا قاتلى آبائهم وأقاربهم فى سبيل المثل الاعلى الذى بعثه هذا الزعيم النبيل فى نفوسهم، وألبهم للدفاع عنه والموت فى سبيله وهذا المثل الاعلى لم يكن الا تحرير المغرب واستعادة وحدته الترابية

ولقد كتبت جريدة «المورننج بوست» الانجليزية تقول : انه لم يقم دليل على أن وراء القتال الناشب الآن بين المغاربة والفرنسيين عاملا دينيا ، ولكن روح الكبرياء القومى هو الذى يحتدم فى صدر عبد الكريم، وهو مظهر من مظاهر مبدأ تقرير المصير الـذى وصفه مستر لانسانغ خير وصف اذ قال : «ان تقرير المصير عبارة محشوة بالديناميت» .

ولقد وجد الأمير من الشعب اخلاصا وافيا وثباتا وتفانيا لا يضاهيه الا ما تتحدث به الروايات عن سير الاعاظم وصفات الابطال، ولقد حاول المستعمرون القضاء عليه بمختلف الوسائل فلم ينجحـوا، وفكروا فى قتله غيلة ولكـن اخلاص قومه له كان يحول دون تنفيذ ذلك بصفة مـن الصفات .

حدثنى الزعيـم محمد بن عبد الكريـم بالقاهرة : ان الكولـونيل مونيستيريو القائد الاسبانى لمعركة النكور اتفق ذات مرة مع محمد بن ج. محمد أفقير المكنى عند الاسبانيين ببايزيكى على سم الامير ، وكان حاضرا على الاتفاق ابن سعيد السلاوى، وحمل أفقير قنينة سم، وجاء معه ثلة من الاسبانيين حامليـن عديدا من الديناميت لنسف دار الامير بعد سمه. وما وصل الى اجدير حتى بلغ الامير ما قدم من اجله، وقدم له القنينة، وحمل له الاسبانيين الذين معه كأسارى، وناهيك باخلاص هذا الرجل الشعبى الذى اقل ما يقال عنه ان اخلاصه لبلاده لم يكن واضحا الى حد الا يثق به الاسبانيـون ويتآمروا معه على الفتك ببطل الريف ، ويضعوا تحت تصرفه أفرادا من مواطنيهم للقيام بالاستفادة من الدهشة التى تعترى الجمهور بعد قتل رئيسه.

أما بعض ادعياء الطـرق الذين اختاروا خدمة الاجنبى على تأييد الاسلام والوطن، فقد احتاط منهم زعماء الريـف، وقضوا على كل مـن استطاعوا القضاء عليه منهم، ولكن الثقة الشعبية فى هذه الطبقة لم تكن ضعيفة الى الحد الذى لا يمكنهم معه ان ينفثوا سمومهم، خصوصا فى أوقات تضعـف فيها القـوة العسكريـة وقد حاول الامير ان يصلح من النفسية العامة بنشر السلفية فى الاوساط، ولكن هل يستطيع احد ان يغير ذهنية شعب كامل فى بعض سنوات ؟ !

ولقد أخبرنـى الفقيه ابو لحية الذى كان وزير العدل فى الحرب الريفية، ثم نفى الى آسفى بعد نهاية الحرب : أن البطل عبد الكريم كان يلزمه مطالعة كتاب التفسير للشيخ رشيد رضا، وغيره من كتب الاصلاح الدينى قاصدا بذلك تنوير فكـره، وكان رحمه الله من أسرة تعتقد فى الكثير من الخوارق، وتتبع أربابها دون تفريق او تمييز .

وروى محرر الماتان العسكرى : ان عبد الكريم قال له : نحن المسلمين لا نزال فى غفلة ممضة ، ومن الحق ان نفعل ما يريده بنا المصلحون من الرجوع الى الفكرة الاسلامية الاولى، وننبذ العادات والتقاليد التى تمكنت من الاسلام والمسلمين، والتى ليست من الدين فى شىء ابدا .

ولقد حاول الفرنسيون فى دعايتهم ان يجعلوا من زعيم الريف مجرد ثائر راغب فى الملك او ناقم يطالب بالسلطان، ولكن الامير لم يتأخر عن التصريح فى الوقت المناسب بأنه لا يرغب الا فى تحرير البلاد، وانه لم يثر ولن يثور أبدا على العرش المغربى الذى ظل أسلافه مخلصين له دائما، كما اكد الامير بمجرد وصوله لبور سعيد : انه دائم الولاء لجلالة ملك المغرب الاقصى، وبلغ الامر بالامير الى انه يكره تسمية ما قام به باسم الثورة ؛ فقد كنت أتحدث مرة معه فى شىء ما ، وقلت له : «ان هذا كان زمن الثورة الريفية» فظهر التأثر فى وجهه وقال لى : «لماذا تسمونها الثورة ؟ ! » انها لم تكن الا حرب تحرير من الاجنبى ودفاع عن الوطن» .

دستور الجمهورية الريفية

ومن حسن الحظ أن هذه الحركة التحريرية كانت كسابقتها ذات اتجاه ديموقراطى يرمى لتحسين حالة الشعب، فى الوقت الذى تعمل فيه للذود عن كيانه وحماية حوزته، ولم يكن تأسيس الجمهورية عدولا عن فكرة الملكية فى نظر من قاموا من زعماء الريف، ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا يستطيعون الكلام باسم ملك المغرب الذى جعلته ظروفه القهرية فى منطقة النفوذ الفرنسى، ولم يريدوا ان يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه الهبة ووالده ماء العينين حينما أعلنا نفسيهما ملكين بعد ان كانا مخلصين للعرش، والمدافعين عنه، ولذلك فقد وجدوا حلا وسطا هو تأسيس نظام مؤقت يمكنهم من تنظيم الادارة وتدريب الجمهور على أن يحكم نفسه بنفسه، ومتى تم التحرر الكامل لسائر أبناء الوطن سلموا البلاد المحررة لصاحب العرش، ولم يطالبوا بأكثر من تطبيق نظام دستورى يحقق رغبات الشعب فى مراقبة اعمال الدولة والتعاون على تسييرها .

ولذلك ما حصل عبد الكريم على انتصاراته الأولى على الاسبان حتى فكر فى عقد مؤتمر شعبى يدعو اليه ممثلى القبائل ويتناول واياهم دراسة الاحوال، ويتفق معهم على نظام تأسيسى تسير به حكومة المقاومة وينتظم به شؤونها، وقد لبى الجميع هذه الدعوة المباركة طائعين، ووقف فيهم البطل خطيبا يستعرض العلاقات التاريخية بين المغرب واسبانيا، وما كان من شأنها مع العرب فى الاندلس، ويوضح الاعمال الهمجية التى ارتكبوها فى البلاد، والغاية التى يرمون اليها من بسط حمايتهم على الوطن، وطلب اليهم الاتحاد والتضامن، فاتفق الكل على وجوب الدفاع الى آخر رمق، ورأوا أن خير وسيلة للنجاح هو تأسيس مجلس عام يكون هو المرجع الاعلى، ويكون له برنامجه الذى يسير عليه، ويؤلف حكومة وطنية تدبر الشؤون وتضع القوانين والانظمة اللازمة. وفعلا تشكل هذا المجلس العام باسم «الجمعية الوطنية» من جماعات القبائل والاهلين والمشايخ والقواد طبقا للعادة المتبعة فى المغرب الاقصى، وكانت هذه الجمعية هى التى تمثل ارادة الشعب، وتتولى تنظيم الكفاح وادارة البلاد، وأول

اجتماع عقدته كان سنة ١٩٢١، واول قرار اتخذته هو اعلان استقلال الوطن، وتأسيس حكومة دستورية جمهورية يرأسها محمد عبد الكريم بصفته زعيم الحرب التحريرية. وكان ذلك يوم ١٥ محرم سنة ١٣٤٠ هجرية (١٩٢١ م.) .

ثم والت الجمعية الوطنية عقد اجتماعاتها، فوضعت للبلاد دستورا مبدؤه سلطة الشعب، الا انه لم يفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية طبقا لما جرى به العرف الدستورى فى البلاد الديموقراطية ، بل وضع السلطتين معا فى يد الجمعية وجعل رئيس الجمهورية هو رئيسها، واوجب على كل شيخ وزعيم وقائد من اعضاء المجلس تنفيذ المقررات التى تقرها الجمعية، وقد راعت الجمعية فى اتباع هذه القاعدة تقاليد البلاد وعاداتها .

وينص الدستور على تشكيل وزارة ذات اربعة مناصب، وهى : مستشار رئيس الجمهورية، (القائم مقام رئيس الوزراء)، ووزير الخارجية ووزير المالية، ووزير التجارة، واما ما عدا ذلك كالداخلية والحربية فقد أبقاها الدستور لاختصاص رئيس الجمهورية .

ويعتبر رجال الحكومة مسؤولين أمام رئيس الجمهورية، وهو وحده المسؤول أمام الجمعية الوطنية، وهذا متفق مع تقاليد البلاد التى تجعل الملك مسؤولا مباشرة أمام الشعب، ومتفق كذلك من جهة أخرى مع الحاجة الحربية التى تقضى بتركيز المسؤوليات فى يد شخص واحد .

وبعد ما أتمت الجمعية وضع الدستور شرعت فى وضع ميثاق قومى يصبح المثل الاعلى للشعب يجاهد من اجله ويموت فى سبيله ، ومن مواد الميثاق القومى الذى أقرته بعد عدة جلسات :

١ – عدم الاعتراف بأى معاهدة لها مساس بحقوق البلاد المغربية وبخاصة معاهدة ١٩١٢ .

٢ – جلاء الاسبان عن المنطقة الريفية التى لم تكن فى حوزتهم قبل ابرام المعاهدة الاسبانية الفرنسية سنة ١٩١٢ .

٣ – الاعتراف بالاستقلال التام للدولة الريفية الجمهورية (الاستقلال عن اسبانيا وفرنسا) .

٤ – أن تدفع اسبانيا تعويضا للريفيين عن الخسائر التى لحقت بهم من جراء الاحتلال فى السنوات الاحدى عشرة الماضية، وفدية للاسرى الذين وقعوا فى أيديهم .

٥ – انشاء علاقات ودية مع كافة الدول دون تمييز وعقد محالفات تجارية معها .

واذن فالحرب الريفية كانت مع تمسكها بوحدة التراب المغربي في ظل العرش العلوى ترمى الى أمرين : استقلال البلاد، وتمتيعها بالحكم الدستورى، وقد ظل هذان الامران غاية كل الوطنيين المغاربة منذ فجر القرن العشرين الى اليوم .

٣ ـ المقاومة السياسية

الحركة الوطنية بعد الحماية

يكاد العهد الذى يفصل بين ٣١ مارس سنة ١٩١٢ و ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ أن يكون عهد كفاح عسكرى محض، لان الاغلبية الساحقة من سكان البلاد أعلنت الثورة بعد توقيع الحماية، ولم يمكن اخضاعها لها الا بعد جهود جبارة وبصفة تدريجية، ولان نخبة الجيل الذى سبق الحماية أو عاصرها التجأت كلها الى الجبال تقود الثورة وتدبر الكفاح، والذين غلبتهم القوة على أمرهم أصيبوا بدهشة العسكرى المغلوب الذى لا يستطيع اى عمل بعد تجريده من السلاح، فكان لزاما لازالة هذه الدهشة العامة أن ينتظر نشوء جيل جديد متشبع بروح المقاومة السلمية التى لا تعطى السلاح المقام الاول فى كل معركة.

وليس معنى هذا ان المغرب الاقصى ظل بعيدا عن كل مقاومة فى المناطق المحتلة، بل لقد قام فى ذلك بكل ما يستطيعه من مجهود، ولكن الذى نعنيه هو ان كل الأعمال التى قام بها اذ ذاك لم تكن الا اعدادات لمعنوية الشعب وتهيئته لتجديد الكفاح بصورة جديدة غير الصورة التى اعتادها يوم كان لكل فرد بندقية ولكل قبيلة قائد مغوار .

ومن أهم الحركات التى بدت فى هذه المرحلة : الحركات التى كانت تعمل لنشر دعاية المحاربين المغاربة، وتأليب الجماهير لهم. وقد وقع اعتقال عدة افراد وتفتيش عدة بيوت والعثور على كثير من الاسلحة التى كان يهربها المدنيون لاخوانهم المجاهدين .

وطيلة الحرب الريفية كانت تعلق على الجدران وتوزع على البيوت الرسائل والنشرات التى كان يبعثها البطل عبد الكريم يدعو فيها الرؤساء والعلماء لتأييد ومؤازرة حركته التحريرية.

وقد اكتشف عام ١٩٢٤ بالدار البيضاء مركز مهم للدعاية للامير عبد الكريم وقبض على أشخاص كثيرين من رجاله، وصودرت كميات من النشرات العربية تحرض الوطنيين على الثورة ، وهاجر وفد من الشبيبة الى أجدير برئاسة صديقنا عبد القادر التازى .

وقام العمال المغاربة فى فرنسا بعدة مظاهرات تضامنية، وعقدوا مؤتمرا عاما (بجون فيلييه) سنة ١٩٢٥ وجهوا منه للزعيم عبد الكريم تحيتهم معلنين تآزرهم مع المغاربة المجاهدين على طرد المستعمرين الاسبان، وأقام كل من المواطنين : عبد الرحمن بن العربى، رئيس الفرقة المغربية بمعمل (لوماريشال) ومعمل (فرير ايسى) الذى هو من مهاجرى وادى بوعلى (بتافيلالت)، والسيد محمد بن محمد من (تيزنيت) بدعاية قوية فى أوساط أبناء الشمال الافريقى بفرنسا لمساعدة الريف وعضد رجاله .

ولم يكتم أدباء المغرب اعجابهم بشهامة الريفيين وبطولتهم برغم الضغط الشديد والتنكيل الوبيل الذى كانت تقوم به كل من فرنسا واسبانيا مع أى فرد يظهر عليه عطف على الحركة التحريرية او دعوة لها. ومن اشعار المغاربة فى حرب الريف قصيدة الاستاذ المؤرخ محمد بن الاعرج السليمانى المنشورة فى «العصر الجديد» التونسى التى يقول فى مطلعها :

دع الفتيات تمرح فى القصور ويمم مسعفا وادى النكور

وقصيدة الاستاذ الحاج محمد الناصرى التى نظمها بمناسبة المولد النبوى، والحرب الريفية فى عنفوانها، ومطلعها :

شهر النبى محمد قد وافى يفشى السلام ويحمل الالطافا

ومن أبياتها :

وسل البرانس والتسول وجاية والسبت والكيفان والاكنافا
تلك المواقع حطمت أبطالهم وارتهمو من ويلها أصنافا

ومن الاناشيد المغربية التى كان الشعب يتغنى بها على رغم انف المستعمر :

يا بنى المغرب ان الوطنا تقتضى سمعته ترك الونا
فاحملوا الصمصام مع سمر القنا واسألوا الله انتصار الريفيين ... الخ ...

ولما استسلم الزعيم عبد الكريم تألمت البلاد ألما كبيرا، ورثى الشعراء البلاد بقصائد وأناشيد عديدة، من بينها مساجلة جرت بينى وبين صديقى الاستاذ الحاج المختار السوسى مطلعها :

قضى القضاء وحقق الامر وعرا الذى ما خلته يعرو

الى غير ذلك من القصائد والمقطوعات الفصيحة والعامية التى كان لها أثر فعال فى بعث الوعى القومى فى نفوس المراكشيين والمغاربة عموما .

فى المؤتمر الاسلامى بالاستانة :

ولقد اشرنا فى القسم التونسى الى ما قام به المغاربة اللاجئون بالاستانة من عمل جليل ضمن حركة الجامعة الاسلامية لرفع صوت المغرب العربى عاليا مدة الحرب الكبرى، ويجب أن نضيف الآن لما تقدم أن من بين هؤلاء اللاجئين الاستاذ الشيخ محمد العتابى من علماء القرويين وأحد كتاب الحكومة الشريفة، غادر مراكش على اثر مشادة وقعت بين الشيخ أبى شعيب الدكالى وزير العدل اذ ذاك وبعض كبار الموظفين الفرنسيين أهان فيها هذا الاخير الوزير، فتأثر لذلك السيد العتابى وهجر بلاده للحجاز سنة ١٩١٣ ثم دخل الاستانة سنة ١٩١٥ حيث استقبله بها على باش حمبة باسم انور باشا وقابل بعد ذلك الخليفة محمد رشاد الخامس فتحدث له عن حالة المغاربة وأنهم يجبرون على الدخول للحرب مع فرنسا ضدا على الدولة العثمانية، ثم انتقل لالمانيا حيث نزل ضيفا على حكومتها، ولكنه لم يرض بما قدمته له من عروض غير مبنية على أساس صحيح، وليس من شأنها أن تطمئن المغاربة على مصير بلادهم، ولاجل ذلك رفض ما طلبه منه من السفر مع بعثة (شنيدر) العسكرية، وأنذر الالمانيين بسوء عقباها .

ثم عاد للاستانة فانضم لرجال المؤتمر الاسلامى الذى كان يضم ممثلين عن جميع البلاد الاسلامية المحتلة، وبفضل المجهودات التى بذلها هو ورفقاؤه قررت الخلافة وقرر حزب الاتحاد والترقى استقلال المغرب الاقصى، والعمل على اجلاء فرنسا واسبانيا عنه، والاعتراف بهذا الاستقلال حتى عن المانيا وتركيا وغيرهما. وقد استطاعت الدعاية المغربية ان تقنع العثمانيين ورجال الاتحاد والترقى بهذا القرار بناء على ما عرفوه من ان المانيا كانت تطمع فى أن تحل محل فرنسا فى بلادنا .

ثم قرر المؤتمر توجيه وفد من رجاله للطواف بالبلاد المحايدة فى السويد والدانمارك والنرويج للدعاية للقضايا التى يعمل لها المؤتمر ، وقد قبلت هذه الحكومات المحايدة أن تفسح مجالها للوفد كى يقوم بنشاطه فى كامل الحرية، فتوجه الشيخ العتابى مندوبا عن مراكش فى هذا الوفد الذى كان يضم الأمير شكيب ارسلان والاستاذ محمد فريد وعلى باش حمبة وعبد العزيز جاويش وغيرهم من رجال الحركة الاسلامية اذ ذاك، وقد ألقى السيد العتابى عدة محاضرات وخطب فى مختلف الاندية والاجتماعات التى كان الوفد ينظمها لذلك، ويحضرها جمهور كبير من المهتمين بالشؤون الاستعمارية شارحا ما يقاسيه المغرب

الاقصى من الاحتلال الفرنسى الاسبانى، ومبينا اسلوب الحكم المباشر الذى سار عليه المحتلون وتدخلهم فى جميع الشؤون واستيلاءهم على الاوقاف الاسلامية، وكانت مقالاته تترجم للغات اجنبية، وتنشر بالصحف ثم توزع على سائر انحاء العالم، وخاصة فى المناطق الفرنسية، وقد كانت الصحف الفرنسية تهتم بنشاط العتابى وتنقل اقواله خصوصا جريدة (الطان) التى كتبت عنه مرارا، وقد تأثرت لاعماله السلطات الفرنسية فأحالته على المحاكم العسكرية التى أصدرت عليه غيابيا الحكم بمنعه من الدخول لمراكش ومصادرة أملاكه .

وفى سنة ١٩١٧ عقد الوفد الاسلامى مؤتمرا باستوكهلم مثل فيه العتابى بلاده وتوصل الى اتخاذ المؤتمر القرارات التالية :

١ ـ استقلال المغرب الاقصى الذى لم يعرف الاستعمار قط استقلالا تاما .

٢ ـ رد شنقيط (موريتانيا) للمغرب الاقصى .

٣ ـ مطالبة الدول المحايدة بالمساعدة على الحصول على هذا الاستقلال .

وقد ذهب العتابى يتصل برجال الدول المحايدة وغيرهم ، ويرفع اليهم مذكرات عديدة فى يخص القضية المراكشية ، وقد استقبله عديد من الوزراء فى ألمانيا والسويد والنرويج وغيرها وواعدوه ببذل العون لتحقيق مطالب مراكش واسعافها .

والى جانب هذا كان هو وصحبه يقومون بعمل آخر هو الاتصال بالقبائل الثائرة فى الجنوب المغربى ، وحثهم على الاستمرار فى المقاومة وطرد المحتل من البلاد ، وقد شارك العتابى فى تنظيم الحملة التى وقعت فى الصحراء وفصلنا خبرها أثناء حديثنا عن على باش حمبة.

وقد أخبرنى السيد العتابى أن الدولة العثمانية كانت عازمة على مساعدة الحركة المغربية بالرجال والسلاح ، ولكنها لم تجد عند المولى عبد الحفيظ الذى بعثت اليه فى مدريد استعدادا كافيا للعمل ، ثم ضعفت عزيمتها بعد ثورة الشريف الحسين فى الحجاز وانضمام سوريا ولبنان اليه وتسليم بلغاريا ورومانيا لدول الحلفاء ، فلم يجد عندها العتابى العون الكافى الذى كان ينشده . وهكذا انتهت الحرب الكبرى واضطر السيد العتابى للخروج من الاستانة والالتجاء لمصر حيث وجد من جلالة المغفور له الملك فؤاد رحمه الله اكراما وقبولا .

* * *

واذا نحن غضضنا النظر عن هذه المتابعة العامة للحركات المسلحة التى كانت معقد آمال الشعب فاننا نجد الامة قاومت بكل مناسبة أنواع الحيف والظلم الذى أريد بها . ولم تسكت قط عن حقها ولا اعترفت بما ارتكبه الحماة نحوها .

فما حاول الماريشال ليوطى أن يضع الحجر الاول للسياسة البربرية فى سبتمبر سنة ١٩١٦ حتى ثارت النساء بقبيلة زمور الشلح احتجاجا على هذه المحاولة الوحشية التى تريد بعث أعراف جاهلية تقضى بجعل المرأة متاعا يباع ويشترى ويوهب ويورث ولا يرث ، وقد تظاهر النساء البربريات فى (الخميسات) وأطلق الفرنسيون عليهن الرصاص ، ولكن الماريشال اضطر الى التصريح بأن الامر الصادر فى الموضوع لن ينفذ ، وأنه انما ضرورة اقتضتها ظروف الحرب وتنتهى بانتهائها .

وحينما أراد ليوطى نفسه وضع تشريع لضريبة الارباح قامت بالرباط مظاهرات كبيرة تطالب بمبدأ الثورة الامريكية : « لا ضريبة بغير مراقبة » ، واحتاج ليوطى الى قمع المظاهرات بطريق القوة ، وابعاد طائفة من أعيان البلاد من بينهم صديقنا الحاج أبو بكر بلكورة .

ولما حاول ليوطى نفسه ايضا نزع ملكية بعض الناس لفائدة شركات أجنبية قامت حركات احتجاجية عظيمة اضطر معها للتراجع بعد ابعاد مسيريها ومن بينهم صديقنا السيد محمد اليعقوبى الذى ظل بضعة أشهر محصورا فى مدينة الصويرة .

ولسنا نريد أن نسجل هنا كل الوقائع التى جرت ، أو المظاهرات التى قامت طيلة هذه المرحلة ، وانما نريد أن نبين كون الشعب المغربى لم يقبل فى يوم من الايام هذا النظام الذى فرضته الحماية عليه ، بل قاومه بكل ما استطاعه وسمحت له به ظروفه ، ولكنه لا يمكننا ألا نشير للمقاومة الشديدة المستمرة التى صادفها الاستعمار الفلاحى الرسمى الذى قام به المقيم العام ستيغ منذ سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٢٩ ، فقد أدى الى ثورات محلية ومقاومات فردية واعتداءات من طرف الفلاحين المغاربة على المستعمرين وعلى رجال المراقبة الفرنسية اضطرت مسيو ستيغ الى استقدام المشنقة للبلاد ثلاث مرات حيث نفذ الاعدام على مواطنين لم يرضوا بأن تنزع ملكيتهم لفائدة الاستعمار الفرنسى .

وقد اعترف مسيو ستيغ فى كتابه الذى وضعه عن المغرب بأن المراكشى متمسك بأرضه الى حد الموت، وأنه يقاوم من أجلها أكثر من الجزائرى والتونسى .

ولعل سياسة الاستعمار الفلاحى كانت أعظم شىء أثر فى نفوس المغاربة وأخرجهم من ترددهم فى جدوى المقاومة غير المسلحة ، على أن هذا الدفاع المدنى سرعان ما تطور الى نوع من الارهاب ؛ اذ تكونت فرق تعمل على مهاجمة الولاة وتفر للمناطق التى لم تكن بعد قد احتلت .

وهكذا اختطف فى أكتوبر سنة ١٩٢٨ مسيو روبيلاجا فى وضح النهار فى منطقة آمنة بين (وادى زم) و (دار ولد زيدوح) بينما قتل رفيقه مسيو زان وكذلك المراقب المدنى لوادى زم الذى ذهب فى سيارته يبحث عن المهاجمين فقتلوه ايضا . وبعد بضعة أسابيع بينما كانت حافلتان مليئتان بالفرنسيين داخلتين على باب البستان المحيط بقصبة (بنى ملال) سقطتا فى حفير دبره ارهابيون لم يعرفوا قط ، وقد تكرر مثل هذا العمل فى جهات متأخمة للبلاد الثائرة .

ولم تقف هذه المقاومة عند حد الشعب ، بل تجاوزته للقصر الملكى حيث لم يعد خافيا على أحد ما كان من خلاف شديد بين مسيو ستيغ ومولاى يوسف رحمه الله . فقد أثرت معارضة القبائل فى نفس جلالته ، وأخذ يعارض فى تطبيق البرنامج الاستعمارى ، وانتهى الامر بأن كتب جلالته رسالة الى الحكومة الفرنسية يطلب فيها عزل مسيو ستيغ، وقد ترجت الحكومة من جلالته ان يمهلها ستة أشهر ؛ اذ ربما تتحسن فيها العلاقة بين العاهل والمقيم العام ، ولكن لم تنته هذه الاشهر الستة حتى كان مولاى يوسف قد قضى نحبه ، وقد حدث أثناء مرضه أن جاء مسيو ستيغ لقصر مكناس بقصد عيادته فرفض جلالته مقابلته ، ومات وبينهما من الخلاف ما اضطر الحكومة الفرنسية الى اعتباره ولو بعد موت جلالته ، حيث أبعدت مسيو ستيغ من منصب الاقامة العامة برغم رغبته الملحة فى البقاء بها .

وبعد انتهاء الحرب الريفية حاولت الاقامة العامة وضع سياسة تقارب مع الشباب المغربى ، فعمدت لتأسيس جمعية فرنسية مغربية استدعت لرئاستها صديقنا السيد احمد برڭاش ، ولكن المقاومة التى ظهر بها الشباب المغربى أول يوم أظهرت للاقامة رغبة المغاربة فى الاستقلال وعدم امكان التعاون معها الا على أساسه .

والى جانب هذه الحركات التلقائية التى لم تكن تخضع لمجهود منسق قامت حركة اصلاح دينى وثقافى كان لها أثر مباشر فى تكوين (كتلة العمل الوطنى) التى ستعلم بدء الحركة الاستقلالية القائمة اليوم.

الحركة السلفية

يظهر أن مراكش مهيأة أكثر من كل بلد اسلامي لقبول الحركات التي تطالب بالعودة للدين الصحيح والعقيدة السنية ، ويبدو أن بساطة هذه الدعوة ووضوح طابعها يتفق الى حد بعيد مع سذاجة الصوفية المغربية وحب الطبيعة القومية للتأكد من دقائق الاشياء ، ولذلك لم تقم الثورة الوهابية حتى كان لها صدى استحسان وقبول في القصر الملكي حيث رحب بمبادئها السلطان مولاي سليمان ، ثم كان للشيخ عبد الله السنوسي حظ حماية مولاي الحسن الذي مكنه من نشر المبادىء السلفية والدعوة اليها ، وكان لمحمد عبده اتصال بعد ذلك بنخبة من المثقفين بالمغرب العربي كله، ونحن نعلم أنه وقعت بينه وبين علمائنا مناقشة في مسألة التوسل بالانبياء ، وأيده المهدي الوزاني في قضية الفتوى الترنسفالية ، كما جرت بينه وبين الشيخ ادريس بن عبد الهادي مراسلة في شأن بعض الكتب السلفية التي كان عبده يريد نشرها .

ولكن هذا كله لم يكن له من الأثر ما أحدثه رجوع المصلح الكبير الشيخ أبي شعيب الدكالي ، فقد عاد وكله رغبة في الدعوة لهذه العقيدة والعمل على نشرها ، والتف حوله جماعة من الشباب النابغ يوزعون الكتب التي يطبعها السلفيون بمصر ، ويطوفون معه لقطع الاشجار المتبرك بها والاحجار المعتقد فيها .

وكان لمولاي عبد الحفيظ فضل كبير في اظهار هذه المبادىء وتأييدها خصوصا بعد أن أخذ بعض أدعياء المشيخة يمدون أيديهم للاجنبي ، وقد أصدر جلالته رسالة في الرد على التيجانيين ، كما أمر باقفال زاوية الكتانيين بعد أن اكتشف مؤامرة رئيسها على الدولة وعلى البلاد .

غير أن هذا نفسه لم يكن الا مقدمة أولى للحركة السلفية التي دعا اليها وبثها وخرج رجالها أستاذنا العلامة المصلح السيد محمد بن العربي العلوي حفظه الله فقد كان لهذا الرجل من الجرأة والاقدام والثبات ما جعله يلاقي في دعوته نجاحا كبيرا واقبالا عظيما .

وقد دخل الريف فى حرب فرنسا ، ونحن من حول أستاذنا نعمل لهذه العقيدة ، ونجاهد فى نشرها ، وما ظهرت خيانة بعض مشايخ الطرق فى هذه الحرب حتى زاد ذلك فينا حماسة وقوة ، وكانت تجتمع بفاس ثلة من الشباب حول ابن العربى ، وفى الرباط مثلها حول الشيخ أبى شعيب ، وتظهر آثار الثلتين فى المحاضرات التى يلقونها ، والزيارات التى يتبادلونها، والمقالات التى ينشرونها فى صحف الجزائر وتونس ؛ لان المغرب العربى لم يكن حظى اذ ذاك بجريدة ليس للحماية عليها سلطان ، ولم تمض برهة على هذه الحركة حتى أخذت الحماية تتخوف منها ، وتحس أنها موجهة لمقاومة نفوذ أحبابها الطرقيين ، فبدأت تستدعينا للاستنطاق ، وتهددنا بالاعتقال ، وفعلا ألقت فى النهاية القبض على صديقنا الاستاذ محمد غازى الذى كان من أكبر دعاة السلفية ورجالها .

وليس من الممكن لمؤرخ الحركة الاستقلالية بالمغرب أن يتجاهل هذه المرحلة العظيمة ذات الاثر الفعال فى تطوير العقلية الشعبية ببلادنا . ومن الحق أن نؤكد بأن امتزاج الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية كان ذا فائدة مزدوجة فى المغرب الاقصى على السلفية وعلى الوطنية معا، ومن الحق أن نؤكد أن الاسلوب الذى اتبع فى المغرب أدى الى نجاح السلفية لدرجة لم تحصل عليها حتى فى بلاد محمد عبده وجمال الدين .

ولقد كان فى وقت ازدهار هذه الحركة يزور المغرب صديقنا مسيو دير مانجيم مؤلف كتاب «حياة محمد» باللغة الفرنسية، فكتب بحثا عن السلفية وغاياتها واتجاهاتها ، وأظهر فى كتاباته عطفا علينا وتمنيا لنجاح حركتنا . كان هذا سنة ١٩٢٥ ، وقد رأيته بعد ذلك فى منزله بباريس سنة ١٩٣٣ بعد ما صدر أمر ملكى بمنع مظاهرات بعض الطرقيين ، وبعد ما أظهر الشعب اغتباطه بهذا الامر الملكى وزين الشوارع والاسواق احتفاء بالقضاء على عهد خرافى طالما منع العقل المغربى من التطور والنفوذ لعمق الاشياء ـ فأخذ يحدثنى فى الموضوع ويظهر أسفه على النهاية التى آلت اليها (الطرق) بالمغرب الاقصى ، فاستغربت منه ذلك، وسألته : ألم تكن كتبت عنا مبديا اعجابك بحركتنا السلفية ! ؟ فأجابنى وهو يبتسم : لم أكن أظن انكم ستنجحون الى هذا الحد وبمثل هذ السرعة ! نعم لقد نجحنا الى هذا الحد، وتجاوزناه بعد أن احتضن الفكرة السلفية ورعاها ولى النعم سيدى محمد بن يوسف الذى لا يألو جهدا فى مقاومة المشعوذين والقضاء على الخرافيين .

ولم تكن هذه الحركة قاصرة على الدعوة ضدا على الخرافات، بل تجاوزتها لحث الشعب على العلم والدعوة الى اصلاح شامل ومقاومة الجمود فى كل فروع الحياة .

والذى ينظر فى تاريخ الحركات العامة فى الدنيا كلها يجد انه لم تقم ثورة مفيدة فى بلد ما الا سبقتها دعوة للرجوع للماضى البعيد ؛ ذلك أن هذا الرجوع الذى يظهر فى شكل تقهقر الى الوراء هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة والعصور المختلفة، والتحرر منها هو تخفف يسهل السير الى الامام بخطى واسعة، وازالتها من الطريق يفتح أفقا عاليا يهدى السائرين للغاية الصحيحة التى يجب ان يوجهوا انفسهم اليها .

ولقد كتبت ادارة الشؤون الاهلية فى مراكش سنة ١٩٣٩ تقريرا لمجلس البحر الابيض المتوسط الذى أسسه مسيو بلوم فى فرنسا تؤكد فيه العبقرية التى ظهر بها الحزب الوطنى المغربى فى جمعه بين أحدث الافكار الثورية وما سمته بالسلفية الجديدة التى ظهرت بعد الحرب فى العالم العربى، وهى ملاحظة صحيحة ومفيدة، ولذلك لا محيد لنا عن القاء نظرة على البرنامج السياسى الذى خرجت به السلفية بعد الحرب الكبرى لما كان له من الاثر فى تسيير الآلة التوجيهية للحركة الوطنية بالمغرب الاقصى .

الاتجاه السياسى للسلفية الجديدة :

لئن كانت السلفية فى باعثها الحنبلى ترمى لتطهير الدين من الخرافات التى ألصقت به والعودة الى روح السنة المطهرة فانها لا تقصد من وراء ذلك الا تربية الشخصية الاسلامية على المبادىء التى جاء بها الاسلام بصفته المتكفل بصلاح الامة فى دينها ودنياها. واعدادها لتكون لها الخلافة فى هذه الارض التى حكم الله ألا يرثها من عباده الا الصالحون، وبذلك فهى حركة تتناول نواحى المجهود الفردى لصلاح المجتمع، وتتطلب فتح الذهن البشرى لقبول ما يلقى اليه من جديد، وقياسه بمقياس المصلحة العامة لارجاع المجد العظيم الذى كان للسلف الصالح فى حظيرة الايمان وحظيرة العمل، ولكن هذا الاعداد الفردى لا يقصد منه الا تقوية التضامن بين الجماعة الاسلامية على اساس الاخاء الأسلامى اولا والانسانى ثانيا، وذلك ما يستوجب كثيرا من التسامح مع المخالفين فى الوقت الذى يدعو للوقوف صفا واحدا فى الدفاع عن الاسلام وعن الامم الاسلامية كلها

والدفاع عن الاسلام وأممه يستدعى بالطبع قبول المبادىء التى تعطى للفرد حرية العقيدة وحرية الفكر، وتعطى للامم الحق فى تقرير مصيرها، واختيار النظم التى تريدها، وحرية العقيدة تستوجب حرية التألب من أجلها والتجمع للنضال عنها بالوسائل المشروعة السلمية، وتقرير المصير واختيار النظم يستوجب حرية الجماعة فى التعبير عن رأيها وابداء ما تريده من أشكال الحياة، وكلا الامرين لا يتم الا بطريق التنظيم الذى جاء به العصر من جمعيات واحزاب ونقابات .

ولكن هذه الحرية يجب ان تتفق مع غايات التآخى بين الامم الاسلامية ضمن وحدة سياسية، وذلك ما وقفت عنده السلفية زمنا تتأرجح بين تنظيم الخلافة على أساس حديث او تكوين جامعة امم شرقية ، وأخيرا اقتنعت بضرورة القومية المبنية لا على الروح العنصرية او الدينية، ولكن على اساس الروابط الاقليمية مجندة لتبرير ذلك ما عرف فى الاسلام من تسامح وما تدعو اليه وحدة الدفاع عن جانب من جوانب الجبهة الاسلامية دون التعرض لما يرمى به الاجانب المسلمين من تعصب وضيق فى الافق ومستندة لما فهمه المسلمون من ضرورة حب العائلة والعمل لصالحها دون ان يكون فى ذلك ما يتنافى مع الاخوة العامة بين أبناء الاسلام .

ولكن هذه القومية لا ينبغى ان تضيق الى حد ان تحول بين التقارب المطلق بين سائر الشعوب المسلمة والعربية بصفة خاصة، والا اصبحت عنصرية تتنافى مع الاصل الأصيل للدين الاسلامى .

ولتسهيل هذا التقارب يجب ان تتوافق اساليب الثقافة فى وسط المسلمين، وأن يعمل على جعل اللغة العربية صالحة لان تكون لسان العالم الاسلامى كله، وصلة الوصل بين سائر افراده، وبما أن الدعوة لهذا وتيسيره تتطلب نشرات وصحفا وتجولات خطابية يقوم بها الدعاة المرشدون لتقريب العقلية الاسلامية والتوحيد بين عناصرها ـ فقد هيأت كل الوسائل التى يتوقف عليها الارشاد والتوجيه .

وهى ترى من الواجب ألا يبتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة، وللوصول لذلك يجب العمل على أن يصبح منظورا للفقه الاسلامى أصولا وفروعا كمادة لتشريع مدنى عام، لانه هو نفس الشريعة التى لا يمكن ان يقوم عليها اجتهاد ولا تطوير ...

وكل هذه الاشياء لا يمكن ان تتحقق فى الحكومة المسلمة الا اذا خضع هذا الاجتهاد الجديد فى التشريع لنواب أكفاء ضمن مجلس تختاره

الامة، ويصبحون فيها مكان أهل الحل والعقد الاولين، ومعنى هذا انه لابد من اتباع النظام الدستورى المبنى على حكم الشعب بواسطة من يختارهم من نوابه الاكفاء .

غير ان الوصول لهذه الوسيلة لا يتحقق الا اذا تحررت البلدان الاسلامية من سيطرة الاجنبى المادية والمعنوية، ولذلك فالعمل على الاستقلال شرط أساسى لاكتساب الحرية التى لابد منها لتحمل المسؤولية .

وفوق كل هذا فالسلفية الجديدة ترفض بالطبع فكرة (لادينية الدولة)، وبذلك تجعل الحكومة الاسلامية حارسا على الاخلاق والفضيلة فى وسط الامة، وتطالبها بتهيئة سائر الوسائل التى تسهل على الفرد القيام بالواجبات الفردية والاجتماعية، وتحمله عن طريق الاقتداء والمتابعة على السلوك الحسن فى علاقته مع عائلته ومع اخوانه ومع الاجانب عنه .

تلك هى الاتجاهات السياسية التى شغلت السلفيين فيما بعد الحرب الكبرى، وقد رأينا كيف أنها أخذت قسطا كبيرا من كفاحنا الناشىء، ملونة بألوان مختلفة وظروف خاصة، ولكنها لم تنفك فى سائر مراحل جهادنا، سواء فى الحزب الوطنى او فى حزب الاستقلال محط عنايتنا وموضع اهتمامنا .

ومهما يكن مقدار التطور الذى حصل فى نظرتنا المدنية للاشياء ومهما يكن مقدار النجاح الذى سنحصل عليه فى تطبيق برامجنا بعد الاستقلال، فالذى لا شك فيه هو ان السلفية عملت عملها فى تسيير آلتنا النفسية وتوجيه تفكيرنا نحو هذا التجدد المنشود فى جميع مظاهر حياتنا، ونحو هذا التحرر الذى ظل طابع حركتنا، وصوب هذه الوحدة العربية التى لم تزل مطمح آمالنا، ونحو الروح الديموقراطية التى تسيطر علينا .

من السلفية للوطنية

لقد وجد الشباب المغربى فى دائرة الحركة السلفية ميدانا لبذل نشاطه وتعويد نفسه على العمل لخدمة الامة والتضحية فى سبيلها ، وهكذا تكونت منه مجموعة بفاس والرباط وتطوان لم تلبث ان أخذت تتناول الشؤون العامة بأسلوب غير الاسلوب الاول، وكانت مقاومة المشايخ الذين استفادوا من نظام الحماية فعملوا لبقائه فى مقدمة ما تقوم به من الاعمال. وسرعان ما تأسست جماعات صغيرة لدراسة القضايا القائمة، والعمل على تنوير الرأى العام بأضرارها، وكانت جامعة القرويين بفاس ملتقى الطلبة الواردين من كل جهة، فكان لزاما علينا ان نهتم بتنويرهم، وبعث الروح السلفية والقومية فى نفوسهم، فقمنا بعدة حركات لاصلاح التعليم الجامعى، والمطالبة بتحسين حالة الطلبة ، وتنظيم رحلات وتبادل زيارات بينهم وبين ابناء المعاهد الأخرى الداخلية، واقامة حفلات مشتركة مع تلامذة المدرسة الثانوية الادريسية وقدمائها، ثم اسست مع ثلة من اخوانى مجلة شهرية سرية باسم (ام البنين) كانت تصدر بانتظام فى اربعين صفحة، وتكرر على (البولى كوبى) ثم توزع على هذه الجماعات السرية بفاس والرباط ومراكش وطنجة وتطوان ، وفى الوقت نفسه كنا على اتصال بثلة من اخواننا الذين ذهبوا لاتمام دراستهم بفرنسا والشرق، حيث أخذوا يعملون فى جو أصفى واكثر حرية من جونا، وقد استطاعوا ان يؤسسوا بباريس «جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا» (وجمعية الثقافة العربية) ويتصلوا فى العطلة الصيفية بشخصيات من بينها عطوفة الامير شكيب ارسلان، كما استطاع اصدقاؤنا فى القاهرة ان يشاركوا فى تأسيس «جمعية الشبان المسلمين» و «جمعية الهداية الاسلامية» . وحاولنا نحن فى الداخل ان نؤسس «جمعية أحباء الطلبة» وان نعمل لمساعدة فلسطين فكانت السلطة دائما تجيبنا بالرفض، وتحول بيننا وبين انجاز ما نريد، وعلى الرغم من ذلك فقد والينا العمل لانشاء عدة مدارس اصلاحية فى مراكز مختلفة كانت النواة التى تلتف من حولها فئات عاملة محلية، ولكن كثيرا ما كانت السلطة تقفلها وا تعتقل أصحابها، فتنشأ عن ذلك احتجاجات سياسية ،

ولقد يستغرب القارىء اذا قلت له ان كل حركة صغيرة او كبيرة كانت تحتاج لمجهود وتضحية ازاء العناد الفرنسى الاسبانى، واذا اخبرته بأن ادارة الامور الاهلية بفاس هاجت لان شبانا عصريين أسسوا صالون حلاقة على أحدث طراز بشركة مساهمة ووفقا لكل ما يقتضيه القانون فأقفلته وفرضت على حلاقه غرامة مالية، وان الشبان اضطروا لبعث وفد للاقامة العامة ليستطيعوا اقناعها بالعودة لفتح صالون الحلاقة الجديد ، وأن ادارة الشؤون الوطنية بتطوان منعت صدور روزنامة وطنية أصدرها أخونا داود لان فيها ابياتا من شعرى وشعر بعض ادباء المغرب .

وفى سنة ١٩٢٥ حاولت الادارة الفرنسية ان تستولى على ماء وادى فاس الذى يعتبر ملكا لسكان المدينة، كما يعتبر كل بيت مالكا للقسط الذى يجرى به طبقا للتقاليد التى تثبتها حجج شرعية وتاريخية، وكانت الادارة ترمى بهذا الاستيلاء الى تمتيع بعض الشركات الفرنسية باستغلال الماء ، فرأى سكان المدينة فى ذلك مساسا بحقهم، وغصبا لملكهم، وقامت مظاهرة كبيرة احتشدت للتعرض على هذا المشروع فى ادارة المراقبة البلدية، وقد القيت فى داخل الادارة خطابا حماسيا كان له وقع حسن فى الجمهور المحتشد . وبعد ذلك وضعت انا والاستاذ الحاج حسن ابو عياد مذكرة قدمناها لحاكم الناحية الفاسية تطالب بسحب مشروع الادارة، وتتناول حق تمتيع الشعب بالحريات العامة التى من جملتها الملكية الخاصة فى حدود القانون . وقد وقعت عدة اجتماعات شعبية بالضريح الادريسى والقرويين وغيرهما كنت انا والحاج الحسن من خطبائها وموجهى اعمالها . وقد انتهت هذه الحركة بظفر المدينة وسحب ادارة الاشغال لمشروعها .

كل هذا وغيره كان يسير بنا للعمل السياسى المنتظم، ولكن ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ هو الذى علم نقطة البداية فى تاريخ الحركة الوطنية الجديدة .

السياسة البربرية

ولنساير عوامل التطور الفكرى والروحى فى ذهنية المغاربة يجب أن نعرف ما هى السياسة البربرية التى أدت الى اصدار الظهير البربرى فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ ، والحقيقة ان هذه السياسة هى آخر ما اهتدى اليه الفكر الفرنسى للقضاء على مقومات المغرب العربى وادماجه فى حظيرة العائلة الفرنسية . ولقد ظل الفرنسيون منذ احتلال الجزائر يبحثون عن الوسيلة التى تهيىء لهم الامتلاك الدائم للشمال الافريقى وتعميره بمسيحيين من العنصر اللاتينى، وكان يقف حجر عثرة فى سبيلهم هؤلاء السكان الاصليون المتمسكون باسلامهم وبوحدتهم ففكروا وقتا ما فى ان أفضل السبل هى التغلب على العنصر الاهلى بطريق الهجرة واعطاء المهاجرين الامتياز الذى يجعل الاهالى فى حالة من البؤس والشقاء لا يستطيعون معها مقاومة الفناء . وكانوا يرون القدوة الصالحة فيما قاموا به هم فى كندا الفرنسية، وما قامت به الشعوب اللاتينية فى امريكا الجنوبية التى ظلت زمنا طويلا المثل الاعلى لرجال السياسة الاهلية فى الشمال الافريقى . ولكن الايام تمر، والعنصر الاهلى لا يزداد الا بعدا عن الانحدار للفناء برغم كل ما يحاط به من مكر وتقتيل. والهجرة الاجنبية لم تستطع ان تصل الى الحد الذى تتمكن به من ان تنال الاغلبية فى هذه البلاد، وتقويتها بتجنيس اليهود والجزائريين والجاليات المالطية والطليانية ـ كل ذلك لم يؤد الى النتيجة المطلوبة. واذن فالحل الوحيد الذى يمكن ان ينهى المشكلة هو تجنيس المغاربة، ولكن المغاربة يرفضون الاندماج فى غيرهم، وهم اعظم كبرياء من ان يقبلوا جنسية قوم يعتبرونهم روميين محتقرين فى نظرهم . لكن هذا الاحتقار ليس ناشئا عن روح قومية بالمعنى الذى يفهمه الأوربيون على ما يبدو، وانما مصدره (فى نظرهم) تعصب دينى ناشىء عن جو الاسلام الذى يحيط بهم ويحاصرهم بالرغم عنهم، ولذلك فالفرنسة لا يمكن ان تكون الا عن طريق التمسيح، ومن ذا الذى يستطيع ان يواجه المسلمين بالدعوة للخروج عن دينهم ؟ الامر ليس بالصعب للدرجة التى تتصور وفى مراكش بصفة خاصة فان القسم الكبير من السكان هو من البربر، وهؤلاء ـ وان كانوا

يسمون انفسهم مسلمين ـ فان اسلامهم سطحى، واتفاقهم مع العرب ليس الا اتفاقا قائما على المصلحة الناشئة عن تغلب العرب وتسلطهم . واذا حيل بين البربر وبين العرب وبين كل ما جاء به العرب من لغة وقضاء وثقافة، فالبرابرة سيمسون بوجدانهم الخاص، وسيبحثون عن الروحانية القديمة التى جاءتهم بها روما من قبل ، وليس من البعيد أن يتمسحوا ، وبعد ذلك فسنجد منهم العامل القوى لمعاضدة الاندماج فى فرنسا التى تحررهم من سيطرة العرب الروحية والزمنية .

تلك هى السياسة البربرية فى خطوطها الكبرى، ويمكننا ان نرجع لمحضر جلسات المداولة فى مشروع الظهير البربرى لنستخرج منها الغاية والوسائل التى نظمها الحماة لتحقيق هذه السياسة، وقد جاء فى محضر جلسة (لجنة درس وتنظيم العدلية البربرية) المنعقدة فى ٨ اكتوبر ١٩٢٤ : «ليس هناك من ضرر فى تحطيم وحدة النظام العدلى فى المنطقة الفرنسية، وبما أن المقصود تقوية العضو البربرى نظرا لدور الموازنة الذى يمكن ان تستدعيه الحاجة فلا شك أن هناك فائدة مؤكدة من الناحية السياسية فى تحطيم المرآة » .

هذا فيما يخص القضاء ، أما فيما يخص التعليم فقد جاء فى أطروحة الاستاذ جودفروى ـ دمونبين(١) (عمل فرنسا بالمغرب فيما يخص التعليم) صحيفة ١١٩ : من الخطر أن نترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون، ولغتها واحدة، وانظمتها واحدة، لابد ان نستعمل لفائدتنا العبارة القديمة «فرق تسد» . ان وجود العنصر البربرى هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربى، ويمكننا ان نستعمله ضد المخزن (الحكومة المراكشية) نفسه .

ويعترف هذا المؤلف نفسه فى صفحة ١١٨ بأن اللغة العربية هى اللغة الاقتصادية والدينية والادارية بالمغرب الحالى، واما البربرى فيعتبر اللغة العربية لغة عليا، ولذلك يقول المؤلف فى صفحة ١١٩ (يجب ان تقوم اللغة الفرنسية لا البربرية مقام اللغة العربية كلغة مشتركة وكلغة للمدنية) .

ويقول الكومندان مارتى الذى هو من اكبر دعاة السياسة البربرية فى كتابه (مغرب الغد) ص ٢٤١ : «ان المدرسة الفرنسية البربرية هى مدرسة فرنسية بتعليمها وحياتها، بربرية بتلاميذها وبيئتها. اذن فليس ثمة واسطة اجنبى، كل تعليم عربى، وكل تدخل من قبل (الفقيه)، وكل ظاهرة اسلامية يجب منعها بصرامة تامة . فنحن نبتعد من تلقائنا عن كل

---

(١) gaudefroy—Demonbynes

مرحلة تكون مرحلة اسلامية اى مرحلة تبلور . ان الآراء هنا وفى كل مكان متفقة على هذه النقطة» .

ويقول دى مونبين ص ١٢١ من كتابه الآنف الذكر : «ان برنامج المدارس البربرية هى نفس البرامج البدوية الاخرى الا فيما يخص المعلمين، فيجب عليهم الا يستعملوا فى اى حال من الاحوال اللغة العربية ولو فى أوائل الدراسة، كما يجب عليهم الا يسمحوا للتلاميذ بأى اتصال مع (الطالب) (١) . أما فى الحالة التى لا يمكن للمعلم فيها اتباع الطريقة المباشرة فينبغى له ان كان يعرف البربرية أن يستعملها لتفهيم التلاميذ».

وكتب مسيو جلاى (٢) أحد موظفى الاقامة العامة فى مقال بعنوان «المدرسة الفرنسية لدى البربر» ما يأتى : «يجب أن نحذف تعليم الديانة الاسلاميةواللغة العربية فى مدارس البربر، وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية». وختم مقاله بقوله : «يجب ان نعلم البربر كل شىء ما عدا الاسلام» .

واذن فالسياسة البربرية ترمى لفرنسة المغرب لغويا وسياسيا وقضائيا، وتتخذ لذلك وسائل التفرقة بين عنصرين كبيرين فى البلاد فتعمد الى من تظنه أقرب اليها فتحول بينه وبين الثقافة الاسلامية والعربية، وتعمد الى الجماعات القبلية التى كانت مهمتها الدفاع عن القبيلة وتدبير مصالحها المحلية وتمثيلها امام ولاة الملك فتقلبها الى محاكم ، وتجعل مما بقى من بعض الاعراف الجاهلية قانونا ثابتا، ويصل بها الغلو الى أن ترفع قضايا الجنايات التى تقع فى الاراضى البربرية الى المحاكم الفرنسية ذاتها . وهكذا تجرد القسم الاكبر من رعايا البلاد من سلطة الملك الدينية والزمنية التى تتجلى فى القضاء الشرعى والمخزنى، وتعمد الى الكتاتيب القرآنية والمساجد فتقفلها وتحول بين الفقهاء ورجال الدين وبين التجول لتعليم الناس احكام دينهم .

بدأت هذه السياسة بظهير ١١ سبتمبر سنة ١٩١٣ الذى استصدره انماريشال ليوطى بدعوى احترام التقاليد البربرية، واستمرت تبدو فى مظاهر متعددة الى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ حيث تجلت فيما يسمى بالظهير البربرى .

ومع ان هذا الظهير غامض الدلالة فانه جرد الحكومة الشريفة من سيادتها على القبائل البربرية، وأحدث محاكم عرفية لم يعرفها المغرب فى تاريخه بحال .

---

(١) يستعمل الطالب فى المغرب فى معنى الاستاذ

(٢) Mauric Le glay فى نشر المعارف المغربية الصادرة فى غشت ١٩٢١

الامة المراكشية تثور

وطبيعى ألا تقف كتلة الشباب ازاء هذه التدابير مكتوفة الايدى ، بل انها استطاعت ان تعرف الرأى العام المغربى بحقيقة ما يدبر بالخفاء، واستطاعت ان تجمع من حولها الامة كلها للاحتجاج على هذه السياسة التبشيرية الادماجية، وسرعان ما بدأت الجماهير تحتشد فى مساجد (سلا) اولا، ثم فى الرباط وفاس وغيرها من المدن المغربية. وقد اشتدت الحركات الاحتجاجية بفاس حيث بدأ مسجد القرويين يمتلىء فى كل يوم بآلاف المسلمين الذين يستمعون للخطباء ، ويوجهون البرقيات ، ويختمون عملهم بالدعاء « اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، والا تفرق بيننا وبين اخواننا البرابر».

وفى اوائل جوان سنة ١٩٣٠ اشتد حماس المصلين فخرجوا متظاهرين فى الشوارع حيث كانوا يستمعون بمختلف الجهات لخطباء الشباب الذين يشرحون لهم الموضوع ، ويعرفونهم بالحال . ولما وصل المتظاهرون لدار شيخ المدينة عمدت اليهم السلطة فاعتقلت منهم خمسة وعشرين شابا جلدتهم بالسياط ، من بينهم أصدقائى عبد العزيز ابن أدريس والهاشمى الفيلالى ومحمد الوزانى ، وفى مساء اليوم بعثت السلطة فاعتقلتنى ، وكانت الادارة الفرنسية قد اعتقلت قبلنا السيد عبد اللطيف الصبيحى بسلا والسيد عبد اللطيف العتابى بالرباط .

بقينا فى السجن ١٤ يوما لم تنقطع فيها المظاهرات بمدن فاس وبالرباط وسلا ، وعم الخبر فى الأوساط البربرية فبدأت تفد للاحتجاج على الادارات المحلية، فتعتقلها السلطة وتزج بها فى السجون، وبعد ذلك اضطر الكومندار ميلى رئيس الامور الأهلية بفاس أن يذيع منشور يطمئن فيه الناس على اسلام البربر وعلى أن كل ما فعلته الحكومة هو تنظيم لقضاء قديم ، ثم أطلق سراحنا .

ولكن هذا التدبير لم يكن له الاثر الكافى ، فقد استمررنا واستمر معنا الناس فى مواصلة الاحتشاد اليومى بالقرويين للدعاء والاحتجاج ، وتكون وفد من السادة محمد بن عبد السلام الحلو، وحمزة الطاهرى .

واحمد مكوار ، واحمد أبى عياد للتفاوض باسم المتظاهرين مع الادارة الفرنسية ، ولما لم تجد هذه المفاوضات شيئا قررنا أن ننظم وفدا رسميا يمثل الافكار التى ندافع عنها .

وفعلا دعونا الجمهور للاجتماع بالمجلس البلدى الفاسى حيث وقع انتخاب وفد مكون من ٢٤ عضوا يمثلون سائر الاوساط الشعبية من العلماء والاعيان والصناع والعملة والفلاحين والشباب العصرى ، وكون هذا الوفد لجنة كنت من اعضائها لوضع المطالب التى يعرضها الوفد على المراجع العليا فيما يخص السياسة البربرية .

وهذه المطالب التى وضعناها وصادق عليها الوفد وأيدتها عرائض الشعب من كل جهة تشمل على ما يأتى :

١ ـ الغاء ظهير ١٦ مايو ، وسائر الظهائر والقرارات التى اتخذت فى معناه .

٢ ـ تكوين قضاء موحد لجميع المغاربة .

٣ ـ ربط جميع الموظفين الدينيين والمدنيين بسلطة الملك الشخصية.

٤ ـ ليس فى المغرب دين قومى الا الاسلام واليهودية .

٥ ـ منع الهيئات الاجنبية وادارة المعارف من استعمال وسائل التبشير .

٦ ـ اللغة العربية وحدها لغة البلاد الرسمية ، ولذلك يجب أن تكون الاساسية فى التعليم .

ولما علمت الاقامة العامة بتطور الحركة لهذا الطور المنظم وزعت منشورا باسم الوزير المفوض للاقامة العامة يعلن فيه أن الحماية تقبل اخراج كل قبيلة تطالب بالقضاء الشرعى من حظيرة القبائل التى يشملها الظهير، ولكن هذا الامر لم يكن الا ذرا للرماد فى العيون ، فقد تقدمت قبيلة (آية يوسى) من نواحى صفرو وقبيلة زمور بالخميسات وغيرهما بارسال وفود تطالب بتحقيق هذا الوعد ، فما كان من ولاة المراقبة الا أن ألقوا القبض على رجالها .

حينئذ سافر الوفد الفاسى برئاسة السيد عبد الرحمن ابن القرشى وزير العدل سابقا ، وكان والدى عبد الواحد الفاسى هو كاتب الوفد ، وقد رفضت ادارة الشؤون الاهلية بفاس أن تسمح لى أنا والحاج عمر عبد الجليل ومحمد الوزانى بالسفر مع الوفد بالرغم من أننا من أعضائه المنتخبين .

قابل جلالة الملك الوفد ، وقدم له العريضة المشتملة على المطالب السابقة ، وخطب رئيسه ابن القرشى خطابا بكى له جلالته ، ثم لبث بضعة ايام بالرباط محل مظاهر التأييد والتكريم من سكان العاصمة ، وأخيرا ألزمته الادارة بالرجوع لفاس حيث ألقى القبض بمجرد وصوله على الحاج محمد بن عبد السلام الحلو أحد أعضائه البارزين ، وعلي ، وعلى السيد الوزانى ، والسيد عبد العزيز ابن ادريس ، والهاشمى الفيلالى ، وغيرهم من رجال الحركة .

وازاء هذا التحدى العظيم من الحماية لممثلى الامة قررت المدينة الاضراب العام والقيام بمظاهرات استمرت ١٠ أيام وقع فيها اصطدام عنيف مع البوليس واحتل الجيش القرويين والمساجد الكبرى ، وشوارع المدينة الفسيحة ، وأعلنت الطوارىء وألقى القبض على مئات من السكان . وقد نفيت أنا وسبعة من أصدقائى الى مدينة تازة ، كما نفى الاخ محمد اليزيدى الى قلعة السراغنة ، وابن عبد السلام الحلو الى فجيج .

وبعد أن هدأت المظاهرات ، أى بعد شهرين من اعتقالنا قرر رئيس الجمهورية الفرنسية زيارة المغرب بدعوى تهدئة الخواطر ، ولما وصل للرباط أطلق سراحنا نحن الذين بتازة ، بينما استمر اليزيدى فى السراغنة شهورا أخرى .

صدى المسألة فى العالم الاسلامى :

كان لصدور الظهير البربرى والحوادث التى أعقبته استياء كبير فى العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وقد رفعت مصر صوت الاحتجاج عاليا على هذه السياسة الصليبية ، وبمجرد ما وصل اليها مندوب الحركة الوطنية الاستاذ الحاج الحسن أبو عياد عقد عدة اجتماعات خطيرة، واتصالات مهمة شرح فيها للرأى العام الاسلامى حقيقة السياسة البربرية ، فاحتجت جمعيات الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ، ورفع علماء الازهر عريضة استنكار لجلالة الملك فؤاد الاول ، كما رفع الشعب عرائض للسفارات الاجنبية ، وتكونت فى الهداية الاسلامية لجنة خاصة بالمحافظة على اسلام البربر استطاعت أن تبث فروعها فى الهند وجاوة وغيرها ، وازاء السيل الجارف من الاستنكارات اضطرت المفوضية الفرنسية بالقاهرة الى محاولة انكار الحقيقة ، وكذلك السفارة العامة فى جاوة ، فادعى السفيران أن فرنسا

لم تقم بأى شىء يمس بالأسلام فى المغرب الاقصى ، ولكن أبو عياد سرغان ما أجاب عن هذا البيان بالمحاضرات القيمة التى ألقاها فى مختلف الاندية العربية .

وفى فرنسا قام الطلبة الموجودون هناك بواجبهم نحو القضية المغربية، اذ أقاموا عدة مهرجانات وأذاعوا كثيرا من النشرات ، وأصدروا رسالة (عاصفة فى مراكش) أو (أخطاء السياسة البربرية) التى عربتها ونشرتها بالقاهرة اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب . ولما انعقد المؤتمر الاسلامى العام بالقدس كلفت كتلتنا الاستاذ المكى الناصرى بتمثيلها فيه ، كما كلفت كتلة الشمال الحاج محمد بنونة بالنيابة عنها ، وقد رفع الاثنان تقريرا عن حالة الاستعمار بالمغرب كان هو أصل كتاب (فرنسا وسياستها البربرية) وقد انتخب الاخوان معا فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر .

وبالجملة فقد كانت هذه المعركة فاتحة عهد كفاح وطنى فى الداخل والخارج اهتم فيه العالم الاسلامى بقضية المغرب الاقصى ، وعرف ما يبيته المستعمرون من دسائس للدين والعروبة فيه ، وقد قام الامير شكيب رحمه الله بدور مهم فى فضح هذه السياسة للجمهور العربى ، وبمجرد ما علم ما يجرى فى المغرب عجل بزيارة المنطقة الخليفية ، وأخرجه الفرنسيون من طنجة بعدما منعوه من الدخول للمنطقة السلطانية.

وهكذا وجد المغاربة أنفسهم وجها لوجه مع الحماية الفرنسية ، يقاومون سياستها وهم فى الحقيقة انما يعملون للاحتفاظ بوحدة بلادهم وتحرير أبنائها .

ولعل صديقنا عمر كان متعمقا فى فهم عقليتنا فى هذه الظروف حين قال فيما كتبه بامضاء (أبو عزة الزمورى) بمجلة «مغرب» :

اننا بمقاومتنا للسياسة البربرية نريد تقريب عناصر الشعب المغربى وتوحيده نريد محاربة مبدأ التجزئة المكيافيلى الذى ينشره بتفنن ممثلوا فرنسا الحربيون والدينيون ، نريد أن نمنع خلق كتلتين ذاتى ثقافتين ومصالح متناقضة خلقا اصطناعيا ، نريد أن نكفل حرية الضمير والتفكير للمواطنين جميعا بكيفية جدية .

واذن فقد بدأت حركة التحرير الجديدة ، وولدت كتلة العمل الوطنى .

كتلة العمل الوطني
و
الحزب الوطنـي

لم تكن لهذه المظاهرات الشعبيـة ولا للاحتجاجات التى أمطرهـا العالم الاسلامى على فرنسا من أثر عملى على تبدل السياسة أو محاولة العدول عنها ، بل زادت السلطات الفرنسية فى التمسك بضرورة المحو لكل ما من شأنه أن يبعث الروح القومية فى نفوس المغاربة، ولذلك انتظم الوطنيون فى دائرة كتلـة تعمل لتنسيق الحركة الوطنيـة وتوجيهها . وقد فكرت الكتلة فـى أن أول عمل يجب أن تقـوم به هو تنوير الـرأى العام فى فرنسا والخارج من جهـة ، وتنبيه الشعـب واعداده لتحمـل أطوار المقاومة من جهة أخرى . وبذلك أخذت البلاد تشهد مظاهر وألوانا من الاحتجاجات لم تعهدها من قبل، فمن نشرات تعلق بالجدران، وتوزع بالآلاف فى كـل الاوساط ، الى أغان تنشر بين النـاس ويتملى بهـا الجمهور ، فنشر أبحـاث قيمة عن البربـر وأثرهم فى الاسـلام ، وعن الشخصيات الكبيرة التى نبغت من بينهم ، وما لهم من المفاخر والمآثر، والى جانب كل ذلك فقد وقعـت دعوة عظيمة لمقاطعـة سائر البضائـع الفرنسية ، والاستعاضة عنها بالبضائع المغربية والعربية أو الاجنبيـة اذا لم يوجد غيرها ، وقد نجحت هذه الدعـوة نجاحا كبيرا ، فكنـت لا ترى الا الملابس المنسوجة فى المعامل المغربية والاقمشة الشعبية القديمة التى مضى عهدها ولم يكن يبالى بها أحد أصبحـت تحل محل التقديـر والاعجاب من الجميع ، وأمسك الكثيرون عن شرب الشاى وأكل السكر لانه فرنسى ، وسرت فى الاجـواء الشعبية صوفيـة ضحت بكثيـر من الشهوات ، وحتى فى الحاجات العادية فى سبيل المثل القومى العظيم، وشاركت النساء فى هذه التضحية بايثارهن المنسوج الوطنى برغم مـا فيه من تقشف على فساتين الموضة وألوانها .

وحاولت الادارة أن تقاوم كل ذلك بالضغط أحيانا والدعاية أخرى، ولكنها لم تصل الى ايقاف التيار الذى عم الاوساط كلها، وشمل الجهات بأسرها .

والذى اغضب الادارة اكثر من كل هذا هو استفحال هذه الدعاية فى الاوساط البربرية، وانبعاث الوعى القومى فى نفوس اخواننا من أبناء

المغرب الذين أصبحوا يحسون ويألمون ويتحركون للدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم، وأصبح الرعاء يتغنون بالاناشيد الوطنية الحزينة التى تبكى حالة الوطن وما يكيده الاجبنى له من دسائس . ولعل من العظة والذكرى ، ومن التسجيل للحقيقة ان ننقل هنا هذا النشيد باللهجة البربرية ثم نعقبه بالترجمة العربية :

١ ـ إيغاء بين اوينا حكمنين متا ثمباطا إزرف إزلان الدين
٢ ـ ثمرم الراى تزليم العزنون تكرام الدين ارتكارم سومر ذول
٣ ـ يتاغ الحال ثيماتا تصحا نكراخ لسلام أمازيغ عربى أكان بامن
٤ ـ الارزون أمعيذان اذاخ يظون اتمسلهو ذى كيناخ نقباط
٥ ـ اهايما زيغن أنودم ذايتاع ألا يتفافا الحر أكر ذيبخوان
٦ ـ أران إيرومين سواوال أكليد أداخ عديل إيريد إيهنا الخلا
٧ ـ إريداذى كين ذا الدين أمساو عذاو أهانتا ياسمى تالخ تونكين
٨ ـ أهايمازيغن امعيو رظن ايثكام أسيد العار أيكون يا عن كالمغرب
٩ ـ تيتشم أدا المال أدوياذا الدين أدان ثعيزاريو يثن أخنزير
١٠ ـ وتذعنم الدلت ثكيم أم اسمفان أمى وریاذ يكرا أرون شانشجعان
١١ ـ والله العظيم نكير مش ذا نكان اليساموم غاس أنزكوم نون
١٢ ـ إياك جران إيمازيغن كالمغرب اذاسن روخ أيس كان أيت ماكالدين

الترجمة العربية

١ ـ أيها القابضون على أزمة أمورنا الحاكمون فى قضايانا ما هذا الحكم بالعرف المصادم للدين ؟

٢ ـ أترضون كل ما يحدث الى أن رميتم عزتكم ورفضتم شرفكم فذهبا مع دينكم كما ذهبت معهما ثروتكم ؟

٣ ـ لا نعرف من قديم الزمن الا اننا والعرب اخوان متحدون متصلون أليس اسلام الامازيغ أبوه عربى ؟

٤ ـ يريد الاعادى أن يفرقونا ويذكوا نار العداوة بيننا لتتم سيادتهم علينا .

٥ ـ أيها الامازيغ أن النوم من طبائع الانسان ولكن الحر الذكى ينتبه ويبادر السارق المتلصص .

٦ ـ زعموا ان حكومتنا احتمت بفرنسا لنشر المدنية والاصلاح.

٧ ـ واذن فلماذا يجعلون سدا بيننا وبين ديننا ويبثون فينا عداوته والحال أن الدين الاسلامى هو غايتنا من الحياة .

٨ – أيها البرابر انكم خفرتم العهد ونقضتموه ، أليس عارا عليكم أن تهانوا فى دينكم فى عقر داركم المغرب ؟

٩ – نهب مالكم بعد دينكم فتلاهما عقاركم وصار الجميع بيد عدوكم .

١٠ – أذعنتم للذين يستعبدونكم كأنكم أرقاء وكأنكم خلقتم من مادة الجبن والحال أن أجدادكم من اشجع الناس .

١١ – والله العظيم لقد أضنانى السهر من أجلكم وأضعفنى همكم.

١٢ – ما أعظم مصابكم أيها البرابر بالمغرب أبكى لكم اذ أنتم أنا نسبا ودينا .

وبينما كانت هذه الاناشيد تتردد أصداؤها بين شواهق الجبال كان المغرب كله يردد هذا النشيد الذى نظمته فى الموضوع :

صوت ينادى المغرب من مازغ ويعرب
يحدو الشباب المغربى للموت من دون الوطن

* * *

لبيك يا صوت الجدود انا لشعبنا جنود
كل يرى حفظ العهود فى الذب عن حوض الوطن

* * *

لا نرتضى بالتفرقة ولو علونا المشنقة
ولو غدت ممزقة أشلاؤنا فدى الوطن

* * *

فليغضب الخصم العنيد وليرهب الصوت الشديد
لسنا نخاف او نحيد انا خلقنا للوطن

* * *

وفى سنة ١٩٣٢ قررت الكتلة تأسيس مجلة (مغرب) باللغة الفرنسية بباريس حيث كلفت بهذه المهمة صديقنا الاستاذ احمد بلافريج الامين العام لحزب الأستقلال الآن ، وقد عرف الاخ كيف ينظم المجلة ويجمع من حولها لجنة رعاية من احرار فرنسا اليساريين، وقد تولى رءاسة تحريرها الاستاذ روبير جان لونكى .

قامت هذه المجلة بنشر المقالات التى كان يكتبها الوطنيون المغاربة وغيرهم من الكتاب الفرنسيين موضحة مغازى الحركة الوطنية والآمال التى تعلقها على الديموقراطية الفرنسية، ومكافحة بجرأة واقدام السياسة المتبعة فى البلاد، ومزودة قراءها بين الاونة والاخرى بالاحصاءات المدققة

عن مظاهر الميز العنصرى الذى يسود سير الحماية فى مراكش، وكانت تعقد فى كل مناسبة اجتماعا لبعض النواب والصحافيين الفرنسيين الذين سرعان ما أطلقوا على أنفسهم (أصدقاء المغرب)، وانضم اليهم بعض الاحرار الاسبانيين لتأييد كتلة الشمال فى مطالبها ضدا على الاستعمار الاسبانى .

وقد كان لصدور المجلة رد فعل معنوى فى نفس الاقامة العامة التى حاولت منعها من الدخول للمغرب، ولكن أصدقاءها كانوا يتوسطون لدى الخارجية الفرنسية فى رفع المنع .

ثم قررت الكتلة بعد ذلك ان تصدر بفاس جريدة (عمل الشعب) باللغة الفرنسية أيضا؛ لان الصحافة العربية لم يأذن باصدارها حتى ذلك الحين ولاة الحماية المستبدون، فسارت الجريدة فى نفس الخطة التى تعمل لها المجلة من توضيح لرغبات الامة ودفاع عن مصالحها. وأهم الحملات التى قامت بها (عمل الشعب) هى المقالات الممتعة التى كان يسجل فيها الحاج عمر عبد الجليل فظائع الاستعمار الفلاحى. ويصور بها بؤس الفلاح وما آل اليه من استعباد فظيع، وقد كان لهذه المقالات أثرها فى التخفيف من نزع الملكية لمصلحة الاستعمار، وموالاة القروض الاستعمارية، الامر الذى هيج المعمرين، فتظاهروا بالرباط بعد ان حلقوا رؤوسهم، ولكن تظاهرهم لم يجعلهم ينجحون فى رد تيار المقاومة لمكايدهم الاستعمارية .

وفى الوقت نفسه اتفقنا مع اخواننا بشمال البلاد. على اصدار صحف باللغة العربية؛ فأخرج الاستاذ داود مجلة (السلام) الغراء التى كانت مجلة جامعة مليئة بالروح الوثابة والوعى الصحيح، وقررت كتلة الشمال أن تصدر جريدة (الحياة) لتكون لسانها الناطق باللغة العربية.

وطبيعى ان الجرائد كانت تتناول المسائل المغربية التى تهم مناطق البلاد كلها وتقرأ فى الشمال والجنوب على السواء، وتخضع لتوجيهات رجال الكتلة فى المنطقتين .

والى جانب هذه الحملات الصحافية قررت الكتلة أن أقوم بالقاء دروس شعبية عامة بجامعة القرويين، فافتتحتها بالدرس القومى الدائر على استنتاج معانى السيرة النبوية والتاريخ الاول للاسلام، والمقارنة بين حالة المسلمين فى العهد الماضى وحالتهم اليوم، وأسباب تقدم الاولين وانحطاط الاخيرين .

وكانت هذه الدروس تضم الى جانب طلبة الجامعة والمدارس الثانوية والنخبة المثقفة فى البلاد آلاف المغاربة من الرجال والنساء الذين كانوا يجدون فيها من الاسلوب الجديد الذى يحاول ان يخرج بهم الى التفكير فى حالهم ومصيرهم ـ حاجة طالما فقدوها فى الدروس الوعظية المعتادة .

ومن الاعتراف بالحقيقة ودون الرغبة فى أى افتخار يجب ان أقول انه كان لهذه المحاضرت الدائمة أثرها الفعال فى نشر المبادىء الصحيحة والافكار النيرة وتأييد الحركة الوطنية فى الاوساط الشعبية، كما كان لها فضل تكوين ثلة من الشباب المثقف وتوجيهه الوجهة الصحيحة فى القومية والسلفية وملئه بالروح القومية .

أما الادارة فقد رأت فى هذه الدروس مظاهرات سياسية يومية لا يمكن ان يسمح ببقائها، وحاولت منعها مرارا، ولكنها كانت تجد صعوبة من وجهة شكلها الدينى، فلا تتجرأ على منعها مباشرة، فأخذت تحاول اتخاذ التدابير لمنعها باسم جلالة الملك بصفته الرئيس الدينى للمغرب، واستعملت لذلك بعض اذنابها من أدعياء المشيخة الذين كتبوا عدة عرائض يتهموننى فيها بالنيل من الصالحين او المساس ببعض العقائد الصوفية او ما اشبه ذلك من الاساليب المصطنعة، ولكن وقوف الاستاذ الشيخ محمد بن العربى العلوى موقف الدفاع الصادق عنى بالمجلس الاعلى لجامعة القرويين كان يحبط هذه المساعى التى تكررت أربعا وعشرين مرة، ولم يقبل جلالة الملك ان يصدر اى منع لى من القاء هذه الدروس برغم مجهودات الاقامة العامة المتعددة ومجهودات ادارة الشؤون السياسية .

وفى هذه الاثناء حدثت عدة مظاهر لنجاح دعوتنا؛ من جملتها اصدار الملك الامر بتوقيف كل مظاهرات طرق (العيساوية) و (الحمدوشية) وغيرها فتجلت حيوية الامة ورغبتها فى البعث والتطور فى الافراح التى أقامتها سرورا بهذا الامر الشريف الذى طالما ترجاه المصلحون ، وعمل فى سبيله العاملون .

وامتدت مظاهر المقاطعة للبضائع الاجنبية الى دعوة شاملة لمنع التدخين لان شركة الدخان الفرنسية طردت مئات من العمال المغاربة لافكارهم القومية وقد نجحت هذه المقاطعة الى حد ان احست الشركة بمفعولها، فاضطرت الى ارجاع العملة المطرودين جميعا، ومع ذلك

فلم يقف سير المقاطعة، كما لم يوقفها اعتقال الادارة الفرنسية لمائة شاب من الذين كانوا يتجولون لنشر هذه الدعوة وتبيين الغاية منها للناس .

وفى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٣٣ سافرت لطنجة ثم لتطوان، فأقامت لى الكتلة الوطنية بشمال المغرب حفلة تكريم خطب فيها صديقنا الاستاذ عبد الخالق الطريس وصديقنا الحاج محمد بنونة وغيرهما من رجال الوطنية، ثم ارتجلت كلمة شرحت فيها الغاية من حركتنا وانها تحرير البلاد والوصول بها للاستقلال عن طريق التقدم، وبينت لهم ان المرحلة الاولى التى نسير فيها منذ الساعة من جهة الاصلاح الداخلى للشعب هى الاهتمام بتأسيس أمور ثلاثة وتحقيقها، وهى المدرسة والمعمل والصحيفة .

لم يعجب الولاة الاسبانيون أن أتناولهم بالنقد فى خطابى، كما تناولت الفرنسيين، ولم يسرهم أن أقف فى تطوان لاعلن وحدة الغاية التى يعمل لها وطنيوا الشمال ووطنيوا الجنوب متآخين متضامنين ، ولذلك فقد اصحبونى ثلاثة من رجال البوليس السرى الاسبانيين الذين كانوا ملازمين لى ملازمة الظل، وبعد ثلاثة ايام سافرت صحبة الاخ داود لزيارة قصيرة لمدينة سبتة على أمل العودة لتطوان ومنها لطنجة حيث أرجع لاستئناف دروسى فى القرويين، ولكنى لما حاولت الرجوع فى اليوم نفسه وجدت امرا لدى رجال الجمرك الذين ابلغونى أن الاقامة العامة الاسبانية منعتنى من الدخول لمنطقة حمايتها .

وهكذا عدنا لسبتة، ثم سافرنا الى الجزيرة الخضراء ، ومنها فى الباخرة الى طنجة، وما وصلت الى هذه المدينة حتى رأيت أحد أصدقائنا الفاسيين يقترب منى ويبلغنى رسالة كلفه بحملها من فاس زملائى الوطنيون .

قرأت الرسالة واذا بها نبأ يقول ان الكتلة استطاعت ان تتصل بنص برقية وردت من باريس تأذن فى القاء القبض على، ووضعى تحت المراقبة بجهة تختارها الاقامة العامة، وأن الكتلة اجتمعت ورأت ان اعتقالى سيؤدى لا محالة الى مظاهرات واصطدامات عنيفة لا ترى من المصلحة وقوعها فى الوقت الحاضر، ولذلك طلب منى السفر الى باريس ريثما يتغير الموقف، وفى صباح الغد غادرت طنجة الى جبل طارق، ومنها الى اسبانيا حيث التحق بى فى مدريد صديقنا المرحوم الحاج عبد السلام بنونة وأخوه الحاج محمد، وكونا هناك وفدا قام بعدة

اتصالات فـى الاوساط الاسبانيـة ، وعقد عدة اجتماعات مع نخبة من المفكرين الاسبانيين فى (نادى الاثينيو) بمدريد لشرح الحالـة العامة فى المغرب، وتبيين أغلاط السياسة الاسبانية، ثم رفعت مذكرة للمكتب المغربى فى رئاسة الوزارة الاسبانية أحتج فيها على موقف اسبانيا في قضيتى، وعلى التغطرس الذى أظهره مقيمها العام السنيور موليس الذى رد لاخواننا بتطـوان برقية احتجاج موجهـة اليه، وقد قررت الحكومة الاسبانية بعد ذلك اعفاء موليس والسماح لى بدخول المنطقة .

أقمت فى باريس سبعة أشهر كانت كلها نشاطا فى العمل متعاونا مع أخينا بلافريج وأصدقائه فى لجنة المجلة، ومع جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين التى كان يترأسهاالاستاذ محمد الفاسى، وقد أقمنـا عدة مؤتمرات ومهرجانات كان صدى احتجاجها يتردد فى الصحافة كلها، وكان لهذه الحركة أثرها فى تغيير المقيم العام الفرنسى المسيو لوسيان سان وتعيين المسيو بونصو مكانه والاذن لى بالعودة للمغرب واستئناف دروسى بالقرويين، كما كان لها أثرها فى توحيد الحركة بين الدستوريين ونجم الشمال الافريقى الجزائرى وكتلة العمل الوطنى المراكشية .

العـودة للبـلاد :

بعد سبعة اشهر من اقامتى بباريس أبلغتنى الاقامة العامة بواسطة مكتبها بالعاصمة الفرنسية وبمحضر السيد قدور ابن غبريط أنها لم تعد ترى مانعا من رجوعى للبـلاد واستئنـاف دروسى فى القرويين، وفعلا سافرت بعد ثلاثة ايام الى مدريد حيث عـاودت الاتصال بالشخصيـات المهمة، وخاصة ببعض اصدقائنا الديموقراطيين الذين كانوا قد كونوا مع الاستاذ محمد الفاسى مدير القرويين اليوم والاستاذ المكى الناصرى البيت العربى بالعاصمة الاسبانية ،وأخذوا يعملـون على نشر الدعـوة لايجاد سياسة تقارب اسبانـى عربى، وقد ابلغنى السنيور ريكو إبيو الذى كنت رفعت له مذكرتى عـن السياسة الاسبانية فى المغرب أثناء مرورى الأول فى مدريد بصفته مدير المكتب المغربى فى رئاسة الوزارة: أنه قد عين مقيما عاما فى المنطقة الخليفية، وأنه سيتخذ سياسة اوسع أفقا من سياسة السنيور موليس، وما علـم الاخوان بتطوان نبأ قبول اسبانيا لتغيير موليس حتى انتدبت (كتلة العمل الوطنى) فى الشمال وفدا يتكون من الاخوين الحاج عبد السلام بنونة وعبد الخالق الطريس

للسفر الى مدريد والاتصال بالمقيم الجديد والدوائر الرسمية رغبة فى اقناعها بضرورة اتخاذ سياسة رشيدة لمصلحة الطرفين .

أما انا فقد رجعت الى طنجة فى يناير سنة ١٩٣٤ ووجدت بها مدير الشؤون الاهلية بالمنطقة السلطانية الكولونيل بينازى الذى أعلمنى أنه ورد للمحادثة معى باسم جلالة السلطان واسم المقيم العام فى بعض المسائل التى من شأنها ان تقرب وجهة النظر بين الحماية والوطنيين .

وقد استمرت هذه المحادثات ثلاثة ايام اجتمعنا فيها ست ساعات فى اليوم بمحضر مراقب الولاة المخزنيين بمنطقة طنجة الكولونيل تروشى، وتناولت محادثاتنا جميع الموضوعات التى تشغل الذهن الوطنى وكيفية مواجهة الحالة القائمة وضروب الاصلاح التى نؤملها، وكان يرجع فى النهاية الى ضرورة استشارة الرباط ليرى رأيه النهائى فى الموضوع، ومن حق التاريخ أن أسجل أن المسيو بينازى عرض على يومئذ تولى وزارة العدل فى الحكومة الشريفة ، فاعتذرت بأنه لا يمكننى أن أقبل أية وظيفة ما دام الموظفون المغاربة لا يمثلون الا أداة تنفيذية ليس لها من الامر شىء والحق أن سياسة مسيو بونصو (المقيم العام الفرنسى اذ ذاك) كانت ترمى الى تقدير نسبى لرجال العمل الوطنى، وكان يود تعاونهم مع الادارة الفرنسية، ولذلك عرض بعد وظيفة وكيل مدير عام للشؤون الفلاحية على صديقنا الحاج عمر عبد الجليل الذى اعتذر هو الآخر بمثل ما اعتذرت به .

وبعد انتهاء هذه المحادثات الافلاطونية التى لم تكن ترمى الى اكثر من الدراسة والاستخبار دخلت للبلاد حيث وجدت الحركة آخذة فى التقدم

وبعد بضعة ايام دعيت من القصر الملكى حيث حظيت بمقابلة جلالة السلطان مقابلة خاصة استغرقت ساعة كاملة، وكانت هذه اولى المرات التى يحظى فيها زعيم وطنى بمقابلة جلالته، وقد أراد جلالته أن يعبر بذلك عن تكذيبه لما كان يروجه الفرنسيون من ثورة الوطنيين عليه، ومن عدم رضاء جلالته عن الحركة التحريرية القائمة، وقد لمست فى شخصية سيدى محمد بن يوسف الملك العظيم الذى ظهرت آثار عظمته بعد فى هذا الكفاح المستميت الذى لم يزل حفظه الله يواليه لمصلحة الامة واستقلال البلاد برباطة جأش وثبات قلب واطمئنان نفس ونبل روح، ولما شرحت لجلالته الغاية من حركتنا صرح لى بأنه راض كل الرضى عن كل ما من شأنه أن يساعد على تقدم البلاد وازدهارها ، وقال لى: « ان ما ضاع من حقوقنا ناشىء عن عدم معرفة من مضى من المسؤولين بالاساليب التى

يجب أن تتبع ، ومنذ الآن لن يضيع للبلاد حق بل سأعمل على استرجاع كل ما ضاع » .

وكان المسيو طارديو قد شكل الحكومة الفرنسية ، وجعل فى جملة وزاراتها وزارة سماها (بفرنسا التى ما وراء البحار) ، فأعلمنى جلالته أنه بعث يحتج ازاء الخارجية الفرنسية على هذه الوزارة وقد ألغيت هذه الوزارة بفضل الاحتجاج الملكى .

تأسيس عيد العرش المغربي

أومأت آنفا الى أن الفرنسيين أخذوا يدسون بين الوطنيين وبين جلالة الملك، ولما سافرت الى فرنسا فرارا من اعتقالهم حاولوا أن يقنعوا القصر بأنى سافرت مبعوثا من الكتلة الوطنية للتفاوض على ارجاع المولى عبد الحفيظ لعرش مراكش ومع أن جلالة الملك أعقل من أن يصدق أمثال هذه الترهات فان الكتلة الوطنية لم تقف موقف المتفرج من عمل الفرنسيين ، وقد أرادت أن تظهر عمليا عواطف الوطنيين الحقيقية نحو مليكهم العظيم من جهة ، وتفضح الفرنسيين وتكشف عن نفاقهم من جهة أخرى ، فاهتدت الى فكرة سديدة هى تأسيس عيد العرش المغربى يوم ١٨ نوفمبر الذى هو يوم جلوس جلالة سيدى محمد، وقد حل ذلك اليوم الذى بدأت البلاد تحتفل، ولكن الاقامة العامة وقفت موقف المنذهل الذى يريد منع الاحتفال ولكنه لا يستطيع التجرؤ فى التنفيذ وفعلا لم تستطع الوطنية المغربية أن تجعل من هذا الاحتفال عيدا رسميا ، ولكنه على كل حال كان يوما تمهيديا للعيد الرسمى الذى أسس فى السنة الموالية أى سنة ١٩٣٤ ، وهكذا انكشف للجميع أن الكتلة الوطنية لا تمثل الا الوفاء والاخلاص الذين يحملهما الشعب المغربى نحو عرشه المجيد وملكه العظيم ، وأن المستعمرين وحدهم هم الذين يأبون على الشعب أن يتطور أو يقوم بأى مظهر يمثل العزة والكرامة ولو كان هذا المظهر احتفالا بملك البلاد ، وفى يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٤ كان موعد زيارة الملك السنوية لمدينة فاس، فانتهزت الوطنية المغربية هذه الفرصة لتظهر لجلالته ولأهها فى عاصمة ملكه الروحية ، فنظمت الاستقبالات الشائقة التى لم يسبق لها مثيل فى شكلها الحديث ، ونصبت اقواس النصر فى سائر الجهات ، وعلقت الرايات المغربية فى طول المدينة وعرضها ، وتغنى الجمهور بنشيد جديد للملك (من نظمى) يعبر عن آمال الامة القومية فى جلالته ، وأصدرت جريدة «عمل الشعب» عددا خاصا محلى بصورة الملك وصورة ولى العهد الذى أعطنياه لقب (أمير الاطلس)، وأظهر الجمهور ساعة وصول جلالته من الحماس والتأثر ما أطلق الالسنة بالهتافات الوطنية والادعية الصادقة بحرية المغرب واستقلاله .

ومن الغد كان موعد زيارة جلالته للقرويين وبعض الأضرحة المحترمة وفقا لتقاليد البلاد ، وجرت العادة أن تكون هذه الزيارة فى شكل مدنى ؛ أى أن لا يصحب جلالته فيها غير الوزراء والكتاب وبعض الحجاب والحشم ، أما الحرس الشريف والجند والمظاهر العسكرية فلا يبدو لها أثر احتراما للاولياء والابطال الذين يزورهم الملك ، وطبيعى أن الاتصال بين الشعب وبين سلطانه يكون أسهل فى مثل هذه الحال، ولذلك فان الجمهور الفاسى انتهز فرصة نزول الملك على هذه الصورة فكون من حوله مظاهرات عظيمة كلها هتافات بحياته، واشعار لجلالته بآمال الامة فى أن تنال فى عهده ما تصبو اليه من استرجاع لحقوقها الضائعة وتراثها المسلوب، وقد كانت هذه المظاهرات عظيمة حقا وقومية صدقا، وانبسط لها مولانا الملك ، وأظهر من التواضع والديمقراطية ما اهتزت له افئدة شعبه وزاده حبا فيه واغتباطا به .

ولكن أصدقاءنا الفرنسيين لم يروا فى هذا التظاهر العادى الا اعتداء على حقوق فرنسا ومساسا بكرامتها ، وعز عليهم أن يروا للمرة الثالثة جلالة الملك محفوفا بشعبه ، والكل يطالب علنا بالحرية ويدعو للاستقلال ، وأراد الجنرال ماركى حاكم الناحية الفاسية أن يمنع جلالته من أداء صلاة الجمعة يوم ١٠ مايو بمسجد القرويين ، وفقا للبرنامج المقرر ، فادعى أن المتظاهرين بعدما رجعوا من حول الملك مروا بدار الجنرال وهتفوا هتافات بسقوط فرنسا ، وأن شابا عمد الى يهودى رفع العلم الفرنسى بدكانه فشتمه ورمى العلم فى الارض ، وفى مساء اليوم التاسع قدم مسيو هيللو نائب المقيم العام (لان المسيو بونصو كان بباريس) لفاس، وانعقد تحت رئاسته مؤتمر حضره الولاة العسكريون والمدنيون وقرروا أن يبلغوا جلالة السلطان استياءهم مما جرى ، وأن يطلبوا منه اعتقال زعماء (كتلة العمل الوطنى) والعدول عن النزول لاداء الجمعة فى القرويين والاكتفاء بالصلاة فى مسجد القصر أو السماح للادارة بأن تضع على طريق جلالته صفين قويين من جنود الحماية .

وفعلا توجه مسيو هيللو صحبة الجنرال حاكم الناحية للقصر العامر ، وبلغا جلالة الملك مطالب فرنسا من جلالته بمناسبة زيارته لفاس ؛ وقد رفض جلالته فورا المصادقة على اعتقال رجال الكتلة وواعدهما بالنظر فى مسألة الصلاة بالقرويين .

وقد أمر جلالته بعد خروج ممثلى فرنسا بعقد اجتماع مجلس الوزراء ، وعرض على وزرائه الموضوع ، وكان جلالته شديد التأثر،

ويريد المصادمة التامة مع الفرنسيين نهائيا ، ولكن المجتمعين اتفقوا على أن يخرج جلالته فى صباح يوم الجمعة باكرا من فاس احتجاجا على تصرف الحماية دون أن يتم برنامج الزيارة الملكية ؛ لأنه لا يمكن لجلالته أن يعدل عن أداء الصلاة فى القرويين ، واذا سمح للجيوش بحراسته ربما انتهزت الفرصة للتنكيل بالاهالى على عادة الجنود الفرنسيين ، واذا امتنع عن قبول الحراسة ربما أوعزت الادارة الفرنسية لبعض أذنابها بارتكاب جريمة ضدا على جلالته أو ارتكاب شيء أعظم من المشكلة الاولى .

وفعلا رجع جلالته الى الرباط ، وقد بعثت (كتلة العمل الوطنى) لجلالته برقية تعلن فيها تضامنها مع جلالته ، وتعلقها بعرشه الكريم، كما أصدرت عددا خاصا من «عمل الشعب» تشرح فيه الحقيقة عن (يوم ١٠ مايو) .

وفى يوم ١٤ مايو بعث جلالته استدعاء لرجال الكتلة الموقعين على برقية التضامن يدعوهم للقدوم للعاصمة بقصد المفاوضة معهم فى بعض المسائل المهمة ، وقد توجهنا فعلا حيث انعقد بيننا وبين مجلس الوزراء اجتماع برئاسة الصدر الاعظم حضره رئيس الديوان الملكى الذى بلغنا باسم جلالته أنه لم يخرج غاضبا على مدينة فاس وفق ما أشاعه المغرضون، بل خرج بالعكس مغتبطا مسرورا، وقد قرر هذا الخروج شفقة على رعيته من أن تمتد اليها يد المستعمر بسوء ، ثم وقع استعراض عام للمسائل المغربية، وأظهر الوزراء كلهم رغبتهم فى تحقيق أمانى البلاد، وصرحوا لنا بأن الجميع يجب أن يتعاونوا على استرجاع السيادة المغربية المأسورة .

وازاء هذا الموقف الملكى لم تجد السلطة الفرنسية شيئا للانتقام به من (كتلة العمل الوطنى) الا توقيف جريدته (عمل الشعب)، ومنع مجلتها «المغرب» التى تصدر بباريس من الدخول لمراكش، ومنع مجلة «السلام» وجريدة «الحياة» اللتين تصدرهما كتلة الشمال من الرواج فى المنطقة السلطانية ايضا.

واذن فقد جردت الحركة الوطنية من جميع العدد التى كانت تستعملها للدعاية لمبادئها، ولكن للحركة أساليب أخرى ووسائل متعددة، ومن أهمها الدروس الليلية التى لم تنقطع اثناء غيبتى بباريس ؛ اذ كان يقوم بها صديقنا الحاج حسن أبو عياد، وصديقنا عبد العزيز ابن ادريس حتى منعا، وقد استأنفتها بعد عودتى، فكان الاقبال عليها اكثر واعظم ،

ولكن ضغط السلطة كان أشد وأعظم، وقد بلغ الامر بادارة الشؤون الاهلية الى الا تكتفى بجواسيسها، بل أخذت تكلف عدول المحاكم الشرعية بالحضور رسميا وبطريق المناوبة عدلين فى كل اسبوع يستمعان لدروسى ويسجلان ملخصا لها ويمضيانه ثم يصادق القاضى على شهادتهما طبقا للمسطرة القضائية، وتنفيذا لنوع من الرقابة كان يستعمله نابليون على بعض الجامعيين، وكانت الادارة تناقش العدلين فى شهادتهما ؛ الامر الذى استوجب منى احتجاجات متوالية انتهت بطلب السلطة الفرنسية من الحكومة الشريفة منع دروسى، ولكن جلالة الملك أصر على عدم المصادقة على المنع، فانتظرت ادارة الشؤون الاهلية حتى واتتها فرصة حوادث ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ التى جرت فيها المصادمات بين حزب الصليب النازى واحزاب اليسار فى فرنسا، وأصدرت فى جوها أمرا تليفونيا عسكريا لشيخ القرويين بمنعى من التدريس .

وموازاة للحملات الصحفية والدعاية الوطنية قامت الكتلة بتوجيه عدة مذكرات واستكتاب عرائض ورفع تقارير فى مختلف النواحى التى تتناولها الحماية طبقا لسياستها، ومن أهم ما قامت به معارضتها لمطالب الموظفين الفرنسيين، وانتهازها فرصة اضرابهم للمطالبة باحلال المغاربة الاكفاء محل الاجانب فى الوظائف المغربية، وتحميل الميزانية الفرنسية النفقات الراجعة لما يسمونه بلوازم النفوذ الفرنسى، وعدم اداء الميزانية المغربية للتعويض الذى تدفعه الدولة لجيش الاحتلال، واسقاط الثلث الاستعمارى، وبصفة عامة الانتقاد المر لسياسة الحماية المالية والاقتصادية المبنية على الاستغلال العنصرى .

برنامج الاصلاحات المغربية

واذن فقد اتجهت الحركة الوطنية فى هذه المرحلة الى انتقاد الحماية والتشنيع على سياستها فى جميع مظاهرها، والى العمل لاصلاح شؤون البلاد وتحسين حالة أبنائها ، وطبيعى أن يؤدى ذلك الى مقارنة العمل الفرنسى بالمغرب بالوعود التى أعطتها فرنسا والتى ذيلتها بامضاء الشرف والكرامة؛ فالحماية التى لم يقبلها المغرب الا مجبورا تزعم انها لم تفرض الا لمساعدة المغرب على التقدم والارتقاء مع الاحتفاظ له بمقوماته وسيادته، والاحترام الكامل لدينه وتقاليده، ولقد قال ليوطى فى تحديد الحماية سنة ١٩٢٠ : «فكرة الحماية تعنى أن البلاد محتفظة بمؤسساتها تحكم نفسها وتدبر شؤونها بنفسها تحت مجرد رقابة اوربية، والذى يملك ويكيف هذه الفكرة هو المراقبة المعارضة تماما للحكم المباشر» .

ولكن العمل الذى سارت فيه الحماية هو الحكم المباشر الذى يتنافى تماما مع مجرد الرقابة المفروضة ، ولذلك فقد كان الهم الاكبر للوطنية المغربية هو تنبيه الفرنسيين أنفسهم لضرورة العدول عن هذا الاسلوب الذى يتنافى حتى مع الحماية نفسها، ولكن الانتقادات وتبيين مواطن الضعف فى خطط الحماية ظهر للكثيرين من الفرنسيين كعمل سلبى يدل على استياء من النظام القائم، ولكنه لا يفسر الرغبات الحقيقية التى يراد تعويضه بها، ولذلك أخذت الصحافة الفرنسية تتهم الوطنيين المغاربة بالتهييج من أجل أشياء لا يستطيعون هم انفسهم تحديدها ، فقررت كتلة العمل الوطنى أن تضع حدا لتقولات الفرنسيين، وتتحدى السلطة بتقديم برنامج اصلاح تعتبره كمرحلة اولى قبل الاستقلال، وهكذا وضعنا برنامج الاصلاحات المغربية او (مطالب الشعب المغربى) وقد رفعه فى شهر نوفمبر سنة ١٩٣٤ وفدالكتلة المتركب من الاساتذة محمد غازى واحمد الشرقاوى وعبد العزيز ابن ادريس وأبو بكر القادرى الى جلالة الملك بقصره فى الدار البيضاء . وقدمه علال الفاسى ومحمد اليزيدى ومحمد الديورى للاقامة العامة بالرباط، وفى الوقت نفسه قدمه وفد الكتلة المتركب من الاستاذين عمر عبد الجليل ومحمد الوزانى للخارجية الفرنسية .

وقد استطاع وفد الكتلة بباريس أن يؤسس لجنة رعاية من أصدقاء مجلة (المغرب) وغيرهم من رجال اليسار الذين أظهروا عطفهم على برنامجنا وتقديرهم للروح التحريرية والتقدمية التى يحتوى عليها .

ويشتمل برنامج الاصلاحات المغربية على ١٥ فصلا هى :

١ ـ الاصلاحات السياسية .
٢ ـ الحريات الشخصية والعامة .
٣ ـ الجنسية المغربية والحالة المدنية .
٤ ـ الاصلاحات العدلية .
٥ ـ الاصلاحات الاجتماعية .
٦ ـ الاوقاف الاسلامية .
٧ ـ الصحة العامة والاسعاف الاجتماعى .
٨ ـ شؤون العمل .
٩ ـ الاصلاحات الاقتصادية والمالية.
١٠ ـ الاستعمار والفلاحة المغربية.
١١ ـ النظام العقارى .
١٢ ـ الضرائب والاداءات .
١٣ ـ الاصلاحات المتفرقة .
١٤ ـ العربية كلغة رسمية للبلاد .
١٥ ـ العلم المغربى والاعياد الرسمية والتشريفات .

وبكل فصل من هذه الفصول بنـود عديدة تتضمـن ما يلزم تنفيذه لاصلاح الجهاز المسير للدولة وللأمة .

أما الخطوط الرئيسية للبرنامج فهى :

١ ـ تطبيق معاهدة الحمايـة والغاء كل مظاهر الحكم المباشر .
٢ ـ توحيد النظامين الادارى والقضائى لجميع البلاد المغربية .
٣ ـ تقديم المغاربة فى جميع فروع الادارة المغربيـة .
٤ ـ الفصل بين السلطات التى يقوم بها القواد والباشاوات .
٥ ـ احداث بلديات، ومجالس اقليمية، وغرف تجارية، ومجلس وطنى يحتوى على نواب مسلمين واسرائيليين .

وتقوم هذه الخطوط على اعتبار أن الحماية لا تعنى منـع المغرب من حكم نفسه بنفسـه، ولذلك فقـد خصصت الكتلة مقدمـة برنامجها لتوضيح هذه النظرية من الوجهتين القانونية والدبلوماسية، وقد كـان

فى جملة ما استدلت بـه الحكم الذى أصدرتـه محكمة النقض والابـرام العليا بفرنسا بتاريخ ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٢٤ والذى يقول:

«ان المعاهدة التى وضعت بين فرنسا والمغرب الاقصى من أجـل نظام الحمايـة الفرنسية بالمملكـة الشريفة ليس من مفعولهـا أن تضيع للمغرب استقلاله الذاتى» .

وتسود مطالب الشعب المغربى الصبغة الديموقراطية القائمة على احترام الحريات الشخصية والعامة والاهتمام بالتطوير الاجتماعى للاسرة والجماعة المغربيـة .

وأما من الوجهة الدستورية، فالمجلس الوطنـى لم يكن فـى نظر الكتلة الا مرحلة أولى لوضع دستور حقيقى للبـلاد، ولذلك فقد أعطـى لهذا المجلس حق الاقتراح ووضع جدول الاعمال وحق الرقابة والتدخل فى كـل المشروعات الحكومية، ولكـن البرنامج أبقى الكلمة العليـا فى المجلس لجلالـة الملك، كما أبقـى الوزراء مسؤوليـن أمام جلالته طبقا للتقاليد، وهو بهذا المعنى شبيه بالدستور الذى وضعته الجمعية الوطنية فى الحرب الريفية، ولكنه لا يعبر عن كل ما نصبو اليه من حكم دستورى كامل، والسر فى ذلك أن الكتلـة الوطنية كانـت ترى من الضرورى أن تسير فى تطبيق الديموقراطية أو المطالبة بها على أساس تدريجى حتى يمكن استخلاص الشعب لحقوقه بطريق التطور والتجاوب النفسى بين شعور الملك وشعور الشعب مع الأخذ بتربيـة الامة تربية ديموقراطيـة عن طريق المجالس البلدية والاقليمية .

ومن جهة أخرى فان الروح التى كانـت تملك سياستنا فـى هذه المرحلة، هى القضاء على الحكم المباشر، وذلك باسترجاع كل مظاهـر السلطة ليد جلالة الملك ورجال حكومته معتقدين أن مسألة الدستور أمر هين علينا متى أصبحت المسألة بيننا وبين مليكنا، ولم تكن هناك حواجز أجنبية فى الموضوع .

وقد بينت الكتلة فى المقدمة : أن هذا البرنامج لم يكن الا تعبيرا عما سبق للشعب أن طالب به فى مختلف المناسبات، وقـد استخلصته من (مجموعة العرائض والشكايات الجزئيـة التى رفعها الشعب فى أوقـات مختلفة لجلالة السلطان ولحكومته) .

«وقبل اعطائها صيغتها النهائية عملت (الكتلة) على الاتصال بسائر طبقات الامة فى حواضرها وبواديها ، وهكذا استطاعت ان تدرس نفسية الشعب وأن تعرف الفكرة معرفة تامة، وعلاوة على ذلك فقد وردت عليها

شتى الرسائل للاعراب عن حاجة البلاد الماسة الى نظام صالح يحفظ حقوق المغاربة ومصالحهم أمة وأفرادا ، ويسير بهم فى صراط التقدم المستقيم » .

والخلاصة كما لاحظت الاقامة العامة فى تقريرها المرفوع للجنة البحر الابيض المتوسط : «أن دور الحماة يجب أن ينحصر بمقتضى برنامج الاصلاحات القومية فى المساعدة الفنية ريثما يتمكن المغرب من حكم نفسه بنفسه» .

* * *

لقد اشتمل برنامج الاصلاحات المغربية على هندسة سياسية فى عرض المطالب والتوفيق بين المعاهدات القائمة ومصلحة البلاد يدل على مجهود عظيم فى محاولة التقريب الذى رمت اليه الكتلة بين وجهة النظر المغربية ووجهة النظر الفرنسية، فلننظر مثلا للباب الاقتصادى نجد أن الكتلة تطالب بالاحتفاظ بالباب المفتوح فى الميدان التجارى طبقا لما أقره مؤتمر الجزيرة الخضراء، وهذا ما يستوجب تأييد احزاب اليسار فى فرنسا ويطمئن الدول الموقعة على العقد، وفى الوقت نفسه يتناسب مع مصلحة المغرب فى الظروف الحاضرة؛ لانه ما دامت البلاد لا تملك من الصناعة والمعامل ما تستطيع به مزاحمة التوريد الاجنبى وما يقتضى حماية الانتاج المحلى فالباب المفتوح أوفق، لانها تفتح باب المزاحمة للموردين الذين يستطيعون أن يتنافسوا فى كسب رضى المستهلك الاهلى عن طريق الجودة أو رخص الاثمان، وهذا بالطبع ما يجعل الخارج من المال القومى أقل مما يخرج عادة لو لم تكن الباب التجارية مفتوحة للجميع، كما هو الحال فى تونس مثلا. ولكن هناك صنائع مغربية قديمة، فبرنامج الاصلاحات اعتبرها من جهة حاضرها فطالب بحمايتها من المزاحمة الخارجية، وذلك بمنع دخول المواد التى تقلد أو تحاكى المصنوع الاهلى بالمرة، كما طالب بحمايتها من تقليد المصانع العصرية الكبرى فى الداخل ، لا يتنافى عمليا مع معاهدة الجزيرة لان كل ما تفرضه علينا هذه المعاهدة هو الا نفضل دولة على أخرى فى المعاملات التجارية ، ومعنى هذا أن نفتح الباب للجميع أو نقفله فى وجه الجميع ؛ فاذا نحن طالبنا بحماية الصناعة القومية من كل مزاحمة أجنبية مهما كان أصحابها لم نكن خارجين عن لفظ الميثاق ولا روحه، ولاحظ البرنامج ان هذه الحماية للانتاج الاهلى لا يمكن ان تستمر بصفة عملية؛ لان حاجيات البلاد تتطور، فاهتم بوضع مطالب خاصة بالعمل على تطوير الصناعة الاهلية

والخروج بها رويدا من شكلها العتيق الى شكل عصرى تستطيع به ان تسد حاجة البلاد وتطالب حقها فى الاسواق الداخلية والخارجية. وهكذا نجد أيضا البرنامج ينص على وجوب تأميم الحكومة المغربية لسائر المناجم الطبيعية، ومنابع النفط، والمياه المعدنية، والسكك الحديدية، والقوات الكهربائية، والمرافىء البحرية، وهو ما يتفق بالطبع مع المصلحة القومية للمغاربة، خصوصا وأنه ليست لهم من الرأسمالية الأهلية ما يخولهم استثمار هذه الاشياء لفائدتهم. ووضعها فى يد الرأسمالية الاجنبية يؤدى لا محالة لامتلاك الاجنبى للتراث القومى، واقفال الباب فى وجه الجميع بطريق التأميم هو المفر الوحيد من سياسة الباب المفتوح، وهذا المطلب أيضا ينال رضى اليساريين، ولا يمكن للحماية أن ترفضه لانه وحده الذى يمنع المغرب من مزاحمة الدول التى لها الحق بمقتضى معاهدة الجزيرة تلك المزاحمة التى ترى فيها فرنسا خطرا على نفوذها، ويمكن لمن يدرس برنامجنا بامعان ان يجد أمثلة كثيرة من هذه الهندسة الدقيقة فى عرض رغائبنا وتكييف حاجياتنا .

وهذا الاسلوب هو الذى يسر لنا مساعدة الكثيرين من رجال فرنسا، وهو الشىء الذى يفسر تأييد احزاب اليسار لنا؛ ذلك التأييد الذى لم يتجاوز الحدود المعنوية، ولكنه كان فى وقت ما معينا لنا على قطع هذه المرحلة من تاريخ حركتنا .

* * *

ولقد كان لاعلان مطالب الشعب المغربى صدى عظيم فى الاوساط الفرنسية والمغربية، وقد أصدرت الحكومة الفرنسية أمرها للاقامة العامة بضرورة دراسة البرنامج وامدادها بوجهة نظرها فيه، وفعلا طبعت الاقامة أصوله منفردة، ووزعتها على الادارات المختصة، وهذه أكبت على دراسة القسم الموجه لها فى لجان خاصة مع أخذ رأى جميع فروعها. وقد استطعنا الاطلاع على أجوبة الكثير من الاقسام التى كانت تبدى اعجابها بالدقة التى فى البرنامج، وتعلن بعض الملاحظات التى تراها مناسبة وفقا لتصورها الخاص، ولقد أقرت ادارة الصحة مثلا كل ما ورد فى فصل الصحة والاسعاف الاجتماعى برمته، وقالت أنه أقل ما يجب أن ينفذ من أجل المغاربة. وهكذا فقد استطعنا ان نضع نظام الحماية الداخلى على بساط البحث، ونبين للفرنسيين أنفسهم أن هناك وسيلة صالحة للحكم لم يهتدوا اليها هم، او لم يريدوا عن سوء نية سلوكها، وقد ظلت المطالب برغم كل

هذه الدراسة وبرغم القبول الحسن الذى ظفرت به موطن التردد من طرف الحماة، ولم تحظ بالتنفيذ الا فى القليل من جزئياتها .

ولعل الرأى الصحيح للحماة فى شأنها هو ما صرح لى به مسيو جيرار دان المستشار السابق لجلالة السلطان، فقد قال لى : (ان مطالبكم تشتمل على ثلاثة أقسام؛ قسم يمكن تنفيذه من الآن، وقسم يمكن تنفيذه ولكن بعد حين، أما القسم الثالث فلا يمكن تنفيذه لاننا لا نريد الجلاء عن المغرب من تلقاء أنفسنا) !

مسألـة الممثلين الفرنسيين

انهم لا يريدون الجلاء عن المغرب من تلقاء أنفسهم، ولكنهم يريدون بكل اخلاص ان يثبتوا دعائم نفوذهم فى البلاد بالوسائل الممكنة، ولذلك فهم لم يقبلوا تخويل المغاربة حق تأسيس مجلس نيابى يمكنهم من مراقبة أعمـال الادارة والنظر فى سياستها المالية، ولكنهم أسسوا خرقا لكل ما تقتضيه الالتزامات والتعهدات نيابات للفرنسيين المقيمين بالمغرب، ومع أن هذه النيابات لم يقبلها المغاربـة قط، ولم يصادق عليها جلالة الملك بحال؛ فقد ظلت معمـولا بها وأصبحت حجـة للجالية الفرنسيـة تطالب بتطويرها الى شكل برلمان فرنسى فى داخل المغرب، وقد حدث ان وقع اصطدام بين ممثلى القسم الثالـث الفرنسى وبيـن المقيم العام المسيو بونصو (فى نوفمبر سنـة ١٩٣٥) فأعلـن الممثلون احتجاجاتهم وأخذوا يطالبون بما يسمونه الحقوق الديموقراطية للمغاربة، وطبيعى ان تتقدم الكتلة للدفاع عن السيادة المغربية مرة أخرى، وتطالب بحل هذه المنظمات الفرنسية التى لا محـل لوجودهـا فى بلد غير فرنسى، وتأسيس مجلس وطنى من المغاربة وحدهم طبقا للمطالب التى أومأنا اليها .

وقد اجتمعت الغـرف التجارية والفلاحية الفرنسية وأعضاء القسم الانتخابى الثالث، فى اوائل ديسمبر سنة ١٩٣٥ وقـرروا بالاجماع عدم التعاون مع الاقامة العامة مدعين ان اتخـاذ الادارة لقرارات مهمة تتعلـق بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية دون عرض سابق عليهم يدل على أنها تنوى الاستغناء عن مشاركتهم فى اللجان والمجالس، ولذلك فهم يطلبون :

اولا ـ جمع المجالس العليا للتجـارة والفلاحـة فى اوقات معينة، وعـرض كـل مشروع تشريعـى له علاقة بالتجارة والفلاحة على الهيئة المختصة .

ثانيا ـ احداث مجلس أعلى للقسم الثالث الانتخابى مثل ما هو واقع فى التجارة والفلاحة، مع اعطائه ما لغيره من الحقوق والاختصاصات .

ثالثا ـ أن يجتمع ما يسمونه بمجلس شورى الحكومة (الفرنسى) مرة فى كل ثلاثة أشهر بعد اجتماعات المجالس العليا، وأن تعرض على المجلس جميع المسائل التشريعية التى لا تتعلق بالسياسة العامة والسيادة، وكذلك جميع القضايا التى أخرت المجالس العليا درسها.

رابعا ـ اعطاء مجلس شورى الحكومة (الفرنسى) بدل حق الاستشارة الذى له الآن حق التقرير فى كل ما يتعلق بالميزانية باستثناء بعض الفصول المتعلقة بالمصروفات السياسية والسيادة، مع اصلاح كبير لقوائم التمثيل داخل المجلس .

وقد ألف المحتجون الفرنسيون هيئة للاشراف على حركتهم الاحتجاجية، ووضعت برنامجا للاصلاحات الاقتصادية رفعته للاقامة العامة مع شروط التعاون معها .

اما (كتلة العمل الوطنى) فقد رفعت يومى ١٤ و ١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٥ لجلالة السلطان وللمقيم العام ووزير الخارجية الفرنسية ورئيس الجمهورية ورئيس لجنتى الخارجية فى مجلسى النواب والشيوخ عدة برقيات تتضمن الاحتجاجات الصارخة على هذه الحركات الباطلة التى يقوم بها المستعمرون الفرنسيون متناسين الشعب المغربى وحقوقه الطبيعية، وطالبت الكتلة بالغاء المجالس الفرنسية بالمغرب وتأسيس مجالس مغربية، وتشكيل هيئة فنية فرنسية مغربية لدراسة الوسائل الصالحة لتنفيذ مطالب الشعب المغربى .

وقد كان جواب وزير الخارجية للجنة الفرنسية يتضمن التصريح الاتى :

« ان الحكومة الفرنسية لا تصرف عنايتها عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالفرنسيين المقيمين بالمغرب ولا برعية جلالة السلطان، وبما أنها تلقت عدة اقتراحات بواسطة الاقامة العامة فهى عازمة على ان تعلن فى المستقبل بواسطة الاقامة العامة عدة تدابير من شأنها أن تعطى برهانا جديدا عن عناية فرنسا بشؤون البلاد المغربية»

وبمجرد ما اطلعت الكتلة على هذا التصريح عاودت بعث برقية للمراجع المذكورة فى يناير سنة ١٩٣٦ مسجلة التصريح، ومطالبة بأن تتخذ التدابير المحققة لمطالب الشعب كما استنكرت ادعاء المجالس الفرنسية حق الكلام باسم الشعب المغربى، وحذرت الحكومة الفرنسية من الاقدام على تقرير اى شىء يمس بسيادة المغاربة، وأعلنت أنها ساهرة بغاية الحذر والتحفز على سير الحوادث الحالية لما تتضمنه من الاخطار المهددة لحقوق البلاد .

ثم قدم للمغرب فى يناير نفسه وكيل رئيس اللجنة الخارجية بمجلس الشيوخ المسيو كرنيدى موفدا من قبل اللجنة المذكورة للبحث عن أسباب الخلاف القائم، فتقدم اليه وفد من الكتلة لمخابرته فى الموضوع، وشرح له وجهة النظر المغربية، وقدم اليه الوثائق التى تهمه .

وفى يوم ١٥ يناير سنة ١٩٣٦ وقع اجتماع فى لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الفرنسى، فعرضت مسألة الخلاف بتطويل، وتولى الدفاع عن النظرية الفرنسية أحد أعضائها باسم الجالية الفرنسية فى مراكش، ثم تصدى وكيل رئيس اللجنة صديقنا الاستاذ جان لونجى فعرض وجهة نظر الكتلة، ودافع عن حق الشعب المغربى، ومن جهة أخرى فقد رفعنا مذكرة ثانية فى يناير ايضا لجلالة الملك ونسخة منها للمستشار الفرنسى، وقد صرح لنا الصدر الاعظم بأن الحكومة الشريفة متضامنة معنا فى أنه لا حق للفرنسيين فى نيل نيابات المغرب الأقصى، كيفما كان لونها، وقد بلغ جلالة السلطان لمستشاره الفرنسى وطلب منه تبليغ الحكومة الفرنسية أن الاقدام على مساعدة المستعمرين الفرنسيين فى مطالبهم يعتبر خيانة من فرنسا لتعهداتها، وأن جلالته لا يمكن ان يوافق على مطالب الفرنسيين، وهدد بالتنازل عن العرش اذا نفذ شىء من ذلك .

ووجهة النظر المغربية أن الفرنسيين المقيمين فى المغرب هم كسائر الاجانب الآخرين لا حق لهم فى التمتع بشىء مما هو من اختصاص المواطنين المغاربة، ووجود الحماية فى البلاد لا يعنى أن وطننا قد أصبح ترابا فرنسيا، والمعاهدة التى فرضت هذه الحماية هى فى اوسع معانيها عقد بين الدولة الشريفة وبين الدولة الفرنسية، واذن فالعلاقات بين الدولتين كانت ويجب أن تبقى بواسطة الوسائل الدبلوماسية المعهودة، أما الشعب المغربى فلا علاقة له بالحكومة الفرنسية، كما أن الشعب الفرنسى لا علاقة له بالحكومة المغربية، ووجود نيابات فرنسية فى المجالس المغربية معناه امتلاك المواطنين الفرنسيين للسيادة الشعبية التى هى من حق المواطنين المغاربة وحدهم، ولا تقبل أن تتعداهم أو تفوت عليهم .

واذا كانت فرنسا قد طبقت نوعا من التمثيل المختلط فى تونس والجزائر فذلك تحكم منها لم يقبله التونسيون ولا الجزائريون، والتجربة التونسية الجزائرية لا محل لتطبيقها فى بلادنا ما دمنا لم نقبلها لاول يوم، وما دام مليكنا قد رفض فى سائر الاوقات المصادقة عليها .

وقد التزمت فرنسا فى معاهدة الحماية باحترام الدستور المغربى وحقوق الشعب والعرش، وعليه فكل عمل يتنافى مع هذه المبادىء يعتبر خرقا حتى للحماية التى فرضت علينا فرضا .

ولئن كنا نحن غير مقيدين بما تتضمنه المعاهدات التى غصبتنا حقنا والتى أجبرنا على توقيعها تحت الضغط العسكرى والاكراه السياسى فان فرنسا مقيدة بما التزمت نحونا طائعة مختارة، وليس فى استطاعتها ان

تغير الحماية الا بما هو أوسع من مدلولها فى جهة الاستقلال، أى يمكنها أن تتخلى عن بعض ما حصلت عليه بطريق الاكراه، أما أن تأخذ شيئا آخر زائدا عما فى العقد فلا. وقد اكد هذا المعنى الماريشال ليوطى فى أحد تصريحاته حين قال : «وهناك نقطة أخرى لا يمكننى اغفالها، وهى مسألة مبدأ الحماية؛ فقد حملت من باريس تأكيدا بينا وقع التصريح به على ألسنة من لهم أعظم الاختصاص يقضى بأن مبدأ الحماية يجب ان يبقى خارجا عن كل جدل، فنظام الحماية ليس بمسألة شخصية ولا محلية ولا فرنسية وهو حقيقة جاءت بضبطها المعاهدات، وهو مكفول باتفاقات دولية ليس فى مقدور أى واحد منا ولا فى استطاعة الحكومة الفرنسية ألا تعتبرها، ويستنتج من هذا أن المغرب دولة مستقلة تقوم فرنسا بحمايتها، ولكنها تبقى تحت سيادة السلطان ولها دستورها الخارجى، فمن الشروط الاولية حفظ وحدة هذا النظام واحترام هذا الدستور» .

«ومن نتائج هذه الحالة الواقعة أن التنظيمات السياسية الفرنسية ليس لها محل بالمغرب؛ فمن الممكن أن توجد للمواطنين الفرنسيين بعض الهيئات ونوع من التمثيل الفنى، ولكن ليس فى الامكان ان يكون لهم تمثيل سياسى، فالمطالبات والمجادلات فى هذا الباب ليست الا حبرا على ورق ووقتا ضائعا، وأزيد دون أن أؤكد فى البيان أنه بناء على هذه الحقيقة نفسها ـ وهى أن الدستور المغربى مضمون بالمعاهدات الدولية ـ فالمطالبة الخاصة بهذه المسألة ليست مجردة عن كل فائدة فقط، بل انها أخطر الاشياء، والحكومة الفرنسية ستكون اول من يقطع دابرها» .

لقد وقعت هذه التصريحات بعد الحرب الكبرى الاولى حينما اراد الفرنسيون المطالبة بنيابات فى المغرب، وأبدى مولاى يوسف كامل المعارضة لمطالبهم، فأحب ليوطى أن يطمئن الشعب المغربى ومليكه على احترام فرنسا لتوقيعها، ولكن الفرنسيين أسسوا فعلا مجالس دون أن يصادق عليها سلطان البلاد ولا حكومته، ولولا وجودها لما امكن للفرنسيين أن يثيروا ضجة كبرى رغبة فى تحويلها الى ما هو أعظم منها وأصدق تمثيلا، ولكن الشعب المغربى الذى لم يقبل ولم يعترف بالتأسيس الاول لم يقصر فى اعلان استنكاره للاعتداء الفرنسى الجديد، وسنرى انه ليست هذه هى المرة الاخيرة التى تجرى فيها معركة عنيفة بيننا وبين الفرنسيين من اجل التمثيل الفرنسى فى المغرب .

وحينما اشتدت الخصومة فى هذا الموضوع، وعجز مسيو بونصو عن ترضية الفرنسيين وقمع المغاربة قررت الحكومة الفرنسية اعفاء المقيم العام والسكوت عن قضية المجالس مؤقتا (فبراير سنة ١٩٣٦)

المسيو بيروتون :

واذن فقد ارادت الحكومة الفرنسية أن ترضى الفرنسيين المقيمين فى المغرب بعزل المسيو بونصو وتعيين شخصية استعمارية محبوبة لديهم؛ تلك الشخصية هى بيروتون الذى سبق ان كان مقيما عاما فى تونس، وقام بقمع الدستوريين وارضاء المستعمرين، وبمجرد ما بلغ نبأ تعيينه البلاد توجه للاقامة بتونس الكولونيل بينازى مدير الشؤون الاهلية الذى كان أحد الناقمين على سياسة بونصو الذى لم يرد ان يضرب الوطنيين بيد من حديد حتى يحول بينهم وبين معارضة مطالب المستعمرين الظالمة، وقد نظم بينازى مع بيروتون خطة هجوم عنيف على الوطنيين المغاربة لارغامهم على الخضوع عن طريق الارهاب بشخصية المقيم الجديد، فقبل ان يغادر المقيم العام مرسيليا للدار البيضاء فى ابريل ١٩٣٦ م. صرح للصحافيين بأنه يفتخر بكونه قضى على حزب الدستور فى تونس، وأنه كذلك سيقضى على الكتلة الوطنية فى المغرب، وأن القوة والعنف هما الشعار الذى يجب ان يتبع فى السياسة الاهلية بشمال افريقيا، وقد ردت صدى هذا التصريح الصحف الاستعمارية كلها، وانتهز الفرصة السنيور موليس الذى كان قبل ذلك بقليل قد عاد للمرة الثانية مقيما عاما للجمهورية الاسبانية فى المنطقة الخليفية فاستدعى الصحافيين وصرح لهم بأن ما قاله مسيو بيروتون هو الدستور الذى سيتبعه هو ايضا فى السياسة المغربية ، وأن التجربة علمته أن كل تهاون فى الموضوع لا يؤدى الا الى استفحال أمر المهيجين الوطنيين، ولم يقف أمر بيروتون عند حد الكلام، بل استفرض فى الحين مبالغ طائلة للميزانية، وأعطى منها للمعمرين ما رفضه بونصو، كما أقرض بعض كبار القواد ستة ملايين من الفرنكات .

ولكنه لم يكد يصل للرباط حتى كانت حكومة بلوم قد شكلت بعد انتصار الجبهة الشعبية الفرنسية فى انتخابات مايو من السنة نفسها ، ثم قامت ثورة فرانكو بالمنطقة الخليفية فى يوليه من نفس العام ايضا ، وسنتكلم عن موقف الحركة الوطنية ازاء كل منهما، ولكن قبل ذلك نتم ما كان من شأننا مع مسيو بيروتون .

لم نرد ان نعلن عن رأينا فى تصريحات بيروتون ولا فى سياسته، بل أحببنا أن نتقدم اولا لمقابلته وعرض رغباتنا عليه، ثم نرى ماذا يريد أن يفعل فنقابله بما يناسب، وبعد أن تتردد قليلا قابلنا (فى آخر مارس) كوفد عن كتلة العمل الوطنى، ومن الحق أن نسجل أن هذه أول مرة

يقابل فيها مقيم عام فرنسى ممثلى حزب سياسى أهلى بمراكش، وبعد أن بين له الأخ الحاج عمر فى جمل قصيرة الغاية من زيارتنا، وانها هى استعجال الاقامة العامة فى تنفيذ مطالب الشعب المغربى طلب بيروتون الكلام راغبا منا الا نتكلم الا بعد ان يفرغ، وكان جالسا على الكرسى ذي الدوائر اللولبية، فاستمر في حديثه ثلاث ساعات يدور فمه فيها كما يدور هو على كرسيه يمينا ويسارا، ولم يترك كلمة قذرة فى شتم الدستوريين التونسيين وشتم رجال الجبهة الشعبية بفرنسا الا نطق بها، ولكنه اعترف بأننا مخلصون في حركتنا اكثر من غيرنا، ومع ذلك فهو يخاف ان نخدعه كما خدعه التونسيون !

أما نحن فلم نر مجالا للكلام مع رجل أحمق يهرف بما لا يعرف ، وكل ما فعلناه أننا ودعناه وذهبنا لنعالج شأنه بما يقتضيه الواجب ، ولقد كان ذلك سهلا علينا بعد ان نطق بكل هراء ، فلم نزد على ان سجلنا محضر الجلسة معه حرفيا وطبعناه عى الآلة الكاتبة، وبعثنا نوزعه على الصحافيين والنواب ورجال الجبهة الشعبية الذين شتمهم، وما اطلع الرأى العام الفرنسى على أحاديث بيروتون وتصريحاته حتى تولى بنفسه القيام بحملة شعواء ضدا عليه فى صحف الديموقراطيين واليساريين، ثم اكتشفت (كتلة العمل الوطنى) نص البرقية التى وجهها بيروتون لمدير البنك المخزنى بتطوان على اثر الانقلاب الفاشى فى شهر يوليه سنة ١٩٣٦ يأذنه فيها بدفع خمسمائة الف فرنك للفلانخ الاسبانى، فنشرتها ونددت بمقيم الجبهة الشعبية الذى يؤيد الفاشية الفرنكية بمال الدولة المغربية .

والحق أن الكتلة قررت أن تعمل كل ما فى استطاعتها لعزل بيروتون لانه ما دام قد وصل للمغرب عن طريق الترضية للفرنسيين ، وما دام قد ارتكب أعماله الشنعاء مع التونسيين فلن يمكننا أن نحفظ الكرامة الوطنية الا باعلان تضامننا مع التونسيين ضدا عليه، وباظهار مقدرتنا على إسقاط المقيم الفرنسى حتى لا تبقى قوة المستعمرين بارزة لتهديد أى مقيم يحاول التخفيف من غطرستهم، ولذلك لم نترك فرصة ممكنة الا انتهزناها للتشهير بشخصية بيروتون وتصويره فى صورة الرجعية الشنيعة .

وحدث أن كان دور انعقاد مؤتمر الطلبة التابع لجمعية (طلبة شمال افريقيا المسلمين) فى فرنسا قد حل، وكان مقررا ان ينعقد بالمغرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٦ فتشكلت لجنة تحضيرية لذلك، وقدم الى الرباط

نيابة عن الجمعية رئيسها الاستاذ المنجى سليم عضو الديوان السياسى للحزب الدستورى اليوم، وهو من خيرة شباب تونس، فاتصل بنا واتفقنا على معاكسة بيروتون فيما سيعرضه من الشؤون، وقد حاول هو ان يتخذ من المؤتمر فرصة يعرض فيها ضمن خطاب يلقيه بحفلته الافتتاحية ما سماه ببرنامج عمله فى التعليم، وبعد أن أخطرنا كتابيا، وقبل ان نجيبه تولى هو اعلان برنامج المؤتمر، وحفلة الافتتاح، والخطاب الذى سيلقه فيها، والاستقبال الذى سيقيمه للمؤتمرين بدار الاقامة العامة، فكتبت اليه اللجنة التحضيرية رسالة أمضاها رئيسها الاستاذ ابراهيم الكتانى، وأمضى معه المنجى سليم نيابة عن الجمعية تعلن فيها رفض الطلبة الافارقة حضور مسيو بيروتون فى حفلة الافتتاح، والقائه خطابا بها؛ لان مسيو بيروتون شخصية سياسية، والجمعية مؤسسة علمية، وهى لذلك لا تريد ان تتدخل فى السياسة سلبا ولا ايجابا، كما أن المؤتمر يرفض حفلة الشاى التى يريد المقيم العام اقامتها له .

وقد غضب مسيو بيروتون لهذا الموقف، وقرر منع انعقاد المؤتمر فقامت الكتلة بعقد مؤتمرات احتجاجية، وبعثنا للمسيو بيروتون برقية نعلن فيها ان موقفه بتونس وما بدأ به عمله فى المغرب لم يترك فى فؤادنا محلا يسمح لنا بالجلوس معه على مائدة شاى واحدة .

لقد كان الموقف صارما حقا، ولكنه كان ضروريا للقضاء على غطرسة بيروتون وسوء أدبه مع قومنا، ولما رأت الحكومة الفرنسية أن الجو توتر الى هذا الحد قررت اعفاء المسيو بيروتون وتعيين الجنرال نوجيس خلفا عنه .

الحرب الاهلية الاسبانية

لم يمض شهران على انتصار الجبهة الشعبية بفرنسا وبدئها فى توحيد العمل مع الجبهة الشعبية الأسبانية حتى تمرد الجيش الاسبانى فى المغرب الاقصى بقيادة الجنرال فرانكو، وبينما كان السنيور موليس الذى ينتمى للحزب الراديكالى يؤكد من الاقامة العامة الاسبانية بتطوان تضامنه مع المسيو بيروتون، واستعداده لتوحيد الخطط معه، وبينما كان سائرا فى سياسة الميز والعنصرية فى معاملة الاهالى عموما، وخصوصا طبقة العمال الذين كان جيشه يشتتهم فى الوقت الذى يستقبل فيه العمال الاسبانيين ويخطب عليهم مرحبا ومظهرا كامل العطف الاجتماعى نحوهم ـ اذ بادارة المنطقة المدنية العسكرية تقلب له ظهر المجن، وتعلن انفصالها عن اسبانيا الجمهورية وابتداءها الثورة الفاشية التى تعمل على تحرير اسبانيا من الاستعباد الاحمر (١٨ يوليه سنة ١٩٣٦).

ولقد كانت كتلة الشمال عرفت فى الوقت المناسب ما يبيت للجمهورية الاسبانية فى المنطقة، وكانت تخاف من حدوث انقلاب يؤدى الى المساس بسيادة البلاد، فبعث وفدا حمل لرجال مدريد مذكرة تنذره بخطورة الحال وتطالب بتمتيع المغاربة بالحريات الديموقراطية التي تخولهم حق تنظيم انفسهم للدفاع عن كل ما من شأنه ان يهدد مصيرهم او حرياتهم، ولكن الجمهورية الاسبانية لم تعتبر بالانذار، وظنته مجرد تهويج من قوميين ينتهزون كل فرصة لمقاومة المستعمرين والتشهير بأعمالهم .

لذلك لا غرابة اذا رأينا فرانكو يبتدىء عمله باعتقال بعض المعروفين من المغاربة بميولهم النقابية، والتضييق على رجال الحركة الوطنية وحراستهم فى منازلهم خصوصا بعد ان احتج سمو الخليفة السلطانى على هذه الثورة الاجنبية فى بلاد مغربية فى اليوم الموالى لوقوعها؛ لان الخلافات المذهبية الاسبانية مثل الحزبيات الفرنسية يجب الا يكون لها مجال فى المغرب الذى هو ارض اجنبية عن كل من اسبانيا وفرنسا وغيرهما .

اما فى سائر المغرب العربى، فقد نزلت ثورة فرانكو بردا وسلاما على المستعمرين الفرنسيين الذين أصبحوا يهنئون اسبانيا بنبوغ مخلص لها من نير الشيوعية، وأخذ كلهم يرمق فى المسيو بيروتون المسيح المنتظر لمجابهة الحالة فى فرنسا على غرار فرانكو ومنهاجه ، وتوجهت الوفود من فرنسيى وهران وقسنطينة وغيرهما للاتصال بفرانكو وتنسيق العمل معه، وبدأ الجمهوريون الفرنسيون يتخوفون من جو الشمال الافريقى ويتوقعون حدوث ثورة فاشية من الرجعيين الفرنسيين الذين تمتلىء بهم البلاد، وفكر الكثيرين منهم فى ضرورة التقرب من الوطنيين والتعاون معهم لرفع كل ما من شأنه ان يمس الديموقراطية، واقتنع اليساريون فى فرنسا بأن (كتلة العمل المغربى) هى وحدها التى تستطيع ان تقوم بعمل ايجابى فى الموضوع، وقد اتفق الاشتراكيون والشيوعيون على ان يوجهوا لنا وفدا يجس النبض ويدرس ما يمكننا ان نفعله، وجاء الوفد لفاس (فى أغسطس سنة ١٩٣٦) بعد أن أخذ الضمان الكافى من طرف المسيو فيينو ومسيو بلوم وبيركوط على مساعدته فى تحقيق ما يتفق معنا عليه، وفى الوقت نفسه كان وفد من الجمهوريين الاسبانيين قد سافر الى جنيف للاتصال بعطوفة الامير شكيب ارسلان فى الموضوع، ولقد رده الامير الينا مؤكدا أن كتلتنا هى وحدها القادرة على أن تفعل اذا نالت الترضيات القومية الكافية .

اما نحن فقد درسنا مع المبعوثين الفرنسيين والاسبانيين الامر ، وقدمنا لهم مذكرة تتلخص فى استعدادنا للعمل على تخليص الديموقراطية الاسبانية بالشروط الآتية :

١ ـ ان تعلن اسبانيا الجمهورية استقلال المنطقة الخليفية عنها وعن فرنسا .

٢ ـ أن تضمن الحكومتان هذا الاستقلال، وتقدما المغرب الحر الى عضوية جمعية الامم .

٣ ـ أن تعقد اسبانيا مع سمو الخليفة السلطانى معاهدة تؤكد الاستقلال وتنظم العلاقات الودية بين الطرفين .

٤ ـ أن تمدنا الجمهورية الاسبانية بالاسلحة والعتاد اللازمتين .

وللوصول لتحقيق هذه الاشياء نطالب :

١ ـ بأن تغض فرنسا الطرف عن حركتنا العسكرية، داخل المنطقة الفرنسية .

٢ ـ وأن تعجل فى المنطقة السلطانية بتنفيذ الاصلاحات الضرورية وخصوصا الحريات العامة .

ومن جهة أخرى فقد بعثت (كتلة العمل الوطنى) الى برشلونة وفدا للاتصال بالاسبانيين الجمهوريين والاتفاق معهم على هذه الاسس، وقد استقبل وفدنا فى سبتمبر ١٩٣٦ من طرف الحكومة الكاتلانية استقبال السفراء الرسميين، وجرت بينهم وبين رجال كاتالونيا مذاكرات مليئة بالتفاهم والتقدير المتبادل، واستقدمت كاتالونيا ممثلها فى حكومة مدريد فجاء صحبة وزير الخارجية الاسبانية، وبعد مداولات بين الطرفين كان فيها ممثل الخارجية المدريدية شديد التحفظ، طلب تأخير البت فى الموضوع الى ما بعد استشارة فرنسا، وقد علمنا من بعد ان وزير الخارجية الاسبانية استشار الحكومة الفرنسية، وان هذه استشارت مقيمها العام بالمغرب الجنرال نوجيس الذى رفض كل موافقة على هذا المشروع الخطير وأن مسيو هيريو هدد بأعمال فظيعة اذا وافقت اسبانيا على عمل مثل هذا هو جنونى فى رأيه .

وقد بلغت حكومة مدريد وفدنا اعتذارها شفاهيا عن التصريح بالاستقلال فى الظروف القائمة، وطالبت أن يقبل وفد الكتلة مبلغ أربعين مليونا من البسيطة للدعاية للديموقراطية الاسبانية، مع الوعد بأنه متى تم انتصار الجمهورية فانها ستعمل لخير المغرب، وقد احتج وفدنا على هذا العرض الدنىء وانسحب من قاعة الحديث مستنكرا .

لكن أصدقاءنا الكاتالانيين دعوا وفدنا لعقد اتفاق مع احزابهم يتكلف وزير كاتالونيا فى مدريد بالدفاع عنه أمام الحكومة الاتحادية باسم حكومة كاتالونيا، وفعلا عقد اتفاق بين (كتلة العمل الوطنى) وبين سائر احزاب كاتالونيا يتضمن الاستقلال التام والتعاون المتبادل بين المغرب واسبانيا على قدم المساواة، وهذا الاتفاق خال من كل ما من شأنه أن يدع لاسبانيا حق التدخل فى شؤون المغرب او احتلال اراضيه فى وقت ما، ولو فى وقت الحرب، ولكن جهود الممثل الكاتالانى كانت عبثا، وبقى هذا الاتفاق حبرا على ورق او مشروعا لم يصادق عليه .

ولكن هذا المجهود الذى بذلته الكتلة فى هذه الظروف الصعبة كان له وقعه الحسن فى اوساط اليساريين فى فرنسا الذين قاموا بحملة شعواء على الحكومة الفرنسية وممثليها لرفضهم مد المساعدة للديموقراطية الاسبانية الجريح، وفى الوقت نفسه كان له اثره الفعال فى تخويف فرانكو والضغط عليه ليغير سياسته مع اصدقائنا فى الشمال .

ولم تكن هذه المحاولات خافية على أحد، ولذلك فان الجنرال فرانكو أراد أن يعمل على طمأنة المغاربة؛ فغير سياسته وبعث للمغرب شخصية أسبانية تفتخر بأنها من تلاميذ ليوطى، هى شخصية السنيور بيك بيدير.

كان اول من اتصل بالسنيور بيك بيدير هو الاستاذ المكى الناصرى وبعد ان تذاكرا مليا فى الموقف الحاضر كلفه مدير الشؤون الوطنية بتبليغ رجال الكتلة الشمالية ان اسبانيا الفرنكية مستعدة لمساعدة المغاربة بالحريات الديموقراطية التى منعهم منها الجمهوريون، ثم اتصل اخواننا بالاقامة العامة الاسبانية وسمحت لهم باصدار جريدة «الريف» التى كان يديرها الاستاذ السيد التهامى الوزانى، وجريدة «الحرية» التى كان يشرف على تحريرها الاستاذ عبد الخالق الطريس .

وقد سافر الاستاذ المكى الناصرى للرباط ليبلغنا التطورات التى دخلت على الموقف فى المنطقة الخليفية، فقررت كتلتنا بعث الاستاذ الحاج الحسن ابى عياد ليتذاكر مع اخواننا فى الشمال فى الخطة التى يجب اتباعها .

وبما أن الحدود أصبحت مقفلة بيننا وبين منطقة الشمال من بلادنا ، وبما ان الرقابة اشتدت على الرسائل المتبادلة فلم يعد من الممكن ان تستمر الحركة الوطنية ذات مركز واحد مثلما كان عليه الحال قبل ثورة فرانكو، ولذلك اتفقنا على أن يتبع الوطنيون فى الشمال الخطة التى يرونها صالحة وموافقة للظروف الطارئة متحملين وحدهم مسؤوليتها ، كما تتحمل كتلتنا نحن المسؤولية المعنوية لخطتها التى تختارها فى الجنوب، مع ضرورة المحافظة على المبادىء الآتية :

١ ـ العمل لحرية المغرب واستقلاله .

٢ ـ وحدة التراب المغربى فى ظل العرش العلوى .

٣ ـ الاسلام والعروبة .

٤ ـ الوفاء للعرش العلوى ولجلالة الملك سيدى محمد بن يوسف.

وهكذا استمرت كتلة الشمال فى عملها، وبدأت نشاطها الجديد بتأسيس (المعهد الحر) وعقد مؤتمر للطلبة المغاربة جميعا وغير ذلك من الأعمال .

انشقاق فى كتلة الشمال :

لم تمض على سياسة السنيور بيك بيدير بضعة أسابيع حتى أحدثت أساليبه انشقاقا فى وسط الاخوان أدى الى انحياز الاستاذ المكى الناصرى ليؤسس حزب (الوحدة المغربية) الذى رمى منذ الساعة للقيام بدعاية واسعة النطاق لتوحيد المناطق المغربية، وقد أصدر الاستاذ المكى جريدة باسم حزبه بالعربية، ومثلها بالاسبانية، وبدأ يبذل نشاطه متجولا فى

المدن والقرى لجمع الانصار، وأسس الاستاذ الطريس واصدقاؤه بعد وفاة زعيم كتلة الشمال الحاج عبد السلام بنونة حزبا جديدا هو (حزب الاصلاح الوطنى) ومع أن هذا الخلاف لم يمتد الى المبادىء ، فقد أدى الى تضارب صحافى أمكن معه لاسبانيا أن تلعب أدوارا شديدة ومؤلمة، والحق أن كلا من الحزبين وجد فى سياسة بيك بيدير مشجعا على المضى فى خطته ، ولكن سرعان ما تغلب (حزب الاصلاح) بانضمام الاغلبية من وطنيى المنطقة الخليفية اليه، فنظم نفسه وفتح فروعه، وأسس هيئة للشبيبة على غرار الفلانخ الأسبانى لم تمهلها السلطة الا بضعة أشهر ثم منعتها .

صاحب السمو السلطانى يعمل :

ومن حسن الحظ ان حكمة سمو الخليفة السلطانى مولاى الحسن وتطلعه لانقاذ بلاده جعلته ينتهز فرصة المجاملة التى يقوم بها السنيور بيك بيدير، ويطالب ببعض الحقوق الضرورية، وقد استطاع سموه أن يعلن فى حفل تاريخى استقلال وزارتى العدل والاوقاف الاسلاميتين عن ادارة الحماية الاسبانية، ثم دعا الاستاذ الطريس لمنصب وزير الاحباس، كما دعا الاستاذ داود لمنصب مفتش المعارف، ووجه بعثات علمية لمصر ولمدريد؛ لكن لم يبتدىء الاستاذ الطريس عمله فى الوزارة حتى اصطدم بحقيقة مرة، وهى ان ادارة الشؤون الاهلية التى تعد من ادارات الحماية الرئيسية تريد أن تأخذ بالشمال ما أعطته باليمين، وذلك بوضع نفوذها على الصدر الأعظم الذى كان يأتمر بأمرها، وهكذا أخذت تضيق بواسطته على وزير الاحباس المستقل، وتطالبه بالخضوع للصدارة العظمى بصفتها رئاسة الوزارة، وهى فى الحقيقة خاضعة لتعاليم الحماية فى كل شؤونها؛ أى ان مدير الشؤون الاهلية يريد أن يستبدل أوامره التى كانت تصدر مباشرة لوزير الاحباس الوطنى بأوامر يصدرها هو نفسه، ولكن بواسطة وزير مغربى ما زال تحت رقابته، وقد ادى الامر الى تصادم بين وجهة النظر الوطنية والحكومية فدافعت الحركة الوطنية عن فكرة استقلال الاوقاف وعدم خضوعها لاى سيطرة ما تزال تحت رقابة الحماة، مؤكدة أن ما كان فى يد الحماية وتنازلت عنه او أخرج من يدها يصبح فى يد الشعب نفسه، ولن يعود للسلطة المغربية التى ضيعته من قبل ، وعليه فالحل الوحيد هو وجوب تأسيس مجلس أعلى للاوقاف منتخب ليشرف على أعمال وزير الاوقاف الذى يكون مسؤولا أمامه، أما الصدارة العظمى فقد تمسكت بموقفها، وانتهى الامر باستعفاء الطريس من وزارة الاوقاف

وعودته لرئاسة حزب الاصلاح، وأما الاستاذ داود فقد بقى فى المعارف حيث توجه الى مصر بقصد دراسة مناهج التعليم فيها، ثم عاد يحاول تنفيذ برنامجه، وبالرغم من أنه استطاع أن يعمل قليلا وأن يستخرج قرارا بالتعليم الاجبارى فى المنطقة، فقد اضطر آخر الامر الى تقديم تقرير للخليفة يعلن له فيه العراقيل العظيمة التى وضعتها الحماية فى طريقه . وهكذا تبين لاخواننا أن الدخول للحكومة فى دائرة الحماية مجرد تضييع للوقت، ومساعدة على تخريب بعض الذمم التى تجد فى توظيف الوطنيين ما يبرر تهافتها على المناصب بكل ما يمكن من أسباب .

المغرب والجبهة الشعبية الفرنسية

بينا نوع العلاقات التى كانت بين (كتلة العمل الوطنى) وبين أحزاب اليسار فى فرنسا، وقد كان هـؤلاء يعدوننا دائما بأنهم متى علوا الحكم سينفذون لنا مطالبنا التى ساعدونا على تقديمها للحكومة والدعاية لها ، ولم تنتصر الجبهة الشعبيـة فى انتخابات مايو سنة ١٩٣٦ بفرنسا حتى ظننا أننا اذا لم ننل كل ما نريد فسنحصل فى الاقل على بعض الحريات الديموقراطية التى تسمح لنا بتربية الشعب والاعراب عن وجهة نظره ، ولذلك عجلنـا بتوجيه وفد متركب من الاخوين عمر عبد الجليل ومحمد الوزانى الى باريس حيث عملا بمساعدة اخواننا هناك على الاتصال برجال الحكومة اليوم وأصدقائنا بالأمس وتذكيرهم بالوعود المعطاة، وقـد قام الوفد بدعاية مفيدة، ورجع للبلاد دون أن يحمل معه غير الوعود والاماني، وصادف يوم رجوعـه انعقاد مهرجـان كبير بفاس هيأته الكتلة، وحضره آلاف الوطنيين، وألقيت فيه خطابا طويلا عن الوطنية المغربية وما ترمى اليه، ثم جمعت منه عرائض تأييد الكتلة التى حملها الوافدون على المهرجان من كل جهات المغرب .

وفى يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣٦ انعقد المؤتمر الخارق للعادة لكتلة العمل الوطنى بدار الوجيه السيد الحفيان الشرقاوى فى الربـاط، وقد افتتحته بالقاء خطاب عرضت فيه أعمال الكتلة فى الفترات السالفة كلها، ثم سردت التوجيهات التى تقترحها الكتلة على أعضائها بشكل العمل فى المستقبـل ، ومنهـا وضع مطالـب مستعجلـة، وجعل قضية الحريات الديموقراطية كأساس اولى فى نشاطنا، حتى نتمكن من خلق جو يسهل على جميع الشعب العمل لتحقيق الاصلاحات المتعلقة بجميع نواحى الحياة المغربية، وبعد ما سرد مشروع المطالب المستعجلة ونوقـش فقرة فقرة القى الاستاذ محمـد اليزيدى تصريح الكتلـة المتعلق بالخطة السياسية التى تريد ان تنهجها، وبعـد ما أدخل المؤتمرون عليه تعديلات صادقوا عليه، وقد كان فى جملة المقرر الطواف بالمدن والجهات المغربية لعرض برنامج الكتلة كله او بعض فصولـه ضمن مهرجانـات عامة لتنوير الرأى العـام واستكتـاب عرائـض التأييـد التى ترفع للمراجع العليا بالرباط وبـاريس .

وما وصل الجنـرال نوجيس للرباط فـى اكتوبر سنة ١٩٣٦ حتى قدمت له الكتلة المطالب المستعجلة وتصريح المؤتمر صحبة كتاب تقديم أجاب عنه بأنه سيسافـر لفرنسا اولا، ثم بمجرد رجوعه يستأنف العمل على تحقيق ما يمكنه من رغبات الشعب المغربى .

المطـالـب المستعجلـة :

وتشتمل المطالب المستعجلة على الفصول الآتية :

١ ـ الحريات الديموقراطيـة (الصحافـة والاجتماع والجمعيات والتعليم والتجول فى انحاء البلاد والنقابات) .

٢ ـ التعليم (توحيـد البرامج فى جميع أقاليم المغرب، تكثير عدد المدارس الابتدائية، تكميل حاجيات التعليم الثانوى، تأسيس مدارس المعلمين والمعلمات الخ ..)

٣ العدل (اكتتاب القضـاء بطريق المسابقـة، أن يضمن لجميع القضاة راتب كـاف من الميزانية لا من اداءات المتداعين والمحكومين ، فصل السلطة الادارية عن العدلية والتنفيذية، محو سياسة القواد الكبار)

٤ ـ الفلاحة (تأسيـس ملك عائلـى لا يقبل التفويت عن طريق توزيع أملاك الجماعات، توسيع القرض الفلاحى للفلاح، تسويـة الفلاح مع المعمر فى الضرائب، حماية الفلاح من الحكام والمعمرين والمرابين).

٥ ـ العملة والصناع (تطبيق قوانين العمل الفرنسى على العمال المغاربة، تجديد الصناعة المغربية وحمايتها من المزاحمة الاجنبية، مساعدة العاطلين المغاربة) .

٦ ـ الضرائـب (اسقاط بعض الضرائب والتسوية فى الباقى بين المغاربة وبين الفرنسيين، الغـاء حق الابواب ومكس الاسواق وحق الرعى فى الغابات) .

٧ ـ الصحة العامة (تكثير عـدد المؤسسات الصحيـة، وتوزيع الادوية على المحتاجين، الكفاح القوى الدائم ضد المساكن القذرة، مقاومة البغاء السرى والعلنى، بناء قدر كاف من ملاجىء العجزة والمحتاجيـن ، وتوسيع المساعدات الحكومية للمنظمات الخيرية العامة المغربية).

وقد كنا نظن ان هذه المطالب التى هى أقل ما تمكن به البداءة من برنامج الاصلاحات المغربية العامة التى هى فى الواقع مستعجلة كلها لن تجد صعوبة فـى تحقيقهـا، وقد قررنا ان نقيم المهرجان الأول للدعاية

للمطالب المستعجلة فى مدينة سلا وفعلا مر الاجتماع فى جو عادى وحضره جمهور كبير من اعضاء الكتلة وانصارها ومن دون وقوع حادث ما .

وفى ١٧ من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٦ كان مقررا اقامة مؤتمر بالدار البيضاء بالمطالبة بالصحافة المغربية، وقد كان برنامجه اقامة مهرجان باحدى القاعات الكبرى يدعى له آلاف الانصار وغيرهم من سكان الدار البيضاء الفرنسيين والاجانب لنشرح لهم الحالة التى عليها المغرب فيما يرجع لخنق حرية الكلام، والحيلولة بين الامة وبين اصدار الصحف باللغة العربية، ثم اقامة مأدبة للصحافة الفرنسية فى اليوم الثانى يلقى فيها على المدعوين تصريح من الكتلة فى موضوع الصحافة بالمغرب .

وما ازف موعد الاجتماع الاول حتى احتشد آلاف المغاربة، واذا بهم يجدون باب الدار المقرر انعقاد المؤتمر بها محاطا بالبوليس والجندرمة المسلحة، وبينما نحن نتناول العشاء فى مكان قريب اذا بأحد شباب الكتلة يتلقن لنا معلما بما جرى، فتعجلنا الذهاب لعين المكان حيث وجدنا ولاة الناحية من مدنيين وعسكريين ومعهم البوليس وسيارات الاسعاف وكل ما يلزم للكفاح، ثم تقدم الينا خليفة باشا (محافظ) الدار البيضاء ، وبلغنا شفويا منع المؤتمر باسم جلالة السلطان الذى كان يومئذ فى الدار البيضاء ، فأجبته على الفور : ان لجلالة الملك ظهيرا (مرسوما) يتعلق بالاجتماعات، ومؤتمرنا الليلة سائر وفق ما يقتضيه الظهير؛ فاذا كان عندكم امر ملكى خاص فبلغوه لنا رسميا وكتابة» فأجابنا الخليفة بأن الحق معنا، وأنه سيذهب ليهيء لنا الامر الكتابى .

بقينا ننتظر الامر المكتوب، وأخذ شباب الكتلة ينظم الجمهور المتزايد على طرفى الشارع الكبير حتى يبقى الممر العام حرا، ونخرج بذلك من دعوى التظاهر فى نفس الشارع، وطال الانتظار، فقررنا الانسحاب وعدم اقتحام الدار المحروسة بالجند المسلح، فتقدمنا ومن ورائنا آلاف المتجمهرين يحيط بهم صفوف الشباب الكتلى من اليمين واليسار، وهم يهتفون بحياة الحرية والمطالب المغربية، ولما وصلنا لساحة «الحرية» حملنى بعض الاخوان على الاكتاف حيث ألقيت خطابا نددت فيه باستبداد الادارة الفرنسية، وطلبت من الجمهور أن يتفرق بانتظام، ويضع ثقته فى رجال الكتلة الذين لم يتأخروا عن القيام بواجبهم، فتفرق الجمهور وهو يهتف بالاستعداد لتلبية نداء الكتلة، والتضحية فى سبيل الحريات المرجوة، ثم ألقى القبض علي وعلى محمد اليزيدى ومحمد الوزانى .

ومن الغد اجتمع الباقون من زعماء الكتلة وأقاموا مؤتمرا لرجال الصحافة الفرنسية فى الدار البيضاء، حضره مائة وخمسين ممثلا صحافيا، وخطب الحاج عمر عبد الجليل خطابا احتج فيه على تصرفات الادارة. وأعلن أن الكتلة ستتخذ موقفها الحاسم ازاء اعتقال الزعماء الثلاثة، ثم خطب ممثلو الاحزاب الفرنسية الحاضرة، ونددوا بسياسة الحماية فى خنق الحريات، وطالبوا باطلاق سراحنا واعطائنا الحق فى اصدار الصحف التى نطلبها، ثم طلب الفرنسيون الحاضرون من أعضاء الكتلة أن يسمحوا لهم بالتدخل مع ادارة الناحية عساها ان تقتنع بالعدول عن الخطة التى اتبعتها حبا فى السلام وتهدئة الافكار العامة، وفعلا توجه وفد من ممثلى الجبهة الشعبية الفرنسية بالدار البيضاء لمقابلة المسيو اورتليب رئيس الناحية الذى اسمعهم غلظة فى الكلام واحتقارا فى الاعتبار، الامر الذى جعلهم ينسحبون من مجلسه محتجين .

أما الكتلة فقد قررت أن توفد الاخ الحاج عمر عبد الجليل الى باريس للاتصال برجال الحكومة، وشرح الحالة للرأى العام الفرنسى، وفى الوقت نفسه قررت القيام بمظاهرات تضامنية فى جميع أنحاء المملكة المغربية .

وفى يوم الجمعة الاخيرة من نوفمبر سنة ١٩٣٦ وقعت مظاهرات عظيمة بمدن الدار البيضاء وفاس والرباط وسلا ووجدة وتازا وغيرها من المدن والقرى المغربية، واشتبك فيها البوليس بالمتظاهرين فجرح الكثيرون، وضرب فيها خليفة المراقب الفرنسى بالبيضاء، وألقى القبض على بعض أعضاء مكتب الكتلة، وعلى مئات العاملين من رجالها، وتكون المكتب الثانى المؤقت من الحاج الحسن أبى عياد والسيد محمد الديورى وعبد العزيز ابن ادريس والهاشمى الفيلالى، وواصل العمل للقيام بمظاهرات متوالية، كما أذاع نشرات عن سير الحركة فى الداخل ونظم اضرابات عامة .

وقد أظهر المعتقلون ثباتا قويا وحزما كبيرا، وانكشف للادارة ما كانت تجهل من أثر التربية الوطنية التى قامت بها الكتلة فى أوساط أنصارها، فقد كانوا كلهم على بينة مما يطلبون، وكانت أجوبتهم للولاة الفرنسيين الذين ناقشوهم فى برنامج الاصلاح وما يحتوى عليه من فصول مثيرة اندهاش الاقامة العامة ورجالها، وقد حكم عليهم بمدد تتراوح بين الستة أشهر والخمسة أعوام، وكانوا يتنافسون فى المدد التى سيحكم عليهم بها .

وصل الحاج عمر عبد الجليل لباريس فذهب توا لمقابلة مسيو فيينو وكيل الخارجية الفرنسية لشؤون الشمال الافريقى، فأظهر له الوزير استياء مما حدث، وحاول أن يبرىء الجنرال نوجيس من مسؤولية الوقائع، وطلب منه العودة للبلاد لتهدئة الخواطر، فأجابه الحاج عمر بأنه لا يمكن للخواطر أن تهدأ ما دام زعماء الكتلة وأنصارها معتقلين، وقد نظم الحاج عمر مكتبا لكتلة العمل الوطنى بباريس، ونفذ اصدار نشرة دورية بعنوان (المخبر المغربى) تحل محل مجلة «مغرب» الفرنسية، وأخذ ينشر الحوادث ويعلق عليها بما أقلق الاوساط اليسارية التى لم ترد أن تفتح حكومة الجبهة الشعبية عملها بما يبدو للمغاربة كخيبة لاملهم فيها، وفعلا أصدر رئيس الحكومة الفرنسية المسيو بلوم أمره للجنرال نوجيس بتحرير المعتقلين وتغيير سياسته المزعجة .

وبقى على الجنرال نوجيس أن يتخذ الوسائل التى تمكنه من تنفيذ أوامر الحكومة دون المساس بما يسمونه بنفوذ الحماية وهيبتها فى النفوس، ولذلك ذهب توا لمدينة فاس، واجتمع أولا بنخبة من أعيانها الذين أعربوا له عن تضامنهم مع الكتلة، ثم اجتمع مع ممثلى الجامعة القروية، وأخيرا حل بالمجلس البلدى حيث كان فى انتظاره ممثلو الحرف والصناعات والعملة المغاربة، وقد تذاكر معهم مليا فى مختلف الموضوعات، وكانت محاولاته كلها لاقناعهم بضرورة الحل المباشر لقضاياهم، فكانوا جميعا يردونه فى صغرى المسائل وكبراها للزعماء الثلاثة المعتقلين ولبقية رجال الكتلة؛ لانهم هم الذين يمثلون الشعب ويمكن أن يتكلموا باسمه، وقد عاد الجنرال من فاس متأثرا وناقما على ادارة الشؤون الاهلية التى جعلته يخطىء التقدير من أول يوم، ثم استقبل فى الرباط وفودا عديدة، وتفاوض مع جلالة الملك، وأخيرا بدأ يأمر باطلاق سراح المعتقلين زمرة بعد زمرة، ولما بقينا نحن الثلاثة الاولين فكر فى عرضنا على المحكمة العليا لمحاكمتنا بدعوى التهييج والاثارة، فقدمت القضية للمحكمة ورغم محاولات المندوب المخزنى الفرنسى فقد كان المقررون المغاربة الذين عينهم رئيس المحكمة وغيروا بمقتضى انتقاد المندوب مرارا يصرون على التقرير الدال على تبرير عملنا وتبرئتنا ولقد نصبنا ثلاثة محامين، واحد منهم فرنسى، واتصل المحامون بالمقيم العام أولا، ثم لما رأى اصرارنا على الدفاع وأن المحاكمة ستعطينا فرصة لعرض أشياء كثيرة أراد أن يطلب منا امضاء التزام بعدم الاثارة مرة أخرى، فرفضنا طبعا، كما رفض اخواننا من رجال الكتلة البارزين بفاس والرباط،

وبعد تردد كبير من المقيم العـام قرر اطلاق سراحنا بعد ان قضينـا فى معتقل البيضاء شهرا كاملا .

هذا وقد قام اخواننا فى المنطقة الخليفية بكـل ما يجب للتضامن معنا، فكتبوا وخطبـوا واحتجوا فى المشرق والمغرب، كما أن أصدقاءنا فى تونس والجزائر أعلنوا تضامنهم بالاحتجاج والتأييد، وقد كتب الاستاذ توفيق المدنى فـى أحد أعـداد (الشهاب) مقالا ممتعـا فصل فيه هذه الحوادث وما احتوته من حماس ووعى عظيم .

والحق أن حركتنا قفزت قفزة كبيرة بهذه المظاهرات التى سالت فيها دماء كثيرة، وظهر من جرائها تضامن شعبى كبير، ولقد كتب الى الامير شكيب ارسلان يهنئنى بالتحرر، ويؤكد أن حركتنـا أصبحت لا تقل عن الحركات القومية العربية الاخرى فى مصر والشام .

الجنـرال نـوجيـس :

اعتبر تعيين الجنرال نوجيس فى وظيفة المقيم العام خيبة للمغاربة، ولم يكن اختياره لمكانة له او لما يزعمونه من معرفته بالروح المغربية ، وانما هى سياسة دبرها بلوم ليردع بها المعمرين بعد ان عزل بيروتون الشخصية المحبوبة لديهم. ومهمـا يقل عن نوجيس فالعيب الاكبر الذى عرفناه فيه من اول يوم ـ وهو العيب الذى شهد به الجميـع بعد ما رأوا موقفه فى الحرب الاخيرة ـ هو انه رجل ضعيف العزيمة، سقيم الوجدان، كثير التردد، شديد الانانية، ولقد بعثنا له بمجرد تعيينه ملفا يشتمل على وثائق الكتلة واعمالهـا، فأجاب الاخ محمد اليزيدى بأنـه عازم بمجرد ما يصل للمغرب على تنفيذ مطالب الامة المغربية، ثم كلف ـ وهو بباريس ـ الجنرال ريشار الـذى كـان حاكما بالنيابة فى فاس بالاتصال بى وبعث الآمال الكبيرة فى نفسى وحملى على الثقة بشخص المقيم العام الجديد .

ولكنه ما وصل للمغرب، واتصل بادارة الشؤون الأهلية حتى انقلب ولما دخل مدينة فاس دخول الفاتحين خطب فيها منددا بالوطنيين المغاربة، مشبها لهم بالفراخ التى تريد مغادرة الاعشاش قبل ان تكتسى بالاجنحة ، فيكون حظها السقوط والانكسار. ولمـا رأى من اجوبة الكتلة العملية ما أظهر له خطأه فـى الاستهتـار والتسرع حاول ان يصلح الامر ولو مؤقتا فعاد يستعمل سياسة اللين بعد ان جرب الشدة فلم تفده ، ولكنا سنرى الى أى حد بقى الجنـرال ألعوبـة فى يد الاهواء ، والى أى مدى سيرته أنانيته الشخصية حتى انتهى بضرب الوطنيين ضربة شديدة مات هو معها دون ان يؤثر في الوطنية المغربية او يفل من عزيمة رجالها .

ولقد كان اول ما قـام به بعد ان خرجنا من السجن أن بعث يغرينا بواسطة شخصيات شبيهة بالرسمية للاتصال به والعمل على المذاكرة معه فى شؤون المطالب، وكنا نتريث قليلا، واخيرا اتفقنا على أن نوجه لمقابلته الحاج عمر عبد الجليل اولا، ثم نذهب عنده بعد ذلك، وقد استقبل الاخ عمر بالاحترام اللائق، وذاكره فى جو يدعو للتفاؤل، ثم قبل ان يستقبلنا نحن كوفد لكتلة العمـل الوطنى بعد ان كان مصـرا على عدم اقتبالنا الا بصفتنا الشخصية؛ لأنه لا يعترف بالكتلة، ولا يقر ان للمغاربة حق تأسيس الاحزاب السياسية، مدعيا ان وجود السلطان بالمغرب يمنع من تأسيس الاحزاب؛ لانه هو الذى يتوسط لتقديم مطالـب البلاد لفرنسا ونوابها ، وهى علة عليلة، ومع ذلك فلم يتمسك بهـا بعد ما رأى من تشدد سيدى محمد بن يوسف فى المطالبة بحقوق وطنه .

اجتمعنـا مع الجـنرال نوجيـس ضمن مائدة مستديرة، وتناولنا بالدرس المطالب المستعجلة فصلا فصلا ، وكان يعدنا بالعمل لتحقيقها جميعا، وأهم مـا خرجنا بـه من عنده هو الاذن باصدار جريدة (الاطلس) العربية الاسبوعية التى تقرر ان تكون لسان (كتلة العمل الوطنى)، واصدار جريدة (المغرب) اليومية التى كـان صديقنا المرحوم سعيد حجى رئيس فرع الكتلة بمدينة سلا قد طلب اصدارها وتسريح جريدة (عمل الشعب) من عقالها، كـل ذلك فى دائـرة قانون الصحافة المغربية الصادر فى ٢٧ ابريل سنة ١٩١٩ وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ أى دون تحسين ما لحالة الصحافة ولا توسيع لحريتها .

ومن جهـة أخـرى فان الاحزاب اليسارية الفرنسية التى سبق ان قاومتنا واتهمتنا بالافكار الرجعية رأت فى المظاهرات التى قام بها الشعب المغربى دليلا على أننا نمثله أصدق تمثيل، ولذلك قرر اتحاد خمسة عشر فرعا من فروع الحزب الاشتراكى تأييد مطالب الشعب المغربى، والتعاون مع رجال الكتلة على الكفاح من اجل تحقيقها .

انشقـاق عـن الكتلـة :

وهكـذا تكون بالحصـول على بعـض الجـرائد وبتأييد الاحزاب الفرنسية التى فى الحكم جو اصبحنا نعتقد معه فى امكانية تنظيم حركتنا على غرار الاحـزاب المنظمـة الكبرى، ولذلك عقدت الكتلة اجتماعا عاما بفاس وقررت أن تفتح لها مكاتب ، وتضع قانونا جديدا يمكن من مشاركة أنصار الحركة وأعضائها فـى اختيار المسيرين ومراقبـة أعمالهم، ووكلت

اللجنة لي وللوزانى وضع مشروع لقوانين الكتلة الجديدة، فاجتمعنا نحن الاثنين ووضعنا الاصـول التى نعتمد عليهـا فى وضع القوانين، وتكلفت بتحريرها، وبعد أن انتهينا من مهمتنا عرضنا على الكتلة فى اجتماع عام ثان مشروعنا، ودافعنا عنه مادة مادة، حتى أقره الجميع بصيغته النهائية مع ادخال بعض التعديلات الخفيفة، وخلاصة القانون أن الكتلة تتركب من لجنـة تنفيذيـة، ومجلس وطنـى، ولجان فنية، وفـروع، ولكل من هذه الهيئات لائحتها الداخلية الخاصة بها، وهى حـزب ديموقراطى ينتخب مسيروه بمقتضى التصويت السرى فى مؤتمر عام يمثل الفروع والشعب على نسبة معينة .

وقد قررت الكتلة ان تنتخب لجنة تنفيذية مؤقتة تشرف على فتح المكاتب وتسجيل المنخرطين بصفة رسمية، وتستمر فى عملها حتى تسمح لها الظروف بعقد المؤتمر العام الذى يقضى به القانون .

وفعلا اجتمعنا فى يناير سنة ١٩٣٧ بمقتضى ما اتفقنا عليه، ووفاقـا للقوانين التى وضعناها بأنفسنا خرجت نتيجة الاقتراع السرى على تكوين اللجنة كما يلـى :

عـلال الفاسـى	رئيس
محمد حسن الوزانى . . .	أمين عام
أحمد مكوار	أمين صندوق
محمد اليزيـدى	أعـضـاء
عمر عبد الجليل	
عبد العزيـز ابن ادريس . .	
محمد غازى	

وبمجرد ما أعلنـت النتيجة، أعلن الاستاذ الوزانى استعفاءه مـن الكتلة، ولا نريد ان ندخل فى تفاصيل هذا الانشقاق الذى حدث وما نتج عنه، وكل ما هنالك أن الاستاذ الوزانى أخذ يعمل لاكتساب أنصار جدد باسم (الحركة القومية) بينما استمر سائر الذين كانوا بالاجتماع العـام فى عملهم ضمن الكتلة .

حـل الـكـتـلـة :

مضت اللجنـة التنفيذيـة المؤقتة فى عملهـا، وجعلت من جريدة (الاطلـس) لسان حالها العربـى، ومـن جريـدة (عمل الشعـب) لسان حالها باللغة الفرنسيـة، وجعلت أمينها العام مكـان الوزانى المنسحب

الاستاذ أحمد بلافريج، ثم فتحت مركزها العام بمدينة فاس، وأخذت تسجل المنخرطين الذين انهالوا عليها بالآلاف من بوادى المغرب وحواضره، ولكن الاقامة العامة لم يرقها هذا الانتصار الباهر، فادعت اننا نريد أن نقوم بمؤامرة على الملك؛ لاننا نلزم المنخرطين أداء يمين الاخلاص لله والمغرب والملك؛ والعمل فى دائرة (كتلة العمل الوطنى) . وبمقتضى ذلك فقد استصدرت الاقامة العامة قرارا بحل الكتلة يوم ١٨ مارس سنة ١٩٣٧. ومن الغد أقفلت السلطة دار المركز العام، ووزعت بيانات تعلن فيها المنع ، كما كلفت مناديين فى جميع اسواق البوادى يعلنون نهاية شأن الوطنيين واقفال ادارتهم .

الحركة الوطنية لتحقيق المطالب

وازاء هذا القرار لم نتأخر عن المضى فى خطتنا، بل واصلنا كفاحنا الوطنى كما هو، وواصلنا اتصالاتنا بفروعنا وأنصارنا، ووالينا إصدار نشراتنا وجرائدنا معطين لحركتنا هذا الاسم الموقت «الحركة الوطنية لتحقيق المطالب» ولم تمض بضعة ايام على تاريخ قرار المنع حتى وجهنا للاقامة العامة وفدا يحاول فتح باب المذاكرة مع الجنرال نوجيس فى شأن تأسيس حزب جديد، ولكن رئيس ديوانه المدنى اعتذر عن مقابلة الجنرال للوفد وقال له : «يمكنكم ان تقدموا له المشروع للمصادقة عليه»، وقد رفضنا نحن تقديم مشروع مكتوب، وقررنا ان نعمل ونجعل من عملنا مشروعا واقعيا، وكان اتجاه المقيم العام واتجاه المسيو فينيو ان يطلبا منا تأسيس هيئة ذات لون خاص ترجع للبحث والدراسة فى الشؤون العامة وتتضمن بضع عشرات من الوطنيين ولا تتعداهم الى غيرهم، وقد حاول فينيو تبرير هذا الاقتراح بأن كتلتنا أفادت كثيرا من جهة المباحث التى قدمتها والدراسات التى قامت بها لمختلف المسائل، مع الشكل العلمى الذى كسا كل احتجاجاتنا وانتقاداتنا، وأنه بهذا سنتمكن من خدمة قضيتنا دون الوقوع فى اضطربات او ارتباكات سياسية، وطبيعى ألا نقبل نحن هذا الحل؛ لانه يفصلنا عن غاية عظيمة لنا هى تربية الشعب وتوحيد الجماهير المغربية من حول حركتنا للدفاع عن حقوقنا المغتصبة، ولذلك فقد قررنا قطع الصلة مع الاقامة العامة وتوجيه وفد لباريس .

سافر وفدنا المتركب من الحاج عمر عبد الجليل والحاج احمد بلافريج ليشرحوا للرأى العام الفرنسى الظروف التى حلت بها كتلتنا ، وكان قد مضى على الجنرال نوجيس عام كامل بالمغرب صرح فيه بوعود كثيرة دون أن يفعل شيئا، فحمل الوفد لوزارة الخارجية تقريرا وافيا عن مهازل الجنرال وضعف عزيمته، فاقتبله وكيل الخارجية الفرنسية للشؤون المغربية مسيو فرانسوا دى تيسان الذى كان من اعضاء اللجنة الفرنسية لرعاية المطالب المغربية ولمجلة (مغرب) سابقا، وقد اظهر استنكاره لما سماه بذبذبة نوجيس، وواعد الوفد بتحسين الحال .

لم تكن الغاية من هذا الوفد الا تهيئة المسؤولين بفرنسا والمغرب لقبول ما سنقوم به من اعلان الحزب الجديد، وقد كان الجنرال نوجيس يفهم هذا، وحاول ان يغرى صديقينا الموفدين الى فرنسا بالاتصال به وهو فى فرنسا ليقدمهما لاصدقاء له وشخصيات غير الشخصيات التى نعرفها نحن، ولكن الوفد رفض كل تفاهم مع الجنرال نوجيس بعد أن اتخذ خطته الحاسمة بحل الكتلة والتهديد باعتقال رجالها .

الحـزب الوطنـى :

وبينما الوفد يوالى نشاطـه فى باريس اذ عقـدت الحركة الوطنية مؤتمرا يمثل جميع فـروع الكتلة ورجالها بالرباط فى ابريل سنة ١٩٣٧ وبعد ما تبادل الحاضرون الافكار قرروا ان يطلقوا على حركتهم اسما جديدا هو «الحزب الوطنى لتحقيق المطالب لمغربية»، وقـد روعى فى التسمية امتـداد فكـرة الكتلـة والاتصال بأعمالها ووراثة برنامجها الذى هو فى الحقيقة عمـل لا ينبغى للحزب أن يضيعـه، ومن الغد أعلنت عن تأسيس الحزب ببلاغ نشرته جريدة (المغرب) .

وبعـد بضعة أيام أخـرى عاودنا فتح المركز العام بفاس فى نفس المكان الذى سبق أن أقفلته الادارة الفرنسية، وبدأنا نقبل المنخرطين كالعادة، ولكنا أدخلنا تعديلا واحدا هو عدم الزامهم بالقسم .

ولما كان من الضرورى أن نعلن عـن هذا التـأسيس الجديد فقد انتهزنـا فرصة رجـوع جلالة الملك من فرنسا فى اواخر شهر ابريل المذكور وبعثنـا اليه ببرقيـات باسم (الحزب الوطنى) فى سائر المملكة ونشرت البرقيات فى الصحف .

حينئذ تحركـت الادارة للعمل، وبعث الجنرال بلان حاكم الناحية الفاسية يستقدمنى اليه .

وفى دار الناحية بفاس اجتمعت بالجنرال بمحضر الكولونيل نويل رئيس الشؤون السياسية بفاس، وباشا (محافظ) المدينة السيد محمد التـازى، ورئيـس قلم الترجمـة العام القبطان شاربونى، وقد استهل الجنرال الحديث قائلا :

«بمناسبة رجوع جلالة السلطان لعاصمة ملكه قرأنا فى الصحف عدة برقيات وجهت اليه بقصد التهنئة من طرف (الحزب الوطنى) ، ومن بينها برقية باسم المركز العام للحزب ممضاة منكم ، ومعنى هذا أنكم أعدتم تأسيس الحزب الممنوع» .

فأجبته مبينا أن (الحزب الوطنى) شكليا ليس هو (كتلة العمل الوطنى)، وأن قرار المنع الصادر لا يمكن أن ينطبق على ما أسسناه من بعده .

فقال : «ولكن المركز الذى كان للكتلة هو نفس المركز الذى وضع فيه الحزب، ورئيس الكتلة هو رئيس الحزب، وانصارها هم انصاره ، فأى فرق هناك ؟ ».

قلت له : «ان المركز والرئيس والانصار ـ كل ذلك لا يغير شيئا من حقيقة واحدة، وهى أن الحزب الجديد يحمل اسم (الحزب الوطنى) بينما كان الآخر يحمل (كتلة العمل الوطنى)، وبين التسميتين فرق كبير، وعلى كل حال فقد حاولنا الاتصال بالجنرال نوجيس لنتفق معه على هذا التأسيس، ولكن رئيس ديوانه طلب منا ان نقدم مشروعا فها نحن اولاء نقدم مشروع الحزب الوطنى بمركزه وفروعه ، فاذا كانت لكم عليه ملاحظة فانى مستعد لدراستها» .

فقال الجنرال : «ان هذا ليس بمشروع، ولكنه استئناف شىء ممنوع» .

فقلت له : «كلا.. لقد نفذنا قرار المنع من تلقاء أنفسنا، وهذا عمل جديد ».

فقال : «وأى فرق بين ما كان وبين ما فعلتم اليوم ؟ »

فقلت : «لا تنسوا ـ يا سعادة الجنرال ـ أن ثمة فرقا كبيرا، هو عدم وجود القسم فى انخراطات الحزب الوطنى، ألم يكن القسم هو ما بررتم به منع الكتلة ؟ ! »

فقال : «الحق أنى لا ارى فى ذلك فرقا كبيرا» .

فقلت : «بلى» ... والتفت الى الكولونيل نويل وسألته : «ألم تعتبروا القسم شيئا كبيرا عند اتخاذكم قرار المنع ؟ » .

فقال الكولونيل : «بلى وان القسم لفرق كبير كما قلتم، الا انه لا يكفى» .

وقال الجنرال : «ان كرامة الدولة الآن ممسوسة؛ لان الجمهور يرى أمرها قد خرق دون أن تقوم هى بعمل ما، ولذلك يجب اقفال المركز الجديد، وأنا كما تعلمون قائد عسكرى، لا اعرف الا تنفيذ الاوامر الصادرة الي من الرباط »

فقلت له : «صحيح أنك عسكرى، ولكنكم فى الوقت نفسه رئيس ناحية مهمة، فيجب ان تنبهوا الاقامة العامة الى أننا لن نقبل هذه السرة

اقفال المركز دون أن نقابله بما يستحقه من مظاهرات ستؤدى حتما الى اضطراب الامن العام، وأما اذا كان يهمكم فقط مسألة الكرامة فأنا مستعد لتسوية أمرها اذا قبلتم اقتراحى»

فقال : «ما هو الاقتراح ؟ ؟

فقلت له : «بما أنه يظهر لى أنكم تأثرتم لوجود مركز (الحزب الوطنى) فى عين الدار التى كانت مركزا للكتلة فأنا مستعد لنقل المركز لمكان آخر، وفى هذا النقل كفاية لاظهار فرق جديد من شأنه أن يحفظ كرامة الدولة»

فساد الجو صمت خفيف، ثم قال الجنرال : «اذن أستشير ادارة الشؤون السياسية فى الرباط، ولها وحدها حق الفصل فى الموضوع» .

تلفن الجنرال فى الحين للرباط؛ فأجابوه بطلب الامهال ساعة ريثما يتداولون فى الموضوع، وبعد نحو الساعة والنصف دق التليفون، واذا بالاقامة العامة توافق على حل المشكلة بمقتضى اقتراحى ، أى نقل المركز الى مكان آخر كشرط لاعتراف الادارة بالحزب الوطنى وتركها له .

* * *

لقد رويت ملخص الحديث الذى دار بينى وبين الجنرال بلان ليطلع القارىء على لون من الوان السياسة التى تسير فى بلادنا، وليفهم من خلاله التراوغ الموجود فى العلاقة بين المغاربة وبين الفرنسيين ، ونحن فى الحقيقة كنا قد فهمنا أن الاقامة العامة لا يمكنها أن تترك الحزب دون عمل ما، ولو من أجل المبدأ، كما يقولون، لذلك اتفقنا على تغيير المكان، ولم اذهب عند الجنرال الا بعد أن هيأنا المحل الذى سننتقل اليه، وفى هذا العمل ما يدل على فهمنا لعقلية الفرنسيين ومعرفتنا لما أسميه دائما بالفلسفة الفرنسية .

استأنف الحزب الوطنى أعماله محتضنا كل اعضاء الكتلة السابقة وأنصارها ومجدا فى قبول المنخرطين وتأسيس الفروع والشعب فى سائر البوادى والحواضر واستمرت جريدة (الاطلس) برئاسة صديقنا محمد اليزيدى أهم جرائده ولسان حاله الرسمى، وأصدر عدة جرائد بالفرنسية سرعان ما كانت الاقامة العامة تقفلها بالتوالى، وقد جعل من (مطالب الشعب المغربى) برنامجه الذى يدافع عنه والغاية الاولى له، واذن فقد كان الحزب الذى يجاهد من أجل الاستقلال أولا والاصلاح والتجديد ثانيا، ولكنه استمر فى سياسة (الكتلة) التى كانت تقبل

الوصول للاستقلال عن طريق تطبيق معاهدة الحماية أولا، أو ما نسميه بسياسة المراحل التى ظهر لنا بعد عقمها وتضييعنا للوقت فى المطالبة بها، ولربما كان من الضرورى أن تمر حركتنا بهذه التجربة التى عرفتنا عقلية المستعمرين وعدم استعدادهم لاى تفاهم ما داموا يستطيعون المماطلة وكسب الوقت لاستمرار ما كان على ما كان .

جهاد الحزب الوطنى :

ولكن المظهر العظيم الذى ظهر به الحزب الوطنى هو جهاده المستميت من اجل الحريات الديمقراطية، وكفاحه فى سبيل الدفاع عن الطبقات المستضعفة من الشعب، وقيمته فى انه لم يحصر عمله فى الدفاع السياسى، بل بذل جهودا جبارة فى تنظيم الجمهور وتربيته، وتوجيه الجماعة المغربية نحو الحياة العصرية وقد كانت الاسس التى بنى عليها عمله التجديدى والتهذيبى هى :

١ ـ المغرب بلاد متمسكة كامل التمسك بالاسلام :

تجديد الانظمة السياسية والاقتصادية لا يمكن أن يتنافى مع الاصول الدينية، أى أن الاسلام يخاطب الفرد لا سيما كعضو فى جماعة، ولهذا فهو مهتم بما تحتاج اليه الحياة وسط الجماعة التى أثقلتها الاجيال بأنواع من الجمود يجب أن يتحرر منها، وعليه ففصل السلطات، ومشاركة الشعب فى تدبير مصالح الدولة والانتخاب، والمساواة فى الحقوق والوجبات الخ... كلها مبادىء ليست جديدة بالنسبة للمسلمين، بل هى عقائد جاء بها القرآن وأكدتها السنة .

٢ ـ المغرب متمسك بالنظام الملكى :

لم يعرف المغرب مدة أربعة عشر قرنا شكلا للحكم غير الملكية، فالعرش بقى رمز وحدته ودليل ماضيه، والذى سيكون فى المستقبل عامل التوازن الاجتماعى فيه، ولكن هذا لا يعنى أبدا أن الملكية لا تتطور الى شكل دستورى على غرار ما يجرى فى انجلترا أو فى البلدان الاسلامية اليوم .

وهكذا أصبحت الوطنية المغربية مجسمة فى عقيدة بينة، هى تحرير المغرب فى دائرة دينه، ومع الاخلاص لعرشه المجيد، ولنشر هذه المبادىء التى لم تكن الا تعبيرا عما يجيش بأفكار الشعب كله فقد

نظمت عدة دروس شعبية ومحاضرات عامة فى المدارس والمساجد والاجتماعات الخاصة كنت أشرف عليها بنفسى، وأشارك فيها بما أستطيعه من كتابة والقاء ، وهكذا حصل (الحزب الوطنى) على فوز باهر وشعبية أخافت المستعمرين فى كل جهات البلاد .

وسار الحزب الوطنى فى تنظميه على غرار المشروع الذى وضعناه للكتلة، فكانت له لجنة تنفيذية، ومجلس وطنى، وفروع، وشعب، وخلايا، وللجنة التنفيذية عدة لجان فنية تقوم بالدرس والاشراف على تنفيذ الاغراض الموكولة اليها، ولهذه اللجان الفنية فروع فى جانب كل مكاتب الفروع تأتمر بأمر اللجان المركزية تحت اشراف مكتب الفروع ومن أهم هذه اللجان .

١ ـ لجنة التعليم.
٢ ـ لجنة الاصلاح الدينى والاجتماعى.
٣ ـ لجنة الاغاثة الوطنية.
٤ ـ لجنة التقويم الخلقى .
٥ ـ لجنة الصحافة.
٦ ـ لجنة الدعاية والنشر.
٧ ـ لجنة الشباب الوطنى.
٨ ـ لجنة حماية فلسطين والاماكن المقدسة .
٩ ـ لجنة الشؤون الاقتصادية .

وقد قامت كل واحدة من هذه اللجان بما يجب عليها فى المدة القصيرة التى أمهل فيها (الحزب الوطنى). وكنا نرمى قبل كل شىء بهذه اللجان الى تكوين اختصاصيين فى فروع النشاط الوطنى يتسنى لهم ان يواجهوا الموضوعات التى تعرض لهم عن معرفة واستحقاق، كما كنا نرمى الى فسح المجال للشباب العامل المثقف ليتسنى له ان يجد ميادين يبذل فيها نشاطه وينمى فيها استعداده، وأيضا فاننى كنت أرى ـ وما أزال أعتقد ذلك ـ أن حزبنا يجب أن يعانق كل شىء فى البلاد ليتمكن له أن يسير الامر فى الاتجاه الصحيح الذى يراه، وأن يهيىء وسائل لتحقيق برنامجه الوطنى بعد الاستقلال دون أن يجد من الجمهور معارضة او مقاومة لانه سيكون حينئذ قد هيأ وأنضج .

وقد أسست لجنة التعليم عدة مدارس فى المدن والقرى برغم الصعوبات التى تعترض عادة فى تأسيس مثل هذه المدارس، كما عملت بمختلف جهودها على تنظيم القرويين تنظيما صحيحا وحشد طلبتها فى

صعيد واحد لمقاومة كل تيار يضر بالروح التقدمية فى الجامعة الدينية العتيقة واستطاعت بذلك أن تبذل جهودا جبارة فى تكوين بعض المعاهد الدينية فى وجدة وفضالة مثلا، أو بعثها من مرقدها كما قامت بدعوة واسعة النطاق لتعليم البنات وتهذيبهن، ودعت كذلك لتوجيه بعثات لمصر والخارج، وذلك بالتوسط لدى الآباء والاستنجاد بالاغنياء واقناع الطلبة الاذكياء، وساعدت جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا على السير فى مجهودها ماديا وأدبيا، كما ساعدت على تنظيم مؤتمرها وانعقاده مرارا، وعملت على تأسيس بعض جمعيات قدماء التلاميذ بالمدارس العربية الفرنسية وبالقرويين ولكن الحماية كانت ترفض الطلبات المقدمة بها ، وأرادت لجنة التعليم أن تؤسس (جمعية أصدقاء الطلبة) فدعت لذلك وجمعت المهتمين بالتعليم ووضعت البرنامج وبدأت العمل، ولكن الحماية أوقفت عملهم، ورفضت الاذن لهم بالجمعية، واهتمت بمحو الامية اهتماما لا نظير له، ففتحت الدروس الليلية فى مختلف الاوساط، خاصة بفاس ومراكش حيث بلغت هذه الدروس درجة عليا فى عدد المترددين عليها ، واستقدمت من ابناء المدارس البربرية أفرادا كانت تعلمهم العربية وقراءتها الممنوعة عنهم فى مدارس السياسة البربرية، وألبت الرأى العام للدفاع عن الطلبة الذين اضطهدوا بالخميسات وغيرها فى سبتمبر سنة ١٩٣٧ كما ألبت طلبة القرويين للاضراب للدفاع عن مطالبهم الحيوية، وأسست للطلبة دورا يجتمعون بها للمحاضرة والمذاكرة بفاس والرباط وسلا ووجدة وغيرها من المحلات كانت تجمع بين طلبة المعارف القديمة وطلبة المدارس العربية الفرنسية الذين يتبادلون الرأى والمشورة ، ويكمل بعضهم الآخر فيما ينقصه من معرفة او تدريب .

وواصلت لجنة الأصلاح الدينى والاجتماعى العمل لتثبيت دعائم السلفية ومقاومة ادعياء التصوف، ونزع الخرافات من الاذهان، وشكلت لجنة تابعة لها لتنظيم الوعظ الدينى والدعوة لاصلاحه؛ فوضعت خطبا عصرية وسعت لتعيين بعض المتنورين من الشباب المصلح لتولى مناصب دينية، واهتمت بجماعات المحافظين على القرآن الكريم، فجمعت أشتاتهم، وكونت منهم لجانا منظمة تتركز كلها فى يد (لجنة الاصلاح الدينى) . وهذه الجمعيات هى التى وحدت القراءة بصوت واحد فى المساجد ، ودعت الى التجويد فى القراءة ، وأنشأت عدة خزائن ممتلئة بالمصاحف فى كل مكان، وقد كان لها دور كبير فى الدعاية لنشر الفكرة الوطنية واعلاء سمعة الوطنيين فى وسطنا المؤمن بالله، كما قامت بالدعوة لتحسين حالة

العائلة ومقاومة عادة التسرى، واذاعة مقالات ومحاضرات عن معنى الاطمئنان الزوجى للانسان، ونشرت بعض الرسائل التى تدعو للرجوع للسلفية الاولى، او تهدى الى اتباع روح التربية العصرية فى العقل والبدن

وأدخلت تحسينات على نظام الحفلات الرسمية وغيرها فى المولد النبوى؛ فأصبحت موجهة توجيها صحيحا تليق بهذه الذكرى العظيمة وصاحبها الاكبر، وأسست حفلات الهجرة النبوية وعطلتها، ونشرت الاناشيد الدينية التى تتفق مع حاجة الوقت وروحه، وسعت للتخفيف من كثير من المظاهر المنافية للدين والتى كانت تقع بمناسبة ذكريات نبيلة كتقديم النحائر وأنواع الهدى بأضرحة بعض الصالحين، وقد وجهت الامة فى ذلك توجيها صحيحا يحفظ فى نفسها روح الاحترام لذكرى أبطالها وأوليائها فى الوقت الذى يحررها مما التصق بها من خرافات وأوهام .

وفى الناحية الاجتماعية جاهدت اللجنة جهاد الأبطال لتمتيع العملة ببعض الحقوق الضرورية، وحصر العمل فى ثمانى ساعات ورفع اجورهم، ودعت دعوة قوية لتأسيس يوم العطلة الاسبوعية برغم العراقيل التى وجدتها من الحكومة ومن الجامدين، وقد نجحت فى جعل مدينة فاس وبعض المدن الاخرى تقفل كلها يوم الجمعة عن شعور بروح التضامن وايمان بضرورة التنظيم الاجتماعى .

وقد عملنا كل ما نستطيع لتكوين حركة نقابية بالمعنى الصحيح للكلمة، وفعلا لبى العملة دعوتنا واخذوا يجاهدون فى سبيل حقوقهم بالمطالبة تارة والتظاهر حينا والاضراب آونة، ولكن السلطة كانت تتولى قمعهم فى كل الاوقات دون ان تسمح لهم بالدفاع عن مصالحهم او تتولى هى الدفاع عنها، وقد توصل العمال الفرنسيون بالمغرب للحصول على حق تأسيس فروع الاتحاد النقابى الفرنسى، ولم تسمح الادارة للمغاربة بهذا الحق ولا تزال مصرة على منعهم منه الى اليوم ، فوجد العملة المغاربة أنفسهم ووجدنا معهم فى كفاح مزدوج : هو مقاومة المنع الحكومى للحق النقابى للمغاربة فى الوقت الذى نقاوم فيه تأسيس نقابة أجنبية فى البلاد تريد ان تجمع فى دائرتها كل العملة المغاربة ، وتنظمهم وتعبئهم لخدمة اغراض غير اغراضنا، ومصالح ليست فى كل حين هى عين مصالحنا، ولذلك فقد جرت بيننا وبين نواب س. ج. ط. الفرنسية مشادة عنيفة، ومناقشة قوية للحيلولة بينهم وبين جلب العمال المغاربة لمنظمتهم، ولكنهم فى الحقيقة كانوا مؤيدين بصفة غير مقصودة

من طرف الاقامة العامة التى كانت تصمد لكل مطالباتنا بالحق النقابى فى الوقت الذى تعترف لنا بأنه لا حق للفرنسيين بأن يقبلوا المغاربة فى النقابة الفرنسية، وأن للمغاربة الحق فى ان يطالبوا بتأسيس نقاباتهم القومية، ولكن اعتبارات سياسية تجعل الاقامة «بزعمها» مرغمة على تأخير الاعتراف بهذا الحق .

وكانت وجهة نظرنا ان العملة المغاربة والعملة الموجودين فى المغرب يجب ان يؤسسوا نقابات مغربية تتجمع كلها ضمن اتحاد مغربى خاص على غرار الاتحاد النقابى الفرنسى، ولكنه ليس جزءا منه ، ويمكن للاتحاد المغربى أن ينضم بنفسه للاتحاد الدولى العام كما ينضم اليه الاتحاد الفرنسى، ويجب ان يكون الاتحاد المغربى بعيدا عن المناقشات الدينية والسياسية كى يتسنى لجميع الايدى العاملة الاشتراك فيه والارتباط برابطة واحدة هى رابطة الشغل، أما الفرنسيون فكانوا يريدون تقوية أعضاء الاتحاد الفرنسى للشغل الذى يسيطر عليه اليساريون ليتمكنوا من استعمال العملة المغاربة للدفاع عما يعمل له اليساريون فى فرنسا، مع أنه ليس من المعقول ان يصدر ليون جوهر فى باريس اوامر ناتجة عن اعتبارات محلية وينفذها المغاربة فى بلادهم التى هى اجنبية عن فرنسا ويجب ان تظل بعيدة عن التأثر بالعوامل الداخلية الفرنسية، ولما صمدت الحكومة فى مقاومتنا حاولنا ان نعوض النقابات بتأسيس جمعيات تعاونية للعمال المغاربة، فشكلنا عدة جمعيات للسواقين المغاربة ولبعض المهن الاخرى ولكن الجواب كان الرفض الدائم، فبقينا نعمل برغم ذلك فى شكل لجان غير معترف بها كل همها هو تاليب العمال ودفعهم للمطالبة بحقوقهم، وتوجيههم فى ذلك التوجيه الصحيح وسنرى من بعد ان الحق النقابى ما يزال مرفوضا الى اليوم فى المغرب الاقصى .

ونظرت لحالة الصناعة المغربية فالبت رجالها ودعتهم لخلق روح تعاونية بينهم، ودافعت عن مصالحهم دفاعا قويا، وهيأت لهم اسباب تجديد منظماتهم وحق اختيار امنائها، وسهلت لهم كل الاساليب التى مكنتهم من رفع صوتهم عاليا، وقد كنت رفعت باسمها تقريرا للحكومة يبين الشكل الذى يجب ان ينظم به التعاون الصناعى لانعاش الصناعة المغربية وتطويرها، وفرقت بين ما يجب ان يكون عليه تنظيم العملة فى المعامل الكبرى وبين ما يجب ان يكون عليه حال صغار الصناع التقليدى، وبالجملة فقد عملت لغاية واحدة هى التقليل من الفروق بين الطبقات للقضاء عليها نهائيا .

وقد بذلت اللجنة جهودا جبارة للعمل على اقرار الملك العائلي الذى لا يقبل التفويت، وحماية الفلاحين من عبث القواد والمراقبين وأدعياء الطرق والمرابين.

وكانت فى البلاد ازمة خانقة نشأت عن بؤس الفلاحين والصناع وكساد التجارة، وزادها استفحالا اليبس الذى اصاب البلاد فى سنة ١٩٣٦ وما بعدها، فقامت لجنة الاغاثة الوطنية بتوجيه العاملين لتشكيل اللجان والجمعيات والهيئات المتعددة لاطعام الجائعين وايواء اللاجئين ، وقد كان مركز اللجنة بفاس يقدم ٣٥٠٠ أكلة فى اليوم، وهكذا غيره من الفروع التى انبثت فى سائر انحاء المملكة وكانت تؤيدها خطب الزعماء ومقالات الكتاب التى تنشرها (الاطلس) عن حالة البؤس المغربى ، فتوجه نظر الشعب والادارة لخطورة الحال، ولم تكن هذه الاسعافات التى هى محض صدقة واحسان بالتى تنال تأييد الحماية او غض النظر عنها، بل لقد كانت تجد فى مقاومتها الفعالة التى طالما حالت بينها وبين قيامها بمهمتها، ولقد تعاونت لجنة الاصلاح الدينى والاجتماعى ولجنة الاغاثة على القيام بأعمال جبارة، وتوجيهات صحيحة، وتناولت مسائل كبرى كمقاومة (مدن القصدير) والدعوة الى تعويضها بحارات جديدة ، ودعوة الاغنياء لبناء مساكن رخيصة لايجارها للفقراء ، والمطالبة باسقاط الضرائب المفروضة على العاطلين، وتأسيس مراكز لتشغيلهم وغير ذلك من الاعمال التى لا يمكننا حصرها، كما تناولت المسائل البسيطة كلجان ختان أبناء الفقراء ، وتحسين حالة الحمامات العمومية وغيرها ، وكانت للجنة الاغاثة مهمة اخرى تقوم بها فى الظروف الحرجة، وهى اسعاف عائلات المنكوبين فى القضية الوطنية من مسجونين ومنفيين وأيامى، وقد استمرت فى عملها بعد اعتقالنا فأدت للحركة خدمة عظيمة لا يمكن ان تنسى .

واما لجنة التقويم الخلقى فقد كانت مشكلة من طلبة القرويين وتلامذة المدرسة الثانوية بفاس، وكان لها فروع من طلبة المعاهد الدينية والمدنية بسائر المدن المغربية، وكانت ترمى لمقاومة الاخلاق السيئة فى وسط الشباب وغيره من أبناء الشعب ، وذلك باقامة اجتماعات والقاء محاضرات ونشر مقالات تبين خطورة بعض العادات الشائعة على الأخلاق القومية، واكثر من ذلك ان شباب هذه اللجنة كانوا ينبثون فى كل المحال العامة يدعون الناس للعدول عن شرب الخمر وتعاطى المخدرات ، ويعملون على اقفال الحانات فى الاحياء الاسلامية وقد ادى عملهم الى

نتائج محسوسة فى انفسهم وفى غيرهم؛ اذ أخذوا يشعرون بضرورة تحرير انفسهم وتربيتها حتى يكونوا محل القدوة الصالحة لغيرهم ، فى الوقت الذى استطاعوا أن يقنعوا الكثير من رجال الشعب بضرورة العدول عن بعض الاعمال الساقطة، وأهم من ذلك أيضا أنهم تعودوا على الاتصال بصميم الشعب ودراسة احواله وملاحظة أمراضه والبحث عن ما يحتاج اليه من عناية واصلاح فاقتنعوا بضرورة التفكير بالغير؛ الامر الذى كون منهم رجالا يعملون اليوم فى حقل (حزب الاستقلال) لفائدة البلاد وخيرها .

وقامت لجنة الصحافة بتركيز اعمال الصحف الوطنية وتوجيهها وتنسيق دعواتها، والدفاع عن مصالحها وربطها بغيرها من الصحف الاجنبية، والاهتمام برجالها، وجمع المستندات وتنسيق القصاصات التى تتناول القضية المغربية من جميع جهاتها وقامت الى جانبها لجنة الدعاية والاستخبارات بتوجيه عام لمختلف أنواع الدعاية الوطنية فى الداخل والخارج، وتحرير البلاغات الحزبية، ومقاومة الدعاية المعادية والكتابة عن حياة الحزب، وتعليل أعماله، وتبرير خططه، وتنظيم المهرجانات العامة والخاصة، ومؤتمرات الحزب وشبابه، والاشراف على مضاعفة انتشكيلات الحزبية والهيئات التابعة لها والتجول بينها والحديث الى أفرادها، والاستخبار عن كل اعمال الادارة، مراكزها وفروعها، والتحمس لوجهة نظرها فى كل مسألة قائمة، والبحث عن تيارات الآراء الشعبية والاجنبية، وأثرها الموافق او المعاكس فى الداخل، وكانت تشرف على نشرات الحزب الخاصة (من غير الجرائد) وتحررها وتوجهها، ثم تطبعها وتذيعها، وقد تبين بعد التجربة أن لجنة الاستخبارت والدعاية قدمت للحزب الوطنى خدمات جليلة يجب أن تذكر لرئيسها الاستاذ الهاشمى الفيلالى بما تستحقه من تنويه وتقدير .

وقامت لجنة الشباب الوطنى ببذل كل ما يمكن لتنظيم الشبيبة المغربية ضمن فرق رياضية وجمعيات كشفية بعد ان لم تتمكن من تنظيمها ضمن مؤسسة خاصة لشبيبة الحزب كما كانت تريد، لأن السلطة الفرنسية لم تسمح بذلك على عادتها فى الحيلولة بيننا وبين كل عمل تقدمى، على أن هذه الفرق الرياضية والكشفية نفسها لم تحظ قط بمصادقة الحكومة، وانما كنا نبرر عملنا بتقديم مشروعات التأسيس للادارة، ونمضى فى العمل منتظرين الجواب الذى يبقى عادة شهرين حتى اذا انتهيا جاءنا الرد التقليدى بالرفض، فنشكل له لجنة ادارية جديدة

ونقدم مشروعا جديدا واسما جديدا ونمضى فى خطتنا حتى يصل الجواب وهكذا دواليك . وبالرغم من ذلك فقد استطعنا ان نخلق فى الشباب جو الحب للرياضة والتدرب عليها والتربى على مبادىء الكشفية الصحيحة. وقد استمرت هذه الحركة قائمة حتى انحلال (الحزب الوطنى) الرسمى واعتقال زعمائه، ثم بلغت منتهى الازدهار الآن فى (حزب الاستقلال) على ما سنبينه، ولكنها لم تحظ قط باعتراف رسمى ولا اباحة اكثر من غض الطرف فى بعض الاوقات، مع استثناء العطف الذى تحظى به من صاحب الجلالة راعى كل حركة اصلاحية .

وقامت اللجنة أيضا بتأسيس جمعية الشبان المسلمين والهداية الاسلامية وغيرهما من المنظمات التى منعتها الحماية الفرنسية منعا باتا.

وبذلت لجنة حماية فلسطين والاماكن المقدسة مجهودات جليلة فى العمل لاشعار الرأى العام المغربى بخطر الصهيونية على العروبة كلها واذاعة كل منشورات للجنة العربية العليا وفتح اكتتابات وبعث احتجاجات والقيام باحياء يوم فلسطين من كل سنة وغير ذلك من الاعمال التى كنا نشارك بها العالم العربى والاسلامى، وقد استطعنا أن ننشر الدعاية ضدا على الصهيونية حتى فى أوساط اليهود المغاربة الى حد أنهم أمضوا معنا وثيقة مشتركة وجهناها للخارجية الانجليزية احتجاجا على قرار اللجنة الملكية التى قررت تقسيم فلسطين لثلاث مناطق، وكان لعلاقتنا الحسنة اذ ذاك مع الاشتراكيين الفرنسيين أثرها فى موقف فرنسا حين عرض قرار اللجنة المذكورة لدى جمعية الامم، فقد اتصلنا بالمسيو فينو والمسيو دوتيسان فى الموضوع، كما اتصل بهما الامير شكيب وأقنعناهما بضرورة اتخاذ سياسة فرنسية ترمى للتقارب مع العرب فى صالح الطرفين .

وقامت لجنة الشؤون الاقتصادية بكتابة عدة مذكرات ورفعها للحكومة فيما يرجع للمسائل المتعلقة بالسياسة المالية والفلاحية، وعاضدت جمعيات النقل الصغير فى الدفاع عن حقوق النقالين وتبرير مطالبهم فى الصحافة وغيرها، كما طالبت بتأسيس معارض زراعية وصناعية، ونشرت دعاية واسعة النطاق تحث فيها على تأسيس الشركات والجماعات التعاونية، وهى وان لم تنجح كثيرا بقدر ما نجحت اليوم أختها فى حزب الاستقلال فقد وضعت الاتجاه الصالح الذى نسير عليه اليوم.

ولسنا نريد أن نسجل هنا كل ما قامت به هذه اللجان وغيرها من اللجان المؤقتة فى بضعة أشهر، فنحن لم نتكلم عن الحفلات الادبية ورجالها ولا على أجواق التمثيل والموسيقى وغيرهما مما تأسس تحت عامل الحزب وتنشيطه، وانما نريد أن نصور بهذا العرض الموجز ضروبا من ألوان المقاومة التى نظمها شعب ينبعث رغبة فى الحياة والتحرر، وردود الفعل التى قام بها نظام استعمارى جبان وبخيل، وفى ذلك من العظة والاعتبار الشىء الكثير، وعلى رأس هذه اللجنة كانت تشرف اللجنة التنفيذية بالتوجيه والتدبير الى جانب ما تقوم به من عمل سياسى خطير، ولعل أهم ما قامت به فى هذا الميدان هو دعايتها القوية فى الداخل والخارج لفائدة برنامج الأصلاحات المغربية، فقد استطاعت أن توحد من حوله الامة كلها مسلميها ويهوديها، واليهود بالمغرب لم يكونوا يميلون للحركات الوطنية بل كانوا يتأثرون أثر يهودى الجزائر وتونس فيطالبون بالتجنيس أو بغير ذلك من الاختصاصات التى تجعلهم خارج النطاق الاهلى وتحشرهم فى الاعتبار مع الفرنسيين والاوروبيين، فبذلت اللجنة التنفيذية جهودا جبارة لاقناعهم بأنهم مواطنون يجب الا يفكروا فى حل لمشاكلهم خارج الدائرة المغربية ، وقد طلبت من اللورد لوكاش رئيس العصبة الدولية لمقاومة الحركات العدائية للساميين والتى تضم أكثر من سبعمائة ألف عضو يهودى أو صديق لليهود أن يعقد مؤتمرا لعصبته بالمغرب الاقصى لدراسة حال اليهود المغاربة وتقرير مصيرهم النهائى، وفعلا انعقد المؤتمر بالرباط وحضره بصفة ملاحظ عن حزبنا الاستاذ احمد بلافريج والاستاذ محمد اليزيدى، واتخذ المؤتمرون قرارا يقضى بأن برنامج الاصلاحات المغربية هو برنامج العصبة نفسها التى تطالب به لفائدة اليهود المغاربة، وقرر الموجودون هناك تمسكهم الدائم بجنسية البلاد ورعوية جلالة الملك وتأييدهم لمطالب الشعب المغربى والحركة التى يقوم بها الحزب الوطنى من اجل تحقيقها .

وفى الوقت نفسه حصلت على اقناع احزاب الشمال بفرنسا لتعتبر من مطالب الشعب المغربى مطالب الطبقة المستضعفة لفائدة العملة المغاربة، وهكذا قرر ممثلوا الحزبين الاشتراكى الفرنسى والشيوعى الفرنسى بالمغرب مصادقتهم على برنامجنا وتأييدهم لمطالبنا، ولما اجتمع المؤتمر الاشتراكى العام بمرسيليا فى يوليه سنة ١٩٣٧ قدم له شينيو تقريرا مستمدا كله من برنامجنا، وقد حضر فى هذا المؤتمر بصفة ملاحظين صديقنا الحاج عمر عبد الجليل وصديقنا الحاج احمد بلافريج .

واما الحـزب الحر الدستورى وحـزب الشعب الجزائرى وجمعية العلماء المسلمين وغيرهم فقد انعقد بيننـا وبينها اتفاق متين وارتباط أكيد قوى تضامن الشمال الافريقى وتعاضده فى مقاومة الاستعمار الاجنبى، وأما معاضدة العالم العربى والاسلامى فكانت لا تزداد الا قوة بما تبديه من الاهتمام الزائد وبما كان يقـوم به الطلبة المغاربة فى المشرق مع العـون المعنـوى الذى اسداه لحركتنا صاحب العطوفة الامير شكيب ارسلان رحمه الله وأصدقاؤه العاملون أمثال الاستاذ محمد على الطاهر الذى وقف جريدتـه «الشورى» اولا «والشباب» ثانيا على نشر فظائع المستعمرين وفضائل رجال الحركة العربية المخلصين .

وللحزب الوطنى مواقفه الحازمة فى مقاومة الرجعية الحاكمة وتأييد الحريات العامة وحشد الشعب للدفاع عنها، وقد كان فى مقدمة الحملات التى نظمها حملتـه علـى القـواد الكبار الذيـن سخروا أنفسهم لخدمة الاستعمار وتأييد رجاله وتنفيذ مقرراته وأعماله، ولعل أخطر ما قام به فى ذلك كفاحه المستميت للباشا الجلاوى وتصرفاته فى الجنوب ؛ تلك المقاومة التى حررت سكان المدينة المراكشية من ضريبة الدور التى كان يفرضها عليهم الجلاوى أمدا طويلا، وحمتهم من مدينة الفسق التى اتفق الجلاوى مع بعض الشركات الاجنبية على تأسيسها، وبعثت فـى نفوسهم الشعور بالعزة والاحساس بالكرامـة، وأعطتهـم الفرصة التى يخرجون بها من دور خانق وحكم حانق، وأرتهم كيف يجب ان يحاسب الشعب المتصرفين فى أعماله حين نددت بالقائمين على الجمعية الخيرية والشؤون البلدية . وقـد بذل اخواننا رجال الجنوب مجهودا جبارا فى خدمة مبادىء الحزب والدفاع عن الطبقة المستضعفة التى استعبدها كبراؤها وأذلها حكامها ، ومن الحق أن ننوه هنا بموقف صديقنا الاستاذ المختار السوسى والبطل المرحوم السيد محمد الملاخ دون أن ننسى فضل العامليـن الكبيرين الاستاذ عبد الله ابراهيم وعبد القادر حسن . ولو أننا حاولنا تسجيل كل عمل جليل قامت به حركتنا فى هذه المرحلة لاحتجنا الى وقت طويل وتدقيق لا نملك من وسائله اليوم الا اليسير ، ولكننا لا يمكن ان نغفل عن ذكر بعض الاحداث المهمة التى تدل على ما يشابهها وتعـرف بالروح الوثابة التى كانت تملأ نفوسنا . وسنقتصر على ثلاث نقط أساسية، هى الدفاع عن الفلاح، ومقاومة البؤس والدفاع عن الدين .

الدفاع عن الفلاح :

وقد تجلى عملنا فى سبيل الفلاح بمظاهر مختلفة أشرنا لبعضها حين سجلنا عمل الاصلاح الدينى والاجتماعى ، ومنها دفاعنا عن اراضيه ومقاومة مبدأ نزع الملكية لمصلحة الاستعمار ، وقد وصلنا الى نسخ الظهير (المرسوم) الذى يعتبرها من المصالح العامة ، ووقف الحزب الوطنى موقفا كان مقررا نزعها منذ امد طويل ، ثم قاومت ذلك حركتنا فتأخر التنفيذ ، وحاول الجنرال نوجيس أن يعاود تنفيذ المشروع فجند الحزب الوطنى القبيلة كلها للدفاع عن حقها ، وأيدها وناضل عن مبدأ حرية التملك الشرعى ، وانتهى الامر الى اعتقالات كثيرة للوطنيين التادليين ،ولكن مشروع الاقامة أوقف ووزعت بعض الاراضى على الفلاحين المغاربة فعلا.

وحاول المستعمرون أن يستبدوا بوادى ايمور بنواحى مراكش فى سنة لم ينزل بها المطر الكافى ، فاشتكت القبيلة دون ان يسمع لها شكوى ، ولكن الحركة الوطنية تقدمت للدفاع عن حقها ونظمت لها مظاهرة عظيمة احتشد فيها أعيان القبيلة ووجهاؤها بدار الناحية ، ورغما عن كل المحاولات التى قام بها الجلاوى والجنرال دولوستال للتضامن مع المستعمرين فقد صممت القبيلة على نيل حقها ولو بالاستماتة فى سبيله وقد انتهى الامر بارضاء نسبى لآيت ايمور يضمن لها سقى أراضيها من الوادى ويترك بعض ايام الاسبوع لسقى أراضى المستعمرين .

وكثر استبداد الادارة بقبيلة بنى يازغة من احواز مدينة صفرو بناحية فاس واستطاع بعض المعمرين وبعض اغنياء اليهود أن يستولوا على الوادى الذى يسقى القبيلة كلها من اعلاه ، فأخذوا يقبضونه عن القبيلة كلما شاءوا ، وكان فى القبيلة فرع قوى للحزب الوطنى يبدى معارضة كبيرة لقائدها البزارى الذى كان اداة مسخرة للاستعمار ، فعظم على الجنرال بلان حاكم الناحية الفاسية أن يرى الوطنية تكتسح بوادى المغرب كما عمت مدنه، فقاوم الوطنيين بمختلف الاشكال ، ومن جملتها منعهم من السقى، ونفذ المعمرون رغبة الجنرال واشتكى الفلاحون لدى المراقبة فطردوا من ابوابها وبعثوا وفدا للاقامة العامة يشرح مظلمتهم فكان حظهم الأعتقال بعد الرجوع، ووقعت مظاهرة من اخوانهم بدار المراقبة بصفرو شتتها البوليس، ثم قرر الفرع الوطنى القيام بعصيان مدنى ضد اوامر الادارة وأداءاتها، واستدعت المراقبة رجال الفرع فرفضوا تلبية الدعوة، فتوجه اليهم القائد صحبة كوكبة من

الخيالة فاعتصموا ببيوتهم، وأطلق القائد النار على بعضهم فهاجوا وهجموا عليه، وجرت معركة أسفرت عن جرح القائد وبعض رجاله .

واهتز الجنرال بلان حاكم الناحية، واهتز معه الجنرال نوجيس وأصدر بصفته القائد الاعلى للجيش أمره للفرقة الثامنة للفرسان بمدينة فاس ان تتوجه لبنى يازغة وتهاجم القبيلة التى ليس بيدها سلاح ، وذهب الفرسان وفعلوا بالمغاربة العزل ما لا يتصور من انواع الوحشية؛ اذ قتلوا الرجال وفتكوا بالاعراض، ونهبوا المواشى، وكسروا حتى اثاث البيوت، وأقامت الفرقة بالقبيلة عشرة ايام تأخذ منها مؤنها وتعتقل من سلم من القتل من أفرادها، ولما رفعنا الاحتجاجات الصارمة وطالبنا باطلاق المعتقلين وأداء التعويض للقبيلة عما ضيعه الجند من مالها أصدر الجنرال تنويها عسكريا بما قامت به الفرقة الثامنة فى بنى يازغة من أعمال تشكر عليها؛ اذ كانت عنوان الطاعة ومثال الاستبسال !

وفى نهاية أغسطس سنة ١٩٣٧ أصدرت ادارة الاشغال التابعة للاقامة العامة امرا بتحويل ماء (أبى فكران) وهو النهر الذى يروى مكناس وأرباضها بماء السقى والشرب الكافى، وقد حاولت الادارة أن تحوله كله لمصلحة أربعة معمرين فرنسيين، وادعت أولا أن النهر ملك للدولة، فأثبت الاهالى برسوم قديمة تملك المكناسيين له، وتقسيمه بين بساتينهم ومنازلهم بمقتضى وفاق عرفى بينهم، فحاولت الادارة اعتباره من املاك الاوقاف الاسلامية التى قبلت ان تعوض عنه من طرف بلدية مكناس بعوض نقدى، ولكن المحكمة الشرعية التى نظرت فى رسوم الماء رفضت اعتباره وقفا، فلم يبق الا استعمال القوة فى اغتصاب الحق من ذويه، وقد احتجت المدينة بسائر الأساليب السلمية، وكتبنا فى صحف «الاطلس» و «المغرب» و «العمل الشعبى» عدة مقالات توضح الحق وتطالب الحماية بالانصاف، ولكن الحماية رفضت اعتبار مطالبنا أو قبول احتجاجاتنا.

وفى أول سبتمبر احتشد جمهور من المكناسيين لتسجيل تعرضهم على مشروع تحويل الوادى بباب الادارة البلدية، فاعتقل المراقب المدنى عديدا من الوطنيين، وفى الغد وقعت مظاهرة أشد احتشد فيها أكثر من عشرة آلاف شخص معلنين تضامنهم مع معتقلى الامس، ووقعت هتافات ضد الاستعمار ومطالبة باجلاء المعمرين الفلاحين، وقد أصدر الجنرال حاكم الناحية أمرا باستقدام جحفل كبير من اللفيف الاجنبى والفرنسيين، فاستمر المتظاهرون وأطلق الجيش عليهم الرصاص فقابلوه بالرمى بالحجارة، وقتل ١٥ شخصا من المغاربة وجرح مائة من الفريقين، واستمر

الهياج والتظاهر، وكتبت جرائد «العمل الشعبى» و «الأطلس» و «المغرب» مقالات تطالب فيها بالبحث عن المسؤولين ومعاقبتهم .

وفى الغد توجه وفد من الحزب الوطنى لمقابلة مدير الشئون السياسية المسيو سيكو ومطالبته باطلاق سراح المعتقلين المكناسيين وترك الوادى لاصحابه ومعاقبة المسؤولين فى اطلاق الرصاص على متظاهرين محتجين، ورغم المجاملة التى ابداها مسيو سيكو فان موقف الاقامة لم يكن بينا، ولذلك فقد وقعت يوم ٨ نوفمبر مظاهرة أخرى واضراب عام بمدينة مكناس؛ الامر الذى حمل الجنرال نوجيس على التوجه بنفسه الى المدينة ومقابلة ممثلى الحركة بها ووعدهم بالنظر العاجل فى قضية الماء .

وقد نظم (الحزب الوطنى) مظاهرات تضامنية فى سائر المغرب، وأعلن الاضراب الكامل فى سائر المدن المغربية لمدة يوم واحد احتجاجا على سياسة القمع التى اتبعتها الاقامة، كما نظم صلوات عامة فى مساجد المغرب ترحما على الشهداء، وضاعفت الصحف الوطنية حملتها، فأوقفت الاقامة العامة جريدة «العمل الشعبى» وحجزت اعدادا من «الاطلس» و «المغرب» وبررت بالجو المتوتر منعنا من عقد مؤتمر طلبة شمال افريقيا المسلمين الذى كان موعد انعقاده بالمغرب هذه المرة أيضا .

وحدث بالمنطقة الخليفية أن حاولت بلدية تطوان الاستيلاء على بعض عيونها لفائدة المعمرين أيضا فاحتج ذوو المصالح المغربية، وأدى الامر الى اعتقال ثلاثة من الشباب الوطنى، فنظم (حزب الاصلاح) مظاهرة كبيرة تراجعت أمامها الاقامة العامة الاسبانية، وأطلقت سراح الشبان الثلاثة، وأوقفت تنفيذ القرار الصادر فى شأن العين .

لقد كانت كل هذه الحوادث وأمثالها عنوانا على اهتمام الحركة الوطنية بالدفاع عن حقوق المغاربة أفرادا وجماعات، وبالاخص على اهتمامها بالفلاحين الذين أصبحوا موطن استغلال الفرنسيين وأذنابهم، وهذه الحوادث المحلية ألزمت الاقامة العامة باعتبار ما كتبناه فى عدة مذكرات منذ عهد (الكتلة الوطنية) الاولى مطالبين باتخاذ سياسة مائية تنظم الانهار المغربية وتضع لها ما يلزم من السدود، وترمم السواقى التى تتشرب كثيرا من الماء، وقد بدأ الجنرال نوجيس فى تنفيذ هذه السياسة بنواحى تادلة فى الجنوب، ولكنها لحد الآن لم تؤت النتيجة المقصودة، مع انها هى الحل الوحيد الذى يضمن سقى الاراضى والخروج عن حالات اليبس التى تطرأ على البلاد، وبها من الماء ما يكفى ويشفى .

مقاومة البؤس :

لم يقف (الحزب الوطنى) عند العمل الايجابى الذى قامت به لجنة الاغاثة التابعة له، ولكنه والى دفاعه عن المعوزين، فكان لا يخلو عدد من (الاطلس) من مقالة فى البؤس المغربى وتبيين اسبابه وضرورة الاهتمام به، وكان الرأى الذى دافعنا عنه هو وجوب الاهتمام بالطبقات الفقيرة وتحسين حالها عن طريق ايجاد عمل لها او تمتيعها بالملك العائلى، لان الشعب لا يمكن أن يعيش على الصدقة والاحسان، ولان لكل واحد من أفراد الأمة الحق فى الحصول على الاقل الحيوى، والحكومة هى المسؤولة عن تهيئة الوسائل التى يستطيع بها الكل الحصول على هذا الاقل الحيوى عن طريقة شريفة تشعره بأنه انسان محترم .

وقد اشتدت وطأة البؤس فى البلاد الى حد أصبحت معه الاقامة العامة تشعر بالخجل وتخاف من اطلاع الرأى العام بفرنسا وغيرها على حقيقة الحال، ولذلك لم يتأخر الحزب عن نشر صور متعددة عن حالة البؤساء ، ولما زار المسيو رامادى وزير الاشغال العامة مدينة مراكش صحبة الجنرال جوان يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٧ نظمت له الاقامة استقبالا باهرا أزالت منه كل مظاهر البؤس التى مر بها، ولكن فرع الحزب الوطنى بالمدينة قام بضد العمل الفرنسى، فحشد اكثر من خمسة آلاف من البائسين الجائعين العراة نساء ورجالا وأطفالا هتفوا كلهم بسقوط نظام الحماية الذى أبأسهم بانتزاع أراضيهم وتسليط أبناء الاستعمار عليهم، وقد أحاطوا كلهم بالوزير الفرنسى الذى لم يجد مخلصا الا التملص صحبة المقيم العام، ولكن الجمهور تبعه يجذبه من وراء ويطالبه بسماع حقيقة الحال من أبناء الشعب لا من الجلاوى وأضرابه، وقد ذهب مسيو رامادى بعد ما ترك فى يد المتظاهرين قطعا من جبته وسراويله، ثم صعد والمقيم لقصر الحماية، وسارت الجماهير هاتفة بسقوط الاستعمار الغاشم ومطالبة بالخبز والحرية ، واعتقلت السلطة فى هذه الحادثة مئات المتظاهرين .

وفى يوم ٢٦ سبتمبر استؤنفت المظاهرات بمدينة مراكش بقيادة أعضاء فرع الحزب بالمدينة، وسار فيها جمهور كبير من مختلف طبقات الامة معلنين تضامنهم مع اولئك البائسين فأطلق الجند الرصاص عليهم وجرح منهم العشرات واعتقل المئات، كما قبض على خمسة من قادة الحزب بالجنوب، ونقلوا للاشغال الشاقة بمدينة تارودانت .

وقد عقد الحزب عدة مهرجانات تضامنية مع مكافحي مدينة مراكش من أهمها مهرجان الدار البيضاء الذي حشد آلاف المجتمعين ، وألقيت فيه عدة خطب، ووجهت برقيات الاحتجاج للخارجية الفرنسية وللاقامة العامة، وأقام المركز العام للحزب الوطني بمدينة فاس مؤتمرا ألقيت فيه خطبة ضافية، وارتجل الاخ عمر عبد الجليل كلمة رائعة ، وشارك فيها ممثلون من جميع الجهات المغربية التي رفعت احتجاجها ضدا على سياسة الفرنسة والافقار والتجهيل، وعلى اثر المؤتمر وقعت مظاهرة سلمية كبيرة بالمدينة أعلن أصحابها تضامنهم مع اخوانهم بمدينة مراكش، وقد حجزت (الاطلس) و (المغرب) مرة أخرى من أجل مقالاتهما وأنباء المظاهرات التي أذاعتها .

الدفاع عن الدين :

ولم يكتف الحزب بهذا النضال عن الحريات الانسانية التي تحفظ للفرد والجماعة المغربية ملكها وحقها في الكلام والتشكي، بل وجه عمله لتقرير الحرية الدينية التي حاولت السياسة البربرية غصبها من المغاربة، فلم تترك فرصة تمر الا انتهزتها لمطالبة الادارة بالعدول عن خطتها، وترك البربر المسلمين يتمتعون بحريتهم الدينية ومساعدتهم على استمرار اطمئنانهم الروحي الذي لم يجدوه الا في العقيدة الاسلامية ، وقد أرادت الحماية أن تقيم حجا رسميا في مدينة (الخميسات) للقديسة سانت تيريز راعية الدعاية الكاثوليكية، ومن المعلوم أن (الخميسات) مدينة بربرية، وأن واضعي الظهير البربري قرروا أن تكون هي المركز الاول لتحقيق سياستهم التي شرحناها من قبل، ومن المعلوم أنه لا يوجد بها حتى اليوم مسيحي واحد، فعقد حج لكنيستها التبشيرية لم يقصد به الا اقامة مظاهرة من مظاهرات السياسة البربرية، ولذلك احتج الحزب الوطني أمام الاقامة العامة برسالة رسمية، ولكن المراقبة المدنية المحلية زادت الطين بلة، فمنعت اقامة موسم اسلامي تعود اساتذة المدارس القرآنية بقبيلتي زمور وزايان أن يقيموه كل عام في شهر نوفمبر، وبعد احتجاج الاساتذة صرح لهم المراقب الفرنسي بأنه لا يبيح لهم الاجتماع الا اذا كانوا سيقتصرون على مجرد النزهة دون أن يقرأوا القرآن بصوت واحد كما ألفوه .

وازاء هذا قرر فرع الحزب الوطني في الخميسات أن يقيم مظاهرة كبرى احتجاجا على السياسة البربرية التي تعتبر هذه المظاهر من

آثارها، وقد احتشد آلاف المتظاهرين من قبيلة زمور بالمسجد الكبير بالمدينة، وخطب فيهم رئيس الفرع السيد عبد الحميد الزموري من خريجي مدرسة أزروا، ثم صار الجمهور بعد الصلاة متظاهرا في شوارع المدينة البربرية، فاستقدم المراقب الجيش من الرباط، ووصل الجنرال نوجيس بنفسه بالطائرة، واشتبك الجند مع المتظاهرين فقتل أفراد وجرح الكثيرون، وألقى القبض على اعضاء مكتب الفرع، وعلى مئات من رجال البربر، ولكن وقع العدول عن مظاهرة سانت تيريز على الشكل الذي أريد منها .

مهرجان ١٣ اكتوبر بفاس :

ومقابل المظاهرة التبشيرية التي دبرتها الاقامة أقام الوطنيون بمدينة فاس مهرجانات خارقة للعادة يوم ١٣ اكتوبر بمناسبة الموسم السنوي للمولى ادريس راعي المدينة ونجل ادريس الاكبر مؤسس أول دولة عربية اسلامية مستقلة بالمغرب، وقام المجتمعون بالضريح الادريسي وغيره بصلوات ترحم على ارواح الشهداء بمكناس والخميسات وببني يازغة وغيرها، وأعلن الكل أن مهمة الحركة الوطنية لم تعد مقاومة الطغيان الفرنسي والمطالبة بالحريات السياسية والاجتماعية فقط ، بل أصبحت تتعدى ذلك الى مقاومة التهجمات الاجنبية على الأسلام وتجديد الدولة المغربية المستقلة التي أسسها المولى ادريس الاكبر .

وقد أثر توالي هذه الحوادث في نفس الجنرال نوجيس وموظفيه الى حد فقدوا معه كل بداهة وتدبير، فاشتدت مهاجمة الوطنيين في أنحاء البلاد وأصبح المراقبون المدنيون يتنافسون في اعتقال أفراد الحزب والمنخرطين به خاصة في الجبال البربرية التي لم يتحمل الفرنسيون أن يصبح سكانها منظمين ضمن حزب مغربي مكين، وقد اعتقل عدد كبير في (بني مجيلد) و (آيت يوسي) وعذب مئات من الوطنيين في (بني وراين) وبرغم ذلك فقد رفضوا امضاء بطاقة تعلن خروجهم من الحزب الوطني، ولم ينتصف شهر اكتوبر حتى كان المعتقلون يتجاوزون العشرة آلاف، وضاقت الحماية ذرعا بالصحف الوطنية، وأكثرت من حجز أعدادها وأخيرا قررت منع جريدة (الاطلس) لسان الحزب الوطني، وفكرت في وضع رقابة على الصحف قبل طبعها، فقررت الصحف الوطنية أن تحتجب تضامنا مع (الاطلس) وامتناعا عن الصدور في عهد الرقابة .

المؤتمر العام للحزب الوطنى

لم يعد من الممكن لقيادة الحزب الوطنى أن تكتفى بتوجيه العاملين المغاربة فى مختلف النواحى، ولا أن تظل مكتوفة الايدى ازاء الاعتقالات العديدة التى تصيب أنصار الحزب وأعضاءه فى أقاصى المناطق المغربية، ولذلك قررت اللجنة التنفيذية للحزب ان تعقد مؤتمرا عاما خارقا للعادة لدراسة الموقف والحصول على حق توجيه الحزب فى سياسة صريحة العداء للحماية وتصرفاتها، وفعلا انعقد المؤتمر بمدينة الرباط بمنزل الاستاذ احمد الشرقاوى عضو المجلس الوطنى للحزب ورئيس مكتب الفرع الرباطى مساء يوم ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٧ وقد افتتحته بخطاب شرحت فيه الحالة التى وصل اليها الاضطهاد الاجنبى فى المغرب، وطلبت من المؤتمرين ان يدرسوا القضية المغربية على ضوء الحوادث القائمة، ثم تكلم الاستاذ عمر عبد الجليل عضو اللجنة التنفيذية فبين عوامل استفحال الحركة الوطنية فى الظروف الجارية، وبعد أن جرت مناقشات عديدة شارك فيها جميع الممثلين بحماس وتيقظ ألقى الاستاذ محمد اليزيدى صيغة الميثاق الذى تطلب اللجنة التنفيذية أن يقره المؤتمر لتتمكن من السير بالحركة الوطنية فى نهج المقاومة الفعالة لسياسة الحماية الجائرة، وقد وقعت المداولة العادية فى المشروع ، وأدخلت عليه التعديلات المطلوبة، ثم أقر على الصيغة النهائية الآتية :

الميثاق الوطنـــى

ان المؤتمرين المجتمعين بدار الاخ السيد أحمد الشرقاوى بالرباط مساء يوم الاربعاء ٧ شعبان سنة ١٣٥٦ هـ. الموافـق ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٧ الممثليـن لفروع الحـزب الوطنـى بأقاليم وجدة وتازة وبركان وفاس ومكنـاس ووزان وسيدى قاسم وسيدى يحيى والقنيطرة وسلا والرباط والدار البيضاء والجديدة وآسفى والصويرة وسطات ومراكش نظرا للأزمات المادية والمعنوية التى تجتازها بلادنا المغربية فى الوقت الحاضر والتـى نتجت عـن سياسـة الميز والارهاق التى تسير عليها الاقامة العامة .

ونظرا لكون الحماية لم تحقق ما وعدت به فى الكثير من المناسبات من تنفيـذ مطالب المغرب المستعجلة بالرغم عما تتطلبه حالة البلاد فى ميادين الاسعاف والاجتماع والعدالة .

ونظرا لحادثة مكنـاس المؤلمة التى أهرقت فيها دمـاء الشهداء الأحرار ورمى فيها الجمهور الاعزل بطلقات الرصاص واعتقل فيها العديد من الابرياء ليعرضوا على المحاكم العسكرية، والكل لمجرد تضامنهم مع المسجونين المقاومين لنزع ملكية الماء .

ونظرا للاضطهادات التى تقوم بها السلطة فى بوادى المغرب لكل من ينتمى لحركتنـا او يتصل بنا حيث سجنـت المئات وعذبتهم أشد العذاب وأثقلتهم بالحديد والاغلال وشردت (المداشر) وفوتت العقارات والامتعة .

ونظرا لكون الادارة سلطت فريقا من الجيش المنظم (الصبايحية الثامنة) على مدشر المطرناغة من (بنى يازغة) حيث أباحت لهم السبيل فارتكبوا أشنع الفظائـع من هدم الخيام ونهب الاموال والانعام والفتك بالاعراض وتعذيب البرآء .

ونظرا لكون السلطة أطلقت اليد للبياز والجلاوى وأعوانهما ليرهقوا المراكشييـن فسجنـوا ونفوا وعذبوا وجلدوا وكبلوا وانتهكوا الحرمات فاعتدوا على علماء الشريعة ورجال الدين وأقفلوا ديار الصناع والوطنيين بعد ما طردوا سكانها وبددوا أمتعتهـا وهجموا على المدارس القرآنية

فشردوا تلاميـذها ونفوا أساتذتها وأهانوا الكتب والالواح والدفاتر ثم أقفلوها، وصادروا الصحافة الوطنية وفرضوا العقوبات والغرامات على من يقرأهـا .

وبما أن المسؤولين من الولاة سمحوا بتنظيم حج تبشيرى لكنيسة سانت تيريز بصفتها قديسة البعثات التبشيرية بالخميسات، وبمنـع الطلبة بآيت أوربيل من قبيلة زمور من عقد موسمهم القرآنى السنـوى الا بشرط عدم قراءة القرآن وعـدم الدعاء لجلالة مولانا السلطـان، كما سمحوا من قبل بمنع الاحتفال بالمولد النبوى بمراكش مما يدل على ان روح السياسة البربرية ما تزال مسيطرة على ادارة الحماية .

ونظرا لخنق الصحافة المغربية بالحجز والتعطيل والمراقبة .

ونظرا لرفض الطلبات الموجهة للحكومة فى شأن تأسيس جمعيات مختلفة .

ونظـرا للاتهامـات التى توجهها الصحف الاستعمارية المأجورة لحركتنا وتصويرها بصورة مخالفة للواقع .

وبعد ان استمع المؤتمرون لبيانـات الحزب الوطنى بكل ما تقدم ، ودرسوا الموقف من جميع وجوهه قرروا ما يأتى :

١ ـ يستنكـر المؤتمرون باسم الشعب المغربى جميع انواع الاضطهادات المفجعة بمكناس ومراكش وبنى يازغة والبوادى المغربية، ويحتجون على تلك الاعمال الهمجية التى تمثل روح العصور المظلمة ، ويطالبون باطلاق سراح جميع المعتقلين واعطاء تعويضات عاجلة لسائر المنكوبين وعائلاتهم عما غصب منهم .

٢ ـ يحتج المؤتمرون بصفـة خاصـة علـى مقاومـة الصحافة المغربية ويقررون محاربة كل التدابير والمحاولات المراد منها تعطيـل الصحف او حجزها او وضع مراقبة عليها ويطالبون للصحافة المغربية بالحقوق التى تتمتع بها الصحافة الاجنبية بالمغرب .

٣ ـ يستنكـرون اصرار الاقامـة على رفض السماح للمغاربة بتأسيس الجمعيات كيفما كانت غايتها .

٤ ـ يعتبر المؤتمرون مسؤولية هذه السياسة ملقاة على الروح الرجعية التى تسيطر على دوائر الحماية والتى سبق لها ان اثارت سخط المغرب والعالم الاسلامى فى القضية المغربية .

٥ ـ يلتـزم المؤتمرون بمقاومة هـذه التصرفات الجائرة بكل الطرق المجدية المشروعة، ويكلون اختيار الوسائل والظروف للمسؤولين فى الحزب الوطنى .

٦ ـ يستنكرون كل التهم الباطلـة والافتراءات المصطنعة التى تلصقها الدوائر الرجعية والصحـف الاستعمارية بحركتنا، ويعلنون ان حركتهم ليسـت لها صلة بأى عامل خارجى، ولا تعتبر أبدا مسؤولة الا عما يصدر من طرف المسؤولين فى الحزب الوطنى .

٧ ـ يقررون أن كل تفاهم مع الحكومة لا يمكن الا بعد العدول عن خنق الحريات والاضطهادات وبعد تنفيذ مطالب المغرب المستعجلة ويعتبرون ان فى رعاية جلالة مولانا المنصور بالله لشعبه الكريم وفـى عطف الاحرار من رجـال الديموقراطية الفرنسية ما يسهل الوصول لذلك

٨ ـ يعاهد المؤتمرون الله على تنفيذ محتويات هذا الميثاق ، ويعلنون استعدادهم لتقديم التضحية اللازمة لذلك .

* * *

واذن فقد قرر المؤتمـر العمل المباشر لمقاومة سياسة الجنرال نوجيس والدفـاع عن الحريات المغربيـة، وقد كلفت اللجنة التنفيذية الاستاذ محمد اليزيدى بتبليغ نص الميثاق للاقامة العامة، فسلمه بالفعل لرئيس الديوان المدنى مسيو جايا الذى اظهر قلقه لمجرد قراءته ، وبعد ساعتين من استلامه للميثاق سافر الى باريس مبعوثا من طـرف المقيم العام، كما كان قد سافر مـن قبل الباشا الجلاوى للاشتراك مع الاقامة العامة لاقناع السلطات الفرنسية بخطورة الحركة الوطنية .

وهكذا استطاعت الرجعية الاقطاعية ان تتحد مع الاستعمار لمقاومة حركة التجديد والتحرير الوطنى، وفى يوم العشرين من اكتوبر اتصل بى فى فاس الكومندان كوجى باسم الاقامة العامة وحاكم الناحية الفاسية للبحث عن حل أخير للمشكلة، او بعبارة صحيحة للتهديد بقرب الفاجعة ، ولكننى رفضت أن اجتمع به الا فى مكتبـه، فقبل ذلك واجتمعنا فعـلا بمحضر أحد أعوان الادارة عبد الجليل الوزانى الذى كان يظن كوجـى أن حضوره سيكـون شاهدا عدلا علـى أن الحماية قد بذلت كل جهودها لارضائنا قبل أن تأخذ قرارها النهائى للابعـاد، غير أننى لم أكن فـى جو يسمح لى بقبول أدنى ملاطفة أو تصنع، ولذلك فان حديثى معه كان كله حديث الصرامة والغضب والاتهامات للاقامة العامة وللحماية والاستنكار لاعمالهما ضد الدين وضد الوطن والانسانية .

وفى يوم ٢٥ أكتوبر أصدر المقيم العام قرارا بالقاء القبض على وعلى الاساتذة محمد اليزيدى وعمر عبد الجليل واحمد مكوار .

وقد التقينا فى مدينة (ميدلت) حيث بتنا جميعا، ثم نقلنا فى البصاح لقصر السوق ووضعنا فى خلايا مقفلة بالحصن العسكرى تحت حراسة الجنود الفرنسيين .

وفى يوم ٣ نوفمبر نقلت فى طيارة خاصة من (قصر السوق) الى الصحراء، ومنها الى الجابون فى افريقيا الاستوائية على ما سأبينه بعد، ونقل اخوانى الآخرون الى مراكز مختلفة فى الصحراء المغربية .

الثورة الوطنيـة

وقد كان لهذا العمل الظالم رد فعل قوى فى نفوس المغاربة جميعا، فما علم الناس بخبر اعتقالنـا حتى قامت مظاهـرات كبيرة فى سائـر المدن والقـرى المغربية من مراكش الى وجـدة، وكان المتظاهرون يعربون بكل ما يستطيعون من قوة وحماس عن تضامنهم مع قادة الحزب المعتقلين، ويطالبون بالحقوق التى اعتقلوا من أجلها، وقد اعتقلت السلطة فى كـل الجهات مئات المتظاهريـن، ووقع اصطدام عنيـف فى (القنيطرة) يـوم ٢٧ أكتوبر أثناء التظاهـر بين الوطنيين والبوليس أدى الى مـوت ١٤ شخصا وجرح عشرات من المغاربة، وقد اعتقل اثر ذلك رئيس مكتب الفرع بالقنيطرة صديقنـا السيد محمد الديـورى وحكم عليه بالسجـن سنتين، ووقـع بعد ذلك اضـراب عنيف وتظاهـر مستمر، كمـا وقع نسف لم يعرف أصحابه لمستودع السلاح بالمدينة قدر بخسائر فادحة.

وفى فاس عاصمة المغـرب الفكرية ومقر المركـز العام للحـزب الوطنى كان التظاهـر على أشد ما يتصـور، فصدرت أوامر القيـادة العليا العسكرية للجنرال بلان حاكم الناحيـة باحتلال المدينة والدفـاع عنها، فكان التصادم قويا بين الجيـش والمتظاهرين استمر أياما كـان يعلن فيها الجنرال بلان ببلاغات عسكرية مراحل احتلاله لمراكز التجمع الوطنى بفاس، وبعد صراع شديد وسقوط عدة موتى وجرحى توصـل الجنرال لاحتـلال مقر المركز العام للحزب بجى النواعريين، ولا يزال محتلا بعسكر (الكوم) الى الآن اى بعد عشر سنين من هذه الواقعـة.

وبعـد محاصـرة المدينة واحتلال الجند لسائر احيائها لم يبق للمتظاهرين مركز الا جامع القرويين الذى اخذوا يحتشدون به بالآلاف للتظاهر واعلان التضامن مع الزعماء، فصدر أمر من الحكومة باقفال جميع المساجد فى المغرب ولكن الوطنيين استطاعوا ان يستمروا فى التجمع بجامع القرويين مستعملين جميع الوسائل للوصول اليه، وتدخل الجيش وأخرجهم من الجامع بطريق القوة الى الشارع، حيث كان عسكر (الكوم) ينتظرونهـم، ووقعـت معـارك دامية اعتقـل فيها ١١٥٠ وطنيا سيقوا

للسجن كلهم، كما اعتقل الاستاذان عبد العزيز ابن ادريس والهاشمى الفيلالى وغيرهما من رجال الحركة البارزين .

وفى مساء ٢٩ اكتوبر استدعت الادارة الاستاذ محمد حسن الوزانى لتعرف موقفه مما جرى، فأعلن تضامنه مع الحزب الوطنى وسيق هو للسجن ايضا، وفى الوقت نفسه وقع اعتقال الاستاذ الحاج الحسن ابى عياد عضو المجلس الوطنى بحزبنا والاستاذ ابراهيم الكتانى ، واستمرت المظاهرات بمختلف جهات المغرب عدة اسابيع كانت الادارة فيها مثال الشدة فى القمع والوحشية فى الزجر، وأعقب المظاهرات عمل ارهابى لم يعرف أصحابه كان من مظاهره مهاجمة ادارات بعض الصحف الاجنبية ومستودع البترول بمكناس، وغير ذلك من علامات الهياج الشعبى غير المحدود .

ولقد عومل المعتقلون الذين سيقوا لمختلف السجون العسكرية والمدنية بمعاملة المجرمين العاديين، ونقل قسم كبير من مثقفيهم وقادتهم الى (بوذنيب) وغيرها من مراكز الصحراء النائية حيث كلفوا بأشغال شاقة قضت على صحتهم وأفقدت الكثيرين منهم حياتهم، ونحن لا نريد أن نسجل هنا ما عاناه اخواننا رجال الحركة المغربية فى هذه المرحلة من أجل التضامن معنا؛ فان ذلك ليس من متناول هذا الكتاب، وقد خصص بعض أصدقائنا من المعتقلين فى هذه الموقعة كتابا خاصا حكى فيه بالتفصيل فى اكثر من مائة وخمسين صحيفة كل ما عومل به الوطنيون فى اكتوبر عام ١٩٣٧ .

وقد ظن الجنرال نوجيس أنه انتقم من الوطنية المغربية وقضى عليها، فزار مدينة فاس والدم يجرى بها، والشعب فى مظاهراته، حيث أعلن للصحفيين يوم ٣١ أكوبر أنه : «لن يغض الطرف أبدا عن أعمال الوطنيين» ، وقال : « انى اعلم جيدا الآن ان لى تأييد جميع الاحزاب الفرنسية التى ادركت مقدار الخطر ، والتى رأت شيئا فشيئا أن برنامج الثورة قاد فى شهر واحد باسم (الحزب الوطنى) الى اثارة البلاد كلها من اقصاها الى اقصاها ، ولكى نقضى على خطط الوطنيين كان واجبا أن نستعمل ـ متى لزم ـ قوة جيشنا ، ان هذه قضية سلامة عامة، اذن فقد قمنا بواجبنا واستعملنا القوة وسنستمر فى استعمالها» .

وهكذا شهد الجنرال فى تصريحيه بقوة الثورة الوطنية وشمولها تحت قيادة الحزب الوطنى الذى عرف كيف يجند الشعب كله فى صعيد واحد للدفاع عن حقوق الامة وحريات أفرادها .

تضامن المنطقة الخليفية :

ولم تكن حركة التضامن قاصرة على منطقة النفوذ الفرنسى فقط ، بل تجاوزتها الى المنطقة الدولية والاسبانية، فمنذ يوم ٢٩ أكتوبر قامت فى تطوان مظاهرات عظيمة تهتف بالحرية وحياة وحدة المغرب فى ظل العرش وحياة الزعماء المعتقلين، وقد لبى الجمهور دعوة الاستاذ عبد الخالق الطريس ونداء الاستاذ المكى الناصرى للاحتشاد فى المساجد واقفال الاسواق، وخطب كل من الاستاذين خطبا عديدة ألهبت حماسة الكثيرين المحتشدين .

وفى مدينة العرائش اجتمع آلاف من القادمين من سائر قبائل المنقطة الخليفية فى شكل مؤتمر خطب فيه الاستاذ المكى الناصرى ووجهوا رسائل الاحتجاج للرئيس شوتان وسارو وللمسيو ديلبوس وزير الخارجية الفرنسية وللجنرال نوجيس معلنين لهم عزم القبائل المغربية على الدفاع عن الحركة المغربية بكل الوسائل ومع كل التضحيات، والعمل على تحقيق برنامجها المقدس كما وجه المؤتمرون برقية اخلاص وولاء لجلالة السلطان .

وقد استمرت صحافة المنطقة الخليفية فى حملاتها على أعمال السلطة الفرنسية ونشر تفاصيل الحركة الوطنية وتضحياتها والمطالبة بتسريح زعمائها وأنصارها .

وقد قامت الجزائر وتونس باعلان تضامنهما مع الشعب المغربى فى الدفاع عن حريته وحقوقه المغصوبة برغم أن العسف قد امتد للجزائر نفسها، وقرر مؤتمر الحزب الدستورى المنعقد بقصر هلال التضامن المطلق مع الوطنيين المغاربة، فأعلنت تونس اضرابا عاما لمدة ثلاثة أيام ووجهت احتجاجات شديدة للدوائر المختصة.

أما فى المشرق العربى وفى سائر العالم الاسلامى فقد تناولت الصحف والهيئات الحوادث بكل تفصيل، وعلقت عليها تعاليق التضامن والاعجاب، ووجهت سائر الهيئات والاحزاب باحتجاجاتها واستنكارتها للدوائر الفرنسية .

وكان للثورة المغربية صداها الكبير فى الصحف الاجنبية ومراكز الاذاعة الامر الذى أدى الى حرب أعصاب كبيرة بين اذاعات فرنسا وبين اذاعات ايطاليا وألمانيا والبلدان العربية التى لم تتأخر عن التشنيع بفظائع الفرنسيين وسوء أعمالهم.

وقد قام الامين العام للحزب الحاج أحمد بلافريج فى فرنسا وسويسرا بالدعاية اللازمة برغم اجماع الاحزاب الفرنسية على التضامن مع الجنرال نوجيس، وقد أدى نشاطه الى مطالبة الاقامة العامة للحكومة الفرنسية بتسليمه لها، ولكنها لم تقبل طلبها. فظل سكرتير الحزب الوطنى يعمل حتى أصيب بمرض عضال كان يودى به لولا عملية طبية ناجحة .

ومن الحق أن أسجل هنا احتجاج الاستاذ ماسينيون وجماعة من رفقائه أساتذة السوربون وكوليج دى فرانس على قرار ابعادى من المغرب لافريقيا الاستوائية برغم الجو السياسى الفرنسى الذى كان ضدا علينا وعلى حركتنا .

استمرار الحركة :

وبالرغم من القمع الشديد الذى أصيبت به حركتنا، وبالرغم عن اقفال الادارة الرسمى للحزب الوطنى واحتلال مركزه العام بقواتها المسلحة فقد استمرت خلايا الحزب تعمل عملها فى أناة وهدوء، ولكن فى استمرار وتقدم، واصبح الوطنيون يعرفون باسم (الحزبيين) فى سائر الاوساط المغربية ، وعادوا المالكين للموقف كله منذ سنة ١٩٣٨ ومنذ أطلق سراح الاخ اليزيدى وهو يسير الحركة الحزبية أو الحزب الوطنى بلباقة ودهاء كبيرين، وقد جدد أعماله الجليلة وحركاته القوية.

واستمرت بفاس أعمال الدعاية والتنظيم دون ان تنقطع فى زمن ما، وكان لكثير من شباب الحزب يد بيضاء فى المحافظة على روح الحركة واتجاهها، نذكر منهم السيد محمد السعدانى الذى استطاع أن يحصل على محبة سائر اخوانه ويجمعهم من حوله .

ولم تكن الاقامة الفرنسية بالتى تغفل عما يجرى، فقد كانت تعتقل بين الآونة والاخرى عديدين من رجال العمل النشيطين، وسجلت سنة ١٩٣٩ عدة حوادث مهمة واجتماعات عامة للاحتجاج على تصرفات الاقامة العامة، كما سجلت مقاومات عنيفة لبعض الموظفين المغاربة المتعاونين مع الفرنسيين .

وحاول الجنرال نوجيس أن يتخذ سياسة اتصال ببعض الوطنيين مجاملة لهم، فكان يمد يده لجمعيات قدماء التلاميذ الذين كان يرى فيهم معتدلين محايدين وقد قبل هؤلاء الاتصال به وقدموا له عدة مذكرات

تتعلق باصلاح التعليم والعدلية وغيرهما من المسائل الضرورية، ولكنهم سرعان ما اقتنعوا بأن الحماية لا تريد اصلاحا فارتبكت علاقتهم معه .

على أن الحركة الوطنية لم تكن فى مواقفها بالتى تبعد عن الحكمة أو تغفل الفرصة المواتية؛ فما قدمت ايطاليا الفاشية مطالبها المتعلقة باستغلال الفوسفات المغربى وعرضت قضيتها على محكمة لاهاى الدولية حتى تحرك الوطنيون يعلنون عدم قبولهم استيلاء ايطاليا ولا فرنسا ولا غيرهما التراث المغربى، وأن سياسة التأميم للمرافق الحيوية للبلاد ستظل هى الخطة الوطنية كما قررها الحزب وناضل عنها.

وموازاة للحركة السياسية فقد كان لجماعات المحافظة على القرآن الكريم دور كبير فى تثبيت دعائم الحركة أيام غيبة الزعماء ، واذا كنا نعلم أن هذه الجماعات ظلت الهيئات الوحيدة العلنية فى البلاد استطعنا أن نفهم المدى الذى تطورت اليه فى مواصلتها للدعوة الروحية والاجتماعية، وفى ما أمكنها من عقد اجتماعات يحضرها سائر أنصار الحزب، ويتناولون فيها ما يشاءون من قضايا ، على أن رجال الحزب لم يغفلوا اقامة سائر الاحتفالات والذكريات التى أسسها الحزب الوطنى، وهكذا ظلت الحركة مستمرة برغم الحديد والنار، وظلت التضحية من أجل القضية مستمرة كذلك، والبيانات توزع والخطب تلقى والاحتجاجات ترفع والمظاهرات تعقد والتشهير بأعمال المستعمرين فى الداخل والخارج لا ينتهى .

وكون الطلبة الموجودون فى فرنسا (هيئة الدفاع عن المغرب الاقصى) وكلوا يعملون بدورهم فى سبيل مبادىء الحزب وأفكاره، ولم يتركوا مؤتمرا الا اعلنوا فيه صوت المغرب عاليا، ولا اجتماعا الا نددوا فيه بفظائع المستعمر وطالبوا بعودة الزعماء .

وفى مصر قامت بعثة الطلبة التى وجهها الحزب الوطنى بعمل جليل تحمد عليه؛ فقد بعثت دعوة البلاد فى المشرق بعد أن عفى عليها النسيان وأذاعت الصحف والاندية كل ما وصلها من أنباء الحركة فى الداخل والخارج ، وكانت تتردد على الاندية للخطابة بها والقاء المحاضرات شارحة للرأى العام العربى ما تعانيه مراكش من ضغط وارهاق، وما يعانيه زعماؤها من تشريد واعنات، وسنرى كيف استطاعت أن تتطور بمجهودها الى المرحلة التى وصلت اليها حركة المغرب العربى فى مصر وغيرها من بلاد المشرق العربى.

فى المنطقة الخليفية :

وفى سنة ١٩٣٨ فكر حزب الاصلاح الوطنى بالمنطقة الخليفية فى ضرورة وضع برنامج للاصلاح الوطنى للمنطقة على غرار برنامجنا الذى وضعناه سنة ١٩٣٣ وقد اجتمعت هيئته العليا ودرست الموضوع وقررت أن تتخذ من نفس مطالب الشعب المغربى برنامجا لحزب الاصلاح مع ادخال بعض التعديلات الخفيفة التى تناسب ظروف المنطقة وما نجز بها، وقد جاء فى المقدمة التى وضعها حزب الاصلاح لبرنامجه ما يأتى: «وقد شعر المغاربة بوجودهم المستقل ووجوب الاحتفاظ بهذا الوجود ، وأن أبرز مشخصات بلادنا: الأسلام والعروبة والمغربية ، ولهذا نريد أن نسجل فى هذه المقدمة أننا مغاربة مسلمون ديننا الاسلام ولغتنا الرسمية اللغة العربية وقوميتنا قومية عربية مسلمة تعمل للتعاون مع الدول المسلمة، وأن المغرب بسائر مناطقه وحدة لا تتجزأ، وأن مبدأنا فى حكم البلاد حكم ملكى اسلامى على اساس الشورى ونظم الشريعة الاسلاميتين، وعلى ضوء النظم الحديثة التى برهن تطبيقها على صلاحيتها للمجتمع البشرى، وأننا لا ننسى الخدمة الجليلة التى قدمتها العائلة العلوية الشريفة بالمغرب، لذلك نحن متشبثون بالعرش العلوى الشريف» .

«ونحن بصفتنا (الكتلة الوطنية) فى شمال المغرب أولا و (حزب الاصلاح الوطنى) أخيرا كثيرا ما دافعنا عن وحدة المغرب، وكثيرا ما رغبنا أن يكون عملنا مشتركا موحدا لرفع شأنه، وقد اطلعنا على (مطالب الشعب المغربى) قبل تقديمها بالصفة الرسمية لجلالة السلطان وللحكومة الفرنسية، فأيدناها ودافعنا عنها فى كثير من الاحيان على صفحات لسان حالنا اذ ذاك «الحياة» الغراء لان (مطالب الشعب المغربي) فى جنوبه هى فى الحقيقة حاجيات شمال المغرب» .

«نعم وقد وقع بعض التعديل فى المطالب التى نقدمها عن (مطالب الشعب المغربى)، ولكن هذا التعديل تفرضه الحالة فى هذه المنطقة وتشريعاتها الجديدة المختلفة احيانا مع تشريعات المنطقة السلطانية».

وقد رفعت هذه المطالب لسمو الخليفة السلطانى ،كما قدمت لممثلى الحماية الاسبانية ، وطبعتها المطبعة المهدية فى كراسة خاصة أخذ حزب الاصلاح ينشرها ويدعو الشعب للتجمع من حولها .

وبينما كان الوطنيون يهيئون مطالبهم كانت الجالية الأسبانية تدبر مؤامراتها ضداً على سمو الخليفة الذى كان قد ظهر بمظهر الوطنية

الصحيح ، واستطاع أن يحصل على بعض الحقوق التى أشرنا اليها من قبل ، فأخذت الجالية الاسبانية تطالب بسلب الخليفة سائر نفوذه والرجوع الى سياسة القمع التى كانت متبعة قبل بيك بيدير، وقد استمعت حكومة فرانكو شكاوى الجالية الاسبانية، وعزلت بيك بيدير سنة ١٩٣٨ من منصبه ، وعينت مكانه الجنرال اسنسيو فتقدمت اليه الجالية بمطالبها فقبلها ، ولكنه اشترط التنفيذ التدريجى لها ، وفعلا سنت عدة قوانين استثنائية ، وأخذت الاقامة تضيق على حكومة الخليفة وتقاوم الحركة الوطنية .

* * *

وقبل أن ننتهى من هذا الفصل يجب ان نلاحظ ان المغرب بقى منذ بدء الحركة الوطنية حتى اعلان الحرب تحت نظام الاثارة والتهييج من خنق للحريات واعتقال ادارى وابعاد، كل ذلك لارضاء طائفة من الحكام الذين لايخضعون لاية مراقبة .

ولم تحقق الحماية اى مطلب من المطالب الاكثر استعجالا التى قدمتها الحركة الوطنية سنة ١٩٣٦ بعد برنامج الاصلاحات، وقد تضافر على هذا الموقف وزراء اليمين مع وزراء أقصى اليسار فى الجمهورية الثالثة، وطبيعى أن يؤدى ذلك الى اقناع الوطنيين المغاربة بأنه من العبث البحث عن طريق للتعاون مع نظام رفض أن يمد اليهم اليد، وتجاهل تصرف الادارة التى لم تعتبر حتى مقتضيات عقد سنة ١٩١٢ .

فى الحرب العالمية الثانية

ومع كل ما كابدته الوطنية المغربية، ومع كل ما واصلت الاقامة العامة فعله من ظلم وارهاق فان الحزب الوطنى أبى الا أن يعرب مرة أخرى عن حسن نواياه فارسل وفدا للمقيم العام يعلن له تضامن الوطنيين المغاربة مع جلالة السلطان فى رغبته فى عدم وقوع أى شىء يمس بمصلحة النصر فى الحرب القائمة، ويذكر المقيم العام بضرورة اتخاذ سياسة رشيدة لمصلحة النصر نفسه .

والحق أن موقف جلالة الملك كان له الاثر الفعال فى توجيه السياسة الوطنية فى وقت الحرب، وقد أظهر جلالته رغبته الاكيدة فى أن يظهر المغرب فى مظهر الحليف الوفى، ولم يرد جلالته أن يكون الجيش المغربى مجرد جيش مقاتل فى صف الخصوم، بل أحب أن يعتبر المغرب كدولة مقاتلة من أجل مقاومة العنصرية واضطهاد الشعوب حتى يتسنى له أن يطالب باسم هذا المبدأ فيما بعد الحرب، وقد ظهرت شخصية جلالة ملك المغرب عظيمة فى مواقفها المتحمسة ، ولم تدع فرصة تمر الا انتهزتها للدفاع عن المبادىء المغربية ومطالبها، وقد كان ذلك فى أول الحرب، كما كان فى وقت الهدنة الفيشية وبعد نزول الحلفاء بالمياه المغربية لم تؤثر فيه عوامل النصر أو الهزيمة ولا مؤثرات الاختلاف فى النظم أو الحكومات، ولقد صرح جلالته غير ما مرة بأن المغرب مستعد للحرب اذا فكرت ألمانيا أو ايطاليا فى احتلاله، كما قاوم النزعات العنصرية التى حاول الجنرال نوجيس تطبيقها على اليهود المغاربة فى اجلاء المقيمين منهم فى الاحياء الاوربية عنها، ولما طلب منه المقيم العام الخروج من الرباط بعد هجوم الحلفاء رفض اجابة الطلب، وقال انه قدوة للمغاربة جميعا، ولذلك لا يمكنه أن يخرج من عاصمة ملكه ولو كان ما كان، وظل بقصره العامر والقنابل تتجاوب أصداؤها فى أنحاء العاصمة كلها .

ولقد حاول الالمان أن يجدوا فى رجال (الحزب الوطنى) مساعدا لهم على عملهم فلم يظفروا بأحد، ووالوا الدعاية المباشرة بقرب عهد

الظفر الالمانى الذى يفسح المجال لنيل المغرب نظاما اكثر حرية وعدلا، فلم يغر الوطنيين ذلك، ولا أثر فى نفوسهم، وقد استطاع الوطنيون ان يكتشفوا نوايا الالمان ويعرفوا حقيقة مراميهم، واستطاع أنصار الحزب بباريس وغيرهما من المدن الاوربية ان يتعرفوا بالحقيقة على وجهها، ويطلعوا الزعماء عليها ، وهى أن المانيا لا تريد الا تشييد أمبراطورية مبنية على التفوق الجنسى الآرى، وذهب الامين العام للحزب الوطنى الاستاذ احمد بلافريج بنفسه يتحسس الاتجاهات المحورية، فلم تغره مواقف بعض الزعماء العرب ولا بعض دعايات الاجانب وكتب لاخوانه يحذرهم من اكاذيب المحور ورجاله، وهكذا استطاع (الحزب الوطنى) أن يشق لنفسه الطريق فى وسط الدعايات المختلفة، ويقف موقف المؤيد لمبادىء الديموقراطية فى الوقت الذى يدافع عن المغرب وعن حريته، ويتحفز ليخطو بالحركة خطوتها العظيمة التى سنتحدث عنها .

ومنذ سنة ١٩٤٠ اخذ تيار عام يجرى فى اواسط الحزبيين كما يسمونهم، يذكرهم بما قامت به فرنسا من فظائع، وكيف أنها لم تتأثر بالظروف ولا اتعظت بالاحداث ولا راعت الدماء المغربية التى تسيل فى صفوفها، واتجهت الانظار الى ضرورة الخروج من نظام الحماية والبحث عن وسائل التحرر والانعتاق .

ولم تكن سياسة الحرب التى اتبعها الجنرال نوجيس الا سياسة القمع واعلان الاحكام العرفية واتهام الابرياء والتخوف من الشخصية التى ظهر بها جلالة الملك، واللباقة التى برز بها مسيرو الحزب الوطنى.

واذا اضفنا لهذا الضعف المعنوى الذى استبان للكل من صنع الجنرال نوجيس وفقدانه لكل قدرة على المقاومة برغم المركز الذى كان يشغله فهمنا مقدار الاحتقار الذى وجده المغاربة عموما لنظام يترأسه أمثال نوجيس الذى يتحكم فى مصير المغرب الشجاع ورجاله الاوفياء .

واذا كانت الاقامة العامة قد بررت قمعها لرجال (الحزب الوطنى) بادعاء تطرفهم فى مطالبهم، وفى وسائل العمل لتحقيقها فان موقفها من جمعيات قدماء التلاميذ التى تضم النخبة المتخرجة من المعاهد الفرنسية والتى ظن فى وقت ما انها حصلت على نوع من ثقة الجنرال نوجيس لانها تعمل تحت نظر مستشارين فنيين فرنسيين تعينهم الحماية طبقا لاوامرها المفروضة فى تأسيس الجمعيات ـ قد كشف عن وجه الحماية ونوايا رجالها؛ فان هذه الجمعيات المؤسسة طبقا لانظمة الحماية نفسها

لم تستطع أن تقتلع من الاقامة العامة ولا حتى اليسير من مطالبها التى لم تعد شئونا عامة ومستعجلة، والتقارير التى رفعتها للاقامة فيما يخص تنظيم المحاكم المغربية او التعليم مثلا لم تحظ قط بأى اعتبار من طرف المسؤولين فى الحماية، وقد أدى ذلك الى أن رفض القدماء الحضور فيما يسمونه (مجلس شورى الحكومة) لانهم أبوا أن يكونوا مجرد تماثيل لا تعمل ولا يقبل لها كلام حتى فى أمس المسائل بالحياة الحاضرة فى ظروف الحرب كالمون والمسكن وغير ذلك من الضروريات.

وقد استمرت الحماية فى خطتها حتى بعد نزول الحلفاء بشمال افريقيا ، ولم تفكر حتى فى مداجاة مئات الآلاف من الاوربيين والامريكيين الذين شاهدوا حالة المغرب وسجلوا ما يلاقيه أبناؤه من عسف واضطهاد، بل اتخذت من وجود هؤلاء الاجانب سببا للاضطهاد مرة أخرى لتثبت أنها لا تخاف أحدا وأن فى استطاعتها أن تستمر فى قمعها برغم كل الاعتبارات حتى تقتل فى نفوس الأهالى كل أمل فى عون الديموقراطية ورجالها .

واذن لا غرابة اذا رأينا الشعب المغربى يتجه الاتجاه الصحيح ، واذا رأينا (الحزب الوطنى) يعلن الرغبة فى الخروج من سياسة المراحل الى سياسة العمل من اجل الاستقلال العاجل الناجز .

الهدنة الفيشية :

لم يتغير موقف الاقامة العامة فى داخل المغرب بعد احتلال الالمان لعاصمة فرنسا واستيلاء الماريشال بيتان على الحكم، وكل ما هنالك ان لجنة الهدنة زارت البلاد فلم تجد فى الاوساط الوطنية أدنى صدى لدعايتها، وظهرت شخصية جلالة الملك فى الدفاع عن المغاربة على وفق ما سبق أن بيناه، لكن فكرة الاستعداد للقيام بحركة جديدة أخذت تعمل عملها فى اوساط الوطنيين الذين كانوا ينتظرون الفرصة لاعلان صوتهم عاليا .

وفى هذه السنة (١٩٤٠) احتلت اسبانيا منطقة طنجة الدولية ، وقام الحزب الفاشى الاسبانى بمظاهرات فى جميع انحاء اسبانيا للمطالبة بالاستيلاء عسكريا على منطقة الحماية الفرنسية، وقد اخذ فرانكو يستجيب لرغبة الأسبانيين فسمح للالمان بالتدريب فى المنطقة الخليفية واحتلال بعض الموانىء المغربية، وكان الشعور الوطنى فى طنجة وبقية المغرب ضدا على العمل الاسبانى، وقد تأثر الوطنيون

المغاربة لطـرد منـدوب جلالة ملـك مراكش واحتلال السفارة الالمانية لقصر المندوبية بطنجة، فانتعشت فى النفوس روح الوعى القومى الذى يرغـب فى الاستقـلال عن كل من فرنسا واسبانيا حتى لا تبقى البلاد عرضة لتهافتهما علي السلطة وتنافسهما فى اشعال الحروب .

ولما نزل الحلفاء فى المغرب يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٤٣ اطمأنـت النفوس من جانب التوسع الاسبانى والاحتلال الالمانى، فأخذ الوطنيون يتحركون بكيفية أقوى برغم عناد الفرنسيين وسوء معاملتهم ، وقد جدد الحزب الوطنى تنظيم فروعه، فانضم اليه كثير من الموظفين الذين ظلوا محايدين الى اليوم، وأصدر الحزب مجلة «رسالة المغرب» التى سمحت لاقلام الادبـاء الوطنيين بأن تنبعث وسعى فى جمع الامة كلها من حول الاتجاه الذى سيظهر بينا بعد سنة واخرى.

وفـد الحزب الوطنى فى المشـرق :

فى سنـة ١٩٣٧ توجهـت بعثـة من الطلبة الى مصر تتكون من الأساتذة عبد الكريم ابن ثابت وعبد المجيد ابن جلون واحمد ابن المليح وعبد الكريم غلاب والعربـى بنانى لاتمام دراستهم، ولما تخرج افرادها من كلية الآداب كونوا منهم وفدا يعمل لصالح القضية المغربية ونشر دعايتها، وكان لافرادها جولات للقيام بالواجب فى الظروف الصعبة التى أعقبت ثورة سنة ١٩٣٧ المغربية.

وفى سنـة ١٩٤٣ رأى أعضـاء الوفد أن الخير فى ضم العناصر المغربية الموجودة بمصر اليهم ليتسنى لهم العمل فى جو مغربى بعيد عن كل اختلاف، فأسسوا هيئة استقر رأيهم اخيرا على ان يعطوها هذا الاسم (رابطة الدفاع عن مراكش فى مصر).

وقد وفق الاخوان فى اقناع ممثلى الهيئات المغربية بمصر للانضمام اليهم وقبول البرنامج الذى وضعوه وهو :

١ – المطالبة باستقلال مراكش تحت رعاية جلالة الملك المفدى.

٢ – ضمان وحدة الاراضى المراكشية وعدم اقتطاع اى جزء منها.

٣ – الانضمام لجامعة الدول العربية .

٤ – التعريف بقضية مراكش الوطنية وعرضها على الرأى العام العربى ولدى الحكومات العربية ودوائر الحلفاء .

٥ – الدفاع عـن رجال الحركة الوطنية فى مراكش والمطالبة بارجاع المبعدين منهم واطلاق سراح المعتقلين فورا.

وهكذا وفق وفد الحزب الوطنى لنفس الغاية التى اقترحها الحزب فى الداخل برغم الحواجز التى وضعتها الحرب بين الجانبين.

وقد قامت الرابطة منذ تأسيسها فى اواخر سنة ١٩٤٣ بأعمال جليلة، فاتخذت مراكز خاصة للدعاية الوطنية وتوزيع نشرات دورية واصدار كراسات عن المسألة المغربية والاتصال بمختلف الهيئات والحكومات العربية ووفودها .

وقد انتهزت فرصة المشاورات التى وقعت فى القاهرة فى قضية الوحدة العربية بين وفود الدول العربية وبين حكومة مصر فاتصلت برفعة النحاس باشا وبرؤساء الوفود وقدمت لهم المذكرات والبيانات التى تشرح لهم فيها أمانى مراكش فى الحرية والاستقلال وقد استطاعت أن تحصل على عطف واضح من الدول العربية التى بدأت تهتم شيئا فشيئا بشؤون البلاد المغربية وتتنافس فى خدمتها .

وقد وصل للقاهرة عديد من اللاجئين من الدستور التونسى وحزب الشعب الجزائرى وجمعية علماء المسلمين بالجزائر، وأخذ كل يعمل لوطنه ويبذل الجهود لتحقيق أهدافه . ولتوحيد هذه الجهود والاستفادة من جميعها قبل الاخوان الانضمام لجبهة شمال افريقيا التى أسست فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ برئاسة الشيخ محمد الخضر بن الحسين أحد العلماء الزيتونيين اللاجئين لمصر منذ الحرب الكبرى الاولى ، وتقوى جمعهم بوصول الاستاذ الحبيب ابو رقيبة، وقد استمر العمل المتحد ضمن الجبهة حتى انعقد مؤتمر المغرب العربى على ما سنبينه.

وحينما وقعت حوادث (الاستقلال) بالمغرب الاقصى تهيأ لاخواننا أن يرددوا صدى البلاد بكيفية أقوى مما كان يتسنى لهم من قبل بفضل ما كانوا قد وصلوا اليه من تنظيم تضامنهم وتوحيد الصفوف المغربية كلها .

وقد كانت رسل الحزب الوطنى ثم حزب الاستقلال تتوالى عليهم منذ أمكن وصول الحجاج المغاربة للمشرق، فقوى ذلك عزمهم، وأعاد تنسيق عملهم مع رجال الحركة فى الداخل، وان كان الانفصال الذى أرغم عليه الجميع بسبب ظروف الحرب أثبت الانسجام الكامل بين أعضاء الحزب الوطنى فى الداخل والخارج حتى فى ادق معانيه التى تتطور فى مواجهة المسائل وتوجيه الأعمال .

مجهودات المنفى

ولم يكن هذا التطور الذى طرأ على اخواننا فى المغرب الا نفس ما أدركته فى مواجهة الحقيقة وأنا فى منفاى القصى بالغابون ثم بالكونغو من أفريقيا الاستوائية الفرنسية، فبالرغم من النظام الضيق الذى وضعت فيه، وبالرغم من أننى ظللت مدة اعتقالى كلها فى بعد عن كل اتصال بالحياة العامة وأخبارها، وفى منع كامل من الاجتماع بالناس وقراءة الصحف والاستماع للاذاعة، بالرغم من كل ذلك فان اتصالى المعنوى بروح التطور الوطنى فى البلاد ظل قويا فعالا، ولقد فكرت فى أن الحركة المغربية بعد أن بعثت الوعى القومى فى نفوس الناس يجب ان تعمل بكل قواها للحصول على الاستقلال، وأن تصرف جهودها وتحصرها على هذا الاستقلال ، لانه وحده الذى يفسح المجال للنهوض بأمتنا وتحريرها مما وقعت فيه من فقر وجهل ومرض ، وكنت أعوذ بنفسى الى تاريخ الحماية وسياستها فأحس بأن نظامها لم يكن الا حجر عثرة فى سبيل تقدم المغرب والتطور الشعبى الذى بدأ منذ ستين عاما، ولذلك ظللت أبحث عن الوسائل التى تهيىء لى - فى ظروفى العصيبة - الفرصة التى أعلن بها رأيى، وأقفز بالحركة معها الى المدى الذى أريده لاستكمال القضية المغربية وانجاحها .

ولقد فكر الجنرال نوجيس فى كل شىء، ولكنه لم يفكر أبدا فى أن منفى الكونغو سيكون مجالا للقيام بحركة تحريرية لفائدة البلاد، ولقد بعثنى لهذا المنفى القصى وهو لا يعتقد الا انه قد دفعنى على الاقل الى أمد طويل، ولم يخطر بباله أبدا أننى سأتيح لنفسى الفرصة التى أطالب فيها بالحق، وأعمل لوطنى فى وقت اشتدت به وطأته القاسية على الوطنيين، وحالت بينهم وبين أى عمل علنى فى سبيل البلاد .

والحق أننى منذ اعتقلت حتى اعلان ثورة دى جول لم يكن بالممكن لى ان اقوم بأى عمل الا الاحتجاج على سوء المعاملة، والمطالبة بحقوق المسجون السياسى، وما يقع فى مناقشاتى العادية مع الضباط الذين كانوا على حراستى، ولكن الهدنة الفيشية وثورة الجنرال دى جول أتاحتا لى سبيلا لرفع صوت المغرب وبذل مجهود متواضع فى خدمته .

وفى شهر يولية سنة ١٩٤٠ احتلت جيوش دى جول قرية مويلا الواقعة فى جنوب الجابون وهى مقر اعتقالى منذ نوفمبر سنة ١٩٣٧ الى يونيه سنة ١٩٤١ وسارت فى طريقها لمهاجمة العاصمة الجابونية (ليبرفيل أو المدينة الحرة) ، وعينت الولاية العامة رئيسا للعمالة الكومندان روجى أحد العسكريين الفرنسيين الذين يهتمون بالسياسة الاسلامية، وقد انقطعت الصلة مع المغرب وسائر الشمال الافريقى لان ولاته ظلوا فى تضامنهم مع الماريشال بيتان، وذهب اليوتنان شوفالانجير الذى كان مكلفا بشؤونى من طرف الاقامة العامة لينضم للثوار الجوليين وبقيت تحت نظر ولاة افريقيا الاستوائية، وأفريقيا الاستوائية فى هذا العهد مركز الالتجاء الفرنسى وتنظيم المقاومة للاحتلال الالمانى ، وبرازافيل هى العاصمة التى حلت محل باريس واليها يلتجىء دى جول كلما ضاق بمعاملة الانجليز والحلفاء له فى لندن .

وكانت السياسة التى أتبعها ولاة افريقيا الاستوائية مع الاوربيين الموجودين بها هى دعوتهم للانضمام الى دى جول وامضاء رسالة تأييد له، او الاعتقال فى اماكن خاصة بأنصار فيشى، وهكذا دعانى ذات يوم الكومندان روجى وتحادث معى مليا فى الشؤون الحاضرة وبشرنى بأن الحال سيتبدل، وأن الثورة الجولية ستعمل عملها فى قلب السياسة الاستعمارية الفرنسية، وطلب منى أن أكتب للولاية العامة برأيى فى موضوعها، فتملصت من الموقف، وقلت له يمكنك أن تكتب بنفسك وتخبرهم بأنى كرئيس للحزب الوطنى لا أريد الا الوصول لما يصبو اليه الحزب من تطور وتحرير، ومضت أيام كتب فيها الكومندان روجى للولاية العامة وسافر لبرازافيل ثم عاد فقال لى كلاما يدل على أنه لم يجد فى الولاة المحليين نشاطا واستعدادا لان يكونوا على غرار ليوطى ـ حسب تعبيره ـ فى العمل لصالح فرنسا.

ثم تحادثنا مليا فى الحالة الدولية العامة، وكنت فى حديثى معه ضاربا على الوتر الذى يحسه الفرنسيون فطلب منى بصراحة أن أكتب رسالة للجنرال دى جول وقدم لى مشروع رسالة على مثال الرسائل التى يقدمونها للفرنسيين، فأجبته بأن قضية الخلاف الحادث بين فيشى ودى جول قضية فرنسية محض لا حق لى ولا لسائر المغاربة فى التدخل فيها. نعم فيما يرجع لمقاومة الالمان يمكننى أن أؤكد أنه ليس فى المغاربة أحد يريد أن يصبح محكوما لالمانيا او ايطاليا، على أنه من الوجهة المنطقية ما دامت فرنسا قد دخلت الحرب، وما دام فى استطاعتها ان تقاوم فليس

من الوفاء أن تخون حلفاءها وتلقى بهم فى أحضان الالمان، وتخيس بذممهم وهم فى أشد الحاجة اليها. وأما فيما يخص القضية المغربية فأنا كممثل للحزب الوطنى أعتبرها قضيتى، وأنا مستعد للتعاون مع الجنرال دى جول اذا كان راغبا فى أن يحقق أمانى الشعب المغربى، ولذلك فمعرفتى بسياسة الثورة الجولية فيما يخص فرنسا لا يكفينى، بل يجب ان اعرف سياسة دى جول المغربية، وحينئذ يمكننى أن أعمل على ضوء استنتاجاتى منها ، ثم أفضت له القول فى سوء حال المغاربة والمجهودات التى بذلها الحزب الوطنى فى سبيل التوفيق بين حاجيات البلاد وبين الصداقة الفرنسية ، فأظهر اقتناعه بأفكارى وطلب منى ان اكتبها بنفسها فى رسالة خاصة يتكلف هو بتبليغها للجنرال دى جول بمناسبة حلوله ببرازافيل فى شهر مايو ، وقد كان الجنرال دو لارمينا هو القائد الاعلى للجيوش فى افريقيا الاستوائية وهو القوميسير الاعلى بها، بينما كان الجنرال سيسى مديرا لمصلحة الصحة العمومية ومعتبرا فى أوساط أفريقية الاستوائية كالعضو الاهم فى انضمام الكونغو لديجول ، والوالى العام ايبوى والكاتب العام لورنسى كالعاملين الاساسيين فى انضمام اقليم تشاد . وبين دولارمينا وديجول نوع تنافس كبير ، بينما يعتبر الآخرون أنفسهم مريدين أوفياء لديجول .

كتبت رسالة للجنرال ديجول بواسطة الجنرال سيسى أقص عليه بعض ما جرى بينى وبين القومندان روجى وأقول له :

« ان المغرب الاقصى المرغم على استمراره فى نظام من العصور الوسطى ، والذى يرغب فى تطور شبيه بما وصلت اليه مصر والعراق لا يمكنه ان يقبل تجديد الاحتلال من ألمانيا او ايطاليا، وهو يعتقد ان حكومة حقيقية لفرنسا الحقيقية جديرة بأن ترضيه بتحقيق أمانيه القومية .

لست أريد أيها الجنرال أن أحدد فى هذه الرسالة مطالبنا، ولكنى أريد أن أؤكد أننى شخصيا لا أرغب فى جاه ولا مال، وانما ارغب فى مصالح وطنى وحقوقه .

ورئيس الحزب الوطنى المبعد منذ خمسة أعوام لا يريد الا ان يعرف السياسة الجديدة التى ستدشنونها فيما يخص المغرب الاقصى .

اننى لا أمثل شيئا من ذاتى، وانما قيمتى فيما أتمتع به من ثقة الشعب، وفيما سأحمله لامتى من نتائج عملكم الرسمى .

ان ليوطى الذى تحترمونه لم يرتكب أخطاء نوجيس وأمثاله، وقد أعرب عن ندمه على كثير من أنواع السياسة التى أتبعها بنفسه .

ولقد ايد الكثير من الفرنسيين حركتنا، فاذا كانت سياسة سعادتكم تتفق مع سياستنا نحن فانه من الممكن لى ان افعل».

حمل الكومندان روجى هذه الرسالة الى برازافيل حيث سلمها للجنرال سيسى، وهذا الاخير سلمها مباشرة للجنرال دى جول الذى وعده بدراستها مع الجنرال كاترو فى سوريا الذى كان ذاهبا لها ليعلن الاستقلال... ورجع روجى لمقر عمالته فحدثنى بما جرى وهو متفائل من دى جول، ومتشائم من دولارمينا وأمثاله. ولكنه أكد لى أن الجنرال سيسى سيحل محل دولارمينا فتتحسن الحال، وفعلا سافر سيسى الى سوريا مع الموكب الجولى ثم عاد الى برازافيل قوميسيرا عاما لاتحاد أفريقيا الاستوائية .

ومضت أيام دعى بعدها روجى لبرازافيل، وأفهمنى معاونه المسيو بوراسكى أن القضية سائرة سيرها الطبيعى، وانها كانت من أسباب استدعاء روجى، وبعد ما رجع هذا الاخير أخذ يهىء الجو باستدعائى لمنزله والحديث معى بأكثر ما يمكن من الافكار الحرة، وكان يبعث فى نفسى من الآمال الشىء الكثير، وان كنت أعرف أن الفرنسيين لا يتغيرون عن موقفهم ولو حدث من الوقائع أكثر مما حدث، لانهم محافظون فى أفكارهم، ومن الصعب أن يتطوروا بالسهولة التى تظن .

ثم قدم لمويلا مبعوث خاص من طرف الشئون السياسية بأفريقيا الاستوائية هوليوتنان البحرى دولوجران أحد المستعمرين الذين كانوا يشتغلون فى سوريا مع المسيو بونصو، وأحد الذين حكم عليهم الالمان بالاعدام للانضمام للجنرال دى جول، وقد اجتمعت به فى عدة جلسات تناولنا فيها بتفصيل دراسة الحالة الحاضرة، ثم بلغنى أن الولاية العامة كلفته أن يتخابر معى باسم فرنسا الحرة فى شأن المغرب وسائر الشمال الافريقى؛ لأن الحركة الفرنسية الحرة يهمها أن ترضى الاهالى لتستعين بهم على منع احتلال ألمانيا لشمال أفريقيا ومساعدة فرنسا على تحرير بلادها هى الاخرى، وقد بينت له استعدادى للتوسط بين فرنسا الحرة وبين الوطنيين التونسيين والجزائريين فيما يخص تونس والجزائر، وأما فيما يخص المغرب فقد أكدت له استعدادى أن أعمل ومعى رجال الحزب الوطنى لتحرير المغرب من الضغط الالمانى متعاونا فى ذلك مع فرنسا الحرة، ولكن هذا التعاون لا يمكن الا بشرط واحد صريح، هو أن يعلن الجنرال ديجول استقلال المغرب منذ الآن، ثم بعد التحرير يشكل جلالة السلطان حكومة وطنية تعقد مع فرنسا معاهدة

تحالف وصداقة، وقد استمرت مخابراتنا الثنائية التى لم يتدخل فيها الجنرال روجى الا ببعض الملاحظات ثلاثة أيام، شرحت فيها كل آرائى فى مصير المغرب والنظام الديمقراطى الذى سيسود بعد اعلان الاستقلال، وكنت أحيل بعض النقط التى يمكن التجادل فيها الى وقت المذاكرة الرسمية التى تجرى لعقد معاهدة التحالف بعد الاستقلال والتحرير ، وقد اتفقنا أخيرا على أن يوجه ليوتنان برقية لحكومة فرنسا الحرة يبلغها فيها خلاصة مذاكراتنا، وقد بعث البرقية التالية:

«تفاوضت مع الأستاذ علال الفاسى، وهو يقبل التعاون مع فرنسا الحرة على تحرير شمال افريقيا من ضغط المحور بشرط الاعتراف الناجز باستقلال المغرب، والسيد علال الفاسى صريح ويتكلم فى استقامة ووضوح، ويتمتع زيادة على نفوذه فى المغرب بثقة كثير من زعماء العرب».

ومن الغد تلقى دى لوجران برقية تطلب منى السفر لبرازافيل عاصمة الكونغو الفرنسى لتتميم المذاكرة مع ادارة الشؤون السياسية .

وقد لبيت الاستدعاء وسافرت صحبة الضابط المذكور الى برازافيل حيث اجتمعنا بمجرد وصولنا بالمسيو لورانسييه الكاتب العام بالولاية العامة وأحد الذين حصلوا على ثقة كبرى من وزير المستعمرات المسيو بلوفان ومن الجنرال دى جول بمنزله، وكان معنا مدير الشئون السياسية لافريقيا الاستوائية، واستمرت المذاكرة بيننا فى جو هادىء مدة ثلاث ساعات تناولنا أثناءها كل الموضوعات المغربية، وكان محور حديثى يدور كله على ضرورة اعلان الاستقلال لارجاع الثقة بفرنسا، وعلى أن ثورة الجنرال دى جول يجب أن تكون فى الوقت نفسه ثورة للمغرب الاقصى لتحريره فى ظل العرش العلوى الشريف من النظام الاستعمارى الحاضر .

ثم أقمت فى برازافيل سبعة أشهر كنت أجتمع أثناءها بمختلف الشخصيات الرسمية التى ترد على عاصمة الكونغو، وأدافع أمامهم بكل حرارة عن الفكرة الوطنية التى اعتقلت من أجلها، كما أشرح لهم وجهة النظر العربية فى تونس والجزائر وسوريا ولبنان وأدافع عنها بقدر المستطاع .

وفى يوليه سنة ١٩٤١ وصلت برقية من الجنرال دى جول للولاية العامة يقول فيها: «لقد درست قضية الفاسى والمغرب وسأحمل معى الملف لبرازافيل» .

«وقد وصل الجنرال لبرازافيل للحضور فى حفلات الذكرى الاولى لانضمام مستعمرات افريقيا الاستوائية اليه، أو ذكرى الايام الثلاثة المجيدة كما يسمونها وجاء معه سفير فرنسا الحرة فى أثيوبيا، وهو كولونيل من ادارة الشئون الاهلية بمراكش سبق أن اشتغل بالاقامة العامة، وكان مكلفا من قبل الماريشال ليوطى بالشئون المغربية، وقد اجتمعت بالكولونيل فى جلسة خاصة بمنزل المسيو لورانسييه وقال لى: «ان الجنرال حدثه فى الطيارة، وطلب منه أن يجتمع بى ويتذاكر معى»، وقد تحدث فى موضوع مهم وعبرت له عن أفكارى فى ضرورة استقلال البلاد بكل صراحة ووضوح، وفهمت من حديثه أن رأيه لا يتفق مع الاستقلال، ولكن مع القيام باصلاحات عملية ومفيدة .

ثم اجتمعت مع الجنرال سيسى بمكتبه بالقوميسارية العليا بمحضر المسيو لورانسييه أيضا، فرأيت منه ترددا يتنافى مع ما أخبرنى به عنه الكومندان روجيه. وقد حاول اقناعى بضرورة استمرار المساعدة الفرنسية للمغرب؛ لان المغرب لم يزل فى نظره غير كامل النضوج للحصول على الاستقلال، فترافعت أمامه مدة ساعتين مدافعا عن ضرورة الاستقلال وكونه الحل الوحيد للمشكلة المغربية .

وجدتنى هكذا فى جو غامض ببرازافيل وفى حالة المنفى المراقب باستمرار، ولكنه المكافح باستمرار أيضا، وقد تكون حولى حزبان متناقضان من الرجال الرسميين؛ حزب الوالى العام وكاتبه العام وكان رأيهما ضرورة التعاون معى ومع الحزب الوطنى والاستفادة من قوتنا المعنوية وان لم يكونا ممن يريدون اعلان الاستقلال على الصفة التى أرغب فيها بل كانا يقولان بضرورة التوسيع فى نظام الحماية واعطائه شكل استقلال نوعى يرضى المغاربة ويضمن للفرنسيين مصالحهم، وحزب المسيو جيرو رئيس ديوان القوميسارية العليا الذى استطاع ان يضم اليه الجنرال سيسى وكان من رأيه ترك الوطنيين وشأنهم والاستغناء عن كل مساعدة ترجى منهم لأنها تتطلب من فرنسا تضحية ليست هى فى حاجة اليها .

وطبيعى ان يجر هذا التخالف فى التفكير الى التناقض فى التدبير والى القيام بمقاومات من هذه الجهة او تلك أستفيد منها احيانا وأكون ضحيتها مرة أخرى، ولكنها مع ذلك خرجت بى من طور الهدوء المتعب الى الحركة والكفاح، وقد أدى الامر بالمسيو جيرو الى ان زور على رسالة ادعى اننى كتبتها للماريشال بيتان أؤكد له فيها أن أمل المغرب كان معقودا

عليه، ولكن من الحق أن أسجل أن المسيو لورانسييه وقف من هذه التهمة موقفا مشرفا؛ اذ دافع عنى دفاع الابطال مؤكدا أمانتى وشرف القول والسلوك الذى شهد به كل من تولى شؤونى من الموظفين فى المنفى ، وقد ادت هذه المناقضات وغيرها الى ان الكوميسار الاعلى يعطى اوامر تتعلق بى لبعض الموظفين فينقضها لورانسييه او يعطى هو الآخر اوامر ينقضها الاول، وانتهى الامر بوضع المسيو لورانسييه أمام مجلس الموظفين التأديبى ولكنه خرج منتصرا .

ولما رأت اللجنة الوطنية التى يترأسها الجنرال ديجول اشتداد الخلاف بين الكوميسارية العليا والولاية العامة فى جميع المسائل القائمة ، ومنها قضية المغرب، وجهت البروفيسور كاسا المفوض الوطنى فى المعارف والعدل للقيام ببحث عام والاتصال بمختلف الاوساط فى برازافيل وقد استدعانى اليه واستفهمنى عن آرائى فى الموضوع المغربى، فشرحت له فكرتى، كما شرحتها لغيره من قبل، وقدم له مسيو لورانسييه باسم الحكومة العامة ـ على ما أخبرنى هو به ـ تقريرا يتعلق بقضية المغرب يؤيد الى حد بعيد وجهة نظرى، وان كان لا يحتضنها برمتها، وعلى ما فهمته من حديثى مع المسيو لورانسييه فان تقريره يقول بضرورة اعطاء المغرب نوعا من الاستقلال الذاتى واسعافه عاجلا بعدة اصلاحات اجتماعية واقتصادية مهمة، وكان يفسر هذا بأن تستعيض فرنسا على وصايتها الكاملة بنوع من النفوذ المعنوى تحتفظ به على الحكومة الشريفة التى ستكون محل ثقة فرنسا بما تمدها به هذه من العون المخلص والمساعدة الصادقة .

وكان يشتغل بقضية الشمال الافريقى في عاصمة الكونغو خليفة قنصل انجلترا العام المستر نيرن، فاسترشد به المسيو كاسا ايضا، فاعطاه رأيه الذى يتلخص ـ على ما روى لى موظف كبير فى الولاية ـ العامة ـ فى ضرورة اعلان استقلال نوعى للمغرب .

واذا كان ما حدثنى به مسيو لورانسييه بعد نزول الحلفاء فى افريقيا الشمالية واحتجاجى على المعاملة التى ظللت موضوعها منذ وصولى للكونغو صحيحا ـ فان وزارتى الخارجية الانجليزية والامريكية طلبتا من الجنرال ديجول اطلاق سراحى رسميا وتركى ادخل مع جيوش الحلفاء مع قبول شرطى فى اعلان الاستقلال، وقد قال المسيو لورانسييه بالحرف : «ان الجنرال ديجول غضوب مثلكم؛ فقد كان يريد وضع حل للقضية المغربية باتفاق معكم، ولكن طلب الانجليز والامريكان اطلاق

سراحكم واعلان استقلال المغرب أحدث فى نفسه تخوفات، وبعث روح الرجل الذى لا يحب ان يعمل تحت الضغط» .

ومهما يكن فان الجنرال ديجول لم يعلن فى القضية المغربية شيئا، والحركة التى قمت بها لم تكن اكثر من محاولة الخطو بالقضية المغربية الى المدى الـذى سارت اليه بفضل جهود اخوانى فى المغرب من بعد ، واذا كان عملـى وصراحتى فى الدفـاع عن وجهة نظرى قد اخـرا اطلاق سراحـى مدة ثلاثة اعوام على الاقل ووضعانى فى نظام اضيق من نظام السنين الاولـى، فاننى علـى كل حال أرضيت ضميرى بتحقيق ما كنت أصبو اليه فى منفى لم يكن ـ والحق يقال ـ لى يقين فى الخروج منه ، كما اننى اقتنعت جيدا بأن المستعمرين متفقـون على اختـلاف نزعاتهم وفى سائـر ظروفهم علـى التخوف مـن الاستقلال، ووجـوب الاحتفاظ بالمستعمرات، وان كانـوا يبيحون لانفسهم ولاذنابهـم استعمـال لفظ الاستقلال فى كثير من الاحيان، وهم لا يقصدون الا التوجيه نحو الادماج او ما يقاربه من اساليب. ولما تم نزول الحلفاء بشمال افريقيا أدركت أن دور فرنسا الحرة قد انتهى، وأن الظروف ستسمح لا محالة باستئناف اخوانى للجهاد لا محالـة، فاقتنعت بأن واجبى فى تبليغ صوت المغرب للفرنسيين الاحـرار قد كمـل أداؤه، وأن الخير فى ترك المجال للذين بالمغرب ليقولوا كلمتهم، فيرى الفرنسيون صحة ما تنبأت به من تطور فى الفكرة التى اختمرت فى نفوس المغاربة جميعا، وأعلنت فى محادثاتى مع الولاة الرسميين أن كل مفاوضـة يلزم ان تقـع الآن مع ممثلى الحزب الوطنى بالمغرب، واننى متضامن معهم فى كل ما يفعلون.

حزب الاستقلال

من الحزب الوطنى لحزب الاستقلال

وهكذا رأينا كيف ان تجارب السنين الماضية فى نظام الحماية وتجارب رجال الحركة الوطنية فى سياسة المراحل بعثت كلها فى نفوس الوطنيين فى الداخل والخارج شعورا بالحاجة الى عمل حاسم ومصارحة ظاهرة بحقائق الاشياء ولئن كان من الطبيعى ان تمر الحركة فى مراحلها الاولى لتقيم الحجة على النظام القائم ورجاله فليس من الطبيعى ان يستمر اتجاه الزعماء فى سياسة المجاملة لمن لا يراعون من اجل الاستعمار قربى، ولقد اتضح منذ سنة ١٩٣٧ أن طلاقا باتا قد وقع بين الشعب وبين ممثلى الحماية ونظامها، وأن المغاربة لم يعودوا يرون فى اسلوب الحماية الا الأستعباد الواضح البين الذى لم تخفه عنهم شعوذة ادارة الشؤون الاهلية ولا سياسة الابتسامة الصفراء التى أورثها ليوطى كأغلوطة مقدسة.

ومن العبث أن ينكر تأثير اجواء الحرب واعلان وثيقة المحيط الاطلسى ونزول الحلفاء بالمغرب واستقلال سوريا ولبنان ـ من العبث ان ننكر ما احدثه ذلك من تفاعل فى نفوس الوطنيين شجعهم على اتخاذ السياسة الصريحة فى مطالبهم ولكن مهما يكن لذلك كله من اثر فان الباعث الحقيقى ظل فى التجربة المرة التى قامت بها الوطنية المغربية ، تلك الوطنية التى كانت تحتاج لمجهود كبير كى تقنع نفسها بضرورة اتباع خطة المجاملة والخضوع لسياسة المراحل، ومن الحق ان نعترف بأنها كثيرا ما كانت تحس بوخز من ضميرها تتملص منه بأن الاسلوب غير المبدأ، وان الاستفادة من الواقع كثيرا ما يكون فى صالح المثال ولكنها رأت بنفسها ما أيأسها اليأس كله من ولاة الحماية الذين كانوا يقابلون عرضها المخلص للتعاون بغطرسة استعمارية تأبى ان تعترف حتى بنبل الغاية التى نعمل لها .

وأيا ما كان فقد شعر الكل بضرورة الخروج من سياسة محكوم عنيها بالفشل الى خطة لا لبس فيها ولا غموض ، هى اعلان الاستقلال ، والاستقلال قبل كل شىء، وقد علم جلالة مولانا الملك ابتداء هذه المرحلة بما ادى به من تصريحات لمناسبات مختلفة امام ممثلى فرنسا وممثلى الحلفاء ، والتى تتلخص فى ان المغرب قد ظل صبورا مدة الحرب ،

وضحى فـى سبيل انتصـار الحرية الانسانية فيجب ان ينال حقه منها «انكم تعلمون ان قيام المغـرب بواجباته كلها اعطاه سببا آخر ليستعجل الحصول على سائر حقوقه».

وللحصول على كامل هذه الحقوق ولتأكيد التصريحات التى فاه بها أعظم ممثل للشعب تأسس حزب الاستقلال.

ويرجع الفضل الاول فى تأسيس الحزب الجديد الى الحزب الوطنى نفسه، فقـد فكرت لجنتـه التنفيذية فى ضرورة السير فى هذا الاتجاه الحسـن، ولتتأكد من أن فكـرتها متفقة عمليا مع رغبات سائر الطبقات الشعبية دعـت لعقد مؤتمـر عام تتمثل فيه جميـع النزعات السياسية والاجتماعية للبلاد، وانعقد هذا المؤتمر بالرباط فى ١١ يناير سنة ١٩٤٤ حيث نشأ (حزب الاستقلال) كحزب مهمته الاولى هى التحرير القومى.

وقد تكتل فى حزب الاستقلال :

١ ـ الحزب الوطنى الذى كان يضم الاغلبية الساحقة من الفلاحين والصناع والطبقة العاملة والتجار وغالبية النخبة المثقفة فى البلاد .

٢ ـ رؤساء وأعضـاء المجالس الادارية لجمعيات قدماء تلاميذ مدن الرباط وفاس ومكناس وسلا ومراكش وأزرو ووجدة وآسفى، ولهذه الجمعيات أهمية كبيرة فى توجيه التلاميذ، وقد كانت ممثلة رسميا فى ما يسمونه بمجلس شورى الحكومة .

٣ ـ عديد من الشخصيات البارزة فى (الحركة القومية)

٤ ـ عديد من الشخصيات البارزة المغربية كالمفتين والقضاة الشرعيين والمدنيين وكبار الموظفين المخزنيين واساتذة الجامعة القروية والمعاهد الكبرى واساتذة المدارس الثانوية ومعلمى المدارس الحكومية والحرة .

وبذلك تكتلـت الامة كلها فى هذا الحزب، فتقدم يعمل للغاية التى أسس من أجلها فرفع يوم ١١ يناير سنة ١٩٤٤ لجلالة ملك المغرب ولممثلى فرنسا وحلفائها ميثاقا نعرض لتحليله قبل ذكر نصه :

أ) ان الحماية نظام مفروض بالقوة على الامة المغربية فى ظروف استثنائيـة وليس أدل علـى ذلك من المقاومة الحربية التى واظب عليها الشعب من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٣٤

ب) أثناء تطبيق معاهدة الحماية المفروضة وقع خرقها لفظا ومعنى من طرف الذين التزموا رسميا باحترامها، فأصبحـت السيادة المغربية غير ملموسة الوجود .

ج) وقد كانت الغاية التى اتبعتها الحماية لاعمالها هى تقوية مصالح المستعمرين الاوربيين وتأخير تطور العناصر المغربية او عرقلته .

د) وانبعاث حق الشعوب فى أن تختار مصيرها حسبما أكدته مختلف التصريحات التى أدلى بها الحلفاء فى وقت الحرب وبالاخص فى الميثاق الاطلسى وكذلك وجود جيوش مغربية فى الجبهة الغربية ـ كل ذلك يخول المغاربة الحق فى مصير حر .

ولهذه الاسباب كلها يرى (حزب الاستقلال) أن يطالب ـ معبرا عن رغبات الشعب ـ بما يأتى :

اولا ـ الاستقلال والوحدة التامة لجميع مناطق المغرب .

ثانيا ـ تكوين نظام ديموقراطى شبيه بالانظمة التى اتبعتها مختلف الحكومات الاسلامية يضمن حقوق سائر العناصر والطبقات التى تتكون منها الامة المغربية.

ميثاق ١١ يناير سنة ١٩٤٤

النص الرسمي

«ان حـزب الاستقـلال الـذى يضم اعضاء الحزب الوطنى السابق وشخصيات حرة .

حيث ان الدولة المغربية تمتعت دائما بحريتها وسيادتها الوطنية؛ وحافظت على استقلالها ثلاثة عشر قرنا الى ان فرض عليها نظام الحماية فى ظروف خاصة.

وحيث إن الغاية من هذا النظام والمبرر لوجوده هما ادخال الاصلاحات التى يحتاج اليها المغرب فى ميادين الادارة والعدلية والثقافة والاقتصاد والمالية والعسكرية دون ان يمس ذلك بسيادة الشعب المغربى التاريخية ونفوذ جلالة الملك

وحيث إن سلطات الحماية بدلت هذا النظام بنظام مبنى على الحكم المباشر والاستبداد لفائدة الجالية الفرنسية، ومنها جيش الموظفين الذى لا يتوقف المغرب الا علـى جزء يسير منـه، وانها لم تحاول التوفيق بين مصالح مختلف العناصر فى البلاد.

وحيث إن الجالية الفرنسية توصلت بهذا النظام الى الاستحواذ على مقاليد الحكم، واحتكرت خيرات البلاد دون أصحابها.

وحيث إن هذا النظام حاول بشتى الوسائل تحطيم الوحدة المغربية ومنع المغاربة من المشاركة الفعلية فى تسيير شؤون بلادهم ومنعهم من كل حرية خاصة او عامة .

وحيث إن الظـروف التى يجتازها العالم هـى غير الظروف التى أسست فيها الحماية.

وحيث إن المغرب شارك مشاركة فعالة فى الحروب العالميـة بجنب الحلفاء ، وقـام رجاله أخيـرا بأعمـال أثارت إعجاب الجميع فى فرنسا وتونس وصقلية وكورسيكـا وايطاليـا، وينتظر منهم مشاركة اوسع فى ميادين أخرى، وبالاخص لمساعدة فرنسا على تحريرها.

وحيث إن الحلفـاء الذيـن يهرقون دماءهم فى سبيل الحرية اعترفوا فى وثيقة الاطلسى بحق الشعوب فى حكم نفسها بنفسها، وأعلنوا أخيرا

فى مؤتمر طهـران سخطهم علـى المذهب الذى بمقتضاه يزعم القوى حق الاستيلاء على الضعيف .

وحيث إن الحلفاء أظهروا فى شتى المناسبات عطفهم على الشعوب الاسلامية ومنحوا الاستقـلال لشعوب غيرها، منها من هو دون شعبنا فى ماضيه وحاضره.

وحيث إن الامة المغربية التى تكون وحدة متناسقة الاجزاء تشعر بما لهـا وما عليها مـن واجبات داخـل البلاد وخارجها تحت رعاية ملكها المحبوب، وتقدر حق قدرها الحريات الديموقراطية التى توافق فى جوهرها مبادىء ديننـا الحنيف والتى كانت الأساس فى وضع نظام الحكم بالبلاد الاسلامية الشقيقة .

قـرر ما يأتـى :

١ ـ فيما يرجع للسياسة العامة :

اولا ـ ان يطالب باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المفدى سيدنا محمد بن مولانا يوسف نصره الله وايده.

ثانيا ـ أن يلتمس مـن جلالته السعى لدى الدول التى يهمها الامر للاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه .

ثالثا ـ أن يطلب انضمام المغرب للدول الموافقة على ميثاق الاطلسى والمشاركة فى مؤتمر الصلح .

٢ ـ فيما يرجع للسياسة الداخلية :

رابعا ـ أن يلتمس من جلالتـه أن يشمل برعايته حركـة الاصلاح الذى يتوقف عليها المغـرب .

حزب الاستقلال كمذهب وكعقيدة

١ ـ الحزب يريد الاستقلال :

الشرط الاساسى لانهاض المغرب هو استقلاله؛ لان البلاد التى لا تتمتع بمظاهر سيادتها القومية مهيأة حتما لان تبقى مستعبدة للذين يستفيدون من الاستيلاء عليها .

وهذا الاستقلال يقتضى طبعا الوحدة والتحرر لجميع المناطق المغربية .

٢ ـ الحزب يناصر الحرية :

نشاط الفرد فى الحياة الاجتماعية يستلزم الحصول على الحرية الكاملة التى لا تعرف حدا الا حد الحماية لحرية الآخرين أو المصالح المعقولة للكل، (ان الحرية وحدها هى التى تجعل المرء يدرك الحرية) .

٣ ـ مسألة النظام ـ الدستور :

مسألة النظام لا محل لها فى المغرب؛ لان هنالك عائلة مالكة محبوبة من الشعب الذى يدين بالولاء للعرش ولجلالة ملكه الحالى سيدى محمد بن يوسف، وجلالة الملك الشعبى هو الذى يجعل من النظام عمدة من أعمدة الوحدة والانسجام لمعانى الامة .

وطبقا لمبادىء الاسلام التى تتفق بصفة محسوسة مع الاصول الديمقراطية فان المغرب يجب أن يعد فى ضمن الامم الاسلامية الشرقية الحرة الراقية .

وحزب الاستقلال يطالب مع ذلك باعلان دستور ديمقراطى يعترف بحقوق الانسان والمواطنين، ويراعى فى وضعه ما تتوقف عليه حياة المغاربة وحاجياتهم .

ويجب أن ينص فيه على أن اللغة العربية هى لغة البلاد الرسمية، كما أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة المغربية، ولكن مع ضمان حرية العقيدة والتفكير للجميع .

ويجب ان يعتبر سائر المغاربة متساوين أمام القانون، يتمتعون بحقوق واحدة، ويؤدون واجبات واحدة من غير امتياز دينى او عنصرى .

والمسألة اليهودية لا وجود لها بالمغرب لان يهود البلاد أعضاء فى العائلة المغربية على غرار الاقباط المصريين، وسيبقون متمتعين مثل ما كانوا بحريتهم الدينية، وخصوصا ما يرجع للعدلية الدينية فى الحالات المعتادة كسائر المغاربة .

٤ ـ التربيـة والبعـث الديموقراطـى :

فحـزب الاستقـلال اذن مـن أنصار الملكية الدستورية والمبادىء الديموقراطية، ولكن الديموقراطية ليست شيئا جديدا بالنسبة لمراكش، بل هى شىء واقع منذ القديم فى كثير من أنظمتنا الشعبية، ولذلك يرى الحزب وجوب بعث المنظمات الديموقراطية وتنظيمها كالجماعات القبلية التى حولت الحماية معناها من مجالس بلدية الى محاكم عرفية .

ولكن ما يريده الحـزب هو الديموقراطية كما تفهمها الدول الغربية الكبيرة، ولا يكفى بعث الانظمة القديمة لاقرارها فى البلاد، ولذلك يرى الحزب من مهمته القيام بتربية ديموقراطية مستمرة لسائر افراد الشعب، والمطالبة بالتعليم الاجبارى فى الحواضر والبوادى للبنين والبنات، وتعويد الامة على الحياة الدستورية بمختلف المؤسسات التى تربيها وتساعدها على تذوق المعانى التى تصبو اليها فى مظاهر النظام الديموقراطى الذى يقر تدريجيا فى البلاد .

٥ ـ مسألـة الاطـار :

لا يجهـل (حزب الاستقـلال) أن المغرب لا يمكـن ان ينظم حكومة وشعبا على أحدث أنواع الانظمـة الغربية بمحض وسائله الخاصة، ولكنه يحمل مسؤولية فقدانه للاطار الكافى لسياسة الحماية التى عرقلت تطوره وثقافة أبنائه، كما أنها وضعت من اللسان الفرنسى اللغة التى تسير بها مختلف الادارات التى بيدهـا دواليب الحكم، ولذلك أبعدت عن مقاليدها نخبة البلاد المثقفة باللغة العربية .

فارجاع الشىء لنصابه بعودة اللغة العربية لما كانت عليه من لغة رسمية لا فى المبدأ فقط بل فى العمل يزيل تقريبا مشكلة الاطار خصوصا فى ما يتعلق بالتنظيم الادارى والقضائى والثقافى والمالى، ومعنى هذا ان الاطار القديم سيستعمل بعد نوع من التمحيص، بينما يقع اعداد الاطار الجديد واحلاله محل القديم تدريجيا .

وأما فيما يخص المصالح الفنية فان المغرب يختار من خارج البلاد مـن يستعملهـم فـى الارشاد الفنى فى الادارات التى لا يوجد بها فنيون

مغاربة، وايا ما كان، فالحزب لا يرى ان مسألة الاطار من شأنها ان توقف البلاد عن نيل استقلالها العاجل، بل يعتبرها حاجة داخلية يمكن للحكومة القومية أن تحلها بالوسائل التى ترى فيها خير البلاد ومصلحتها، يجب أن يستقل المغرب ويسير ولو باطار عتيق ليتمكن من تكوين أداة عصرية لحكمه، والا فانه لن يدرك أبدا ما يصبو اليه، وثلاثة اجيال الحماية كلها دليل على ان نظاما يسيره الاجنبى لا يمكن ان يؤدى لتطور منشود موافق للامانى القومية والاجتماعية للبلاد .

٦ ـ مسألة العدل :

يمكن للمغرب ان يتابع نظاما قضائيا متحدا، وقد سارت البلاد منذ عهد بعيد على نظام المحاكم المخزنية والشرعية؛ فالحزب يطالب بسن قانون متحد مستمد من اصول الشريعة الاسلامية ومراعى فيه توجيهات العمل المغربى وتطورات القانون الاجنبى، مع تأسيس المحاكم واعداد القضاة الذين ينفذونه ، وأيا ما كان فلا محل فى المغرب للمحاكم الاجنبية او المختلطة، ويجب ان يخضع الكل للقوانين المغربية والمحاكم المغربية، وأن يقضى على كل أثر للامتيازات الاجنبية .

٧ ـ السياسة الاجتماعية : التعليم ـ الاسعاف :

يرى الحزب وجوب سن قوانين اجتماعية فى المغرب من اجل رفع المستوى المادى والخلقى للجمهور المغربى ، وتحسين حالة العملة فى المدن والقرى ، واعطاء الكل تربية حقيقية ، وانشائهم على الاسس التى تشعرهم بالكرامة والحرمة الانسانيتين .

وبما ان جمهور الصناع الصغار فى المدن والقرى سيبقى فى عداد العوامل الضرورية للتوازن الاجتماعى الى وقت غير قصير فمن الواجب مساعدتهم وحمايتهم وتنظيم هيئتهم وتوجيههم نحو أسلوب تعاونى .

أما المسألة المؤلمة فهى حالة البروليتارية الفلاحية ، ويرى الحزب وجوب حلها بتقسيم عادل للثرات الفلاحى المغربى ؛ كى يتسنى لابناء القرية ان يحصلوا على ملكية صغيرة ومتوسطة .

ويجب ان يفرض التعليم الاجبارى لسائر الاطفال الذين فى سن مدرسى ذكورا واناثا بالبادية والحاضرة ، وان يكون مجانا للجميع ، كما يجب تنظيم دروس عامة مجانية لمقاومة الامية .

ولفائدة الكل يجب تصنيع البلاد وتوجيهها التوجيه الاقتصادى النافع، وتأميم المرافق العمومية ومنابع التراث القومى .

ويجب على الحكومة المغربية المستقلة أن تضع فى مقدمة أعمالها الاسعاف الاجتماعى ولا سيما فيما يرجع لحماية المرأة والطفولة، ورعاية الصحة العامة .

٨ ـ الدفاع الوطنى والامن الداخلى :

مهما ادعى المرجفون عن حالة الامن فى المغرب فان بلادنا لم تكن فى يوم من الايام مقرا للفوضى، واذا كانت معداتنا الحربية فى فاتحة القرن العشرين غير موافقة لما تقتضيه حاجيات العصر فقد كانت لنا مراكز عسكرية رئيسية، ومراكز قبلية كفت لضمان الامن الداخلى والخارجى مدة أجيال كثيرة؛ بل استطاعت احيانا ان تنشر السلام على مواطن بعيدة ممتدة من شمال المغرب وجنوبه وشرقيه؛ لكن هذه القوات لم تعد كافية فى هذا العصر، ولم يعد من الممكن ان نتغلب بها على دسائس الاجانب الذين كانوا يتحينون الفرص للقضاء على بلادنا، وعليه فاصلاح النظام العسكرى واجب .

وقد زعمت الحماية انها نشرت الامن، ووجدت أحسن السبل لاستمراره ولكن أى أمن هو ذلك الذى لا يعرف الا القوة واستعمال وسائل الارهاق للانسانية سبيلا ؟ ! إن أمن الحماية لم يبذل أى جهد لاقرار الحق، ولم يكن ذلك ذنبه فحسب، بل انه سخر سائر أدواته للظلم والدفاع عن مصالح طبقة استغلالية محتكرة من أصحاب رؤوس الاموال الاجانب ومن المستعمرين الغاصبين .

ثم هو بعد ذلك أداة مسخرة للقمع السياسى ولحماية نظام مفروض على البلاد ضدا على الثورات التى ظلت ممكنة حتى بعد مرور ثمانية وثلاثين سنة على الحماية، أما فيما يخص المغرب فان (حزب الاستقلال) يريد نظاما عادلا أكثر بساطة وأقل تعقيدا؛ ففيما يتعلق بالدفاع الخارجى يجب ان يبذل المغرب كل مساعداته لنظام الدفاع الاممى طبقا للاصول التى تقررها الامم المتحدة .

وفيما يخص الاطمئنان الداخلى يجب تكوين فرقة ادارية لا تعمل الا لما تقتضيه حاجة الامن الاقليمى، دون أن يكون لها ادنى حراسة للتيارات السياسية؛ اذ لا يحتاج المغرب الى جيش عرمرم كالذى وضعته الحماية خصوصا بعد الاصلاح الاجتماعى والثقافى الذى تقوم به الحكومة القومية، وانما يحتاج لقوة متجولة تشعر الشعب بأن للامن العام حراسا متيقظين، والى جانب هذه القوة المتجولة تؤسس فرق (للجومى الفلاح) تركز هنا

وهناك فى الاراضى المخزنيـة او اراضـى الجماعات للمساعدة على نشر السكينة عند الحاجة، والقيام بتعميم الوسائل العصرية للحراسة والاستغلال الـزراعـى .

٩ ـ السياسة الاقتصادية والمالية :

نظام الباب المفتوح وتساوى الدول الاجنبية فيما يرجـع للشئون الاقتصادية وفق ما اقتضته معاهدة الجزيرة سيبقى الى وقت ما المنهاج المتبع فى نظام البلاد االاقتصادى ؛ لكن الحزب يرى من الضرورة ادخال بعض التعديلات عليه؛ ففكرة الباب المفتوح يجب أن تقنع بوجوب معاملة الدول التى تستفيد منه للمغرب بالمثل، وأيضا فانه لابـد من استعمال بعض التدابير المالية، ولا سيما رفع قيمة الاداءات الجمركية مع احترام مبدأ المساواة فى الاداء .

سياسة الحماية فى الجبايات أدت الى جمع الكثير من رؤوس الاموال الاجنبيـة فى المغرب ؛ لكن هـذا التسهيل الذى استفادتـه الرأسمالية الاجنبية لم يكن الا على ظهر المستهلكين الذين يكون الاهالى أغلبيتهم الساحقة ؛ لانهم هى الذين تحملوا اكمال عجز الميزانية بالضرائب غير المباشرة، فتحرير المستهلكين من الحمل الثقيل بفرض الضرائب على الذين يستحقونها من أول ما يجب عمله، وكذلك المساواة فى الضرائب تقضى على الميز الذى اتبعته الحماية لتمكـن المعمرين من اداء مثل مـا يؤديه الفلاح المغربى .

وفيما يرجع للشئون المالية يرى (حزب الاستقلال) أن استغـلال التراث المعدنى الذى هو ملك الدولة ولا يقبل التفويت يجب أن يكون من الدولة مباشرة، أو بواسطة رخص مخزنية (حكومية) مشتركة النفع حتى يمكن للبلاد أن تحقق حاجياتها دون الاضطرار لاداءات باهطة، كما يـرى من الواجب تأميم كثير من المرافق العامة لتحقيق نفس الهدف .

ولسلامة ماليـة الدولة يجب على الحكومـة أن تقاوم تضخم النقد، والحصول على استقرار العملة فى دائرة الاتفاقات الدولية، وعلى استقلال الفرنك المغربى عن فرنك فرنسا ومستعمراتها .

والخلاصة أن الحزب لا ينتحـل فى سياسته المالية والاقتصادية أى مذهب من المذاهب المعروفة، ولا يقصر دفاعه على أية طبقة اجتماعية وحدها، ولكن عطفه مع ذلك يتوجه بصفة خاصة للطبقة الفقيرة التى يرى وجوب رفـع مستوى معيشتها ومستـوى ثقافتها ومعنوياتها لتكـون لها حرمتها الخاصة التى تحل بالمكان اللائق بها فى الهيئة الاجتماعية المغربية.

١٠ ـ السياسة الخارجيـة :

لئن اضطر المغرب للانزواء على نفسه فى العهد الاخير للدفاع عن حريته فان التاريخ يثبت أنه كان كلما أحس القوة من نفسه اتبع سياسة خارجية حرة وربط علاقات حسنة مع مختلف الشعوب الاجنبية .

وفى حسن الضيافة التى قدمها لليهود المطرودين من الاندلس ما يدل على روح التحرر التى سمحت لاولئك اليهود بالمحافظة على ديانتهم وأموالهم وقضائهم الشرعى، مع تمتعهم بالرعوية المغربية التى خولتهم أحيانا الحصول على المناصب الكبرى فى الدولة، وفى ذلك ما ينفى كل اتهام بالتعصب الدينى أو العنصرى، وما يعـرب عن استعداد المغاربـة لتعاون مخلص مع غيرهم من الدول والطوائف .

لكن هذا التعاون والتساند لا يراهما (حزب الاستقلال) ممكنين الا فى دائرة الاعتـراف للمغرب بكامل حقوقـه وبمقتضى أصول العلاقات الدولية التى وضعتها وثيقة الاطلسى ومقررات الامم المتحدة .

ويرى أن علاقات البلاد يجب أن تكون أحكم وأوفق مع الدول العربية التى تربطنا بها روابط تاريخية وثقافيـة وعنصرية لا حصر لها، وهـذه العلاقة يجب أن تنتهى بالانضمام للاتحاد الذى يجمع سائر الدول العربية فى عائلة العروبة الكبرى ليتسنى للمغرب والعرب جميعا أن يشتركـوا فى بناء صرح سلام عالمى، وبعث نظام انسانى لخير العالم بأسره .

المطالبة بالاستقلال

تلك هى المبادىء التى جمع فيها (حزب الاستقلال) تراث الحزب الوطنى والحركات التى سبقته، ولقد سار، ومن حوله الشعب بأسره ، يعلن كلمة الامة النهائية فى المطالبة بالاعتراف باستقلالها الناجز .

وفى يوم ١١ يناير سنة ١٩٤٤ رفع الحزب ميثاق الاستقلال لجلالة الملك، كما قدم نسخة منه لمقيم فرنسا العام وممثلى الدول الكبرى .

وقد كان الاندهاش عظيما فى نفوس ولاة الحماية ولكنهم لم يتقدموا لرد الفعل الا بعد أن اطمأنوا على حياد جيوش الحلفاء المرابطة فى البلاد.

أما جلالة الملك فقد استدعى يوم ١٣ يناير المجلس الوزارى للانعقاد فى شكل مؤتمر يضم كثيرا من رؤساء البلاد وأعيانها، خصوصا رؤساء المقاطعات وعلماء الدين وأهم القضاة الشرعيين والمدنيين وأبرز أفراد العائلة المالكة ، وقد افتتح جلالته هذا الاجتماع مخبرا الحاضرين بالميثاق الذى رفعه لجلالته (حزب الاستقلال) ومستوضحا رأى كل واحد فى الموضوع، فأبدى الكل مصادقته على الميثاق، وأعلن استنكاره العظيم لسياسة الحماية التى أثبتت فشلها وعجزها عن التوفيق بين رغبات الشعب ومصالح الدولتين .

ثم قرر المؤتمرون تكوين لجنة من وزيرين ومن رئيس التشريفات الملكية لتتصل باللجنة التنفيذية للحزب، وتبحث معها الطرق التى تراها لتنفيذ الاستقلال عساها تقنع الاقامة العامة بأخذها حتى تحل المشكلة المغربية دون الاضطرار لتضحيات كبرى .

وقد اجتمعت هذه اللجنة مع أقطاب الحزب، وبعد أن أعلن الكل موافقتهم على وجوب الغاء الحماية أخذوا يدرسون وسائل التوفيق بين الاستقلال المنشود وحالة العلاقات الفرنسية المغربية، وقد استمرت هذه المذاكرات والاتصالات مع الاقامة العامة ثلاثة أيام أبدى فيها متكلم بلسان الحماية أنها لا تقبل أى تبديل لما تقتضيه معاهدة ١٩١٢ ولكنها مستعدة لتحقيق اصلاحات سياسية واجتماعية مرضية، وطبيعى ان ممثلى الحزب وممثلى المؤتمر الملكى رفضوا العدول عن المطالبة بالاستقلال، فأبدت الاقامة رغبتها فى قطع المذاكرات وانهاء عمل هذه اللجنة .

أما ميثاق الاستقلال فقد استمر ثابتا، وعاد المجلس الوزارى يوم ١٨ يناير للبحث عن وسائل تحقيقه .

وفى خلال هذه المدة توالت الوفود الشعبية من كل نواحى المغرب ترفع لجلالة الملك عرائض التأييد لطلب الاستقلال المرفوع من الحزب، وقد شاركت فى هذا التأييد كل الطبقات الاجتماعية من أكبر قضاة الشرع الاسلامى الى أبسط رجال البوليس السرى الذين لم تمنعهم ظروفهم من الاشتراك فى هذا التضامن الشعبى العام، وعمت البلاد نشوة الحديث عن الاستقلال واليوم الذى يحتفل فيه بانجازه .

ومن المهم الاشارة الى أن فى عداد الوفود التى رفعت تأييدها للملك وفد المجلس العلمى للقرويين والمعاهد الدينية، وأهمية هذا المجلس من ناحية الدور الذى يقوم به فى الحياة العامة بالمغرب عظيمة جدا .

وكذلك يجب أن نشير لوفود السيدات التى أعلنت مناصرة الحزب واستعدادها للتضحية فى سبيل الاستقلال .

وقد حافظت الادارة الفرنسية طيلة (أسبوع التضامن فى سبيل الاستقلال) على كامل تحفظها، ولم تتخذ أية وسيلة لمنع الوفود غير المنقطعة من الوصول للقصر العامر بالرباط .

وفى يوم ١٨ يناير توجه المقيم العام المسيو بييو للقصر العامر فبيل انعقاد المجلس الوزارى الموسع طالبا مقابلة جلالة الملك للمذاكرة معه فى أمر متعجل وقد بلغ جلالته أنه اتصل من اللجنة الوطنية الفرنسية للتحرير الوطنى التى كانت مستقرة بالجزائر بتعليمات تقضى عليه ألا يدخل فى أى مخابرات تدعو لتغيير نظام الحماية، وزعم أن لفرنسا وحدها الحق فى اقتراح الاصلاحات التى تراها لازمة، وأن لجنة التحرير تدرس الاصلاحات عمليا، وأنها بمجرد ما يتم درسها ترفع لمصادقة جلالة الملك عليها، وأن كل مناقشة فى موضوع معاهدة الحماية لا يمكن ان تسمح بها الحكومة الفرنسية.

وقد بلغ جلالة الملك لوزرائه قرار الحكومة الفرنسية، وبعد ما أكد استمراره فى المطالبة بالاستقلال طلب من المجلس أن يؤخر اجتماعه الى يوم آخر، وهكذا لم تستطع اللجنة المكلفة من المؤتمر الملكى بالاتفاق مع اللجنة التنفيذية للحزب على الشكل الذى يمكن به تنفيذ الرغبة الشعبية : أن تبلغ الرسالة التى كتبها الحزب لاسماع المجلس الوزارى .

وبمجرد ما علم الحزب ببلاغ الاقامة العامة أذاع بيانا يؤكد فيه أن المطالبة بالاستقلال لا تعنى أبدا العداء لفرنسا ولا لغيرها، وأن الحزب لا يفكر فى الوصول لغايته الا بالوسائل المشروعة .

رد الفعل عند الولاة الفرنسيين :

وفى الغد بلغ الولاة الفرنسيون العديد من أقطاب الحزب الوافدين على الرباط اوامر بالخروج من العاصمة والرجوع لمقر اقامتهم .

وفى يوم ٢٢ يناير أصدرت الاقامة العامة بلاغا رسميا نشرته الصحف الفرنسية تعلق اتفاق الاقامة العامة مع جلالة الملك على انجاز كثير من الاصلاحات التى تزيد فى تقدم المغرب وازدهاره فى دائرة الصداقة الفرنسية المغربية .

وقام الولاة الفرنسيون المحليون باستدعاء الاعيان ومعاتبتهم على تضامنهم مع الحزب فى طلب الاستقلال، وأوقف أثناء هذا العتاب عديد منهم (بمراكش وآسفى ووجدة) ومع ذلك فقد استمر الشعب فى هدوءه .

وقد توقع الكل ان حركة القمع العام ستبتدىء، ولكنه ظل يتساءل عن الاسباب التى ستبرر بها الحماية عملها، وقد وقعت كل المظاهرات أثناء تقديم الميثاق الوطنى وأثناء تأييده فى كامل الهدوء والسلام .

ولكن الاستعمار الفرنسى لا يعدم سببا؛ فقد ادعى ان الحركة الاستقلالية مؤيدة ومشجعة من طرف المحور الذى يريد خلق صعوبات لجيوش الحلفاء ، وهكذا بعد بضع ساعات من اعلان المسيو ماسيجلى المفوض الوطنى فى الخارجية الفرنسية فى خطاب بمذياع الجزائر قبول اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى مشروع اصلاح مستعجل بالمغرب كان الولاة العسكريون (مساء ٢٨ يناير) يقبضون على ١٨ مسيرا من رجال الحركة الاستقلالية متهمين لهم باتصالات مع العدو، وكان فى مقدمة هؤلاء المعتقلين الامين العام للحزب الحاج احمد بلافريج ومحمد اليزيدى عضو اللجنة التنفيذية .

ومنذ الساعة الاولى من صباح يوم ١٩ يناير عرف المغرب كله نبأ اعتقال الأمين العام وغيره من قادة الحزب، فعم الاستياء ووقع اضراب عام شامل فى سائر المدن المغربية

وفى الرباط احتشد الشعب فى ساحة القصر الملكى للاحتجاج على هذه التدابير والمطالبة بتحرير الزعماء المعتقلين، وبعد ما عجز مدير الشؤون السياسية الفرنسى عن تشتيت المتظاهرين أطلق سراح

الاستاذ اليزيدى وسمح له بالدخول للقصر الملكى حيث تفاوض مع جلالة الملك، ثم طلب من الجمهور ان يفترقوا مؤكدا لهم اهتمام جلالة الملك بالقضية، وقد استجاب الجمهور لنداء الزعيم اليزيدى الذى لم يكن معبرا الا عن خطة الحزب التى ترى وجوب عدم اعطاء الولاة الفرنسيين أى مبرر لما يرتكبونه من غطرسة وعسف .

ولكن مع ذلك وقع قتل اوربى بمدخل القصر الملكى قتله بعض المتظاهرين الذين هاجتهم كلمة صدرت من المقتول ضد المغاربة .

ولما وصل المتظاهرون لباب المدينة اندفعت نحوهم كوكبة من الجندرمة المشاة برئاسة الضابط أرابيير فجرت مشادة بين الفريقين ، وأمدت الجندرمية كوكبة من طابور الجنرال لوكلير، فتنحى المتظاهرين عن شارع دار المخزن، واتجهوا نحو حى الاقامة العامة عن طريق الناحية المدنية، فهاجمهم الجيش، فتحيزوا نحو باب بويبة وباب شالة، فأرسلت السلطات العسكرية الامر لمركز الجندرمية بباب شالة بالانضمام للكوكبة المقاتلة، فاضطر المتظاهرون للتجمع والدفاع عن أنفسهم، فأمطروا الجندرمة وابلا من الحجارة، واستطاعوا ان يخترقوا بذلك سد الحصار، ثم هاجمهم متصرف البوليس فدحروه وانتزعوا مسدسه وقتلوه به، وقد أصابت الحجارة غير الجند مسيو بيترى سكرتير الغرفة التجارية الفرنسية .

وفى الساعة الثالثة والنصف من اليوم نفسه أرسلت الاقامة العامة نجدة من الخيالة (الصبائحية) حيث استطاعت بعد صراع عنيف دام ساعتين ان تحتل باب المدينة .

وقد كانت قائمة الخسائر الفرنسية كما يلى :

١ – متصرف بوليس من صاحبى الدراجات النارية .

٢ – اثنان مدنيان هما بييترى ورولو من رجال الادارة.

٣ – بريجادى واحد، وصف بريجادى، ومتصرف بوليس جرحوا جرحا شديدا .

٤ – رئيس الكوكبة الكومندان ارابيير، والاجودان شاف، والماريشال ديلوجيه، وثلاثة من الجندرمة جرحوا فى رؤوسهم ضربا بالحجارة.

أما المتظاهرون المغاربة فقد قتل منهم ستة، وجرح ستون.

وفى عشية النهار احتشدت المدينة كلها لدفن شهداء الوطنية فى جو من الالم والاسى، وقد شاركت المرأة المغربية فى هذه المظاهرات الوطنية مشاركة عملية كبرى .

أما الولاة الفرنسيون فقد انتهزوا فرصة الليل والتجاء الاهالى لمضاجعهم ، فحشدوا جيوشا جرارة لمحاصرة الاحياء الاسلامية ، والاستعداد لقمع اشد وأقسى، وما استيقظ الناس فى الصباح حتى وجدوا المدفعيات والمصفحات تحاصر سائر الطرق المهمة وتعزل بعضها عن بعض، وتمنع الناس من المرور، فأقفلت المدينة، وهاج الجمهور، واضطرت السلطة لاستدعاء بعض الزعماء الذين كانوا لم يعتقلوا بعد، واستعانت بهم فى تهدئة الجو بعد ما بدأت تسحب حصارها، ولكن هذا الانسحاب لم يطل حتى عاد مرة ثانية، وانتشرت فرق الجيش فى سائر الازقة حيث بدأت تعتقل الجمهور جماعات، وأخذ الجيش يعتدى على مختلف المارة رجالا ونساء واطفالا وشيوخا وشبانا، وقد حكمت السلطة العسكرية حينا وبلا محاكمة على ثمانمائة شخص، وبعقاب يتراوح بين ثلاثة اشهر وعامين، وعومل هؤلاء المسجونون بقساوة شديدة أدت الى موت عديد من بينهم.

وانطلقت ايدى الجند فى المدينة بالسلب والنهب والضرب ، فلم يبق سوق ولا قهوة ولا منظمة مغربية الا هوجمت واعتدى على اصحابها، واعتقل من بينهم عدد كبير ايضا .

وتحت ستار البحث عن المجرمين وتفتيش المنازل للعثور على مستودعات السلاح والمواد العسكرية التى جلبها الوطنيون (بزعمهم) هوجمت العائلات وتسرب الجنود الفرنسيون لبيوت المغاربة ينهبون ما بها من مال وعتاد .

وفى أثناء هذا كله قطعت كل المواصلات التليفونية، ونزع الاشتراك من كثير من المعروفين بأفكارهم الوطنية، كما حوصرت منازل بعض رجال الحركة وعزلت عن ان يتصل بها احد.

وقد استمرت هذه الحالة ثلاثة ايام، ولم تنته الا بسبب طارئ غير مقصود ذلك ان شابا موظفا بالقنصلية العامة الامريكية بالرباط اعتقله الجند، وضربه ومزق اوراقه الرسمية، فاحتج الممثل الامريكى واضطر الفرنسيون الى اعطاء اوامر لانهاء التعرض للناس وضربهم .

وفى فاس العاصمة الفكرية للمغرب نظمت عدة مظاهرات خطيرة للاحتجاج على اعتقال الزعماء وتدابير الولاة الفرنسيين، وقد مرت مظاهرات فاس السلمية يوم ٢٩ دون ان تقوم الادارة نحوها برد فعل ما، لكن لم يحن الغد حتى أوقف جميع اقطاب الحركة البارزين بالمدينة من اساتذة ومحامين واطباء ، واستأنف الاهالى التظاهر بأشد مما كان

عليه من قبل، ومع ذلك فان الاصطدام الكامل بين المتظاهرين والجيش لم يقع الا يوم ٣١ يناير، وقد استشهد فى هذا اليوم ستون وطنيا، وجرح نحو المائة، وسجن ألفا شخص، وهاجم الوطنيون حصن (تامدرت) الذى يرابط فيه الجيش السنغالى، وكذلك حومة الدوح

وفى فاتح فبراير وقعت معركة عنيفة بين الوطنيين والجيش السنغالى الذى لم يستطع أن يقتحم باب ابى الجلود للوصول للمدينة الاسلامية، وفى مساء اليوم الثانى قتل المتظاهرون جنديا سنغاليا ، فأدى الامر الى اشتداد العراك، ثم حدث أن قتل الوطنيون المحتشدون بالمسجد القروى جاسوسا مغربيا وصلت به الجرأة الى تسجيل اسماء بعض الخطباء داخل المسجد، فذبحه مجهول بسكين، فكلبت السلطة واشتدت على الشعب، ولكن شدتها لم تزد الوطنيين الفاسيين الا حماسة واقداما، وقد استمرت المقاومة والاصطدام بين أهالى فاس والجيش أسبوعين كاملين، عمدت بعدهما الادارة الفرنسية الى أشد أساليب الطغيان؛ ذلك أنها حاصرت الاحياء الاهلية وعزلت بعضها عن بعض ، وقطعت تيار الكهرباء وتيار الماء الذى يمون السكان، كما منعت عنهم حصص المون المخصصة لهم، وهكذا أصبح المغاربة محرومين من كل المواد الضرورية للحياة .

ولكن المدافعين اليقظين عن الحرية المغربية لم يغلبوا، بل كانت هذه التدابير الوحشية فرصة لاظهار روح التضامن الموجود الذى يوحد سائر طبقات الشعب المحتاجة وسرعان ما تكون من اعضاء الحزب لجنة للاغاثة، ووضع المحتاطون من الاغنياء كل ما كان فى خزائنهم تحت تصرفها حيث قامت بتنظيمه واحصائه وتوزيعه على الطبقة الاكثر احتياجا، وبما أن الأحياء محتلة بالجنود ومعزول بعضها عن بعض فقد وقع التوزيع بطريق (الجو) ؛ اذ أصبحت سطوح المدينة الفاسية خير وسيلة للاتصال، وبالطبع فان هذه الروح زادت أعصاب الفرنسيين توترا، فوجه الجنرال سوفران حاكم الناحية الفاسية انذارا أخيرا للمدينة يحذرها فيه من الاستمرار فى الاضطراب الذى دام اسبوعين، ويهدد باعطاء اوامر للجنود بعدم احترام الاماكن المقدسة، وبما ان الشعب لا يريد المساس بمقدساته فقد قرر الوطنيون رفع الاضراب .

وفى يوم ٤ من الشهر أخبرت لجنة العلماء التى كانت تحاول تهدئة الخواطر الجنرال حاكم الناحية بأنها متضامنة مع الزعماء المعتقلين، وأنها تطلب قبل كل شىء اطلاق سراح المسجونين، وكان للشيخ محمد

ابن عبد الرحمن العراقى موقف جليل نسجله له بمداد الفخر، وقد قع القبض على هذه اللجنة وغيرها من علماء الجامعة القروية وطلبتها .

وفى يوم ٨ من الشهر نفسه وقع اعتقال ثلاثمائة شخص من المتظاهرين الذين اجتمعوا بمسجد الرصيف .

وأثناء الحوادث الاولى مساء يوم ٢٣ يناير بينما كان الوطنيون ينظمون دفن شهدائهم أمر الجنرال سوفران الجيش بمحاصرة المقبرة العمومية للحيلولة بينهم وبين دفن الضحايا خشية من ان يصبح مقرهم موطنا لحج وطنى وقداسة قومية ودليلا ساطعا على فظائع اعمال الاستعمار الفرنسى، وقد رفض رجال المقاومة الفاسية أن ينفذوا أوامر الجيش ، واستمروا فى حفر المقابر، فحل الجنرال سوفران صحبة الكولونيل سلاتنى راكبين على مصفحة بالمقبرة، وأصدر امره للجيش برد التراب على الحفائر، وبعد ما نفذ الجيش أمر الجنرال حجز هذا الاخير جثث الشهداء ووضعهم فى مستودع بمسجد الاندلس تحت الحراسة العسكرية، لكن أبطال الوطنية المغربية لم ينهزموا فقد ذهبت فرق الكشافة الوطنية بالليل وتسربت من السطوح الى داخل مسجد الاندلس ونقلت جثث الشهداء من سطح الى سطح، ولم تمض ساعة حتى كانت أجسامهم فى قبورها التى ظلت سرا مكتوما عن الاستعلامات الفرنسية .

كان الكفاح على أشده ولكنه لم يذهل فرع لجنة الدعاية التابعة للحزب بفاس عن القيام بواجبها، بل كانت توزع فى المدينة الاوربية عدة مناشير باللغات الاوربية موجهة لتنوير الرأى العام الاجنبى ضد فظائع رجال الحماية، وقد وزع الفرع يوم اول فبراير منشورا يشرح الحالة كما هى، ويبين أحقية المطالب المغربية، وفى يوم ٩ من الشهر نفسه وزع بيانا تحت عنوان «حضارة ام وحشية» شرح فيه أعمال الجيش الفرنسى وفظائعه، وفى فاتح مارس وزع ايضا بيانا يشرح أنواع الخيانة التى ارتكبها الولاة الفرنسيون ضد العهود التى قطعتها فرنسا على نفسها للمغرب .

وفى مدينة سلا وقع نفس ما وقع بالرباط وفاس، وأسفرت النتيجة عن ١١ قتيلا وعديد من الجرحى، وثلاثمائة سجين، كما وقع الحكم بالاعدام على أحد تلامذة الليسيه البالغ من السن سبعة عشر عاما، وقد خصصت (محلة جارنييه) لاعتقال هؤلاء الوطنيين المتحمسين .

أما فى الرباط فقد أصدرت المحكمة الجنائية الفرنسية ١٤ حكما بالاعدام، وقع تنفيذ ٤ منها يوم ٧ مارس ليلة عيد المولد النبوى الشريف ليستمر المغاربة فى حزنهم العميق فى هذا اليوم السعيد .

وأما الدار البيضاء فقد أضربت أسواقها ومعالمها وعمال مرساها يوم ٣٠ يناير، فاحتلت الجيوش سائر الاحياء ، وساقت اليها أحدث أنواع الدبابات والسيارات المصفحة، وأطلقت النار على المغاربة العزل، وقتل عجوز فى سن السبعين، وجرح ثلاثة من الشبان، واعتقل عديد من الافراد الذين أطلق سراحهم بعد بضعة أيام بعد تعذيب كاد يودى بحياتهم، كما طرد تلاميذ الليسيه الفرنسى المغاربة الذين شاركوا فى الأضراب .

وهكذا عم الارهاب سائر نواحى البلاد ، وأصبحت حالة الحرب قائمة فى أهم المدن المغربية، وقد أدى كبر الادارة بها الى اغلاق جميع المدارس الابتدائية المغربية وثلاث مدارس اسلامية من الاربع الموجودة فى سائر المغرب ، وأقفل معهد جسوس المؤسسة الحرة التى أسسها الاستاذ الحاج أحمد بلافريج بعد أن احتلها الجيش وحاصر أبناءها الصغار وجوعهم يومين قبل أن يبعثهم تدريجيا الى عائلاتهم ، كما طرد طلبة الليسيات الفرنسية وطلبة معهد الدروس العليا المغربية، وأما المدرسة الثانوية بأزرو التى أسست ليطبق على أبنائها نظام السياسة البربرية فقد أقفلت وسجن أغلب تلامذها من أجل تضامنهم مع اخوانهم واعطائهم الدليل العملى على فشل السياسة البربرية، وفى ايفران عزل مدير المدرسة المغربى، ثم أرسل للسجن، وأخيرا أقفلت القرويين وسجن مديرها وثلاثة من أعضاء مجلسها الاعلى العلمى، ثم نفوا، وقد ظلت الدراسة فى القرويين غير منتظمة مدة ثلاثة أعوام.

أما فى الناحية الادارية المغربية فينبغى ان نذكر الاستعفاء الذى أجبر عليه صاحب المعالى وزير العدل المصلح الكبير السيد محمد بن العربى العلوى الذى أبعد الى الصحراء ، وكذلك صاحب السعادة وزير المعارف السيد احمد برگاش باشا ازمور سابقا الذى فرضت عليه الاقامة الاجبارية، وكل من صاحبى السعادة باشا (محافظ) العاصمة الرباطية وخليفته .

ومن جهة أخرى فان سائر الموظفين الذين أمضوا تضامنهم مع الحزب فى ميثاق الاستقلال عزلوا أو أوقفوا لآماد مختلفة، ومن بينهم أساتذة المعهد الملكى وقاضيان من المحكمة العليا، وأربعة من سكرتيرى الدولة الشريفة، وعديد من موظفى المالية والاملاك المخزنية والتعليم والمواصلات والبوليس، وغيرها من المصالح .

وفى الجنوب المغربى عزل ثلاثة من القواد لتأييدهم حركة الاستقلال المغربى وفى فاس اتهم عشرون شخصا من اعيان الصناع بمشاركتهم

فى ذبح الجاسوس فحكم عليهم بالاعدام، ثم أبدل بالاشغال الشاقة المؤبدة، وقد مات خمسة منهم حتى الآن تحت التعذيب فى سجن القنيطرة .

أما الوطنيون المتهمون بالاتصال بالاجانب ظلما وعدوانا فقد نكل بهم أشد التنكيل، وارتكب معهم من الفظائع ما لم تقم به حتى دوائر الجستابو الالمانية، ومع ذلك فان المحاكم لم تستطع ادانتهم، وظهر أن معاملتهم كانت من طرف الادارة الفرنسية بالاتفاق مع الولاة العسكريين، أما المحاكم فكانت تنتظر اثبات شيء ضدا عليهم، ولكنها اضطرت الى تقرير براءتهم، وقد أطلق سراحهم جميعا الا الاستاذ بلافريج الذى ابعد الى جزيرة كورسيكا .

وانه لمن الانصاف أن ننوه بالصبر والثبات والشجاعة التى ظهر بها كل من الاخوان احمد مكوار وعبد العزيز ابن ادريس والهاشمى الفيلالى وابراهيم الكتانى ورشيد الدرقاوى فقد استحقوا جميعا شكر الوطن وتقدير المواطنين

وفى أواخر ديسمبر سنة ١٩٤٤ أشعرت ادارة المعارف آباء التلامذة الموجودين بالمدارس العربية الفرنسية بأنهم سيحالون جميعا على المجالس التأديبية لطرد كل من يثبت عليه المشاركة فى حوادث يناير وما بعدها، فنظم التلامذة فى سائر المدارس المغربية حركة مقاومة عظيمة نسقوها بمجالس محلية تخضع لمجلس مركزى بالرباط، وأذاعوا عدة بيانات ونشرات، ورفعوا احتجاجات ومذكرات، وقاموا باضرابات اضطرت معها الادارة فى النهاية العدول عن رأيها واعادة فتح المدارس المقفلة وترك التلامذة هانئين .

وهكذا خطا (حزب الاستقلال) بالحركة الوطنية خطوة عظيمة وحدت الامة بأسرها، وبعثت فى نفوس الكل وعيا قوميا أعجب به الجميع .

ونحن لا نستطيع ان نحصر هنا نتائج الحوادث التى وقعت فى هذه الايام المجيدة ولكن يمكن ان نسجل النقط الآتية :

١ ـ أن عشرات الوطنيين قتلوا فى أثناء المظاهرات .

٢ ـ أن أكثر من خمسة آلاف قد سجنوا ، وأن الذين نقلوا منهم لمحلة جارنييه وشاسور لاقوا من التنكيل والتعذيب ما لاقاه المحتلون الاوربيون من الجستابو.

٣ – أن عديدا من الشباب حكم عليهم بالاعدام، ونفذ فيهم صبيحة عيد المولد النبوى، وأن عشرات من الوطنيين حكم عليهم بالاشغال الشاقة بصفة مؤبدة .

٤ – أن المدارس الثانوية بقيت مقفلة طيلة عام كامل، كما بقيت المدارس الابتدائية فى مدن كثيرة لمدة ثلاثة اشهر، وأن جامعة القرويين التى نفى مديرها وعدد من رجالها بقيت غير منتظمة لمدة ثلاثة أعوام .

٥ – أن عديدا من المثقفين المغاربة اعتقلوا تحكما فى السجون العسكرية شهورا عديدة ببرج النور، ثم نقلوا لمحلة تتويب بالعاذر (قرب الجديدة).

٦ – أن وزيريين مغربيين عزلا من منصبهما ووضعا فى اقامة اجبارية .

٧ – أن عديدا من الموظفين عزلوا دون محاكمة ولا فتح ملف ... الخ.

* * *

والخلاصة ان الحوادث التى أعقبت يوم ١١ يناير تجعلنا نستنتج فى غاية الانتباه ، أن التضحية العظيمة التى قبل الشعب تقديمها من تلقاء نفسه فى سبيل القضية المغربية تدل على القوة الشعبية التى يتمتع بها (حزب الاستقلال)، وأن التدابير التى اتخذتها الاقامة العامة ضدا على المواطنين قضت الى حد بعيد على السمعة الفرنسية لا فى المغرب فقط بل لحقتها فى سائر العالم العربى، وبالعكس فان كل التهم التى حاولت الادارة الفرنسية أن تلصقها بأقطاب الحركة الاستقلالية لم تمسهم بسوء بل قضت هى نفسها ببراءة (الحزب الوطنى) و (حزب الاستقلال) من بعده ونبل الغاية التى يعمل لها رجالهما الاوفياء الذين لا يهمهم الا ان تتحرر بلادهم ، ويسعد أبناؤها فى ظل السلم والقوت والحرية .

ولئن كان الحزب قد خرج من هذه المعركة متعبا فقد خرج كذلك منتصرا أشد انواع الانتصار؛ لان الحركة بلغت من الانتشار والذيوع الى درجة لم تبلغها قط قبل هذا العهد، كما ان وجود الشهداء فى سائر الاوساط علم الشعب معنى التضحية الحقيقية، وأذاق الجمهور لذة الكفاح من أجل الاستقلال الذى يصبو اليه، وكثرة الضغط والمراقبة وامتلاء السجون ووفرة الضحايا، كل ذلك لم يمنع الحزب من الاستمرار فى العمل

وقد كان فى مقدمة ما قام به تنظيمه على شكل شبيه بنظام الحزب الوطنى، اذا استثنينا بعض التفاصيل الراجعة لصفات الناخب والمنتخب فى هيئات الحزب الرئيسية؛ فان الحزب الوطنى كان يعطى هذا الحق لكل منخرط فى الحزب ، ولكن حزب الاستقلال قسم المنخرطين الى قسمين ، مسيرين وهم الذين ينتخبون وينتخبون ولهم شروط خاصة لابد من توفرها، وانصاروهم من عداهم ويمكن لكل نصير ان يترقى لدرجة مسير اذا ثبت استعداده وكفايته، وقد عوض اسم (المجلس الوطنى) باسم (المجلس الاعلى للحزب) ، وأحدثت هيئة عليا تابعة للجنة التنفيذية يرجع اليها المشغلون الذين يثقفون الانصار ثقافة وطنية، وهم المسؤولون عن الحالة المعنوية والروحية فى الحزب .

على ان ظروف البلاد والارهاق الدائم بها يمنعنا من ان نتخذ نظاما ديموقراطيا مستقرا بكل معنى الكلمة ، ولذلك فان الاستقلاليين يقدرون الحالة ويتبادلون المسؤوليات والتضامن فى العمل مؤمنين بأن اخلاص الكل وانسجام العقيدة مغن عن كثير من الشكليات التى لا تسمح ظروفنا الحالية بها .

أما فى الناحية الاجتماعية فان الحزب لم يتأخر عن استئناف نشاطه ولا سيما فى ميدان التعليم الذى سنرى مقدار المجهودات التى يبذلها فى اذاعته والعمل على تنشيط مدارسه وطلبته ، مساعدا بذلك جلالة مولانا الملك الذى يرجع له الفضل الاول فى هذه النهضة العلمية التى أخذت تزداد بعناية جلالته كل يوم نشاطا وازدهاراً .

معارضة سياسة الاصلاحات

منذ حوادث الاستقلال أصبحت سياسة الحركة الوطنية معارضة كل ما تسيمه الاقامة العامة بالاصلاحات، أو بصفة أوضح أصبح الحزب معارضا كل المعارضة لسياسة التعاون مع الاقامة على أى شىء يقع فى دائرة الحماية وتحت توجيهها .

والحقيقة أن التجربة دلتنا على أن الاصلاحات التى تضعها الاقامة ليست الا شيئا خياليا لا مصداق له، أو أنها فى العمق محض محاولات جديدة لغصب البقية الباقية من مظاهر السيادة المغربية أو التراث الوطنى، والحزب يرى أن الخلاف بيننا وبين فرنسا خلاف أصلى ليس محله التفرعات الخاصة التى يختلف الجدل حولها باختلاف ما تنبنى عليه من أساس، وهو يرى أن نقطة مهمة لابد من وجودها ليكون الاصلاح اصلاحا بالمعنى الصحيح؛ تلك هى امتلاك الوطنيين المغاربة لتوجيه هذه الاصلاحات؛ لانه ما دامت الدولة المحتلة هى التى توجه وتقترح ما تريده من اصلاح فهى لا تنفك تفكر وتنجز على أساس مسلم عندها وهو توجيه المغرب نحو الادماج فى فرنسا أو على الاقل نحو حكم ذاتى فى دائرة الاتحاد الفرنسى، وهذا ما يختلف تماما عن الناحية التى يؤمها الوطنيون والتى يريدون أن يضعوا الشعب فى اتجاهها وهى ناحية الاستقلال التام، والانضمام الى الجامعة العربية ، وتقديم التضامن مع الشعوب العربية على كل تضامن سواه .

على أن هذا لا يعنى أبدا أن الحزب يعارض الاصلاح من أصله، ولكن يعتبر هذا الاصلاح مسألة داخلية ترجع للمغاربة وحكومتهم ، ولذلك طلب ميثاق الاستقلال من جلالة الملك أن يرعى مسائل الاصلاح بعنايته، وحينما يصل جلالة الملك لاستخراج بعض الحق ويطلب من الحزب المساعدة الفنية على انجازه فان رجال الحزب لا يتأخرون أبدا عن تلبية دعوة مليكهم متعاونين معه على تحقيق اصلاحاته الكريمة ، كما فعلوه فى اللجنة الملكية التى وضعت ميثاق التعليم المغربى .

والاقامة العامة التى تدعى أن لها وحدها الحق فى اقتراح ما تراه مفيدا للمغرب من مشروعات اصلاحية طبق معاهدة الحماية يعتبرها

الحزب متطاولة على حقوق السيادة المغربية، ولذلك فهو لا يقبل معها أي، تعاون فى دائرة النظام الحاضر، ولكنه لا يرفض الاصلاحات التى تقترحها على جلالة الملك اذا لم تكن منافيـة فى حقيقتها وفى أسلـوب عرضها لما تقتضيه هذه السيادة ، وان كان لا يعترف لها أبدا بأحقية هذا العرض الذى تدعيه لنفسها .

وأخيرا فان الحزب يرى من ضياع الوقت أن يصرف جهـوده فى مطالبة الحماية فى شؤون جزئية، ويفضل أن يبذل نشاطه وتضحيات أنصاره فى خدمة المسألـة العامة التى فى حلهـا مفتاح كل المسائـل الجزئية ونجاحها، وسنرى أنه يمشى للاصلاح بطريقة مباشرة بانجازه كل ما يمكن انجازه من مدارس ومعاهد وشركات ومراكز اسعاف وغير ذلك من الاشياء التى يرى أن تطبيقها الفعلى هو خير ضمان للوصول اليها .

وهذه السياسة التى اتبعها الحزب هى عين الايجاب لانها هى التى تحقق آمال الامة ورغباتها، أما سياسة المراحل والتفاوض فى الجزئيات فهى سياسة أثبتـت التجربة سلبيتها عمليـا ، لانها لم تؤد الى نتيجـة واضحة لا فى المغرب ولا فى الجزائر وتونس، ولذلك فمن العبث بل من الاجرام المضى فيها بعد ظهور فشلها .

اصلاحات مسيو جبريال بيو :

بمجرد ما مرت بضعة أيام على حوادث الاستقلال أعلـن المسيو جبريال بيو مقيم فرنسا العام بالمغرب عزمه على ادخال اصلاحات عميقة فى البلاد، ثم جاء مسيو ماسيجلى مفوض الخارجية فى اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى للرباط ليطمئن جلالة الملك على قبول فرنسا لتنفيذ هذه الاصلاحات .

وفى يـوم ٢٢ مارس سنـة ١٩٤٤ ترأس المقيـم العام مجلـس الاستشارة للشؤون الادارية، وفى يـوم ٢٤ منه ترأس لجنـة التأمين والفلاحة واليد العاملة، وفى يوم ٢٥ مارس ترأس لجنة العدلية، وكان الصدر الأعظم من الحاضرين فى كل هذه اللجان .

وقد قررت لجنة الفلاحة تأسيس الملك العائلى الذى لا يفوت ، كما قررت لجنة الشؤون الادارية المساواة بين المغاربـة والفرنسيين فى الوظائف العامـة .

وفى لجنـة العدلية حصل نقاش قـوى بين الاعضاء الفـرنسيين والاعضاء المغاربـة ، اذ اراد الفرنسيون ادخال المغاربة فى اختصاص

المحاكم الفرنسية ، فعارض المغاربة ذلك، كما رفض ممثلو الحكومة الشريفة الموافقة عليه بالاجماع .

أما لجنة التعليم فقد قررت استمرار اللغة الفرنسية فى جانب العربية ، وفتح أبواب الليسيات الفرنسية للابناء المسلمين ، وتأسيس عدد كاف من المدارس الابتدائية للاهالى .

وقد لخص مسيو بيو أعمال المجلس فى خطابه الختامى حين قال.

«فى هذا اليوم الذى يحتفل فيه المغاربة بعيد الاضحى أجدنى سعيدا حين أعلن أنه باقتراح من حكومة الجمهورية الفرنسية وافق جلالة الملك على مجموع تدابير سيكون لها أثر تاريخى فى تطور المملكة الشريفة» وبعد ما نوه بالمجهود الذى بذلته اللجان الفنية قال : «ان اهتمام حكومة الحماية (كذا) كان موجها الى ثلاث نواحى :

١ – أن تسمح للمغرب بالتوجه تدريجيا الى شكل الحكومة التى تتمتع بها الدول العصرية .

٢ – أن تعطيه النخبة القادرة على مواصلة هذا التطور .

٣ – أن ترفع مستوى مجموع الشعب وبالخصوص الفلاح الذى يكون أغلبية السكان الساحقة .

ثم أخذ المقيم يشرح هذا الاصلاح فبين أن قضية العدلية وجدت صعوبات كبيرة لان فصل السلطات عن بعضها خلق أوربى من الصعب تطبيقه – بزعمه – فى البلاد الاسلامية دفعة واحدة ، ولذلك فان مراحل الانتقال ضرورية فى الموضوع الى حد أن هذا الاصلاح البسيط نفسه سيكون أولا موضع تجربة فى بعض المدن الكبرى، ولاتمام العمل فقد أسست لجنة لتحرير قانون العقوبات ...

ثم نبه المقيم الى أن عصرية المحاكم تستدعى تكوين قضاة عصريين ، ولذلك فقد اهتمت بما يرجع لاستخدام نخبة البلاد التى فتحت الحكومة فى وجوهها عدة ادارات منظمة على النهج الاوربى ، (المالية، والاشغال العامة، والاقتصاد)، كما سمحت بمساواتهم فى الاجور مع الموظفين الفرنسيين الذين من طبقتهم (يعنى فى أصل الرواتب، أما الفوارق الاستعمارية فلا تزال قائمة)، ولكن تكثير عدد هذه النخبة متوقف على اعدادها، ولذلك فان تيسير التعليم وتكثير المدارس مما رأته الاقامة ضروريا لتحقيق أهدافها .

ثم ختم المقيم خطابه بالحديث عن ضرورة الاهتمام بالفلاح وتحسين حالته ، وعن اقرار الملك العائلى غير المفوت، وتأسيس مجلس أعلى للاقتصاد الفلاحى الذى يهتم بتطبيق برنامج (البايسانه)

هذه هى الاصلاحات التى اعتبرتها الاقامة العامة تدبيرا من شأنه أن يخفف وطأة المقاومة المغربية، وقبل أن نشرح وجهة نظر الامة فيها نشير أنها لم تطبق بالمرة ، وما طبق منها حرف تحريفا جعله عديم القيمة فقانون العقوبات لحد الآن لم يصدر ولم يوضع، والملك العائلى حرف تطبيقه الى حد جعل مصلحته معدومة أو قليلة الفائدة .

حزب الاستقلال يجيب المسيو بيو :

ولذلك فقد اضطر (حزب الاستقلال) ليشرح بتدقيق ما يطلبه الشعب المغربى منذ ١١ يناير سنة ١٩٤٤ مبينا أن الشرط الضرورى (Sin qua no) لكل تفاهم هو تحرير السيادة المغربية، وأن كل تعاون قبل اكمال هذا الشرط غير مقبول .

وقد أذاع الحزب رده على ادعاءات المقيم العام فى بيان وزعه على الجمهور ومما جاء فيه :

«فالاقامة العامة أعلنت بعد الحوادث المؤلمة تأسيس أربع لجان يوم ١٦ مارس سنة ١٩٤٤، ولكن بالاسف اذا نحن أغفلنا الجمل المعسولة التى يحتوى عليها البيان المقيمى والتحفظات العديدة التى تحصرها وتجعلها غير قابلة للتنفيذ وجدنا هذه التعبيرات مجرد كيات فى غير محلها؛ لانها تهتم بحل عميق للازمة المغربية بقدر ما تهتم بخلق جو غامض يفيد فى استمرار سياسة التخدير والتهدئة المتبعة حتى الآن .

«وبعد فان الطبقة المتنورة فى المغرب لم تعر أدنى التفات لقرار المقيم العام الصادر فى ١٦ مارس سنة ١٩٤٤ لانها تعرف عن طريق التجربة أنه لا يمكن انتظار شىء مهم من اللجان الرسمية التى هى وسيلة تقليدية لقبر جميع مشروعات الاصلاح الحقيقى .

«ولكن بما ان الاصلاحات نتيجة بحث استمر ستة اشهر فيجب ان ندرسها وننقدها بكل اخلاص :

العدلية :

«يمثل تنظيم العدلية الشريفة كجزء من الادارة العامة هذين الصفتين المزدوجتين: تبلور نظام عتيق قضي عليه وغير عن شكله، والسكوت أمام المتصرف أو المراقب الذى يتحكم فيه كيف يشاء تحت ستار الرئيس المغربى الصورى الذى يختار عادة من بين الاميين الطماعين الذين لا يقبلون هذه السلطة الوهمية الا ليجدوا وسيلة لاختلاس محكوميهم .

والسلطة السياسية التى من شأنها أن تقوى مركز الرئيس المغربى وتساعده على العمل يضحى بها المراقب الفرنسى مقابل غض هذا المراقب الطرف عنه لقضاء مآربه الشخصية، ويستفحل خضوع هؤلاء الرؤساء بفقدان قانون العقوبات الذى يجعل المراقب يحكم كما يريد .

«ويعتبر كل باشا وكل قائد رئيسا مطلق النفوذ على مرؤوسيه، ومن الطبيعى ان يتحكم كيف يشاء فليس ملزما بالبحث ولا بدراسة موضوع الملفات ولا بحق الدفاع ولا حرية جلب المحامين ، وكل ما هو من شأن العدالة يمكن ان يحذف او يهدم برسالة من الحاكم الفرنسى او بدقة تيلفون ، وكم يتملص الولاة (برسالة الطابع) مدعين تنفيذ أوامر الحكومة العليا .

فمجموع هذه الحالة هو الذى كان يجب ان تدرسه لجنة العدل لاجل تقرير وسائل تحسينها :

١ ـ تأسست لجنة القانون لتحرير قانون العقوبات فيجب ان نسجل أنه منذ صدور القرار المقيمى لم تجتمع هذه اللجنة الا مرة واحدة هى اجتماعها التأسيسى .

٢ ـ اما اللجنة الاستشارية للعدل فقد كلفت بدراسة مسألة فصل السلطات، هذا الفصل الذى يمكننا أن نؤكد وجوده فى الشريعة الاسلامية قبل أن يعرفه المشرعون الاوربيون، على خلاف ما زعمته الاقامة؛ اذ الواقع ان القانون الاسلامى العام يقضى بأن يستمد سلطته من الشريعة مباشرة، ويتمتع بكامل الاستقلال عن السلطة التنفيذية التى لا تتدخل الا فى شأن توليته.

«ولكن اللجنة قد حصرت فصل السلطات فى الشؤون المدنية والتجارية، كما قررت الاقتصار فى التطبيق على المدن الكبرى، واختصاص الباشا والقائد الجنائى الذى يعتبر اشد فظائع النظام الحاضر بقى كما هو، وهذا التحديد يزيل كل أهمية للاصلاح؛ لان القاضى الذى يمكنه أن يفعل بالشخص كل ما يشاء يمكنه دائما عن طريق هذا الحق أن يتحكم فى ذلك ايضا، ولقد قال منتسيكيو الكبير : (ليس هنالك حرية اذا لم تفصل قوات الحكم عن قوة التنفيذ والتشريع؛ لانها اذا انضمت الى السلطة التشريعية أصبح القاضى مشرعا؛ فاذا انضمت الى السلطة التنفيذية أصبح القاضى قادرا على الظلم).

«فأغراض واضعى الاصلاح المقيمى اذن واضحة، فهم يهتمون بالمحافظة على الوسائل التى تسهل عليهم دوام النظام بطريق القوة ،

واجبار الشعب على الطاعة عن سبيل الارهاق اكثر مما يهتمون بادخال تحسينات على القضاء المغربي، وعليه فاتقاء التحكم بتحديد سلطة القاضي، واعطاء هذا الاخير الضمان الكافي من أثر كل ضغط او اعتداء عليه من طرف السلطة التنفيذية وحماية الافراد من سيطرة كل جستابو قادر على أن يسجنهم في كل لحظة او يسيء اليهم من غير أدنى رقابة الا التي ترجع الى الادارة غير المسؤولة ـ كل ذلك يؤدي في ادعائهم، الى زعزعة اساس النظام والطمأنينة العامة .

«ولكن ماذا يعني اذن اقرار السلطة القضائية المعتز بتنظيمها والموضوعة لاشياء ، من بينها فصل السلطات، واستقلال القضاء، والمحافظة على كرامة القضاة، اذا لم تتم حرية الشعب، وينته استغلال الانسان لاخيه الانسان، ويندحر مبدأ الاستعمار ؟ ! . انه من السهل ـ كما قال بعض الصحافيين ـ على الاقوياء أن يقاوموا الضعفاء، وليس كذلك للضعفاء حين يريدون مقاومة الاقوياء ، وحينما يضيع سهر المحكومين على مصالحهم ويختل التوازن في صالح القوة لا يبقى للشعب اي اختيار الا بين اثنين : الاستعباد، او الثورة، لكن غالبا ما يكون اختلال التوازن مستفحلا اما بصفة ظاهرة او مقنعة بمصالح حيوية مزعومة، وهكذا ينشأ المستبدون، وهكذا تحدث الثورات.

الادارة العامة :

«يمكننا ان نلخص التدابير المتعلقة بالادارة العامة فيما يأتي : اعطاء بعض الوظائف للنخبة المغربية ولكي تقبل النخبة هذا العطاء قرر لها التساوي في الاجور عند تساوي الكفايات .

« ولكن لم يكن من الضروري ان تشكل لجنة كاملة للوصول الى هذه النتيجة لان مسألة توظيف النخبة المغربية في الادارة الشريفة المجددة مسألة مفروغ منها بمقتضى ظهير سنة ١٩٣٨، وأيضا فان مسألة المساواة في الاجور وضعت على بساط البحث منذ اوائل عهد الحماية، وقدم فيها الذين يهمهم الامر أنفسهم عدة مطالب ودراسات ، وقد هيأ لها اتحاد الموظفين حلا يجدر بالمقيم العام أن يوافق عليه اليوم، لكن لا ينبغي للموظفين المغاربة ان يطمئنوا ؛ لانه ليس للحل المقرر الا اهمية محدودة. اذ لا يستفيد منه الا ذووا الاطارات (الكادر) الخاصة الموازية للاطارات الفرنسية مثل التراجمة والكتاب ومتصرفي البوليس وفقهاء الضرائب والاداءات والكتاب المركزيين للحكومة وقضاة المحكمة العليا

الشريفة وخلفاء الباشوات الخ.. فالتحيز وعدم المساواة ما يزال قائما فيما اذا لم تكن للمغاربة نفس الكفايات التى يقدمها الفرنسيون، مع العلم بأن أغلبية المغاربة غير مختصة، ان لم نقل ليست تقنية لا يستطيع الفرنسيون أنفسهم اقتناءها، ولكن ألا يصدر القاضى المغربى أحكاما ؟ ألا يقوم أحد كتاب الصدر الاعظم بوظيفة المحرر ؟ ! وبعبارة أخرى ألا يستحق المتخرجون من التعليم العربى المحض الاعتبار فى بلد كانت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة فى جميع الاوقات ؟

«ومن جهة أخرى أليس من التحكم الابقاء على عدم المساواة فيما يخص التعويضات بالنسبة لهذا الصنف من الموظفين ؟ ! ألم توضع هذه التعويضات لاجل مساعدة الموظفين فى تكاليفهم العائلية او لتشجيعهم على بناء الاسرة، وذلك بقطع النظر عن كل اعتبار للقيمة المهنية ؟ !

«لقد استدلوا بعجز الاطار المغربى، ولكن من هو المسؤول عن ذلك؟ أليس من المؤلم أن يكون البلد المحمى بعد ثلاثة وثلاثين عاما من الحماية قاصرا عن اعطاء الاطار اللازم لتطوره ؟ وليس من الممكن ادعاء أن الحماية يوم أسست وجدت فراغا كاملا أمامها، وأنها ليس من الممكن أن تملأ ذلك الفراغ فى اقرب وقت، فقد قال ليوطى فى تقريره للحكومة الفرنسية فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٠ : (لقد وجدنا هنا دولة وشعبا، انهما حقيقة فى أزمة وفوضى، لكن هذه الازمة حديثة العهد، وهى حكومية اكثر منها اجتماعية، واذا كان المخزن قد بقى مجرد مظهر، فانه كان على الاقل قائم الذات، ويمكن الرجوع الى الوراء قليلا لنجد منه حكومة فعالة تمثل فى العالم دولة بوزرائها الكبار وسفرائها الذين اتصلوا برجال الدولة الاوربية ولا يزال البعض منهم حيا الى الآن، واذا قطعنا النظر عن المخزن فاننا نجد أمامنا منظمات لا تزال قائمة تختلف بحسب النواحى ولكنها تمثل حقية أشياء موجودة).

«واذن فالمغرب لم يكن متأخرا كما يريد البعض أن يدعى، بل كان على العكس مستعدا لمسايرة اشكال الحكومات العصرية، واذا لم يكن قد تطور الآن فذلك لانه لم يجد اى مساعدة من طرف الحماية، بل ان هذه الحماية قد اتجهت به الى نظام الحكم المباشر.

«واما فيما يرجع للادارة العامة الحقيقية فقد بقيت تدابير الاقامة العامة معدومة، والحال أنها هى عش الازمة الحاضرة .

«وقد كان واجبا على اللجنة أن تثبت فى هذا الموضوع قيمتها، وتعمل حقيقة شيئا مفيدا، ومهما يكن فاذا كانت النخبة المغربية لا تهتم كثيرا بالوظائف المغربية فذلك لانها فهمت جيدا انها لا تدعى الا للقيام بدور ثانوى، كما أنها اقتنعت بأن النظام الذى تطالب بخدمته ليس الا مجموعة من المؤسسات المبنية على الغموض والمحسوبية، وعدم المسؤولية، واجحاف، وأن عملها ليس لترشيد الشعب المغربى ولكن لاستعباده .

«ومن المفيد ان ننقل هنا هذا النص الذى يشرح عيوب هذا النظام الاساسى، قال ليوطى فى تقريره المذكور :

(جميع التدابير الادارية تصدر باسمه (يعنى السلطان) فهو الذى يمضى الظهائر، ولكن ليس له فى الواقع أى نفوذ محلى، ولا علاقة له الا بالمستشار السلطانى الذى يراه يوميا، ولا يأخذ رأيه الا بصفة شكلية ، أما الصدر الاعظم وبقية الوزراء فلا يشاركون فى أية مذاكرة تتعلق بالمسائل المهمة التى تدرس بعيدة عنهم فى المصالح الفرنسية، وليس هنالك اتصال بين رؤساء هذه الادارات وبين الوزراء والمخزن الذى لا يتحرك ويكاد ينهمك فى سبات لذيذ، ويلاحظ بسهولة ان احتكار الولاة الفرنسيين للسلطة التشريعية حملهم على أن يكونوا هم وحدهم المنفذين لقراراتهم، وقد ادى ذلك الى مزج السلطات وعدم وجود مسؤولية حكومية بالمرة).

«وقال رونييه فنلاند الناشر المشهور : إن اقل الناس انتباها يدرك أن البلدان تفقد قدرتها اذا كان خمسمائة مليون من ميزانيتها البالغة مليارا من الفرنك يصرف فى نفقات الادارة، وثلاثمائة مليون على فائض الديون، تلك هى حالة المغرب !

«فحكومة ذات عشرة آلاف موظف فى بلد سكانه ثمانية ملايين ، ان ذلك لشىء غريب !

يوجد فى المغرب ثلاثة وستون عنوانا لانواع التعويضات، ومن بينها تعويض التقنية والمحصول، مع أنهما السبب فى تأجير الموظفين الذين شأنهم ان يعرفوا ويمارسوا مهنتهم، والامتيازات والعطاءات والصلات هى التى ترفع الارقام التى تتحملها الميزانية المغربية (ملخص من جريدة صدى باريس) .

التعليم :

«كيف يمكن ان تحل مشكلة التعليم فى المستعمرات الفرنسية وبلاد الحماية؟ لقد أجاب على ذلك الاختصاصيون فى السياسة الاهلية بأنه لا ينبغى تعميم التعليم بين الاهالى لما فى ذلك من الخطر الذى يبعث فى نفوسهم آمالا سياسية تقضى يوما على سيطرة المحتل نفسه، لا ينبغى نشر التعليم بسخاء كما توزع الكينا، ولكن يلزم ان يقدم ويوضع تحت تصرف المسلمين كجائزة وتشريف تخصص به الارستقراطية الاهلية ، ومن المفهوم عند الامة الفاتحة ان الشباب المدرسى المختار من بين أبناء الاعيان يلزم ان يعد لملء الوظائف الحكومية او لاعانة ادارتنا. ذلك ما قاله مؤلف «موجز السياسة الاسلامية» المطبوع بمطبعة بوسار بباريس سنة ١٩٢٥

«ان التعليم هنا ليس غاية لذاته، وانما هو وسيلة للحصول على الفتح المعنوى الذى هو الغاية الكبرى للمدرسة الاهلية. وذلك ما قاله ايضا الكراس الذى نشره المدير العام للتعليم العمومى سنة ١٩٣٠ .

«وجاء فى منشور لادارة المعارف (نشرة التعليم رقم ٢٥ فى سنة ١٩٢٠) التعريف الآتى للمدرسة :

المدرسة تكتفى برفع القيمة المعنوية لمقدرة الاهلى المهنية، وهى عامل للثروة والسلم والشغل، أما السياسة بالمعنى الاوربى العصرى للكلمة فلا يتفق مع العمل التقدمى الذى نقوم به هنا ، وعليه فلا ينبغى ان يذكر لا فى ترشيد المواطنين المغاربة ولا فى تحرير المرأة .

« اذن فالتعليم فى المغرب لم يعتبر الا من جانب مصلحة الاستعمار الفرنسى ، وهذا شىء حقيقى الى حد ان الادارة فى سبيل تقسيم البلاد وعرقلة التقدم الثقافى للمغاربة اظهرت كل خصومتها لشكل المدرسة الموحدة الذى يطبق فى سائر العالم ، فأصبح المغاربة ملزمين بتقديم (الزبائن) لمختلف أشكال المدارس وهى :

المدرسة الفرنسية العربية.

المدرسة البربرية.

مدرسة أبناء الاعيان.

المدرسة الصناعية.

المدرسة القروية للمناطق العربية.

المدرسة القروية للمناطق البربرية.

المدرسة الاسلامية لبنات الاعيان.

المدرسة الاسلامية للبنات.

«وانه لمن المتيقن ان هذا العزل سيستمر اذا لم يزد تنوعا بمقتضى الاصلاح الذى أعلنه المقيم العام.

«وان عمل الحماية بعد ثلاثة وثلاثين عاما ليتفق مع المبادىء المذكورة سابقا، فقد أنجبت ثلاثة أطباء وستة محامين وستة مهندسين زراعيين ، وعليه فلا يمكن ان ننتظر الآن من التعليم الفرنسى الاسلامى المبنى على هذه الاسس أن يصل الى تكوين الاطار الذى يتوقف عليه المغرب فى امد قصير بمجرد زيادة خفيفة فى عدد المدارس.

«وأيضا فان هذه الزيادة الضئيلة فى برنامج الحماية لا تقضى الا بتأسيس مائتى فصل تشتمل على عشرة آلاف تلميذ كل سنة وذلك لمدة بعض الاعوام، فى حين انه يوجد زهاء مليون من الاطفال فى السن المدرسى، منهم ثلاثون ألفا فقط منخرطون فى المدارس الموجودة.

«فاذا اعتبرنا ان عدد السكان فى بلد ما يتضاعف كل خمس وعشرين سنة بمقتضى ناموس معروف فسنجد انفسنا فى المدة المنتظرة ازاء ارتفاع محسوس فى عدد الاطفال المهملين.

«ان ادارة الحماية تعتذر أحيانا بفقد الاعتمادات، وأحيانا بظروف الحرب وما أدت اليه من فقد المواد البنائية، ولكن هذه الصعوبات تتغلب عليها الادارة حينما تحتاج لارضاء السكان الاوربيين الذين لا يؤدون الا خمس ميزانية المغرب.

النظام الفلاحى :

«أما فيما يرجع للبرنامج الاقتصادى فقد سكت مشروع الاصلاح المقيمى عن العمال وصناع المدن الذين هم فى حالة سيئة، ولكنه يشتمل على بعض الاشياء فيما يرجع للفلاح، نعم ان لجنة النظام الفلاحى قد اضطرت الى الاعتراف بأن تطور العمال الزراعيين أساس لتطور جميع البلاد، وهذا صحيح خصوصا بالنسبة الى شعب تكون القرية ستة أعشاره .

«ولكن الوسائل التى قررتها هذه اللجنة لترضية جمهور الفلاحين المغاربة ورفع مستوى حياتهم عديمة القيمة؛ لانها تقف عند تشكيل مجلس أعلى للنظام الفلاحى، وانشاء مشروع زراعة اجماعية لما يبلغ ألفى هكتار من الارض وأخيرا احداث ملك عائلى غير قابل للتفويت.

«ان تجاربنا للاساليب الادارية علمتنا أن تأسيس مجلس ما يعادل تأجيل العمل لاجل غير مسمى، وهكذا ينبغى لفلاحينا أن لا ينتظروا نتائج ملموسة ومستعجلة من المجلس الاعلى المذكور الذى لا تتعدى مهمته حدود دراسة المسائل الراجعة الى وضع ميثاق ينظم أحوال (الخماس)

«وقليل من الناس من يعرف أن مشروع الزراعة الاجماعية سيقع على ألفى هكتار، وذلك شيء ضئيل جدا، وعلى العكس فان تأسيس ملك عائلى غير قابل للتفويت لو طبق باحتياط لوضع قسما من أبناء القرية فى مأمن من البؤس، وأرضى فى النهاية جميع الذين طالبوا بهذا الاصلاح منذ عشر سنوات عند ما كان الفلاح لم يضيع بعد أغنى تراثه غير المنقول.

«لكن اعطاء الفلاح المغربى قطعة من الارض ليس كل شيء؛ لان حالة الفلاح تدعو الى حلول اكثر جراءة وعمقا، والاصلاحات التى تتطلبها حالة الفلاح الوقتية تتناول بصفة عامة ما يعيد له كرامته الانسانية، ويحسن معيشته المادية وحالته المعنوية بالقضاء على الامتيازات الاقطاعية وضمان اطمئنانه الشخصى وحفظ ماله وحمايته من المرض والبؤس والجهل .

«ان البدو المغاربة الاذكياء لم يحصلوا فى مجموعهم على أى تقدم أثناء الثلاث والثلاثين سنة الماضية، ولم يبقوا فقط فى الحالة المزرية التى كانوا عليها، بل انهم أصبحوا يكونون جيش الارقاء المسخر لخدمة الرؤساء المغاربة او المراقبين الفرنسيين او المعمرين او موظفى الجبايات ورجال ادارة المياه والغابات .. الخ.

«والسلطات التى كان يجب ان تحمى الفلاح من جهله ومن عدم احتياطه لم تقم باداء مهمتها، بل انها شجعت اولئك الذين يستغلونه ويظلمونه، وشاركت بكيفية غير مباشرة ـ وحتى بكيفية مباشرة ـ فى تصعلكه.

«واكثر من هذا فان السلطات حينما رأت أن الفرصة قد أتيحت للفلاح المغربى لكى يسترجع البعض من تراثه المنتزع منه لفائدة الاستعمار عملت بحزم لمنعه من شراء الاملاك التى عرضها الاوربيون للبيع منذ سنة ١٩٤١.

«وأيضا فان الفلاح قد أهمل حتى انه ما زال يحرث أرضه بالاساليب العتيقة، ومعنى هذا ان كل اصلاح لا يرمى الى تكوين اطار فنى مغربى بقصد تحسين وسائل الفلاحة الاهلية هو اصلاح يؤدى حتما الى الفشل».

الدفاع عن سيادة الشعب :

واذا كان هذا الكفاح مستمرا ضدا على سياسة الاقامة العامة وأساليبها فان الحركة الاستقلالية بمراكش لم تقصر عملها على ذلك ، بل وجدت نفسها مضطرة لمقاومة المجهودات التى يبذلها الفرنسيون على اختلاف أنواعهم وأحزابهم لاغتصاب السيادة الشعبية للمغرب، وقد استمرت هذه المقاومة منذ عهد الكتلة ولا تزال دائبة الى اليوم، والحقيقة أن التنزل لمطالب السكان الفرنسيين فى البلاد يعتبر أكبر خطوة لفرنسة المغرب أو ادماجه فى عائلة الاتحاد الفرنسى .

ولقد قاومت الكتلة الوطنية محاولة الفرنسيين تكوين مجالس مغربية يملأون مقاعدها ويكون لهم فيها حق الاقتراع والنقد لاعمال الحكومة، وحاول الجنرال «نوجيس» أن يبعث هذه المطالب بعد أن فشل أصحابها، ولكن الحزب الوطنى أنذره فى غير هوادة بأنه لا يقبل تنفيذ أى مشرع من هذا القبيل ولو استوجت ذلك الثورة واراقة الدماء .

ولكن دخول الجنرال ديجول الى شمال افريقيا ونداءاته المتوالية للجالية الفرنسية، وسياسته التى كانت ترمى للاستعانة بفرنسيى المستعمرات على معارضيه من أنصار فيشى وغيرهم، وآمال الفرنسيين فى تكوين نظام جديد خير من نظام الجمهورية الثالثة الذى ينسبون اليه كل أسباب الهزيمة فى الحرب، والفشل فى السياسة ـ كل ذلك جعل الفرنسيين يعيشون فى جو امبراطورى استعمارى (حسب تعبيرهم) لا ينظرون لفرنسا ومستعمراتها والبلاد المحمية بها الا كشىء واحد لا يقبل التجزئة ، ولذلك فقد أخذوا يطالبون بتشريكهم فى كل ما يرجع لمصير فرنسا وشؤونها، وقد تجلى هذا الامر فى مظهرين :

الاول ـ المطالبة بتعيين نواب منهم فى البرلمان الفرنسى .

الثانى ـ فتحهم أبواب الاحزاب الفرنسية فى المغرب لقبول المنخرطين المغاربة .

وقد وقف الحزب من هذين الامرين موقف الكفاح القوى دفاعا عن سيادة الشعب المغربى ونضالا فى سبيل الوحدة الفكرية فى البلاد .

وحينما بدأت الحملة الانتخابية لتعيين أعضاء الجمعية الفرنسية قرر القسم الفرنسى لما يسمونه بمجلس شورى الحكومة بالرباط فى اجتماعه الختامى المطالبة باشتراك الفرنسيين فى هذه الانتخابات، فرفع الاستاذ اليزيدى باسم اللجنة التنفيذية للحزب احتجاجا لجلالة الملك وللاقامة العامة نرى من الفائدة تلخيصه هنا :

«ان حزب الاستقلال المتأثر لادعاءات الجالية الفرنسية أن لها الحق فى التمتع بالحقوق السياسية فى المغرب .

«بعد ان اعتبر القرار الذى اتخذه القسم الفرنسى لمجلس شورى الحكومة فيما يرجع لهذا المعنى.

«وبعد ان اعتبر كذلك أن مجلس الوزراء الفرنسى اتخذ تدابير لتطبيق هذا القرار وان الاقامة العامة أصدرت كذلك قرارا بهذا المعنى مؤرخا بيوم ٤ أغسطس ١٩٤٥

«وحيث إن الحق الوحيد الذى يمكن ان يتمتع به الفرنسيون وغيرهم من الاجانب بالمغرب هو الحق الشخصى المعترف به بمقتضى ظهير ١٩ أغسطس سنة ١٩١٥ الراجع للاحوال المدنية.

«وحيث إنه لا يمكن تناسى السيادة المغربية المؤكدة حتى بالمعاهدات القائمة ولا سيما معاهدة الجزيرة.

«وحيث إن المعاهدات المفروضة على المغرب برغم ما غصبته من حقوق ديبلوماسية فقد أبقت المغرب بلادا تتمتع بالحكم الذاتى وتعتبر أقاليمه أجنبية عن الاراضى الفرنسية.

«وحيث إن عديدا من الاحكام الصادرة من المحاكم الفرنسية العليا قد أكدت هذا المعنى وشرحت حتى المقصود من الحماية المفروضة.

«وحيث إن هذه النظرية هى التى تنبنى عليها أحكام سياسية وقضائية أهمها بالنسبة للوقت الحاضر أن المؤسسات السياسية الفرنسية لا يمكن ان يكون لها محل فى المغرب الذى هو بلد أجنبى؛ لان التمتع بالحقوق السياسية مرتبط تمام الارتباط بجنسية الاقليم، وقد صرح الماريشال ليوطى فى خطاب ألقاه بالرباط يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٨ بأن الفرنسيين يضيعون وقتهم حين يطالبون بالحقوق السياسية فى المغرب وأنه لا يمكن أن يحصلوا على أى تمثيل سياسى.

«وحيث إن منح الجالية الفرنسية حق الدخول فى انتخابات الجمعية التأسيسية أمر ارتكبته الحكومة الفرنسية خرقا لكل التعهدات والالتزامات

«وحيث إن السكوت على هذا الواقع يعد مشاركة فى جريمة اقتطاع الوطن وتجنيسه فان الحزب :

١ ـ يحتج بكل صرامة ومع اليقين الذى يكسبه الحق الثابت على قرار الحكومة الفرنسية المخالف للمعاهدات والصادر من غير ادنى استشارة للمغاربة .

٢ ـ يستنكر حركة المطالبة التى تقوم بها الجالية الفرنسية والتى تعتبر خطرا يهدد الدولة المغربية والشعب المغربى .

٣ ـ يوجه نظر جلالة مولانا الملك للخطر الذى يهدد السيادة المغربية التى يعتبر مولانا حارسها الامين.

٤ ـ يطالب الحكومة الفرنسية بالغاء التدابير المتخذة فى هذا المعنى والتى تذكر من قريب او بعيد بسياسة التجنيس والادماج»

(الرباط فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٥)

وقد كان لهذه المذكرة أثرها الفعال؛ اذ قدم مولانا جلالة الملك نصره الله احتجاجه على تصرف الفرنسيين، وطالب بالغاء التدابير التى اتخذتها الاقامة العامة فى الموضوع.

وقد اضطر المقيم العام الى اصدار بلاغ يؤكد فيه ان الفرنسيين لن يتمتعوا بحقوق الانتخابات فى البرلمان الفرنسى ، وأن انتخاب الجمعية التأسيسية لن يتكرر منهم ، وما اعطى لهم هذه المرة الا بصفة استثنائية نظرا لاهتمامهم بالمصير الفرنسى ، وهكذا نجحت الحركة الوطنية بالمغرب فى دفع اعتداء جديد على سيادتنا الشعبية بفضل الموقف الحاسم الذى وقفه سيدنا نصره الله .

ولكن هذا لم يمنع الاحزاب الفرنسية من الاستمرار فى خطتها من المطالبة ومحاولة قبول المغاربة فى صفوفهم بدعوى الدفاع عن حق المساواة بين الاهالى والفرنسيين ، ولذلك اضطر الحزب للقيام بحملة كبيرة لمقاومة هذا الخطر الجديد وقد نجح مرة أخرى فى الزام أغلبية الاحزاب الفرنسية بعدم قبول المغاربة فيها كما نجح من الوجهة الشعبية فى تفهيم المغاربة الخطر الذى يجر اليه انخراط المواطنين فى أحزاب أجنبية عنهم لا يمكنها ان تدافع للمغاربة عن اى حق الا بتضحية أقدس الحقوق الوطنية واعظمها .

وفى الحالة الحاضرة فان حزبا فرنسيا واحدا هو الذى احتال على الاستمرار فى عمله وهو الحزب الشيوعى حيث أصبح يعتبر نفسه حزبا مغربيا ، ولكن تكوين الفرنسيين للاغلبية الساحقة من مسيريه وأنصاره لا تجعلنا نعترف به كحزب مغربى ، ولذلك رفض حزب الاستقلال استدعاءات هذا الحزب المتوالية لتكوين جبهة قومية ، وحزب الاستقلال سائر فى العمل على حماية الشعب المغربى من دعايات كل حزب أجنبى كيفما كان شكله ، وذلك بتربية المغاربة وتنظيمهم وشرح الاخطار التى تهددهم من الاستعمار المعنوى الذى يؤدى اليه انسحاب العقائد غير القومية ، ويجب ان نسجل هنا التسهيلات التى تعطيها الاقامة العامة للشيوعيين فى البلاد لا لشىء الا لانها تشترك واياهم فى مقاومة حزبنا العتيد الذى لن يضره بشىء تآمر المستعمرين ولا تضامن الخائنين ما دام متمتعا بثقة الشعب كله ورضى جلالة ملكه المحبوب .

سياسة المسيو ايريك لابون

ذهب المسيو جابريال بيو بعد ما ظهر عجزه عن تنفيذ خططه سواء بطريق الارهاب او بطريق التمويه وباءت اقتراحاته كلها بالفشل، وعين مكانه المسيو ايريك لابون أحد أقطاب الديبلوماسية الفرنسية.

ولم يكن مسيو لابون حديث عهد بالمغرب والمغاربة، بل سبق أن تولى وظيفة السكرتارية العامة للحماية، وأثبت فيها مقدرة ادارية لا تنكر، كما أثبت فيها نشاطه الكبير فى ميدان الاقتصاد والسياسة والمالية، ثم هو شخصية معروفة بالرزانة وحسن التقدير للامور، وقد كان تعيينه مقيما عاما بالمغرب فى أحرج الظروف التى اجتازتها العلاقات الفرنسية المغربية، فكان مفروضا انه سيحمل للبلاد سياسة اكثر تحررا من تقاليد الحماية العتيقة، وأنه سيعمل على تكوين تغيير عميق فى النظام المفروض على المغرب، هكذا ظن الناس او هكذا على الاقل اذاعت الدعاية الفرنسية وصدق الناس.

وصل المسيو لابون للمغرب فكان اول مظهر ظهر به هو عدم اهتمامه بالحفاوة الكبيرة التى ينظمها غيره من المقيمين ليستعلوا بها على الناس، ويضاهوا بها المظاهر التى كان من الواجب ان تحفظ لممثل السيادة المغربية ملك البلاد نصره الله، ثم المجاملة الكبيرة التى تقرب بها للقصر والوعود اللطيفة التى لم يقصر فى بذلها لجلالة الملك خصوصا فيما يتعلق بالتعليم والعدل وغيرهما من الاصلاحات التى كان مولانا شديد الشغف للاطمئنان عليها .

وللاعراب عن حسن نيته وطمأنة مولانا الملك وشعبه فقد استجاب للرغبة التى لم يزل يبديها جلالة السلطان منذ عهد بعيد بارجاعى من منفاى القصى فى افريقيا الاستوائية بعد نفى طال تسعة أعوام كاملة، وارجاع صديقى الامين العام للحزب الاستاذ أحمد بلافريج من مبعده بكورسيكا، والسماح للاستاذ محمد حسن الوزانى بالدخول لفاس من مركز اقامته الاجبارية بقرية ايتزر بنواحى فاس .

وقد حل الامين العام بالرباط من قبلى، وأطلق سراح الاستاذ الوزانى فى الوقت نفسه .

ثم اجتمع المجلس الاعلى لحزب الاستقلال وقرر أن يبعث الدكتور الفاطمى الفاسى مندوبا عنه لمصاحبتى فى السفر من الكونغو الى الدار البيضاء، ولا أريد أن أتحدث هنا عن المسرة التى أدخلها على الاخ الفاسى بوصوله الى ، ولا عن الحبور الذى خالط نفسى حين علمت منه تفاصيل الحركة الاستقلالية فى عهدها الاخير؛ تلك التفاصيل التى لم أكن أعلم عنها شيئا .

كما أننى أترك لغيرى الحديث عن الحفاوة التى قابل بها الحزب والشعب نبأ اطلاق سراحى ووصولى للبلاد؛ لانه ليس من حقى أن أروى ذلك بنفسى، ولكننى لا أجد مندوحة عن الاشارة للحظة من لحظات التجلى الروحانى التى التقت فيها أرواحنا نحن الاخوان العاملين بأرواح أصدقائنا وأنصارنا ؛ تلك الساعة التى اجتمعت فيها وفود المغاربة من كل حدب وصوب وممثلو الفروع واللجان الحزبية وزعماء الحزب بدار الوجيه ابن جلون الفسيحة، بطالعة فاس، وارتجلت فيها خطابا صادرا من أعماق القلب ، ولذلك فقد دخل الى أعماق قلوب السامعين، وامتلأ الجو بهتافات المسرة ودموع الفرح، وتبادل العناق والانتشاء بلذة العمل من أجل الحرية والاخاء فى ظل ذلك العمل، حتى اصيب اخونا الحاج حسن أبو عياد بنوبة سقط بها من كرسيه فى غيبوبة انفعال سعيد، وجدد الكل عهود الوفاء للملك والاخلاص للبلاد والتضحية فى سبيل الوطن وتحرير أبنائه .

لم تكن هذ المظاهر التى أقامها الشعب المغربى بمناسبة رجوع أحد رجاله العاملين فألا حسنا فى أعين ولاة الحماية، ولذلك سرعان ما أخذوا يحاولون الدس ويعملون للايقاع بيننا وبين جلالة ملكنا، وقد جمعوا جهودهم ونظموا صفوفهم وأخذوا ينفثون سمومهم بشتى الاشكال وعلى مختلف الالسنة ، ولكن دهاء مولانا الملك وحسن تقديره للاشياء ويقينه فى الامانة التى تحملها وتجربته الطويلة لاساليب الحماية كل ذلك جعله لا يلقى بالا لكلامهم ولا يعير التفاتا لدسائسهم .

ولقد تفضل على مولانا الملك فاستقبلنى فى اليوم الثانى من وصولى للبلاد فأعربت لجلالته عما يعلمه فى من اخلاص دائم وولاء أبدى، وتحدث لى جلالته عن المرحلة التى مرت بعد تقديم عريضة الاستقلال والجهود العظيمة التى بذلها مولانا، ولم يكتم جلالته على استعداده للتضحية بكل شىء ولو بعرشه لا قدر الله اذا كان ذلك فى صالح القضية المغربية، وخرجت من هذا الاقتبال الكريم وكلى يقين بأن المغرب

سينال مبتغاه ويدرك متمناه مـا دام على رأسه ملك عظيم وبطـل كبير مثل سيدى محمد نصره الله .

* * *

لقد كان اطلاق الزعماء مبعثا لآمال الكثيرين وانتظارهم الخطـوة الثانية التى يريد أن يخطوها المسيو لابون، ولقد اجتمع سعادته مرارا عديدة بالامين العام للحزب صحبة وفد من اللجنـة التنفيذية ، وكانـت المذاكرات معه فى جو من التقدير وحسن التفاهم ، ولكنها دائما كانت تصطدم بالاختلاف فى الاتجاه الاساسى للعمـل ، فبينما الحزب يريـد تغييرا عميقا يستبدل بنظام الحمايـة نظام استقـلال ناجز اذا بفكـرة الاصلاحات الموجهة بمقتضى العقيدة الاستعماريـة هى التى تملك على ممثل فرنسا سبيله ، وقد حاول المقيم العـام أن يقنع ممثلينا بمختلـف الاساليب بضرورة قبول سياسة الاصلاح مع الاحتفـاظ بفكرة المطالبة بالاستقلال ، ولقد بلغ الامر أن طلـب منهم أن يأذنوا لفئة من الحـزب بالتعاون معه ، بينما يبقى الزعماء محتفظين بموقفهم الذى يراه هو موقفا سلبيا ، وطبيعـى أن الزعماء ليس من شأنهـم أن يقبلوا هذه الحلول ، ويمكنهم أن يقوموا بأى أسلـوب يرونه فى صالـح قضيتهم، ولكنهـم لا يسمحـون لانفسهـم بأن يتبعـوا الاساليب التـى تلقنهـم اياهـا ادارة الحمايـة نفسهـا .

ولقد استطاع اخواننا أن يحصلوا من المقيم العام على الاذن باصدار صحف عربية بعدما ظل باب الاذن مسدودا منذ الثورة الوطنية فى اكتوبر سنة ١٩٣٧ وان كانت الرقابة ما تزال قائمة منذ ذلك العهد الى اليوم ، وهكذا أصدر الحزب جريدة «العلم» اليومية العربية وجريدة «رأى الشعب» الاسبوعيـة الفرنسيـة .

وفى يوم ٢٢ يوليه كان انعقاد القسم الفرنسى لما يسمونه بمجلس شورى الحكومة، فألقى المقيم العام خطابا فياضا كشف فيه القنـاع عن برنامجه السياسى واصلاحاته كلها، فاتضح للجميع أن الاستعمار واحد، وأن السياسة التى وضعها آخرون بالحديد والنار هى التى يريد المسيو لابون تنفيذها باللطف والمجاملة .

كان اندهاش الجمهور المغربى لخطاب المقيم كبيرا الى حد لا يمكن أن يترجم الا بالخيبة ، خيبة أمة تريد الحرية وتطمح للانقلاب .

عرض المقيم العام فى خطابه لمجموع المسائل المغربية ، ولكـن الفكرة التى سادت توجيهه السياسى والاقتصادى لا تخرج عن التقاليد

الاستعمارية ، كما أنها أثبتت عدم تحرر المسيو لابون من تأثير أنصار السياسة الرجعية بفرنسا والمغرب اذ أن جميع الافكار التى أعرب عنها تدل على أنه ما يزال يفكر فى دائرة نظام الحماية الذى أثبتت تجربة ثلث قرن أنه بما يشتمل عليه من أوضاع وظروف هو السبب الرئيسى فى مشكلة الادارة المغربية وفى خيبة الشعب الذى لم يجد فى ذلك النظام أمنا اجتماعيا ومواظبة خالقة وحماية مخلصة لحرية هذه البلاد واستقلالها .

على أن المقيم لم يوجه كلامه للشعب المغربى الذى لم يستشر قط فى مصيره والذى ظل محروما حتى من الحريات الديمقراطية الاولية التى تخوله وسيلة الاعراب عن فكره أو تبليغ رغباته، وانما قصد حين تكلم عن ضرورة الاحتفاظ بالاطار الدولى عند تحقيق الاصلاحات التى يريد تطبيقها ـ تذكير بعض الدول الاجنبية بأن للمغرب وضعيته الدولية التى لا يمكن أن توضع على بساط البحث الدولى من جديد .

ولكن ما هى هذه الوضعية؟ أليست هى معاهدة الجزيرة الخضراء التى اعترف موقعوها باستقلال المغرب ؟ وهل كانت معاهدة الحماية نفسها احتفاظا بهذا الاطار أو تحقيقا للوصاية الدولية التى تضمنها معاهدة الجزيرة ؟ !

أما معاهدة سنة ١٩١٢ فهل كانت وضعية دولية جديدة فى البلاد؟؟ ومهما يقل عن مشروعيتها أو بطلانها فهل كانت غير عقد بين دولة قوية هى فرنسا، ودولة ضعيفة هى دولة المغرب؟! واذن فهى محاولة لتنظيم علاقة جديدة بين فرنسا والمغرب على اساس من التعاون الصادق الذى تجرب فيه أمانة الدولة القوية واخلاصها فى تعهداتها.

ولكن هل نجحت هذه التجربة ؟ ان وقوف المقيم العام (لا الصدر الاعظم) ليلقى خطابا خاصا برئيس الوزراء فى مجلس أعضاؤه فرنسيون يعتبرهم المقيم كممثلين حقيقيين للمغرب أعظم دليل على ما آل اليه أسلوب الحماية من حكم مباشر وتجاهل لسلطة الشعب وسيادة ملكه.

ويتحدث المقيم عن الرأى العام بالمغرب فلا ينظر الا الى تقارير البوليس ومصطلحى السياسة الاهيلة اولئك الذين لا يرون فى الشعب المغربى الا مجموعة من عناصر مختلفة فى أصولها وديانتها وتقاليدها ، وطبيعى أن هذا القول لا يوجه الا للاجانب أيضا؛ لاننا نحن واثقون من أنفسنا، والفرنسيون يؤمنون بأننا امة واحدة دينها الإسلام ولغتها

العربية، وأن تعدد العناصر التى تتكون منها الامة لا يمكن ان يقدح فى تكوين هذه الامة.

والاغرب من ذلك كله هو أن المقيم وجه كلامه توجيها سياسيا مبنيا على فوارق عنصرية مزعومة محاولا تكوين أنظمة اقليمية تختلف باختلاف هذه العناصر فى بلاد كانت ولا تزال مملكة متحدة تتركز ادارتها فى يد الحكومة الشريفة وتتكون معنوياتها من روح واحدة، كانت الديانة الاسلامية والثقافة العربية والاتصال الدائم بمدنيات الابيض المتوسط العوامل الوحيدة فى خلقها.

تكلم المقيم عن المجالس الاقليمية ولكن لم يقل شيئا عن تفاصيلها، وأكد ضرورة اتباع لا مركزية فى البلاد، وكأنما أبطل ادارة الشؤون السياسية ليصنع من كل جهة ادارة خاصة على صورتها، ولقد صرح المقيم بأنه يريد ان يعطى حقوق التقرير فى كثير من النقط لرؤساء الجهات دون ان يرى فى ذلك مساسا بالسلطة المركزية للحكومة الشريفة بنى! انه يقدر ذلك وينظمه ليتسنى للرؤساء الفرنسيين اغتصاب البقية الباقية من سيادة الملك وحقوق الشعب المغربى.

والمتأمل فى خطاب المسيو لابون يرى ان السياسة الفرنسية لم تتطور قط فى أصولها الاستعمارية، وأن السياسة المغربية بصفة خاصة غير موضوعة ضمن الاطار الدولى للمغرب كما يزعم، وانما هى موضوعة ضمن الاطار التقليدى للسياسة الامبريالية التى ترمى للتفرقة بين الاجناس والعناصر المحلية وتوزيع الافكار وخلق الفوارق المذهبية واقناع الفرق المحدثة بتباينها وتشاكسها، وبأن تجربتها القومية لم تنجح، وأن الوطنية الوحيدة التى يمكنها أن تضعها تحت لواء الحرية دون أى فارق دينى أو عنصرى هى وطنية الامة الفاتحة وجامعة شعوبها المتعددة .

ولقد سكت المقيم العام فى اصلاحاته عن الحريات العامة الضرورية، وهى حرية الصحافة والاجتماع والجمعيات وغيرها.

أما النقابات فلم يعد فيها السفير بأكثر من السماح بتأسيس نقابات خاصة لطبقة من العمال الاختصاصيين وفى المعامل فقط (لم يطبق هذا الحق الى الآن)، أما البادية وعمالها، وأما الطبقة غير المختصة فلن يكون لها أى حق فى التكتل للدفاع عن مصالحها.

واذن فالبرنامج السياسى للمقيم ينحصر :

١ – فى تكوين اقطاعية جديدة باحداث نظام اللامركزية لفائدة الحكام والمعمرين الفرنسيين.

٢ - فى الاتجاه بالحكومة المغربية وادارتها الى أسلوب التعاون المباشر؛ اى النظام المختلط فى الحكم.

ومعنى هذا أن اسلوب أدماج المغاربة فى العائلة الفرنسية بتجنيسهم وباعطاء الفرنسيين المقيمين فى المغرب وأهالى المغرب حق المواطن الفرنسى، وتشريكهما فى تمثيل المصالح المغربية بالبرلمان الفرنسى نفسه قد عدل عنه وعوض بادماج الفرنسيين أنفسهم فى العائلة المغربية على أساس أن هنالك جنسين متكافئين هما المغاربة الاصليون والمغاربة الفرنسيون، ويعتبر سلطان المغرب ملكا لهم جميعا، وممثل فرنسا رئيس حكومتهم، وهم مهيئون لأن يعيشوا بعد التبلور القومى فى أمة مغربية جديدة هى عضو مشارك فى الاتحاد الفرنسى .

على أن الذى شغل الجانب الاعظم من اهتمام المقيم ليس هو البرنامج السياسى، وانما هو البرنامج الاقتصادى؛ فالمسيو لابون كان يعتقد أن المغرب سيحصل لا محالة على استقلاله، وأن فرنسا مهما ماطلت فى اعطاء هذا الاستقلال فلابد يوما ما من الاعتراف به وتثبيته ، ولذلك يرى ضرورة غرس مصالح اقتصادية تعبد المغرب لفرنسا تعبيدا حقيقيا حتى بعد استقلاله السياسى والقومى، ولقد كان يقول لاصدقائه اننى أريد أن أكون (ليوطى) الاقتصادى للمغرب يعنى أنه سيؤسس امتلاكا اقتصاديا كما اسس ليوطى امتلاكه السياسى.

ولم يكن المسيو لابون من أنصار الرأسمالية الفردية كما يقال عنه، بل كان اشتراكيا فرنسيا مخلصا للحكومة الاشتراكية الفرنسية، ولذلك فقد أعلن فى خطابه برنامجه الاقتصادى القائم على تمليك الحكومة الفرنسية قسما مهما من التراث المغربى، وذلك بتأميم جانب من المعادن لا للحكومة المغربية بل للحكومة الفرنسية، وهذا من أغرب ما يتصوره العقل ويهدى اليه الفكر الاستعمارى الحديث، ولكنه فى الوقت نفسه وعد بتشجيع رؤوس الاموال الاجنبية على الدخول للمغرب، وان كان لا يجهل خطورة وجودها دون نظام او توجيه على تضخم النقد وغلاء المعيشة

ولقد حاول المقيم ان ينجز برنامجه بتكوين شركة للفحم تملك ثلثها الحكومة الفرنسية، وثلثها الحكومة الشريفة، والثلث الثالث لرؤوس الاموال الاجنبية والمغربية مع عقد قرض للحكومة الشريفة من فرنسا تستطيع ان تمول به الثلث المؤمم لها .

ولقد دعا المقيم العام الملايين من المغاربة للمشاركة فى مؤسساته الاقتصادية والتعاون معه على تنفيذ برنامجه الذى يزعم فائدته للمغرب ولفرنسا.

معارضة سياسة لابون :

لم ينشر خطاب المقيم العام حتى اجتمع المجلس الاعلى لحزب الاستقلال فى الرباط، وهو اول اجتماع له بعد رجوعى من المنفى، وبعد دراسة القضية من جميع وجوهها قرر المسائل الآتية :

١ ـ كتابة مذكرة لجلالة الملك يعلن فيها معارضة الحزب للبرنامج السياسى للمقيم، ويرفض شكل الاصلاحات التى عرضها خصوصا نظام اللامركزية والمجالس المختلطة، متمسكا بفكرة (الحزب الوطنى) والكتلة فى عدم اعطاء الفرنسيين أى حق من حقوق المواطنين المغاربة .

٢ ـ كتابة بيان بهذا المعنى يوزع على الشعب .

٣ ـ كتابة مذكرة لجلالة الملك تبين خطر البرنامج الاقتصادى للمسيو لابون على البلاد، وتطلب من جلالته عدم المصادقة على أى تشريع يتعلق باغتصاب التراث المغربى او جانب منه .

٤ ـ توجيه نداء من الحزب للممولين المغاربة يطلب منهم رفض التعاون الاقتصادى الذى يطلبه المقيم العام وعدم الاشتراك فى الشركات التى يؤسسها بتوجيه استعمارى فرنسى.

٥ ـ تأسيس لجنة الاقتراح والتوجيه الاقتصادية التى تعمل على ابتكار المؤسسات المغربية وارشادها وتوجيهها لمقاومة مؤسسات الاقامة العامة للجنة التنفيذية للحزب.

٦ ـ اعلان الحزب استعداده لتوجيه الامة نحو التضحية الكبرى اذا حاولت الاقامة العامة تطبيق برنامجها بالقوة.

وقد قدم وفد الحزب هذه المذكرات لجلالة الملك الذى صرح بأن جلالته لا يتوانى فى احتضان مصالح المغرب والدفاع عنها، كما قامت اللجنة التنفيذية بطبع البيان والنداء المقررين وتوزيعهما على الجمهور المغربى.

* * *

استدعى المقيم العام اعضاء اللجنة التنفيذية وناقشهم فى وجهة نظرهم مصرحا بأن موقف الحزب ماس بالقضية المغربية، ثم عرض على الامين العام الحاج أحمد بلافريج قبول رئاسة مجلس احدى الشركات التى يؤسسها المقيم وقبولهم من نختارهم من أصدقائنا لعضوية المجالس العليا لاهم تلك الشركات، ولكن الامين العام صرح للمقيم بأنه تنفيذا

لمقررات المجلس الاعلى للحزب لا يمكنه هو ولا غيره من الاستقلاليين قبـول اى تعاون مع الاقامة العامة فى دائرة الحماية وعلى الاسس التى أعلنها الخطاب المقيمى.

ولقد حاولت الاقامة العامة أن تعرض الامر على غير اعضاء اللجنة التنفيذية من رجال الحزب وانصاره فاستدعت الاستاذين محمد الزغارى والحميانى وغيرهما وعرضت عليهم الدخول فى المجالس العليا لشركاتها ولكنهما رفضا كما رفض سائر الشباب الوطنى ذلك اجابة لنداء الحزب.

أما الممولون المغاربة فقد أضربوا كلهم عن شراء أسهم الشركات المقيمية برغم الالحاح الذى وجهه اليهم المسيو لابون وممثلوا الحماية بالنواحـى، وقد ظهـرت بذلك قوة النفوذ المعنوى الذى يتمتع به حزب الاستـقـلال .

ولكن الحزب يعرف أن الاضراب لا يمكن أن يـدوم اذا لم يهيىء للمغاربـة النواحى التى يستعملـون فيها رؤوس اموالهم، ولذلك كـون اللجنة الاقتصادية التى أشرنا اليها، وقد كـان لها الفضل فى مساعدة كثير من الشركات وتوجيهها .

وقد أسس المقيم العام شركة للطيران فأسس الماليون الوطنيون (شركة النجوم) للنقل المدنى الجوى، وأسس المقيم العام شركة للاخراج السينمائى، فأسس الوطنيون شركة ستوديو المغرب، وهكذا استطاع المغاربـة على ضآلـة ما بيدهـم من المال وعلى شدة الضغط الذين هم موضوعـون فيه أن يقفوا متضامنين مع جلالة ملكهم ومستجيبين لنداء حزبهم حتى فشلت مشروعات لابون الى حد لم يكن منتظرا .

ولكن الفضل الاكبر فى هذا يرجع لجلالة مولانا الملك فهو الذى حقق رغبة أمته فرفـض رفضا باتـا المصادقة على مشروعات الظهائر القاضيـة بتأسيس شركة الفحم وأمثالها مما كان يرمى به المسيو لابون لتأميم فرنسى لتراث المغرب.

وتتلخص وجهـة نظر الجلالة الشريفة ونظر الشعب المغربى كله فـى ان مقـدرات المغرب الاساسية يجب أن تبقى للمغاربة، وأن خير ضمان لها فى الظروف الحاضرة هو تأميمها تأميمـا مغربيا، واستغلال الحكومـة لها مباشـرة او بواسطة رخص مع اشتراك الحكومة بواسطة مكاتبها الخاصة فى فوائدها ورؤوس أموالها.

وفد حزب الاستقلال بفرنسا :

بينما كان المسيو لابون يلاحظ بنفسه فشله فى سياسته المغربية كان هو وأنصاره يعلنون فى فرنسا بواسطة أبواق الدعاية الاستعمارية أنه متفق مع جلالة الملك على الخطة التى يريدها، وقد كان يرمى من وراء ذلك الى انجاح برامجه التى كان يلقى فيها بعض المعارضة من طرف الرأسماليين الذين لا يؤمنون بمبدأ التأميم ولو كان يملك حكومتهم تراث أمة أخرى، والى التمويه على الرأى العام الفرنسى بعدم قيمة الحركة الوطنية فى الداخل ، ولكن (حزب الاستقلال) بفضل حذره لا يترك ناحية ضعف الا عمل على اصلاحها، ولذلك قرر أن يبعث لفرنسا وفدا من رجاله ليشرح الحقيقة كما هى للحكومة الفرنسية وللرأى العام الفرنسى حتى لا يبقى للفرنسيين عذر فى استمرارهم فى هذه السياسة التى حكم عليها التطور المغربى والعالمى بالفناء والاضمحلال.

وقد تركب الوفد من رئيسه الحاج عمر عبد الجليل، وعضويه الاستاذين عبد الكريم ابن جلون القاضى السابق بالمحكمة العليا بالرباط، والاستاذ أحمد الحميانى المحامى بفاس، وكلهم من أعضاء المجلس الاعلى لحزب الاستقلال .

قام الوفد بأعمال جليلة؛ اذ اتصل بشخصيات عظيمة ورفع صوت البلاد عاليا فى سائر الاوساط ، وكان من أهم تصريحاته البيانات التى أدلى فيها فى المؤتمر الصحافى الذى حضره أكثر من مائة وخمسين صحافيا فرنسيا واجنبيا؛ فقد شرح رئيس الوفد للحاضرين حقيقة الحالة فى المغرب ومطالب الشعب المغربى والكيفية التى يراها الحزب لتحقيق هذه المطالب ، ثم أجاب عن أسئلة كثيرة ووجهها للوفد مختلف المراسلين الحاضرين .

وقد نقلت الصحف الفرنسية كلها أنباء المؤتمر والتصريحات التى أدلى بها الوفد وعلقت عليها تعليقات مختلفة، ولكنها كلها تتفق فى تقدير الحالة الراهنة فى البلاد، وأنها تدعو الى عمل حاسم ومستعجل .

ولم يقصر الوفد عمله على الدعاية فى الاوساط الفرنسية، بل عمل على تنظيم الوطنيين المغاربة بفرنسا وفتح مركزا رسميا للتمثيل الدائم للحزب كما قام بتنظيم الطلبة الاستقلاليين ، وتأسيس لجنة توجيهية لارشادهم ومساعدتهم على اتمام الدراسة فى جو تعاون واخاء .

وقد نشر (مكتب الاستخبارات والدعاية) التابع لحزب الاستقلال بتوجيه ومساعدة اخواننا أعضاء الوفد رسالة عن (تاريخ الحركة الوطنية

بالمغرب الاقصى) ، كما طبع البيان والحديث الـذى أدلى به الوفد فى مؤتمر الصحافيين ، وجمع وثائق (حزب الاستقلال) ثم طبعها ضمن كراسة خاصة بالفرنسية وترجمها ونشرها باللغة الانجليزية أيضا .

وصادف وجود الوفد بباريس مرور صاحب السعادة عبد الرحمن عزام باشا الامين العام للجامعة العربية ، فاتصل برجال الحزب وتفاوض معهم مليا فى شأن القضية المغربيـة ، وكان من آثـار هذه المفاوضات التصريحات التى أدلى بها معاليه فى باريس ، وكلها اشعار رسمى بتأييد الجامعة لامم المغرب العربى فى مطالبتهم بالحرية والاستقلال والانضمام للجامعـة العربيـة .

ثم أقام الوفد يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ احتفالا فخما بمناسبة عيد العرش المغربى ، حضره جم غفير من كبار الاوربيين والعرب الموجودين فى العاصمة الفرنسية على رأسهم سمو الامير عبد الله سيف الاسلام ابن الملك يحيى عاهل اليمن السابق، وألقيت فيه عدة خطب كـان من بينها خطاب العلامة ماسينيون والشيخ دراز، وقـد كانت كلها اعجابا بجلالـة الملك وتأييدا للحقوق المغربية التى يرعاها جلالته، ولقد شهدت الصحافة الفرنسية بحسن التنظيم الذى قام به الحزب فى هذه الحفلة ، واستنتجت منه مقدرة المغاربـة على تسيير شؤونهـم ما داموا قادرين علـى تنظيم الحركات واكتساب عطف المشرق والمغرب عليها، أما من الناحية الرسمية فقد اتصل الوفد بنائب وزير خارجية فرنسا الذى تحدث معه طويلا فى الاساليب الممكنـة لحـل المشكلة المغربية، والذى أظهر ان الخارجيـة اذ ذاك كانت ترى ضرورة تعيين شخصية رسمية تتخابر مع جلالة الملك فى شأن المصيـر المغربـى فى الوقت الذى يستمر فيه المقيم العام فى مركزه كرئيس للحماية، فاذا أدت المفاوضات الى نتيجة ما أعلنت حينئذ الحكومـة الفرنسيـة نهاية النظام الحاضر، وبدأت فى اتخـاذ التدابيـر لتنفيذ ما يتفق عليه.

ولكن الحـزب كان يرى أن هـذه مجرد وسيلة من وسائل العمل لا أهميـة لها فـى الموضوع، وأن النقطة الاساسية هى ماذا سيعرضه هذا المفوض الرسمى على جلالـة الملك؟ والحق ان الذى استنتجناه مما بعثه لنا الوفد من تقارير وأحاديث لا يدل الا على ان السلطة الفرنسية تريد تبديل نظام الحماية او استمرارها، ولكـن فى دائرة الاتحاد الفرنسى.

وطبيعى أن (حزب الاستقـلال) لم يكن فى يوم مـن الايام نصيرا للوحـدة الفرنسيـة التـى يرى فيها نظاما أعرق فى الاستعباد من نظام

الحمايـة نفســه، خصوصا بعد انكشــاف الغموض الذى يكاد يسود فكرة الاتحاد الفرنسى حين أعلن نظام المجلس الخاص بالاتحاد واعتبار رئيس الجمهورية الفرنسية رئيسا عاما لسائر البلاد المنتظمة او المشاركة فى الاتحاد، وهذا ما يجعل الخلاف بيننا وبين الخارجية الفرنسية عميقا الى حد لا يمكن معه الوصول لنتيجة عملية الا بتنازل احد الطرفين عن المبدأ الاساسى الذى يتمسك به.

ولقد بقى الحزب دائم الرغبة فى أن لا يرضى بهذه الحقيقة، ولذلك عمل بكل مجهوده لاقناع الحكومـة الفرنسيـة بضرورة تعديل نظريتها ، خصوصا وهى تعرف أن معاهدة الحماية نفسها لا تتيح لهـا ضم المغرب لحظيرة اتحاد لا يقبله ولا يرضى أمانيه القومية.

ومع ان الوفد قد حظـى باقتبال جميل وحفاوة طيبة من الرسميين الفرنسيين ومن رجال الصحافة والرأى العام، فانه لم يحصل على نتيجة عملية يكون لها الاثر الفعال فى تغيير وجهة نظر الحكومة او تعديل خطتها.

ولكن بالرغم عن ذلك فقد أبى الحزب الا ان يستمر فى الاعراب عن حسن نيته بالتوجه للرأى العام الفرنسى، ولذلك قرر أن يبعث أمينه العام الحاج احمد بلافريج ليترأس الوفد الثانى للحزب بعد رجوع الحاج عمر ورفيقيـه .

وقد واصل الامين العام مجهودات سابقيه، وقام بعـدة احتجاجات واتصالات قوية، من أهمها حديثه مع رجال الحركة الشعبية الجمهورية ، وأدلى بتصريحات كان لها صدى كبير فى الاوساط الرسمية .

وقد انتهز فرصة وجوده بفرنسا، فعقد بباريس مؤتمرا عاما لسائر طلبة المغـرب بفرنسا كان له الاثر الحسن فى توحيد الشبـاب المغربى حول الحزب وتوجيهه الوجهة الصحيحة التى يرغب فيها .

ولكن هذه العناية التى أبداها الحزب لم تلق من التقدير والاهتمام ما كان ينتظره المغاربة من شعب كالشعب الفرنسى، فان الخطة السياسية لم تتبدل، والأساليب الاستعمارية لم تتحول، وتألب المستعمرين فى داخل البلاد لا يزداد الا شـدة، ومعاملتهم لرجال الحركة ومنظمـاتها ومظـاهر نشاطها لا يزداد الا استفحالا، وبالرغم عن ذلك كله فقد قرر الحزب ان لا يتحول عن خطتـه قبل ان يوجه الاعذار الاخير؛ فقرر أن أسافر أنا أيضا لفرنسا بعد أن أعطانى من الصلاحية ما يخولنى حق السير بالحركة فى الاتجاه الذى سارت فيه بعد انتقالى للمشرق .

وقبل ان اتحدث عن رحلتى لفرنسا ثم لمصر يجب ان نتم الحديث عن هذه المرحلة المهمة فـى تاريخ الحركـة المغربية بالكلام عن حوادث الدار البيضاء ورحلة جلالة الملك لطنجة.

مأساة الدار البيضاء

٧ أبريل سنة ١٩٤٧

بينما كان المغرب كله يتهيأ لزيارة جلالة الملك لطنجة عاصمة مملكته الديبلوماسية، وكانت المدن والقرى التى يسير منها الموكب الملكى تستعد للتمتع بمشاهدة ملكها فى طريقه الى مدينة لم يتمكن من زيارتها هو ولا والده من قبله ـ كانت الاوساط الاستعمارية تغلى غليان المرجل لان معارضتها لم تجد شيئا فى ارجاع جلالة الملك عما عزم عليه من هذه الزيارة ، ولانها تعلم سلفا أن هذه الجولة ستكون مظهرا كبيرا من مظاهر الوحدة المغربية، وستتيح الفرصة للوطنية كى تظهر موقفها المتضامن ضد الاستعمار الفرنسى والاسبانى والدولى .

وبالرغم عما أظهرته الصحافة الاستعمارية من تهم على الشعب المغربى وملكه وزعمائه وبالرغم عما أظهرته بعض الحركات الفرنسية من مظاهر نشاط استثنائى عسكرى ، وبالرغم عن الاشاعات التى كانت تملأ الجو من ان الجنرال ديجول وصحبه سينتهزون فرصة سفر الملك ليعلنوا ثورتهم القومية من الدار البيضاء الى باريس ، وان الشيوعيين الفرنسيين يتهيئون لاعلان اضراب فى عملة السكك الحديدية التى يمر منها جلالة الملك فى يوم سفره ـ بالرغم عن ذلك كله وعما عداه من الاشاعات والتهجمات فقد استطاعت الوطنية المغربية ان تملك اعصابها ، وتحتفظ ببرودة دمها ليتم تحقيق البرنامج الملكى الذى تعتبره فوزا كبيرا لقضية المغرب، ولانها تعودت سياسة الأثارة والتهييج التى يتبعها المستعمرون الفرنسيون كلما رأوا تيار انتصار الوطنية المغربية بغية خلق الجو الذى يمكنهم من ارضاء نهمهم للانتقام والتشفى .

ولكن الامر الذى راع الجمهور المغربى هو مأساة الدار البيضاء التى وقعت تماما فى ليلة السفرة الملكية بالذات .

فبينما كان بعض الاطفال يلعبون بحى (ابن مسيك) مدينة العمال بالدار البيضاء اذ بثلاثة من السنغاليين يتجولون، فطالبهم طفل بأن يعطوه هدية، ولكن السنغاليين شتموه ورموه بمقلاع كان بيدهم، فأثار ذلك غضب أصدقائه الاطفال فتابعوا الجنود الثلاثة بحصباوات صغيرة، وذهب

السنغاليون الى الحصن القريب من الحى، ثم عادوا ومعهم فرقة من السنغاليين مسلحة بالبنادق والرشاشات والمدافع الخفيفة، وصحبتها ضباط فرنسيون، وما وصلوا الحى حتى اعطى الضباط لجنودهم الاذن باطلاق الرصاص على الاهالى العزل، وطوقوا الاحياء الوطنية من كل جانب ونظموا الهجوم عليها ، وقد احتلوا الشوارع وهاجموا المارة بالقتل والتنكيل والتمثيل، ثم دخلوا البيوت بيتا بيتا يقتلون من وجدوه فيها من طفل او امرأة او رجل، بل قتلوا حتى الدواجن من الحيوانات، ونهبوا الامتعة وكسروا ما لم يقدروا على حمله.

ووصلت فرق الفرسان السنغاليين بقيادة ضباط فرنسيين ايضا ، وامتدت المعركة الى مسافة عشرة كيلومترات من الاحياء العربية المجاورة، واشتد السنغاليون وانقلبوا الى حيوانات متوحشة كلبة، فشدخوا رؤوس الموتى وفصلوا أعضاءهم وبقروا بطونهم، فعلوا ذلك حتى بالصبية الصغار بمحضر امهاتهم اللائى أخروا قتلهن الى ما بعد التمثيل بأبنائهن على مرأى منهن .

واحتلت فرق أخرى من السنغاليين سطوح المنازل حيث سلطت نيران رشاشاتها على كل من تحدثه نفسه بالنفاذ من الشارع او تلقيه الفرصة مارا به.

ولم تتدخل السلطات الفرنسية المدنية لايقاف العدوان الذى استمر أكثر من عشر ساعات اختفى خلالها رجال البوليس بكيفية تلفت الانظار ، بل ان بعض الفرق المكلفة بحراسة المدينة لم يسمح لها قوادها العسكريون بالتدخل لحماية السكان، وهنالك ثكنة عسكرية فرنسية قريبة من موقع الحادثة كتب عليها «مقر حراسة المدينة» جنودها كلها من عساكر «الكوم» المغاربة برئاسة ضباط فرنسيين، توجه الى ضابطها وفد من كبار حزب الاستقلال يعلمه بالحادث ويطلب منه الاذن من الجنرال للجند المغربى بالقيام بواجبه من ارجاع الامن، فطلب منه التريث قليلا، ثم تخابر مع الكولونيل وبعد دقائق عاد فأصدر الامر باقفال الثكنة وسجن جنوده جميعا بداخلها .

وفى اليوم التالى حشدت السلطة الجيوش الفرنسية والاجنبية بسائر أحياء المدينة بكل الطرق المؤدية من الدار البيضاء الى الرباط ، ولم يكن معهم ولا جندى مراكشى واحد، وقد ثبت بعد التحرى والبحث الدقيق أن الجيوش ورجال الشرطة المغربية جردوا من كل سلاح قبل الحادث بيوم واحد؛ الامر الذى يدل على أن المأساة مدبرة ومبيتة بليل .

وقد بلغ مجموع القتلى والجرحى فى هذه المأساة التى انتقم فيها الجيش الفرنسى من الوعى القومى ألفى شخص مغربى برىء .

ولقد كـان لهذه المأساة أثرها العميق على جلالة الملك وعلى سائر أفراد أمته، وقد توجه جلالته بنفسه للبيضاء حيث أشرف على بحث عرف منه حقيقة المأساة ، كمـا عمل على مواساة البائسين من عائلات الموتى ومساعدة الجرحى الذين تركتهم غطرسة الجيوش الوحشية وبهم ذماء .

وقـد أظهرت فـرق الشباب الرياضيـة والكشفية التابعة لحزب الاستقلال بطولة عظيمة ؛ اذ قامت بمجهود جبار لاختطاف جثث الشهـداء واحصائهم ومعرفة اسمائهم ، ونقل الجرحى الى المستشفيات وتصويـر مشاهد التمثيل والتنكيل التى قام بها السنغيالون ، والبحث عن عائلات الكل واعلامه بحالة قريبه ، والتحرى فى معرفة الحوادث والقائميـن بهـا ـ الامر الذى يستحق الاعجاب ويستوجب التنويه والاشادة .

أما الشعب المغربى فقد أعلن تضامنه مع البائسين باضراب عام شمـل سائر المـدن المغربيـة وباحتجاجات شديدة رفعتها الهيئات والشخصيات للمراجـع العليا، وبالاكتتاب العام لمساعدة المنكوبين ، وقد طالب حزب الاستقلال باجـلاء الجنود السنغالية عن المغرب، وهو مصر على هذه المطالبة دائما.

وقد قامت هيئة (سيدات وفتيات حزب الاستقلال) بالدار البيضاء بعمل جليل لاسعاف العائلات المنكوبة، وأسست ليتامى المأساة ملجأ ومدرسة تعرفان بمنظمة (٧ ابريل).

أما السلطة الفرنسية فانها لم تبد اهتماما كبيرا بالحادث، وكل ما فعلت أنها استنكرتـه زاعمة انه وقع من السنغاليين من تلقاء أنفسهم ، واعتقلت بعض صفوف الضباط الذين أتهمهم الوطنيون، ولكن سرعان ما أطلـق سراحهم، وانتهـزت فرصـة الرحلة الطنجية وتعيين الجنرال جوان من بعد لشغل الرأى العام المغربى عن المأساة البيضاوية.

ولكـن شهـداء ٧ ابريل يملأون قلـب كل مغربـى وروحه، وان الغطرسة التى أظهرها الجيش الفرنسى فى هذه الموقعة والتغافل الذى سجلته سلطات الحماية لا يمكن ان ينساها الشعب المغربى الذى تعود الصبر ولكنه لم يتعود نسيان الجريمة ولا مسامحة المجرمين. واذا رأى الفرنسيون حماس المغاربة فى المطالبة بالتحرر من سيطرتهم، واذا سمعوا فى المستقبل بعنف الحركات الانتقامية المغربية، واذا قرأوا ان المغاربة لم يعـودوا قادريـن على تحمل طغيانهم ولا على الاستمرار فى قبول

النصائح السلمية حتى من زعمائهم، فليس لهم أن يستغربوا، وليس لهم ان يشتكوا من تعصب المغاربة او من سوء فهمهم بـل عليهم أن يذكروا أن جيوشهم لم تحمل لنا الامن والسلام، وانما حملت لنا وحشية السود محمية بعلم الجمهورية الذى كان يجب ان لا يحمى غير الحرية والمساواة والاخـاء .

يجب على الفرنسيين ان يذكروا ان تضحيتنا من أجل تحريرهم من غطرسة الالمان فى الحربين الاولى والثانية ومشاركتنا لهم وتمتيعهم بشعور النصـر والكبرياء القومـى لم يقابل من طرفهم بـأى اعتراف بالجميل، بـل ان نهايـة الحرب الكبرى الاولـى كانت مبدأ الحملات العسكرية على بلادنا التى ثارت على الحماية ونظامها، وخاتمة الحرب العالمية الاخيرة كانت فاتحة اضطهادات مسلحة لامتنا العزلاء وشبابنا الذى لا يريد غير السلم والامن فى ظل الحرية .

الرحلة الملكية لطنجة

قبل السفر :

منذ عادت طنجة لنظامها الدولى فكر جلالة الملك ان يلحق سلسلة رحلاته العظيمة فى داخل مملكته الشريفة بالرحلة لطنجة التى تعتبر عاصمة المغرب الدولية وقد اعرب عن رغبته هذه للمسيو ايريك لابون الذى رأى فيها لاول مرة شيئا مرعبا، وبرغم المماطلة والاعتذارات التى استعملها المقيم العام لاقناع جلالته بالعدول عن مشروع يقلق هناءة الحماية وهدوءها فقد أصر جلالته على تنفيذ فكرته، وبعد مفاوضات كثيرة بين القصر والاقامة العامة أخذت المسألة طورها الدولى الهام ؛ فقد أعربت الحماية عن موافقتها مبدئيا فيما يخص فرنسا، ولكنها ادعت أنه لابد من اشعار الدول المشاركة فى نظام طنجة، ثم أبلغت الجلالة الشريفة أن كلا من انجلترا وامريكا لا تبديان رغبة فى تحقيق المشروع الملكى؛ لانهما تخافان من أن يؤدى الى احداث قلق سياسى واضطراب ديبلوماسى، وقد أجاب جلالة الملك على هذا بأنه هو سيتنقل لا محالة فى بلاده، وانه اذا كانت لدولة ما اعتراضات على عمله الشرعى فعليها أن تكتب به اليه، وهو يعرف الموقف الذى يتخذه ازاء كل ادعاء أجنبى يريد الحد من حقه فى التمتع بمظاهر سيادته على سائر المناطق المغربية ثم عادت الاقامة تتذرع بأن السكسونيين يخافون من انتهاز الروس فرصة الزيارة الملكية لبعث قطع من اسطولهم للبحر المتوسط تظاهرا بما لهم من القوة ومن الحق فى تعبئتها بهذا الجانب من المياه التى تريد انجلترا حمايتها؛ فلم يعبأ جلالته بهذه التعليلات كلها، وأصدر بلاغا يحدد فيه موعد زيارته لطنجة واضعا بذلك الاقامة العامة ومن ورائها من الدول أمام الامر الواقع؛ لكن السفير لابون عاد يحمل لجلالته رغبة فرنسا فى التريث ريثما تتم الاجراءات الديبلوماسية فى الموضوع ، وبعد عناء اقتنع جلالته بتأخير الرحلة بضعة اسابيع أخرى، وأخيرا أعلمه المسيو لابون بقبول فرنسا وانجلترا وامريكا للفكرة، ثم اقترح عليه السفر فى البحر لئلا يجتاز فى المنطقة الخليفية التى هى تحت حماية إسبانيا، ولكن جلالته رفض الاقتراح وقال انه سيسافر فى مناطق

مملكته الشريفة، واذا كان لاسبانيا اعتراض على هذا الحق فعليها ان تواجه جلالته به، وقد أبلغت السلطات الاسبانية جلالته رسميا انها لا ترى مانعا من زيارة جلالته لجزء من مملكته؛ بل تعتبر ذلك شيئا طبيعيا، غير أنها تتخذ تحفظات من حقها أن تطلب مراعاتها، وأهم هذه التحفظات ان المقيم العام الفرنسى لا يصحب جلالته فى داخل حدود المنطقة الخليفية، وأن عليه أن يقف فى (عرباوة) حيث يصاحب الملك المقيم العام الاسبانى، كما ان الجند الخليفى لا الفرنسى هو الذى يقوم بمسألة الامن فى داخل الحدود الشمالية للبلاد أثناء هذه الزيارة، وقد قدمت للرباط لجنة خاصة اسبانية للمفاوضة مع الاقامة العامة الفرنسية وتوصل المقيمان للاتفاق على النقط التى طلبتها اسبانيا.

وكان جلالته يريد النزول فى سرادق رسمى بمدينة (اصيلا) فاقترح الاسبانيون على جلالته النزول «بقصر الريسونى» الذى هو من أملاك اسبانيا اليوم، فرفض جلالته الاقتراح، ورفض الاستمرار فى مناقشة اقتراحات الاسبانيين الخاصة بحركته داخل المغرب، وكتب الى سمو الخليفة يطلب منه توجيه لجنة من طرفه تتقبل من جلالته التعليمات اللازمة التى يرى ضرورة اتباعها فى برنامج الحفلة، وفعلا وصل الوفد الخليفى للرباط حيث بلغه جلالة الملك ما ينبغى للخليفة القيام به من تدابير مصمما على ضرورة النزول فى سرادق خاص فى (أصيلا) وتناول الغذاء بها مع الخليفة وسائر القواد والباشاوات الذين يجب ان يحضروا من مختلف أنحاء المنطقة.

وبعد هذه الاعلامات اقترحت الاقامة العامة ان يخبر جلالته اللجنة الدولية بطنجة، ولكن جلالته رفض هذا الاخبار الرسمى الذى يمكن أن يدل على شبه استئذان غير معقول.

وأحب جلالته أن لا يصل لطنجة حتى يعطى لابنائها بعض الحق الذى يطالبون به، فوضع تشريعا يحسن حالة النواب المغاربة بالمجلس التشريعى، أى يخرج بهم من طور التعيين الى طور الانتخاب من درجتين، ومع بساطة هذا الاصلاح فان المراقبة الفرنسية فى طنجة لم تخلص فى تطبيقه بعد ما عاكس رؤساؤها فى تشريعه، وأخيرا قدم مسيو لابون باسم فرنسا لجلالة الملك المطالب الآتية :

١ ـ أن يصحبه فى رحلته ويحضر سائر الحفلات التى يقيمها جلالته فى طنجة.

٢ ـ أن يقوم المقيم العام الفرنسى بتقديم ممثلى الدول الاجنبية لجلالته .

٣ ـ أن يطلع المقيم العام على الخطب التى يلقيها جلالته وسمو ولى العهد والأميرة عائشة.

٤ ـ ان يمتنع جلالته عن اصدار بيانات مدة اقامته بطنجة

وقد قبل جلالته المطلب الاول ، ورفض بتاتا المطلب الثانى ، لان طنجة لا تعتبر تحت الحماية الفرنسية ولا الاسبانية حتى يسمح للمقيم العام بالظهور فيها بمظهر المكلف بوزارة الخارجية حسب نظام الحماية وقد قرر جلالته ان مندوبه الشريف بالمنطقة الدولية هو الذى يقدم اليه السلك الدبلوماسى وغيره ، واما الخطب فان جلالته لم ير بأسا فى ان يطلع المقيم العام عليها ولكن بصفة شخصية واستثنائية،واما عن البيانات فقد اجاب جلالته بأنه ليس فى نيته اصدار أى بيان غير عادى .

وبعد ان اطلع المقيم العام على الخطب اقترح على جلالته ان يضيف لخطابه الرسمى كلمة تعرب عما للتعاون الفرنسى المغربى من قيمة فى نظر جلالته ، وقد وعده الملك بالتفكير فى الموضوع ، وفعلا أضاف جملة فى آخر خطابه يحث فيها رعيته على الاستفادة من تجارب الغربيين وخصوصا الفرنسيين . ولكن جلالته حذفها فى آخر ساعة نظرا لتأثره العميق من حوادث البيضاء ومآسيها .

وقبل سفر جلالته تبلغ دعوات من سفيرى أمريكا والبرتغال وغيرهما لتناول العشاء على مائدتهم ، ولكن الملك اعتذر بأنه سيكون فى بلاده وليس من المعقول أن يكون مدعوا بل هو الذى سيدعو ضيوفه الاجانب الى مأدبة ملكية اكراما لهم واشعارا بما لدولهم من الاعتبار عند جلالته .

وقد قررت بلدية طنجة خمسة ملايين من الفرنك لمصاريف الزيارة الرسمية ونظم الاهالى وسائل الزينة والافراح طيلة تلك الزيارة التى كانوا يعتبرونها أسعد أوقاتهم وأطيب أيامهم .

أما (حزب الاستقلال) فقد أعد العدة الكاملة للمشاركة فى هذه الأفراح الشعبية والاذاعة عنها، وأصدر من جريدته «العلم» عددا خاصا عن طنجة وموقعها وقيمة الزيارة الملكية لها كان يوزع مجانا عند وصول القطار الملكى (لعروسة المتوسط) ، وكان فرع الحزب بطنجة وفرقة الكشافة الحسنية التابعة له هما اللذان يشرفان على الحفلات القومية والتنظيمات الشعبية ، وأصدر مكتب الاستخبارات والدعاية للحزب

نشرة يومية باللغة الفرنسية كانت هى المصدر الوحيد للصحافة العالمية برمتها ، وكان مركزها بأوتيل المنـزه مرجع جميع الصحافيين الذيـن اعترفوا للحزب بجميل خدمته وعظيم أهميته ؛ كما التقط مبعوث الحزب السينمائـى الاستـاذ عبـد الكبيـر الفـاسى شريطـا مهمـا لجميـع مظاهر الرحلة الملكية أخرجته بعد شركة استديو المغرب فكان شريطا قوميا رائعـا .

وقد اهتم العالم كله بهذه الزيارة التاريخية ووصلت طنجة وفود الصحافيين المصورين من أقاليم الدنيا جميعها، ومثل الصحافة المصرية الاستـاذ ابراهيم مـوسى مندوب جريدة المصرى الذى كان المبعوث العربى الوحيد فى هذه المظاهرة القومية الكبرى .

صاحب الجلالة يغادر الرباط :

أصبحت مدينة الرباط مزدانة كلها بالاعلام والزينة، والمرح على وجوه سكانها الذين احتشدوا فى الشوارع التـى يمر منها الموكـب فى طريقه للقطار الذى ينقل الجناب الشريف لطنجة، وما أزفت الساعة السابعة والخمسون دقيقة من صباح يوم الاربعاء التاسع من شهر ابريل سنـة ١٩٤٧ حتـى دوت ساحة المحطة بعاصفـة من الهتاف ، وكان فى طليعة الموكب الشريف أمير الاطلس ولى العهد مولاى الحسن ، وصاحبة السمو الاميرة عائشة ، والامير مولاى عبد الله ، وقد نزل سيدنا نصره الله صحبة ولى عهده من سيارته فتقدم للسلام عليه المقيم العام والكاتب العام للحمايـة والقائد الاعلى للجيش ، ثم صدحت الموسيقى بالنشيد الملكى ، وما وصل سيدنا لباب المحطـة حتى تعالت الهتافات بحيـاة جلالته وحياة شعبه الابى، وهو نصره الله يحيى الجماهير بيده الكريمة .

وكانت جدران المحطة مزدانة بالرايـات والبسط السندسيـة ، والارض مفروشة بالزرابى المتنوعـة ، ثم تقدمت الهيئة الوزارية لاداء تحية الاخلاص ، وتبعهـا بعض باشوات المغـرب وكبار قواده فأعيـان العدوتين (الرباط وسلا) ثم بقية أفراد الحاشية الملكية التى رافقت جلالة الملك فى رحلته ، وهى مركبة من ممثلى سائر طبقات الامة ويبلغ عددها خمسة وستين عضوا .

وقبل أن يتحرك القطار أدى الحرس الشريف مراسم التحية، ثم سارت القطر فى وسط هتافات الجماهير الحارة ، وكانت المحطات التى يمر بها القطار كلها مليئة بالرعايا المخلصين الذين انتهزوا فرصة مرور ملكهم لتحيته والاعراب له عن ولائهم وتعلقهم بعرشه الكريم .

وما وصل الموكب الى عرباوة (الحد الصناعى بين جزئى المغرب) حتى امتلأ الجو تصفيقا وهتافا من الآف اخواننا المحتشدين لتحية عاهلهم العظيم ، وقد تقدم للسلام على مولانا مولاى محمد صنو سمو الخليفة، ووزير العدل بالمنطقة الخليفية، ورئيس التشريفات، والجنرال لاريا، ومدير الشؤون الوطنية، والوزير الاسبانى المفوض، ورئيس ديوان المندوب السامى الاسبانى، ثم رافق الكل جلالته الى مدينة (أصيلا) حيث بلغها القطار فى الساعة الواحدة والعشر دقائق .

ولاء المنطقة الخليفية :

وقد وجد جلالة الملك فى استقباله سمو الخليفة، ونجله مولاى المهدى، والمندوب السامى الاسبانى، والمسيو ايريك لابون مقيم فرنسا العام، ووفود القبائل والمدن المغربية . وكان سمو الخليفة قد أعد حفلة غذاء فاخرة تجلت فيها مظاهر الابهة والعظمة، وتفضل مولانا فدعا لتناول الغذاء معه سمو الخليفة وعددا كبيرا من رجال المخزن بالمنطقة الخليفية من بينهم الامير مولاى المهدى .

وبعد تناول الغذاء استقبل جلالته رجال الصحافة العربية والاجنبية، وأفضى لهم جلالته بالتصريح الآتى : «ها أنتم ترون أن المغرب أمة واحدة، بل عائلة واحدة، وأن أمنية الامة المغربية التى ستحقق بعون الله هى أمنية جميع الامم العربية؛ اذ الشعوب العربية أمة واحدة » .

ثم تناول الموكب الملكى الشاى فى قاعة أعدت لذلك، فألقى الاستاذ ابراهيم الالغى قصيدة بين يدى جلالة الملك، وفى نهاية المأدبة تقدم صاحب السمو الملكى الخليفة مولاى الحسن فألقى خطابا جاء فيه:

ان لبلادنا تاريخا مجيدا، وان أمير المؤمنين بالغ بحسن قيادته للمرمى السامى الذى يسترجع مجدها الغابر تحت ظل جلالته ؛ لان المغرب أمة واحدة لا تعترف الا بعاهل واحد ستصعد فى عهد جلالته مدارج الرقى، فنرجو الله أن يعين جلالتكم فيما تقومون به من أعمال .

ثم غادر الملك (أصيلا) الى المحطة حيث ودعته جماهير المنطقة الخليفية وسمو الخليفة والولاة المغاربة والاسبانيون وكذلك المسيو لابون الذى عاد للرباط .

ولاء المغرب المتحد :

وفى الساعة الرابعة تحرك القطار فوصل الى طنجة فى الخامسة، وما أن رسا الركب الملكى حتى أرسلت ثلاث بوارج حربية برتغالية مائة طلقة وطلقة ايذانا بوصول الركب المولوى، ثم صعد سعادة مندوب

السلطان الى القطار حيث سلم على صاحب الجلالة وقدم لمقامه الكريم ممثل الولايات المتحدة، ووزير بريطانيا الذى هو رئيس لجنة المراقبة، وأعضاء لجنة المراقبة، والاميرال البرتغالى والى المدينة .

وكانت الجماهير الغفيرة محتشدة فى جوانب المحطة وساحتها، والطريق المؤدية اليها، والهتافات تتعالى من الارض وترتفع من السطوح والمنافذ فى سرور وانتشاء ، وما ان ظهر محيا مولانا للعيان حتى امتزج هدير المدافع وألحان الموسيقى بزغاريد النساء وهتافات الجمهور وتصفيقه، ولم يستطع الموكب الشريف اختراق تلك الامواج البشرية التى كانت تلوح بالرايات الحمر المختومة والتى غمرت الشوارع المزدانة بالزرابى والاعلام وأقواس النصر الا بجهد جهيد، وكانت الخمسون سيارة التى لوحظ من بينها سيارة «العلم» وسيارة «رأى الشعب» وسيارة «رسالة المغرب» تسير ببطء كبير وسط النسمات المتماوجة حتى وصلت لقصر سعادة المندوب .

وبالجملة فقد أعطى سكان طنجة المغاربة البرهان الساطع على تعلقهم بالعرش المغربى وعاهله العظيم، وفى المساء أطلقت شهب اصطناعية بديعة فى حفلة نظمتها بلدية المدينة .

الاقتبالات :

وفى صباح يوم الخميس ١٠ ابريل كان موعد اقتبال جلالة الملك لاعضاء السلك الديبلوماسى وأعيان المدينة ووفود الجهات فاقتبل أولا سفير الولايات المتحدة الامريكية مستر أليس الذى أعرب لجلالته عن عواطف أمته، ولما أخبر جلالته بأنه قد عين سفيرا لدولته فى سوريا أجابه جلالة الملك بأنه سواء كان فى طنجة أو فى دمشق فلن يكون الا فى بلاد عربية، وأن جلالته يتمنى أن يكون خير ممثل لعطف أمريكا الديمقراطية على العرب، ثم اقتبل جلالته بعد ذلك ممثل انجلترا فتحدث له ملك المغرب عن العلاقات القديمة التى كانت بين انجلترا وبين مراكش، وأن مراكش التى تعمل للوصول الى مبتغاها الذى هو مبتغى جميع الشعوب ترجو أن تكون علائقها مع انجلترا فى المستقبل مثل علائقها معها فى الماضى، فأكد السفير أن انجلترا ستحافظ على صداقتها التقليدية للمغرب ، وتشرف بعد ذلك بالمثول بين يدى جلالة الملك سفير أسبانيا فأبدى له جلالته تأثره من الاستقبال العظيم الذى قامت به المنطقة الشمالية مذكرا بأن مراكش وطن واحد، وتكلم السفير الاسبانى عن الصداقة التى للاسبانيين مع المغاربة منذ قديم .

وبعد ذلك تقدم أمام جلالته ممثل فرنسا فصرح له جلالته بما يأتى: «يسرنى وأنا بهذه المدينة المغربية حيث تمثل هنا جميع هذه الدول الصديقة أن أذكر بالصداقة الفرنسية المغربية التى تجلت فى أحرج الظروف، وان المغرب الذى شارك فى الحرب يريد أن ينال نصيبه من السلم، وذلك بالتمتع بحقوقه التى يطمح اليها والتى سيحصل عليها بفضل صداقته مع فرنسا » .

وبعد هذا برز سيدنا لشعبه الكريم وبين يديه سمو ولى العهد مولاى الحسن والامير مولاى المهدى نجل خليفته بتطوان، فألقى خطابه التاريخى الذى كان يقاطع فى كل فقرة بالهتاف والتصفيق .

وعلى اثر ذلك استقبل وفدا يمثل (حزب الاصلاح) والامين العام لحزب الاستقلال برفقة الحاج عمر عبد الجليل، ثم استقبل فرع حزب الاستقلال بطنجة، والاستاذ المكى الناصرى باسم (الوحدة المغربية) وغيرهم من أعيان المدينة والوفود .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر زار صاحب السمو ولى عهد المملكة مولاى الحسن مدرسة مرشان العربية الفرنسية والمدرسة الصناعية .

وفى الساعة الثالثة من اليوم نفسه دشن سموه باسم والده الكريم مدرسة الاستاذ عبد الله كنون .

وفى الساعة الرابعة أقام الكشافة المسلمون حفلة شيقة لاستقبال صاحب السمو الملكى مولاى الحسن بصفته الكشاف الاكبر .

وفى الساعة الرابعة والنصف، زار سموه باسم والده الكريم مدرسة مولاى المهدى .

وقد ألقى سموه فى كل من مدرسة الاستاذ كنون، ومعهد مولاى المهدى، وحفلة الكشافة، خطبا قيمة وسط مظاهر الاجلال والتكبير ومعالم الحماس القومى المتدفق .

وقد أهدت الكشافة الحسنية لسموه بذلة كشاف رسمى فتفضل سموه وارتداها بين مظاهر الحفاوة والاعجاب، ثم ألقى بها خطبته العظيمة فى جو اخاء وحب متبادل .

أما صاحبة السمو الملكى الاميرة عائشة فقد زارت مدرسة البنات بالقصبة حيث أقيم لاستقبالها حفل منقطع النظير شاركت فيه المدينة برمتها برجالها ونسائها، كما حضره ممثلو الدول والجوالى الاجنبية، وألقت سموها فى الجمهور الملتئم حولها خطابا شيقا بالعربية، ثم بالفرنسية والانجليزية، دافعت فيه عن مبادئها التحريرية التى وقفت

حياتها الناشئة على خدمتها مشيدة بالنهضات العربية فى مصر والمشرق، مؤكدة تعلق المرأة المغربية بالمثل العليا التى يعمل لها العرب جميعا ، وقد كان لخطابها أثر عميق فى نفوس الحاضرين، وأيقن الكل بأن العائلة المالكة مصممة عزمها على السير بالبلاد فى معارج الرقى والكمال.

الامام المجدد بالمسجد الاعظم :

وفى يوم الجمعة ١١ أبريل توجه جلالة الملك للصلاة بالمسجد الاعظم فى موكب رسمى حافل، وقد فاجأ رعيته الكريمة بمنة عظيمة فألقى خطبة الجمعة وأم الناس بنفسه، محييا بذلك سنة الخلفاء الراشدين التى اندثرت منذ عهد غير قريب، وقد اهتزت لهذا المشهد أفئدة المؤمنين وانتعشت أرواحهم وانطلقت ألسنتهم بالتكبير والتهليل .

وقد بين سيدنا نصر الله فى خطابه الدينى السر فى نجاح السلف الصالح وهو تمسكهم بتعاليم الدين الحنيف الذى أتاح لهم أن ينقذوا العالم من مخالب الجهل ونير الاستبداد، وأن يبينوا للانسانية قيمة الحرية الشخصية ويعرفوها بالحقوق البشرية، ثم عرج نصره الله على ما لاقاه صلى الله عليه وسلم من مصاعب واجهها عليه السلام بعزيمة ثابتة ورباطة جأش حتى اعتز الحق وانتصر ثم ذكر أيد الله ملكه أن الامة الاسلامية لا تتحقق أمنيتها ولا تعيش عزيزة الجانب الا اذا اجتمعت كلمتها واتحدت قلوبها بتعاليم القرآن المبين، ثم تلا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

وفى الخطبة الثانية شرح الملك حديث (الدين نصيحة) ، ثم ختم بالدعاء لجميع ملوك المسلمين ورؤسائهم .

وهكذا بعد ان اكد مولانا سلطته الزمنية فى طنجة المغربية وطد دعائم سلطته الروحية على هذا الجزء من مملكته الشريفة العربية المسلمة .

ولم يكن سيدنا نصره الله فى هذا كله الا مترجما عن الاتجاه الشعبى لرعيته الكريمة التى تريد أن تكون حركتها التجديدية شاملة كل مظاهر حياتها الروحية والمادية .

هدايا الشعب لمليكه :

وعقب صلاة الجمعة توجه الملك وموكبه الكريم للسوق البرانى حيث تقرر أن يكون حفل الهدية التقليدى، فقدم أولا أهالى طنجة المسلمون سيفا نصله صينى وغشاؤه من ذهب وقد كتب عليه (الاخلاص

والـولاء)، ومعـه هدية ثمينة لولى العهـد هى كرة أرضية تحتوى على أجهزة لتعديـل الوقـت والحرارة والرطوبة، والى سمو الاميرة عائشة عقد من الجواهر الفاخرة، ولسمو الامير مولاى عبد الله ساعة بديعة.

وأهدت الطائفة الاسرائيلية المغربية بطنجة اوانى شرب الشاى وكلها من الفضة الخالصة، وأعربت عن ولائها واخلاصها للعرش العلوى وتعلقها بجلالة الملك.

أما أهالى تطوان فقد تقدم وفدهم بهدية رمزية عظيمة هى خريطة المغرب المتحد مصنوعة من الفضة الخالصة، وكتابتها من ذهب خالص، ومعها صندوق من ذهب ملىء بتراب أخذ من جبال المنطقة، وكتب عليها العبارات الآتية :

«لمناسبـة زيارة الملـك لطنجـة يقدم أهالى تطوان هذا التراب المخضـب بدمـاء الشهداء الابطال كرمز لوحدة المغرب تحت العرش العلوى المجيد».

وقد تكلـم الاستاذ عبـد الخالق الطريس وسط الجماهير الهاتفة بحياة المغرب فقال : «الى حامى الملة والدين باسم هذا الجبل الذى لا يتزحزح من مملكتكم السعيـدة نتقدم باجلالنـا وتعظيمنا وولائنا لامير المؤمنين راجين من مولانا أيده الله ونصره أن يتقبل هذه الهدية المتواضعة كرمز لمحبتنا واخلاصنا لعرش اسلافكم الخالد. يا مولاى اننا بكم نهتدى وبمثلكم نقتدى»

وبالجملـة فقد كانـت مظاهرات طنجة عظيمة الدلالة على وحدة المغـرب الاقصى الراسخة، وعلى رغبته فى الاستقلال التام والوصول الـى أمانيه التحريريـة برعاية ملكه الهمام الذى لا يألوا به جهدا فى السير به الى الامام.

وفى صبيحة يوم السبت ١٢ ابريل زار سيدنا نصره الله مدرسة المصلى الشعبية حيث كان الجمهور محتشدا لاستقبال جلالته، وبعد ان ألقى كل من المندوب الملكى وسمو ولى العهد خطابا مناسبا تقدم سيدنا فوضع الحجر الاساسى للبناية الجديدة التى يزمع الشعب على رفعها .

وفـى الساعـة الواحدة تناول الغذاء على المائدة الملكية كل من وزيـر الولايـات المتحـدة المفوض المستر الين ومسيو ايريك لابون وقنصل انجلتـرا العام، وقد تقدم لجلالتـه وفد من الصحافيين يطلب مقابلة جلالته فأمر سيدنـا رئيس ديوانه ان يأخذ منهم الاسئلة على ان يرجعوا فـى المساء لاستلام الجـواب الملكى عنها، وقد سلم لهم رئيس

الديوان الملكى التصريح التالى : «قبل ان نغادر طنجة عاصمة المغرب الديبلوماسية يسرنا ان نوجه تشكراتنا لجميع سكانها لما اعربوا عنه من اخلاص وولاء ؛ فقد كانت طنجة فى استقبالنا عند حسن الظن بها مغربية متمسكة بعرش ملكها تمسكا متينا، وبذلك أقامت الدليل على ان المغرب وحدة رمزها العرش. وعسى ان تكون هذه الرحلة من حوافز التعجيل فى قضية طنجة.

«وان المغرب لحريص على ان تكون علاقاته فى المستقبل حسنة بجميع الدول التى ناضلت من اجل الحرية ولا تزال تناصرها، وهو شديد الرغبة فى نيل حقوقه كاملة.

«وغنى عن البيان أن المغرب بلاد عربية صلتها وثيقة بالشرق العربى ؛ فمن الطبيعى ان يزداد هذا الاتصال متانة وقوة لا سيما وقد أصبحت الجامعة العربية تقوم بدور مهم فى السياسة العالمية .

«واننا على يقين أن المسألة الثقافية لها مكانتها فى تحقيق هذا الاتصال، ولذلك فاننا نسعى فى تنوير اذهان المغاربة جاعلين هدفنا الاساسى انشاء معاهد للدراسة العلمية موحدة البرامج مع كليات مصر وسوريا ولبنان والعراق، كما أننا سعينا منذ ألقيت الينا مقاليد الملك فى تمكين رعايانا من الحقوق الديموقراطية ، وأملنا وطيد أن يتحقق كل ما نصبو اليه ».

العودة للرباط :

وفى صبيحة يوم الاحد غادر الموكب الملكى طنجة عائدا لعاصمة الملك مودعا بمثل ما قوبل به من الحفاوة والاجلال، وقد كان فى انتظار مولانا بعرباوة سمو الخليفة مولاى الحسن حيث تناول الغذاء صحبة جلالة الملك هناك، ثم دشن جلالة السلطان مسجد عرباوة، ثم امتطى سيارته الملكية الى ان وصل سوق اربعاء الغرب حيث قام جلالته بتدشين مدرستها فى وسط مظاهرات شعبية منقطعة النظير شاركت فيها فرقة طارق بن زياد احدى فرق الكشافة التابعة لحزب الاستقلال، وفى الساعة السادسة والخمسين دقيقة من مساء اليوم نفسه وصل صاحب الجلالة للرباط حيث وجد الشعب محتشدا لاستقبال عاهله العظيم، وكله شوق لرؤية محياه الكريم.

خطب طنجة :

سنتكلم بعد عن الأهمية الخاصة التى لهذه الزيارة الملكية لعاصمة المغرب الديبلوماسية حسبما سماها جلالة الملك فى خطابه، ولكن الآن ينبغى ان نلقى نظرة على خطاب صاحب الجلالة وتصريحاته، وخطب الامير مولاى الحسن والاميرة عائشة اللذين كانا يعبران فى الحقيقة عن رأى والدهما الهمام .

تمتاز خطبة الملك أمام جمهور الشعب بأسلوب الموعظة الدينية التى يختارها جلالته دائما ليكون معبرا عن صفته الدينية والزمنية فى وقت واحد، وتتلخص محتوياتها فى التذكير اولا بالمجد العظيم الذى كان عليه المسلمون الاولون وبالحالة السيئة التى وصل اليها الخلف والتى من مظاهرها هذه التجزئة بين البلد الاسلامى الواحد الذى هو المغرب، والبحث عن الاسباب التى نهضت بالمسلمين اولا فجعلت منهم ملوك الدنيا وقادة الناس، والعوامل التى فتكت بمعنوياتهم حتى اوصلتهم لحالة الانحطاط التى يرزحون تحتها اليوم. وقد أكد جلالته أن اقتفاء تعاليم الاسلام الصحيح البعيد عن كل التمويهات والخرافات، والذى يهدى الى سبيل السلف الصالح القائم على النظر والبحث والدراسة والتعلم، وأن المغاربة لا يمكنهم أن ينهضوا الا اذا وجدوا فى نفوسهم المعنويات التى كانت لسلفهم كى يسترجعوا مجدهم القديم ويبنوا على أساسه مجدا جديدا، ويستبشر جلالته بالروح السائدة فى العالم العربى والتى أدت الى تأسيس الجامعة العربية، مؤكدا أن المغرب بلد عربى تملأ نفسه المثل العليا التى تملأ نفوس العرب والمسلمين جميعا ، وأن مجهودات جلالته فى نشر التعليم وتثقيف الناشئة يرمى لغاية بعيدة هى توحيد الوجهة المغربية وذهنية الشعب مع الوجهة والذهنية العربيتين حتى لا تتأخر هذه عن اختها، او تتكيف عن صفة غير الصفة العربية العامة لجميع أفراد العرب، ويحس جلالته بأن تحقيق هذه الغايات لا يمكن ان يتم الا اذا وصل المغرب لحريته ؛ فيؤكد جلالته أنه لا يألوا جهدا فى الدفاع عن حقوق رعيته والعمل على احلالهم المحل اللائق بهم كأمة عربية مسلمة .

ويؤكد جلالته فى التصريح الذى أدلى به للصحافيين رغبته العميقة منذ تولى جلالته الملك فى تحقيق مبادىء الديموقراطية لشعبه، وهكذا يمكننا ان نحصر هذه النظريات الكريمة فى النقط الآتية :

١ ـ تأكيد صفة المغرب العربية الخالصة .

٢ – ضرورة تحقيق وحدة البلاد بادماج سائر مناطقها .

٣ – وحدة المثل العليا الثقافية والدينية المغربية مع مثل سائر المسلمين والعرب .

٤ – ضرورة تحقيق سائر الامانى القومية للمغرب .

٥ – ضرورة تأسيس نظام ديموقراطى للحكومة المغربية .

وباداء جلالة الملك لصلاة الجمعة فى المسجد الاعظم وتقدمه للخطابة والامامة أثبت ما يهتم به جلالته من البعث الروحى للمغاربة، وما بريده من تطور فى أساليب الوعظ الدينى والرعاية الخلقية خصوصا بعد أن امر جلالته لاول مرة بادخال مكبرات الصوت ليتمكن المصلون من سماع الخطبة والقراءة ، وهذا يعنى ان التجديد الدينى والمدنى يجب أن يكونا محل عناية الملك والمخلصين من مصلحى رعيته، وقد حث جلالته فى خطبة الجمعة على ضرورة التعاون فى مظاهره العصرية، ولا سيما فى الميدان الاقتصادى، وذلك بتأسيس الشركات ومزاحمة الغير فى ميادين الحياة، ولعل فى ذلك خير اعداد للجواب العملى الذى ينبغى ان يقدمه الشعب لسياسة الأحتكار الاقتصادى الذى رمى له المسيو ايريك لابون؛ فجلالته لم يغفل عن الناحية المادية فى جهاده ، ولكنه يريدها ناشئة عن صوفية روحية دافعة لتنفيذ ارادة الله بعمارة الارض وحماية الحق من الغاصبين، وليس فى خطاب الملك ما يقابل الكيلوات التى يعرضها المقيم العام بالقوات الدينية على ما ارادت بعض المجلات الفرنسية تأويله، وكل ما هناك ان جلالة الملك يريد ان يستغل هذه الكيلوات المغاربة بأنفسهم لصالح بلادهم، وهم يعتقدون انهم يؤدون واجبا وطنيا ودينيا معا؛ بل ان جلالة الملك يريد ما هو اسمى من ذلك، وهو أن يذكر مواطنيه ورعاياه بالقيمة المعنوية التى للانسان، وهى الرسالة التى حملها لخلافة الالوهة على وجه هذه الارض، والانسانية المغربية لا يمكنها ان تقصر عن اداء مهمتها فى الجزء الذى وضعته العناية الالهية تحت مسؤوليتها، وهو بلاد المغرب، والا كانت جديرة بالانقراض وترك المصلحين من الغير يحلون محلها، ولكنها لا يمكن ان تقوم بهذه المسؤولية الا اذا تحررت من عراقيل الاستعمار وقيود الاستعباد الاجنبى، ولذلك فان كل الجهد يجب ان يحصر فى سبيل تحقيق الامانى المغربية فى التمتع بالحرية التى ننشدها .

لم يلق جلالة الملك الجملة التى اقترحها المقيم العام، وقد رأى فى ذلك المعلقون الفرنسيون زيادة على تناسى فرنسا واعمالها خرقا من

جلالته لما تقتضيه وظيفة مسيو لابون كوزير لخارجية جلالته، ومعنى هذا ان تصرفه بحذف تلك الجملة يعتبر تأكيدا لاستقلاله عن رقابة المقيم العام، والحقيقة انه كان من الممكن ان يذكر جلالة الملك شيئا عن التعاون الفرنسي المغربي في خطابه كما ذكره في تصريحه لممثل فرنسا اثناء الاقتبال الديبلوماسي، ولكن ظروف حوادث الدار البيضاء لم تترك مجالا لهذا الذكر، خصوصا وان الخطاب موجه قبل كل شيء للجمهور المغربي في شكل وعظ لا محل فيه للحث على التعاون او عدمه مع فرنسا او مع غيرها

اما نظرية اتباع رأي وزارة الخارجية فهي لا تعتبر الا في بلاد ذي نظام ديموقراطي، والمسيو لابون حين قدم ملاحظته لجلالة الملك قدمها كممثل لفرنسا لا كوزير مغربي، على ان اعتبار المقيم العام وزيرا للخارجية هو شيء لا يقضي به الدستور المغربي ولا حتى معاهدة الحماية التي تجعل حقيقة من ممثل فرنسا الواسطة الوحيدة بين الملك وبين الدول الاجنبية، ولكنها لا تفرض على جلالة الملك ان يجعل المقيم وزير خارجيته ولا حتى ان يكون لجلالته وزير خارجية ما .

ثم ان هناك خطأ أساسيا هو أن مدينة طنجة تتمتع بنظام غير نظام الحماية الفرنسية، ولذلك فليس من المعقول ان يقصر الملك تعاونه فيها مع فرنسا او اسبانيا، بينما لجنة الرقابة بها تتكون من هؤلاء ومن غيرهم .

وتذكير مولاي الحسن بشخصية جده السلطان الاكبر مولاي الحسن يرمز الى معنى عميق هو الكفاح الذي قام به هذا الملك البطل في وجه المؤامرات الديبلوماسية الاجنبية؛ ذلك الكفاح الذي استطاع ان يصد أنواع الهجوم الأجنبي عن المغرب اكثر من عشرين سنة، الى ما قام به من نشر الامن وتوحيد البلاد حواضرها وبواديها، وفي ذلك ما يذكر الاذهان بعهد الاستقلال الذي تمتعت فيه البلاد بالوحدة والكرامة والامن، وعهد الاستعمار الاجنبي الذي وزع البلاد طرائق قددا .

وفي خطبة الاميرة عائشة استعراض وجيز لتاريخ البعث العربي وعوامل اتجاهاته؛ وذلك ما يؤكد تماما وحدة المثل المغربية والعربية والتجاوب النفسي الحاصل من تموجات الآلام والآمال العربية .

أهمية الزيارة الملكية :

مضى نصف قرن كامل دون ان تحظى مدينة طنجة المغربية بزيارة ملك البلاد الشرعي، ولقد كانت السياسة الدولية تحول عمليا دون نزول جلالته بهذا الجزء من تراب مملكته او المرور بتراب المنطقة الخليفية ،

ولقد كانت اسفار سيدنا نصره الله لفرنسا واوربا كلها من ميناء الدار البيضاء ، وحينما كانت تصل الباخرة الشريفة لميناء طنجة كان الولاة المحليون يصعدون اليها للسلام على جلالته.

وبعد ان قسمت فرنسا البلاد بينها وبين اسبانيا واقتطعت اقصى جنوب المغرب الأقصى لفائدة افريقيا الغربية ظلت طنجة تحت نظام دولى يقوم بتدبيرها لمصلحة الدول المشاركة فيها، ولم تبق لجلالة الملك الا سيادة اسمية بعيدة يرمز اليها وجود مندوب مخزنى لا يبت فى قرار ما، ولكنه يمضى رسميا كل ما يعرض عليه من المشروعات، ثم ظلت انجلترا تبذل جهودها للتقليل حتى من السيادة المغربية الاسمية . ووقفت فرنسا نفسها عام ١٩٢٦ موقف الدفاع عن حق المغرب، وأما اسبانيا فلم تترك فرصة تمر الا وطالبت بالحاق طنجة بمنطقة نفوذها ، وبمجرد ما وقع انهزام فرنسا وحلفائها عام ١٩٤٠ ظنت اسبانيا ان الفرصة سانحة؛ فدخلت المدينة الدولية وألحقتها بحمايتها، كما طردت مندوب الجلالة الشريفة وسلمت قصر المندوبية للسفير الالمانى الذى اتخذه مركز سفارته، وقد امضت انجلترا موافقتها المؤقتة على عمل اسبانيا، بينما ظل المغاربة مطالبين بوحدة البلاد وتحريرها .

وحينما تم انتصار الحلفاء ، وعادت طنجة للنظام الدولى السابق، وصرح الحلفاء بأن نظامها مؤقت، وأن نظاما أحسن سيقع درسه بعد بضعة أشهر – بعث جلالة الملك مندوبه من جديد، فاستقبله الشعب استقبال الفرح المستبشر، ثم أظهر جلالة العاهل رغبته فى زيارة المدينة بنفسه، والمرور بالمنطقة ليؤكد سيادة الشعب المغربى الذى يمثلها عرشه الكريم فى جميع مناطق البلاد، وليدعم بذلك حق المغاربة فى أن يختاروا المصير الذى يريدونه لوطنهم .

واذا كانت طنجة غير داخلة فى منطقة الحماية الفرنسية ولا الاسبانية فمن الممكن ان يبحث لها عن نظام المدينة الحرة التى تسبق فى تحريرها بقية اجزاء الوطن الاخرى فى ظل جلالة الملك وبمقتضى النظام الادارى والمالى الذى يعطيه لها جلالته، ولذلك فان زيارة الملك لطنجة كانت عظيمة الاهمية بالنسبة للموقف الديبلوماسى الذى وقفته الحكومة الشريفة معبرة على لسان جلالة الملك عن وجهة نظر المغاربة وعن تعلقهم بحقهم فى تقرير المصير .

حاولت الديبلوماسية الفرنسية ان تجعل من حضور المقيم العام صحبة جلالته فى هذه الرحلة تحويلا للفائدة التى بيناها الى جهة

الديبلوماسية الفرنسية نفسها، ولكن تقديم المندوب المخزنى لسفراء الدول اعطى الدليل العملى على ان نفوذ فرنسا لا يتعدى الحدود المعتادة وعلى ان المغرب مهما يكن نظامه فهو مستقل عن فرنسا، وهناك جانب من سيادة الملك محرر من حماية فرنسا، ومعنى هذا ان القضية المغربية لا يمكن ان تحل بمجرد اتفاق مع فرنسا نفسها، وان الوضعية الدولية للمغرب هى غير الحماية الفرنسية او الاسبانية او الدولية؛ بل هى المعاهدات العامة التى ادت الى ظروف الانظمة القائمة فى البلاد

واذا كانت اسبانيا قد حلمت فى يوم من الايام ان تعمل على ضم المغرب كله تحت حمايتها مفكرة فى اقصاء الملك نفسه والتآمر مع سواه فان من حق الوطنية المغربية أن تثبت لها تعلق شعب المنطقة الخليفية والطنجية لا بالعرش العلوى فقط بل بجلالة الملك سيدى محمد الذى يدين له الشعب المغربى كله بالولاء والطاعة .

واخيرا فان المظاهرات التى وقعت فى طنجة لم تكن قاصرة على الوحدة المغربية بل تجاوزتها الى وضع حد حاسم لكل غموض يتعلق بانخراط المغرب فى اتحاد فرنسى او اسبانى؛ فقد اعلن الملك وصادق الشعب على ان المغرب لا يمكن ان يتطور ولا ان يتم تحريره واستقلاله الا فى دائرة الامم العربية المتحدة .

وبالجملة يمكننى أن أختم هذا الفصل بهذه الشهادة التى صرح لى بها المسيو جيريف المبعوث الخاص لجريدة (لومند) الباريسية : ان زيارة السلطان لطنجة تعتبر قطعا وبدون ادنى نزاع نصرا مبينا للوطنية المغربية وحركتها الاستقلالية .

أثر الزيارة الملكية فى المسؤولين الفرنسيين :

بمجرد ما أعلنت الصحف تفاصيل الرحلة الملكية ومضمن الخطبة التى ألقاها جلالة السلطان على شعبه حدث انفعال نفسى فى وسط المسؤولين الفرنسيين ونعنى بهم المقيم العام المسيو لابون ورئيس الوزارة الفرنسية المسيو راماديه، فقد حاول رئيس الوزارة ان يعالج التصريحات الملكية بشكل أبعد ما يكون عن الحقيقة والصواب، ولكنه يدل على ارتجال فى الآلة السيكولوجية أفقدت الرئيس الفرنسى بداهة الفصل فى الموضوع .

صرح الرئيس راماديه بأن جلالة السلطان منحدر من سلالة شريفة، وأن المغرب لم يعترف قط بالخلافة العثمانية، ولذلك فمن حقه

ان يتكلم مع رعيته كخليفة مسلم، واذا كان لم يطالب بعد بحقه فى الخلافة فان شخصيته الشريفة تخوله الحديث باسمها .

ويمكننا ان نقول من عندنا ان طائفة من الفرنسيين تحدثت فى الحرب الكبرى الاولى عن امكان المناداة بجلالة مولانا الامام يوسف كخليفة مسلم على ما سموه بالاسلام الفرنسى، فهل اراد المسيو راماديه أن يؤول مقاصد الملك النبيلة بهذا المعنى الذى هو أبعد ما يكون عن تفكير ملك المغرب ؟

او ان تصريح الملك بتمجيد الجامعة العربية واعتبار المغرب جزءا منها بعث فى نفس المسيو راماديه رغبة الايقاع بين ملوك العرب الذين يمكن ان يغاروا من اى شخص يريد نصب نفسه خليفة على الارض المسلمة ؟

ومهما يكن فان دعاء مولانا فى خطبة الجمعة غداة هذا التصريح لا لنفسه بل لسائر ملوك الاسلام ورؤسائه قد قطع كل مقال؛ كما ان الامة العربية ملوكا ورؤساء وشعوبا أعقل من أن تنخدع بمثل هذه الترهات التى لم تعبأ بها ايضا حتى الصحافة الفرنسية التى نشرتها فى شىء من التردد وعدم الاهتمام .

أما مسيو لابون فقد ألقى أمام الجالية الفرنسية بطنجة خطابا قال فيه : «ان الكل فى المغرب من جلالة الملك ومن جميع الذين يتحملون أعباء السلطة يعلم ان الشرط الاساسى الاول للتقدم هو فى النظام وفى التطور، وكل ما يقع خارج النظام لا يؤدى الا للانحلال والآلام والتأخر والتخدير او الهلاك». ثم تكلم عن التعاون المغربى الفرنسى فأكد قائلا : «لتعاون فرنسا والمغرب آثار هذه المعرفة والتآخى اللذين هما صراطنا فى هذه البلد، واللذين يلتئمان بكامل التناسق مع العمل والذكاء والفضائل المغربية الاخرى، ان كل أمم الأرض تصادق على هذا وتعترف به، وليس هناك أحد لا يصرح به ولا يتمنى من قلبه دوامه».

لكن الموضوع الاساسى الذى تكلم عنه الملك هو وحدة البلاد وتحريرها وتمسكها بالشخصية العربية الاسلامية .

ويجب ان لا نخطىء فان محاومة المسيو لابون التوفيق بين ما يريده وبين ما يجب ان يقوله لم تكن الا لكسب الوقت ريثما يتسنى له السفر لباريس كى يعلن للحكومة الفرنسية سخطه على حوادث طنجة، ثم يغادر المغرب بعد تعيين خلفه دون ان يوجه لجلالة السلطان حتى تحيته التقليدية التى تعود المقيمون بعثها لجلالته عند مغادرتهم لمقر وظيفتهم.

صدى الزيارة في الصحف الفرنسية والاجنبية :

تابعت الصحف الفرنسية والاجنبية نبأ الزيارة الملكيـة باهتمام عظيم، فنشرت تفاصيلهـا وسجلت تصريحات جلالـة الملك والامراء ، وعلقت عليها بمختلف التعاليق حسب نزعاتها السياسية والأجتماعية ، وقد اجمعت كلها على اعتبار الحادث ذا أهمية خطيرة بالنسبة لتثبيت سيادة ملك المغرب على جميع مناطق مملكته، كما صرحت بأن مظاهرات طنجة تعد فوزا مبينا للحركة الاستقلالية المغربية .

واستمرت الصحف الفرنسية زهاء شهرين تكتب عن ارتسامات الزيارة فى نفوس المغاربـة وفى نفوس الاجانب وتبدى أسفها الشديد لحالة العلائق الفرنسية المغربية، وحملت صحف اليمين على المسيو لابون وأتهمتـه بعـدم الارادة وضعـف العزيمة ؛ اذ ترك نفسه ينخدع بأساليب السلطان اللبقة وارادته الحازمة ، كما ازمعت كلها على استنكار ما فعله جلالة الملك من عدم ذكـر فرنسا فى خطابـه وعللت ذلك بعلل تختلف بحسب أغراض اصحابها، ولم تتأخر بعض الصحف المتطرفة عن النيل من شخصية جلالة الملك والمن عليه بحماية فرنسا ومساعدتها .

وتناولت الصحف الفرنسية بهذه المناسبة حالة الجامعة العربية واغراضهـا وتأثير رجالها فـى نفوس الزعمـاء المغاربة ، وحاولـت ان تبحث عـن وسائـل للتوازن بينها وبيـن الاتحاد الفرنسى، ولم تغفل عوامل السياسة الداخلية الفرنسية وتأثيرها فى توجيه الوطنيين المغاربة وهكذا استمرت قضية طنجة شغل الصحافة الفرنسية مدة شهرين الى أن عين الجنرال جوان مقيما عاما بالمغرب على ما سنبينه.

النشاط الوطنى فى المنطقة الخليفية

بعد أن انتصر الحلفاء وأرغمت اسبانيا على الانسحاب من طنجة اعتقد الناس ان هذا الدرس القاسى سيدخل على السياسة الاسبانية تعديلا، ولكن المقيم العام الجديد الجنرال فاريلا استمر فى سياسة سلفه، وضاعف العمل لفتح باب الهجرة للمستعمرين الاسبانيين على مصراعيها، وقد حاول سمو الخليفة مقاومة سياسته فى عين المكان ، ولكن اصراره هو على خطته الاستعمارية وتجاهله لكل اختصاصات الخليفة نفسه حمل صاحب السمو السفر لمدريد ليتصل بحكومتها ويقنعها بادخال تعديل بين على سياسة الهجرة التى تهدد البلاد، وقد تبين سموه ان هذه السياسة مصادق عليها من طرف الجنرال فرانكو نفسه، وأن الجنرال فاريلا ليس الا ممثلا لحكومة مدريد التى ترى ان استمرار نظامها لا يمكن الا بالبقاء فى مراكش الشمالية، وأن هذا البقاء لا يكون مفيدا الا اذا أصبحت أغلبية هذا الجزء المغربى من الاسبانيين الفرنكيين ، ولذلك قررت فتح باب الهجرة لمن ترشحهم لها من انصارها وجنودها ، وكلفت فاريلا بمهمة العمل على ايواء المهاجرين وتيسير السبيل لعيشهم .

وطبيعى ان يحول صاحب السمو وجهته صوب الجامعة العربية ؛ فقد صرح سموه لسفير مصر المفوض برغبته فى ارسال من يمثل المنطقة الخليفية لدى رجال الجامعة العربية ، وقد تقبل رجال الجامعة هذه الرغبة السامية بالحفاوة والترحيب

وفى ٧ فبراير سنة ١٩٤٦ حل وفد المنطقة الخليفية لدى رجال الجامعة بالقاهرة ، وهو متركب من الاستاذين المحترمين السيد محمد ابن عبود والسيد محمد الفاسى ، وقد احتفلت به مصر احتفالا شائقا وأبدت الصحافة العربية به اهتماما لا مزيد عليه ، كما تشرف بمقابلة جلالة ملك مصر الذى أضفى عليه من عطفه الملكى ما يدل على اهتمام جلالته بتقدم المغرب العربى وتحرره ، وقد قدم الوفد مذكرات وتقارير عن الحالة فى المغرب الى مؤتمر ملوك العرب ورؤسائهم بأنشاص ومؤتمر بلودان والى مجلس الجامعة .

وحينما أطلق سراح الزعماء بالمنطقة السلطانية اهتزت المنطقة الخليفية أيضا لسراحهم، وقامت مظاهرات وحفلات كثيرة فى نوادى (حزب الاصلاح) ودار (الوحدة المغربية)، وقدمت وفود منها لتهنئة اخوانهم وتجديد الروابط القديمة التى تجمعهم .

وقد استأنف (حزب الاصلاح) نشاطه بتوزيع بيانات واذاعة نشرات يطالب فيها بتوقيف الهجرة السياسية والكف عن نزع ملكية الاراضى والغاء المساعدات المالية للكنيسة الكاثوليكية من الميزانية المراكشية، واقرار الحريات العامة وتكوين حكومة قوية مؤقتة تعد البلاد للاستقلال .

وفى يوم ٢٨ أغسطس نظم الاصلاحيون مظاهرات سلمية فى جميع الشمال المغربى لتأييد مطالبهم المستعجلة، فتدخلت السلطات العسكرية ووقع اصطدام عنيف بينها وبين المتظاهرين، وقد احتجت حكومة الخليفة على تصرف الجيش الاسبانى، وأنذرت الحماية بما يؤدى اليه استعمال القوة من عواقب غير محمودة.

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٦ وجه (حزب الاصلاح) وفدا برئاسة امينه العام الاستاذ الطيب بنونه للرباط، وبعد ما قابل جلالة مولانا الملك عقد معه المجلس الأعلى لحزب الاستقلال اجتماعا تقرر فيه استئناف عمل الحزبين وتوحيد خطتهما للمطالبة باستقلال البلاد ووحدتها تحت التاج العلوى الشريف ، والعدول فى المنطقة الخليفية ايضا عن سياسة المراحل والاغترار بما يلوح به المستعمرون من اصلاحات مشوهة ، وعلى اثر رجوع الوفد ألقى الاستاذ الطريس خطابا بتطوان جا فيه: «ان حزب الاصلاح فى الشمال وحزب الاستقلال فى الجنوب قد عقدا العزم وعاهدا الله والوطن على أن يعملا لتحقيق هذه الغاية، وألا يرضيا باسقتلال البلاد ووحدتها بديلا» ثم لخص رئيس حزب الاصلاح فكرة التضامن قائلا : «وكما أنه لا يصح أن يكون هنالك فرق بين شمال المغرب وجنوبه، ولا بين جلالة مولانا الملك وسمو خليفته، كذلك يجب أن تتحد اتجاهات حزب الاصلاح مع حزب الاستقلال» .

الحزبان ضد اصلاحات فاريلا :

وعلى اثر هذا النشاط الجديد للحركة الوطنية بالمنطقة الخليفية وبمناسبة بعض الاعياد الاسلامية خطب الجنرال فاريلا أثناء استقبال سمو الخليفة لاعيان المسلمين معلنا أنه سيقدم لمصادقة سمو الخليفة

مشروع اصلاح يقضى باحداث بعض الوزارات الجديدة ، وقد أصدر (حزب الاصلاح) بيانا أكد فيه عدم استعداد الاصلاحيين للدخول فى الحكومة ، وأن وقت التلويح بالوزارات قد انتهى ، وأن المغاربة مقتنعون بأن اصلاحات الحماية لا تصدر الا مشوهة ولا يقصد منها الا استفادة السياسة الاستعمارية ، وأصدر (حزب الاستقلال) فى الوقت نفسه بيانا بنفس المعنى أكد فيه تضامن الوطنية المغربية فى الشمال والجنوب فى مطالبها ووسائل العمل لتحقيقها، وحذر المواطنين من الاغترار بالكلمات المعسولة التى يجود بها المستعمرون وهم يعطون وراءها كل مظاهر الكيد لسيادتنا والخداع لقادتنا .

وقد حاولت الحماية الاسبانية أن تقابل هذه الحركة بالقوة ، كما أنها شددت الرقابة على الصحف بعد ما كانت أوقفت جريدة «الوحدة المغربية» عن الصدور، وازاء هذا كله رفع (حزب الاصلاح) مذكرة للامانة العامة للامم المتحدة، كما بعث نسخا منها للامانة العامة للجامعة العربية وللدول الاعضاء فيها، وهى تطالب بالغاء الحماية واعلان الاستقلال، وعلى اثر ذلك اصدرت الاقامة العامة الاسبانية أوامرها بالتضييق على الوطنيين وتفتيش منازلهم وتوقيف جريدة «الحرية» لسان حال حزب الاصلاح وفرض غرامة كبيرة على الحزب، ولم تزل آثار التوتر قائمة حتى أدت الى حوادث يناير الاخير على ما نعود لتوضيحه .

مؤتمر المغرب العربى بالقاهرة

استمرت (رابطة الدفاع عن مراكش) فى بذل مجهوداتها لخدمة البلاد، وحصل ممثلو (حزب الاستقلال) بها على وكالة (حزب الاصلاح) بعد استئناف العمل المنسق بين الحزبين الذى أومأنا اليه، وتقوى نشاطهم بمجهودات الوفد الخليفى لدى رجال الجامعة الذى سهل عليهم بصفته الرسمية سائر الاتصالات بالدوائر المأذونة كلها، وازدادوا شعورا بضرورة العمل على تنسيق الجهود لا بين هيئات المغرب الاقصى فقط بل حتى مع سائر أحزاب الشمال الافريقى، وهم يعرفون أن (حزب الاستقلال) خطا فى هذا المعنى خطوات فى الداخل، كما خطتها من قبله كتلة العمل الوطنى ، ولذلك فقد اتفقوا مع ممثل حزب الشعب فى القاهرة الاستاذ الشادلى المكى ومع ممثلى حزب الدستور التونسى على أن يعقدوا مؤتمرا عاما لدراسة شؤون المغرب العربى والبحث عن أنجع الوسائل لتنسيق الاعمال وتوحيد المكاتب فى الخارج، واظهار التضامن المغربى بالمظهر اللائق لخدمة القضية التحريرية وتبيين أهدافها.

وقد استمر المؤتمر فى أعماله من يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٤٧ الى يوم ٢٢ من الشهر نفسه درس خلالها مختلف المشاكل القائمة واتخذ قرارات فى غاية الخطورة .

وقد روعى فى المؤتمرين أن يكونوا ممثلين لحركة من الحركات القائمة فى شمال افريقيا حتى تتم للمؤتمر صبغته الاجماعية التى تعطى لقراراته قوة تأييد الاحزاب برمتها، فمثلت تونس بوساطة مكاتب الدستور فى القاهرة ودمشق ، والجزائر بوساطة مكتب حزب الشعب فى القاهرة ، أما مراكش فقد مثلتها (رابطة الدفاع عن مراكش) ومعها (الوفد المراكشى) لدى رجال الجامعة .

افتتح المؤتمر جلساته بحفلة عامة أقامها مساء يوم السبت ١٥ فبراير سنة ١٩٤٧ بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين تحت الرئاسة الفخرية لمعالى عبد الرحمن عزام باشا، وحضرها جمع كبير من رجال العرب وزعماء الشرق، وخطب فيها عزام باشا خطبة مهمة تلاه بعدها سكرتير المؤتمر الاستاذ عبد الكريم غلاب وغيره من الحاضرين.

وقد كان أهم موضوع عرض له المؤتمر هو قضية الاستعمار الفرنسى والاسبانى فى المغرب العربى واتخذ فيه القرارات الآتية :

١ – بطلان معاهدة الحماية المفروضة على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بأى حق لفرنسا فى الجزائر.

٢ – مطالبة الحكومات المغربية والهيئات الوطنية باعلان استقلال البلاد .

٣ – المطالبة بجلاء القوات الاجنبية عن بلاد المغرب كلها.

٤ – رفض الانضمام للاتحاد الفرنسى فى اى شكل من أشكاله.

٥ – اعتبار أيام احتلال الجزائر (٥ مايو) وفرض الحماية على تونس (١٢ مايو) وفرض الحماية على مراكش (٣٠ مارس) أيام حداد فى جميع أقطار المغرب.

٦ – تعزيز الكفاح فى الداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء .

* * *

ثم عرض المؤتمر بعد ذلك لموضوع تنسيق الحركات الوطنية فى بلاد المغرب وقرر فيه ما يأتى :

١ – ضرورة الاتفاق بين الاحزاب الوطنية داخل كل قطر.

٢ – احكام الروابط بين الحركات الوطنية فى الاقطار الثلاثة .

ويوصى المؤتمر لتحقيق ذلك بما يأتى :

أ) الاتفاق على غاية واحدة هى الاستقلال التام والجلاء .

ب) تكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل لكفاح مشترك.

ج) العمل على توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى الاقطار الثلاثة وتوجيهها توجيها قوميا.

د) ضرورة وقوف الاقطار الثلاثة جبهة واحدة عند حدوث الازمات فى اى قطر منها.

* * *

وبعد ذلك تناول المؤتمر موضوع (المغرب العربى والجامعة العربية) واتخذ القرارت الآتية :

١) مطالبة الجامعة العربية :

أ) باعلان بطلان معاهدتى الحماية المفروضتين على تونس ومراكش، واعلان عدم شرعية احتلال الجزائر، وتقرير استقلال هذه الاقطار مع تعيين ممثلين عنها فى مجلس الجامعة.

ب) بعرض القضية المغربية على الهيئات الدولية واستعمال كل ما لدى الجامعة من وسائل لمساعدة الاقطار المغربية على تحقيق استقلالها الكامل.

ج) بارسال لجان تحقيق الى أقطار المغرب .

د) بتعيين ممثلين فى اقطار المغرب العربى للدول العربية المشتركة فى الجامعة .

٢ ـ عرض الحالة الثقافية بالمغرب العربى على الجامعة العربية ومطالبتها بالعمل على نشر الثقافة العربية فى كامل بلاد المغرب، وحل مشكلة الطلاب المغاربة الذين يلجأون الى المشرق بقصد اتمام دراستهم فى المعاهد العربية وتذليل العقبات التى يلاقونها .

٣ ـ شكر جامعة الدول العربية على كل ما بذلته وتبذله فى سبيل المغرب من جهود .

* * *

وفى الجلسة الرابعة تناول المؤتمر موضوع عرض القضية المغربية على الهيئات الدولية، وقد اتخذ فيه القرارات التالية :

١ ـ رفع مذكرة لاحدى الدول العربية يوضح فيها بالمستندات الصحيحة كيف ان فرنسا واسبانيا خالفتا بسياستهما الاستعمارية كل قرارات الامم المتحدة من مقاصد ومثل عليا وحقوق للامم والشعوب، ويطلب منها رفع القضية الى هيئة الامم المتحدة .

٢ ـ أن ترفع الهيئات السياسية المغربية مذكرة الى الامم المتحدة تشرح فيها اعتداء فرنسا واسبانيا على حقوق الشعب المغربى وحرياته.

٣ ـ ارسال مذكرات من الهيئات السياسية المغربية الى المجلس الاقتصادى والاجتماعى وحقوق الانسان تشرح فيها كيف اعتدت فرنسا واسبانيا على كيان المغرب الاقتصادى والاجتماعى .

وكان آخر الموضوعات التى تناولها المؤتمر، هو ما يرجع لتنسيق الاعمال التى تقوم بها مختلف المكاتب المغربية فى مصر، وفى ذلك اتخذ المؤتمرون القرار الآتى :

تكون رابطة الدفاع عن مراكش فى مصر والوفد المراكشى لدى لجان الجامعة العربية ومكتب حزب الشعب الجزائرى ومكتب الحزب الحر الدستورى التونسى مكتبا متحدا يسمى «مكتب المغرب العربى»

* * *

ثم عقد المؤتمر جلسة تناول فيها الموضوعات العامة وقرر فيها :

١ – شكر جلالة ملك مصر العظيم على ما يسديه لقضية المغرب والعروبة عموما من أياد بيضاء لا تحصى .

٢ – شكر جلالة ملك مراكش على مواقفه الوطنية العظيمة واعلان المؤتمر وفاءه لجلالته وشكر سمو الخليفة السلطانى بالمنطقة الشمالية على ما يبديه من عطف على الحركة المغربية .

٣ – تأييد عظمة المنصف باى تونس والاحتجاج على اعتقاله واجباره على التنازل عن العرش .

٤ – تأييد القضية المصرية واعتبار أن مصر والسودان وطن واحد

٥ – تأييد فلسطين العزبية والمطالبة بتحريرها .

٦ – تأييد ليبيا فى المطالبة بوحدتها واستقلالها .

٧ – تأييد الهند الصينية فى جهادها ضد الاستعمار الغاشم .

٨ – توجيه تحية المؤتمر لجميع زعماء الاحزاب المغربية .

وبعد انتهاء أعمال المؤتمر أقام حفلة ختامية مساء يوم ٢٤ فبراير بفندق شبرد حضرها رجال الصحافة وعلية القوم، وألقى فيها سكرتير المؤتمر خطابا نوه فيه بنجاح المؤتمر، وشكر لرجال العروبة عنايتهم وللصحافة اهتمامها، وختمها بالدعاء لمصر بنيل حقوقها كاملة فى ظل صاحب الجلالة فاروق الاول حفظه الله .

وقد تلقى المؤتمر برقيات من مختلف جهات الشرق العربى، كما تلقى رسائل التأييد وبرقيات التضامن من كل الزعماء والهيئات فى المغرب العربى الامر الذى يدل على أنه قد جاء فى ابانه وسد فراغا كان من الضرورى الاهتمام بسده .

مكتب المغرب العربى :

بمجرد ما انتهى المؤتمر قام ممثلوا أحزاب الاستقلال والشعب والدستور بفتح دار لتوحيد مكاتبهم فى القاهرة طبقا لتوصية المؤتمر ، وأطلقوا عليها «مكتب المغرب العربى» وقد اشتمل نظام المكتب على ثلاثة أقسام : القسم المراكشى ويتعاون فيه حزب الاستقلال وحزب الاصلاح، والقسم التونسى ويشرف عليه حزب الدستور الجديد، وقسم الجزائر مخصص لحزب الشعب. وللمكتب مدير عام ينتخبه ممثلوا الاحزاب المذكورة فى جمعية عمومية لمدة سنة، وله لجان فنية متعددة .

وقد أصدر المكتب عدة نشرات مهمة عن البلاد المغربية، ويذيع نشرة دورية عن الانباء التى ترد من البلاد والتعليق عليها .

وتشتمل مكتبة المكتب على مجموعة تتسع يوميا من المؤلفات والنشرات المتعلقة بالشمال الافريقى، وتحفظ القصاصات العربية والافرنجية المتعلقة بالمغرب ضمن دفاتر ذات جداول وفهارس منظمة ، ويقوم المكتب باحصاء سنوى لكل ما كتبته الصحف العربية عن المغرب، ويضع لذلك أهرامات خاصة تبين مقياس الارتفاع والانخفاض فى عدد المكتوب وأسبابهما، ويقيم المكتب استقبالات وحفلات باهرة بمختلف المناسبات، كما ينظم ندوات صحافية كلما اقتضى الحال ذلك .

وقد أصبح مكتب المغرب العربى فى القاهرة مطمح أنظار الذين يهتمون بالشؤون المغربية ويعملون لها، ومحج الوافدين من شمال افريقيا خصوصا بعد أن اجتمع فيه زعماء هذه البلاد ونزل به لأول مرة بطل المغرب الامير عبد الكريم وصنوه الهمام.

ولقد صرحت مجلة (فرانس) فى عدد ممتاز عن المغرب بأن مكتب المغرب العربى أصبح نوعيا امتدادا من امتدادات الجامعة العربية او قسما مكملا لها، والحق انه لولا هذا المكتب لما كمل تمثيل المغرب العربى فى القاهرة التى هى ملتقى مراكز الاشعاع العربى .

فـي فرنسـا

بينما كان الجو مكهربا بأحداث الدار البيضاء ، وبالارتسامات الملونة لزيارة مولانا الملك لطنجة ، وحملات الصحف الفرنسية على الوطنيـة المغربية فى عنفوانها، ومجلس الوزراء يجتمع لدراسة الحالة فى مراكش، ويستدعى المقيم العام المسيـو لابون لاستشارته او للومه على ما جرى ـ اذ قرر الحزب سفرى لفرنسا لمواصلة جهود الوفدين السابقين، وتقديم الاعذار الاخيـر للديبلوماسيـة الفرنسية. والحق أن مهمتى كانت صعبة جدا؛ لان الجو كان فى أشد ما يتصور من التوتر، ولان الفرنسيين خاصة الرسميين منهـم لم يهضموا حوادث طنجـة، ولم يستطيعوا التصبر ازاء موجة الوعى القومى التى غمرت البلاد، لا سيما وقد ملأت نفوسهم دعايات مغرضة كانت تتهم المغاربة بالميل للامريكيين او الاعتماد عليهم، وغاية الاعذار التى كلفت بها لا تقتضى استعمال الشدة او التلويح بأقل تهديد، ولذلك فان المسألة كانت تقتضى أن تعالج بالطرق التى تتفق والنفسية الفرنسية؛ وتمكننى من أداء مهمتى على الوجه الذى يرضى ضميرى .

وصلت لباريس فوجدت جمهورا عظيما من الطلبة والتجار والعملة المغاربة ينتظروننـى فى المطار، وما نزلت حتى رن فى الفضاء نشيـد حزب الاستقلال والاناشيد الوطنيـة الاخرى، وفـى الحين أدليت لبعض الصحف بالكلمة الآتية: «لقد جئت لفرنسا كى أواصل الجهود التى بدأها اخوانى من قبلى، وسأتصل بجميع الاوساط الفرنسية التى أرجو أن أجد منها قبولا وتأييدا».

نزلت فى الجنـاح المخصص لوفد الحزب بفندق لوتيسيا، وتردد علي صحافيون كثيرون أدليت لكل واحد منهم بما يقتضيه المقام، ولعل من المفيد ان انقل هنا خلاصة من حديثى مع مندوب (فران تيرور) الذى يعطى نظرة عن برنامجنا فى المغرب المستقل .

ـ ما هى سياستكم وبرنامجكم فى مغرب الغد ؟

ـ اننا سننظم الحكومة والشعب فى المغـرب المستقل على غرار الديموقراطية الغربية مع احتـرام تراثنا الروحى والمعنـوى، اننا نؤمن بالمسـاواة والاخاء بيـن جميع المواطنين المغاربـة، وبضرورة القضاء

على الطبقات وترشيد المرأة وتشريكها فى جميع مجهودات البلاد، وناصر التوجيه الاقتصادى لكن فى اطار قومى مضاد للاحتكار، ولكنه مضاد أيضا لعرقلة المجهود الفردى .

– هل لكم برنامج اجتماعى ؟

– اننا نواجه معاودة تنظيم الثروة القومية، وتأميم الموارد الوطنية (القرض، المعادن الخ)، والقيام باصلاح فلاحى، والتربية العميقة فى جميع أوساط الشعب، والعمل على تطوير الذهنية المغربية لنجعل من المغاربة مواطنين عصريين شاعرين بواجباتهم وحقوقهم، والعمل على ازدهار المنظمات الاجتماعية (النقابات، الاسعاف الاجتماعى، الضمان الاجتماعى، حماية الطفولة، تنظيم الرياضة ووسائل التسلية) .

– ما هى علاقتكم بجلالة السلطان ؟

– انه عاهلنا المحبوب، ونحن جميعا من ورائه، ونعتقد أن المغرب سيعيش بفضله فى عهد سعيد ومزدهر؛ لان جلالته لا يعمل الا لشعبه، وقد صرح غير ما مرة خصوصا فى طنجة بأن مجهوداته كلها لا ترمى الا لاعطاء شعبه نظاما ديموقراطيا حرا .

– ما هى علاقتكم بالجامعة العربية فى الحاضر والمستقبل ؟

– أما فى الوقت الحاضر فنتابع بكثير من الاهتمام مجهودات الجامعة العربية لاحياء العالم العربى، ان عملها يجب أن يؤيد من جميع شعوب البحر الابيض المتوسط؛ لان الحضارة العربية مادة عظيمة لتكوين الحضارة المتوسطية، ونحن نعتقد بيقين أن العالم العربى سيلعب دورا مهما فى تنظيم تعاون متين مع أمم هذا البحر المهم، ونعتقد أن المغرب المستقل سيلعب من جديد دوره التاريخى كصلة وصل وعامل تنسيق بين عنصرى المتوسط الكبيرين .

– كيف تتصورون علاقتكم بفرنسا فى الحاضر والمستقبل وعلاقاتكم بالدول الاخرى؟

– اذا عوض عقد الحماية بمعاهدة تحالف مع فرنسا فان المغرب سيحترم تعهداته ، وحينئذ ترى فرنسا أن المغاربة الذين كانوا بجانبها فى أحرج الاوقات التى مرت عليها خلال الخمسة والثلاثين عاما الماضية لا يتغيرون فى معاملتهم لحليفتهم فرنسا .

أما فيما يخص الحاضر فكل مجهوداتنا موجهة لاقناع حكومة فرنسا بضرورة اهتمامها جديا بالاستياء المخيم على المغرب منذ ثلث قرن، والذى لا يزداد الا خطورة فى كل يوم . اننا نعتقد أنه ليست هنالك

صعوبة لا يمكن التغلب عليها ؛ لكن يلزم مواجهة الامر بحزم لوضع حل يرضى الاماني القومية المغربية ، ويحفظ ما هو مشروع من مصالح الفرنسيين، ان الحساب الجميل هو الذى يصنع أحسن الاصدقاء .

ونحن لا ننسى أن مما يجب القيام به حل مشكلة شمال المغرب الذى أعطت فرنسا بعضه كاكراء ثان لاسبانيا، ووضع الباقى منه تحت نظام دولى، ولتحقيق وحدة المناطق المغربية نعتمد على تأييد فرنسا، ومن المعلوم أن هذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق من غير استقلال المناطق المغربية كلها؛ فالعمل الكبير الذى نريد من فرنسا أن تعمله لفائدة الشعب المغربى هو أن تتقدم أولا بالاعتراف باستقلال المنطقة التى تحتلها .

– والامم الاخرى، كالولايات المتحدة الامريكية مثلا ؟

– أما الامم الاجنبية الاخرى فستكون علاقاتنا بها وفقا لما تقتضيه مصالح المغرب .

* * *

ثم أقامت لى الجالية المغربية استقبالا فخما بفندق كلاريدج استدعت له كثيرا من الشخصيات الفرنسية والعربية، وخطب فيه ممثلون عن البلاد العربية، ثم ألقيت فيه خطابا باللغة الفرنسية وأعقبته بارتجال كلمة بالعربية، وكان الحديث كله يدور على فكرة واحدة هى ضرورة استقلال المغرب وتمسكه بعروبته .

كما أقامت لى (دار الفكر الفرنسى) استقبالا حضره عديد من كتاب المقاومة الفرنسية وأدبائها، وألقيت فيه خطابا عن مدنية البحر الابيض المتوسط واشتراك شعوبه فى تكوين الذهنية الحاضرة التى تبعث المتوسطين على مقاومة الطغيان والمطالبة بالعدل، وقد خطب عديد من الحاضرين الفرنسيين مؤكدين ضرورة اهتمام فرنسا بمناصرة الحرية فى المغرب ، وتكلم الاستاذ ماسينيون فنوه بحب العدل الذى يملأ نفوس المغاربة جميعا، وقال ان على فرنسا أن تقتبس من الشعب المغربى هذا الخلق الكريم، فتقيم العدل وترد الحقوق لاصحابها .

وكانت تصريحاتى وكلماتى فى فرنسا كلها تدور على اقناع الفرنسيين بضرورة استقلال المغرب وتحريره، مذكرا لهم بمبادىء حقوق الانسان التى أعلنتها الثورة الفرنسية، ومبينا لهم أن خير امبراطورية هى التى تقوم فى الاذهان وفى الارواح لا فى الامتدادات الزمنية أو المكانية، ومعلنا لهم أن تحرير المغرب فى الحقيقة هو تحرير لفرنسا من

خطيئة الاستعمار الغاشم الذى لا ينتج الا محو حب الحرية ومناصرتها من نفوس الفرنسيين فى فرنسا نفسها .

ولم أقصر عملى على الاتصال بالفرنسيين، بل واصلت ما قام به اخوانى من تنظيم للمغاربة، فبعد اجتماع كلاريدج نظم العملة المغاربة بجون فيلى اجتماعا حضره زهاء الخمسة عشر ألفا من العملة الجزائريين والمراكشيين، وألقيت فيه خطابا يدعو لتنظيم العملة وتحريرهم وضرورة اعطاء المراكشيين والمغاربة عموما حرية النقابة ، كما سافرت الى ليون وغيرها حيث اجتمعت بتجارها المغاربة .

وفى باريس واليت اجتماعاتى بالطلبة الافارقة وبنادى الطلبة المغاربة وألقيت فيها خطبا وأحاديث متوالية، وعلاوة على مركز وفد الحزب الدائم، فقد اتفقت مع الاخوان على تأسيس مكتب لفرع الحزب بباريس ينتخبه المنخرطون فى الحزب من تجار وطلبة وعملة ، وقد صار هذا الفرع وغيره من الفروع الموجودة بفرنسا على احسن ما يرام فى توحيد الصفوف وتنظيم المغاربة والدعاية لقضيتهم والتعاون مع التونسيين والجزائريين وسائر العرب المقيمين بفرنسا على ما يفيد القضية العربية عموما، وقد أسست لجنة تنسيق تشتمل على ممثلين لحزب الاستقلال وآخرين لحزب الدستور التونسى وآخرين لحزب الشعب الجزائرى، مهمتها تنسيق أعمال الاحزاب الثلاثة الكبرى المغربية بفرنسا .

* * *

لم يجب وزير الخارجية طلب المقابلة الذى قدمته له، وانما اتصل بى من طرفه بعض الفرنسيين الذين يعطفون على القضية المغربية، مؤكدا أن الخارجية مفتوحة لاقتبالى ولحل المشكل المغربى، ولكن الامر يتوقف على تصفية بعض النقط الغامضة قبل الدخول فى عمل ايجابى، وتتلخص استنتاجاتى من معروضات هذه الشخصية وغيرها من الشبيهين بالرسميين الذين قابلتهم فى :

١ – أن فرنسا غير مستعدة لاعطاء المغرب الاستقلال خارج الوحدة الفرنسية

٢ – أنها مستعدة لالغاء الحماية وتمتيع المغرب بحكم ذاتى فى دائرة الوحدة الفرنسية

٣ – أن كل حل للمشكلة المغربية يجب ان يتضمن ما سموه (بالتضامن الديبلوماسى والعسكرى) بين فرنسا والمغرب الاقصى .

٤ ـ أن فرنسا مستعدة لان تعتبر مراكش الدولة الأولى من بين الدول المشاركة اذا قبلت الانخراط فى الاتحاد الفرنسى .

٥ ـ أن اعتبار الجالية الفرنسية بالمغرب كمواطنين مغاربة ضرورى لفرنسا .

٦ ـ أن اللغة الفرنسية يجب ان تظل بجانب اللغة العربية فى الادارة والتجارة والدراسة . ويبرر الفرنسيون موقفهم بأن المغرب الاقصى بلاد غنية وذات موقع عسكرى لا يمكن الاستغناء عنه فى البحر الابيض المتوسط، ولذلك فان ترك فرنسا له يعرضه حتما للاستيلاء الامريكى او الروسى، وكلاهما خطر عليه وعلى فرنسا، ولقد بذلت مجهودا كبيرا لاقناع المسؤولين بضرورة العدول عن هذا التفكير وبأن المغرب اذا حصل على استقلاله فسيضمنه لا ازاء روسيا وامريكا وغيرهما من الدول الكبرى بل حتى ازاء الدول العربية والاسلامية نفسها ؛ لان الاستقلال الذى نطلبه لا يعنى استقلالا عن فرنسا وحدها، بل عن كل دولة فى الارض، والحق ان كثيرا من أذكياء الفرنسين مقتنعون بأن المغرب يريد الاستقلال الحقيقى، وأنه لا يبغى تبديل سيطرة بأخرى، وان المسألة لا يمكن أن تحل الا بطريق وضع فرنسا ثقتها فى المغرب وفى التعهدات التى يلتزمها متى اعترف باستقلاله ، ولقد كان صديقنا مسيو دوبيريتى أحد الذين شرحوا هذه الفكرة ودافعوا عنها أمام الرأى العام الفرنسى خصوصا فى مقاله القيم المستفيض الذى نشرته مجلة (الاسبرى) الكاثوليكية

ولقد اجتمعت بعدة شخصيات من المسؤولين فى أهم الاحزاب الفرنسية ومن سائر أجنحتها فوجدت أفكارهم جميعا متحدة فى استنكار السياسة الأستعمارية المتبعة فى شمال افريقيا، ولكن ـ والحق يقال ـ ليس من بينهم من يقبل الكلام فى الاستقلال الخارج عن نطاق الوحدة الفرنسية، وحيث ان افكارنا تتنافى مبدئيا مع كل خوض فى الدخول ضمن الاتحاد الفرنسى فقد كانت مجهوداتى كلها لاقناع الذين أقابلهم بضرورة البحث عن حل خارج اطار هذا الاتحاد، وطبيعى ان يصبح النقاش فى الموضوع مكررا؛ لان من الممكن فى اختلاف مبدئى ما أن يظل كل واحد متمسكا بفكره ومبديا من الحجج او من اساليب اقناع خصمه ما لا ينتهى بالزمان او المكان، ومن المعروف فى المبادىء المنطقية الاولى او المتجادلين يجب ان يتفقا اولا على أساس مبدئى لكى يمكنهما الخلاف فيما بعده من نتائج، وأنهما ما لم ينتهيا لوضع هذا الاساس المتفق عليه

فكل مناقشة تصبح بيزنطية لا جدوى لها، وانما تؤدى الى الدور فى الكلام والتسلسل فى الموضوعات، وذلك ما يفسر بوضوح الموقف الذى اتخذناه من عدم الدخول فى مفاوضات قبل اعلان الاستقلال؛ لان الخطوة الاولى لا يمكن ان تقع الا من طرف الذين يملكون السيطرة فى البلاد، وما دامت فرنسا لم تعلن هذا الاستقلال وما دامت لم تعترف به فسنجتمع معها للمفاوضات ونجتمع ونخرج دون نتيجة، بعد ان نكون كررنا الكلام الذى قلناه وأعدناه .

* * *

كانت السياسة الداخلية فى فرنسا وقت زيارتى تامة الارتباك ، وكان الشيوعيون يهددون بالاضرابات والانسحاب من الحكومة، وكان الجنرال ديجول قد استأنف نشاطه فى معارضة النظام الحاضر داعيا الى التجمع لتجديد الشعب الفرنسى فى دائرة النظام الجمهورى الديموقراطى، ومقاومة الشيوعيين الذين يرى فى وجودهم خطرا على مستقبل العظمة الفرنسية، وعيلت حكومة المسيو راماديه ذرعا بنشاط ديجول وعمله، واعتقدت انه مؤيد من طرف الامريكيين الذين لا يقبلون أن تنتصر روسيا فى نشر سلطانها المعنوى على شعوب اوربا الغربية، والى جانب هذا كانت حملات الصحف الاوربية والأمريكية والشرقية على السياسة الفرنسية فى شمال افريقية عظيمة منذ رحلة جلالة الملك لطنجة، وكان صداها شديدا فى الصحافة الفرنسية على اختلاف نزعاتها واصبح مسيو راماديه مقتنعا بحق او بباطل بأن أمريكا لا تقصد الا الضغط على فرنسا، ولذلك فان مصلحة هذه فى ان تعدل خطتها بأن تمد يدها كاملة لامريكا ، وتفسح لها مجال الترويج الاقتصادى لبضائعها فى فرنسا ومستعمراتها، وتقصى الشيوعيين عن الحكومة، وبذلك تتمكن بعد ان تكون أرضت أمريكا من التحرر للعمل كما تشاء فى مراكش وسائر الشمال الافريقى، ووافق مسيو بيدو على هذه الخطة ، وقررت الحكومة الاشتراكية اقصاء الشيوعيين عنها، كما قررت اعفاء مسيو لابون من مركز المقيم العام بالمغرب، وترضيته باعطائه وظيفة مستشار لرئيس الجمهورية فيما يرجع لتنظيم شؤون الاتحاد الفرنسى.

لم يكن مسيو لابون مرضيا عنه من طرف الرأسماليين الفرنسيين؛ لانه اشتراكى ومن أنصار التأميم لصالح الحكومة الفرنسية، وقد انتهز خصومه فرصة الزيارة الملكية لاتهامه بالضعف ورميه بنقص فى درجة الصرامة التى يجب ان يتبعها المقيم الفرنسى فى مراكش، أما مسيو

لابون نفسه فكان يدعى دائما ان الخارجية الفرنسية هى التى كانت تعرقل عمله وتحول دونه ودون تحقيق ما يريده من خير او شر، والحقيقة أن المسيو بيدو لم يكن راضيا عن توليته قط، وأنه كان يفضل ان يكون مكانه شخص من رجال الحركة الجمهورية الشعبية (M.R.P.) وحينما رأى من راماديه ميلا لسياسة الصرامة وافقه عليها على شرط ان لا يبقى المسيو لابون هناك .

ولقد وصل مسيو لابون لفرنسا ونشرت الصحف أنه دعى للاسترشاد برأيه فى الحالة الحاضرة، ولكنه بقى اكثر من خمسة عشر يوما دون ان يسمح مسيو بيدو بمقابلته ودون ان يسمح أيضا بمقابلة أحد من أخص اصدقائه الفرنسيين، ولم يكن يوازى غضب الخارجية عليه الا غضبه هو من اعمال جلالة الملك، زاعما ان صاحب الجلالة خانه بحذف الجملة المتعلقة بالتعاون المغربى الفرنسى من خطاب طنجة .

وقد علمت ان الخارجية الفرنسية عرضت وظيفة المقيم العام على كثير من الشخصيات من بينهم مسيو بونسو والمسيو جوفونيل وغيرهما، فاعتذروا بأن الديبلوماسية الفرنسية قد فشلت فى مراكش، وانهم غير مستعدين لصوغ حلقة من حلقات هذا الفشل ما دامت الحكومة غير مستعدة لوضع حل نهائى للمسألة المغربية .

وهكذا تقرر تعيين الجنرال جوان بصفته اكبر جنرال فرنسى من جهة وبصفته ولد فى شمال افريقيا وتمتع بروحها الاستعمارية من جهة أخرى، ولانه أيضا لم يكن من أنصار الجنرال ديجول؛ فمن الممكن ان يقف معارضا لكل ما يمكن ان يقوم به الجنرال لكلير الذى كانت الحكومة الفرنسية تخشى وجوده كمفتش عام للجيوش الفرنسية فى المغرب العربى .

ولقد قوبل تعيين الجنرال جوان من أغلب الهيئات الفرنسية بالتحبيذ والتصفيق؛ اذ اعتبرت ذلك خطوة لاتخاذ سياسة حاسمة من شأنها أن تقضى على الحركة الوطنية بالمغرب، وقد رفعت له كثير من الهيئات السياسية الفرنسية فى شمال افريقيا تحية التهنئة والاعجاب وقدمت له جمعية الفرنسيين المولودين فى المغرب عربون ودها وتقديرها له كأول مقيم عام من مواليد افريقيا الشمالية، ولكن الاحزاب اليسارية اعتبرت تعيينه غلطة سياسية من شأنها أن تزيد فى تعقيد المشكلة عوضا عن حلها، ولقد قرر المجلس الادارى للحزب الاشتراكى الفرنسى

الاعتراض على عمل الحكومة التى يترأسها الاشتراكى المسيو راماديه متضامنا بذلك مع المسيو لابون .

وقد كتبت (البوبولير) لسان حال الحزب الاشتراكى تقول : «اننا لا نعتقد أن تعيين جنرال وخصوصا هذا الجنرال سيعتبر من طرف الشعب المغربى وسيلة للتهدئة والتوفيق»

وكتبت (الانسانية) لسان حال الحزب الشيوعى تقول : «ان تعيين الجنرال جوان سيعتبر من طرف المغاربة تهديدا يجر بالاقامة العامة للوقوع فى قبضة اليمين الفرنسى»

وضربت على هذا الوتر كل الصحف اليسارية التى رأت فى هذا التعيين تمكينا للرأسماليين الفرنسيين من التحكم فى تراث مراكش وأبنائها .

ولكن الصحف الاستعمارية والحكومية كلها ضربت على وتر حبيب للاستعماريين ، وهو أن الشعب المغربى لا يمكن ان يحكم الا بطريق القوة، ولقد وصل بها الحماس الى ان اخذت تهدد الشعب المغربى وجلالة ملكه، وتقول ان المغاربة شعب بدائى لا يمكنه ان يتأثر الا باللمعان الذى يراه على بذلة جنرال، ولنذكر على جهة المثال ما نشرته جريدة (الايبوك) التى أكدت ان الحكومة الفرنسية ستبدى كامل الصرامة فيما يتعلق بالسلطان، قالت الجريدة (انه ليس خفيا على أحد أنه «تعنى السلطان» سيوضع من الآن فى جو النوم؛ اذ سيطلب منه بأدب ولكن بصرامة ألا يعود لعرقلة أعمالنا، وأن يوقع على جميع الظهائر التى رفض المصادقة عليها منذ ١٠ أبريل؛ تلك الظهائر التى سيقدمها له الجنرال جوان لتنظيم المغرب سياسيا واقتصاديا، وفى حالة ما اذا لم يتبع الملك سياسة اكثر مرونة فاننا لا نتأخر عن تعويضه بغيره)

أما فى المغرب فقد أثار الحديث عن تعيين الجنرال جوان فكرة المغاربة جميعا، ولقد بعث جلالة الملك برقية لوزير الخارجية يحثه فيها على عدم تعيين عسكرى فى الاقامة العامة احتفاظا بالصداقة الفرنسية المغربية، ومع ذلك فقد أبت حكومة باريس الا ان تتحدى جلالة الملك وشعبه الكريم والمعارضة الفرنسية نفسها وتعين الجنرال جوان ليقوم - فى نظرها - بالقضاء على حماسة الوطنيين المغاربة، ويرغم السلطان على توقيع ما لا يرضاه، وسوف نرى ان الجنرال جوان لم يستطع الا ان يزيد المشكلة المغربية تعقيدا، والا أن يحمل الوطنية المغربية على تغيير أسلوبها ومقابلة التحدى بمثله .

الوطنية المغربيـة تقرر الصرامـة

واذن فتعيين الجنرال جوان مقيما عاما فى مراكش لم يكن يرمى لاكثر من تهديد المغاربة، والجو الذى حاكته الديبلوماسية الفرنسيـة من حول تعيينه لم يكن الا جو تحد وعناد، وعليه فلم يبق هنالـك مجال للمجاملة ولا لبـذل كل أنواع التضحيات لاقناع المسؤولين فى فرنسا بحسن نية الوطنية المغربية نحو بلادهم، وما داموا هم لم يحترموا المغربى الاول ولم يتأخروا عن الحديث عنه فى صحفهم الشبيهة بالرسمية كموظف عادى يمكن تعويضه بغيره متى امتنع عن تنفيذ اوامر الجنرال جوان او غيره من رجـال الاقامـة العامة، فكيف يمكننـا نحن ان نؤمل منهم فهما لمجاملاتنا او اقتناعا بحسن نوايانا ؟ ! .

لقد كانت خطتنا مبنية على ان يبقى جلالة مولانا الملك صلة الوصل بين الشعب المغربـى وبين ممثلى فرنسا، لاننا نحن كمكافحين شعبيين لابد من أن نقف المواقف الشديدة او الرخية التى يقتضيها المقام، وممثلو فرنسا لابد ان يتخـذوا ما يرونه صالحـا ضدنا او فى مصلحتنا حسب الظـروف والاعتبـارات، ولكن جلالة الملك فوق الاحزاب والمنازعات ، وله من صفته الرسمية وشخصيته التقليدية ما يخوله ان يكون العامل على التقريـب بيـن وجهتى النظر المغربيـة والفرنسية، والتدرج فى استخلاص الحق وتحقيق الامانى الشعبية فى الاستقلال وفى الاصلاح ، ولكن الديبلوماسية الفرنسية لم تفهم هذه الخطة النبيلة، او لم ترد ان تقبلها، فعمدت الى معاكسة الملك وتركيز فكرها فى مخاصمته والنيل من مقامه الشريف لا لشىء الا لأن جلالته يريد ان يحتضن بنفسه قضية شعبه ومملكته، ويعمل علـى تحريرها مع الاحتفاظ الكامـل بالصداقة الفرنسية المغربيـة، مع أن هـذا الاحتضـان الكـريم هو خير وسيلة للحيلولة دون وقوع اضطرابات خطرة، وأحداث شديدة، وهو فى الوقت نفسه خير ضمان لحفظ ما يسمونه بكرامة فرنسا، لان تحقيقها لرغبات الامة المغربية بواسطة هذا الملك الذى احتفظ بصداقتها فى احرج أوقات تاريخها الحديث لا يعد من طرفها خضوعا لضغط ما او تقهقرا عن موقف من مواقفها بطريق القوة او الاكراه

فـاذا أضفنا لهذا ما أيقنته من تصميم الفرنسيين على الاستمرار فى سياسة الشدة والقمع وعدم الأعتراف مطلقا باستقلال المغرب بل ولا حتى بالحريات الديموقراطية التى تمكن المغاربة من الاعراب عن رأيهم والمطالبة الحرة بحقهم أدركنا جيدا السر الذى جعلنى أستعمل ما خولنى اياه المجلس الاعلى للحزب من السفر للقاهرة معلنا بذلك الاتجاه الصارم فى حركتنا، وهـو لا مفاوضة قبل اعلان الاستقلال، وكمظهر من مظاهر هذه الخطة قلبنا مركـز الوفد الدائم بباريس الى مكتب للاستخبارات والدعاية، وعينـت اللجنة التنفيذية مندوبا محليـا للاشراف على توجيه الحركة الاستقلالية فى فرنسا هو الاستاذ عبد الرحيم ابن ابى عبيد.

وصلت القاهرة يوم ٢٥ مايـو سنة ١٩٤٧ ودخلت مكتب المغرب العربى على حين غفلة من اخوانى الذين لم اخبرهم ولو بطريق البرق ، وكان اليوم مهيأ لعقد ندوة صحافية يقيمها المكتب كعادته، ويلقى بها الاستاذ عبد الخالق الطريس حديثا عن السياسة الاسبانية فى المنطقة الخليفية، وقد انعقـد الاجتماع وشهده عدد كبير مـن الصحافيين العرب والاجانب، وألقى به مدير المكتب السابق الدكتور تامر خطابا رحب فيه بى وبالاخ الطريس، ثم ألقى الطريس تصريحـه، وبعد فراغه طلب منى الصحافيون أن أحدثهم عن حقيقة الحال فى مراكش بعد سفر جلالة الملك لطنجة، فارتجلت حديثا تناولت فيه الظروف التى جعلتنى أختار السفر لمصر، وطلبـت من الصحافيين ان ينذروا العالم العربى بأن فرنسا قد اختارت أن تكون ذيلا لامريكا فى سياستها الخارجية، وأنها فـى سبيل الاحتفـاظ بمستعمراتهـا ستسمح لامريكـا بحقوق اقتصادية وعسكرية فى أفريقيا وفى فرنسا نفسها .

ولقد كان عملى فى القاهرة مدة هذه السنة التى اقمتها فيها يشبه أوله آخره ، كمـا يعبر الحـاج عمر ، فهو لا يخـرج عن اتصالات بأهـم الشخصيات والقـاء محاضرات فى مختلـف الاندية وكتابة مقـالات او الادلاء بأحاديث لمختلـف الصحف والمشاركة فـى عديـد المؤتمـرات والمهرجانات الشعبية والاتصال بالجامعة العربية وبالوفود التـى تـرد عليها وتقديم المذكرات التى تقضى الحاجـة بتقديمها والمشاركـة فـى الاعمال التى ينظمها المكتب او لجنة التحريـر وتنسيـق الاعمـال مـع الحركات التحريرية المغربية فى المشرق .

ونحن لا يمكننا أن نفصل هنا جميع الجهود التى بذلناها انفـرادا أو اشتراكا مع اخواننا أبناء الشمال الافريقى ، ولكننـا سنتنـاول بعض

الاحداث المهمة التى كان لها اثر فى الخطو بحركة الشمال الافريقى من جهة التفكير ومن جهة التدبير ويجب ان أنوه فيما يخص الحركة التابعة لحزبنا بالجهود التى كان اخواننا اعضاء الرابطة قد بذلوها من قبل ، والتى مهدت السبيل لى ولكل من يأتى بعدهم من اخوانهم لكى يشاركوا فى التقدم بها الى الامام وتقوية روحها ومعنوياتها .

توطيد العلائق بين مراكش ومصر :

ولعل من أهم هذه الاعمال توطيد أركان العلائق المتينة بين بلادنا العزيزة وبين مصر والعالم العربى ، واذا كانت العروبة والدين والروابط التاريخية واشتراك الآلام والآمال قد وحدت بيننا ، واذا كان تأسيس الجامعة العربية قد أظهر آثار هذا التوحيد الى حد بعيد ـ فان مراكش ظلت مع ذلك بعيدة عن ان تدعى حضورا فعليا فى الاوساط العربية او تمثيلا رسميا فى هيئاتها الحكومية؛ بل لقد ظل الرسميون من رجال الجامعة العربية نفسها يشكون فى المدى الذى وصلت اليه الحركة المغربية ومقدار الاعتماد الذى يمكنهم ان يعتمدوه عليها، ولقد صرح الامين العام للجامعة بشىء من هذا لوفد حزب الاستقلال فى باريس ليس فيما يخص مراكش وحدها بل فيما يرجع كذلك لتونس والجزائر، ولكن زيارة جلامة الملك لطنجة اولا وتصريحاته الشريفة فى الاعتماد التام على الجامعة العربية ثانيا، كل ذلك بعث فى نفوس اخواننا ثقة باكتمال الوعى القومى فى بلادنا، وهيأهم للاهتمام التام بالقضية المغربية وما يلقى اليهم فيها، ولقد كان من مهمتى الاولى أن أعرف العرب بحقيقة الحال فى مراكش ومقدار الصراع القائم بها، والموقف العظيم الذى وقفه جلالة الملك فى الدفاع عن أمته والنضال عنها، والاعتماد على تصريحات جلالته وتصريحات سمو ولى العهد والاميرة عائشة فى الاعراب عن عواطفه الكريمة نحو مصر وملكها العظيم فاروق الاول، ونحو بقية العالم العربى ورؤسائه وملوكه، وأفضح برنامج السياسة الفرنسية ازاء جلالة الملك، ومحاولتها المساس بشخصه العالى وحقوقه الشرعية، وقد وجدت والحق يقال آذانا صاغية فى هذا الباب؛ فأصبح اعجاب المصريين خصوصا والعرب عموما بجلالة سيدى محمد بالغا منتهاه وغدا عطفهم عليه بل محبتهم له ضمانا أساسيا لما نؤمله فى المستقبل من ارتباط تضامنى وثيق .

ولقد قام عـزام بـاشا وهو فى أمريكـا بمجرد ما علم من القاهرة تليفونيا الظروف التى يجتازها المغرب وملكه الهمام بدفاع نشيط عن جلالته رددته الصحف الامريكية والاوربية كلها، وفى غير مرة من جلسات الجامعة العربية ذكـر اسم مولانـا الشريف بكامل التقدير والاحترام ، وفى البرقيات التى تبودلت بين صاحبى الجلالة ملك مصر وملك مراكش ما يدل على مقدار المحبة المتبادلة بين العاهلين العربيين الكريمين

وفى حفلة عيد العرش من سنة ١٩٤٧ نظمت اعظم مظاهرة ممكنة للاعراب عن عطف المصريين على اخوانهم المغاربة وملكهم، واذن جلالة الفاروق لرئيس ديوانه الخاص بالحضور فى الحفلة وقبول الوسام الذى اهداه له سمو الخليفـة السلطانى بهـذه المناسبة الكريمة، كما حضر سعادة كامـل عبد الرحيم بك وكيـل وزارة الخارجية بالنيابة عن دولة النقراشى باشا

ولقد سعت الخارجية المصريـة لبعث ممثل لها فى مدينة طنجـة ، ولكن الديبلوماسية الفرنسية رفضت لها هذا الحق على ما روته الصحف، وبعد أن ثبتت الحكومة المصرية فى موقفها أذنت فرنسا باعتبار قنصل مصر فى مرسيليا مكلفا بمصالح مصـر فى شمال افريقيا، واعتبر ذلك كخطوة اولى لربط علائق رسمية مع المغرب العربى .

واما من الوجهة الثقافية فلقد قررت وزارة المعارف العمومية قبول الشهادات الثانويـة المغربيـة (من القرويين والزيتونة) فى دار العلوم وقسم اللغة العربية من الجامعة

وظهر فى الميدان الثقافى بمصر اهتمام كبير بالمغرب والمغاربة، فكتب عديد منهم أبحاثا عن وضعية مراكش والجزائر وتونس، من أهمها بحث الاستاذ أحمد رمزى فى مجلة الرسالة، وعبد الجبار جومرد الكاتب العراقى فى مجلـة الثقافة، ونشرت مئـات المقالات من كبـار الكتاب والشخصيات فى ضرورة اعتبار المغرب العربى جزء لا يتجزء من العالم العربـى .

ولـو أن بصيصـا من الحريـة يسمح لمواطنينا الكرام بتوسيع نشاطهم الداخلـى فى هـذا الميـدان وتعريف اخوانهم العرب ببلادهم وأحوالها لوجدوا لاعمالهم صدى كبيرا فى الاوساط العربية، ولانفتحت آفاق عظيمة للتعاون بين شطى العالم العربى يكون لها الأثر الفعال فى توطيد دعائم الوحدة العربية وجامعتها الكبرى

استقبال البطل عبد الكريم :

ليست هذه اول مرة تهتم فيها الحركة الوطنية المراكشية بالعمل على تخليص البطل عبد الكريم من الاسر، بل لقد قامت غير ما مرة ببذل جهود جبارة لاقناع الحكومة الفرنسية باطلاق سراح البطل المنكوب وعشيرته المظلومة، وقد دعت (كتلة العمل الوطنى) لهذا العمل سنة ١٩٣٦ وساعدها فى ذلك عطوفة الامير شكيب ارسلان رحمه الله ، فكتب عدة مقالات فى صحف المشرق والمغرب، ووجه اناس كثيرون لفرنسا نداء وديا يدعونها فيه لتحرير هؤلاء الخصوم الشرفاء، وجرت بينى وبين المرحوم صاحب السمو الامير عمر طوسون مكاتبة فى هذا المعنى، وكان سموه من أشد الناس عطفا على البطل المغربى، وقد أبدى استعداده الكامل لرعاية كل حركة ترمى لتحرير أسد الريف .

وفى سنة ١٩٣٧ بذل الحزب الوطنى وسائل عديدة لتحقيق هذه الغاية، ووالت الصحف الوطنية فى مراكش مقالاتها فى الموضوع حتى اقتنع بعض الشيوخ الفرنسيين بتقديم طلب التحرير للجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ، وقررت اللجنة تضامنها مع الاقتراح، ولكن الخارجية الفرنسية أجابت بأن الوقت لم يحن بعد .

وأثناء اتصالى برجال فرنسا الحرة الذى تحدثت عنه فى فصل سابق بذلت جهدا جبارا لاقناع ممثليها بضرورة اطلاق الامير، وأكدت لهم كذب ما ترويه الصحف الفيشية من تأييد زعيم الريف للماريشال بيتان؛ لان البطل المغربى لا يسمح لنفسه بالتدخل فى مسائل فرنسية محض.

وفى سنة ١٩٤٧ بذل ممثلو الحركة الاستقلالية المغربية بمصر جهودا لدى الجامعة العربية فقدم أمينها العام رسالة للخارجية الفرنسية يطلب منها تسريح الامير عبد الكريم والسماح له بالرجوع للمغرب.

وحينما كان جلالة السلطان يطالب بتحرير الزعماء كان يذكر فى مقدمتهم بطل الريف الذى يعلم جلالته اخلاصه للعرش وللبلاد .

وأخيرا قررت الحكومة الفرنسية نقل بطل المغرب ورفقائه الى فرنسا حيث يستمرون فى الاقامة الاجبارية والرقابة الاستعمارية، وفى الوقت نفسه نشرت الصحف الفرنسية ما يدل على أن فرنسا كانت تريد من وراء ذلك تهديد جلالة سلطان المغرب ظنا منها ان فى امكانها استغلال الامير او اخيه فى ارغام جلالة الملك على قبول الانضمام للاتحاد

الفرنسى، ومع ان هذا الظن لا ينبنى على اساس صحيح من جهة الامير فان التجاء البطـل المغربى الى مصر وضع حدا لطمع الفرنسيين فيه ، وخلـص كرامته ومجده من ان تتطلع اليهما مطامع الاستعمار الدنيئة ، وقلب الآية كلها؛ اذ سمح للامير أن يكون مرة أخرى رمزا لحركة التحرير فى المغرب العربى بأجمعه .

ولقد تحدثـت الصحف الفرنسية والاجنبية عن نزول عبد الكريم بمصر، وروت فى ذلك من الروايات المتناقضة ما يدل على مقدار الخطورة التى رأتها فى الامر، مع انه ليس ألصق بالطبيعة من ان تقبل مصر الكريمة لاجئا سياسيا وضع نفسه بين أحضان ملكها المجيد؛ لا سيما اذا كان هذا اللاجىء بطلا عالميا مثـل الامير عبـد الكريم، ومن الحق والانصاف ان نسجل أن نزول الامير كان بمقتضى رغبته هو، وأنه لا جلالة الفاروق طلب منه ذلك، ولا الوطنيون المغاربة ألحوا عليه ذلك، وكل ما هنالك أننا مهدنا له سبيل التحقيق لما اعرب عنه من رغبة فى البقاء بمصر من تلقاء نفسه وبمقتضى مشيئته الخاصة.

* * *

لقد نـزل الامير بعدن واحتفل به العرب المقيمون هناك، وبعثوا وفق طلبه هو برقيات لكثير من المجاهدين بمصر من بينهم الاستاذ محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى وفضيلة الشيخ الخضير بن الحسين رئيس جمعية الهداية الاسلامية وعجل المجاهد الفلسطينى الكبير محمد على الطاهر المعروف بعطفه القوى على البلاد المغربية وبوفائه لابطال العرب كلهم باطلاعنا على نص البرقية، كما عجل باطلاع غيرنا، والبرقية تخبر بحلول الامير فى عدن وموعد خروجه منها والموانىء التى سيمر منها وتاريخ وصول الباخرة التى تقله للسويس وبور سعيد.

وقد اجتمعت أنا وأعضاء حزب الاستقلال وحزب الاصلاح بالقاهرة وقررنا أن نبعث وفدا يتركب من الاستاذ احمد ابن المليح نيابة عن حزب الاستقلال ومن الاستاذ محمد بن عبود بالنيابة عن حزب الاصلاح لتبليغ الاميـر عبد الكريم وعمـه الامير عبد السلام وأخيه الامير محمد تحياتنا باسم مراكش كلها، ووضع الوفد نفسه تحت تصرف الامير، وقد سافر الوفد الى السويس واستطاع الصعود للباخرة والاتصال بالبطل الذى أدلى للصحافيين بتصريحات كثيرة كان من بينها أنه لو خير لاختار البقاء فى مصر، ثم بلغه الوفد تحياتنا وسرور المغاربة كلهم بخروجه من المنفى

القصى، وقد أعرب لهم الامير وأخوه عن رغبتهما فى زيارة مصر وتحية مليكها، ثم كتب سمو الامير رسالة حملها الوفد لمعالى رئيس الديوان الملكى هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المعالى رئيس ديوان حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم حفظه الله، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد فانى أرجو من معاليكم أن تتكرموا برفع ما يلى الى مقام جلالة الملك حامى حمى العروبة والاسلام.

مولاى صاحب الجلالة ملك مصر والسودان فاروق العظيم.

اغتنم الفرصة السعيدة بوجودى فى المياه المصرية فى شاطىء مصر زعيمة العروبة والاسلام فأرفع الى مقام جلالتكم أجل التحيات وخالص الشكر على ما تبذلونه فى سبيل مجد العروبة ومستقبلها العظيم، وأعرب لجلالتكم عن سرورى العميق بوجودى فى هذا البلد العربى بعد غيابى فى المنفى عشرين سنة عن وطنى الذى هو جزء لا يتجزأ من العالم العربى، وقد شعرت وأنا هنا أننى حقا فى وطنى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الامضاء : محمد بن عبد الكريم الخطابى

ومن الغد سافرت انا والاخ الطريس والاستاذ الحبيب ابو رقيبة ووفد من مكتب المغرب العربى يضم الاستاذ عبد المجيد بن جلون والاستاذ محمد ابن عبود للسلام على الامير حين وصوله لبور سعيد، وقد صعد معنا على ظهر الباخرة ممثلو السلطة المصرية والاحزاب السياسية وكثير من الصحافيين وأعيان المدينة، وقد تحدث الامير وأخوه للزائرين له فى جو من الاخاء ، معربا عن اعجابه بمصر ومجهودها فى سبيل القضية العربية عموما، وأثنى على جلالة الفاروق، كما صرح بولائه الدائم قديما وحديثا للعرش المغربى والعائلة المالكة بمراكش ولجلالة السلطان سيدى محمد، وقال ان كفاحه لم يكن ثورة، وانما هو حرب دفاع عن الوطن ضدا على المستعمرين الاجانب، وقد تنحى الامير محمد معنا جانبا، وأخبرنا برغبة الامير فى البقاء بمصر، وكان قد طلب النزول للتجول قليلا فى البر، فذهب توا الى محافظة الميناء حيث بلغه سعادة المحافظ تحية جلالة الملك فاروق وشكره للامير على الرسالة الرقيقة التى بعثها اليه بمناسبة مروره بالمياه المصرية ، وحينئذ أعرب

الامير لممثل الفـاروق بالمدينـة عن التجائه الى حمى جلالته فرارا من الاستمرار فى الاسر الفرنسى، وليتمكن من تعليم اولاده باللغة العربية، فوعده المحافظ بتبليغ طلبه لجلالة الملك وللحكومة المصرية، وبعد ان تجول الامير واخوه وعمـه وافراد اسرته فى المدينة عاد الكل للباخرة حيث قضوا ليلتهم فى انتظار الصباح

وفى الساعة العاشرة من ثانى يونيو نزل الامير مرة اخرى للبر ، وتوجه توا للمحافظة فبلغه المحافظ باسم جلالة الفاروق قبول التجائه، وقبله فؤاد شيرين باشا باسم ملـك النيل العظيم، طالبا منه أن يعتبر نفسه وأسرته فـى ضيافة عاهل مصـر المجيد، ثم قدم سموه لمندوب القصر العالى محمـد حلمى بك الذى اوفده جلالة الفاروق عناية بسمو الامير وأسرته .

ولا يمكننا أن نعبر هنا عـن مقدار الفرح والمرح الذى أصابنا حين علمنا بتحقيق الفاروق أيده الله لرغبة بطلنا العظيم ورفقائه المجاهدين الكرام؛ ذلك الفرح الذى لا يضاهيه الا ما اظهره الشعب المصرى بأكمله من اريحية كريمة وجذل عظيم

رجعنا نحن للقاهرة قبل زوال اليوم، وفى المساء وصل سمو الامير وأخوه وبعض افراد العائلـة فى سيارة ملكية للعاصمة المصرية، وقد أعرب الامير عن رغبته فى الذهاب توا للقصر الملكى العامر حيث سجل فى دفتر التشريفات شكره العميق وتحيته الصميمة لجلالة ملك النيل، وقد وجد فـى استقبالـه الاستاذ كريم ثابت بك مستشار جلالة الملك الصحافى، ومحمد حلمى بك ورئيس التشريفات سيف النصر بك، وبعد ذلك رجع سموه الى مكتب المغرب العربى حيث وجد فى انتظاره ممثلى الحركات الاستقلالية بشمال المغرب وممثلى الصحف ومئات الشخصيات وقد ألقيت خطب وقصائد فى الترحيـب به، كما ألقى هو كلمة قصيرة عبر فيها عن امتنانه لمصر وملكها وشكره للجامعة العربية ولمجاهدى المغرب العربى، ثم توجـه بعد ذلك الى قصر أنشاص ضيفا على جلالة الملك ، بينما بقى الأمير محمد وعمه السيد عبد السلام وأفراد الاسرة بمنازل الزعماء المغاربة ريثما تتهيأ لهم السكنى الخاصة.

وفى يوم الجمعة ٥ يونيه تفضل جلالة الفاروق فاستقبل الامير فى مقر ضيافته بأنشاص، ودعاه لتنـاول الغذاء معه على المائدة الملكية ، وقد حضر هذه المأدبة الاستاذ كريم ثابت بك وحلمى بك والسيد محمد ابن عبود الـذى انتدبتـه الحركة المغربية لمرافقة الامير والعناية به ،

وقد استمع جلالة الفاروق مليا لحديث الامير، وتفضل باستفهامه عن أنباء الحرب الريفية، وقد صرح جلالته بأنه لا يقصد من استضافة الامير والعناية به أى غرض سياسى، وكل ما هنالك أنه يعتقد ان الواجب يقضى عليه بحماية مجاهد عربى ضحى فى سبيل بلاده، كما صرح جلالته بأنه يحمل كامل العطف والتقدير لجلالة سلطان المغرب سيدى محمد، وانه سر كثيرا لبرقية التهنئة التى كان جلالة سلطان المغرب قد بعثها لاخيه الفاروق، وأجابه عنها بمناسبة ذكرى العرش المصرى راجيا من الله سبحانه أن يزيل موانع الاتصال بين المغرب العربى والمشرق العربى

ثم لاحظ جلالة الفاروق أن صحة الامير متعبة قليلا، فأبت مراحمه العلية الا أن تعرض على ضيفها الكريم الاقامة بمستشفى فؤاد الاول بالاسكندرية بضعة اسابيع تحت عناية الاطباء ورعاية الفاروق ، كما بلغه جلالته أن الحكومة ستعنى بتهيئة مقر لاقامة الامير وأسرته، فشكر البطل المغربى لجلالة ملك النيل اهتمامه المجيد، وطلب من الله أن يديمه ذخرا للعروبة وملاذا للاحرار.

وبعد تناول الغذاء ذهب جلالة الملك وضيفه للديوان الملكى حيث شربا القهوة، ثم عاد جلالة العاهل المصرى لقصر القبة العامر بالقاهرة تكلأه عناية الله

أما الامير محمد وبقية أفراد الأسرة فقد ظلوا بمكتب المغرب العربى حيث أخذ مئات المهنئين والزائرين والوفود من الوزراء والسفراء وكبار الشخصيات يترددون عليهم، وكان حديث الكل عن الاعجاب بجهود الابطال المغاربة من أجل التحرر منوهين بهمة الفاروق وعظيم فضله.

أما الصحافة المصرية والعربية فقد ظلت شهرين كاملين تحبر المقالات الضافية والفصول البليغة عن القضية المغربية وجهاد رجالها ، ولا تترك فرصة تمر الا وتنشر للامير الاحاديث الطيبة، وتعلق عليها بما يفيد قضية بلادنا ويرفع من شأن رجالنا ، واذا كان لنا ان نعبر عن لسان المغاربة فى هذه المناسبة السعيدة ، فمن الواجب علينا أن نسجل اعترافنا بالجميل الذى طوقنا به جلالة الفاروق وحكومة النقراشى باشا ورجال الصحافة المصرية وسائر رجال الجامعة العربية بما ابدوه من عظيم الاهتمام بقضيتنا وتحرير أمجد أسير أسر من أجل بلادنا والسماح لحركتنا بالاستفادة من مجده وتجربته وشهرته العالمية الكبرى .

صدى نزول الامير فى مراكش :

أما صدى تحرر الامير ورفقائه فى مراكش وبقية أقطار المغرب العربى فقد كان عظيما جدا، ولقد توالت برقيات التهنئة على مركز حزب الاستقلال بالرباط، وبعث الينا الامين العام معبرا عن كامل ارتياح الشعب المغربى لهذه المفاجأة السعيدة، وأنها كانت خير معالج للصدمة التى واجهه بها الاستعمار حين عين الجنرال جوان مقيما عاما فى المغرب فى ظروف الزيارة الملكية لطنجة

كما بعث ممثلو الحركات الوطنية بتونس والجزائر ومراكش تهانيهم للامير وشكرهم الجزيل لجلالة الفاروق واعجابهم بمجهودات ممثلى المغرب العربى فى مصر.

وليس من الممكن أن نعبر عن الاثر الحميد الذى أحدثه صنيع الفاروق فى نفوس المغاربة عموما والمراكشيين خصوصا، وقد سر جلالة سلطان المغرب لهذه المأثرة المصرية العظيمة، واعتبرها من اطيب الايادى التى أسدتها الاسرة المالكة المصرية للعرش المغربى وعاهله العظيم .

ولم يكن الاثر فى نفوس المسلمين بالهند والصين ومهاجرى أمريكا وافريقيا السوداء واستراليا بأقل من الاثر فى نفوسنا نحن، ولقد وصلت برقيات التهانى والشكر من جميع انحاء المعمورة، وكلها تضامن مع المغاربة فى جهادهم، واستبشار باطلاق سراح البطل الريفى وثناء على همة ملك وادى النيل وشعبه النبيل

رد الفعل لدى الحكومة الفرنسية :

أما أثر الحادث فى نفس الحكومة الفرنسية فقد كان عنيفا، وقد صرح متحدث بلسان خارجية فرنسا على ما روته روتر فى برقيات يوم ٣١ مارس ان نزول عبد الكريم ببور سعيد أحدث اندهاشا عظيما فى الاوساط الحكومية الفرنسية، وصرح هذا المتحدث بأن المناقشة فيما يمكن عمله من الوجهة الديبلوماسية لا يمكن ان تقع الا بعد ان تكون الوزارة قد اتصلت بالمعلومات الكافية فى الموضوع

أما فيما يخص منهج الحكومة الفرنسية فى معاملة عبد الكريم فقد قال الناطق بلسان الخارجية : «ان عبد الكريم استسلم لفرنسا سنة ١٩٢٦ ، والتزم بالبقاء تحت الحكم الفرنسى، وكان سلوكه دائما حسنا، وقد قبلنا واحترمنا دائما كلامه المؤكد بشرفه. والعمل الذى قام به

اليوم بعد سلوكه النبيل منذ التزم لفرنسا أحدث فى نفوسنا دهشة عظيمة» ثم اضاف المتحدث الرسمى قائلا : «حينما استسلم عبد الكريم لنا سنة ١٩٢٦ اتفقنا مع الحكومة الاسبانية على حراسته مخافة القيام بثورة أخرى فى افريقيا الشمالية». وحينما سئل هذا المتحدث هل من المنتظر ان يحدث عمل عبد الكريم رد فعل رسمى لدى الحكومة الاسبانية أجاب بأنه من أقوى الممكنات أن تبعث الحكومة الاسبانية احتجاجا لمصر، وتطلب من الحكومة الفرنسية توضيحات عن نزول زعيم الريف فى بور سعيد

ولكن الواقع أن الحكومة الاسبانية لزمت الصمت، ولم ترفع أدنى احتجاج للحكومة المصرية ولا طالبت فرنسا بايضاح ما .

أما فى فرنسا نفسها فقد طالب أحد اعضاء البرلمان الفرنسى من أنصار الحركة الجمهورية الشعبية من حكومة بلاده توضيحا فى الموضوع فصرحت الخارجية الفرنسية بأنها استقدمت سفيرها فى مصر وحاكم جزيرة لا رينيون مقر نفى الزعيم عبد الكريم للاستشارة معهما قبل ان تقرر ما يلزم اتخاذه من التدابير، واجتمع مجلس الوزراء فى اليوم نفسه، واستمع لبيانات وزير الخارجية ووزير المستعمرات، وقد أكد الاثنان أن نزول عبد الكريم بمصر تم باغراء من طرف الحكومة المصرية ، ولما سئل وزير الاستخبارات عن مصير العلاقات الفرنسية المصرية بسبب هذا الحادث قال انه ليس هناك تفكير لحد الآن فى قطع هذه العلاقات، وأن البت فى هذا الموضوع يتوقف على اتمام الاستعلامات التى تجمعها الحكومة الفرنسية، ثم قال ان احتياطات عديدة ستتخذ فى افريقيا الشمالية، ولكنه لم يبين نوع هذه الاحتياطات

وفى ثانى يونيو روت برقيات روتر أن وزير الخارجية الفرنسية مسيو بيدو سلم لسفير مصر بباريس احتجاجا شديد اللهجة على ما سماه مسيو جورج بيدو بتآمر الحكومة المصرية على تهريب عبد الكريم ، وأكد روتر أن مسيو بيدو صرح لسفير مصر بأن تحت يده وثائق قوية تدل على مسؤولية مصر فى القضية أما السفير المصرى فلم يزد على أن أكد وجهة نظر حكومته ، وهو ان مصر لم تقم الا بما هو من حقها فى قبول لاجىء سياسى التجأ اليها .

وأذاع السفير المصرى تفنيداً رسميا لما نشرته الصحف الفرنسية من ان الامير عبد الكريم نزل فى بور سعيد تلبية لاستدعاء الملك فاروق او الحكومة المصرية، كما صرح دولة رئيس الوزارة المصرية محمود

فهمى النقراشى باشا بان عبد الكريم هو الذى طلب من محافظ بور سعيد أن يبلغ طلب التجائه للحكومة المصرية ، وأن رئيس الحكومة رأى من واجبه طبقا للتقاليد المصرية أن يقبل ضيافة البطل المغربى بعد ان طلب منه عدم الاشتغال بالسياسة .

أما الصحافة الفرنسية فقد اخذ الموضوع منها اهتمام الصفحات الاولى بضعة اسابيع ، وقد كتبت جريدة (البلاد الفرنسية) ما معناه: ان الجامعة العربية التى ترعى الآن مستقبل عبد الكريم تقصر همها الاول على معاداة فرنسا، أما انجلترا فقد ارضتها فيما عدا فلسطين ؛ اذ اتفقت مع العراق وشرق الاردن والمملكة العربية السعودية، وقد لخص مسيو روجيه ماسيبى فى (الفيگارو) الرأى العام الفرنسى الذى يحس بعدم تقدير الدول الكبيرة له فى موقفه من هذه القضية فيما يلى :

(ان الرأى العام الفرنسى يشعر جدا بخجل من الاهانة التى لحقت فرنسا، ويبدو له ان بلادا قبلت مثل تضحياته فى سبيل النصر المشترك ولو أصيبت بجرح وضعف بل لانها أصيبت بجرح وضعف تستحق معاملة أجود من طرف الأمة الكبيرة – يعنى انجلترا – التى كانت فرنسا دائما صديقتها عظيمة الاخلاص والتجرد) وأكدت جريدة الفجر لسان الحركة الجمهورية الشعبية ان مصر أرادت أن تستعمل قوتها ضدا على فرنسا.

وأما الصحف الانجليزية والامريكية فقد اهتمت كثيرا بالحادث ووصفت تفاصيله وأشادت ببطل الريف وجهاده وسمعته فى المشرق والمغرب، وكان الحديث عنه فرصة عظيمة لنشر الحالة فى مراكش ومقدار الاستياء الذى يعمها، وقد استغله عزام باشا حينما كان فى أمريكا للتنديد بالعمل الفرنسى فى الشمال الافريقى، كما استفاد منه مبعوث الحركات الاستقلالية الاستاذ المهدى بنونة فى المدة التى أقامها بأمريكا

وأما الصحف الاسلامية فى الهند والصين وتركيا فقد تضامنت مع مصر فى موقفها، وأبدت نقطة الضعف الموجودة فى السياسة الفرنسية وقد كتبت جريدة (وقت) تقول : هل اتخذ عبد الكريم هذا الموقف ليحيا حياة هنيئة فى ظل الجامعة العربية، أو أن عمله هذا جزء من برنامج نظمه زعماء المغرب الموجودون في مصر ؟ ! الذى لا شك فيه ان الفرض الثانى هو منشأ سائر التخوفات الفرنسية، لكن موقف فرنسا من الوجهة القانونية ضعيف جدا، هل يوجد قانون فرنسى يلزم عبد الكريم أن يقيم بفرنسا بعد أن تقرر تحريره ؟ واننا لنرى ان من مصلحة فرنسا ان لا تترك أعصابها تتوتر، وأن تبحث عن حل لمشاكلها فى صيغة من شأنها

الدوام. وفى حالة ما اذا لم تعمل بهذه النصيحة فانها ستجد نفسها أمام عديد من المشاكل ، فى حين أن عندها من هذه المشاكل ما يكفى).

وطبيعى أن هذه الموجة الشديدة التى غمرت الصحف الفرنسية والاوساط الحكومية لم تلبث أن أخذت تنقشع؛ اذ أدركت الحكومة الفرنسية ضعف موقفها، فلم يزد وزير الخارجية على أن صرح فى البرلمان الفرنسى باعتبار عبد الكريم خائنا لوعده الذى تلزمه التقاليد والأوامر الاسلامية باحترامه، ولكن البطل الريفى صرح غير ما مرة بأنه لم يرتبط قط بوعد ما نحو الحكومة الفرنسية؛ لان اعتقاله لم يكن باختياره .

والحق أنه لم يكن من اللائق بفرنسا ان تقف موقفها العنيف ضد الحكومة المصرية التى لم تقم الا بما يجب عليها عقلا ودينا وعرفا نحو بطل عربى التجأ اليها واحتمى بحمى ملكها، ولم يزل رؤساء الدول فى القديم والحديث يتنافسون فى فك الاسرى ومساعدة المنكوبين وايواء اللاجئين، وليست التقاليد المسيحية فى هذا المعنى بأقل من التقاليد الاسلامية .

والذى ينظر للماضى القريب يجد ان فرنسا نفسها مفتحة الابواب قديما وحديثا لكثير من اللاجئين السياسيين من روسيين واسبانيين وايطاليين وغيرهم، وأن الفرنسيين يفتخرون بذلك فى كل المناسبات، وينص دستورهم على احترام حق الالتجاء فى المناطق التى يرفرف عليها العلم الفرنسى، واذا كانت الروح الاستعمارية والرغبة فى كبت أبناء المستعمرات ومنعهم من كل وسائل التحرر قد أثرت على كثير من رجال فرنسا حتى أصبحوا يعملون على مخالفة قوانين بلادهم وتقاليدها فليس مما يحمى الكرامة الفرنسية أن تنغمر الحكومة والبرلمان الفرنسيان رسميا فى موقف ينعى على مصر قيامها بعمل تعتبره القوانين والمبادىء الفرنسية واجبا نبيلا، واذا كان أبطال فرنسا مثل ديجول وجيرو وغيرهما من رجال المقاومة يفتخرون بأنهم استطاعوا الانفلات من قفص المحتل الالمانى فكيف يعتبرون عبد الكريم خائنا لا لشىء الا لانه رفض أن يستمر فى الاعتقال بعد ان أرغم عليه ٢١ عاما.

ولو ان المسيو بيدو فكر قليلا فى الظروف التى استسلم فيها عبد الكريم لاعترف بأن الولاة الاستعماريين الفرنسيين هم الذين لم لم يفوا لبطل المغرب، فانه لم يستسلم الا بعد مخابرات بينه وبين ممثلى فرنسا العسكريين والمدنيين انتهت بأن أعطته الحكومة الفرنسية الامان

التام على نفسه وعلى أهله، وفرنسا فى موقفها ذاك لم تكن تدعى غير تنفيذ رغبة سلطان المغرب الذى حاربت عبد الكريم بدعوى أنه ثار عليه وخرج عن طاعته، واذن فقد كان واجبا عليها أن تحترم العرف المغربى والتقليد العسكرى للبلاد فيما يخص الامان، وذلك يقضى بعدم اعتقال المؤمن بحال، بل باطلاق سراحه وتركه حرا بمجرد القائه السلاح ؛ لان تقاليدنا تقضى بأن الذى تنزل على شرط الامان لا تملك الدولة عليه حكما، أما الذى استسلم من غير قيد ولا شرط فهو الذى يمكن ان يعاقب او يعفى عنه بمقتضى ما يراه ملك البلاد صالحا، والدليل على هذا قول ابن هانىء متنبىء المغرب :

وما عن أمان يوم ذاك تنزلوا ولكن أمان العفو أدركهم بعد

فعبد الكريم تنزل يوم استسلم عن أمان كما تعترف بذلك الوثائق التى سجلها الفرنسيون أنفسهم، ولهذا ظل يشتكى دائما من عدم وفاء فرنسا معه واخلاصها له، ومهما يكن الامر فانه ليس من الانسانية أبدا أن نلوم احدا يبحث عن الخلاص من السجن، والتحرر من القيد، ونحن نعلم أن العصفور لا يبقى فى القفص اذا انفتحت أمامه الأبواب

تأسيس لجنة تحرير المغرب العربى :

لم يكن اعتقال ٢١ عاما فى جو البلاد الحارة وفى دائرة الضغط الاستعمارى العظيم بالذى يضعف من عزيمة بطل المغرب وصنوه الكريم؛ بل لقد خرجا من هذا المنفى وهما أشد ما يكونان عزيمة واستعدادا للعمل، ولقد وجدا من تجمع ممثلى الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى مشجعا على العمل على توحيد الصفوف وتنظيم الجهود، ولقد ظلت الحركات المغربية تتطور فى أطوار التنسيق والتوحيد المختلفة حتى تكون مكتب المغرب العربى الذى يعتبر من أكبر المظاهر لرغبة أبناء المغرب فى التعاون على تحرير أوطانهم الثلاثة التى توحد بينها اللغة والدين والجنس والتاريخ والجغرافيا ووحدة المستعمر والآمال فى التحرر منه، ولقد وصى مؤتمر المغرب العربى المنعقد بالقاهرة فى فقرة (ب) من المادة الثانية من فصل تنسيق الحركات الوطنية على (تكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل لكفاح مشترك) ، ولقد خطوة فى تنفيذ هذه التوصية خطوة اولى أثناء وجودى بباريس حيث كونا لجنة اتصال بين الاستقلال والدستور وحزب الشعب، فلما نزل البطل الريفى بالقاهرة اتجهت

أنظارنا جميعا لتحقيق هذه التوصية بكيفية أوسع تحت رئاسة زعيم المغرب العربى ومجاهده الاول، وقد كان فى الدعوة التى وجهها البطل نفسه للاحزاب المغربية ميسرا لتحقيق هذا الامل ، ولم يكن هنالك مخلص الا وابدى استعداده لهذا النداء الصادق والرغبة النبيلة .

ولكن الامر احتاج الى مهجودات لتوحيد وجهة النظر فيما يرجع للخطط التى ينبغى ان تسير عليها أحزابنا فى الداخل والخارج ، وقد كان لحزب الاستقلال أن يتمسك بالفكرة التى انتهى اليها وهى ضرورة الاتفاق من اجل الاستقلال قبل كل شىء . وبعد مداولات ومناقشات عديدة انتهينا لغاية موفقة هى تأسيس (لجنة تحرير المغرب العربى) من كل الاحزاب التى تقبل مبادئنا وتعمل وفق خطتنا

وفى اليوم التاسع من ديسمبر سنة ١٩٤٧ تم اقرار القانون الاساسى للجنة، وتكون مكتبها المؤقت على ما يأتى :

الرئيس محمد بن عبد الكريم الخطابى

وكيل الرئيس محمد بن عبد الكريم الخطابى

الامين العام الحبيب أبو رقيبة (الدستور)

أمين الصندوق محمد ابن عبود (حزب الاصلاح)

وقد انتخب الامير رئيسا بصفة دائمة، واخوه وكيلا للرئاسة بصفة دائمة ايضا، أما الامين العام وأمين الصندوق فقد انتخبا لمدة ثلاثة أشهر وقد بعث رئيس اللجنة للاحزب المغربية كلها كتابا يخبرهم فيه بالتأسيس ويطلب مصادقتهم الرسمية وتعيين ممثليهم ، وتقرر لاعلان اللجنة يوم ٥ يناير سنة ١٩٤٨.

وفى اليوم المحدد وزع البطل الريفى وثيقة التحرير على الصحافة العربية والاجنبية التى خصصت لها مكانا ممتازا، وأبدت بها ترحيبا كبيرا كما وزعت الامانة العامة لحزب الاستقلال فى الوقت نفسه بيانا بتأسيس اللجنة وأغراضها أذاعته صحف الاحزاب المغربية فى الشمال الافريقى كله، وهذا نص البيان الذى أذاعه الامير عبد الكريم :

«منذ أن من الله علينا باطلاق سراحنا والتجائنا الى ساحة الفاروق العظيم، ونحن نواصل السعى لجمع كلمة الزعماء وتحقيق الأئتلاف بين الاحزاب الاستقلالية فى كل من مراكش والجزائر وتونس بقصد مواصلة الكفاح فى جبهة واحدة لتخليص البلاد من ربقة الاستعمار

وفى هذا الوقت الذى تعمل فيه الشعوب على تطمين مستقبلها وتتطلع فيه أقطاب المغرب العربى الى استرجاع استقلالها المغصوب

وحريتها المضاعة يتحتم على جميع زعماء المغرب أن يتحدوا، وعلى كافة الاحزاب الاستقلالية أن تتآلف وتتساند، اذ ان هذا هو الطريق الوحيد الذى سيوصلنا الى تحقيق غاياتنا وادراك أمانينا

واذا كانت الدول الاستعمارية على باطلها تحتاج الى التساند والتعاضد لتثبيت سيطرتها الاستعمارية فنحن أحوج الى الاتحاد وأحق به من أجل احقاق الحق وتقويض أركان الاستعمار الغاشم الذى كان نكبة علينا، ففرق كلمتنا، وجزأ بلادنا، وابتز خيراتنا، واستحوذ على مقاليد أمورنا، ووقف حجر عثرة فى سبيل تقدمنا ورقينا، ثم حاول بكل الوسائل أن يقضى على جميع مقوماتنا كأمة عربية مسلمة

ويسرنى أن أعلن أن جميع الذى خابرتهم فى هذا الموضوع من رؤساء الاحزاب المغربية ومندوبيها بالقاهرة قد اظهروا اقتناعهم بهذه الدعوة واستجابتهم لتحقيقها وايمانهم بفائدتها فى تقوية الجهود، وتحقيق الاستقلال المنشود

ولقد كانت الفترة التى قطعناها فى الدعوة للائتلاف خيرا وبركة على البلاد فاتفقت مع الرؤساء ومندوبى الأحزاب الذين خابرتهم على تكوين (لجنة تحرير المغرب العربى) من سائر الاحزاب الاستقلالية فى كل من تونس والجزائر ومراكش على أساس مبادىء الميثاق التالى :

أ) المغرب العربى بالاسلام كان، وللاسلام عاش، وعلى الاسلام سيسير فى حياته المستقبلة.

ب) المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة، وتعاونه فى دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الاقطار العربية أمر طبيعى ولازم .

ج) الاستقلال المأمول للمغرب العربى هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة (تونس والجزائر ومراكش)

د) لا غاية يسعى اليها قبل الاستقلال

هـ) لا مفاوضة مع المستعمر فى الجزئيات ضمن النظام الحاضر

و) لا مفاوضة الا بعد اعلان الاستقلال

ز) للاحزاب الاعضاء فى (لجنة تحرير المغرب العربى) أن تدخل فى مخابرات مع ممثلى الحكومة الفرنسية والاسبانية على شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المخابرات اولا بأول

ح) حصول قطر من الاقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها فى مواصلة الكفاح لتحرير البقية

هذا هو الميثاق الذى قطعنا على أنفسنا العهد بالسير على ضوئه، والعمل بمقتضى مبادئه، وقد وافقت عليه أنا وشقيقى محمد، كما وافق عليه رؤساء الاحزاب المغربية التالية ومندوبوها :

الحزب الحر الدستورى التونسى القديم
الحزب الحر الدستورى التونسى الجديد
حزب الشعب الجزائرى
حزب الوحدة المغربية
حزب الاصلاح الوطنى
حزب الشورى والاستقلال
حزب الاستقلال

وقد كتبنا لبقية الاحزاب الاخرى نطلب موافقتها النهائية على تكوين اللجنة والمصادقة على ميثاقها وتعيين مندوبيها فى اللجنة بصفة رسمية، ومنذ الآن ستدخل قضيتنا فى طور حاسم من تاريخها، وسنواجه المغتصبين ونحن قوة متكتلة تتكون من خمسة وعشرين مليونا كلها مجمعة على كلمة واحدة، وتسعى لغاية واحدة، هى الاستقلال التام لكافة أقطار المغرب العربى .

وسنعمل على تحقيق هذه الغاية بكل الوسائل الممكنة فى الداخل وفى الخارج كلما استطعنا الى ذلك سبيلا، ولن يجد المستعمر بعد اليوم لتثبيط عزائمنا وايقاع الفتنة بيننا واستغلال تعدد الاحزاب وتفرق الكلمة لاستعبادنا وتثبيت أقدامه فى بلادنا

فنحن فى اقطارنا الثلاثة نعتبر قضيتنا قضية واحدة، ونواجه الاستعمار متحدين متساندين: ولن يرضينا اى حل لا يحقق استقلالنا الناجز وسيادتنا التامة، على أننا نأمل أن يعمل الفرنسيون والاسبانيون على انصافنا دون ان يلجئونا الى اراقة الدماء ، وأن يكونوا قد تيقنوا من تجاربهم السابقة من ان استنادهم الى استخدام القوة والبطش للاحتفاظ باستعمار أوطاننا واسكات صوتنا عن المطالبة بالحرية والاستقلال أصبح لا يجدى شيئا، وأن من الخير لهم ان يسارعوا الى فك أغلالهم الاستعمارية بطريق التفاهم بين الجانبين، وتقدير مصالح الطرفين

أما اذا تنكبوا هذا الطريق فسيكونون المسؤولين عن تغيير خطتنا؛ لاننا لن نتأخر ـ اذا نحن يئسنا من استرجاع استقلالنا بطريق التفاهم والاقناع ـ عن استرجاعه بطريق التضحية وبذل النفوس

وانني اذ أعلن عن تكوين (لجنة تحرير المغرب العربي) أتوجه الى الشعوب المغربية بتحيتي راجيا من الله العلي القدير أن يوفقها في كفاحها ويقوى ثباتها ويديم اتحاد كلمتها

كما أتوجه الى الشعوب والدول العربية بالتحية والشكر على مناصرتها لقضية المغرب العربي، ولا يخالجني شك في أنها ستستقبل تكوين هذه اللجنة بالمؤازرة والتأييد والترحيب

ويسرني في الختام أن احيي اخواننا مجاهدي فلسطين الشقيقة ، داعيا لهم بالفوز والنصر، ومؤكدا لهم تضامن الاقطار المغربية معهم ، وعزمها على اتخاذ جميع الوسائل الممكنة للاشتراك في انقاذ بلادهم والمحافظة على عروبتها ووحدتها.

* * *

ولقد قامت اللجنة في أشهرها الاولى بتظنيم نفسها ووضع لائحتها الداخلية وتأسيس اللجان الفنية، كما قامت باحتضان لجنة الدفاع عن شمال افريقيا بدمشق وجمعية الدفاع عن المغرب ببيروت، وواجهت أعمالها بتقديم مذكرات للجامعة العربية التي أخذت تتبادل واياها رسائل الاخذ والرد في المسائل المغربية، ومذكرات وعرائض للامم المتحدة ، وبذلت جهودا في خدمة القضية الفلسطينية .

وفي ١٠ مايو سنة ١٩٤٨ عقدت جمعيتها العامة، وبعد ان استمعت لتمسؤولين في المكتب المؤقت عن أعمالهم قامت بالانتخاب العادي للسنة الحالية، فأسفر التصويت عن النتيجة الآتية :

علال الفاسي الامين العام للجنة
الحبيب ثامر أمين الصندوق

هذا مع العلم بأن البطلين بقيا في مركزهما طبقا للقانون التأسيسي الذي يعين الامير محمد رئيسا دائما للجنة وشقيقه وكيلا دائما له

الجنرال جوان وسياسته

لقد كانت الاحداث التى واجهت تعيين الجنرال جوان فى المغرب، وبالاخص نزول البطل عبد الكريم بالقاهرة ، مشوشا على الخطة التى كان يريد تنفيذها بالمغرب ؛ فقد كان حديث الصحف عن عبد الكريم فرصة لتوجيه الانظار فى العالم كله الى مراكش ، ولقد كتب لى بعض الاخوان من باريس يقول ان توالى الحوادث أفقد رجال السياسة المغربية من الفرنسين بداهتهم ، وهذا صحيح الى حد ما ؛ فقد دخل الجنرال جوان للمغرب وهو مضطر للتريث قليلا ريثما ينجلى الموقف الذى جعلته أعمال القاهرة كثير الابهام ، ولم يكن فى نزوله بالدار البيضاء وزيارته لجلالة السلطان شيئا غير عادى الا من جهة بعض المراشقات الرمزية التى تبادلها العاهل وممثل الجمهورية الفرنسية ، خصوصا فيما يرجع لمشروعية الآمال أو عدم مشروعيتها طبق ما لذ للمقيم الجديد أن يؤكده بحزم ، ولقد وقف الشعب المغربى من الجنرال موقف المتحفظ ، ولم يظهر له الوطنيون أدنى رغبة فى الاتصال أو المقابلة على الرغم مما حاوله بعض أصدقائنا الفرنسيين الذين قدموا من باريس ـ فيما يظهر ـ خصيصا لاقناع اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال بضرورة الاتصال بالجنرال جوان والاطمئنان على حسن نواياه .

ولقد كان الاسلوب الذى اتبعه الجنرال فى خطبه وتصريحاته أسلوب تهديد عامى لم يلبث أن ظهرت قيمته للجمهور الذى لم يجد فيه أكثر من كلام شديد اللهجة ، ولكنه عديم الثبوت ، واذا نحن أردنا أن نحلل الغاية التى رمى اليها المقيم العام من مجموع كلامه وأعماله وجدنا أنه أراد العمل .

أولا : على تثبيت قيمة عقد الحماية الفرنسية وتأكيد مشروعيته .

ثانيا : تثبيت دعائم السلطة واحترام نفوذها .

ثالثا : فصل مراكش عن الشرق العربى وتوجيهها الوجهة الغربية أى الفرنسية اجابة عن تصريحات طنجة .

رابعا : مقاومة الوطنية المغربية والعمل على استغلال الضعف الانسانى بتكوين فئة تتعاون معه .

خامسا : التلويح بانقلاب نظام المغرب والتمويه ببعض اصلاحات سطحية .

وقد كانت النقطتان الاوليتان فى مقدمة ما اهتم به الجنرال جوان . ويظهر رأيه الصريح فيهما فى الخطاب الذى ألقاه يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٨ حين قال : (ان هنالك معاهدة أمضيت هنا بين البلدين، وهذه المعاهدة يجب ان تحترم؛ لانها ما زالت قائمة، وهى تكلفنا بالقيام فى هذا البلد بمهمة الاصلاح والسير بالمغرب نحو التقدم الاجتماعى والمادى بصفة تستعجل النهاية السعيدة لتطوره ، والحماية كما قلته وكررته ولا أخشى أن أردده هى شكل قانونى يجب أن يتطور فى تطور هادىء حذر وحكيم ومنجز فى دائرة النظام) .

(ان المغرب ليس فى ملتقى الطرق ، حقا انه ازاء مجموعة الآراء ، ولكنه فى طريق واحدة ؛ الطريق التى وضعه فيها ليوطى أستاذى المحترم منذ خمس وثلاثين سنة ، وليس هنالك بيننا الا خلاف يسير ؛ فقد حث البعض سيره بينما تأخر الثانى ؛ فيجب أن نجمع قوتنا ونذهب معا ، الحماية ليست الا شكلا قانونيا طبق على المغرب فى وقت كان مليئا بالفوضى ، لكن يلزم أن تتحول شيئا فشيئا الى عمل اجتماعى وانسانى، والى عمل حب وتقارب بين الشعبين) .

(وللوصول لهذه الغاية يجب تحقيق الاصلاح الذى نختص باقتراحه، ولكن لا ينفذ الا بموافقة جلالة السلطان ، وهذا ما يسير بنا سيرا طبيعيا نحو شكل عقد ثان، ولكن بعد تطور حذر وحكيم ومنجز دائما فى دائرة النظام) .

واذن فالحماية بالنسبة للجنرال جوان شىء قائم الذات شرعى ولكنه غير دائم ، ولتغييره بعقد جديد يلزم الاستمرار فيه حتى نصل عن طريق الاصلاح الذى يقترحه هو ويصادق عليه الملك الى أعلى درجات التطور ، وحينئذ يتبدل بعقد جديد ، لكن ما هو هذا العقد الجديد الذى نسير اليه ؟ ذلك ما لم يقله الجنرال جوان الآن ، ولكن ما فسره غير ما مرة باعتبار المغرب دولة مشاركة فى دائرة الاتحاد الفرنسى . وهكذا نجد أن الطريق الذى يشاهد الجنرال فيها المغرب ليست على ملتقى طرق عديدة قطعا ، ولكنها ليست هى طريقنا نحن المغاربة ، فسبيله هى طريق ليوطى ؛ طريق ليوطى ادماج الشعبين أو توحيدهما ضمن الطائفة الفرنسية، وطريقنا نحن هى سبيل التحرر الكامل والاستقلال التام

ولكن عمل الحماية وخطتها ليستا فى السبيل التى تسلكها الدولة الشريفة ايضا ؛ لان هذه الحكومة احتضنت الحركة الاستقلالية بنفسها ، ولان ملكها الذى يجب أن يصادق على مقترحات الاصلاح الفرنسى أصبح يهتم بتوجيه هذا الاصلاح الوجهة التى يسير فيها الوطنيون ، وهى لا تؤدى الى روما وباريس قطعا ، وانما تؤدى لمكة والقاهرة ، وهذا ما يشتكى منه الجنرال جوان فى خطابه الذى ألقاه فى يوليو سنة ١٩٤٧ : (فى الميدان السياسى بعد الهياج الذى أحدثته عدة مظاهرات سياسية (يعنى مظاهرات طنجة) يجب أن نزيل كل ابهام، ونؤكد استمرار شرعية عقد الحماية الذى هو الاساس لكل علاقة فرنسية مغربية، ولكن من الغريب أن الحكومة الشريفة لكى تظهر بشخصية أقوى أمام بعض الهائجين انكمشت على نفسها ، وأدى بها الحال الى اظهار أشياء معيبة ، والسلوك فى طريق معوجة ؛ أشياء معيبة فيما يرجع لمعنى المهمة التى تحملتها فرنسا فى هذه البلاد ، مبتعدة عن النظرة الصحيحة للواقع الحى فى العالم الغربى الذى يتحكم فى تطور المغرب وحتى فى وجوده .

ان المغرب قد وجد الطريق الذى وضعه فيه الماريشال ليوطى ، وسيسير بغير تأخر وحول العرش المؤيد نحو مصيره المجيد ومستقبله العامر الذى وعد به ، (وهنا يجد الجنرال الشجاعة الكافية للتلويح بعقد المشاركة دون أن يستطيع التصريح بالدعوة للاتحاد الفرنسى : (لكن يجب أن يعلم أنه فى نهاية تطوره الذى أرجو أن يكون سريعا ولكن حذرا حكيما سيبقى مرتبطا بفرنسا التى تعطيه أحسن ما عندها بعقد مشاركة راسخة لا تتجاهل المصالح المشتركة والفوائد التى لا تنفصل من أجل طمأنينة مشتركة أيضا) .

ولكن الحملات الوطنية تتوالى على خطب الجنرال وتصريحاته ، ومواقف الاستقلال تؤيد ثبات الملك فى رفضه لكل اصلاح لا يتفق مع الغاية التحريرية التى يعمل لها المغاربة ، ويحس المقيم العام بأن الوطنية المغربية شىء ثابت ، وأن الوطنيين ليسوا حفنة صغيرة كما كان يظنها ، وليس القضاء عليهم بالشىء البسيط الذى لا يكلف أكثر من التمويه بالكلمات المعسولة والقاء القبض على مئات من الاحرار واطلاق النار على الابرياء، والرأى العام الفرنسى نفسه غير قابل لأستمرار خطة كل ما فيها تأليب الجمهور المغربى بالحديد والنار حول جلالة ملك يطالب بالتحرر ومن ورائه حزب ينادى بالاستقلال ، ولقد حذر الملك من موقفه فى الخطاب السابق ليضعه فى الطريق المستقيمة حسبما خيل له ،

فمن الواجب تحذير الوطنيين من موقفهم ايضا والتلويح لهم بامكان خلق وطنية معتدلة تناوئهم من بين اخوانهم ، فلنسمع اذن الى الجنرال يتحدث عن الوطنية وقسميها المتطرف والمعتدل فى فاتح يوليو سنة ١٩٤٧ (انهم يتكلمون عن الوطنية المغربية ، اننى غير خصم لهذا الاتجاه؛ لكن هناك وطنية ووطنية، هنالك وطنية معقولة تواجه المستقبل عن طريق التطور الذى هو مهمة فرنسا فى المغرب بمقتضى عقد ما يزال قائما ؛ تلك المهمة التى ينبغى تأكيدها، لكن لهذا العقد حدا، ومن الحماقة الاعتقاد بأن الحماية لا تنتهى، وفى اليوم الذى يكون المغرب قد كون رجاله الفنيين والاداريين سيحل عقد جديد محل معاهدة سنة ١٩١٢ فى شكل عقد مشاركة، أعنى معاهدة مبنية على المصالح، ولن تكون هناك فائدة قبل ان يبلغ التطور مداه، والا فان البلاد تعود للفوضى التى وجدناها بها) .

وهكذا فالوطنية التى يمكن ان تحظى بعطف الجنرال ليست هى التى تطالب بالاستقلال الناجز، وترفض كل تعاون على غير اساسه ، ولكنها الوطنية المعتدلة التى تعترف بمهمة فرنسا التمدينية فى البلاد ، وتسير رويدا فى الطريق التى عبرها الماريشال ليوطى لتصل بنا الى يوم نتمتع فيه بالمشاركة فى عائلة الاتحاد الفرنسى لنأخذ من فرنسا أحسن ما عندها، وهو المعنوية الفرنسية والشعور بروح المواطن الفرنسى، وحينئذ نكون قد خسرنا احسن ما عندنا، وهو الشعور بالمعنوية المغربية والاعتزاز بروح المواطن المغربى .

* * *

واذا نحن نظرنا لسياسة الجنرال من الناحية الواقعية وجدنا اول ما اهتم به لتحقيق النقط التى أشرنا اليها هو محاولة الضغط على الملك وعلى الشعب لامضاء المشروعات التى كانت موقوفة من جلالة السلطان والتى رأى الفرنسيون أن تريث جلالته فى امضائها او امضاء ملاحظات خاصة عليها نوع اضراب عن اصدار الظهائر التى تعودو أن يستصدروها بكامل السهولة قبل وصول الوعى القومى لمداه الحالى .

ولقد كان فى مقدمة الاشياء الموقوفة مشروع الميزانية العامة لموسم ١٩٤٨/١٩٤٧ فقد كانت العادة أن يصادق عليها الصدر الاعظم، ثم يطلع الجناب الشريف على عمله فيمضيه بجلالته، ولكن مولانا رأى هذه المرة أن ينبه وزيره الاكبر لعدم الامضاء قبل اطلاع جلالته على مشروع الميزانية وفصولها، وقد رأت الاقامة العامة فى رفض الوزير المقرى ،

لهذا الامضاء شيئا مدهشا لم يصدر منه منذ ابتداء الحماية الى اليوم ، وقد وضع سيدنا نصره الله على ملف الميزانية بضرورة تشكيل لجنة مغربية لدراستها قبل المصادقة عليها، وهذا فى الحقيقة عدم اعتراف من جلالته بلجنة الميزانية التى تشكل عادة بالاقامة العامة.

ولذلك فان المسيو لابون لم يبت فى الامر، وبقيت الميزانية معلقة والحكومة تسير بميزانية مؤقتة؛ فلما وصل الجنرال للرباط كان اول عمل قام به هو عرض مشروع الميزانية من جديد على القصر، فقرر جلالة الملك أن لا ينتظر موافقة الاقامة العامة على تعيين اللجنة المغربية، بل عينها جلالته وترأس اجتماعها بنفسه فى قصره العامر، وقد تأكدت اللجنة أن ليس فى الميزانية شىء غير عادى خاصا فيما يرجع للشركات التى كان أسسها مسيو لابون ولم يوافق عليها الملك، وتخوف جلالته من ان يكون فى الميزانية ما يشعر باعتراف ضمنى بها، ومع ذلك فقد صادق جلالته على مشروع الميزانية، وأصحب المصادقة برسالة تحفظ فيما يخص ثروة البلاد المعدنية .

وقد عرض على جلالته المشروعات الاخرى المتعلقة بالمجالس البلدية ومجلس الشورى، فوقف جلالته عند موقفه الاول الذى سنعود للحديث عنه من بعد، وهكذا فشل الجنرال جوان ولم يكتم فشله المعنوى فى خطابه الذى ألقاه فى مدينة مراكش فى شهر يونيو نفسه، فقد قال : (اننى اذا لم أنجح فى سياستى فسأستقيل).

وطبيعى أن يتجه رجال الحماية بعد الثبات الذى أظهره جلالة الملك الى مقاومة شخصه الكريم؛ فقد حاولوا المس من كرامته أمام الشعب ومعاكسته فى اصلاحاته العظيمة الدينية والاجتماعية، وعجلوا بعزل خمسة من القواد المخلصين الذين كان جلالته راضيا عنهم كامل الرضى، كما أخذوا يعينون بعض الافراد الذين لا قيمة لهم فى المراكز المغربية برغم معارضة جلالته ورفض رعاياه، وسرعان ما أدى هذا التحدى الى اصطدام عنيف بين الحماية والشعب نذكر منه على وجهة المثال حوادث زاوية سيدى الشيخ :

حوادث زاوية سيدى الشيخ :

عينت السلطة الفرنسية على قبائل زاوية سيدى الشيخ قائدا عديم القيمة اختارته من (جواشى) الادارة الاهلية الذين اعتادوا الخضوع لرؤسائهم الفرنسيين، وقد احتجت الناحية كلها على هذا التعيين فلم تكن

المراقبة تجـود عليهم بأكثـر من الوعد بابلاغ شكايتهم للمراكز العليا، ولكنها فى الوقت نفسه شجعت القائد على نهب المشتكين والمصادمة معهم والاستيلاء على المواد التى اشتروها لبناء مسجد ومدرسة بالقرية واستعمالها فى بناء مقر لسكناه الخاص كما أجبرت القبيلة على الشغل لفائدته وفائدة المراقبة فى خدمة اجبارية من غير اجر.

حينئـذ بعـث رجـال الناحية وفدا يرفع شكايتهم للمراجع العليا بالرباط، وفى يونيو سنة ١٩٤٧ استدعت المراقبة مجلس الجماعة بقصد المذاكرة فى الموضوع وبعد انتظـار طويل من هؤلاء المدعوين وجدوا أنفسهم أمام مجلس من الضباط الفرنسيين من بينهم الكولونيل دارسيمول حاكم دائرة خنيفرة، وقد استدعت المراقبة أيضا شيوخ القبيلة الاربعة ولجنة بناء المسجد والمدرسـة فوجه اليهم أحد الضباط كلاما معناه أنه وصله اذن فى بناء المسجد، ولكن الجماعة أجابته بأن مسألة المسجد لم تعد تهمهما الآن، وانما يهمها ذهاب القائد الذى لا ترغب فى وجوده ما دام لم يصـادق عليه الملك، ولم يكـن من ذوى الكفاءة والمروءة، ثم أعربـت بتفصيـل عن الاستيـاء الحاصل فى الناحية من السياسة التى أتبعتهـا معهـم ادارة الحمايـة فطلب الضباط الفرنسيون من المدعوين اختيـار خمسة نواب عن كل شياخـة للمفاوضة معهم فى هذا الشأن ، فعين ممثلون أعربوا بأغلبيتهم الساحقة عن معارضتهم فى تعيين القائد ، فعرضت عليهم الادارة قبول جاوش المراقبة مكان القائد المذكور حتى يتخذ الحل النهائى، فأجاب الممثلـون بأنهـم لا يريدون تغيير جاوش بمثله ، وحينئذ أمر بافتراق الأجتماع .

ولما خـرج الممثلون من المراقبة اتجهوا نحو الجمهور الذى كان محتشدا أمـام الادارة للتضامن مع مندوبيـه، وبينما هم يتحدثون فى الموضوع اذ وصلت فرقة «قـوم آيت اسحق وطابور القصيبة للانضمام للقوم المحليين»، وقـد اعتقلت السلطة خمسة من الممثلين وضعتهم فى سيارة نقالة، فحاول الجمهور معاكسة السيارة والمطالبة باعتقالهم جميعا مع ممثلين ما داموا يعملون لغاية واحدة، فأطلق أعوان الادارة النار على المتظاهرين الذين قتل منهم أربعة، وجرح عشرة جروحا خطيرة.

حينئذ أصدر الكولونيل الامر «للقوم» بالدخول فى المعركة، ولكن «القوم» رفضوا تنفيذ الامر واطـلاق النار على اخوانهم، وقد استمرت المناوشـات فى الناحيـة بضعة أسابيع أسفرت عـن عديد من القتلى

والجرحى ، وتبين للجنرال ان فرق القوم التى كانت تطيعه فى ايطاليا غير مستعدة للمغامرة معه فى محاربة اخوانهم ومقاومة الوطنية غير الحكيمة فى نظر الجنرال جوان .

محاولة تفريق كلمة الشعب

وعمد الجنرال جوان الى محاولة احياء (الطرق الصوفية) التى قضت عليها حركة الاصلاح الدينى أو كادت ، فقرب اليه الشيخ عبد الحى الكتانى الذى كانت خيانته الكبيرة لامته وبلاده ودينه وملكه من الاسباب الكبرى لفشل الدعوات الطرقية كلها ، وبما ان جلالة الملك كان أصدر ظهيرا يحرم فيه تأسيس طرق جديدة ، أو تجول بعض المشايخ القدماء بغير اذنه الخاص ، كما يعطى لجلالته الحق فى حل الطرق التى يثبت عليها التمشى ضد الدين ومصلحته وبما ان الاقامة العامة كانت قد مانعت فى المصادقة على هذا الظهير ولم تسمح بصدوره فى الجريدة الرسمية، وانما وزعه جلالته رأسا وكتب للقواد يأمرهم بالعمل بمقتضاه ، فقد اراد الجنرال ان يعاكس جلالته ، فاستقدم اليه الكتانى ومن على شاكلته وعرفهم رسميا بأن الحماية لا تمنعهم من التجول أين يشاءون ، لينشروا الدعوة لطرقهم ، لأن فرنسا نصيرة لحرية الاعتقاد والتفكير ، وفعلا ذهب هؤلاء المسخرون يتجولون من غير استئذان ملكى،وكانوا يجدون من المراقبات الفرنسية كل تنشيط وتشجيع ، ولكن جلالته احتج رسميا على تصرف المقيم العام بلهجة شديدة ، وتضامن الشعب مع ملكه فلم يخضع لاغراء المراقبات ، بل قام بعدة مظاهرات نذكر منها على جهة المثال ما جرى للشيخ الكتانى فى قبيلة زمور التى كانت تعتبر احدى المراكز الكبرى للطريقة الكتانية ، جمعت المراقبة أشياع الطريقة القدماء ، وقدمت اليهم الكتانى الذى وزع عليهم سبحا جديدة مقابل ضريبة خاصة ، ثم افترقوا ونام الشيخ فى سرادقه الرسمى محاطا بحرس المراقبة . وبعض اشياعها، ولكن ما راعه وقد استيقظ فى الصباح الا عشرات من الكلاب فى أعناقهم السبح وهم ينبحون وكانت تلك آخر حلقة لرحلته هذه التى رجع فيها مندحرا مهزوما لفاس، ثم فر لتونس والجزائر حيث لم تنتصر السلفية بعد انتصارها فى المغرب الاقصى

وريع الجنرال جوان من اجماع الامة المغربية على مقاطعته والاعراض عن سياسته، وأخذت ادارة الشؤون الاهلية تدبر مكايدها، وتوزع منشورات ادعت انها من حزب جديد يسمى بحزب الوحدة الاسلامية

تحذر فيها الشعب من (حزب الاستقلال) ومن السياسة التى يتبعها جلالة الملك نحو فرنسا؛ تلك السياسة التى تعد من قبيل نكران الجميل. ولقد كنت كتبت عن هذه المحاولة مقالا فى جريدة «الكتلة» الغراء التى تصدر فى القاهرة مثلت فيها عمل الاقامة العامة بما يحكى عن حجام ساباط الذى فقد الزبائن فأخذ يحجم كل يوم لامه حتى قتلها ، والحقيقة انه لا يوجد هناك حزب للوحدة الاسلامية ولا غيرها ممن يقبلون على هذه الخزعبلات أو يدعون للوحدة الفرنسية واضرابها ، وقد تطورت اساليب الشؤون الاهلية الى ان اصدرت نشرات منتحلة تمس فيها الملك والاسرة المالكة، كما سنتحدث عنه فيما بعد .

ويظهر ان الاقامة العامة اقتنعت بأن محاولة التفرقة عن طريق السلفية والرجعية الدينية لم يعد لها محل بعد انتصار روح السلفية وانتشارها فى أنحاء البلاد ، وبعد ان سقط المشايخ الادعياء بخيانتهم سقوطا لا قيام بعده ؛ لان الشعب ادرك ان الوطنية المغربية هى التى تدافع عن الدين وتؤيده ، وان هؤلاء المتشيخين ليسوا من التصوف ولا من الدين فى شىء ، وانما هم اداة مسخرة للمستعمر يستمدون منه قوتهم التى يستعملونها فى استغلال الشعب وابتزاز امواله واستعباده الاستعباد الروحى والمادى، ولو كان عندهم بصيص من ايمان لما وقفوا موقف المحايد او المنفذ للسياسة البربرية التى اقفلت المحاكم الشرعية وحاولت القضاء على الاسلام فى قسم كبير من تراب المغرب ، ولهذا فقد اتخذت الاقامة منهجا جديدا هو محاولة الاتصال ببعض الوطنيين المعتدلين وتشجيعهم على اتباع خطة جديدة فى السياسة تتنافى مع ما سبق أن اتفقوا عليه مع (حزب الاستقلال) ، وسنحاول الالمام ببعض ما وصل اليه المقيم فى هذا الصدد دون ان نعترض للاشخاص او ننال من الهيئات.

معارضة الوحدة الفرنسية :

وعلى الرغم من كل المحاولات فقد وقف المغرب جميعه وقفة رجل واحد يعلن تضامنه التام فى معارضة انخراط مراكش فى الوحدة الفرنسية، وقد صرح جلالة الملك فى احاديثه الخاصة او العامة بأن مصير المملكة الشريفة هو مصير الامم العربية الحرة ، وان مستقبلها فى دائرة الجامعة العربية وشعوبها ، وصرحت الاحزاب المغربية كلها مؤكدة معارضتها الشديدة لكل ما من شأنه أن يمس بالسيادة المغربية ،والمصير الحر للمغرب كدولة عربية مستقلة فى دائرة الجامعة العربية ، ولقد كان

فى تصريح الصدر الاعظم الحاج محمد المقرى للصحفيين الفرنسيين أثناء زيارته لباريس فى شهر يوليو سنة ١٩٤٧ الحجة القاطعة على أنه لا يوجد فى مراكش أحد يفكر فى قبول الوحدة الفرنسية؛ لان المقرى معروف من طرف الفرنسيين كصديق حميم ، وكأحد صناع الحماية الاولين ، والذى تحمل مسؤولية كل ما اقرته الحماية من نظام وتشريع خلال ٤٥ عاما ، ولقد اجاب المقرى الصحفيين الذين سألوه عن رأيه فى الاتحاد الفرنسى : (ما هو هذا الاتحاد الفرنسى الذى يتحدث الكثيرون عنه دون ان يعرفوه ؟ رأيى انه من المستحيل ان تشترك فيه مراكش لانها دولة متميزة ذات كيان خاص ومقومات شخصية ولذلك فليس من الممكن مطلقا ان تنضم الى مثل هذا الاتحاد الغامض) . ومما قاله المقرى: (اننى لا أذكر ـ وقد توليت الوزارة طوال عهد الحماية الفرنسية فى المغرب ـ انه قامت ازمة بين المراكشيين والفرنسيين ، بلغت مبلغ الازمة الحالية) .

وهكذا سجل الجنرال جوان فشل الدبلوماسية العسكرية الفرنسية فى محاولة اقناع الشعب المغربى بالانضمام للاتحاد الفرنسى .

معارضة اصلاحات الجنرال جوان

وأخيرا وبعد ان ملأ الجنرال جوان الدنيا خطبا وكلاما ، واشبع البلاد تهديدا وايعادا قدم لجلالة السلطان مشروع الحكومة الجديدة أو ما سماه باصلاح (المخزن) ، وقد استمرت المذاكرة والمراجعات بين الاقامة والقصر زمنا غير قصير انتهت بتوقيع جلالة سيدى محمد لثلاثة مراسيم تتضمن تجديد نظام الحكومة ، وادماج تعديلات فى أعمال الادارة المحلية العليا ، وتعيين خمسة مندوبين لرئيس الوزارة بدرجة وكلاء وزارات للاشراف على أهم الادارات أى المالية والزراعة والتجارة والاشغال العامة والانتاج الصناعى والمناجم والبريد والتلغرافات والتليفونات والشؤون الاجتماعية والصحة العمومية ، وانشاء منصب قضائى ليقوم ببحث النصوص الخاصة بالقوانين واللوائح قبل عرضها على جلالة السلطان للموافقة عليها .

وينص هذا النظام على عقد مجلس للوزراء برياسة جلالة الملك كلما رأى جلالته ضرورة ذلك ، بينما يجتمع اعضاء الوزراة بالمديرين الفرنسيين مرة فى كل شهر تحت رئاسة رئيس مجلس الوزراء لبحث المسائل ذات الاهمية العامة .

وقال مراسل الاسيوشيتدبرس : ان هذا القرار هو أول الاصلاحات الهامة التى ستحدث فى المستقبل ، وان الوزارة ستشمل عشرة من المراكشيين وعشرة من الفرنسيين ، وان فرنسا ستحتفظ بمسؤولية الشؤون الخارجية والدفاع ، وقال متحدث بلسان الخارجية الفرنسية . انه لا يضمن أن برلمانا سيؤسس فى المغرب الاقصى عاجلا ، ولكن ذلك قد يحدث يوما ما وان فرنسا تريد ان تحول مراكش الى دولة ديمقراطية حديثة ، وان تزيد من مسؤولية المراكشيين وسلطتهم.

وقد اذاعت وكالات الأنباء الفرنسية والاجنبية هذا الخبر ، وعلقت عليه صحف فرنسا بما يصوره اصلاحا حقيقيا يتدرج بالمغرب نحو حكم ذاتى سريع ، ولذلك تعجلت وضع المسألة عند نصابها فأدليت للصحف العربية ووكالات الانباء بالتصريح الاتى بعد يوم واحد من صدور المراسيم المذكورة :

«فى الوقت الذى تموج فيه مراكش بالجنود المتعددة، وفى الوقت الذى يعزل فيه القواد ويعتقل العاملون فى مختلف الجهات ، وتطلق النار على سكان القبائل المحتجة ـ يكثر الجنرال جوان من التحدث عن تشريك الاهالى فى الحكم، وعن الاتجاه الديموقراطى الذى يجب ان تسير فيه سياسة الحماية الفرنسية فى مراكش، ولكى يثبت اخلاصه فى هذا التشريك يستصدر أمرا بتعيين بعض الشبان من قدماء الموظفين فى مصالح كانت ولا زالت من اختصاص الصدر الاعظم يعمل فيها بمعاونة كتابه العديدين، أى ان كل ما هنالك هو اطلاق اسم المندوب او نائب الصدر الاعظم فى هذه المصالح الجديدة على هؤلاء الشبان

والذين يدركون حقيقة الادارة المراكشية يعرفون ان المصالح الادارية كلها تابعة للاقامة العامة، وأن جميع الشؤون تدرس وتحضر بواسطة الرؤساء والمديرين الفرنسيين، ثم ترسل الى الادارة المراكشية حيث تترجم المشروعات وتعرض على كاتب الصدر المختص، وهذا ما لم يتغير الى الآن.

والمعروف ايضا أن جميع الملفات والوثائق الادارية ليست فى دار (المخزن)، ولكن فى الاقامة العامة، وفى الادارة الشريفة التى يترأسها فرنسى، وتعتبر فى نظام الحماية صلة الوصل بين المقيم العام والمخزن، فليس فى تعيين خمسة موظفين فى مناصب جديدة غير ذر الرماد فى العيون، خصوصا وان مراسل الاسوشيتيد برس قال ان هذه مقدمة لتكوين حكومة فرنسية عربية تتألف من عشرة من المراكشيين وعشرة من الفرنسيين، وهذا ما اعلن (حزب الاستقلال) رفضه مرارا نظرا لكونه لا يتنافى فقط مع السيادة الفرنسية بل حتى مع نظام الحماية الذى يعترف لمراكش بشخصيتها وكيانها الخاص

ومن المهم ان نذكر ان هذا المشروع وما يلحقه من تأليف وزارة مشتركة قد سبق ان عرضه علينا مسيو لابون المقيم العام السابق واعلنا رفضنا له فى ذلك الحين؛ لانه فى الحقيقة شكل من اشكال الحكم المباشر الذى تسير عليه السياسة الاستعمارية فى مراكش، وما برح حزب الاستقلال متمسكا بموقفه، ويعتبر ان الاتجاه الجديد انما هو خطوة فى تنفيذ ما يسميه الجنرال جوان بالاصلاح الديموقراطى، وهو تكوين مجلس شورى مشترك نصفه من المراكشيين ونصفه من الفرنسيين، ومجالس بلدية واقليمية كذلك، وقد صرحت للمقيم السابق بمحضر اعضاء اللجنة التنفيذية للحزب وكاتب الحماية العام بأننا لا نقبل أبدا أن يصبح للجالية

الفرنسيـة اى حق فى الادارة ولا فى الاستشارة؛ لانهم أجانب فى بلادنا ولا يمكـن ان نسمح لهم بأى حق من حقوق المواطن المراكشى ما داموا متمسكين بجنسيتهم الفرنسية .

فسياسة المقيـم الجديد تريد ان تغتصب البقية الباقية من مظاهر وجودنا كأمة ذات سلطان، وشعب ذى سيادة، ولذلك فلا يمكن ان تحظى منا بغير المعارضة والمقاومة الدائمتيـن، أما التلويـح لنا بالديموقراطية ، فلن يخدعنا نحن ولا أى مخلص من أفراد الشعب المراكشى عن الحقائق الملموسة .

فحـزب الاستقلال لا يقبل أى حـل لا يقوم علـى أساس الاعتراف بالاستقلال الكامل وتحرير الامة من الحجر الاجنبى

وفى الوقت الـذى أدليت فيه بهذا البيان فى القاهرة كانت اللجنة التنفيذيـة للحزب توزع بيانا فى نفس المعنى ختمته بقولها : (ومجمل القول أن كـل عمل ينجـز فى دائرة الحماية لن يحقق التطور المنشود، وأن أول اصـلاح حقيقى هـو الغاء الحماية وتأسيس حكومة مؤقتة تنظم انتخابا حرا عاما لمجلس وطنى يضع دستورا للبلاد)

وقد استدعـت اللجنـة التنفيذيـة بعد ذلك مجلس الحزب الاعلى فانعقد بالرباط فى دورة استثنائية، وبعد دراسة الحالة السياسية والاطلاع على البلاغ الذى أذاعته بواسطة الصحف وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٥ يوليو سنة ١٩٤٧ وعلى خطب وتصريحات المقيم العام الجنرال جوان بمجلس شورى الحكومة، وبمختلف المدن المغربية تأكد لديه أن الحكومة الفرنسية تريـد ان تدع سياسة الحـكم المباشر التى خرقت بهـا نظام الحماية منذ تأسيسه وأن تعطيها صبغة قانونية؛ فاذا كانت الظهائر التى صدرت فى الجريـدة الرسمية بتاريخ ٤ يوليو تنص على مجرد تغييرات بسيطة فى نظام المخزن، وعلى تعيين مندوبين تقتصر مهمتهم على الربط، ولا سلطة لهم ولا نفوذ، ولا تعطى للاجتماع الذى ينعقد شهريا بين الوزراء والمديرين الفرنسييـن صيغـة مجلس وزارى، فان بلاغ وزارة الخارجية يعتبر هذه الهيئـة مجلسا وزاريا نصف أعضائه مغاربة، والنصف الآخر فرنسيون، ولا يشك أحـد فى أن الفرنسيين كانوا وسيبقون داخل هذه الهيئة الجديدة أصحاب الحل والعقد

كما تبين للمجلس الاعلى أن ما ترمى اليه الحكومة الفرنسية واقامتها العامة بالرباط هو التدرج بالمغرب نحو الاتحاد الفرنسى لالحاقه بفرنسا

والقضـاء على شخصيتـه والحيلولة بينه وبين تحقيق مطالبه واسترجاع استقلاله

لذلك قرر المجلس الاعلى للحزب :

١ ـ أن ينبـه الـرأى العام المغربى الى أن الاصلاح الذى يحقق التطور المنشود لا يتيسـر الا على يد حكومة مغربية حرة تتمتع برضى الملك وثقته، وتستمد قوتها من الشعب بواسطة مجلس يمثله حق التمثيل وأن يوجه النظر الى ما فى السياسة الفرنسية الحالية من مناورات وتضليل يقصد به صد المغرب عن السير فى الطريق الرشيدة التى سنها صاحب الجلالة لشعبه الوفى فى خطبه وتصريحاته فى كل مناسبة، ولا يخفى أن الانخداع بهذه السياسة يعتبر بمثابة انتحار وقضاء مبرم على وجودنا كأمة

٢ ـ كمـا استنكر المجلس ما تسير عليه الادارة الفرنسية من خنق للحريـات العامـة وعدم الاعتراف بالحقوق النقابية للعملة المغاربة والتضييـق بهـم وتشديد الرقابة على الصحف المغربية، ووضع عراقيل جديـدة للتجـول والسفر داخـل المغرب وخارجه، والتحريض المستمر باظهار القوة فى كـل مناسبة، واستفـزاز العواطـف بتصريحـات عنيفة لا موجب لها ازاء شعب اعزل يدافع عن حقه فى الحياة بالطرق المشروعة.

٣ ـ كما قرر المجلس أن يحتج الحزب بشدة على سلوك الحكومة الفرنسية سياسـة تتجاهـل ارادة الشعب المغربى ومطامحه، ولا تساير التطور العالمـى، ولا تحتـرم المواثيق الدولية التى شاركت فرنسا فى وضعهـا بتطبيقها، ويعتبر ان تلك السياسة التى تناقض وضعية المغرب الدولية تخالف حتى نظام الحماية المتلاشى الذى تدعى الحكومة الفرنسية التشبث به، مع أنـه لا يسمح لهـذه الحكومة أن تسعى ـ بدعوى ادخال اصلاحات على المغرب ـ فى أسباب القضاء على جوهر السيادة المغربية وكيان الدولة الشريفة بعد ان التزمت باحترامها

وقـد احتج المجـلس الاعلى على ما فى تصريحات ممثل الحكومة الفرنسية بالمغرب من مس بكرامة جلالة الملك المحبوب واحتقار الشعب المغربـى .

وأعلن المجلس الاعلى باسم الحزب بهذه المناسبة أمام الرأى العام الدولى أن المغرب قطر عربى اسلامى، صمم عزمه الاكيد على نيل كامل حقوقه واستقلاله واسترجاع مكانته بين الدول

* * *

ومن جهة اخرى فان تصريح وزير الخارجية الفرنسية، وحديث رئيس وزارة فرنسا أحدثا فى الرأى العام المغربى قلقا كبيرا؛ اذ أصبح - وفق ما يقتضيه كلام الوزيرين الفرنسيين - المديرون الفرنسيون فى صفوف وزراء الحكومة المغربية ، لذلك توجه وفد من ممثلى الصحف الوطنية للقصر العامر وقدموا لكاتب مولانا الخاص يوم ٢٨ يوليو سنة ١٩٤٧ الرسالة الآتية طالبين منه رفعها لجلالة الملك :

(بعد ما أذيعت ظهائر ٢١ يونيو سنة ١٩٤٧ المتعلقة بتعديل المخزن الشريف نشر وزير الخارجية الفرنسية بلاغا فى الموضوع بتاريخ ٥ يوليو سنة ١٩٤٧، وكذلك رئيس الحكومة الفرنسية مسيو راماديه أدلى بتصريح يتعلق بالتنظيم الجديد، وكل من البلاغ والتصريح لا يتفق مع مقتضيات الظهائر المذكورة فى نصوصها الرسمية ؛ اذ تقضى هذه النصوص التشريعية بأن المندوبين هم ممثلون لسعادة الصدر الاعظم، كما أنه لا يفهم منها أبدا أن المديرين الفرنسيين ارتفعوا لمراتب الوزراء، بينما يقضى بلاغ الخارجية الفرنسية وتصريحات مسيو راماديه على حسب ما نشرته الصحف ان المديرين يعتبرون وزراء حقيقيين، وأما المندوبون فهم مساعدون لهم.

وبما أن هذا التأويل أحدث اهتماما كبيرا فى الرأى العام المغربى ، وتأثيرا عظيما فى نفوس المغاربة، فاننا نرجو من جلالتكم أن تتفضلوا بتوضيح الحقيقة حتى تهدأ الخواطر وتطمئن الافكار.

وللجواب على هذا الطلب أصدرت الكتابة الخاصة بجلالة الملك ، بلاغا مؤرخا فى ٣١ من يوليو سنة ١٩٤٧ جاء فيه ،

(فى مثل هذه الاشياء لا ينبغى الاعتداد الا بالنصوص التشريعية ، وعليه فان منطوق ومفهوم الظهائر المتعلقة بالتعديل الحكومى كاملا الوضوح، وقد اندهشنا نحن أيضا كما اندهش الرأى العام المغربى لشكل التأويل الفرنسى، خصوصا ونحن نعلم أن الوضوح والتمسك بالمنطق من مميزات الفرنسيين

والظهائر الثلاثة لا تترك مجالا لأى تأويل، وأحسن تدقيق نعطيه هو تحليلها فنصوصها تقضى :

١ - بأنه قد زيد فى عدد مندوبى وزيرنا الصدر الاعظم

٢ - بأننا نظمنا اجتماع وزرائنا تحت رئاسة جنابنا كلما رأينا ذلك ضروريا

٣ ـ بأننا نظمنا كذلك اجتماعا شهريا لوزرائنا بالمديرين الفنيين الفرنسيين لمصالحنا الشريفة تحت رئاسة وزيرنا الصدر الاعظم

وعليه فالمديرون الفرنسيون بقوا كما كانوا فى الماضى، موظفين فنيين لحكومتنا الشريفة، ومن تحصيل الحاصل أن نؤكد كون المندوبين انما هم ممثلون لوزيرنا الصدر الاعظم، وليسوا بمعاونين للمديرين الفنيين

فليطمئن شعبنا المخلص وليظل هادئا؛ فنحن متيقظون بعون الله فى حراسة مصالحه، ولن نجد راحة الا فى اليوم الذى يحل فيه شعبنا المكان اللائق به بين الامم، والله الهادى الى سواء السبيل.

مصطاف افران فى ٢١ رمضان سنة ١٣٦٦ الموافق ٣١ يوليو سنة ١٩٤٧

وهكذا وضع صاحب الجلالة حدا للمناورات التى أرادت الديبلوماسية العسكرية الفرنسية أن تجر بها البلاد نحو الغاية التى فشل فيها مسيو لابون من قبل ، وهى تكوين حكومة مشتركة، مع أن الامر لا يزيد على احداث مناصب جديدة، وتجديد للاجتماع الذى كان قد ألغى لمجلس الوزراء أمام جلالة الملك، واجتماع الوزراء بالمديرين الفنيين للاستنارة بآرائهم فيما يعرض داخل الشهر من مشروعات.

على أن هذا الاصلاح البسيط الهزيل نفسه ظل حبرا على ورق ؛ فلم يشترك هؤلاء المندوبون فى أى عمل حقيقى، بل ظلوا كما كانوا من قبل ـ وكما تنبأ به بلاغ حزب الاستقلال ـ كميات مهملة، وظلت السلطة كلها فى يد الولاة الفرنسيين يصرفونها كيف يشاءون ـ ولقد شهد بهذا واحد من هؤلاء المندوبين هو الاستاذ الكبير السيد عبد السلام الفاسى نائب الصدر الاعظم فى المعارف العمومية؛ فقد صرح لمراسل الفيغارو بما يأتى : انه لا قيمة للمنصب الذى أشغله الآن؛ فقد صدرت المراسيم الجديدة بشأن الاصلاح الوزارى، ولكن لم يتخذ بمقتضاها اى اجراء ، فعلينا أن ننتظر ما سوف يحدث فى المستقبل)

ونقول نحن بعد أن مضت سنة كاملة على هذا الاصلاح المزعوم ان (دار لقمان) ما تزال على حالها، وان الحكومة المغربية ما تزال عبارة عن هيئة لا اعتراف لمقرراتها ولا نفوذ لرجالها، فان المدارس التى تأذن مندوبية المعارف بفتحها وتعين لها الأساتذة الاكفاء تكون محل تدابير زجرية تؤدى الى اقفالها من طرف المراقبة الفرنسية، والموظفون الذين تعزلهم الصدارة العظمى تعود الاقامة العامة فتوليهم بالرغم عنها، ومع ذلك

يزعمون ان الجنرال جوان حل بالمغرب ليجدد الحكومة الشريفة ويسير بها نحو تطور عصرى يجعلها من الحكومات الديموقراطية الكبرى .

* * *

أما الاصلاح الثانى الذى عرضه الجنرال جوان لمصادقة جلالة الملك فهو تكوين مجلس شورى مختلط، نصفه من المغاربة ونصفه من الفرنسيين مع اعطاء الفرنسيين حق الانتخاب الحر المباشر، واعطاء المغاربة حق الانتخاب من درجتين

ومن المعلوم أن ما يسمونه بمجلس شورى الحكومة لم تصادق على تأسيسه الحكومة الشريفة قط، وأنه كان يشتمل على ثلاثة أقسام : قسم فرنسى يتركب من مندوبى المصالح العامة ومندوبى الغرف التجارية والفلاحية والصناعية الفرنسية، وقسم ثالث انتخابى تختاره الجالية الفرنسية، وقسم مغربى وكان كله معينا من طرف الحكومة، فالمشروع الاخير يرمى الى تكوين مجلس مشترك نصفه من المغاربة الذين يعينون من طرف الحكومة ومن طرف الغرف التجارية والمختلطة، ونصف من الفرنسيين يعينون بانتخاب مباشر من طرف السكان الفرنسين بالمغرب الاقصى، وهذا هو المشروع الذى سبق أن رفضناه للمقيم العام لابون ، كما سبق أن رفض المصادقة عليه مولانا أيده الله، فلم يكن من المعقول أن ينجح الجنرال جوان فيما فشل فيه من قبله، ولذلك فان سيدنا نصره الله رفض اعطاء الفرنسيين حق الانتخاب، وطالب بأن يعطى هذا الحق للمغاربة، كما رفض المصادقة على مجلس مختلط يجتمع منفردا او مجتمعا؛ لانه لا محل لتدخل الجالية الفرنسية فى شؤون المغرب الداخلية

وقد أرادت الأوساط الفرنسية استغلال معارضة جلالته لمشروع الاقامة العامة كى تتهمه بعدم رغبة جلالته فى السير بالبلاد نحو الاتجاه الديموقراطى، فأذاعت الصحف الفرنسية أن جلالته يعارض فى اعطاء المغاربة حق الانتخاب، وازاء ذلك أذاعت الكتابة الخاصة لجلالته البلاغ الآتى:

(ان جلالة الملك اندهش كثيرا حينما قرأ فى صحيفة «لا فيجى ماروكان» الصادرة يوم ٢٤ سبتمبر التعليق الذى علقت به هذه الجريدة على بلاغ الاقامة العامة، فقد صرح المعلق بأن جلالة الملك يعارض فى اعطاء حق الانتخاب للمغاربة، وذلك ما يخالف الحقيقة، ان جلالة الملك بعيد عن أن يرفض حق التصويت لرعيته المخلصة، بل ان جلالته ما فتىء يطالب باعطاء شعبه هذا الحق، ولكن فى الدائرة التى تضمن كامل المساواة بينهم .

وجلالته يعلق أهمية كبيرة على أن تكون درجة الانتخاب عند المغاربة مماثلة بكل معانى الكلمة للانتخابات التى تقع عند الشعوب الحرة)

واذن فجلالته انما يعارض فى أن يبقى المغاربة غير متمتعين بالانتخاب فى كامل درجاته، والاقامة العامة هى التى تأبى أن يحصل المغاربة على هذا الحق الذى يجعلهم يسيطرون بأنفسهم على مراقبة أعمال الدولة وشؤونها

وقد رفضت مصلحة الرقابة التابعة للاقامة العامة أن تترك البلاغ الملكى السابق ينشر او يذاع، فتولى مكتب الاستعلامات والدعاية التابع لحزب الاستقلال بباريس اذاعة البلاغ الشريف وتوزيعه على سائر الوكالات الاجنبية

وكل ما وقع بعد هذا الصراع أن مشروع الاقامة العامة قد طوى او أرجىء على الاقل، بينما صدر ظهير شريف بتنظيم غرف مغربية تجارية وصناعية وفلاحية مستقلة عن الغرف الفرنسية يكون اعضاؤها منتخبين

وقد حملت السلطات الفرنسية بعد صدور هذا الظهير على (حزب الاستقلال) وسلطت عليه الاذاعة الرباطية التى هى تحت الرقابة الفرنسية ولكن ذلك لم يثن الحزب عن طريقه، وكان موقفه حكيما جدا وذكيا جدا ، فقد أعرض عن الاعتداد بكل اصلاح للمقيمين، وأبى أن يدخل رسميا فى انتخابات الغرف المغربية الجديدة، ولكنه سمح لانصاره بأن يرشحوا أنفسهم على مبادئه، وعلى الرغم من أن الادارة الفرنسية حرمت بتدخلها من حق الانتخاب أغلبية التجار والصناع والفلاحين واستعملت وسائل الضغط والاغراء وسائر أنواع الحيل والتدليس لابعاد من لا يتفق وأنظارها، فان ثمانية وتسعين فى المائة من المصوتين أعطوا صوتهم للمرشحين على مبادىء الحزب وعقيدته، وهكذا انذهل الفرنسيون من تأييد الامة كلها لهذا الحزب العتيد

ولقد بدأت الغرف المغربية الجديدة نشاطها بالمطالبة برفع الحجز التجارى وحرية الايراد والاصدار، وافتتحت مكاتبها فى كل الجهات ، وشجعت المنتخبين الاهالى بتكوين المعارض ، وكان موقف ممثليها فيما يسميه الفرنسيين بمجلس شورى الحكومة موقفا مشرفا أعرب عن قيمة النخبة من أنصار الاستقلال ورجاله الذين يعرفون كيف يواجهون المسائل ويعالجون المشاكل، وقد كانت التقارير التى قدمها الاستاذ محمد الزغارى واحمد اليزيدى ومحمد العراقى وعمر السبتى ومحمد الاغزاوى وغيرهم مثالا يحتذى فى الدقة وحسن التقدير للاشياء وقد صرح الملاحظون بأن

ممثلينا لم يكونوا يهتمون بنقد الجزئيات او اقتراحها، وانما كانوا يهتمون بتقعيد قواعد ومبادىء للادارة المغربية وسياستها المالية والاقتصادية والثقافية تختلف كامل الاختلاف مع قواعد السياسة الاهلية التى تتبعها الحماية الفرنسية

ولقد اخبرنى مندوب الحزب المحلى بفرنسا الاستاذ عبد الرحيم بوعبيد أن صديقنا المسيو دوبيريتى بلغه رسميا تنويه رئيس الجمهورية الفرنسية، واعجابه بالمقررين المغاربة وتهنئته لحزب الاستقلال ورجاله ومن المعلوم ان رئيس الجمهورية الفرنسية المسيو فانسان اوريول من رجال فرنسا الاحرار الذين يقدرون الجهود الانسانية قدرها، ولذلك فاننا لا نرى فى تهنئته الا دليلا على حاسة العدل واحترامها فى نفسه

* * *

ومن الاصلاحات التى عرضها الجنرال جوان على جلالة الملك، تنظيم المجالس البلدية المغربية على أساس البلديات المختلطة، وقد أمر سيدنا بتشكيل لجنة مغربية لدراسة المشروع، وقد علمنا من بعض الجهات المطلعة أن هذه اللجنة رفضت مبدأ الاختلاط بل حتى مبدأ اعطاء الفرنسيين حق تأسيس مجالس بلدية بمراكش ، او الانخراط بصفة ما فى المجالس البلدية المغربية ، كما انها وضعت الاسس الصالحة للبلديات المغربية على غرار البلديات ومجالسها فى الامم الديموقراطية .

واما فكرة اللامركزية الادارية التى ارادها المسيو لابون واشاد بها الجنرال جوان فى خطبه،والتى كتبنا فى معارضتها عدة مقالات فى الصحف العربية بمصر ، ورأينا فيها شكل اقطاعية جديدة يريد ممثل فرنسا تدشينها، فيظهر انها دخلت فى خبر كان؛ اذ أصبحت تصريحات الجنرال حولها تضعف مرة بعد أخرى

والخلاصة أن الجزئيات التى تعرض اليوم من طرف الاقامة العامة لا تواجهها الحكومة الشريفة ولجانها الفنية ، ولا ينظر اليها الشعب المغربى ورجال حركته الا من جهة صلتها بالتحرر القومى، أى أن المقياس الذى تقاس به هو مقدار ما تؤديه للاستقلال المغربى من خدمة، ومقدار ما تستخلصه من يد الاجنبى من حق، ثم هى بعد ذلك شىء لا يرضى المغاربة ما دام لم يسبقه اعتراف باستقلال المغرب الاقصى وحرية أبنائه

فشل الجنرال جوان امام جلالة الملك

لم يفتأ الجنرال جوان منذ قدومه للمغرب ينذر فى خطبه وتصريحاته باهلاك الدنيا اذا لم يصل لتحقيق مشروعاته، ولكن الشعب أثبت له تضامنه فى مقاومة الطغيان، وجلالة الملك استمر فى معارضة ما لا يتفق ومصلحة البلاد من اقتراحاته، وطبيعى ان يزداد غضبا كلما ازداد فشلا، وأن يحاول استعمال القوة كلما لم يجد قبولا ولا اذعانا، وقد هاجه ما رآه من التفات الامة حول جلالة الملك وولى عهده الكريم، وراعه ما تلاقيه الاسرة الكريمة من استقبال الشعب وتمجيده كلما برزت للبيان، وأغضبه ما يدوى به الفضاء فى كل المناسبات من هتاف للاستقلال ونداء للحرية، ورأى فى كل ذلك مساسا بكرامته وبكرامة الدولة الحامية، وان كان فى الحقيقة لا يرمى لاكثر من التعبير عن شعور الشعب وعواطف الجمهور ، ولقد عرض الجنرال على جلالة الملك توقيع ظهير أعدته الاقامة العامة يحظر على الشعب أن يهتف بالحرية والاستقلال أمام جلالة الملك او فى الحفلات التى يشرفها ولى العهد، وكان هذا العرض بمناسبة عزم سيدنا على تدشين مجموعة مدارس مراكش، وافتتاح مجموعة مدارس محمد الخامس بالرباط، وقد كان جواب صاحب الجلالة بالطبع الرفض البات للاقتراح والتأكيد لحق المراكشيين فى أن يهتفوا للحرية وينادوا بالاستقلال ولما حاول الجنرال جوان مراجعة جلالته فى الموضوع تركه جلالته منفردا فى ردهة الاستقبال، فاحتد المقيم العام وأمر بمنع ولى العهد من المشاركة فى الحفلات العامة

وكانت هذه المشادة قبل عيد العرش الماضى (أى فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٤٧) ، ولما حل عيد العرش ألقى مولانا أيده الله خطابه التقليدى فأكد فيه تصريحاته السابقة بمدينة طنجة، وكان من ضمن فقراته ما يأتى: (ولم نعد الخطة التى اصطفيناها لانفسنا فى خدمة بلادنا، والسعى وراء مصلحة شعبنا، والاخلاص لمبدإ الاسلام الديموقراطى، وبذل كل مواهبنا حتى ينال رعايانا المخلصون ما يحق لهم جميعا من أن يكونوا أمة حرة تتمتع بكل حقوقها الشرعية وتحظى كأمة عربية مسلمة فى وحدتها وسيادتها تتربع مكانها الذى تستحقه بين كل الدول الحرة المتمتعة بكل

ما يجب لها من حقوق) فاعتبر الجنرال جوان هذه الفقرات ماسة بحقوق فرنسا في مراكش، وهي في الحقيقة جواب لتأكيدات الجنرال جوان في خطبه: أن مستقبل المغرب الاقصى هو في دائرة الدول الغربية، فبعث المقيم العام لجلالة الملك رسالة احتجاج وتعويض أجابه عنها جلالته بما هال الجنرال وأيقن أن سياسته الارهابية لم تجد شيئا ،

ولكن هذا الفشل المتوالي لم يمنع الجنرال جوان من الاستمرار في تنفيذ خطته المبنية على التحدي، وتناسى سلطات الملك الشرعية، فأخذ يعين بعض الحكام من غير رجوع لجلالته، ثم أحدث مناصب سماها (خلفاء القمع) وهي عبارة عن وكلاء لحكام المدن في كل من الدار البيضاء ومراكش وفاس والرباط يعينون من بعض أذناب الفرنسيين، وبجانب كل واحد منهم ضابط فرنسي للقيام بقمع الحركة الوطنية والتجسس على أفراد الشعب .

وبما أن إحداث مناصب في الادارة المغربية لا يمكن أن يقع الا بمقتضى تشريع رسمي يقدمه رئيس الوزارة (الصدر الاعظم) بصفته وزيرا للداخلية، ويصادق عليه جلالة الملك، وبما أن المقيم العام تجاوز حدود وظيفته حتى في دائرة الحماية فقد أبت وزارة الداخلية الاعتراف بهذه المناصب، وأبى جلالته قبول الامر الواقع، فبعث رئيس الوزراء رسالة احتجاج واستنكار للمقيم العام

وحيث ان الاقامة العامة تجاهلت هذا الاحتجاج فقد بعث جلالته رسالة شديدة اللهجة الى رئيس الجمهورية الفرنسية يعتبرها المطلعون نقطا ديبلوماسية استعرض فيها جلالته جميع تصرفات الجنرال جوان التي لا تتفق حتى مع مقتضيات الحماية ونصوصها، وقد تعرض جلالته فيها لحق مراكش في استقلالها وحق الشعب المراكشي في المطالبة به كسائر شعوب الدنيا

وقد حاولت وزارة الخارجية الفرنسية أن تكتم نبأ اشتداد الازمة بين القصر الملكي والاقامة العامة، وعمدت الى خلق جو الحديث عن التفاوض بين فرنسا ومراكش، واذاعة شؤون تتعلق بمسجد باريس والمستشفى المتصل به، وازاء ذلك فضح مكتب الدعاية والنشر لحزب الاستقلال بباريس خبر الازمة والرسالة الملكية، فأذاعته لاول مرة (باري بريس) و (فران تيرور) ووكالة الانباء الفرنسية، ونقلته عنها سائر الصحف الفرنسية والبلجيكية والسويسرية والانجليزية، فاضطرت وزارة الخارجية الفرنسية للاعتراف بالرسالة ومحاولة التقليل من أهمية الحوادث

وقد استطاع مراسل (بارى بريس) أن يأخذ من الجنرال جوان تصريحا يعترف فيه بأنه «ازاء المظاهرات الشعبية التى يقوم بها الوطنيون المراكشيون هاتفين بالحرية والاستقلال، وازاء رفض الملك المصادقة على اقتراح بمنع هذه المظاهرات اضطر المقيم ان يمنع الملك والامراء من الظهور فى الحفلات حتى لا يجد الشعب سبيلا لاظهار عواطفه العدائية نحو الحماية

وقد اعتبرت وزارة الخارجية الفرنسية هذا التصريح توريطا من المقيم العام لها فى سياسة عدائية نحو المغرب الاقصى؛ لانه يعترف بارتكاب ما يعتبر تجرؤا على مقام العرش وعاهله الكبير ، فكلفت المقيم العام بتكذيب الحادث ، وقد صدر التكذيب وتناقلته صحف فرنسا فى شىء من الهزء والسخرية .

وبينما الحكومة الفرنسية تبحث فى وسائل حل هذه الازمة اذا بالاقامة العامة تواصل أساليبها العدائية نحو جلالة الملك ، ولكنها فى هذه المرة تقنعت بقناع الخائف المهزوم فأخذت توزع منشورات ممضاة بحزب الله أو حزب الاخوان المسلمين تهاجم فيها الملك واسرته وولى العهد والاميرة عائشة ، فثارت ثائرة الجمهور وأخذ يهتف بسقوط الجنرال جوان والحماية الفرنسية ، وكادت القضية تتطور الى مناورات عسكرية لولا دعوة جلالة الملك الشعب الى الهدوء .

وقد استطاع احد كبار الموظفين بالحكومة المغربية ان يهتدى لمعرفة الخط الذى كتبت به المنشورات حيث تبين له انه خط شخص يسمى محمد فرفره – وهو موظف قديم بالاقامة العامة الفرنسية ، وسبق ان كان كاتبا للمرشال ليوطى ، وهو اليوم ملحق بالسكرتارية السياسية للمقيم العام – وقد عرض مكتشف الخط الامر على المحكمة العليا المغربية ، فاستدعى رئيسها المتهم وتولى استنطاقه بنفسه (لان النيابة فى يد الشرطة الفرنسية) ، وبعد ان انكر المتهم عاد فاعترف بأنه هو الذى تولى نسخ المنشورات، كما اعترف بان الذى كتب النص الأصلى هو الضابط الفرنسى دوساز أحد موظفى الشؤون السياسية ، وقد اعترف فرفره بان سيارة من الاقامة العامة كانت تتولى نقله ليلا لادارة الشؤون السياسية حيث ينسخ المنشورات مقابل مبلغ مالى هام، وبعد ان اعترف امام رئيس المحكمة العليا عرض أمام قاض شرعى وشاهدين رسميين فاكد اعترافه السابق وصرح بأنه يدلى بذلك اختيارا ودون ان يكون عليه اى ضغط

وبمجرد ما علم المستشار الفرنسى بهذ التصريحات التى تعتبر حجة على الاقامة العامة تدخل فى الموضوع، وطلب ان تحال القضية على المحكمة الابتدائية بدعوى الرغبة فى ان تجرى القضية مجراها الطبيعى ، فأحيلت بناء على ذلك الى محكمة مدينة الرباط حيث اعيد استنطاق المتهم بمحضر قاض جديد وشاهدين رسميين والمندوب الحكومى الفرنسى ، فكرر المتهم نفس الاعترافات وسجل كلامه وامضاه ، كما أمضاه معه كل الحاضرين ومن ضمنهم المندوب الفرنسى

وازاء الحقيقة التى لم يجد المندوب الفرنسى عن امضائها مجيدا ثارت أعصابه وأخذ يدافع عن المتهم بأنه مصاب بالجنون، محاولا بذلك اخراجه من السجن الذى زجته فيه المحكمة المراكشية بدعوى عرضه على الاطباء ، ولكن رئيس المحكمة العليا أمر باقفال السجن واحتفظ بالمفتاح فذهب المندوب الفرنسى وكسر باب السجن وأخرج المتهم، وعند ما بلغ الخبر جلالة الملك بعث فى الحين طبيبه الخاص ليتولى هو وطبيب المحكمة فحص المتهم، وبعض فحصه شهد الطبيبان بتمتعه بكامل قواه العقلية فأعيد الى السجن، ثم ادعت الاقامة العامة ان امره يجب ان يرجع للمحاكمة الفرنسية، وأخيرا أطلقت سراحه بعد ما عزلت الكولونيل لوكونت السكرتير العام للشؤون السياسية الذى كان المدير الاول لحركة هذه المناشير، ولا يزال القصر متمسكا برأيه فى الموضوع

وأيا ما كانت النتيجة فان الفشل الذى صحب سياسة الجنرال جوان فى جميع مظاهرها لم يتقدم له مثيل فى تاريخ الحماية الفرنسية بالمغرب

فشل آخر للجنرال جوان

أشرنا سابقا الى المحاولات العديدة التى قام بها الجنرال جوان لبعث رؤوس الفتنة من رجال الطرق من أوكارهم، وأوضحنا فشله فى هذا الباب، ثم عرجنا على بعض المنشورات التى كانت تذيعها السكرتارية السياسية للحماية باسم (حزب الوحدة الاسلامية) الذى لا وجود له، وقد كان ذلك بمثابة مراحل يبحث فيها الجنرال عن فئة من المغاربة تتعاون معه أو يموه بالاتصال بها على الحكومة الفرنسية والرأى العام الاجنبى موهما أن هنالك قسما من المغاربة لا يوافق (حزب الاستقلال) على خطته، ولا يساير جلالة الملك فى سياسته.

وقد كانت سياسة حزبنا هى عدم الاتصال بالجنرال برغم ما حاوله مع اللجنة التنفيذية صديقنا مسيو دوبيريتى، وذلك لا لأن اخواننا يرفضون الاتصال من أصله، ولكن لان الجو الذى خلقته سياسة الجنرال جوان ليس من شأنه أن يساعد على التواصل، وأحرى التفاهم فى أى موضوع يعود بالنفع على البلاد

لذلك وجه الجنرال وجهته نحو بعض من ظن فيهم الاعتدال ان حقا وان باطلا، فاتصل فى الصيف الماضى الكولونيل لوكونت (الذى تولى كبر المناشير الاثيمة وعزلته الاقامة لذلك) بممثل المعتدلين، وعلى مائدة الشاى جرت محادثة بين الفريقين أدت الى مقابلة ثانية بمكتب الشؤون السياسية (هذه الادارة التى قاطعها الوطنيون منذ حوادث مكناس عام ١٩٣٧) ، وكانت المقابلة الثانية تضم زعماء هذه الكتلة المعتدلة ، وانتهت المباحثات الى تحديد المبادىء ، ويقول الجنرال فى بعض تصريحاته بباريس ان القوم قدموا له مذكرة فطلب منهم ان يعرضوها أولا على جلالة الملك لانه هو الذى يمكنه ان يقول للجنرال أريد كذا وكذا ، فيعرضه على الحكومة الفرنسية ، وهى التى تتحمل مسؤولية القبول أو الرفض !

وقد ظلت هذه المذكرة سرا مكتوما بنصها الرسمى الى اليوم، ولكن نشرت منها فقرات بالقاهرة لم تنشر بالمغرب،ونشر بالمغرب ما لم ينشر بالقاهرة ولذلك ظلت لحد الساعة غيبا لا نستطيع الحكم عليه باطلاق

وقد قرر المجلس الاعلى للحزب عدم التعرض لهذه المذكرة ، ولا مقابلة الشتائم التى يذيعها اصحابها فى الحزب بالمثل ، ولكن متى نشر شىء منها يحكم الحزب بما يراه موافقا للصالح العام .

والذى يستخلص مما نشرته صحيفة البلاغ المصرية الغراء هو ان الصورة التى وافق عليها (فيما يزعم الكاتب) المقيم العام وظفرت بتأييد الملك تتلخص فى النقط الآتية :

١ ـ استراجاع السيادة المغربية وتطبيقها تطبيقا تاما ، وتحقيق استقلال الوطن ضمن نطاق وحدته الترابية والسياسية وفى دائرة ملكية دستورية .

٢ ـ الاتجاه بالمغرب فى مرحلة انتقالية تسمح له بأن ينظم شؤونه تنظيما حرا وباسرع الطرق نحو مستقبله ومصيره الحر ، أى نحو سيادته التامة واستقلاله المضمون بمعاهدة تحالف وصداقة تبرم طوعا واختيارا.

وينص المشروع على ضرورة تهيئة جو سالم من التوتر فى مرحلة الانتقال يتيح للمغاربة تقدما حقيقيا فى الميادين السياسية والمادية والمعنوية ليتجه المغرب بحزم وفى اقرب وقت ممكن نحو رشده السياسى وحرية تقرير مصيره ، ولتحقيق هذا الجو يؤخذ بالوسائل الآتية :

١ ـ تعلن فرنسا رسميا حق الشعب المغربى فى تدبير شؤونه فى أقرب وقت، وتعتبر مصالح المغاربة ذات اسبقية فى بلادهم مع الصيانة التامة لسيادة البلاد واستقلالها الحقيقى .

٢ ـ تلغى جميع التدابير الجائرة والتشريعات الاستثنائية .

٣ ـ اصدار عفو عام على المغاربة الذين نالتهم اضطهادات سياسية فى الماضى ويكون النظام الأساسى فى مرحلة الانتقال على الوجه الآتى:

١ ـ تتألف حكومة مغربية ذات صفة مؤقتة ومسؤولية مقررة وتصرف حر ، وتستمد سلطتها من ثقة الشعب وتأييد الملك لتضطلع بقيادة البلاد عن طريق الدستور نحو مصيره الجديد كوطن حر مستقل مع العناية باصلاح الكيان الاجتماعى وتنظيم نظا م التعاون العصرى بين العمال والفلاحين ، كما تعنى باعداد الرجال الفنيين المغاربة للاضطلاع بمرافق البلاد العليا فى المستقبل .

٢ ـ يلغى نظام الحماية المفروض على البلاد فى مارس سنة ١٩١٢ ويستعاض عنه بالتفاوق مؤقت محدود الاجل على ما روى البلاغ ، والى أمد غير محدود على ما رواه مراسل الابسيرفور ، تبرم بعده معاهدة بين

فرنسا والمغرب ، ويمكن ابرام تلك المعاهدة الى ان تستوفى الشروط السابقة باعداد وتنصيب الهيئات الشرعية المشرفة على تدبير الشؤون العامة للأمة (كذا).

ويشير المشروع الى ان الاتفاق المؤقت المشار اليه فى الفقرة السابقة يجب ان يحتوى على بنود تكفل تنسيق العلاقات الفرنسية المغربية ريثما يتم ابرام المعاهدة المرتقبة .

٣ ـ يعهد الى مجلس وطنى يمثل الرأى العام المغربى بوضع دستور يصبح فى دائرة ملكية ديموقراطية القانون الاساسى للمغرب المتمتع بحريته واستقلاله ، ويتولى الدستور المغربى الجديد تنظيم السلطات وفصل بعضها عن بعض وتحقيق المساواة بين المغاربة والحريات .

٤ ـ يلغى نظام المناطق العسكرية المعروفة بالمناطق غير الآمنة.

٥ ـ تنظيم الجيش الوطنى والشرطة المغربية على اساس استقلالهما .

* * *

ذلك هو ما نشر عن المشروع الذى قدمه المعتدلون للجنرال جوان. والذى بلغنا من جهة متعددة أنه يشتمل على اشياء أقبح مما نشر ، خصوصا فى مقدمته التى تعترف لفرنسا بمهمتها التمدينية،وبان المغرب لم يصل الى الدرجة التى تخوله حق الاستقلال الناجز.

وقد تولت الدعاية الفرنسية الترويج لهذا المشروع فى القاهرة فى الوقت الذى رفع فيه سيدنا نصره الله رسالة الشكوى بالجنرال لفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية وفى الوقت الذى أسفرت فيه انتخابات الغرف المغربية عن اعطاء ثمانية وتسعين فى المائة من المصوتين اصواتهم للمترشحين على مبادىء حزب الاستقلال ، فاضطرنا لوضع الشىء فى نصابه ، وكتبنا عدة مقالات يتلخص معناها فيما يحتوى عليه هذا التصريح الذى ادليت به لمراسل مكتب المغرب العربى بالقاهرة واذاعته نشرته الخاصة .

« ان ما تلوح به الدبلوماسية الفرنسية من عزمها على اعلان استقلال مراكش وسائر اقطار المغرب انما هو من باب ذر الرماد فى العيون ، ولا يعقل ان تكون فرنسا فى الوقت الذى تعطل المجلس الكبير بتونس لمجرد احتجاج يرجع لماهية الموظفين ، وتفرض على الصحافة المراكشية هذه الرقابة الخانقة ، وتقوم فى سائر المغرب العربى

بالاعتقالات المتعددة لاسباب بسيطة عازمة على شيء غير الاضطهاد وخنق الحريات .

اما المشروع الذى يقال انه نتج عن مفاوضات جرت بين الجنرال جوان وبعض الوطنيين المراكشيين فانه لم يعلن الى الآن بصفة رسمية، كما لم يعلن احد من هؤلاء الوطنيين أنه راض عما نشرته عنه بعض الصحف، وقد قضينا السنة الماضية كلها فى مداولات مع الاقامة العامة انتهينا منها الى الاقتناع بأن المشروعات الفرنسية لا ترمى أبدا للاستقلال الذى ننشده، وانما تريد الاستعاضة عن الحماية بما هو أعمق منها فى الاستعمار وفقد الذاتية، وقد تعودنا من الفرنسيين أن يسموا الاشياء بغير اسمائها، وذلك ما جعلنى أنتقل فجأة من باريس لمصر حيث دخلت بذلك حركة الحزب فى عهد المقاومة التى لا تعرف هوادة ولا تدخل فى مفاوضة قبل اعلان الاستقلال

ويدعى المروجون لهذا المشروع انه اتفق عليه بين الجنرال جوان وجلالة الملك، ولقد سار الجنرال جوان على نفس السياسة التى اتبعها المسيو لابون سلفه على ما بينهما من فرق، وكان أسلوب المسيو لابون أن يعلن فى فرنسا وفى مختلف الجهات أنه على كامل الاتفاق مع جلالة الملك، وهو يقصد من ذلك اقناع الرأى العام الفرنسى والعالمى بنجاحه فى مهمته وكان من جملة اعمال الوفد الاول لحزب الاستقلال فى فرنسا فضح الحقيقة واظهار مدى الخلاف الموجود بين العرش ودار الاقامة ، الامر الذى أدى لاقالة المسيو لابون، ومن الطبيعى أن الجنرال جوان لا يمكن ان يدعى موافقة ملك البلاد على ما يقوم به من اضطهاد ، فكان لزاما أن يخلق لذلك جوا جديدا يتصل فيه ببعض الوطنيين، ثم يدعى موافقة جلالته على نتائج اتصالاته، والذى نعلمه بصفة أكيدة هو أن الخلاف على أشده بين جلالة الملك وبين الجنرال جوان، حتى ان جلالته اضطر الى ارسال احتجاج قوى على تصرفات الجنرال جوان التى لا تمثل الا الجور والطغيان

أما رأينا فى المشروع نفسه فان ما نشر عنه فى الصحف يكفى للحكم برفضه اذ أنه يخرج بالقضية المراكشية (فيما يسمونه بفترة الانتقال) من الوضعية الدولية الى وضعية ثنائية تجعلنا فى دائرة النفوذ الفرنسى شكلا وموضوعا، ووجود نوع من الحكم الذاتى فى هذه الفترة لا قيمة له مع استمرار الحجر على سيادتنا الخارجية، ومع منح فرنسا المقام الاول فيما يرجع للشؤون الداخلية، هذا علاوة على أنه لن يكون

هناك ضمان لاستقلالنا بصفة دولية؛لان الوقت وقت انتقال واقع برضى منا واتفاق بيننا وبين فرنسا، ومعنى هذا أن الفرنسيين يريدون أن يتحرروا مما تفرضه عليهم وضعية مراكش الدولية، فيخرجوا بالبلاد من حظيرة الاتفاقات الدولية الى حظيرة العلاقات الاقليمية

ان هناك نادرة قديمة، ولكنها لم تبل بعد؛ فقد كان السفير جايار والوزير ابن غبريط يتفاوضان مع المولى عبد الحفيظ فى شأن معاهدة الحماية، ولما رأى جايار اصرار جلالته على الرفض وتخوفه من الاحتلال قال له السفير الفرنسى : «لتعلم جلالتكم أن وجود الجيوش الفرنسية فى المغرب لن يقع الا لامد موقت» فابتسم المولى عبد الحفيظ وقال له : «ان الله سبحانه وتعالى خلق هذه الدنيا كلها بصفة مؤقتة، ومع ذلك فهى ما تزال قائمة» وقديما قال بلزاك ان المؤقت عند الفرنسيين دائم أبدى !

والحقيقة بعد هذا هى أن بلادنا ما تزال ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسى والاسبانى والدولى، وأن الضغط الاستعمارى فيها قد بلغ مداه فى هذه الايام؛ فقد اعتقل بمناسبة عيد العرش مئات من الوطنيين الاحرار واشتدت الرقابة على الصحف، حتى ادت الى احتجاب جريدة «رأى الشعب» لسان حال (حزب الاستقلال)، وتجرأ الجنرال جوان على ان يصدر قرارات مقيمية وينفذها دون أن يرجع الى رئيس الدولة الاعلى وهو جلالة الملك، كما تقضى بذلك قواعد التشريع فى مراكش، وقد أوقفت السلطة كل الحكام المغاربة الذين امتثلوا اوامر ملكهم، واضطهدت كل المدارس الحرة حتى أقفل بعضها لا لشىء غير أن تلامذتها لم ينقلوا لتحية الجنرال جوان أثناء مروره بالمدينة

وتعمل الاقامة العامة فوق هذا وذاك كل ما فى جهدها لبعث المشعوذين وأدعياء الطرق من مرقدهم، وهى لا ترمى بذلك ولا باتصالاتها ببعض الوطنيين الا لان تحدث فى الامة صفوفا متضاربة تستفيد منها كما استفادت أمدا طويلا مما أحدثته من مناورات فى البلاد السورية

ولذلك فان خير الوسائل هو الاعتصام بالصبر فى ميدان الكفاح والدعوة للاتحاد الكامل ورفض كل ما من شأنه أن يمس بكرامة الحركة المغربية أو ينال من قوة المقاومة، وأخيرا فليس لنا الحق فى ألا نكون عقلاء ، ونرضى بالاستقلال الكامل الناجز بديلا

وبعد اذاعة هذا البيان على الصحف أذاع مكتب الحزب بباريس نبأ الرسالة الملكية التى كتمتها الخارجية الفرنسية، فتبين بها مدى

الخلاف الجارى بين مولانا المؤيد بالله وبين الجنرال جوان، وتم فى الوقت نفسه تأسيس (لجنة تحرير المغرب العربى) على أساس ألا مفاوضة قبل اعلان الاستقلال، وقد كتب كثير من رجال الفكر المصرى يحذرون المغاربة من الانخداع بالاساليب الاستعمارية، ونشر صديقنا الاستاذ الكبير محمود محمد شاكر مقالا ضافيا فى مجلة الرسالة الغراء بعنوان (لا تملوا) كله نصح وارشاد فى الموضوع

ونحن لا نريد أن نتعرض للاشخاص ولا للاحزاب فى موضوع شائك مثل هذا، وانما مهمتنا التاريخية تقضى علينا بأن لا نغفل هذا اللون من الصراع الذى قام به الحزب وانتهى بفشل الجنرال جوان فى محاولته تكوين قوة مقاومة لمبادئنا وخططنا، ولذلك فلن نجد مندوحة عن ان نختم هذا الفصل بنقل الرسالة التى وجهها المجلس الاعلى للحزب الى سائر فروع الحزب فى اوائل يناير سنة ١٩٤٨ لتوضيح ما فى المشروع من نقص،وهى وثيقة تاريخية تدل على مقدار تمسك حزبنا بمبادئه وكفاحه من أجلها :

« كنا كتبنا لكم بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٧ بشأن مذكرة المعتدلين التى قدموها فى ذلك التاريخ ونبهناكم :

١ – الى ما بلغ علمنا عن مضمونها وفصولها.

٢ – الى رأى الحزب فيها.

٤ – الى موقف الحزب منها.

وكنا وعدناكم بأننا عند ما نتصل بتفاصيل أخرى عنها نخبركم بها

والآن وقد نشروا نتفا منها فى صحف الشرق وفى جريدتهم نفسها، وأقاموا حول ذلك دعاية واسعة النطاق وجب ان نعود للموضوع مرة ثانية بقصد التذكير والتنبيه

فأما موقف الحزب منها فهو موقفه السابق الذى كان قرره المجلس الاعلى، وهو عدم الدخول مع اصحابها فى جدال صحافى، وأن لا ندخل معهم فى السباب والشتائم بحال، ولكن عند ما ينشرون مذكرتهم يضطر الحزب الى اعلان موقفه منها رسميا، وحيث ان المذكرة لم تنشر لحد الآن فالحزب لا يزال عند قراره الاول ولا يرى موجبا لاتخاذ موقف؛ لان ما نشر انما هو نتف او منتخبات من هنا وهناك، والحزب كما تعلمون من عادته عدم التسرع فى الاحكام واتخاذ المواقف

وأما ما بلغنا عن مضمون المذكرة فان ما نشر الآن عنها يؤيد ذلك ويؤكده على خلاف قليل بين ما نشر وبين ما سمعنا، وكلامنا الآن حول

ما نشر عنها، فانه ولا شك أصح، وان كان فى المنشور منها اختلاف واضح بين ما جاء فى جريدة الرأى العام وبين ما جاء فى جريدة البلاغ المصرية ، واما رأى الحزب فيها فها هو ذا بجانب كل فصل منشور من فصولها.

وملخص ذلك أنهم يقترحون :

١ ـ خلق جو سالم من التوتر بأن يعلن رسميا حق الشعب المغربى فى تدبير شؤونه بنفسه، واعتبار مصالح المغاربة ذات أسبقية فى بلادهم والصيانة التامة لسيادة البلاد واستقلالها الخ .

ورأينا فى هذه النقطة هو أن اعلان حق الشعب المغربى فى تدبير شؤونه الخ. ليس له كبير جدوى فى تهيئة الجو وتدبير السياسة بالمغرب كما أنه ليس شيئا جديدا تقترحه المذكرة على فرنسا او تلزمها به، وذلك :

أ) لان هذا الاعلان منصوص عليه فى ميثاق جمعية الامم الذى وافقت عليه فرنسا والتزمت العمل به

ب) ولانه قد صرح به وأعلنه المقيم العام فى خطبه وتصريحاته غير ما مرة، وخصوصا فى مدينة القنيطرة، ولكن أين هى نتائج هذا الاعلان ؟ ان الحالة ما تزال هى هى، او اشد رغم هذا التصريح المذكور.

ج) وأيضا فان اعلان حق الشعب فى الأستقلال ليس هو الاعتراف بالاستقلال المنشود، والبون بينهما شاسع

٢) يقترحون فتح مرحلة انتقالية تمكن المغرب من الخروج من طور الحماية الى طور الاستقلال، وذلك بتأليف حكومة وطنية مغربية ذات صبغة مؤقتة ومسؤولية مقررة تكون مالكة لحرية التصرف بحيث تستطيع أن تؤدى مهمتها عن طريق الدستور الخ.

وراينا ان فى بقاء السلطة التشريعية بيد جلالة الملك ضمانا لحقوق المغرب حتى لا يستطيع أحد ان يعبث بها ، خصوصا وهو حفظه الله يدافع ما امكنه الدفاع ،اما استسلام السلطة من يد جلالته ففيه خطر عظيم على البلاد ؛ لان شأن السلطان عظيم ، ومقامه مكين ، لا يمكن التهجم عليه ، ولا يسهل الوصول اليه بأذى ، بخلاف الحكومة فلو بلغت من الوطنية ما بلغت فمن السهل على الادارة الفرنسية استبدالها فى كل حين بحكومة غيرها، وقد تكون هذه الحكومة الثانية ضعيفة او خائنة .

ولا فرق بين هذا الفصل وبين ما كان أشيع من ان الجنرال جوان طلب من جلالة الملك التنازل عن حق التشريع لدولة الصدر الاعظم، وأما

الاستعاضة عن معاهدة الحماية باتفاق مؤقت محدود الاجل ريثما يتم ابرام معاهدة نهائية تقوم على التحالف والمودة ـ فقبل أن نجيب عنه يجب أن نؤكد فشل معاهدة الحماية وعجزها عن تطور المغرب وانهاضه والسير به فى طريق الرشد والخير، وأن نعلن مرة أخرى عما أصاب الوطن بسببها من ويلات ومحن بسط الحزب القول فيها فى كل مناسبة ثم نقول ان معاهدة الحماية على علاتها مبنية على أساس الاعتراف والتسليم بالمعاهدات الدولية بين المغرب والخارج، وخصوصا معاهدة الجزيرة التى تعترف للمغرب بكيانه واستقلاله وسيادته ووحدة ترابه ، فهى وان حدت من استقلاله وحجرت عليه فى بعض التصرفات تعترف بكيانه وسيادته واستقلاله الداخلى، ولها صبغة دولية ايضا، أما المعاهدة المؤقتة التى يقترحونها فانما تخرج بالقضية المغربية من تلك الوضعية الدولية الى وضعية ثنائية بينه وبين فرنسا، فيصير فى دائرة النفوذ الفرنسى شكلا وموضوعا، ووجود نوع من الحكم الذاتى فى هذه الفترة الانتقالية لا قيمة له مع استمرار الحجر على سيادتنا الخارجية، ومع منح فرنسا المقام الاول فى شؤوننا الداخلية، وهذا علاوة على أنه لن يكون هناك ضمان لاستقلالنا بصفة دولية؛ لان الوقت وقت انتقال واقع برضى منا واتفاق بيننا وبين فرنسا، ومعنى هذا أن الفرنسيين يريدون أن يتحرروا مما تفرضه عليهم وضعية مراكش الدولية فيخرجوا بالبلاد من حظيرة الاتفاقات الدولية الى حظيرة العلاقات الاقليمية، ولذلك يعتبر الحزب أن كل فترة انتقال لا يسبقها اعلان الاستقلال وضمانه لا يمكن أن تعتبر الا أسوأ من نظام الحماية الحاضر

أما ابرام معاهدة التحالف النهائية التى يشيدون بها والتى ستكون فى نظرهم خاتمة هذه المرحلة الانتقالية فان مذكرتهم تقول بالحرف فى شأنها : (ويتم ابرام هذه المعاهدة بتوفر الشروط السالفة الذكر التى تمكن المغرب من اعداد وتنصيب الهيئات الشرعية المشرفة على تدبير الشؤون العامة) ، ومعنى ذلك انها لا تبرم هذه المعاهدة النهائية والتى يعترف لها فقط باستقلال المغرب الا بعد توفر الشروط السابقة الذكر . وما هى هذه الشروط السالفة ؟ لم يسبق (للرأى العام) بيانها، ولكنها ذكرت فى جريدة (البلاغ) المصرية عند الكلام على تأسيس الحكومة الوطنية فذكر فى مهمتها : العناية باصلاح الكيان الاجتماعى وتنظيم التعليم وتعميم نظام التعاون العصرى بين العمال والفلاحين ،

كما تعنى باعداد الفنيين المغاربة للاضطلاع بمرافق البلاد العليا فى المستقبل .

ولا شك أن هذه الشروط هى المشار اليها اذ لم يتقدم غيرها، ولكن هل هذه الشروط فقط هى المذكورة فى المذكرة ؟ أم هناك شروط أخرى أغفلت حتى فى جريدة (البلاغ) ؟ ويفهم مما يأتى أن هذه الشروط ستنفذ تدريجيا، ولا شك أن المهمة التى ستضطلع بها الحكومة الوطنية فى المرحلة الانتقالية وفق المعاهدة المؤقتة هى المهمة التى قصدت اول الامر من معاهدة الحماية بالضبط، ومعاهدة الحماية لم تنفذ ولم تحقق للمغرب فى ظرف ٣٦ سنة كاملة شيئا من أهدافها، فمن الذى يضمن لنا أنه فى هذه المرحلة الثانية وضمن المعاهدة المؤقتة ستنفذ فرنسا شيئا مما تحدثت عنه المذكرة ؟ الحق أن هذا توريط ومجازفة بمصير البلاد فى غير مقابل، فعلى المغرب الغرم، ولفرنسا الغنم

٣ – العهد الى مجلس وطنى بوضع الدستور، وتشرح المذكرة أو (الرأى العام) بعض المسائل الاساسية التى يكلفها الدستور، وقد أغفلت هذه المسائل جريدة (البلاغ) المصرية، لذلك لم ندر هل هى من صلب المذكرة او من تعليق (الرأى العام)، وعلى كل فرأى الحزب فى الدستور واضح بين؛

أما الدستور فى حد ذاته فهو من مطامح (حزب الاستقلال) ومطالبه الاساسية التى تقدم بها الى جلالة الملك فى وثيقته التاريخية يوم ١١ يناير سنة ١٩٤٤ ولكن الدستور فى نظر الحزب تابع للاستقلال يأتى بعده لا قبله؛ لان الدستور مظهر من مظاهر سلطة الامة ورقابتها على حكومتها، وهذا يتنافى مع الاحتلال الاجنبى ولا يتفق مع طبيعته، ومن المعلوم أن هذه المرحلة الانتقالية التى يفصلون برنامج العمل بها بما ذكر، تكون فى دائرة الاحتلال الفرنسى وتحت سلطته، ومن جهة أخرى فان عماد الدستور هو الانتخاب والحرية ، ويكفى ما شاهده الجميع فى هذه الانتخابات التجارية والفلاحية الاخيرة من تلاعب فى الادارة وضغط وتدليس وخروج عن كل قانون، وفى كل جهة من جهات المغرب مثال او أمثلة من ذلك لا ينبغى أن تنسى، أما الحرية فلا نكتفى فى هذا الباب بما يراه ويعرفه كل واحد منا من ارهاق الشعب والضغط على حرياته ، ولكننا نذكر حديثا للجنرال جوان مع مندوب جريدة (بارى برس) الباريسية بتاريخ ١٣ يناير سنة ١٩٤٨ ومما جاء فيه من كلام المقيم : (حيث ان اجتماعات جريئة كالحفلات المدرسية كانت تستغل لاقامة

مهرجانات وطنية بمجرد مشاركة أحد اعضاء عائلة السلطان ، توجهت لهذا الاخير لاطلب منه وضع حد لهذه المظاهرات العدائية لفرنسا، فكان جواب سيدى محمد بن يوسف أنه لا يستطيع منع المغاربة من التعبير عن آرائهم .

ولذلك قررت حذف الباعث لهذه الاضطرابات ومنع العائلة الشريفة من الظهور للجمهور، وعلى هذا القرار احتج الملك فى رسالته لرئيس الدولة الفرنسية مبينا أن ذلك يمس بحرمته، ويطالب بالغاء هذا القرار فى اقرب وقت) .

وقد سبقتنا حركات تحريرية فى بلاد العالم، فما كان هم اصحابها الاول الا الاستقلال، أما الدستور فكان فى نظرهم عملا داخليا يأتى من بعد الاستقلال، وهذه مصر فى مراحل جهادها كانت تطالب بالاستقلال فقط؛ فمصطفى كامل هو صاحب فكرة لا مفاوضة الا من بعد الجلاء ، وكان يطالب لمصر بالدستور ولكن بعد الاستقلال ، وسعد زغلون ورفقاؤه طالبوا بالاستقلال فقط، وعند ما أرادت انجلترا أن تصرفهم عن فكرة الاستقلال الى فكرة الدستور والاصلاحات وأرسلت الى مصر لجنة ملنر المشهورة قاطعها المصريون ورجعت على أعقابها بخفى حنين ، فاضطرت انجلترا ازاء اجماع المصريين على المطالبة بالاستقلال ، ومقاطعة كل اصلاح مهما كان الا فى دائرته الى الاعتراف بهذا الاستقلال وتأسست بعده الحكومة التى عهد اليها بتأسيس الجمعية الوطنية لوضع الدستور وقانون الانتخاب، وبعد سنة أعلن الدستور.

على أن طلب الدستور فى هذه المذكرة قضاء على فكرة الاستقلال، اذ كيف نطلب من الدولة المحتلة وضع دستور نطبقه نحن فى زمن الاستقلال ؟

هذا منطق لا يستقيم !

وتتكلم المذكرة فى النقطة الرابعة على وضع تشريع لمغربة ادارة البلاد بالتدريج ونقل المسؤوليات من يد الفرنسيين الى المغاربة كلما تهيأ الفنيون والاكفاء المغاربة، لكن كم هى المدة التى سيقطعها المغرب فى هذه المرحلة على هذه الصورة ليصل الى الاستقلال ؟ يكفى أن نعرف أن مصر قضت فى قطع هذه المرحلة زهاء الثلاثين عاما ، واستقلالها معترف به، فكيف بالمغرب الذى يريدون له قطعها وهو غير مستقل ؟ !

أما النقطة الخامسة ـ وهى تقترح الغاء المناطق العسكرية ـ فلا عيب فيها الا انها كتبت بروح لا تؤمن بالاستقلال؛ لانها تطالب بذلك فى هذه المرحلة الانتقالية، مع أن الواجب كان يقضى اقتراحها فى باب الجو السياسى، وهى به أنسب، وقد طالبت (كتلة العمل الوطنى) بذلك فى دفتر المطالب منذ ثلاث عشرة سنة خلت

والنقطة السادسة تشير الى تنظيم الجيش الوطنى والشرطة المغربية بمساعدة الخبراء الفرنسيين الذين يكونون بعثات خاصة يكون من اختصاصها أيضا تنسيق الدفاع المشترك ، ويخشى أن يكون أصحاب المذكرة قد غفلوا عما ينطوى عليه تنسيق الدفاع المشترك من خطر على بلادهم ، كما غفلوا على نشره فى جريدة (البلاغ) المصرية؛ اذ سيضطر المغرب بسببه الى الدخول بجانب فرنسا فى الحرب كلما دخلت هى فيها، وقد تكون هذه الحرب مع احدى الدول العربية او الاسلامية، مع أن معاهدة الحماية لا تلزم المغرب بالدخول فى الحرب الى جانب فرنسا.

ومن الغريب أن تتبرع المذكرة بقبول مبدأ الدفاع المشترك، وتغفل التعرض لتنظيم الاقتصاد المغربى ووضعيته الدولية، وللتمثيل الخارجى، وكل هذا وذاك ربما يشعر بقبول الدخول فى الوحدة الفرنسية

هذا ما نشر عن المذكرة فى الجرائد ، وكله معلول او غير مقبول ، أما ما لم ينشر فيخاف أن يكون شرا مما نشر، خصوصا وقد رأينا فيما نشر تصرفا غريبا، اذ أذيع فى مصر فى بعض النقط ما أغفل نشره فى المغرب، ونشر فى المغرب ما سكت عنه فى مصر، وذلك فيما يظهر لاسباب لا مجرد اتفاق .

ونختم بملاحظات عامة على المذكرة وظرف تقديمها وما احاط بها من دعاية وتبشير :

١ ـ الحزب كما رأيتم لا يؤيد هذه المذكرة لا شكلا ولا موضوعا فاما من ناحية موضوعها فقد عرفتم وجه النقد واسباب الخطر فى نقطها الرئيسية التى نشرت، وأما من ناحية الشكل فالوقت الذى قدمت فيه، والشخص الذى يتذاكر معهم فى شأنها ـ كل اولئك غير مناسب ولا ملائم لمصلحة البلاد ؛ فموقف فرنسا من المغرب الآن أسوأ مما كان عليه فى كل وقت مضى ، اذ الرقابة على الصحف وخنق الحريات والتضييق على الوطنيين أشد وأقوى مما كان عليه فى زمن الحرب

٢ ـ ان هذه المذكرة على علاتها ليست الا من عمل المعتدلين ورأيهم فى كل المشكلة، ولكن ما هو رأى الجانب الفرنسى ؟ وما هو

موقفه منها ؟ انهم يقولون فى دعايتهم ان المقيم العام الجنرال جوان موافق على ما فى هذه المذكـرة جملة وتفصيلا، ويقولون أيضا : «ان المبادىء الاساسية فى المذكرة لا تلقى فى دوائر الحكومة الفرنسية فى باريس معارضة ذات شأن»، ولكن استمع الآن الى مندوب جريدة (بارى برس) اذ يروى عن الجنرال جوان حديثا جاء فيه : (أما عمـل فرنسا ضدا على انتشار الوطنية الذى لا مناص منه فهو يتجلى فى ثلاثة ميادين :

١ – القمع، ويقتضى اتقاء الثورات ورقابة الصحـف الوطنية واعتقال المسيرين .

٢ – الاقتصاد، وهو يرمى لتحسين الحياة الاشتراكية والزيادة فى تصدير الفواكه والحبوب والفوسفات .

٣ – السياسة، وتشتمـل علـى اصلاحات ادارية وعدلية تمكن المغاربة من مشاركة أوسع فى تدبير شؤون بلادهم .

فهذا هو البرنامج الذى وضعته الادارة الفرنسية للسير بالمغرب الى هدفه كما يقول الجنرال جوان فى هذا الحديث، ويقول ايضا : (اننا عازمون على جعل المغرب قادرا على تدبير شؤونه بنفسه، وان آراءنا فى هذا الباب تذهب أبعد من آراء الوطنيين)، وقد رأينا تصرفه منطبقا تمام الانطباق على برنامجه هولا على مذكرة المعتدلين؛ فالجو يزداد توترا والضغط والقمع يستفحـل لا فى وسـط الشعب، بل حتى فى معاملة جلالة الملك ومخزنه السعيد، والى يوم الناس هذا يوقف الموظفـون افتئاتا على رئيس الدولة وبغير موافقتـه، ويولى آخرون فى الوظائف بغير ارادته، فالحكم المباشر قد بلغ الآن عنفوانه واوج كماله.

٣ – يذكرون شفاهيا وينشرون فى الصحافة الخارجيـة تأييد السلطان لهم، ولكن عند نشرهم فى الـرأى العام مقال جريـدة (البلاغ) الذى كان طبقا من صنيعهم لم يجرؤوا على نشر ما يتعلق بتأييد جلالته لهم، بل حذفوه وانتقلوا منه الى أشياء أخرى، ولو كان جلالته مؤيدا لهم لنشروا ذلك فى الداخل ايضا، وهذا يؤكد ما استنتجناه من عدم تأييد جلالته لمذكرتهم؛ لانـه عمل حزبى، وجلالته فـوق الاحزاب، واذا كان هنالك مفاوضـات أو مخابرات تحظـى بتأييـده فلن تكون الا على يد مسؤولين وبصفة رسمية

ومن الفكاهة فى هذا الباب أن جريدة (الاهرام) الغراء نشرت عن الجنرال جوان فى المؤتمر الصحافى الذى عقده بباريس أنه قال عن المعتدلين : انهم وضعوا مشروعا لدستور البلاد وقدموه إلي فنصحتهم

بأن يقدموه للسلطان لانه رئيس الدولة واستشارته واجبة، وهو يقول أريد هذا أو ذاك فأنقل ارادته للحكومة الفرنسية

وأخيرا يجب التنبيه الى نقطة أساسية، وهى أن الحزب يقول دائما لا مفاوضة الا بعد اعلان الاستقلال، وقد جاءت هذه العبارة فى قانون لجنة التحرير التى يرأسها بطلنا العظيم الزعيم محمد عبد الكريم، ومعنى هذه العبارة فى نظر الحزب (لانها ذكرت فى موضوع معين ولا تكون الا رسمية مع حكومة البلاد او مع وفدها الرسمى لا مع حزب من الاحزاب) ـ معناها أن المفاوضة فى تنظيم العلاقات الديبلوماسية والاقتصادية والثقافية والحربية، ان كانت مع فرنسا، لا تكون الا بعد الاستقلال ليكون المغرب حرا فى اختيار الطريق التى يختارها والحلول التى يرتضيها، أما اذا كان محجورا عليه وفى ظروف الحماية او شبيهها فهو لا يملك حق التعبير عن رأيه الصحيح، وسيكون مضغوطا عليه ليعطى اكثر مما يأخذ، وليقبل ما يعرض عليه صاغرا ذليلا، واى اتفاق يتم بين عبد وحر وسيد ومسود؟!

أما مجرد المخابرات والمحادثات وتبيين وجهة النظر واسماع الصوت وسماعه من الغير، فذلك عمل الحزب الذى ما انفك يوالى السعى له الى الآن وما الوفد الرسمى الذى تعاقب على باريس منذ عام ١٩٤٦ وما مندوب الحزب الدائم اليوم بباريس الا لهذه الغاية، ولكن هذا شىء وما ننكره شىء آخر ، وقد اتصل الحزب ولا يزال يتصل بشخصيات ذات بال لمبادلة الرأى، ولكنه ما زعم ولا ادعى أنه دخل بذلك فى مفاوضات .

* * *

هذه هى الرسالة التى شرح فيها المجلس الاعلى للحزب وجهة نظره فى مذكرة المعتدلين، وهى كما ترى تدل على تحفظ كبير فى الموقف، وتحر فى الحكم على الاشياء دون الوقوف عليها والالمام بها، وقد عملنا نحن فى القاهرة جهدا كبيرا لحمل اصحاب المذكرة على اطلاعنا فى لجنة التحرير على نصها الرسمى، واعلامنا بحقائق ما يجرى من مذاكرات بينهم وبين الاقامة العامة طبقا لما تنص عليه القوانين التأسيسية للجنة ، ولكن محاولاتنا لم تؤد الى نتيجة ؛ اذ رفض القوم الادلاء بأى شىء يوضح المسألة او يهدى لمعرفة حقيقتها

ولقد روى الدكتور (ع) أن الجنرال جوان صرح له أثناء مقابلته اياه بباريس بأن مذكرة المعتدلين صالحة لان تكون نواة للاتفاق بين الاقامة العامة وبين الوطنيين، كما صرح له الجنرال بأنه مصمم على انتزاع

السلطة من يد الملك ووضعهما فى يد الوزراء والنواب الجدد، وزاد الجنرال قائلا : هذا وان كنت اعلم أن معارضة سيدى محمد لمشروعاتى كلها شديدة جدا

وروى لى الاستاذ (ع) ـ وهو غير الاول ـ أن الجنرال صرح له بأن مشروع المعتدلين شىء صبيانى لا ينوى الاهتمام به، وانما قصد من الاستماع اليه دراسة الاحوال، ثم قال له: ان عدم اتصال رجال الاستقلال بى هو الذى اضطرنى للبحث عمن يتعاون معى، فأجابه الاستاذ المذكور بأن (حزب الاستقلال) لا يمكنه أن يتصل بأحد ما دام الجو الارهابى قائما ومهما يكن فان تأسيس (لجنة تحرير المغرب) وتقريرها عدم المفاوضة قبل الاستقلال أعاد الصفوف الوطنية لوحدتها، ولا أظن أن هنالك اليوم أحدا يفكر فى سياسة المراحل التى قضت التجربة بفشلها، ولذلك يمكننا ان نؤكد ان محاولة الجنرال جوان احداث خلاف عميق بين المعتدلين والمتطرفين من الوطنيين قد باء هو الآخر بالفشل، وأن الكل ملتف حول جلالة الملك الذى ما يزال دائبا على العمل لانقاذ الموقف وتحرير البلاد .

فشل ثالث مشترك بين الجنرالين

كان وجود الاستاذ عبد الخالق الطريس بالقاهرة فى الوقت الذى كنت فيها أيضا فرصة للقيام بعدة أعمال مشتركة للتشهير بأعمال الاسبانيين وسياستهم ولتوجيه الرأى العام العربى نحو الخطة المتبعة من طرف الاسبان الذين طالموا استغلوا الظروف ليظهروا عطفهم على عرب المشرق فى الوقت الذى يعملون فيه ضدا على عرب المغرب .

والحق ان مجهودات الوفد الخليفى سبق ان كشف كثيرا من الحقائق للعرب فى مصر وغيرها ، كما ان الاتجاه الجديد الذى نحاه (حزب الاصلاح) بالاتفاق مع (حزب الأستقلال) خطا بالحركة فى المنطقة الخليفية خطوة المعارضة التى كان لابد منها لسير الحركة المغربية فى طريق معبدة واحدة

ولم يأل وفد (حزب الاستقلال) بالشرق الذى كان يمثل فى الوقت نفسه (حزب الاصلاح) جهدا للعمل فى خدمة قضية المغرب برمتها ، وطبيعى ان يكون مجهودنا المشترك فى هذه المدة التى وجدنا بها فى مصر مقويا لمجهودات اخواننا فى الداخل والخارج ، وهكذا أصبحت المقاومة للسياسة الاسبانية ليست أقل من المقاومة للسياسة الفرنسية .

وقد بعثت حركتنا المتحدة ممثلا لها الى أمريكا، فكان فى جملة ما قام به من الاعمال الموفقة الدعاية لوحدة المغرب والتنديد بفظائع الاستعمار الاسبانى، وقد قدم باسم حركتنا الاستقلالية مذكرة للمسيو ترجيفى لى تناول فيها قضية الحماية الاسبانية بالمغرب، وكان ذلك فى الوقت الذى أداعت فيه الدعاية الأسبانية أنها تقوم بمفاوضات رسمية مع الجامعة العربية فى شأن المنطقة الخليفية

وقد طالب مبعوث الاحزاب الاسقلالية فى أمريكا السماح لحزب الاصلاح ولحزب الاستقلال بالادلاء برأيهما أمام اللجنة السياسية عند بحثها العلاقات بين اسبانيا والدول الاعضاء فى الامم المتحدة وهو البحث الذى كان مقررا الخوض فيه فى أغسطس سنة ١٩٤٧ وقال : (ان الحق والعدل يقضيان بمنح الشعب الحق فى المشاركة فى بحث هذه المسألة الهامة التى يكون لها آثارها فى مستقبله)

وقد استدعى السنيور مانويل آزنار سفير اسبانيا فى واشنطون الاستاذ المهدى بنونة بعد أن قدم مذكرة حزب الاستقلال المراكشى عن المنطقة الفرنسية، لان السفير توقع تقديم مذكرة مثلها عن المنطقة الاسبانية، وذلك ما يضر بالمصالح الاسبانية عند ظهور المسألة الاسبانية أمام هيئة الامم المتحدة من جديد وطلب منه ارجاء تقديم هذه المذكرة حتى يتصل بمدريد، فأجابه الاستاذ بنونة بأنه لا يملك حق الارجاء ، ولكنه هو الآخر يتصل برؤسائه فى القاهرة والمغرب

وقد وصل الرد للاستاذ المهدى فى برقية فحواها : اذا فكرت اسبانيا فى اتخاذ خطوة فليكن ذلك منها علانية وعلى مشهد من الجميع، لانهم لن يلقوا بالا لاى حركة تقوم بها اسبانيا من وراء الستار

وقد قدم الاستاذ المهدى للسنيور آزانار المطالب الهامة التالية كشروط للعدول عن تقديم المذكرة وهى :

١ – أن تصرح اسبانيا بأنها تؤيد قيام دولة مغربية مستقلة تضم مراكش الفرنسية وطنجة والمنطقة الاسبانية، وأن تعلن كخطوة اولى فى سبيل ذلك الاستقلال العاجل للمنطقة الخليفية.

٢ – أن تعلن العفو العام عن جميع المنفيين والسجناء السياسيين

٣ – أن تدخل فى محادثات مباشرة لتحقيق هذا الغرض مع خليفة السلطان

وقد ارسل السنيور آزانار المطالب لاسبانيا، فجاء الرد منها أخيرا، وفيه سؤال عن مطالب الوطنيين الخاصة بوجوه التقدم الثقافى والاجتماعى واستفهام عن المقصود بالسجناء السياسيين

وقد أول الاستاذ بنونة ذلك على أنه رفض تام للمطالب الوطنية ، فقدم المذكرة التى تشرح حالة السياسة الاهلية المتبعة فى المنطقة الخليفية، وقد التزم مندوب الباكستان بتأييد قضية الاستقلال المغربى، وكذلك مندوبو بولندا والفلبين وسائر الدول العربية، ولكن سياسة أمريكا أدت الى ارجاء النظر فى قضية اسبانيا، فأرجئت الفرصة التى كانت متاحة لعرض قضية مراكش والمغرب العربى برمته.

ولكن نجاح الدعاية الوطنية وظهور البراعة المغربية فى تبيين وجوه العرض التى يمكن أن تعرض بها قضيتنا هاج الاسبانيين فازدادوا حنقا على الحركة، وأخذوا يبثون جواسيسهم فى أوساط الوطنيين ، ويعتقلون كل من يتصل بالقاهرة وبالزعماء المقيمين بها .

وأخيرا أصدروا قرارا تصبح الحكومة المغربية بمقتضاه مبعدة عن شؤون الأمن العام، متجاهلين المعاهدات التى تقيدهم ازاء هذه الحكومة، وذلك لانهم فقدوا ثقتهم فى الموظفين المغاربة الذين أصبحوا يعرضون عن تنفيذ ما يصدر اليهم من أوامر ترمى لكبح جماح الوطنية ورجالها، ويقضى القانون الجديد بأن المحاكم الاسبانية هى التى تفصل وحدها فى كل ما يرجع للامن العام.

وقد تنبه (حزب الاصلاح) فى الوقت المناسب لهذه المحاولة ، وأصدر بيانا يتلخص فيما يلى :

«لقد كانت هذه الخطوة التى أقدم عليها الاسبان خطيرة جدا ، وسوف تؤدى حتما للاصطدام بيننا وبينهم، فقد ألغت السلطة الاسبانية الحكومة المراكشية الغاء تاما، اذ ألحقت مهمة الامن العام بسلطة المراقبة الاسبانية .

«ذلك أن المادة الثانية من القرار تلغى الشرطة المغربية، وتسند مهمتها للبوليس الاسبانى، وتنص المادة الثالثة على اعطاء البوليس الاسبانى حق تفتيش المنازل دون قيد ولا شرط، واذا كان هذا مخالفا لجميع القوانين فانه مخالف كذلك لتقاليدنا الاسلامية، وسوف تفصل المحاكم الاسبانية فى سائر القضايا معتمدة على محاضر البوليس الاسبانى وملاحظاته، وسوف يتلقى البوليس الاسبانى بمقتضى المادة السادسة الاوامر من دار الاقامة العامة مباشرة، وبذلك يحكم المغاربة حكما مباشرا من قبل دار الاقامة، وهذا اعتداء صريح حتى على معاهدة الحماية التى لا تعطى لاسبانيا سوى حق المراقبة، وتعطى المادة الثامنة للبوليس الاسبانى صفة عسكرية، وبذلك ينتقل حق الفصل فى قضايا الامن الى القضاء العسكرى الاسبانى، وهكذا تعتدى اسبانيا على القضاء الاسلامى وتضع المغاربة تحت رحمة المحاكم العسكرية الفاشية، وهذا معناه اعلان الأحكام العرفية الدائمة فى المنطقة. هذا وقد ألغيت جميع التشريعات التى تتعارض مع هذا القرار»

وما علم الشعب حقيقة القرار الجديد حتى هاج واجتمع بالمسجد الاعظم، حيث انتخب وفدا منه يترأسه الشيخ احمد بن عبد القادر القاسمى لمقابلة سمو الخليفة وتقديم الاحتجاج على المرسوم الجديد، كما أضربت المدينة التطوانية تضامنا مع الوفد، وقد اعتبر سمو الخليفة احتجاج الشعب وضم صوته اليهم، وطالب بنسخ القرار، وبعد مخابرات بين الحكومة الخليفية وبين الاقامة العامة وقع تعديل فى القرار رجع

نصيبا من الحق لاربابه، ولا تزال المجهودات الخليفية مبذولة لاسترجاع الباقـى .

لكن هذه المعارضة الشديدة التى ظهر بها الشعب وأيدها تضامن المغاربة والعاملين منهم فى الداخـل والخارج أشعـرت الاسبانيين مرة أخرى بخطر تنسيق الحركـات المغربية ، كمـا أشعرت الفرنسيين بعقم السياسة التى اتبعوها مع فرانكو.

ولذلك فقد اتجه كل من الجنرال فاريلا والجنرال جوان المقيمين العامين بالمغرب الى العمل على توحيد خطتهما فى مراكش دون مراعاة للفروق السياسية التى بين فرنسا الجمهورية وبين اسبانيا الفرنكية .

وهكذا اجتمع الجنرالان مع اركان حربهما ونخبة من رجال الحل والعقـد الفرنسيين والاسبانيين فى مدينة طنجة ضمن مؤتمر خاص، وبعد أن درسوا حالة المغرب وشأن الحركة الوطنية والتنسيق الحاصل بين حركات الشمال الافريقـى، قرروا هم ايضا توحيد الخطة بينهما ، والسيـر فى المنطقتيـن على أسـاس المقاومة للوطنيين والاضطهاد للشعب، والمعارضـة للقصـر، والتمويه ببعض الأصلاحات السطحية ، وتوجيـه البـلاد صوب الوجهة الغربية المحض، وقد انعقد هذا الاتفاق فى أوائل فبراير سنة ١٩٤٨

وفى هذه الاثناء كان موعد رجوع الاستاذ المهدى بنونة من أمريكا والاستـاذ عبد الخالـق الطريس والاستـاذ محمد ابن عبود الى مسقط رأسهم، فما راعهم الا والاقامة الاسبانية تقرر منعهم من الدخول لمنطقة نفوذهـا، ولكـن ذلك أحدث موجة استياء عظيمة فى الاوساط الوطنية والشعبيـة اتضح منها للجميـع صحة ما كان شائعا من أن المقيم العام الاسبانى اتفق مع الجنرال جوان على القيام بسياسة قمع عام للحركة الوطنية ورجالها.

لذلك لم يتأخر الشعب عن اظهار تضامنه مع المضطهدين من أبنائه فأضربت عاصمة تطوان يومين كاملين، وسارت الجماهيـر الغفيرة فى مظاهرة كبيرة نحو قصر سمو الخليفة للاحتجاج على تصرفات السلطة الاسبانية .

وفى اليـوم الثامـن من فبرايـر عمـت المظاهرات سائر المنطقة الخليفية حيث هاجت الجماهير فى المدن المختلفة هاتفة بحياة المغرب المستقل وحياة جلالة الملك وسقوط الأستعمار الفرنسى والاسبانى ، وكـان يتزعم هـذه المظاهرات زعماء حزب الاصلاح بالمنطقة ونخبة من

رجال الشعب الممتازين، وقد اضطرت السلطة الاسبانية لاستقدام الجند المنظم، فاصطدم بالوطنيين الذين اقتحموا الميدان، وأطلق الجند الاسباني النار على المتظاهرين، فقتل أربعة وجرح كثيرين، ثم ألقى القبض على أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب الاصلاح الوطني، كما ألقى القبض على الكثير من أنصار الحركة والقائمين بها، وألزم عديدا من أعيان المدينة بالمكث في منازلهم، وفرضت عليهم غرامات ضخمة، ومن بين هؤلاء الابطال الشيخ احمد بن عبد القادر الفاسي الذي أبلى في الحركة بلاء حسنا برغم شيخوخته وتقدم سنه.

ثم وقعت اصطدامات أخرى أدت الى موت ستة من رجال الشرطة، واستشهاد زهاء العشرين من الوطنيين، وقد أعلن (حزب الاستقلال) استنكاره لهذه الاضطهادات، وبعث الامين العام للحزب الحاج احمد بلافريج برقية احتجاج للجامعة العربية ولسكرتارية الامم المتحدة ، كما قامت مكاتب الحزب بفرنسا بنشر الأخبار المتعلقة بالحوادث والتشهير بفظائع الاسبانيين فيها.

وأما في مصر فقد أعلنت الاحزاب الاستقلالية الممثلة في (لجنة التحرير) تضامنها مع المغرب في محنته، واذاع رئيس اللجنة البطل الكبير محمد بن عبد الكريم الخطابي البيان التالي :

«بينما تسعى جميع الدول في تحسين أحوالها على اثر انتهاء الحرب العالمية الاخيرة لا تتطور الحوادث في أقطار المغرب العربي الا من سيء لاسوأ، كما لو كان هناك سباق عنيف بين فرنسا واسبانيا في سبيل انزال أفدح الكوارث بهذه البلاد البريئة، ولا نكاد نفزع من الحديث عن التضحيات الجسيمة التي حملتنا اياها فرنسا حتى تسرع اسبانيا الى تحميلنا مثلها، وتقع الآن في تطوان حوادث دامية ذهب ضحيتها كثير من أبناء هذه البلاد الباسلة لا لشيء سوى انها احتجت على منع ثلاثة من أبنائها البررة من الدخول اليها، واذا كانت هذه الحوادث تدل على شيء فهو بسالة الشعب المغربي وجبن الاسبانيين الفاشيين؛ لانهم طعنوا بالسلاح شعبا أعزل، أما عند ما كان لهذا الشعب جيش مسلح فقد كانت الجيوش الاسبانية تندحر أمامه فرقة تلو فرقة من أول اللقاء

«ان اسبانيا وفرنسا على اختلاف سياستيهما متفقتان ضدا على أقطار المغرب العربي وهما قائمتان بتنسيق خططهما ومواصلة العمل للقضاء على العروبة في هذه الاقطار، واذا كنا نهيب باخواننا عرب المشرق للانتباه الى الدسائس الاسبانية التي ما تزال اسبانيا الفاشية

تحاول بها بث دعايتها الكاذبة فى الوقت الذى تسفك فيه دماءنا، فاننى أعلن فى نفس الوقت أن الشعب المغربى فى تونس والجزائر ومراكش مصمم على أن يواصل الكفاح الى أن يحقق حريته الكاملة واستقلاله الناجز أو يفنى عن آخر رجل ولو بقى وحده فى الميدان، لان هذه البلاد تحملت من المستعمرين فوق كل ما يمكن ان تتحمله بلاد أخرى حتى تلك التى ابتليت بالاحتلال النازى

«واننى لأومن بأننا سوف ننتصر فى النهاية، وأن يوم انتصارنا يقترب بمقدار ما تكثر التضحيات التى نبذلها لمناهضة الاستعمار؛ لأن اضطهاد اسبانيا الفاشية لنا يرجع الى الضعف والجبن؛ أما مقاومتنا فمصدرها الشجاعة والايمان»

وعقد (مكتب المغرب العربى) اجتماعا للصحافيين وزع عليهم فيه بيان رئيس لجنة التحرير، وألقى فيه كل من علال الفاسى والحبيب أبو رقيبة والدكتور سليمان ابن سليمان خطابا فى محنة الشمال الافريقى

كما دعا مكتب اتحاد الجمعيات الأسلامية بالقاهرة لاجتماع عام بالمركز العام للشبان المسلمين خطب فيه رئيس الاتحاد محمد علوبة باشا ورئيس الشبان المسلمين محمد صالح حرب باشا والمرشد العام للاخوان المسلمين الشيخ حسن البنا ورئيس قسم الاتصال التابع للهيئة العربية العليا الشيخ صبرى عابدين وعلال الفاسى باسم الاحزب المغربية الاستقلالية، وكان فى جملة الحاضرين الامير عبد الكريم وصنوه وثلة من رجال العرب المسلمين

وقد وجه المجتمعون احتجاجاتهم على تصرف اسبانيا واعمالها .

وبمناسبة انعقاد اللجنة السياسية للجامعة العربية دعت (لجنة تحرير المغرب العربى) الوفود العربية لاستقبال أقامته بمكتب المغرب العربى ألقى فيه الامين العام للجنة خطاب رئيسها الامير عبد الكريم، فأجابه الامين العام للجامعة العربية بكلمة قال فيها: (لقد قلت مرارا وأكرر الآن ان هذا الطائر العربى الذى يريد أن يطير سوف لا يستطيع ذلك بجناح واحد، ولن تحتل الأمة العربية المكانة اللائقة بها تحت الشمس ما دامت بلاد المغرب محتلة، وان هذه النهضة المباركة التى عمت جميع أطراف العالم العربى لا يمكن ان تؤتى ثمارها الا اذا استقلت أقطار المغرب العربى استقلالا تاما، فاذا كان أهل المشرق يكافحون فى سبيل استقلال المغرب فانما يكافحون لاجل استقلالهم الخاص، ولاجل رفع لواء الرحمة والمساواة والاخاء، وقد تبادلنا نحن والاوربيين على

شاطىء البحر الابيض المتوسط زيارات مختلفة واستقروا عندنا واستقررنا عندهم، ولكنا تركنا لديهم آثار الحضارة والعمران، ولم يتركوا لدينا فى كل زياراتهم سوى أعمال وحشية، ولقد كانت بلادنا منبعا للحضارة والرحمة والاخاء، فعلمنا العالم الزراعة والصناعة والكتابة كما كانت بلادنا منبعا للديانات فحملنا ذلك كله فى زياراتنا لشواطىء البحر الابيض الشمالية.

«وقد استطاع المشارقة أن يحققوا أهدافهم الى حد ما ، وسوف يستطيع المغاربة كذلك أن يحققوا الاهداف التى يكافحون فى سبيلها، ولقد كنت أكافح مثلكم فى سبيل غاية كنت أحسبها بعيدة المنال، ولم تكن عندى بلاد عربية ألتجىء اليها، أما أنتم فانكم تكافحون فى سبيل غاية ترونها قريبة المنال ، واستطعتم أن تلجأوا الى الشرق ، فأنتم فى وطنكم تواصلوا كفاحكم ، ولست أشك فى أنه سيأتى اليوم الذى نذهب فيه جميعا لبلاد المغرب، ان كثيرا من الناس لا يعرفون جيدا بلاد المغرب ، وانى أقول لهؤلاء ان المغاربة أشد الناس صبرا على تحمل مصاعب الكفاح، وأصدق الناس عزما على الموت فى سبيل استقلالهم، وهم قوم اشداء اذا عزموا توكلوا، واذا توكلوا حققوا أهدافهم رغم جميع الصعاب .

«وانها لفرصة سعيدة هذه التى جمعت فى هذه الدار القدماء من مجاهدى العراق وسوريا والمملكة العربية السعودية واليمن وشرق الاردن ومصر وهؤلاء يضربون لكم المثل على أن الله لا يبخس الناس عملهم، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون».

وعند ما انتهى سعادة عزام باشا من كلمته تفضل دولة رياض الصلح بك، وأعلن للحاضرين أن الوفود العربية على أتم الاتفاق مع عزام باشا فى كل ما قاله وقال : لقد اتفقنا على أن ننيب عنا عزاما فى الكلام، وسوف ترون منا المجاهدين فى سبيل قضية المغرب، كما رأيتم منا المجاهدين فى قضية المشرق سواء بسواء

* * *

هذا ولما علمنا نبأ منع السلطات الاسبانية للائمة من القاء خطب الجمعة، وأن الناس صلوا احدى الجمع من غير خطبة رفعت احتجاجا شديدا للجهات المختصة، وقابلت سعادة سفير الفاتيكان فى مصر المونسيور هيوز ، وقدمت اليه باسم (حزب الاستقلال) احتجاجا على الاعمال التى تقوم بها السلطة الاسبانية فى المغرب، وعلى استمرار

الحماية الفرنسية فى تنفيذ السياسة البربرية، وقد وعد برفع الاحتجاج لقداسة البابا .

وكان فى عزم جلالة الملك العربى عبد الله بن الحسين ملك المملكة الهاشمية فى شرق الاردن القيام بزيارة لاسبانيا والمنطقة الخليفية بالمغرب، وكانت الصحف قد نشرت هذا النبأ منذ سنتين ، وأرادت الدعاية الاسبانية أن تحيك من حوله اشاعات علم الناس كلهم بطلانها. والغاية التى كان يرمى اليها جلالته من هذه الزيارة هى اولا ربط اواصر الصداقة مع البلاد الاسبانية، ثانيا اغاظة موسكو التى صممت على المقاومة لاستقلال شرق الاردن، ورفض ممثلوها فى الامم المتحدة قبول الدولة الهاشمية عضوا فى هذه المنظمة العالمية، والى جانب هذا وذاك فان اهتمام جلالة الملك عبد الله بالحالة فى المغرب العربى ليست أقل من اهتمامه بالحالة فى بلاده وما يجاورها من اقطار المشرق العربى ، ولقد سبق أن اتصل جلالته بممثلى فرنسا واسبانيا فى عمان وتحدث اليهما فى ضرورة تغيير السياسة المتبعة مع العرب فى شمال افريقيا ، وقد ظن جلالته على ما نعتقد أن السفر الى اسبانيا يفسح له مجال الدخول للمنطقة الخليفية، وربما الى المنطقة السلطانية أيضا حيث يتمكن من الاتصال بابن عمه ملك البلاد المغربية، وتجديد اواصر الصداقة والقرب بين المملكتين الهاشميتين، ولكن ظروف جلالته لم تسمح له بتحقيق هذه الزيارة التى كان مشغولا عنها باقرار شؤون مملكته فى اوائل عهدها بالاستقلال

فلما وقعت حوادث المنطقة الخليفية وظهر صداها العظيم فى العالم العربى، وتوجهت الاحتجاجات لاسبانيا من أمين الجامعة وممثلى الرأى العام العربى، ظنت الديبلوماسية الاسبانية أن العودة لنشر خبر الزيارة الملكية لاسبانيا من شأنه أن يغطى على صدى الاستياء العربى، وأن يوهم المغاربة – على الاقل – أن من بين العرب عاهلا كبيرا من سلالة النبى عنيه السلام يستمر فى صداقته لاسبانيا دون اهتمام منه بما تفعله مع المغاربة .

وسدا لسبيل هذه الدعاية الاستعمارية رفعت مذكرة للحكومة الاردنية بواسطة وزيرها المفوض فى القاهرة شرحت فيها ما يرجوه المغاربة من جلالة الملك الهاشمى الذى لا نشك فى أن عطفه على بلادنا ومحبته لملكنا واهتمامه بنجاح قضيتنا يعطينا من الدلالة على جلالته ما يخولنا الحق فى أن نرفع اليه رغبتنا فى تأخير هذه الرحلة الى ظروف لائقة .

وقد وجدت من استقبال سعادة الوزير المفوض للمملكة الاردنية وحسن تقديره للموضوع ومن توجيهه المفيد ما سهل نجاحنا فى المأمورية التى أردناها، ثم توجهت مصحوبا بالاستاذ احمد المليح الى عمان حيث وصلناها ، واتصلنا توا بمعالى الملقى باشا وزير الخارجية الاردنية اذ ذاك، وقد سبق أن تعرفنا به فى القاهرة وقدرنا لطفه وعنايته وعظيم وعيه العربى، فاستقبلنا سعادته بمنزله العامر وأكد لنا أن جلالة الملك قد حقق رغبتنا اذ كلفه بتبليغ السفير الاسبانى أن جلالته أخر الرحلة الى موعد آخر.

ومن الغد تشرفنا بمقابلة جلالة الملك عبد الله بقصر الشوينات حيث يقضى جلالته فصل الشتاء . واستمرت المقابلة الملكية زهاء الثلاث ساعات بمحضر الملقى باشا تناولنا أثناءها مختلف الموضوعات المغربية والعربية، وقد رأينا من جلالته معرفة كبيرة بقضيتنا وتقديرا للحالة التى آلت اليها بلادنا، وقص علينا جلالته بعض المجهودات الكريمة التى بذلها لخدمة القضية المغربية نفسها وطمأننا على أنه سيعطى توجيهاته العالية لمندوبى المملكة الهاشمية فى مجلس الجامعة العربية حتى يكونوا لسان المغرب الناطق بالذب عنه وعن حقوقه، وحمل الجامعة العربية على مضاعفة اهتمامها بشؤونه، ثم تفضل جلالته فاستدعانا لتناول العشاء على مائدته الكريمة، وأبت الطاقة الهاشمية الا أن يكون (الكسكس) المغربى من ألوان الاطعمة المقدمة لنا، ولما قلت لجلالته اننا وجدنا عند مولانا كل خير حتى (الكسكس) المغربى، قال لى جلالته لقد أحببت أن تشعروا بأنكم فى بلادكم

ومن الغد تفضل جلالته فاستقبلنا مرة أخرى بقصر الرغدان بالعاصمة، أمام ثلة من وزرائه وكبار دولته، واستفهمنا جلالته بمحضرهم عن ميزانية مراكش، وكيف تهيأ، وأين تصرف، وعن الجيش الموجود بالبلاد، ومصير الجيش المغربى العظيم، ولما أخبرناه ببعض ما نعلمه من الحقائق تأثر جلالته وتأثر الحاضرون معه تأثرا كبيرا، وأبدوا استياءهم العظيم من الحالة التى وضع فيها عرب المغرب بسبب الاستعمار الفرنسى والاسبانى، ثم شرفنا جلالته باستدعائنا للعشاء معه مرة أخرى

* * *

وبعد هذا وذاك فاذا كنا ذكرنا أمثلة لفشل الجنرال جوان فى المغرب فاننا لا نقصد من ذلك التعرض لشخصه ولا التنقيص من قيمته كأكبر جنرال فرنسى له موقفه فى تحرير أمته والنضال عن استقلالها، ولكننا

نريد أن نثبت ضعف النظام المفروض على بلادنا، ولان المقيم العام الحالى من كبار الشخصيات الفرنسية فاظهار فشله للعيان خير دليل على أن الفشل هو من ذات النظام، لا من الاشخاص القائمين به، ونحن نعتقد أن تعاقب المقيمين عسكريين ومدنيين لا يغير شيئا من الواقع؛ لان ممثل فرنسا فى بلاد الحماية مرغم على أن يسير فى دائرة التوجيهات الاستعمارية التى تتعارض وسائر الامانى القومية، وليس فى امكانه كشخص بشرى أن يقاوم ارادة الامة المغربية ويحول دون انتصار الافكار الحرة فى البلاد، واذن فواجب فرنسا أن لا تضيع الوقت فى محاولات محكوم عليها بالفشل سلفا ، لان ذلك سيكون جريمة لا نحو المغرب فقط بل نحو فرنسا نفسها، والخير لها ولنا أن تعترف بالحقيقة كما هى، وتذعن لما يقضى به الانصاف فتعلن استقلال المغرب، وحينئذ تبعث لنا ممثليها لندشن عهد الصداقة الفرنسية المغربية على أساس الرغبة المخلصة وتبادل المصالح للطرفين

رعاية جلالة الملك لحركة الاصلاح

ليس اهتمام جلالة الملك بشؤون الاصلاح فى بلاده شيئا خفيا ولا جديدا ، فمنذ ارتقى جلالته على عرش اسلافه الكرام هو ينشط وسائل التقدم ومظاهر التطور ، ولكن جلالته ضاعف مجهوداته فى هذا الصدد منذ طلبت الامة من الملك فى ميثاق الاستقلال أن يرعى بعنايته الكريمة حركة الاصلاح فى أمته ، فأصبح الشغل الشاغل لمولانا هو العمل على تحقيق امنية شعبه وتوجيهه نحو النور والانبعاث .

وجلالته على يقين من انه لا تقدم للامة الا بالمعرفة ، ولا ارتقاء للشعب اذا لم يحصل أبناؤه جميعا على القسط الضرورى من العلم، لذلك بذل جهده الشريف فى فتح المدارس وتشجيع القائمين عليها ، وقد أنفق حفظه الله فى ذلك من ماله الخاص المبالغ الضخمة، ففتح لامته بذلك باب القدوة الحسنة، حتى أصبح الاغنياء من أمته ورجال الهيئات فى مملكته يتنافسون فى التقرب لجلالته بتأسيس معاهد علمية والتبرع لها .

وقد أعطى من ذريته الكريمة وعنايته بها مثالا صالحا للآباء ، وقدوة للابناء، حتى أصبح الامراء الكرام والاميرات المجيدات محط انظار الشعب ومضرب مثل الجميع ، وجهود سمو ولى العهد أمير الاطلس حفظه الله السائرة وفق توجيه جلالته فى هذا المعنى أمر غير خفى على أحد، والاثر الذى يحدثه وجوده فى الاوساط الشعبية كلما ظهر للعيان بمناسبة تدشين مدرسة او افتتاح معهد خير دليل على ما للاسرة المالكة من مكانة فى القلوب ومستقر فى النفوس

وليست عناية مولانا بالتعليم الدينى أقل من عناية جلالته بالتعليم المدنى ، ولولا رعاية جلالته وحمايته للقرويين والمعاهد الدينية الاخرى، واهتمامه برجالها لما استمرت الثقافة الاسلامية فى المغرب بعد النكبة التى اصابتها من جراء الظهير البربرى والسياسة التبشيرية التى سارت عليها الحماية .

وقد احيى مولانا سنة البعثات العلمية لاوروبا التى سنها جده المصلح الكبير مولاى الحسن ، فوجه على نفقته الخاصة عشرة من الطلبة

يشعرون بكرامة ربائب النعمة الملكية فى الذى يتمتعون فيه بوسائل اتمام ثقافتهم وتوسيع معارفهم .

ومن الايادى االبيضاء التى أسداها جلالته لامته اهتمامه بتثقيف البنت المغربية وانهاض المرأة وتشجيعها على العمل لتحرير نفسها بنفسها ، ولقد قدم كريمته العزيزة عليه الاميرة عائشة لتتزعم بنفسها حركة النهوض بالفتاة المغربية فضرب بذلك على يد الجامدين وعفى على ترهات المبطلين ، ووجه الحركة النسائية توجيها صحيحا بعيدا عن كل ما يمس بالدين او يتنافى مع الاخلاق الفاضلة ، ولبت المرأة المغربية دعوة ولى نعمتها فسارت تعمل وتدأب لتحقيق آمال جلالته فيها ، وها هى اليوم تسير الى جانب الرجل لخدمة المجتمع واصلاح شأن الامة والعمل على تحرير الوطن .

ومد سيدنا نصره الله يد العون لحركات الشباب الرياضيةوالكشفية فحماها وذب عنها ، وقدم لها الجوائز ، وحضر بنفسه فى اهم مبارياتها ، وفتح ساحات (مشوره) السعيد لكل من ضاقت به من الفرق الوطنية ساحات اللعب الرسمية كما نشط الموسيقى والفنون الجميلة وشجع اصحابها واسعف العاملين على تطويرها .

ونظر رعاه الله فى شأن الاسعاف المنظم ، فاهتم جلالته بالجمعيات الخيرية وامدها ، وشارك بنفسه الكريمة وتوجيهاته القويمة وامداداته العظيمة فى نشاط المسيرين لها والقائمين عليها .

واذا كنا سنتحدث فى الفصل الموالى عن بعض المجهودات التى بذلها (حزب الاستقلال) فى الميدان الثقافى والاجتماعى فيجب ان نؤكد از روح مولانا هى التى نفخت فى كل المجهودات الشعبية ، وان حزب الاستقلال وغيره ليسوا سوى ملبين لدعوة الملك ومقتدين بعمله ، وان استجابة مولانا لرغبة الاستقلال فى رعاية حركة الاصلاح كانت فاتحة العهد السعيد الذى يتبلور اليوم وسيبدوا بعد قليل عصر النهضة والتقدم والانعتاق .

نشـاط حزب الاستقـلال

فى الميدان الثقافى :

واذا كان حزب الاستقلال الوارث العظيم للحزب الوطنى وللكتلة الوطنية فانه قد سار على سنن مورثيه فى الاهتمام بالنواحى الثقافيـة والاجتماعية ، ولم يقف مجهوده عند النشاط السياسى والاقتصادى الذى سبق ان شرحناه ، ولا فى الميدان الديبلوماسى الذى سنعود مرة أخرى اليه ، بل تجاوز ذلك الى الناحية الثقافية ، فكان العون الاكبر لحركـة التثقيف العام السائرة وفق توجيه مولانا نصره الله،وعمله فى هذا الميدان متعدد الجوانب ، ولكنه متحد الغاية والاتجاه ، وللحزب لجنـة مركزيـة للتعليم تابعة للجنة التنفيذية ، واللجنة المركزية فروعها فى كل المدن والنواحى،وهذه اللجان هى التى تشرف على تسيير التعليم التابع للحزب تؤسس المدارس وتضع البرامج وتؤلف الكتب وتخـرج المعلميـن وتوجـه البعثات ، ولها لجنة فرعية هى الاخرى خاصة باسعاف الطلبة وقـروض الشرف ، وقد بلغ عدد المدارس التابعة للحـزب التى ينفـق عليهـا أو يساعدها او يرعاها زهاء المائة مدرسة يتعلم فيها من الابناء والبنات أكثر مما يتعلم فى المدارس التابعة لادارة المعارف العمومية ، ويهيء الحـزب للتلامذة زيادة على الدراسة وسائل التروض والتهذيب بديار الطلبة التى يفتحها فى اهم المراكز ، وبالتنظيم الذى يرعاه فى كل الاوساط المدرسية، وبالحفلات العامة التى ينظمها للطلبة ، والفسح الاجتماعية التى يهيؤهـا فى اوقات الربيع والصيف وغيرهما ، ولجان الطلبة الاستقلاليين تقوم من نفسها باعمال جليلة لبث الفكرة الصالحة ونشر الـدعوة النبيلـة ، والتدريب على العمل والتعود على حياة التعاون بين التلامذة لاجل الصالح العام ، وصفحات الشباب للطلبة فى جرائد الحزب تهيء المجال لتكوين أفق عام بين هؤلاء الشباب الذيـن يحسـون بان لهم فى حركة بلادهـم جناحا يعملون فيه ويتطور معهم الى اليوم الذى يصبحون فيه رجالا قادرين فيشاركون بانفسهم فى القبض على زمام الكفاح فى الجبهتين الداخليـة والخارجية لتكوين الاجيال المغربية السعيدة الحرة.

واقتدى الحزب بمولانا نصره الله فوجه بعثات علمية لمختلف الكليات فى الجزائر وفرنسا ،وقد بلغ عدد الطلبة الذين يتناولون الدروس العليا فى الخارج بمساعدة الحزب ورعايته زهاء التسعين طالبا أسس لهم (حزب الاستقلال) مركزا خاصا يشتمل على مطعم وناد ومجتمع ، وكون لهم لجنة من تلقاء أنفسهم لتوجيههم فى النواحى الصالحة التى هم محتاجون اليها ، وهذه اللجنة التوجيهية هى التى تنبه الطالب المراكشى للناحية العلمية التى ينبغى له أن يتخصص فيها وفق ميوله ووفق حاجة البلاد الملحة ، ولها نشرة خاصة يحررها الطلبة أنفسهم، ويعبرون فيها عن رغائبهم ، وفى كل اسبوع يلقى الطلبة محاضرة عن موضوع يرجع للمغرب أو لنواحى التربية القومية التى يجب أن يتلقاها الطلبة فيما يتلقونه من معرفة قبل أن يرجعوا لوطنهم كى يتحملوا مسؤولية العمل بما علموا .

هذا علاوة على الاتصال العام الذى يقع بين عموم طلبة شمال افريقيا المسلمين فى جمعيتهم المجيدة ، وزيادة المؤتمرات التى يعقدونها فى كل عام للطلبة العرب ومن حسن الحظ أن الاتصال اليوم متين بين مختلف الطلاب الوافدين من البلاد العربية على باريس وفرنسا وعلى انجلترا وبلجيكا وسويسرا ، والرحلات المتبادلة بين ممثلى هيئات الطلبة فى هذه الاقاليم من أعظم وسائل التبلور للفكرة العربية التى تملأ نفوس الشباب المغربى اليوم .

وقد وضع الحزب نواة للتعليم الدينى الثانوى فى الاقسام التكميلية التى أسسها بفاس والرباط والبيضاء ، وذلك سيرا بطريق التدريج لتكوين ثقافة ثانوية اسلامية تطبق فى المعاهد الدينية ولا تختلف فى برامجها عن المدارس الثانوية الرسمية الا فى الاهتمام بالعلوم الاسلامية، وفى الوقت نفسه وضع نواة تعليم ثانوى مدنى حر فى مدرسة جسوس ومدرسة سيدى محمد بالبيضاء، ونظم دروسا حرة لتكوين معلمى المدارس الابتدائية . وبالجملة فهو يعمل فى حدود الدائرة الممكنة على سد النقص الذى كان يجب أن تملأه ادارة المعارف العمومية او تسمح على الاقل بملئه دون عرقلة ولا احداث صعوبات .

ومع أن الحزب لم يتمكن لحد الآن من تنظيم بعثة قائمة بنفسها فى الشرق على غرار بعثة الحزب الوطنى ، فقد وضع نواتها ، اذ يوجد طالبان بمصر يدرسان على نفقة الحزب وبمقتضى توجيهه ، ولعل لجنة التعليم تهتم بسد هذا الفراغ فتوجه بعثة مهمة من حملة شهادة

التعليم الثانوى الاسلامى وحملة شهادة التعليم الثانوى المدرسى لاتمام دروسهم فى الكليات المصرية والسورية حتى يتهيأ للغة العربية ان تنال حظها من المتخصصين الذين يتمكنون من نشرها فى كل مناطق الحياة الدراسية بالمغرب .

ولتنشيط الدراسات المغربية أسس الحزب مجلة «رسالة المغرب» التى تعتبر أرقى مجلة الشمال الافريقى باللغة العربية ، وقد التف من حولها عديد من الادباء والكتاب والشعراء الذين يعملون على تطوير الادب المغربى واحيائه ، ويشترك (وفد الحزب) فى مصر فى هذه الحركة بمجهود يشكر عليه ، وقد قدم للمجلس الاعلى للحزب تقريرا خاصا فى ضرورة الخطو بهذه الحركة الى مدى أبعد، وعليه فمن الممكن أن نقول من الآن ان ثقافة قومية ستتكون من مجهود الاستقلاليين الذين يمثلون النخبة الجامعية فى البلاد .

فاذا أضفنا لذلك كله مجهود لجنة الصحافة التى تخرج للمغاربة جريدة «العلم» اليومية كأرقى جريدة يومية فى المغرب العربى كله وجريدة «التقدم» الاسبوعية ومجلة «صوت الشباب المغربى» ، علمنا مقدار النشاط الذى بعثته الفكرة الاستقلالية فى نفوس المؤمنين بها والعاملين فى دائرتها .

واذا كانت هذه الجهود التأسيسية تسير وفق ما تسمح به ظروف الضغط العام الواقع فى البلاد والتى لا تمكن الحزب من تحقيق آماله التثقيفية على الوجه الذى يرضيه ـ فان المجهود مستمر لاقناع السلطات بضرورة تطبيق التعليم القومى وفق المنهج الوطنى الواجب التنفيذ .

ولقد أتاح مولانا نصره الله لبعض اخواننا ان يعبروا عن آرائهم فى الموضوع حينما قرر تكوين اللجنة الملكية لوضع مشروع ميثاق التعليم بالمغرب ، فاشترك من اخواننا فى القسم المغربى للجنة شباب قادرون مختصون فى التعليم ومدربون عليه ، وقد هيأ القسم المغربى مشروعا ناقشه الاعضاء الفرنسيون والمغاربة ثم اقره الاخيرون باجماع الاصوات، والاولون بالاغلبية الساحقة .

وينبنى ميثاق التعليم ـ بمقتضى هذا المشروع ـ على المبادىء التالية :

١ ـ التعليم الابتدائى الاجبارى لجميع المغاربة ذكورا واناثا .
٢ ـ الصفة المغربية للتعليم على اساس اللغة العربية .
٣ ـ مجانية التعليم فى جميع المدارس الرسمية .

٤ ـ توحيد برامج التعليم الابتدائى فى جميع النواحى المغربية .

٥ ـ حرية التعليم فى كل درجاته وبكل انواعه وفق نظام خاص يوضع لذلك .

٦ ـ حرية دخول المغاربة لجميع المؤسسات التعليمية الموجودة بمراكش .

وقد علق الاعضاء المغاربة على كل مبدأ بما يشرح البواعث التى دفعت بهم لاقراره ، ثم ختموا تقريرهم موجهين الخطاب لمجموع الاعضاء بما يلى :

«هذا العرض يبقى عديم الفائدة اذا لم يرد به أن يشرح لجمعيتكم الموقرة آمال الشعب المغربى فيما يتعلق بمستقبل أولاده ، ان الانظار متجهة الينا نحن الذين تكلفنا بعمل نبيل هو الاهتمام بمعالجة الجسم المغربى واعطائه الصحة والسلامة» .

«وان الاعضاء المغاربة لهذه اللجنة ليرحبون بممثلى الثقافة الفرنسية الذين جاءوا لمشاركتنا فى وضع ميثاق للسير بالامة فى طريق السعادة ، وان صاحب الجلالة الشريفة قد وضع ثقته فينا فلنكن أهلا لها» .

وقد صوت الاعضاء الفرنسيون القادمون من فرنسا ، وعددهم ثلاثة ، مع الاعضاء المغاربة، بينما استعفى اثنان من الاعضاء الفرنسيين المختارين من الموظفين بادارة المعارف المغربية من عضوية اللجنة مدعين انها تسير فى اتجاه عدائى للغة الفرنسية، وصوت العضو الثالث من الاعضاء الموظفين بالمغرب مع الاعضاء الفرنسيين القادمين من فرنسا. فكانت اغلبية الفرنسيين مع الاعضاء المغاربة كلهم فى جانب المشروع، وبعد انهائه رفع باسم اللجنة لجلالة الملك الذى أبدى رضاه الكامل عليه وعلى مقرريه ، ولكن الاقامة العامة أبت المصادقة عليه لحد الآن، ولا يزال مولانا يرد اليه كل ما يعرضه عليه مدير المعارف من مشروعات ترجع للتعليم ، ولهذا يمكننا أن نقول ان فى تولى صاحب الجلالة الدفاع عن ميثاق التعليم المغربى خير ضمان لتحقيقه فى القريب العاجل باذن الله .

ولا ينبغى أن ننسى التنويه بما قام به ممثلو الغرف المغربية فى الدورة الاخيرة لما يسمونه بمجلس شورى الحكومة ؛ فقد تولوا الدفاع عن الاسس السابقة ، وعالجوا على ضوئها سائر الجزئيات المعروضة .

ويعمل الحزب بسائر الوسائل لتوحيد الوجهة الثقافية فى المغرب مع الوجهة الثقافية التى تعمل لها الجامعة العربية، وقد أوفد عنه للحضور فى مؤتمر لبنان التابع للجامعة العربية ، والمنعقد فى صيف سنة ١٩٤٧ الاستاذ عبد الكريم غلاب الذى اشترك مع الأستاذ محمد ابن عبود فى تمثيل المغرب الاقصى ، كما شارك ممثلو الحزب بفرنسا فى مؤتمر الطلاب العرب الذى انعقد بانجلترا .

فى الميدان الاجتماعى :

فأما فى الميدان الاجتماعى فانه ذو جوانب كثيرة لم يغفل الحزب ناحية منها ، ولعل من أهم هذه الجوانب ما يتعلق بالاصلاح الدينى والخلقى ؛ فان هيئة العلماء الاستقلاليين الذين يضمون الاغلبية الساحقة من رجال الجامعة القروية وكلية ابن يوسف والمعهد المكناسى وغيرها من المعاهد الدينية لا تألوا جهدا فى تطوير الوعظ الاسلامى وتوجيهه الوجهة الصالحة التى تنقله الى قلب المجتمع، وهى ما تنفك تطلق نيرانها لمقاومة البغاء الرسمى الذى يرى الحزب ضرورة الغائه ، كما تنبه الولاة المحليين لكل مظاهر البغاء غير الرسمى مساعدة لهم على مقاومته ، وتبذل جهدا جبارا فى القضاء على المسكرات والمخدرات فى الوقت الذى تدعو فيه الى الاهتمام بالجوانب البنائية فى الأسرة وفى المجتمع ، فتدعو لتعليم المرأة وتخص عليه، وتقاوم الذين ينكرونه باسم الدين ، ويجرها ذلك لمقاومة الجمود الذى يتسم به بعض أدعياء العلم ومحاربة بعض المتصوفة الذين يتجرون بالدين والوطن فى سبيل مصالحهم وأغراضهم ، والحزب يعتمد كثير الاعتماد على هذه الثلة الاسلامية التى تمثل خيرة الجامعيين المسلمين لا لمساعدته فى النهوض بالشعب وتنوير أذهانه فقط ، ولكن لمساعدته على تكوين النظريات المتفقة مع الاسلام ومع روح العصر فى جميع النواحى التى يتطلبها التطور المغربى .

وللعلماء الاستقلاليين صفحة خاصة أسبوعية من جريدة «العلم» ينشرون فيها أفكارهم ، ويخاطبون من منبرها الامة المصغية لنصائحهم وارشادهم .

ولقد سبق أن تحدثنا فى فصل الحركة السلفية عن الدور الذى قام به شيخنا العلامة محمد بن العربى العلوى فى الدعوة لتطهير العقول المغربية من الخرافات والاوهام ، ويمكنا ان نؤكد الآن أن هؤلاء العلماء

كلهم من تلامذته أو تلامذة تلامذته أو أقرانه الذين تنوروا بدعوته ومعرفته ، ولذلك يعتبر دائما مرجعهم الاعلى والمنارة التى يستنيرون بها كلما أشكل عليهم أمر او حزبهم شأن .

ويهتم الحزب اهتماما لا مزيدا عليه بتحسين حالة الاسرة بما يقوم به من دعوة شاملة للقضاء على بقايا التسرى ، وترك تعدد الزوجات ، وتحسين حالة المرأة والدفاع عن حق عائلات الموظفين والعمال، والمطالبة بالسكنى الرخيصة ، ومساهمته العملية فى هذا المعنى (فى اللجنة الملكية بمدينة القنيطرة مثلا) .

وبما أن الاسرة لا تستقيم الا بتكوين المرأة الصالحة، فان للحزب نشاطه الخاص فى هذا الباب بما أسسه من مدارس للبنات وما نظمه من هيئات خاصة بهن ، وللحزب اليوم هيئة عليا لنساء وفتيات الاستقلال تشرف على الحركة النسائية الحزبية ، وتعتبر الاستاذة ملكة الفاسى صلة الوصل بيننا وبين اللجنة التنفيذية والمجلس الاعلى للحزب ، وقد قامت هذه الهيئة بتنظيم نسائنا وفتياتنا ، وكونت عدة مدارس خاصة بالبنات او مختلطة ، كما رفعت فى السنة الماضية طلبها الرسمى لجلالة الملك لاحداث تعليم ثانوى للفتاة المغربية ، وانشاء فرع خاص بالمرأة فى جامعة القرويين بقسميها الدينى والادبى، وقد لبى سيدنا نصره الله الطلب وتأسست المدرسة الثانوية الاولى للبنات ، كما قبل مبدئيا انشاء الفرع القروى الخاص بهن ، ونرجو أن ينجز عن قريب ،

وتشترك المرأة اليوم فى كل مظاهر نشاط الحزب ، وخصوصا ما يتعلق باسعاف اليتامى والفقيرات فى المدارس والمؤسسات التثقيفية، وقد أظهرت سيداتنا وفتياتنا فى مأساة الدار البيضاء رقة وحنانا طالما حرم منهما المنكوبون المغاربة .

ولجريدة (العالم) صفحة اسبوعية خاصة بالمرأة تحررها سيدات الاستقلال وفتياته باقلامهن ، ويعرضن فيها مطالبهن وآمالهن ، ويتبادلن فيها مناقشاتهن ، وهى تكون لونا طريفا من الادب المغربى لم يسبق له مثيل فى تاريخنا .

ومن اهم المنظمات النسائية فرق المرشدات التى تربى الفتيات تربية جسيمة واخلاقية ، وتبث فيهن روح الجماعة والتعاون بينها .

وتلتقى مجهودات الشابات بمجهودات الشبان في التجمع والتطور عند لجنة الحزب الأجتماعية التى تشرف على التنسيق والتوجيه .

وقد نظم الحزب الشباب المغربى على حسب ما سمحت له الظروف ضمن فرق رياضية وكشفية تضاهى المنظمات العالمية الكبرى .

وتعتبر العصبة الحرة لكرة القدم التى اعترف بها اخيرا والتى تضم ازيد من مائتى فرقة وطنية بها نحو العشرة آلاف لاعب اهم المنظمات الرياضية فى افريقيا الشمالية ، ولقد ألقى الاستاذ احمد اليزيدى رئيس الغرفة التجارية بالرباط فى اثناء اجتماع ما يسمونه بمجلس شورى الحكومة تقريرا ضافيا عن تنظيم الشباب المغربى طالب فيه بضرورة فسح المجال لمنظمات الشباب واسعافها واعطائها حرية العمل الكافية .

والذى يثلج الصدر هو ان فرقة الكشافة التابعة للحزب لا تكتفى بمجرد التعاون فيما بينها او الحضور فى معسكرات أخوية ، بل تقوم بواجبها الكشفى لاسعاف المنكوبين واغاثتهم ، وكم انقد رجالها من افراد كانوا يريدون الانتحار وسيدات كدن يمتن من سقوط ردم عليهن ، واطفال مشردين لم يجدوا لهم مأوى.

وللشباب صفحتهم الاسبوعية ايضا من جريدة الحزب لتنسيق اعمالهم وعرض آرائهم .

وللحزب برنامجه الخاص فى مقاومة العطلة السائدة فى الاغلبية الساحقة ، وذلك بما يدعو اليه من تصنيع عام فى البلاد يشترك فيه قسم من اغنياء الوطن ورجاله ، وبما يبثه فى نفوس الشباب من العمل الحر وعدم الاعتداد بالوظائف او الاستنكاف من بعض الاعمال التى لم تكن معروفة من قبل ، ولقد دعا مرة اخرى للعطلة الأسبوعية فى يوم الجمعة ؛ تلك العطلة التى نفذها الحزب الوطنى ثم ارغمت السلطة المغاربة على تركها بعد ثورة اكتوبر ١٩٣٧ ،فلبى دعوته اهل فاس ومكناس وتازة ، وسيلبى غيرهم هذا الاصلاح الذى يعتبر من اكبر العوامل فى تشغيل العاطلين .

ولقد كان من نتائج المجهودات التى بدأها الحزب الوطنى ، وواصل العمل لها حزب الاستقلال تحديد الحكومات لساعات الشغل بالمعامل والمصانع والمناجم ، وتقرير العطلة الاسبوعية بها رسميا ولا يزال يبذل الجهد لاقرار ذلك فى القرية لتحسين حالة الفلاح التى هى اشد بؤسا من العامل والصانع ، وبفضل ارشادات حركتنا توفق اخواننا رجال الغرف المغربية (التجارية والصناعية والفلاحية والمختلطة) الى تكوين جامعة عامة بينهم انتخب لرئاستها صديقنا الاستاذ محمد الزغارى عضو المجلس الاعلى للحزب ، ونحن لا نشك فى ان هذه الجامعة ستقوم بعمل جليل

لتنظيم المجهود الأقتصادى الاهلى فى مراكش والعمل على تصنيع كامل للبلاد .

واما الحركة النقابية فقد سبقنا ان شرحنا الاسس التى يقوم عليها كفاحنا من اجلها ؛ فنحن نعمل فيها فى واجهتين ، فبينما نكافح لاعطاء المغاربة حق تأسيس النقابة المغربية الحرة اذا بنا نقاوم الاتحاد النقابى الفرنسى الذى يريد الاستلاء على العمال المغاربة وتسخيرهم لاغراضه .

ولقد كانت سياستنا هى منع العملة من الدخول للهيئات النقابية الفرنسية ، ولكن ازاء تشبث الاقامة العامة بمنع المغاربة من تأسيس النقابات الخاصة بهم أذنا للعملة بالانخراط فى (س. ج. ت.) الفرنسية بعد ما اشترطنا على الهيئة ان يكون لاخواننا جناح خاص بهم ، وعلى ان يكون لهم التمثيل الكافى فى مجلس الاتحاد ، وقد نجحت هذه المحاولة فتأسست نقابة (جرادة) (وخريبقة) وغيرهما من المراكز ، وقام العملة المغاربة باضرابات مختلفة للدفاع عن حقوقهم والمطالبة بتحسين احوالهم.

وطبيعى ان هذه الخطوة لا تعتبر الا مرحلة أولى يقصد بها الضغط على الحماية لتعترف بالنقابات المغربية ،ولقد صرحت الاقامة العامة بانها ستعترف بذلك كله ، ولكن وعدها ظل حبرا على ورق الى الان.

ويظهر الشغالون المغاربة نشاطا كبيرا فى الدفاع عن حقوقهم فى الوقت الذى يعملون فيه من تلقاء انفسهم على انتزاع حق التجمع بين نقابات مغربية مستقلة ، وعلى الرغم من المعاملة القاسية الاستثنائية التى يلقونها من طرف ولاة الحماية فانهم مستمرون فى كفاحهم المؤيد من الحركة الوطنية ومن سائر الاحزاب الديموقراطية بفرنسا .

ومن اكبر المظاهر التى وقعت فى تاريخ الحركات النقابية المراكشية الاضراب العام الذى استمر زهاء شهر بخريبقة (معمل الفسفات) سنة ١٩٤٧ ؛ لان مكتب الفوسفات الحكومى لم يحقق وعده بتنفيذ دفتر مطالب العملة المتعلقة بتحسين احوالهم .

وقد استعملت السلطة الفرنسية كل وسائل القمع للقضاء على حركة المقاومة العمالية الاخيرة، ولكنها لم تصل الى نتيجة عملية .

وقد حاصر الجيش مراكز أبى جنيبة وأبى الانوار حتى اصبح سكان القريتين مفصولتين عن باقى المغرب ووقعت حوادث عديدة حالت الرقابة الفرنسية دون نشرها فى الصحف المغربية، فنرى من الواجب تسجيل بعضها كمثال لما يلقاه اخواننا العملة فى سبيل الدفاع عن حقهم فى التجمع من اجل المطالبة بالاقل الحيوى

ففى يوم ٢٩ أبريل أوقف ستة من العملة المراكشيين وسيقوا للساحة العمومية بأبى جنيبة، وأمام السكان تجمعت القوات العسكرية وجلدت المعتقلين بالسياط الى أن أدمتهم

وفى يوم ٣٠ أبريل توجه قوميسار البوليس الفرنسى فى (يول) والمسدس فى يده ومعه قائد القرية ومراقبها المدنى الفرنسى، وهاجم مركز النقابة المحلى بأبى جنيبة، وقبض على المسؤول فى النقابة السيد الحسين مع مائة من رفقائه الذين يعملون فى المنجم، ثم سيق المعتقلون جميعا لاماكن لم تعرف بعد، وصدر أمر بمنع سكان أبى جنيبة من التوجه للاسواق لشراء حاجياتهم، وفى يوم ٤ مايو قطع الماء عن ابى جنيبة كلها، وهكذا عن طريق منع القوت والماء تريد السلطة ان تقضى على مقاومة العملة المغاربة.

أما فى أبى الانوار فان رؤساء العملة المحتشدين بمركز النقابة حاصرهم الجيش وبقوا من غير طعام أياما عديدة؛ لان البوليس لم يسمح لعائلاتهم ولا لاخوانهم أن ينقلوا لهم الطعام الا اذا اصدروا أوامرهم للعملة باستئناف الشغل، لكنهم لم يخضعوا لهذا الطغيان واستمروا فى عنادهم من اجل انقاذ بلادهم من سيطرة المتحكمين الماليين الفرنسيين.

وقد وقع نظير هذا فى جرادة بنواحى وجدة، وانتهى باصطدام عنيف أدى لقتل مدير فرنسى وبعض اعوانه من الصهيونيين

واذا كنا قد تحدثنا عن الحركة النقابية ومجهودها للتحرر، فيجب أن ننبه الى أن اخواننا العملة المغاربة لا يحملون أية عقيدة اجتماعية لا تتفق مع مبادئنا الاستقلالية، وانهم اذا كانوا اضطروا للانضمام للنقابة التى يتمتع بها الفرنسيون المقيمون بالمغرب فذلك لانهم لم يجدوا وسيلة أخرى للاعراب عن مطالبهم، وهم مؤيدون من حزب الاستقلال الذى يضم أغلبية قادتهم ومسيريهم

ويجب أن نصرح بأننا جميعا لا نرى الاضراب الا وسيلة مؤقتة للحصول على الحقوق الضرورية التى تضمن للمغاربة نيل نتائج أشغالهم الطبيعية، والا فالفصل فى الخلافات التى تقع بين العامل وبين المخدم له يجب ان يكون عن طريق التحكيم والوساطة التى تنظمها الدولة، ويخضع لها الجميع .

كما أننا لا نعتبر الكفاح النقابى الا جزءا من الكفاح العام الذى يرمى لتنظيم الامة والحكومة المغربية وحشدها جميعا لحماية الاستقلال

المغربى والاعتزاز بالتراث الوطنى المادى والمعنوى واننا لنعتقد انه ليس لنا كفاح غير الكفاح من اجل الاستقلال والحياة الحرة السعيدة فى وطننا الذى هو وطن سائر طبقاتنا والرابطة الكبرى بين كل مواطنينا .

العمل لتوحيد الصفوف :

لم تأل كتلة العمل الوطنى أولا والحزب الوطنى ثانيا جهدا فى سبيل توحيد الخطة فى شمال افريقيا بين مختلف هيئاتها واحزابها ، ولقد مضى وقت كانت فيه جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا ومؤتمراتها رمزا للمحاولات الكبيرة لتحقيق هذه الفكرة، ثم ظهرت هذه الروح بصفة اوضح بعد أن قامت الكتلة بمظاهراتها العظيمة على أثر اعتقالنا فى الدار البيضاء سنة ١٩٣٦ ، وجاءت حوادث اكتوبر سنة ١٩٣٧ فكانت أجلى فى الوحدة واوضح فى التضامن، ولم يزل ممثلو الهيئات الاستقلالية بباريس يعملون ويتضامنون وان لم يقع بينهم تنسيق رسمى ولا تنظيم عملى، ولقد كان من اول ما فكر فيه حزب الاستقلال على اثر تأسيسه أن يخطو بهذه العلاقات القلبية بين حركات الاقطار الثلاثة الى مدى اوسع ومجال اوفى، وقد انتهت المفاوضات الى عقد ميثاق بين (حزب الاستقلال) و (حزب الشعب الجزائرى) و (الحزب الحر الدستورى التونسى) وقع عليه مندوبو الاحزاب الثلاثة فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، وقد جاء فى مقدمة هذا الميثاق ما يلى :

«لما كانت شعوب شمال افريقيا متجهة نحو وجهة واحدة لمحاربة الاستعمار بجميع انواعه والسير نحو الاستقلال، وتثبيت السيادة الوطنية والعمل على وحدة الشمال الافريقى فى دائرة جامعة الدول العربية رأى ممثلو الهيئات السياسية الموقعة على هذا الميثاق أن يخرجوا هذه الوجهة المتحدة من حيز النظر والعاطفة الى حيز العمل راجين من المولى تعالى ان يسدد خطاهم ويبلغ مناهم الخ» .

وقد قيد هذا الميثاق موقعيه بعدم تغيير الخطة السياسية الموحدة الا بعد استشارة الآخرين والرجوع الى رأيهم

وترك الميثاق الباب مفتوحا كى تنضم اليه جميع الاحزاب المغربية متى شاءت .

وبمجرد ما أعاد انتهاء الحرب امكانية الاتصال بين شطرى مراكش جدد الحزب اتصالاته بحز ب الاصلاح، وأعاد ما كان بيننا من علاقات التضامن المتين والتآخى المكين

وحينما أطلق سراح الاستاذ الوزانى وأسس حزب الشورى والاستقلال، ولم نتمكن من مزج الحزبين بذلت مجهودات عالية برئاسة شيخنا العلامة محمد بن العربى العلوى انتهت بممثلى الجانبين الى الاتفاق على برنامج العمل مع احتفاظ كل منهما بشخصيته، وقد وضع ذلك البرنامج فى شكل الميثاق الآتى :

١ – اقرار كل حزب على الكيفية التى هو عليها الآن لئلا يتعطل السعى وراء الغرض المنشود وريثما يقع الفصل فى كيفية توحيد السعى المشترك.

٢ – ان كيفية توحيد السعى المشترك ان يوحد الحزبان ضمن حزب واحد يتفق فيما بعد على اسمه وتنظيمه وعمله.

٣ – لا نقبل الانخراط فى الوحدة الفرنسية، وانما تقوم العلاقات بين المغرب المستقل وفرنسا على أساس معاهدة جديدة

٤ – لا تعاون مع ادارة الحماية، وانما يلبى افراد الحزب نداء جلالة الملك للمشاركة الفنية مع اشعار اللجنة التنفيذية بذلك، أما أعضاء اللجنة التنفيذية فيرجع النظر فى مشاركتهم للمجلس الأعلى ، وذلك لما يتحملونه من المسؤولية السياسية فى الحزب، ولما يجب عليهم من حفظ مبدأ الاستقلال.

٥ – الوظائف الرسمية لا يدخلها اعضاء اللجنة التنفيذية او المجلس الاعلى، أما بقية الاعضاء فيستشيرون اللجنة التنفيذية

٦ – المخابرة مع الرسميين الفرنسيين تبت فيها اللجنة التنفيذية ما لم يقرر المجلس الاعلى خلاف ذلك، ويجب ألا تخل المخابرة بمبدأ عدم التعاون مع ادارة الحماية

٧ – عدم الدخول مع الشيوعيين فى جبهة، ولا يجوز الاتصال بهم الا على يد اللجنة التنفيذية

٨ – اليهود الذين لا يحملون جنسية اجنبية ولا ينتمون للصهيونيين يعتبرون مغاربة من رعايا جلالة الملك

٩ – الاحزاب المغربية الاخرى يتصل بها للسعى وراء توحيدها وتنسيق العمل معها

١٠ – وسائل العمل – السلمية المشروعة

١١ – شمال افريقيا – تعاون وتضامن وتنسيق

١٢ – الجامعة العربية – الاستعانة بها لتحقيق استقلال المغرب والسعى لتعجيل الدخول فى حظيرتها

١٣ ـ القضية المغربية فى الخـارج ـ تتخـذ الوسائل بعد أن أقيمت الحجة على فرنسا لعـرض القضية على هيئة الامم المتحدة عند سنوح الفرصة لذلك

وهكذا وضعت الحركة الاستقلالية المراكشية أسس الاتفاق التام فى المبادىء ريثما يتم التوفيق فى الوسائل.

واذا كان مشروع المعتدلين الذى سبـق ان أومأنا اليـه قد خرق مواد هذا الميثاق فان تأسيس (لجنة تحرير المغرب العربى) تحت رئاسة البطل العظيم عبد الكريم قد أعاد الامر الى نصابه، ووحد الاحزاب المغربية كلها ضمن مبدأ واحد، هو لا مفاوضة الا بعد الاستقلال

وانا لنتمنى ان يأتى ذلك اليوم الذى تتوحد فيه احزاب كل اقليم من أقاليم المغرب العربى ضمن حزب واحد يقوم على التوصيات السابقة فان مصلحة الامة فى القضاء على ما من شأنه ان يوهم الاجنبى وجود فرقة فى الصفوف أو خرق فى بنيان الحركة المتسق

تضامن الحزب
مع الحركات التحريرية العربية وغيرها

واذا كانت هذه الجهود المبذولة لتوحيد الصفوف قد رمت لغاية واحدة هى تكوين تضامن قوى بين الهيئات العاملة فى الشمال الافريقى فان تضامن حزبنا وسائر حركات المغرب العربى مع الشعوب والهيئات المكافحة فى بلاد العرب وغيرها أمر واقع ومستمر، ولقد دعوت فى خطبى بالقاهرة لعقد مؤتمر عام يضم الشعوب المستضعفة لتوحيد صفوفها وتنسيق جهودها لمقاومة الاستعمار والقضاء عليه، ويقوم الحزب الآن بدعوة عامة لعقد مؤتمر للشعوب القاصرة لنفس الغاية التى أشرت اليها، ومتى تم ذلك فستتم الخطوة المباركة لتحرير الانسانية نفسها بنفسها وان أبى الظالمون

أما مظاهر التضامن المعنوى فى مراكش فقد وجهها الحزب التوجيه الحسن فى كل المناسبات التى عرضت له، ولعل من أبرزها موقفه فى قضية فلسطين العربية؛ هذه القضية التى وحدت صفوف العرب وجمعت كلمتهم، وعلمتهم الشعور بما لهم من قوة معنوية ونفوذ روحى، ولقد والى الحزب حشد الشعب للاحتجاج على السياسة الصهيونية قبل التقسيم وبعده، وطالب مع الشمال الافريقى جمعية الامم المتحدة بالاستماع لرأيه فى الموضوع، وما أعلن العرب دخولهم فلسطين لتأديب العصابات الصهيونية حتى قام الحزب للتكتل والتضامن ومقاطعة الصهيونيين فى داخل البلاد، كما خصص مساعدات بعث منها الدفعة الاولى للجامعة العربية، كما بعث قسطا منها للترفيه عن الجيوش العربية المتحالفة

على أن مجهوده ليس الا جزءا من المجهود الوطنى العام الذى قامت به الامة من تلقائها بالثورة على الصهيونيين ومراقبتهم والهروب من خلف السدود الحديدية للانخراط فى صفوف المكافحين العرب، ولقد بلغ متطوعو الشمال الافريقى زهاء الخمسة آلاف شخص قبل بعضها واضطر البعض للرجوع من حيث اتى بسبب الرقابة الفرنسية والاسبانية وغيرهما ولقد كتب الصدر الاعظم لدولة مراكش الحاج محمد المقرى رسالة لعزام

باشا يعلن فيها باسم جلالة الملك تضامن الحكومة الشريفة مع ملوك العرب ورؤسائهم، وكان لهذه الرسالة أثرها فى نفوس العرب، كما اعتبرت من طرف الفرنسيين خرقا لمعاهدة الحماية لانها اتصال من المغرب بدول أجنبية من غير وساطة فرنسا، ولكن مولاى الملك لا يعتبر الحدود القائمة بين المغرب والبلاد العربية الا حدودا اصطناعية، ولا يمكنه كملك مسلم ان يقف مكتوف اليد ازاء العدوان الصهيونى على البلاد المقدسة

ولما قدمت مصر قضيتها للامم المتحدة بادر الحزب باعلان تضامنه معها بواسطة البرقية التى وجهها الامين العام الحاج احمد بلافريج لدولة النقراشى باشا وبواسطة البرقية التى بعثتها من القاهرة لكاتب الامم المتحدة العام، وكان موقف الاحزاب المغربية كلها متحدا معنا فى هذا التضامن المتين

وبمجرد ما قامت فى اندونيسيا ثورة التحرر من الهولانديين بادر الحزب فى مناسباب عديدة لاعلان تضامنه مع المجاهدين الابرار

كما نظم الحزب حفلات عظيمة بمناسبة استقلال الهند والباكستان اعتقل بأثرها بعض اعضاء حزبنا فى مختلف الجهات .

وقد احتج الحزب على تجنيد المغاربة فى حرب الفيتنام ووجه انبطل عبد الكريم رئيس (لجنة تحرير المغرب العربى) نداء للمغاربة يحثهم فيه على الانضمام للمقاتلين الاهالى لانه لا يصح أن يؤيدوا الاستعمار وهم يطالبون بالتحرر فى بلادهم، ولا تمر فرصة دون ان ينتهزها اخواننا بباريس ويعقدوا مهرجانات مشتركة مع أحزاب افريقيا وآسيا للتنديد بالاستعمار والمطالبة بالعدل للجميع

على أن هذه المظاهر ليست الا ارهاصا للتضامن الاكبر الذى سنعمل له حتى يتمكن المستضعفون فى سائر انحاء الارض من انتزاع حقوقهم من يد الغاصبين، وذلك ما يجعل حركتنا حركة انسانية تريد الخير لنا وللذين لا يربطنا معهم الا روابط الاحساس الانسانى المجروح

توجيه البلاد نحو الجامعة العربية

لقد اصبحت الوحدة العربية التى ظلت فى نظر الكثيرين أملا بعيد التحقيق حقيقة واقعة، وظفر المواطنون العرب الذين قضوا اجيالا عديدة فى بذل الجهود من اجل هذه الوحدة بتحقيق وحدتهم، واضمحلت جميع الصعوبات والعقبات والمعارضات التى لاقتها الفكرة منذ نشأتها أمام المبادىء الظافرة فى جو الحرب الاخيرة، وقد انتهت المفاوضات التى استمرت منذ سنة ١٩٤٢ ـ كما هو معلوم ـ الى اتفاق عام، وأمضى ميثاق الامم العربية يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ من طرف الحكومات العربية المستقلة وهى : مصر، والعراق، والمملكة العربية السعودية، وسوريا، ولبنان، واليمن، وشرق الاردن، ويحتوى الميثاق على النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولقد أملى الميثاق رغبة الدول العربية فى تمتين الروابط التى توحد بينهما، وتأكيد علائقها على اساس الاحترام التام لاستقلال كل منها، وتثبيت دعائم سيادتها، وتوجيه مجهوداتها لصالح سائر البلاد العربية من أجل تحسين حالتها، وضمان مستقبلها، وتحقيق أمانيها، فيمكن ان يعتبر المثياق اذن عقدا ديبلوماسيا وعهدا اعتقاديا .

والرأى العام العربى الذى اتبع باهتمام خارق سير المفاوضات التى جرت بين ملوك العرب ورؤسائهم أعلن اطمئنانه التام للنتائج الحاصلة وتيقن بمستقبل عظيم الازدهار، اذ ان الخطوة العظيمة قد تمت، وأصبح من الممكن أن يتكلم عن كتلة عربية تستطيع ان تساعد ـ بالتعاون مع المنظمات الاجتماعية الاخرى ـ على هناءة العالم وأمنه .

ومن جهة اخرى فان القبول الذى لاقته الوحدة العربية فى أوساط الحلفاء ابان الحرب هيأ لها سبيل الاشتراك الفعلى فى تأسيس قواعد السلام العالمى، فقد اشترك العرب فى بناء الامم المتحدة، وبذلوا جهدا لا ينسى فى محادثات سان فرانسيسكو حيث عبروا عن وجهات نظرهم فى ثقة واطمئنان.

ولكن اذا كانت الدول العربية السبع قد متنت علائقها نظرا لتمتعها بوسائل السيادة فمن الانصاف أن نعترف بأن الوحدة العربية لا زالت

فى حاجة الى انجاز، وستبقى ناقصة وفاقدة قيمتها اذا هى حصرت عملها على البلاد التى تحد العراق فى الشرق ومصر فى الغرب.

والواقع أن الوحدة العربية تشتمل ـ حسب الميثاق العربى نفسه ـ على كل البلاد الواقعة ما بين الخليج الفارسى فى الشرق وبين المحيط الأطلسى فى المغرب الاقصى، فاذا لم يصبح المغرب العربى عضوا فى الجامعة العربيـة فذلك لان وضعيته السياسية وظروفه الخاصة منعا من التمتع بحريته الديبلوماسية، ولكن سبيله قد عبدت، وقد صرح من اول اليوم بأن مصيره مع الشعوب العربية التى تربطه واياها روابط كثيرة

وفى هذا العالم الخارج عن الحرب العالمية الثانية تبحث جميع الامم الصغيرة فى كيفية وضع اتفاقاتها على أسس المصالح المشتركة، ولذلك فان مراكش ترى مكانها الطبيعى فى دائرة الجامعة العربية ومعها فى ذلك الجزائر وتونس، وقد عبر عن هذه الرغبة (حزب الاستقلال) فى المذكرة التى رفعها لـرئيس مؤتمر الوحدة العربية المنعقد بالقاهرة بثامن مارس سنة ١٩٤٥ ، وقد جاء فى هذه المذكرة ما يلى :

«لو كانت الظروف السياسية التى لا تجهلها سعادتكم تسمح لمراكش بالمشاركة فى اشغالكم لمثلها فى مؤتمركم وفد رسمى يتمتع برضى جلالة الملك وثقة الشعـب المغربـى، وقد أعلن المغرب فى سائر المناسبات تعلقه بوحدة الشعوب العربية، وهو يرى فيها احد أعمدة السلام العالمى الـذى تعمـل الامم المتحدة على نشره، لكـن سياسة القمع انتزعت منه وسائل الاشتراك فى جميع الاعمال التى يقوم بها اخوانه فـى المشرق ، كما منعته من أن يرفع صوته خارج حدوده الضيقة.

وايضا فان (رابطة الدفاع عن مراكش فى مصر) أبلغت رؤساء العرب عدة نقط فى هذا المعنى

وان انخراط مراكش فى الجامعة العربية ليستند الى أدلة تاريخية ولغوية وعاطفية.

وهذا ما حاول الحزب اثباته للعالم الغربى فى عدة مقالات ومذكرات تتلخص فيما يلى :

تاريخ مراكش منذ الفتح العربى هو جزء من تاريخ الحضارة العربية ولا يمكن أن يدرس بعضه دون التعرض للآخر، والعرب الذيـن اندفعوا بروح العقيدة الاسلامية فتحوا بلاد البربر لينشروا فيها دعوتهم الاسلامية، وقد نجحوا فى غرس روح العروبة فى هذه البلاد، ولم تزل منذ ذلك الوقت فى الأزدهار، وقد ساعد الدين الجديد العرب على نشر نفوذهم فى المغرب

حتى أصبح من ملاجىء العروبة والاسلام الكبيرة، وقد ساعد العرب بفضل تسامحهم على تقوية روح الاستقلال وتشجيعها فى نفوس الاهالى وهكذا عبدوا الطريق للعائلات المغربية المالكة فى المغرب الاقصى.

ومع ان مراكش احتفظت دائما باستقلالها منذ ثورة الملكة البيزنطية فان تاريخها بقى دائما مرتبطا بالتاريخ العربى، ونحن لا ندلى بحجة أعظم مما قام به المغاربة من انشاءات فى سائر البلاد العربية، واحتلال اسبانيا بالجيوش المراكشية وقيادة طارق بن زياد فتح الباب للمدنية العربية كى تسود فى رياض الاندلس أثناء العصور الوسطى الاوربية كلها. والاسماء المراكشية اللامعة ملأت سمعتها سائر أوقات التاريخ، وليس من الممكن تعدادها، ويكفى أن نستحضر منها أمثال الادريسى الجغرافى الكبير وابن رشد الفيلسوف المغربى الخطير وابن بطوطة الرحالة الشهير.

ولم تقم فى البلاد حركة بما فيها الحركة الوطنية القائمة الا وكانت مرتبطة كل الارتباط بالاتجاهات الكبيرة فى العالم العربى

وهكذا نرى مراكش مستمرة الارتباط فى الماضى والحاضر بمصير البلاد العربية .

واذا قطعنا النظر عن هذه العلاقات التاريخية وجدنا رابطة اللغة ؛ فاللسان العربى لسان العقيدة الاسلامية انتشر فى مراكش انتشار العقيدة الجديدة، ولقد قام علماء الاسلام بتربية الذوق العربى فى نفوس المغاربة حتى أصبح جزءا من الحاسة الدينية فى أعماقهم، واللسان الواحد المقروء فى مراكش هو اللسان العربى الغنى بمعجمه الساحر، والذى كان القناة الوحيدة لاتصال المغرب بالمشرق العربى وما مر فيه من تيارات مختلفة .

اما الروابط العاطفيـة التـى تجمع بيننا وبين عرب المشرق فهى بالطبع ناشئة عن هذه الروابط اللغوية والتاريخية، ولعله من المناسب ان نلاحظ ما شعر به الشعب المغربى من تأثرات بمناسبة أحداث الخير والشر التى وقعـت فى البلاد العربية، فهنالك يبدو الاتصال الروحى بين هذه الشعوب الشقيقة التى تشترك فى جميع الآلام وتتحد فى كل الآمال، وهل ننسى تلك المسـرة التـى وجدهـا الشعـب المغربى وهو يحتفل باستقلال مصر سنة ١٩٣٦ حيث نظمت عدة مهرجانات وحفلات فى سائر جهات المملكة الشريفـة، وبعثت للحكومة المصرية عـدة برقيات ورسائل للتهنئة، وهكذا فى سائر المناسبات التى تقع على شاطىء النيل، ومثل ذلك وقـع حينما قـررت حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية اعطاء سوريا استقلالها، وكم كانت خيبة المـراكشيين عظيمة حينما رفـض المجلس

الفرنسى المصادقة على المعاهدة السورية الفرنسية، ولما وقعت حوادث الهجوم الفرنسى على سوريا ولبنان بعد ان كان الجنرال ديجول أعلن استقلالهما هاج نفوس المغاربة الذين تابعوا سير الامر باهتمام زائد

وقد تابع المغاربة كذلك بتطلع كبير سير المفاوضات التى سبقت اعلان ميثاق الجامعة العربية، وكانت أدق التفاصيل موضوع الشرح والتعليق من الجميع، ولما أعلن الميثاق العربى قابله الكل بسرور لا مزيد عليه واعتبره الرأى العام المغربى من أكبر الحوادث التى جرت فى هذه الحرب .

وأيضا فان المغرب الذى يكافح فى الوقت الحاضر من اجل حريته ينتظر من الدول العربية عونا نافعا على ما يبذله من جهد فى سبيل الرشد وقد قرر ميثاق الجامعة العربية فى ملحقه بذل هذه المساعدة فى شكل تعاون وثيق بين الدول العربية الموقعة على الميثاق وبين الدول العربية الاخرى التى ما تزال تحت سيطرة الاجنبى، وعليه فيمكننا القول بأن الحكومات العربية بالمشرق تمس بضرورة ادخال مراكش وغيرها من بلاد المغرب العربى فى حظيرة الجامعة العربية، وأنها موقنة بالدور الذى يمكن أن تقوم به بلادنا فى المستقبل العربى لما لها من المركز الجغرافى الممتاز وبما تملكه من امكانيات فى ميدان التعاون الاقتصادى الذى سينظم بين الامم العربية .

ولم تزل مختلف الهيئات العربية ترفع صوتها بضرورة تكوين جامعة تمتد الى الطرف الغربى بمراكش، ومن بينها نداء وجهته جمعية الرابطة العربية فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ جاء فيه ما ملخصه :

«ان من المؤسف أن يظل المغرب العربى الذى هو جزء لا يتجزأ من ميراثنا العربى والذى يحتوى على ما يقرب من نصف الاراضى العربية بعيدا عن الوحدة العربية مع أن شعوبه ظلت مخلصة للعروبة برغم الضغط الاستعمارى ومحاولات المحتلين محو كل الروابط التى تربطهم بالمشرق العربى، ولقد صرح غير ما مرة رؤساء هذه الشعوب ومواطنوها بحقهم الطبيعى فى الانضمام للجامعة العربية، والحقيقة ان كل كتلة عربية كيفما كان شكلها يجب ان تضم اليها القسم المغربى من البلاد العربية لكى تؤتى الوحدة ثمرتها وتتحقق آمالنا فيها.

ولقد قامت شخصيات مهمة بشرح هذه الفكرة فى مختلف المناسبات التى أتيحت فى بلاد الشرق ؛ نذكر من بينهم اسم الاديب الكبير الدكتور طه حسين بك فقد ألقى محاضرة عنوانها (العلاقات الثقافية بين مصر

والدول العربية) بمدرج الجامعة الامريكية فى سنة ١٩٤٤، وما جملة ما صرح به الاستاذ الكبير ما يأتى :

«لقد التفتت مصر الى المشرق وجيرانها الشرقيين، لكن لا يمكنها فى الوقت الحاضر أن تقصر فى شأن المغرب حيث يعيش شعب تربطنا به روابط عديدة، وأعنى بذلك افريقيا الشمالية التى كانت مدة العصور الوسطى صلة بيننا وبين الاندلس، والتى أعطتنا شخصيات عظيمة مثل ابن خلدون .

«هل ينبغى ان تقف الوحدة العربية عند الحدود الغربية المصرية ؟ ان وحدة مثل هذه لوحدة عرجاء ؛ لانها مبتورة من نصف الامة العربية ، فعلى الذين يعملون لتنظيم تعاون وثيق بين البلدان العربية أن يستحضروا دائما أن هناك مغربا عربيا»

وهكذا فان للمغرب الذى يعتبر امتدادا طبيعيا للبلاد العربية الحق فى أن يطلب مكانه فى حظيرة الجامعة العربية لتحقيق استقلاله والتعاون معها على ما يحقق سلامة الكل وطمأنينة الجميع، خصوصا وقد أثبتت هذه الحرب ان الدول المنعزلة لا يقرأ لها حساب فى عالم الغد، فلكى يستطيع المغرب الحياة والازدهار يجب ان ينضم لطائفة من الشعوب، وقد عرض أمامه للاختيار اتحادان : الاتحاد الفرنسى الذى لم يتبلور شكله بعد، والاتحاد العربى الذى أصبح حقيقة واقعة

ففى الاتحاد الفرنسى الموعود يجد المغرب نفسه ـ قياسا على تجاربه الماضية ـ فى منتهى العناء ؛ لان بينه وبين فرنسا تعارض المصالح وتناقض العقائد، وانه ليحس بأنه لم يكن الا موطن استغلال منذ امتلكت فرنسا ناصية أعماله، فقد سخرت ثروته كلها لفائدة ثلة من المستعمرين الذين يعيشون عالة على السكان الحقيقيين، وأصابت شعبه بسياسة الادماج والتجهيل والافقار والتحقير والتقسيم، وبالجملة فهو مقتنع بأنه لن يحصل على السعادة فى ضمن هذه الوحدة الاستعمارية، بل سيظل بمثابة مخزن للمواد الاولية ومولد لأعطاء الجنود والمقاتلين

وعلى العكس من ذلك فسيتيح له انضمامه للاتحاد العربى فرصا سعيدة يصبح معها عضوا من هذه العائلة الشرقية التى انتسب اليها منذ قرون عشرة، والتى أبعد عنها لاسباب خارجة عن ارادته ، وسيكون متمتعا بكامل الحرية فى الاستفادة من تجارب أشقائه الرشداء لتجديد أنظمته ، ثم المشاركة فى احياء هذه الحضارة التى بنيناها معا والتى سبق أن أشرقت أنوارها على المتوسط جميعه

فاختيار مراكش اذن قد وقع

وكل ما ترجوه البلاد المغربية هو أن تضع الدول ثقتها فى هذه العائلة العربية السعيدة بتجمع أعضائها لكى تعيش فى اخاء مع الجامعات الاخرى فى ظل المحبة المشتركة للحرية وللسلام

تلك هى الروح العامة التى ملكت كتابات رجال حزب الاستقلال ودعاته الابرار لتوجيه الشعب المغربى نحو الجامعة العربية، ولاقناع الرأى العام العربى والاجنبى بأن مراكش وسائر المغرب ليس الا جزءا لا يتجزأ من بلاد العرب .

ولم تكن هذه الدعوة فى الحقيقة الا تعبيرا عما يشعر به الشعب فى نفوس المغاربة وأصبح الكفاح من اجل الجامعة العربية جزءا لا يتجزأ من الكفاح الوطنى العام .

وقد توج هذا المجهود وباركه موقف مولانا صاحب الجلالة سيدى محمد نصره الله من الجامعة العربية، خصوصا بعد التصريح الذى ادلى به جلالته فى خطابه التاريخى بطنجة المغربية

وقد خطت القضية المغربية فى مدرج الجامعة واوساطها خطى فسيحة، وأصبح شعور العرب بضرورة الاهتمام بالمغرب العربى يقوى يوما فيوما، بل لقد اصبح الرأى العام العربى يضغط على المسؤولين فى الجامعة العربية، ويبعثهم على الاهتمام بالجناح المغربى من ارض العرب، وكل ذلك بفضل مظاهر التعلق الذى ما انفك الشعب المغربى يعلن عنها فى كل المناسبات نحو العرب وأمانيهم المشتركة

مواجهة الرأى العالمى

لقد استعد (حزب الاستقلال) فى أثناء الحرب الاستعدادات الداخلية الضرورية، وهيأ نفسه لمواجهة الغد الدولى او عالم ما بعد الحرب؛ لانه يعتقد ان الخطوة الثانية التى يلزم ان تخطوها القضية المراكشية هى خطوة الدعاية فى أوساط لم تطرقها من قبل، خصوصا بعد ان اعذر لنحكومة الفرنسية مختلف الاعذارات وبعد ان يئس من كون الديبلوماسية الفرنسية تعدل من تلقاء نفسها عن سياستها الاستعمارية التى دأبت عليها منذ عهد غير قريب .

ولقد انتهت الحرب العالمية مسفرة عن سلسلة من الاتفاقات الدولية التى تعطى حق تقرير المصير وتؤكد حقوق الدول فى أن تحكم نفسها بنفسها، وكانت فرنسا احدى الدول التى وقعت بامضاء الشرف والكرامة وثيقة الاطلسى وميثاق سان فرانسيسكو وغيرهما ، فانفتح أفق جديد لفضح الاستعمار ورفع الصوت عاليا ضدا على أساليبه الجائرة

واتجه رأى الجميع الى ضرورة تنوير الرأى العام العالمى اولا، ثم عرض القضية المغربية على الامم المتحدة بصفة رسمية لترى رأيها فى هذه الاساليب الجائرة التى لا تنفك فرنسا واسبانيا سائرتين بمقتضاهما فى بلاد المغرب العربى

ولقد تحدثنا عن أعمال وفود الحزب ومبعوثيه فى فرنسا وانجلترا وامريكا وفى الشرق العربى، وها نحن اولاء الآن نعرض لبعض ما قام به الحزب فى أوقات مختلفة من دعاية أمام سفراء الدول وأمام الامانة العامة للامم المتحدة، وفى مقدمة ذلك المذكرة التى رفعتها لجنته التنفيذية يوم ٨ مارس سنة ١٩٤٥ على أثر انعقاد مؤتمر سان فرانسيسكو لسفراء الدول المتحالفة، وهى ترمى الى التذكير بالمجهود الحربى الذى قامت به مراكش فى سبيل قضية الحلفاء وتطالب بحق الدولة الشريفة فى أن تسمع صوتها أمام مؤتمرات الصلح، وها هى ذى المذكرة :

«ان حرب الامم المتحدة ضد قوات الطغيان قد دخلت فى طورها الحاسم، وأخذت المانيا الهتلرية تتلقى الصدمة الاخيرة التى ستمحق وتحسم مادة النزاع العالمى.

«ولقد تلقى الشعب المغربى بمزيد الارتياح جو انعقاد المؤتمر الدولى بسان فرانسيسكو فى ٢٥ ابريل، واكبر آماله أن يحظى بمكانه بين الامم المتحدة رعيا لمساهمته فى المجهود الحربى وما تحمله فى سبيل ذلك من تضحيات جسيمة.

«نعم كان انضمام المغرب الى جانب الامم الديموقراطية من اول وهلة صادقا صريحا، فانخرط فى حزب المناوئين لدول المحور اثر تصريح ملكى بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٨ فحواه : أن سلطان المغرب ورعاياه مستعدون فى حالة نشوب حرب للوقوف كرجل واحد بجانب فرنسا» وأصبح هذا الاستعداد أمرا واقعا من بعد خطاب جلالته الذى تلى فى جميع مساجد المغرب يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ومما جاء فيه :

(فمن هذا اليوم الذى اتقدت فيه نيران الحرب والعدوان الى اليوم الذى يرجع فيه اعداؤنا بالذل والخسران، يتعين علينا ان نبذل لها (فرنسا) الاعانة الكاملة ونعضدها بكل ما لدينا من الوسائل غير محاسبين ولا باخلين) .

وهكذا أصبح المغرب فى حالة حرب من المحور لا بمجرد التبعية فحسب، بل بنص صريح أراد عاهل البلاد أن يبين فيه بجلاء موقفه ازاء هذه المعمعة الكبرى للدفاع عن الحرية.

أما الشعب المغربى فقد لبى بحماس قوى ملكه المحبوب؛ الامر الذى حدا بفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية المسيو البير لوبران ان يقول فى برقية الى صاحب الجلالة «ان المغرب يمكنه ان يعتمد من جهته على مساعدة فرنسا التامة» كما حدا بسيادة المقيم ان يصرح بتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٩ «ان فرنسا لن تنسى أبدا ذلك الحماس الذى أبداه ملك المغرب وشعبه فى الوقوف الى جانبها للدفاع عن الحق والعدالة»

ومن ذلك الحين أصبحت البلاد برمتها فى حالة حرب، فأعلنت الاحكام العرفية، وحجزت حالا أموال الاعداء واعتقل رعايا دول المحور ، بينما كانت تسخر جميع موارد البلاد لحاجات الجيوش المحاربة، وأخذ المتطوعة من المغاربة يتوجهون الى مختلف ميادين القتال، وأضحت أرضنا معرضة للغارات الجوية. وبعد انتهاء معركة فرنسا كانت خسائرنا فادحة، ولا يزال الاسرى المغاربة وراء الاسلاك الشائكة ينتظرون حتى الآن جيوش التحرير، ثم جاءت هدنة شهر يونيو سنة ١٩٤٠ فحافظ المغاربة على موقف مشرف كله عزلة نحو لجان المراقبة بحيث لم يثبت عليهم تعاون مع العدو.

«وكان موقفهم بعكس ذلك ازاء قوات الحرية التى اقتبلت بحفاوة عظيمة يوم نزولها بالمغرب فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٤٢. وهنا كان ايضا الذى رسم لنا الخطة التى يجب ان نسلكها هو جلالة الملك برفضه رفضا باتا باتفاق مع مجلس وزرائه ـ أن ينقل الحكومة (المخزنية) الى داخل البلاد لمواصلة المقاومة التى كان يرغب فيها الجنرال نوجيس

«وان وجود قوات حليفة بين أظهرنا بمعسكراتها واسطولها وما يستلزم كل ذلك من حقوق خاصة جعلت البلاد تتحمل تكاليف شديدة ، اذ ساهم المغرب بحظ وافر ـ بفضل التقتيرات التى فرضها على نفسه ـ فى مون الجيوش الحليفة المستقرة بالشمال الافريقى وصقلية وايطاليا ، وفى مون سكان فرنسا المحررة كما سخر زيادة على ذلك يدا عاملة لا يستهان بها للعمل فى الموانى والقيام ببناء المطارات واصلاح الطرق ، وكانت هذه الطرق التى تخترق الجبال فى معظم الاحيان عرضة للاتلاف المحلى، خصوصا فى وقت كانت فيه شمال افريقيا مسرحا لدعاية راديوفونية محورية واسعة النظام، وكان يعتبر الرأى الاسلامى لا يزال تحت تأثير انتصارات أوائل الحرب

«ومع ذلك كله لم يقع خلال المعارك التونسية ـ كما نص عليه المسيو ادوار ستيتنيون فى كتابه (الاعارة والتأجير سلاح الانتصار) ـ لم يقع اى حادث مهم يمكن عزوه مباشرة الى عمل اتلافى فى جميع طرق مواصلاتنا بالمغرب والجزائر

ونحن فى غنى عن ذكر العبء المالى الثقيل الناشىء عن مصارف الحرب والذى يعد بالملايين عند تقرير التضحيات المادية التى تحملها المغرب فى سبيل انتصار قضية الامم المتحدة .

«اما مساهمة المغرب بدم ابنائه فلم يبق مجال للاشادة بها بعد جميع التصريحات الفرنسية الرسمية والانجليزية والامريكية التى نوهت غير ما مرة ببطولة وشهامة الرماة والصبايحية ورجال القوم المغاربة، فما اكثر عدد رجال المغرب بين صفوف الفرق التى حررت تونس وايطاليا وكورسيكا وجنوب فرنسا والالزاس، وهم يستعدون الآن لاجتياز نهر الرين

«فاذا كانت قيمة الامم تقاس بمزاياها لا بحجمها، واذا كان لكل أمة ـ كبيرة او صغيرة ـ ساهمت فى الجامعة نصيبها فى هذه الوحدة الدولية ـ طبقا لميثاق الامم المتحدة ـ صار اذن من الواجب على حزب الحرية ان يحتفظ لامتنا بحظها فى الانتصار

لذلك كله فان (حزب الاستقلال) الذى يعبر بأمانة ووفاء عن رغبات الشعب المغربى يرى من العدل ان يعترف للمغرب بمثل ما للامم المتحدة من الحقوق، ويطلب ان توجه الدعوة الى ممثلى الامة الاكفاء للمشاركة مباشرة فى المؤتمرات الدولية للدفاع عن قضيته واثبات حقوقه، وهو يطلب ذلك باسم آلاف المغاربة الذين ذهبوا ضحية فى سبيل الحرية خلال الحرب الماضية، وباسم جميع الآلام المتنوعة التى تكبدها الشعب المغربى وباسم مبادىء الحق والعدالة التى هى الغاية السامية للديموقراطية المحاربة»

واستمر الحزب يوالى مجهوداته لاقناع الامم المتحدة بضرورة الاستماع اليه فى الشؤون المعروضة والتى لها علاقة بالمغرب من قريب او بعيد، وهكذا طالب رسميا بأن يتاح له الادلاء بصوته فى قضية فلسطين وفى قضية ليبيا نظرا لما لهذه الاقطار من مصالح مشتركة مع الدولة المراكشية التى خاضت غمار الحرب وضحت فيها بصفة مستقلة لا بصفة تابعة .

وقد سبق ان أومأنا للوثيقة التى قدمها مندوب الاحزاب الاستقلالية عن المنطقة الخليفية بمناسبة خوض الامم المتحدة فى قضية فرانكو والعلاقة التى ينبغى ان يسير عليها أعضاء المنطقة الدولية مع حكومته ، وقيل ذلك بقليل أى فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧ رفعت الخارجية الفرنسية تقريرا عن أعمالها فى مراكش للجنة الوصاية التابعة للهيئة حاولت ان تستر فيه فضائح الاستعمار الفرنسى فى بلادنا، ولكن (حزب الاستقلال) الحارس الامين على مصالح البلاد أجاب عن هذا الفعل بمذكرة رن صداها فى أرجاء العالم وضح فيها أنواع السيطرة السياسية والثقافية والقضائية وأنواع الميز العنصرى القائم عليها نظام الحماية الفرنسية فى المغرب ، وقد جاء فى الرسالة التى قدم بها الامين العام للحزب هذه المذكرة للامين العام للمنطقة الدولية ما يأتى :

«لقد كان تأسيس هيئة الامم المتحدة باعثا لآمال عظيمة فى نفوس اولئك الذين لا يزالون يرزحون تحت سيطرة الدول الكبرى الاستعمارية فى ظل انظمة الاستغلال والاستعباد .

«على ان بعض اعضاء الهيئة الذين يحترمون مصادقتهم على ميثاق هيئة الأمم المتحدة قد اخذوا يحاولون تجديد نزعاتهم العتيقة والاعراب عن رغباتهم الحسنة فى اعطاء الحرية للشعوب الواقعة تحت حكمهم .

«ولكنا نجد مع الاسف ان بلادنا رغم ما بذلته من تضحيات لانتصار الديموقراطية ما تزال ترزح تحت نظام من اشد الانظمة طغيانا يقضى على جميع الحريات ولا يتفق ابدا مع روح ميثاق هيئة الامم المتحدة ولا مع نصه

«وتشتمل هذه المذكرة التى يتشرف حزبنا بتقديمها اليكم ـ ياصاحب السعادة ـ على تحليل موجز لحالتنا الحاضرة ، ولقد لخصنا فى آخرها آمالنا التى هى آمال الشعب الملتف حول عاهله سيدى محمد بن يوسف الذى انتهز كل فرصة للاعلان عن رغبته فى ان يرى الامة المراكشية تتبوأ المكانة اللائقة بها فى مصاف الدول .

وجاء فى خاتمة المذكرة تلخيص لاعمال الحماية الفرنسية بعد خمس وثلاثين سنة فى مراكش ، وهى تنحصر فيما يلى:

تقسيم اراضى المملكة الى مناطق مختلفة النفوذ ، ونقسيم منطقة النفوذ الفرنسى نفسها الى كتلتين مصطنعتين لضرب احداهما بالاخرى : وذلك بتطبيق السياسة البربرية .

واقامة حكومة اسمية مسلوبة من كل قدرة ، وذلك لمصلحة الادارة الفرنسية المستبدة والتى تتصرف مباشرة فى شؤون البلاد ، وتطبق النفعية العنصرية فى جميع النواحى .

ومحاولة الحط من ظروف المراكشيين التى نجمت عن سياسة التفقير والتجهيل والظلم، وخنق الحريات العامة ، وتمكين الفرنسيين المقيمين فى مراكش من الحقوق السياسية بالرغم عن انظمة البلاد وعن القانون الدولى .

ولم يخضع الشعب المراكشى قط لمثل هذه التصرفات لانه يغار على ماضيه ويشعر بالدور الذى لعبه ويمكنه ان يلعبه مرة اخرى فى تاريخ حضارة البحر الابيض المتوسط ، وقد انتهى رد الفعل الذى احدثه الاستعمار الفرنسى الى القرار الذى تضمنته وثيقة ١١ يناير سنة ١٩٤٤ التى أصدرها حزب الاستقلال، فقد قررت بعد ان اكدت بطلان النظام الذى فرض سنة ١٩١٢ ان الحل الوحيد للازمة المراكشية هو ان يعلن استقلال البلاد ، ويوضع لها نظام دستورى ملكى تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة سيدى محمد .

ويندرج هذا الاستقلال فى اطار العالم الجديد الذى خلقه ميثاق الاطلسى وهيئة الامم المتحدة ، ويجب ان يتحقق هذا الاستقلال لان مراكش قد بذلت تضحيات كبيرة فى سبيل انتصار الحرية والخلق الدولى .

اما ما يدعى بالاصلاحات التى اعلنت عقب ١١ يناير سنة ١٩٤٤ والاضطهادات الدموية التى تلته ، فانها لا تهدف الا الى تعزيز السيطرة الفرنسية اقتصاديا وسياسيا على مراكش ، والى ان تقضى بصفة بسيطة نهائيا على الشخصية المراكشية ، وليس فى استطاعة هذه الاصلاحات ان تخدعنا لاننا مقتنعون بانه يجب قبل كل شىء وضع نهاية لهذا النظام الشائن وتحرير السيادة الوطنية

ويلوح ان فرنسا اقتنعت ازاء الازمة المراكشية التى استفحلت الى هذه الدرجة سنة ١٩٤٤ بدافع من الاسباب التى عرضناها باختصار فى تقريرنا ، بانها لا تستطيع ان تحل الموقف على الرغم من الاضطرابات التى كانت ترج العالم بواسطة اتباع السياسة الاستعمارية التقليدية القائمة على اساس الاصلاحات التى تهدف الى مزج الفرنسيين بالسكان الاصليين ، والحاق الاراضى التى تقع تحت السيطرة الفرنسية بفرنسا نفسها ، وقد برزت هذه السياسة بشكل واضح فى عهد ممثلى فرنسا الاخيرين :

١ ـ فاعتمدت من وجهة النظر الاقتصادية على البرنامج الذى وضعه السفير ايريك لابون فى الحال عقب تعينه فى مراكش أوائل سنة ١٩٤٦ ، وهو يرمى الى السيطرة على استغلال خيرات البلاد التى لم تستغل بعد لتحقيق مصالح الرأسماليين الفرنسيين والدولة الفرنسية ، والاضرار بالمصالح المراكشية الثابتة .

٢ ـ ومن وجهة النظر السياسية اثارة ادارة الجنرال جوان التى تلت ادارة مسيو لابون ضجة عظيمة حول اعادة تنظيم الحكومة المراكشية ، ولكن ذلك النظام لم يحدث اى تغيير فى شكل هذه الحكومة ولا فى نفوذها يتلخص فى تعيين اربعة مندوبين جدد يمثلون الوزير الاكبر ، ومهمتهم الربط بين الادارات والاستعلام فحسب ، على ان هذه التغييرات لا يمكن ان يطلق عليها اصلاحات بالرغم عن تجديدها ؛ لان معظم هذه المراكز والى جانبها مراكز اخرى قضى عليها اليوم كان قد تضمنها التغيير الحكومى الذى وضع سنة ١٩١٦ والذى شمل حتى مراكز بعض الوزارت كوزارة المالية ، ولكن ما حدث سنة ١٩١٢ هو مثل ما حدث سنة ١٩٤٧ فان تركيب هذه الحكومة لم يعدل الا بدوافع دولية ولاجل اخفاء سيطرة الادارة الفرنسية على جميع المصالح المراكشية العامة .

ويتبين مبدأ الادارة المباشرة وهو المبدأ الذى يكمن وراء المشكلة المراكشية كلها ـ فى مشروعات مختلفة ما تزال تحت الدرس ، وترمى هذه المشروعات التى تمس حتى قواعد الحماية السياسية التى يقوم عليها

النظام المراكشى المقيد باتفاقات دولية الى تحقيق مطالب الجالية الفرنسية المتعلقة بان تمثل سياسيا فى الهيئات المراكشية .

ولو قبل الشعب المراكشى هذا الاتجاه السياسى فلن يكون معنى ذلك الا انه قضى على نفسه وقبل الحاق بلاده بفرنسا ،ولذا فانه لم ينخدع لهذه السياسة وبات يطالب لبلاده بالحرية والاستقلال وقد قال جلالة الملك أخيرا : « لقد آن اوان الديموقراطية بالنسبة للجميع ، وان الشعوب الكبيرة والصغيرة لتتطلع اليه ورائدها فى ذلك هو حرية الانسان ».

كان لهذه المذكرة أثر محسوس فى الأوساط الرسمية ، واذاعت نبأها الامانة العامة للامم المتحدة ، وعلقت عليها سائر الصحف الانجليزية والامريكية وقد قالت (يونيتد برس) عن هذه الحركة انها خطوة اولى فى سبيل الاستقلال عن فرنسا ، وقال متحدث بلسان بعض الدول الكبرى ان هذه المذكرة تعتبر اول انشقاق رسمى بين الشعب المراكشى وبين فرنسا ، وعلى اثر ذلك اعلنت بولندا انها مستعدة لرفع قضية مراكش للامم المتحدة، واذاعت البرقيات الواردة من ليك‌سكسس ان الدوائر العليمة تعتبر مذكرة حزب الاستقلال خطوة اولى لعرض قضية مراكش على الامم المتحدة ، وانه ليس من البعيد ان تدرج فى جدول اعمال المجلس فى احدى الدورات المقبلة ، وقد اظهرت بعض دول امريكا اللاتينية استعدادها لتأييد قضية مراكش .

ومنذ الساعة وحزب الاستقلال يوالى بعث الوثائق والمذكرات للامم المتحدة ، كما انه ينتهز فرصة انعقاد اللجان التابعة للمنظمة الدولية ليزودها بكل ما يرجع لموضوعاتها فيما يخص المغرب ، وقد بعث وفدا متركبا من الاستاذين عبد الله ابراهيم عضو المجلس الاعلى للحزب والسيد احمد العلوى المندوب عن لجنة الصحافة الاستقلالية للاتصال بوفود الدول فى مؤتمر الانباء الذى انعقد اخيرا بجنيف فقام الوفد بمجهود كبير تضامن معه فيه مكتب نقابة الصحف الشرقية برئاسة الاستاذ الكبير محمود ابى الفتح وايده الوفد المصرى والسورى والباكستانى، وكان للاستاذ الكبير عبد القادر المازنى أثر كبير فى ذلك التأييد . كما بعث الحزب وفدا آخر للاتصال بوفود الدول فى اجتماع المجلس الاجتماعى والاقتصادى للامم المتحدة، وغير ذلك من الاعمال .

جوانب القضية المراكشية

يرى الحزب ان قضية مراكش متعددة الجوانب ، وان منظمة الامم المتحدة يتسنى لها ان تتناولها من تلك الجهات كلها او بعضها دون ان بستطيع الاستعمار الفرنسى او الاسبانى دفاعا قويا ولا نضالاً مقبولا ، فوضعية مراكش الدولية مثلا هى الاستقلال التام الذى يدل عليه ماضى هذه البلاد الذى لم يعرف الأستعمار قط ، كما يدل عليه عديد العقود والمعاهدات التى تربط الدولة الشريفة بغيرها من دول الشرق والغرب ، ومن بينها فرنسا واسبانيا .وقد ظلت هذه الوضعية معترفا بها ومؤكدة حتى بعد انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، فقد اعترف ممثلوا خمس عشرة دولة فى هذا المؤتمر باستقلال مراكش ووجوب احترام سيادتها وضمانها، وليس فى القوانين القديمة والحديثة ما يبيح لدولة ان تخرق العقود المذيلة بامضاء الشرف والكرامة ، وليس فى القوانين الدولية ايضا ما يسمح لحكومة ما بالاعتداء على اراضى حكومة اخرى ، ولكن الواقع ان فرنسا واسبانيا قسمتا البلاد المراكشية واحتلتاها خرقا لكل التعهدات وخلافا لما التزمتا به هما وغيرهما فى شتى المؤتمرات ، وقد كان هذا الاحتلال اعتباطا ومسببا لمعاهدة امضيت فى ظروف الاكراه الناشىء عن ذلك الاحتلال، ومن طرف ملك لا يخول له صك بيعته ولا نظام مملكته حق التنازل عن طرف من سيادة الشعب ، وقد نص عقد حقوق الانسان الفرنسى على ان السيادة للشعب كامنة فيه ولا يمكن تفويتها بصفة من الصفات ، وقد اعتبر دائما كل عمل يتنافى مع هذا المبدأ ملغى فى نظر رجال القانون الدولى وقد اكد ذلك علماء القانون الفرنسيون حينما اناب البرلمان الفرنسى عنه فى مهمته المارشال بيتان ؛ فأفتوا بان حل البرلمان لا يعتد به لان النواب لا يملكون الحق فى ان يتنازلوا عن الحقوق التى وضعها الشعب فى يدهم وتحت رعايتهم،وفيما كتبه البروفسور كاسان مفوض العدل والتربية الوطنية فى لجنة التحرير الفرنسية عن هذا الموضوع دليل على ان وكلاء الامة ملوكا او وزراء او نوابا لا يستطيعون ان يتصرفوا فى كيان الامة ولا فى سيادتها التى لا تقبل التفويت ، واذا كانت التجربة دلت على ان الاستعمار بجميع اشكاله هو مجرد انتحار للامة التى ترضى به فليس

من الممكن ان تبيح القوانين للامة هذا الانتحار ، وهى تمنع منه الفرد ولو كان فى احرج ظروف الآلام .

على ان هذه المعاهدة لا يمكن ان تنعقد من الوجهة الدولية ما دام عقد الجزيرة قائما وقد كان من الواجب ان يجتمع ممثلو دول الجزيرة كلهم لينظروا فى تغيير الوضعية الدولية التى فرضوها على البلاد قبل ان يعترفوا بواقع يتنافى مع ما قرروه بانفسهم والزموا المغرب بقبوله ، واذا كان الاغراء بضرورة الرشوة التى وزعتها فرنسا بسخاء قد سمح لهم بغض الطرف عن اعتداء الفرنسيين والاسبانيين علينا فاننا نحن الذين نكبنا بهذه المؤامرة الدولية الدنيئة ما نزال نستنكرها ونطالب القائمين بها بالرجوع الى ضميرهم والعمل على التفكير عما ارتكبوه نحو امة بريئة من خيانة للعهود وخرق للالتزامات .

ولقد رفض الشعب الاعتراف بالحماية المفروضة، وثار عليها ثورته الخالدة التى ما تزال تكافح حتى تلغى الحماية من الواقع المغربى، وتنازل السلطان الموقع على الحماية معترفا بانه قد عجز عن حل للمشكلة يرضى الامة ويحفظ كرامتها،وهكذا بقى مشروع المعاهدة الذى امضاه عديم القيمة لانه ألغاه بتنازله عن العرش واعترافه بان ارادة الشعب لم تصادق على عمله .

وسارت الحماية تطبق سياستها فلم تترك جانبا من جوانب الاعتداء على كياننا وسيادتنا ومقدراتنا الا ارتكبته .

ولقد اعترفت معاهدة سنة ١٩١٢ نفسها بضرورة الاحتفاظ للبلاد بوحدتها وتقاليدها فى العرش وفى السيادة ، ولكن الحماية خرقت فى اول ما خرقته هذا الالتزام، فمزقت البلاد طرائق قددا، وتآمرت مع الدول على تقسيم دنىء لبلادنا واصبحت الوحدة المغربية شيئا رمزيا لا حقيقة له من جهة الواقع السياسى ، وهل يبيح قانون ما فى قديم الكون وحديثه لامة ان تعمد الى امة اخرى متحدة فتجعل منها اجزاء يخضع كل جزء منها لسيطرة اجنبية عنه فردية او دولية ، ولو رفضت هذه الاجزاء الانقسام وتمسكت الامة كلها بوحدتها الترابية والحكومية ؟! وهذا جانب وحده يكفى لان يحمل منظمة الامم المتحدة اذا كانت حقيقة تريد اقامة العدل والانصاف على استنكار الاستعمار الفرنسى وفظائعه فى المغرب .

فسلب البلاد استقلالها المعترف به والمؤكد بامضاء الشرف والكرامة وحده جريمة دولية كبرى .

وتقسيم البلاد الى مناطق لا يربط بينها نظام موحد هو جريمة ثانية لا تقل عن الاولى فظاعة وقبحا .

وهناك قضية الحماية العميقة التى هى مشكلة المشاكل ، واعنى بها قضية الحكم المباشر الذى يكمن وراء اسم الرقابة وعنوان الارشاد ؛ فقد خرقت السلطات الفرنسية والاسبانية عقد الحماية المفروض الذى زعمت انه مجرد عقد لتنظيم التعاون الفرنسى الاسبانى المغربى يراد منه تمكين الدولتين الحاميتين من مساعدة الدولة الشريفة على الانبعاث والتجدد والامة المغربية على اليقظة والحياة والتطور ، واصبحت الحماية حكما مباشرا وتحكما مستمرا من طرف ولاة المراقبة الذين يسيرون البلاد نحو سياسة المحو والادماج عن طريق الافقار والتجهيل والتحقير

وان الدولة المغربية التى كانت منذ اقدم عصور التاريخ ولم تزل دولة قادرة على تدبير شؤونها وتنظيم أمر امتها لغير محتاجة الى هذا الحجر الاجنبى الذى يعبدها لسيطرة اجتماعية واقتصادية وسياسية ماكرة لتنهض وتحيى

ولقد كانت مراكش دولة كبيرة يوم لم تكن فرنسا وغيرها من الدول قد خرجت من حيز المحاولة البدئية للتكوين القومى، فمن سخرية القدر أن يفرض عليها اليوم حكم الذين كانوا يخطبون بالامس مودتها ويستمدون من تجربتها ونظامها

ولقد نص ميثاق الامم المتحدة والعهود التى تقدمته فى سان فرانسيسكو والمحيط الاطلسى وغيرها على احترام سيادة كل امة وعلى اعطاء كل شعب الحق فى تقرير مصيره، ولم يكن هذا المبدأ بالجديد فى الحقوق الدولية، وانما الجديد فيه هو ان دولا محترمة التزمت بالعمل على اقراره وتنفيذه ولقد ظلت مراكش تدافع عن هذا المبدأ وتجاهد فى سبيله، وهى اليوم تطالب هؤلاء الملتزمين ومن ضمنهم فرنسا باحترام تعهداتهم الدولية والاعتراف لمراكش بحق التحرر من ربقة الحماية الاستعمار الاجنبى.

وهى اذ تطالب بهذا الحق انما تعرض الامم المتحدة أمام تجربة عظيمة يظهر معها مقدار القوة التى تكمن فى جوانب الدول الكبيرة التى ترعى هذه المنظمة وتعمل على استمرارها لخير العدل والسلام، وانها لتطالب عديدا من هؤلاء الدول الاعضاء ، وهم المشتركون فى مؤتمر الجزيرة ، بضرورة التفكير فيما ارتكبوه نحو المغرب الاقصى باغضائهم عن الحماية التى لم تحترم استقلال الوطن الذى اجمعوا على احترامه ورعاية حريته، وتذكرهم بأن الفرصة قد اتيحت لهم اليوم فى مجال اوسع

وأفق أسمى ليتأكدوا من مدى اخلاصهم لاستقلال مراكش الذى دافعوا عنه ووفائهم لمبادىء التحرير الانسانى التى التزموا بها .

وهذا الجانبان المتعلقان بسيادة المغرب ووحدته الترابية هما الجانبان اللذان لا يستطيع قانون قديم او حديث الآن يدعمهما، ولا يمكن ان يندفعا بأى مبرر ارشاد او اصلاح يمكن ان تدعيه الدول المستعمرة او تدلى به كحجة على موقفها، اذ ان شعور المغاربة باستقلالهم ووحدتهم حق انسانى لهم لا يعوضهم عنه شىء مهما كانت قيمته من ضروب الاسعاد المزعوم والخير الموهوم

ولكن هناك جانب الواقع المؤلم، وهو جانب المعاملة السيئة للشعب وغصب خيراته وتراثه، وهل يبرر نظام الامم المتحدة حتى على اساس الاعتراف بمبدأ الوصاية او الرعاية الدولية للوصى ان يتخذ وجوده فى مكان المرشد فرصة تتيح له ان يغصب الشعب ثروته وينزع منه اراضيه لفائدة مواطنى المستعمر وابناء جلدته ؟ ! هل تبيح القوانين ان يرتكب المستعمر جرائم مبنية على الميز العنصرى والاضطهاد الدينى ؟ وفى هذا الميدان سيقشعر جلد ممثلى الدول اذا طلعوا على الملفات التى تتضمن احصاءات دقيقة لا يمكن نكرانها تثبت كلها مقدار الاستغلال والاحتكار والاضطهاد والاحتقار والتجهيل والافقار الذى انبنت عليه السياسة الفرنسية الاسبانية فى مراكش وبقية المغرب العربى

ومهما وصلت الانسانية الى درجة الغفلة والبلاهة فانها لن تستطيع ان تسمى أعمال الفرنسيين والاسبانيين العدوانية بغير أسمائها ، ولن يمكن لرجال الامم المتحدة أن يسجلوا فى تاريخهم خطأ عقليا وروحيا مثل هذا .

فالقضية المراكشية بوضعيتها الدولية وبواقعها المخجل اجدر قضايا الامم بالعرض على هذه المنظمة العامة التى يحاول الانسان ان يجعل منها مرجعا لصد العدوان وكبح جماح الطغيان

ونحن لسنا من الذين يعتقدون انه ليس فى هذا العرض فائدة لان أعضاء هذه المؤسسة او المهيمنين عليها منهم كلهم من ذوى المصالح الاستعمارية الذين تفرض عليهم ظروفهم أن يتضامنوا فى شأنها، والدليل على ذلك موقفهم من قضية فلسطين وقضية اندونيسيا مثلا، لان هذا وان كان صحيحا فهو لا ينزع من العرض فوائده الكبيرة التى من أهمها التشهير بفظائع الاستعمار الفرنسى الاسبانى فى بلادنا كما ان التأييد او التضامن الذى يمكن ان يقوم به المستعمرون لا يمكن ان ينبنى على

أساس يتفق ومبادىء العصبة وغايتها. ولذلك فسيجد المدافعون عن الحق من رجال الامم المتحدة ما يدفعون به شبهات المستعمرين ويفضحون به أغراضهم الدنيئة .

على أن قضية مراكش أبعد من أن تجد من الخصوم الدوليين المتحمسين ما وجدته القضية الفلسطينية لا لأن نفوذ اليهود وسيطرتهم عظيمة فى الميدان الدولى، ولكن لان القضية الفلسطينية لم تعالج فى الاوقات المناسبة من طرف العرب وأصدقائهم، ومن طرف الفلسطينيين أنفسهم بما كان يجب ان تعالج به، ولقد بقى الكفاح الفلسطينى سلبيا، وبقيت مجهودات العرب من اجل فلسطين مرهونة بالظروف والتقلبات الدولية غير خاضعة لبرنامج ولا متبعة لخطة معينة، وحينما عرضت على الامم المتحدة لم يكن العرب او اصدقائهم هم الذين عرضوها، بل كانت الدولة التى خلقت الصهيونية هى التى قدمتها للامم المتحدة كمشكلة عجزت عن حلها وعن ارضاء الطرفين فيها، ومعنى هذا أنها أخرجت نفسها من القضية وجعلتها مسألة خلاف بين عنصريين يعيشان فى بلد واحد، وهذا بالطبع ما لا يمكن ان تجد لمثله فرنسا او اسبانيا سبيلا، ولقد اثبت العرب بقوة السيف أن المشكلة الفلسطينية لا تحل بطريق التقسيم، ولكن بطريق التسليم للعرب بحقهم الصحيح، كما أثبتوا بطريق الحجة أنه ليس من حق الامم المتحدة ان تقسم بلدا ما الى قسمين، وقد اعترفت الدول الكبرى بهذه الحقيقة القانونية ولم تستطع سبيلا للنجاح فيها، وهذ ما يقوى موقفنا ويؤيد وجهة نظرنا

ونحن متيقنون بأن قضية مراكش ستجد فى أوساط الامم المتحدة مؤيدين كثيرين من العرب والشرقيين اولا، ومن بعض الدول الاخرى التى سبق ان نكبت بالاستعمار واصطلت بناره كالفلبين ثانيا، ومن الممكن أن تجد هذا العون حتى من بعض الدول التى ترى ضرورة تأمين الابيض المتوسط خوفا من بسط النفوذ الشيوعى عليه والتى أصبحت تعتقد شيئا فشيئا أنه لا يمكن هذاالتأمين ما دام أبناء المغرب العربى فى بؤس واستعباد.

وموقف فرنسا اسبانيا فى الحرب الاخيرة ليس من شأنه فى الحقيقة أن يطمئن الامريكيين والانجليز على مصير هذا الجانب الذى تحت نفوذهما فيما اذا أدى الامر الى حرب قوية بين الديموقراطية وبين الشيوعية خصوصا وأنه ليس هناك ما يضمن عدم ثورة المغاربة الذين لم يعترف لهم بحقهم فى النصر بعد حربين عظيمين ضحوا فيما بدمائهم وأموالهم الى جانب الديموقراطية ورجالها.

وسيذكر الامريكيون ان المغرب الاقصى اول دولة اعترفت باستقلال بلادهم اذا لم يذكروا ان الرئيس روزفلت أعطى لجلالة ملك مراكش باسم الشرف الامريكى وعدا بتأييد قضية المغرب وتحريره

وسيحس الانجليز بأن سياستهم مع الجامعة العربية لا تؤتى ثمارها اذا لم يؤيـدوا هذه الجامعة فى اتمام تكوينها وتحقيق أهدافها البعيدة، وسيشعرون بأن قضية الكتلة الشرقية التى أيدت كلها من غير استثناء موقف العرب فى فلسطين يستطيع أن يرجح الكفة التى تكون هذه الكتلة احدى ميثاقها .

وستجد الكتلة السلافية فرصة سانحة للتظاهر بمقاومة الاستعمار الغربى، وسوف لا تستطيع أن تتجاهل قوة المغرب العربى فى المستقبل وما سيكون له من الحق فى التمييز بين أصدقائه فى وقت الشدة وبين خصومـه .

وستستحيى الديبلوماسية الفرنسية نفسها من ان تدافع عن اعمال المستعمرين وهى التى تمثل الجمهورية الفرنسية ذات التقاليد التحريرية الكبرى، وستضطر لمحاولة تبرير عملها بدعوة مراكش للانخراط فى الاتحاد الفرنسى، ولذلك يمكننا ان نتنبأ بـأن قضية المغرب ستخرج من شكل المناقشة فى بطلان النظام الحاضر وفساده الى صراع عنيف بين ما يريده المغرب مـن استقلال تام وانضمام للجامعـة العربية، وما ستحاول فرنسا تلافى الخطـر به من استقلال أعرج فى دائرة الوحدة الفرنسية

ومهما يكن الامر فان القضية متوقفة الى حد ما على مقدار الايمان الـذى يثبتـه العرب بأنفسهم وعلى ما ستقوم به دول الجامعة العربية لقضية من أمس قضايا العروبة بها وأجدرها بعنايتها، وليس فى قضية تونس والجزائر الا صورة مكررة لقضية مراكش نفسها .

واذن فالتوجيه الذى قرره الحزب للسير بالقضية نحو عرضها على الضمير العالمى سيكون له من النتائج الحسنة ما يخطو على الاقل ببلادنا نحو هدفها الاسمى الذى هو الحرية والوحدة والاستقلال

الخاتمة
خلاصة وتوجيه

لقد عرضنا فى هذا الكتاب مراحل المقاومة المغربية، ونحن لا نقصد منها الا اثبات حقيقة واحدة، هى ان المغرب العربى لم يقبل قط الحكم الفرنسى ولا الاسبانى ولا الدولى، وأنه منذ أن اتصل المستعمرون بهذه البلاد وهم يلاقون فيها من ضروب المقاومة وأصناف الدفاع ما لم يلاقوه فى بلد آخر غير المغرب، ولقد رأينا كيف تكيفت الذهنية المغربية بتكييف العصر، وكيف تطورت معها أساليب الجهاد فى سبيل الحق المغصوب، وعرضنا على القارىء المظاهر التلقائية لحركة أمة اندهشت من قوة الفاتح الذى تغلب عليها دون ان تخضع له او تستسلم فى سبيل البحث عن طريق للخلاص بأساليب العصر ووسائل العهد الحديث، وكيف تفاعلت حاجيات التحرر مع حاجات التطور فأدت الى تكوين نهضة علمية وأدبية وعقلية جديرة بالتقدير، ولكن هذه النهضة اصطدمت بالحواجز التى ينصبها المستعمر للحيلولة بين البلاد وبين غاياتها فأدى ذلك الاصطدام لاشعار الشعب بنوايا الفاتح السيئة والاقتناع بأنه لا سبيل للنهوض والتقدم بغير الاستقلال الكامل والتحرر من يد الغاصبين .

ولقد حاولنا بقدر المستطاع أن نعلم مراحل التطور والتحول فى الحركة الواحدة نفسها، وأن نشرح بواعثه الحقيقية والعوامل النفسية التى أدت اليه، ولم نحاول قط أن نخفى الاسباب الخارجية التى كان لها أثر فى تكييفه او المساعدة على ابرازه، وهكذا رأينا اتصال الحركات المغربية بالحركات المشرقية وتأثير بعضها فى الآخر وتوحيد اتجاهها فى المبدأ والغاية والسبيل

وعملنا على ان نشرح الخطوط البارزة من سياسة المستعمرين بالمغرب العربى دون ان نتناول فى ذلك ما لا علاقة له بموضوع كتابنا لنستشف من وراء ذلك الاغلاط الرئيسية التى أدت بالمستعمر الى فشله الذريع التاريخى المستمر، واستطعنا ان نلمس هذه الاغلاط وهى تتكرر فى

تونس والجزائر ومراكش على السواء فتتكرر معها ردود الفعل فى كل من الاقطـار الثلاثـة، وتنتهى الى تعقد المشكلة دون ان تحاول السلطة الاستعمارية اصلاح الغلط او تغيير الاتجاه .

وحاولنا ان نبرز الظروف التى كان فيها انتحال المغاربة للمبادىء التحريرية بصفـة جدية اكتشافا منهم لهذه المبادىء عن طريق العثور على الاغلاط الاستعمارية والبحث عن وسائل التخلص منها، وانـه لمن الغريب فـى طبيعة الفـرد والجماعة أن نتناسى أحيانا أبسط الاصول الاخلاقية وأعرقهـا فى نفوسنا، ثم نعود اليها فى بعض الاحيان لاجئين وكأننا اكتشفناها من جديد لنستعين بها على حماية نفسنـا وبيئتنا من هجوم المبادىء الفاسدة وأصحابها.

ولقد سارت الحركات المغربية فى الاقطار الثلاثة فى مراحل واحدة لانها تكيفت تحت عوامل ومؤثرات واحدة، ومن حسن الحظ أنها انتهت لغاية واحدة، هى هذه العقيدة الاستقلالية التى نكافح من أجلها اليوم .

ولعل تجربة الحركات القومية فى المغرب من أحسن التجارب التى قامت بها حركات التحرير فى العالم العربى بأسره، لانها وحدها التى استطاعت أن تكون أحزابا بالمعنى الصحيح الذى يقصده الغرب من هذه الاحزاب، فهى لا تقوم على زعامة مقدسة يخضع لها الجمهور عن طريق الدعاية الاجماعية والخطابة فى العموم، ولكنها تخضع لزعماء شعبييـن محبوبين مركزهم فى أحزابهم هو مركـز سائر الافراد العاملين فيها ، ووسائلها فى الدعاية وسائل التنظيم والتثقيف. وقد يكون هذا الفارق بينها وبين غالبية أحزاب العالم العربى ـ مع احترامنا الكبير لها وتقديرنا الكبير لزعمائها ورجالها ـ ناتجا عن التكوين التدريجى لحركتنا والاضطهاد المستمر لها؛ اذ هى لم تتكون فى ظروف يثور فيها الشعب ويبحث عمن ينظم ثورته او يمثله فى أمانيـه ولا فى ظروف الدعاية الانتخابية التى تقضى بالترشيح على فكرة معينة او برنامج محدود، ولكنها بدأت تتكون فى أحرج المواقف واضيق الظروف يوم كان الجمهور المغربى فى دهشة المغلوب من قوة الغالب، ثم هى تكونت من افراد قلائل نظر الكل اليهم اولا نظـرة الاستغـراب ووقف منهم موقف المتحفظ لا لأن دعوتهم لم تصادف أهواء النفوس ورغبات القلوب، ولكن لان قوة المحتل كانـت بارزة الـى حـد لا يمكن معه اليقين والاعتقاد بسهولة فى نتائج حركات سلمية يقوم بها شبان لا أسهل من القضاء عليهم وتشريدهم

وقد تجلت هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها فى مراكش بصفة خاصة، فان هذا الشعب الحربى المحافظ على تقاليد الجندية المتوسطية لم يكن ليعتقد فى فائدة الحركة السلمية او السياسية فهو مستعد فى كل وقت لتلبية دعوة الثورة المسلحة لمقاومةالاجنبى ، ولكنه ظل متحفظا ازاء حركات القول والكتابة لانه لم يكن مقتنعا بفائدتها اقتناعه اليوم، فنحن حينما بدأنا حركتنا المراكشية لم نكن الا ثلة لم تتجاوز بعد سن الشباب الاول، ولم تكن السلطات الفرنسية نفسها تعتقد أننا نستطيع أن نصل بحركتنا الى المدى الذى وصلته اليوم والذى لم يخف الاعجاب به كبار الشخصيات الفرنسية أمثال دى هاميل وأندريه جيد ولا كبار مستعمريهم أمثال لابون وبونسو. فهذه الظروف التى اكتنفت حركتنا جعلتها تتكون تدريجيا وتتعمق فى أوساط الشعب وطبقاته كحركة قومية ذات مبادىء وأنظمة وحقوق وواجبات .

ومن مميزات حركاتنا التى عملنا على تجليتها هذا الشمول الكامل لنواحى الحرية المنشودة فهى فى الوقت الذى تطالب فيه بالتحرر القومى للشعب لا تغفل الدفاع عن مصالحه والعمل على تثقيفه ورفع مستواه من الناحية المادية والمعنوية ومساعدته على تنظيم نفسه ضمن هيئات وجمعيات ونقابات، وهذا العمل لا يكون شيئا لولا ما اكتنفته من صعوبات عظيمة ومن فقدان كامل لحرية الحركة وما استلزمته من تضحيات كبيرة وبذل متواصل

وقد عمدنا الى شرح ما انتهينا اليه من روح التضامن بين سائر أحزابنا فى الاقطار الثلاثة على الرغم من أنها دول ثلاث كانت ولا تزال ممتازة بحبها لشخصيتها وتفانيها فى التمسك بمميزاتها، وهذه التجربة السعيدة جديرة بأن تكون مثلا صالحا يحتذيه اخواننا العرب جميعا فى توحيد قواهم الشعبية وتكتل أحزابهم وتنظيمها؛ لان تكتل الحكومات العربية وحده لا يكفى، بل يجب أن تتكتل الهيئات الشعبية لتواجه هى حكوماتها وتحملها على السير قدما وبخطى حثيثة للغاية المطلوبة للجميع

وشرحنا ما وصلت اليه نتائج هذا التكتل من عمل فى الخارج لشرح القضايا المغربية وتجليتها أمام الرأى العام الاجنبى والعربى ، ولقد نجح المستعمر زمنا طويلا فى عزل الشمال الافريقى عن بقية الاقطار العربية، وفى منع أبنائه من التسرب للخارج مطلقا، ولكن العرب اليوم أصبحوا بفضل مجهودات الحركات الاستقلالية على علم بأحوال اخوانهم ومدى الجهود التى يبذلونها للحاق بالقافلة العربية فى مسيرها ،

كما أن الاجانب لم يعودوا فى جهل كامل بما يعانيه المغاربة من ظلم وارهاق، وفى مجهودات المكاتب الاستقلالية المغربية بأوربا وأمريكا ما يشرح كثيرا من الحقائق لمن لم يكن لهم سبيل لمعرفتها من قبل

واذن فالحركات الاستقلالية فى المغرب العربى حقيقة شعبية قائمة، وهى سائرة فى خطتها الرشيدة بفضل تضحية رجالها وتضامن أنصارها، ويمكننا ان نعتبرها اللسان الامين والترجمان الصادق عما يشعر به كل مغربى ومغربية، والاعتماد عليها فى معرفة الحقائق المغربية أمر ضرورى للذين يودون مواجهة الواقع دون لبس ولا غموض

وعمل هذه الحركات فى ميدان المقاومة وخططها التى تسير عليها ليست الا مثالا للحكمة الناشئة عن حنكة وتقدير للامور ومراعاة لكل الإعتبارات، خصوصا وهى لا تصدر فى شؤونها الا عن رأى تقرره مجالسها العليا ومؤتمراتها الحزبية.

ولكن هذا كله لا يعنى انها قد وصلت الكمال فى تكوينها وتنظيمها، بل من الواجب علينا وقد جلينا فضائلها ان ننبهها الى بعض مواطن النقص التى يجب ان نعمل على اتمامها

واول هذه المواطن فى نظرنا هو ما يرجع لتكوين النظرية، وأعنى به ما يتعلق بخلق برنامج مفصل للنظام السياسى والاقتصادى الذى يجب ان يكون عليه المغرب فى وقت استقلاله، لاننا نعتقد أن العمل للاستقلال ليس الا وسيلة لتحقيق أهدافنا العظيمة فى اصلاح حال الامة واسعادها .

ونحن وان كنا عارفين بالخطوط العامة والخاصة لما سنقوم به فى عهد الاستقلال الا ان ذلك لا يكفى بل يجب ان نفصل أفكارنا ضمن برنامج عام على غرار ما قمنا به ـ نحن المراكشيين ـ يوم كانت حركتنا اصلاحية محضا .

يجب أن ينكب المختصون منا على دراسة نواحى النشاط الشعبى السياسية والادارية والثقافية والمالية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من كل ما يرجع لتنظيم الدولة وتنظيم الشعب، ويجب ان نسير فيه على نظام الاختصاص الكامل للجان الفنية بحيث لا تتاح لنا فرصة الحكم الذاتى حتى نكون على أهبة التنجيز لبرنامجنا، فلا نضيع وقتا آخر فى سبيل الاعداد والتحضير .

لقد انتهز الجمهوريون الاسبانيون فرصة وجودهم خارج الحكم وخارج الوطن فقاموا بتحضيرات عظيمة فى جميع الميادين، ويتوقع

الكثير أنه متى تم للديموقراطية الأسبانية انتصارها فان عملها سيكون عظيما فى داخل اسبانيا لملافاة النقص الذى أدى بها للانهيار أمام اضطراب الشعب ورد الفعل الثورى

ولقد قال كارل ماركس انه لا ثورة بغير المذهب، وهذه حقيقة واقعية لان الحركة دائما فرع الرغبة التى هى بدورها فرع التصور والادراك، ولم ينجح الشيوعيون فى روسيا وغيرها على رغم ما فى منهجهم من غرابة وما يحتوى عليه من مبادىء هدامة الا لانهم استطاعوا أن يتعجلوا تحقيق كثير من الاصلاحات الفلاحية والصناعية فى كل مكان احتلوه، ونحن الذين نريد أن لا ندع مجالا لاى مبدأ هدام أو برنامج منحول، يجب ان ننتهز فرصة فراغنا من مسؤوليات الحكم وشعورنا بمواطن الضعف فى النظام القائم ببلادنا، فندرس الأنظمة العالمية ونقيس عليها حاجياتنا الخاصة ونكون مذهبنا فى أدق معانيه وبأكثر تفاصيله حتى يتاح لنا ارضاء أمتنا بتحقيقه دفعة واحدة، فنحصل بذلك على ايمان من الشعب بنفسه ونظامه وحكومته فى عهد الاستقلال، ولا نرغمه بعد ما بذله ويبذله من جهود للتحرر على استئناف جهاد آخر للبحث عن طريق يصل به لنظام ادارى او اجتماعى ربما كان هو الآخر ضربا من الاستعباد الروحى او المادى فى شكل جديد

ولقد أدى بنا الاستعمار الغربى الى انتحال كثير من الوسائل كحاجز مؤقت فيجب أن لا نخطىء فى توجيهاتنا للجمهور حتى لا يصبح المؤقت عنده دينا دائما ، يجب ان نتعظ فى هذا المعنى بما وقع فى أوربا نفسها؛ فقد ظلت فرنسا وبلجيكا واليونان بالخصوص بعد أمد المقاومة للفاتح النازى، وهى فى اضطراب شديد، لان الشعب الذى قاوم المستعمر تعود أثناء المقاومة على حياة خاصة لم يرد أن يغادرها حتى بعد التحرر، اننا نوجه العملة للتكوين النقابى ونكافح بحماس من أجل هذا التكوين، ونحن محقون فى عملنا ذاك ومخلصون فى القيام به لان العامل المغربى أجدر الناس بعطفنا وكفاحنا وأولاهم بدفاع الانسانية كلها، ولكن كفاحنا النقابى يجب ان لا يرمى بالعامل فى أحضان هيئات تستمد قوتها المعنوية من الخارج ونفوذها الروحى من الاجنبى، ونحن المراكشيين مثلا لا نعرف أبدا الاستمرار فى اتباع سلطة روحية تتركز خارج بلادنا، تلك هى عقليتنا، وذلك هو تاريخنا ، مضينا عليه فى وقت جاهليتنا كما جرينا عليه بعد ان اخترنا الاسلام دينا، فيجب ان لا نترك السيطرة الروحية الاجنبية تحل فى بلادنا محل

السيطرة الزمنية؛ بل يجب أن نصدر عن عقائدنا التى نكتشفها بأنفسنا او نستمدها من الغير ثم نصهرها ونكيفها على حسب مزاجنا وحاجاتنا وبناء على ذلك فينبغى أن لا نرى فى النقابة الا لونا من ألوان تنظيم الامة المغربية، ويجب أن نهتم كثيرا بانجاز ذلك التنظيم فى عمال المدن لان النقابة لا تؤسس بمتانة الا فى الاوساط التى يجمعها سقف واحد، أما الفلاحون فيجب ان ننظمهم ضمن نقابات او جمعيات تعاونية حسب رغبتهم، ولكن دفاعنا عنهم يجب ان يكون اجماعيا لا من جهة تحسين أحوالهم فقط بل من جهة استخلاص الاراضى التى غصبها لهم المستعمر لانه أخذها بطريق الاعتداء ، واعادة الارض لصاحبها الشرعى جزء من كرامتنا القومية لا يمكن أن نضحى به أبدا. ويجب أن نبذل الجهد حتى يحل التحكيم محل التطاحن والاضراب خصوصا فى الوقت الذى نعمل فيه على تصنيع أمتنا تصنيعا قوميا، ويجب أن يكون مجهودنا الاجتماعى كله منصرفا لتحسين حالة الشعب بجميع أفراده وبيئاته، فالرجل فى الحقيقة هو الغاية لكل مجهود، يجب ان نعمل على تيسير المعاش والسكنى والثقافة والعلاج والراحة ووسائل الشغل للقادر والاسعاف للعاجز ونعمم ذلك فى كل حواضر بلادنا وقراها .

ولتحقيق هذه الاشياء يجب ان نستعمل كل الوسائل المشروعة على أنها جزء من كفاحنا للتحرر والتطور، ويجب أن نجند الامة كلها للعمل فيه وانجازه، ولكننا نريد أن لا نفعل هذا فقط، بل نريد أن نقوله ونكتبه ونحاضر به ونبثه فى نفوس الناس ونعقد من اجله المؤتمرات ونضع له البرامج، لان ذلك القول وتلك الاجتماعات هى التى تجعله عقيدة قائمة فى نفوس الامة كلها تقدسها وتحافظ عليها وتعمل على انجازها كما أننا نريد من وراء ذلك تكوين أدب قومى يبقى تراثا عقليا وروحيا للاجيال المقبلة من اخواننا الذين يسرهم أن يتلذذوا بمجهوداتنا العقلية والروحية، ويفتخروا بكفاح الذين سبقوهم، ويشعروا بالعزة من تقديسهم لارواح الذين كانوا قنطرة الحياة السعيدة لهم .

ومعنى هذا أنه يجب أن نخطو الخطوة الثقافية بحركتنا، كما يجب أن نستعمل الاسلوب الثقافى أيضا فى دعاياتنا فى الخارج التى ظلت فى الحقيقة الى عهد غير بعيد مجرد شكوى صريحة وأرقام معدودة، مع أن ذلك وحده لا يكفى لانه لا يفيد الا طبقة خاصة من المختصين فى الشؤون المغربية، ثم هو لا يعلق حتى بأذهان هؤلاء المختصين، ولذلك يجب أن نكون أدبا خاصا فى مختلف اللغات يمكننا أن نسميه بأدب

المقاومة، فيه العرض التحليلى، وفيه القصة، وفيه الاستنتاج بطريق الايحاء او الارشاد ، وبذلك سندفع الكل لقراءة ما نكتب ، وسيرتسم اثر ما نكتب لا محالة فى نفس قرائه، وسنصبغ على آدميتنا المعذبة صبغة الانسانية المنكوبة التى تنشد جانب التضامن الانسانى لمقاومة المستعمر وغطرسته .

وفى هذا السبيل يجب ان نعمل بكل مجهوداتنا لتحقيق دعوتنا الانسانية التى هى القضاء على الاستعمار بكامل ضروبه وتحرير الانسانية من ويلاته، ولذلك يلزم أن نحشد القوات الشعبية فى الامم القاصرة ونعمل على عقد مؤتمر دورى عام للاحزاب الاهلية فى البلدان المستعبدة كلها، يجب أن نذكر أن الارقاء لم تحررهم مواثيق الامم ولا دعوات الزعماء ، كما يدعيه الاوربيون والامريكيون، ولكن حررهم كفاح هؤلاء الارقاء وتضامنهم فى المطالبة بحقوقهم فى الحياة، ويجب ان نذكر فخورين أن الجمعيات السرية التى أسسها الارقاء الافريقيون فى الباهية بالبرازيل وفى غيرها هى التى نشرت دعوة عظيمة لتضامن الارقاء فى العمل على تحرير أنفسهم فى الوقت الذى كان فيه رجال الكنيسة يفتون الامريكيين بجواز استعباد هؤلاء الافارقة لانهم ليسوا الا رعايا سخط عليهم ملوكهم او رؤساؤهم الذين باعوهم للرجل الابيض. ولقد وصلت دعوتهم للعقول النبيلة فى الاوساط البيضاء فأيدتهم حبا فى الانسانية أحيانا ودفاعا عن النفس أخرى، ولقد كنا نحن المغاربة الذين أوصلنا الاسلام لافريقيا السوداء وعلمنا أهلها دعوة هذا الدين للحرية وتساوى الناس كلهم أمام الله وعدم فضل الابيض على الاسود الا بالتقوى، فلم لا نكون اليوم حملة هذه الدعوة للتحرر الانسانى من ربق الاستعباد؟ ولم لا ندعو الامم الضعيفة للتكتل ضدا على استعمار شعب لآخر ؟

على أن دعوتنا هذه يجب أن لا تكون موجهة لعداء المستعمرين ولا للعمل على الانتقام منهم، بل يجب أن تكون دعوة تحرير لنا من استعبادهم، ودعوة تحرير لانفسهم من صوفية هذا الاستعمار الذى يعبد أرواحهم وأنفسهم لعقيدة الشر وحب الاساءة لشعوب ليست أقل كرامة منهم ولا جدارة بالحب والاخاء .

ونحن نعتقد ان الاستعمار لم يفد غير طبقة خاصة من أبناء الدول المستعمرة، وأن الاغلبية الساحقة من أبناء هذه الدول قد نكبت بهذا الاستعمار كما نكب به المستعمرون (بالفتح) أنفسهم. واذن فالدعوة

الصريحة لتضامن الكل فى التحرر ستلاقى أذنا صاغية وقلوبا واعية فى جميع الاوساط، وستنتهى بالبشرية الى اكتشاف وسائل للتعاون الانسانى من اجل الطمأنينة والاخاء .

وكل هذا لا يمكن ان يتحقق الا اذا عرفنا كيف نفضح أمام الكل نوايا المستعمرين فى بلادنا، ولقد جربنا ضروبا من المقاومة المغربية التى لم تلق السلاح قط، فيجب أن نمضى عليها ونعمل على كشف الحقائق وتوضيح الغامض من أمرها للجميع

ان الاستعمار فى بلادنا لا يقف مكتوف الايدى، وان جهوده فى تضليل الرأى العام فى بلاده وفى الخارج لا تقل عن جهوده فى الاضرار بنا والاستغلال لخيراتنا والاستعباد لمواطنينا، ولذلك ينبغى أن ندرس أساليبه ونعرف آراءه وأفكاره ونتصل بالمختصين من رجاله ونطلع على آثارهم ونواياهم ونقاومها ونفضحها للرأى العام المغربى والاجنبى

واذا كنا قد شرحنا نحن كل أغراضنا ومبادئنا فليس ذلك الا لنعرف حتى المستعمر نفسه بحقيقة حركتنا كما نعرف غيره بها، وهذه الصراحة وحدها دليل كاف على أننا مخلصون فى عملنا وعلى أننا مصممون على الوصول لاهدافنا، واثقون من أن عقيدة الحق التى نكافح من أجلها ستنتصر، وأن الاستعمار الغاشم سينهزم أمام ارادة الامة المغربية وعزيمة المخلصين من رجالها.

* * *

وموضوع الجامعة العربية وبناء صرحها المتين أصبح جزءا لا يتجزأ من حركتنا، وهو جزء من هذه الحركة، ويجب أن يكون كذلك سواء فى مبادئها العامة أو فى غاياتها الاساسية التى هى توحيد العرب وضم دولهم ضمن هيئة تعدهم لوحدتهم الكبرى، وهذا بالطبع ما يفرض على حركاتنا واجبات نحو الجامعة وما يخولها الحصول على حقوق من طرف هيئة المنظمة العربية كشخصية مدنية مستقلة وعلى الدول العربية المستقلة كأعضاء فى هذه الجامعة .

ولذلك لا يمكننا أن نغفل فى هذه الخاتمة الحديث عن محور الشعوب العربية ومعقد آمالهم وما قامت به وما لم تقم به نحو المغرب من جهة، ونحو المثل العليا التى أومأنا اليها لفائدة العرب كلهم من جهة أخرى

ونحن لا نريد ان ننقص من قيمة المجهودات الجبارة التى قامت بها الجامعة العربية فى عهدها الفتى المملوء بالاخطار والمصاعب، كما لا نريد أن نغالى فى تقدير هذه الاعمال او فى اطراء القائمين بها، ذلك لان المغالاة فيها كالتنقيص من قيمتها كلاهما تضليل للرأى العام وستر للحقيقة ينبغى ان نتجنبه كلما أردنا النظر الى شؤوننا لنتعرف مواقع خطانا وماذا يجب ان نأتى أو نذر، ولان القائمين بهذه الجامعة والمسؤولين فيها أناس من خيرة العرب وأبطالهم همهم أن يشعروا بلذة الخدمة العامة لقومهم أكثر مما يشعرون بلذة المدح او الاطراء لاشخاصهم او التنويه بأعمالهم

والمادتان الاوليتان من ميثاق الجامعة التأسيسى ومن بروتوكول الاسكندرية تنصان على أن الجامعة العربية تتركب من الدول العربية المستقلة، وهذا يعنى بصريح العبارة أن الدول العربية غير المستقلة لا محل لها فى عضوية الجامعة، ولكن المادة الخامسة من بروتوكول الاسكندرية والملحق بفلسطين من الميثاق التأسيسى للجامعة اعتبر دولة فلسطين جزءا لا يتجزأ من البلاد العربية، ونصا على أن وضعيتها الدولية هى الاستقلال الذى سيعترف به ان عاجلا وان آجلا، ولذلك لا ترى الجامعة مانعا من أن تختار ممثلا لفلسطين من بين أبنائها على شرط أن تعينه الجامعة ما دامت فلسطين غير كاملة الاستقلال.

وهذه فى الحقيقة سابقة تدل على ان روح الميثاق يرمى لتدعيم استقلال الشعوب العربية بأسرها وتأييدها تأييدا قويا، بل هى أخطر من ذلك لانها سمحت بتمثيل بلد غير مستقل فى دائرة الجامعة العربية بتعيين من الهيئة السياسية لهذه الجامعة

ولكن موقف الميثاق الاساسى من الشعوب العربية الاخرى غير فلسطين لم يكن من الوضوح بالدرجة التى يمكن الاعتماد عليه، وكل ما تضمنه الميثاق هو تقرير ملحق خاص بالتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة فى مجلس الجامعة من المفيد أن ننقل نصه قبل التعليق عليه :

(نظرا لان الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شؤونا يعود خيرها وأثرها على العالم العربى كله، ولان أمانى البلاد العربية غير المشتركة فى المجلس ينبغى له ان يرعاها وأن يعمل على تحقيقها، فان الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنيها بوجه خاص أن توصى مجلس الجامعة عند النظر فى اشراك تلك البلاد فى اللجان المشار اليها فى الميثاق بأن يذهب فى التعاون معها الى أبعد

مدى يستطاع، وفيما عدا ذلك بأن لا يدخر جهدا لتعرف حاجاتها وتفهم أمانيها وآمالها، وبأن يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من أسباب) .

واذن فهذا الملحق ينص ـ بصفة عرضية وغير أساسية ـ على أن الجامعة العربية ستقوم بأعمال يعود أثرها على العالم العربى كله، وهذه الجملة تعنى عودا تبعيا لا اساسيا، والعالم العربى كله بل العالم الانسانى سيستفيد من مجهودات الجامعة متى بذلت جهدها الحقيقى المنشود ، ولكن هذه الاستفادة يمكن ان تكون بطريق غير طريق الجامعة كالايحاء أو الاقتداء أو ما يشبه ذلك من الاسباب. ثم تنص ايضا ـ بنفس الصفة العرضية وبمجـرد الانبغاء لا الوجوب ـ على رعاية أمانى البلاد العربية والعمل على تحقيقها .

ولكن الملحق مع ذلك يوصى الامانة العامة بالذهاب فى التعاون مع هذه البلدان العربية الى أبعد حد ممكن، كما يوصيها بالنظر الى شؤونها وتفهم حاجاتها .

ومقدمات الملحق لا تحـدد العالم العربى ولا تفسر المقصود منه تفسيرا رسميا. ولقد ظل الكثيرون ينظرون الى المغرب العربى كجزء بعيد عن العالم العربى على الاقل من وجهة التفكير السياسى الشامل ، وظلت ظـروف الاستعمار دائبـة على اعتبار الشرق الاوسط المعنى بالبلاد العربية، واعتبار الشمال الافريقى جزءا من المنطقة الافريقية او من الاتحاد الفرنسى، ولذلك فان الملحق يظل غامضا بالنسبة الينا اذا لم تصدر الجامعة قرارا يقضى باعتبار المغرب العربى جزءا لا يتجزأ من البلاد العربية، ونحـن نرى ان هذا القرار يجـب ان يكون فى مقدمة ما تتخذه الجامعة فى قضيتنا لتفسر به هذا الغموض غير المقصود والذى لا يعفى عليه اهتمام العرب بالمغرب ولا اهتمامهم بنجاح قضيته وأمانيه .

ولتأكيد هذا القرار نرى ان الخطوة الثانية يجب أن تكون فى تعيين ممثلين عن البلاد المغربية فى هيئات الجامعة كلها السياسية وغيرها ؛ تعينهم الجامعة مؤقتا من طرف الزعماء البارزين او من الاشخاص الذين تتفق على كفاءتهم للاضطلاع بهـذه المهمـة التى ستلقيها الجامعة على عاتقهـم .

ولعل مجلس الجامعة يعتذر بأن دخول هؤلاء فى عضوية الجامعة يعطيهم حق التصويـت فى مسائلها العامة، بينما هـم لا يؤدون الواجبات المالية وغيرها مما يقوم به بقية الاعضاء، ولكننا نقول : ان معالجة هذه

المشكلة يمكن ان يقع اما بتنازل الدول المستقلة لاداء الاقساط التي لا يستطيع القاصرون اداءها للجامعة واما بعدم تصويت هؤلاء فى غير المسائل التى ترجع لشؤون دولهم الخاصة .

ولقد قامت الجامعة العربية باحتضان قضية ليبيا فشجعت تنظيم حركتها الوطنية وتأسيس هيئة تحرير ليبيا ، وطالبت بالاشتراك فى لجان البحث الدولية وغيرها ، وأعربت لها عن أمانى هذا الشعب العربى فى الحرية والوحدة والانضمام للجامعة ، كما توسطت لدى الانجليز فى توقيف سيل الهجرة الايطالية ، وعملت على التوفيق بين رغبات الوطنيين وطموح زعيم ليبيا الروحى السيد ادريس السنوسى .

واما فيما يخص الشمال الافريقى فليس من الممكن أن ندعى كون الجامعة اغفلت قضيته او لم تعرها التفاتا مفيدا، فلقد اعلنت تضامنها معنا فى جميع المناسبات القائمة ، ولم يأل رجالها جهدا فى تشجيعنا وتنشيط عملنا وترضية رجالنا فى كل ما تسمح به ظروف الجامعة القائمة، ولقد صرح الامين العام للجامعة لوفد حزب الاستقلال الاول بباريس بأن المسألة المغربية فى يدنا نحن ، وأن الجامعة مستعدة لتأييدنا فى كل ما نريد .

ومن الحق أن نعترف بأن انسجام الحركات المغربية فيما يخص مطالبها ومبادئها قد تم ، ومن الحق أن نعترف بأن هذا التمام لم يكن قديم الوضوح ، ومن الانصاف أن نقول ان بعض ممثلى المغرب كانوا يقنعون ببعض المطالب البسيطة من الجامعة فكانت هذه ترضيهم بها وتكتفى بذلك عن القيام بعمل ايجابى فى شؤون مراكش والجزائر وتونس .

ولكن من الحق ايضا أن نعترف بأن الجامعة لم تطبق علينا لحد الآن الملحق الاسكندرانى حتى فى فقرته الاخيرة، فهى لم تنظر لشئوننا ولم تتفهم حاجاتنا ، ولم تتكون فى ادارة الجامعة هيئة أو لجنة لدراسة قضية المغرب العربى وتفهمها ، ولعل العرب عموما ومن بينهم المختصون فى الشؤون الخارجية لا يعلمون من قضية المغرب العربى التى سيواجهونها ان عاجلا او آجلا الا بعض المعلومات السطحية التى لا تكفى لاعطاء كلمة التخصص فى شؤون المغرب العربى ، وما دام هذا التخصص غير موجود فى أروقة الجامعة فلا يمكننا ان نقول ان هنالك عناية من منظمة الامم العربية بهذا القسم من العالم العربى فضلا عن الاستعداد لمساعدته على ما ينبغى .

ولقد ساعدت الجامعة قضية فلسطين ، ولكن مساعدتها كانت مرتجلة وغير خاضعة لبرنامج محدود ، ولقد قامت على الرغم من ذلك وبفضل تضامن أعضائها بكل ما يمكن لفلسطين أن تطلبه منها ، ولكن لا يمكن للجامعة أن تدعى انها قد قامت بعملها من غير صعوبات جمة وعقبات كأداء نتجت عن ارتجالها فى العمل وعدم استعدادها له، او بالصراحة عن اتباعها سياسة الاجواء السياسية وتقلباتها، ولذلك يجب عليها ألا تقع فى مثل هذا فيما يخص المغرب العربى، بل يجب عليها أن تتناول قضيته بالدرس والتمحيص، وتنشر لها من الدعاية اللازمة فى الاوساط العربية والاجنبية ما يكون حولها رأيا عاما هنا وهناك يسهل على الجامعة مهمتها ويوضح لها خطة العمل الحاسم الممكنة فيها .

ومن حق الجامعة أن تعرف عن الحركات المغربية حقائقها ومقدار تمثيلها للرأى العام المغربى، ومن واجبها أن تعمل على توحيد هذه الحركة بقدر المستطاع، ولكن ليس لها أن تغفل اعتبار القيمة التمثيلية لرجالها، وليس من المناسب أن يتجدد أمامها ما حدث فى شأن فلسطين بتكوين المكاتب مؤيدة من بعض دول الجامعة وبقاء الهيئة العربية العليا مؤيدة من ادارة الجامعة وحدها ، بل يجب أن يكون عونها موجها للقضية بوساطة رجالها الرسميين ان كان ذلك ممكنا ، والا فبوساطة اصدق الناس تمثيلا للبلاد من الوجهة الشعبية، وليس من اللائق أن تظل الحالة على ما هى عليه الآن ، فتفتح الجامعة أبوابها لكل أحد ولو كان مرتزقا باسم القضية المغربية ، وتعامل الزعماء والقادة معاملة أولئك المرتزقين، بل عليها أن تكون فاهمة للوضع الداخلى معتمدة عليه لان العبرة فى النهاية بارادة الشعوب وحكمة مسيريها ، ولان فوضى الاتصال برجال المغرب العربى يؤدى حتما الى فوضى التوجيه فى شؤون المغرب العربى

والجامعة العربية يجب ان تدرس القضية المغربية بصفة مجردة عن كل الاعتبارات، وتتخذ باتفاق مع زعماء المغرب وملوكهم ان امكن برنامجا يظل سريا وتعمل له الجامعة بأساليبها، ويعمل له رجال الحركة المغربية بأساليبهم ، ويتم التشاور بينهما فى التوجيه مقدمة للتعاون فى التنفيذ ، وهكذا تصبح الحركة المغربية امتدادا من الجامعة فى مبادئها ووسائل العمل لها ، وتتأكد الشعوب العربية من حدب الجامعة عليها، وتتقين الجامعة من أنها تسير فى طريق وضعتها هى بنفسها وعبدتها بمجهودها لتصل للغاية التى أسست من أجلها وهى تحرير الامم العربية وتوحيدها .

لقد أقمت فى مصر سنة كاملة أبذل فيها من الجهد أضعافا كثيرة، وأتصل بالجامعة ورجالها، ولكن لا يمكننى أن أدعى أن للقضية المغربية فى أروقة الجامعة ما يجب أن يكون لهـا ، اننى أقابل دائما من رجالهـا بكل حترام وتقدير ، ولكننى لم أهاجر لهذا ، ولا من أجله قصدت مصر، وانما اتيت لمصر لانسق عملنا القومى بعمل اخواننا العرب من أجلنا ، هذا والحق يقال ما لم أجد له مدركا من أكبـر الناس عطفا علينـا اننا لسنا بحاجة للدعاية فى الاوساط العربية لان الدعاية ترمـى للاقنـاع ، والعرب مقتنعون قاطبة بضرورة تحرير المغرب ، ولكن العرب لا يعرفون من امرنا الا قليلا ، ولذلك فهم لا يحسون بما نحس به من الحاجـة الـى تأييد العرب العاجل لنا ، وحدبهم على قضيتنا ، فواجب الجامعة ان تكون اسبق العرب لادراك هذه الحقيقة،ومسؤوليتها فى ان تساعدنا على تعريف الرأى العام العربى بضرورة هذا التأييد، فانه ليس لقضية المغرب العربى ما لقضية فلسطين من العامل الدينى ، وليس لنـا مـن الوقـت ولا مـن المصلحة ما يسمح لنا بان نواجه الرأى العام العربى حتى يضغط علـى الدول العربية كما ضغط عليها فى شأن فلسطين ، بل ذلك كله يجب ان يكون من الجامعة العربية واعضائها ، لقد اصبحت قضية الجامعة العربية جزءا لا يجزأ من برنامج الحركة المغربية فيجب ان تصبح الحركة المغربية والقضايا التى تعمل لها جزءا لا يتجزأ من امانى الجامعة العربية واعمالها .

ويمكننا ان نحصر تفكيرنا حول موضوع المساعدة التى يتطلبها المغرب العربى من الجامعة العربية فى امريين:

الاول يرجع لدستور الجامعة ، والثانى يرجع لنظامها الادارى.

فاما الذى يرجع لدستور الجامعة فنحن نرى انه من الضرورى تعديل الملحق الخاص بالتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة فى الجامعـة ، ونقترح لذلك الصورة الآتية :

«نظرا الى ان الغاية الاساسية للجامعة العربية هى تكويـن وحـدة عربية متسقة بين الامم العربية ، ونظرا الى ان قسما مهما من البلاد العربية لم يتمتع بعد بالاستقلال الذى يسمح له بمشاركـة عملية فـى تحقيـق مقررات مجلس الجامعة ، ونظرا الى ان مبدأ الجامعة لا يسمح لها باهمال شؤون هذه البلاد العربية غير المستقلة ، خصوصا عند الدراسة الشاملة لشؤون العالم العربى فالمجلس يوصى :

(أ) بقبول ممثلين رسميين عن هـذه الامم فى حالة مـا اذا طلبـت حكومتها الوطنية الانخراط فى مجلس الجامعة بشرطين.

١ ـ التزام الحكومة الوطنية بالعمل على الاستقلال من سيطرة الاجنبى .

٢ ـ ان يكون للامانة العامة للجامعة حق المصادقة على تعيين من تندبه الحكومة المذكورة لتمثيلها فى مجالس الجامعة او لجانها .

(ب) او قبول منتدبين عن الشعب تختارهم الامانة العامة للجامعة بعد مصادقة مجلسها فيما اذا لم تكن للامة العربية المقترح قبولها حكومة، او لم يكن فى استطاعتها ان تعلن عن برنامجها السياسى خوفا من السيطرة الاجنبية ، ويستحسن أن تختارهم الجامعة من زعماء الاحزاب التى تمثل الاغلبية فى البلاد .

وفى سائر الاحوال يجب أن ترعى الجامعة العربية أمانى البلاد العربية غير المستقلة ، وتعمل على توجيهها نحو الغاية السامية التى تحقق اهداف الجامعة وتتم وحدة الامة العربية وانبعاثها ، وذلك بسائر الوسائل الممكنة .

«وبما أن غاية الجامعة القيام باصلاحات عظيمة فى العالم العربى، وبما أن بعض الامم العربية غير المستقلة لا يتيسر لها الاستفادة العملية من مقررات رجال الجامعة الفنية ولو كانت ممثلة بها، فمن الواجب على العامة أن تهتم بايجاد الوسائل التى تجعل المقررات المذكورة عملا ايجابيا بالنسبة للشعوب العربية القاصرة ، وذلك عن طريق التشجيع والتوجيه لحركات الاصلاح التى تقوم بها الاحزاب والهيئات الوطنية من جهة ، وعن طريق المطالبة بحق الدول العربية فى نشر الثقافة فى البلاد العربية ومساعدتها على الانبعاث مقابل ما يوجد فى بلاد الجامعة من مؤسسات ثقافية واجتماعية للدول الاجنبية، وكذلك عن طريق بعثات للطلبة الاهالى الذين تستقدمهم الجامعة للدراسة فى العالم العربى أو تبعثهم على حسابها للدراسة فى أوربا وغير ذلك من الوسائل التى تراها الامانة العامة ولجانها الفنية مناسبة من جهة أخرى ».

ونرى بعد هذا أنه من الضرورى أن يضع مجلس الجامعة التحديد الجغرافى للعالم العربى على الشكل الآتى :

«العالم العربى ـ هو الذى يتكلم لغة الضاد دوليا أو شعبيا ، ويحد جغرافيا شمالا بالبحر الابيض المتوسط ، وغربا بالمحيط الاطلسى، وشرقا بايران والخليج الفارسى وتركيا، وجنوبا بالمناطق الاستوائية الشرقية » .

وأما فيما يخص المغرب العربى ، فنحن نرى ضرورة اتخاذ المجلس للقرار التالى :

«منذ مائة وأربعة عشر عاما هاجمت تدريجيا فرنسا واسبانيا أقطار المغرب العربى (تونس والجزائر ومراكش) ووزعتها بينها ثم فتحتها بمختلف الوسائل الدبلوماسية والعسكرية مع أن هذه البلاد كانت كلها متمتعة بحريتها واستقلالها، وقاومت وما تزال تقاوم الفتح الاجنبى مبدية رغبتها الاجماعية فى التحرر منه والتمتع بالاستقلال والانضمام للجامعة العربية.

ولذلك ونظرا للحالة السيئة التى تعيش فيها هذه البلاد من جراء الاستعمار الفرنسى والاسبانى وتطبيقا لمبادىء الميثاق الاطلسى تعلن الجامعة العربية :

اولا ـ اعتبارها أن المغرب العربى جزء لا يتجزأ من العالم العربى

ثانيا ـ تؤيد الجامعة العربية دول المغرب العربى وشعوبه فيما تسعى اليه من استقلال ناجز عن السلطات الاجنبية.

ثالثا ـ لا تعترف الجامعة العربية بالوضع الحاضر فى كل من مراكش بما فيها من مناطق الريف وطنجة وموريطانيا، وفى الجزائر وتونس .

رابعا ـ ونظرا لظروف المغرب العربى الخاصة، والى أن تتتمع دوله بالاستقلال الفعلى يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربى عن كل من مراكش وتونس والجزائر للاشتراك فى أعماله .

* * *

وأما الذى يرجع لنظام الجامعة الادارى فنحن نرى ضرورة تكوين قسم خاص بالمغرب العربى تابع لادارة الجامعة يشرف عليه رئيس ذو حاسة ادارية ومعرفة بشؤون المغرب العربى، ويكون اختصاصه العمل على :

١ ـ دراسة أحوال المغرب العربى، وجمع الوثائق والمستندات الضرورية لذلك .

٢ ـ الاتصال برجال الحركات المغربية وتنسيق أعمالهم مع أعمال الجامعة ومختلف اداراتها .

٣ ـ توجيه وتنظيم دعاية واسعة النطاق للمغرب العربى وقضاياه سواء فى بلاد العرب او اوربا وأمريكا باتفاق مع الاحزاب المغربية .

٤ ـ الاشراف على تحقيق ما يمكن تنفيذه من مقررات الجامعة فى البلاد المغربية.

٥ ـ الاهتمام بالجاليات المغربية الموجودة فى المشرق والطارئة عليها وتحسين أحوالها لتكون عضوا عاملا فى البلاد العربية التى تؤويها.

٦ ـ البحث والتنظيم والتنسيق لوسائل التبادل الاقتصادى والتجارى بين بلدان المغرب العربى .

الدعاء لقضاء أيام الصيف والشتاء فى البلاد العربية المغربية الغنية بالمصايف المختلفة والمشاتى اللذيذة عوضا عن صرف الاموال الباهظة فى أوربا، وكذلك الاهتمام بربط حركات الرياضة والكشافة المغربية بأخواتها فى المشرق والعمل على تنظيم بعثات متبادلة، وتنسيق المجهودات السينمائية العربية وتوحيد مقاصدها الخ.

وبالجملة فيمكن لهذه الادارة ان تقوم بكل ما كان يجب ان تقوم به سفارات المغرب العربى لو كانت دولة مستقلة، وذلك بالتعاون مع الاحزاب المغربية واستغلال نشاطها.

وهكذا سيتيسر للجامعة ان تكون شيئا ايجابيا بالنسبة للمغرب العربى من جميع النواحى التى يتناولها نشاطها، ويستفيد بذلك العالم العربى بقسم من أمته يجهل عنه كل شىء ، وضرورى أن الاتحاد الحقيقى لا يتم بمجرد تبادل العواطف وانما يكون بالتشارك فى العمل والتعمق فى فهم بعضنا البعض

* * *

والجامعة العربية يجب ان تنظم نفسها أحسن مما هى عليه الآن ، وألا تكتفى بتعيين بعض الموظفين الثانويين فى أقسامها ترضية لبعض أعضائها او استجابة لوساطة بعض أحبابها، بل يجب أن تضم اليها أحسن العناصر العربية للاستفادة منها والاستنارة بأعمالها.

ولقد أخذ الناس جميعا على الجامعة فقدانها لبرنامج موحد فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية، ولقد قال لى أحد ملوك العرب : ان الذى ينقص الجامعة هو ان كل رئيس وزارة يقدم برنامجا يراعى فيه سياسة دولته الخاصة، أى ان مداولات الجامعة تنقصها النظرة الشاملة للبلاد العربية أثناء التفكير والتقرير، فواجبها اذن ان تعمل على تكوين حاسة عربية تحل عمليا محل الحاسة الاقليمية ليتسنى لها وضع برنامج عملى للامة العربية فى جميع فروع نشاطها

ويأخذ المفكرون على الجامعة أنها وقد أسست لتوطيد دعامة الوحدة العربية فقد كان من الواجب عليها السير نحو هذا الهدف، وهو توحيد الدول العربية ضمن دولة واحدة، أى أن تبذل الجهد لتغيير الوضع الحاضر فى البلاد العربية الذى هو من آثار الاستعمار الغربى، وقد ظهر هذا النقص بصورة واضحة على أثر ما جرى فى شؤون فلسطين أخيرا .

والحق أن الجامعة العربية بذلت جهودا جبارة فى هذه المدة اليسيرة التى عاشتها، والحق أن تهافت المستعمرين على العالم العربى وضغط الدعاية الصهيونية وتكالب الدول الكبار على تأييدها قد عرقل كثيرا من نواحى النشاط التى كان واجبا ان تنهض بها المؤسسة العربية الخطيرة، ولكن ذلك لا يمنع من أن نعترف بأنه وقع تقصير مزر فى بعض فروع هذا النشاط، وأعنى به الناحية الاجتماعية، فان الجامعة لحد الآن لم تؤسس حتى اللجنة الاجتماعية التى تنص على وجوب تأسيسها لائحتها الداخلية، وهى لم تعر أدنى اهتمام بمستقبل العملة العرب ولا مستقبل الاسرة العربية والفرد العربى، والحال أن الحاجة الملحة فى العالم العربى تقضى بضرورة وضع حد لفوضى الحياة الاجتماعية المهددة بالانحلال والوقوع فى يد الحركات الهدامة او الرجعية، ونحن لا نشك فى أن مؤلف الرسالة الخالدة يشعر معنا بهذه الحقيقة المرة ويسعى للعمل على اصلاحها، ولسنا نظن أن الظروف القائمة فى بعض الدول العربية التى لم تأخذ بعد بقسط وافر من التطور الفكرى من شأنها ان تمنع رجال الجامعة من القيام بواجبهم ووضع ميثاق للرجل العربى وتوصيات من شأنها أن ترفع مستواه المادى والمعنوى، ولذا فنحن نقترح على مجلس الجامعة التعجيل بتأسيس اللجنة الاجتماعية وتعيين خبراء لوضع ميثاق عربى على غرار المواثيق التى قامت بها النهضات الاوربية والامريكية فى عصر انبعاثها

ولقد شغلت هذه المسألة فكرى منذ نزولى فى مصر، وتناولت فيها الحديث مع مختلف الشخصيات المفكرة التى لم تكتم عنى قلقها من الاهمال الشنيع الذى يصيب الشؤون الاجتماعية فى الشرق العربى ، والذى يهدد اذا دام ــ لا قدر الله ــ بتغلب ذوى النيات السيئة الذين يعملون لنشر مبادىء أجنبية من شأنها أن تضيع على العرب تراثهم الروحى والفكرى وتعبدهم لفلسفات غريبة عنهم أجنبية عن ذهنيتهم

وقد آدت هذه المذاكرات الى تكوين لجنة صغيرة تضم بعض كبار العاملين من مصر ومراكش وضعت مشروع ميثاق أرى من المناسب أن أجعله خاتمة هذا الكتاب مع العلم بأنه مشروع ابتدائى فى الموضوع لا نريد به اكثر من توجيه النظر واستعارة الانتباه :

الميثاق العربي

أولا ـ الكيان السياسى :

أ) استقلال تام وسيادة كاملة .

ب) تضامن عربى وصداقة مع سائر الدول دون تمييز فى سبيل التعاون العالمى .

ج) الحكم شورى.

١ ـ الامة فيه مصدر السلطات والحفيظة عليها.

٢ ـ وللاقليات الدينية والعنصرية ذمتها.

ثانيا ـ الكيان الاقتصادى :

أ) تأميم مصادر الثروة القومية والمرافق العامة

ب) توحيد الانتاج وتنظيم التداول والتوزيع .

ج) تشجيع التعاون .

د) معاونة الاستثمار الفردى والملكية الخاصة لمصلحة الجماعة.

هـ) التصاعد فى الضرائب

ثالثا ـ الكيان الاجتماعى :

ضمان الحرمات البشرية

أ) حرمة الوجود بتوفير الدولة الحد الادنى بالمجان فى الاعتبارات التالية :

١ ـ الامومة ـ الولادة ـ الحضانة.

٢ ـ المسكن ـ المأكل ـ الملبس

٣ ـ الصحة والعلاج

٤ ـ المعرفة

ب) حرمة الانتاج بتوفير الدولة للافراد الحقوق التالية :

١ ـ العمل.

٢ ـ الاجور.

٣ ـ الراحة.

٤ ـ الاستشفاء .

٥ ـ الامان من الشيخوخة والتعطل وعدم المقدرة

ج) حرمة النشاط باطلاق الدولة :

١ ـ حرية الرأى والاعتقاد.

٢ ـ حرية الاعراب بالطرق التالية :

د) القول والخطابة.

هـ) الكتابة والطبع والتصوير والتمثيل والصحافة والاذاعة.

و) الاجتماع واقامة الشعائر والتظاهر

ز) تأليف الجماعات.

ح) حرمة الكرامة :

١ ـ لا اعذار الا بعد انذار.

٢ ـ التبعات على قدر الاوزار.

٣ ـ المساواة بين الافراد جميعا.

٤ ـ تمكين المرأة من تأدية رسالتها فى الجماعة.

رابعا ـ وسائـل النهـوض :

أ) المعنويات :

١ ـ محو الامية واشاعة الخلق العظيم والاعتزاز بالتـراث تحقيقا لرسالة العربية فى سبيل هناءة البشرية جميعا .

٢ ـ تعميم التعليمين الابتدائى والثانوى بالمجان واستنادهما الى خيرات التراث القومى ومقومات الحضارة الحديثة

٣ ـ العناية بالدراسات الفنية العالية لعناصر القيادة العلمية المنتجة فى مختلف الحقول

ب) الجسمانيات :

١ ـ القضاء على أسباب المرض والفاقة بتقديم التطبيب والاطعام والاكساء مجانا للمحرومين والمحتاجين.

٢ ـ بناء القـرى والاحياء الحديثة وتوفير أسباب الصحة والترفيه فيـهـا.

٣ ـ الاكثار من المستشفيات والمستوصفات

ج) الدفـاعيـات :

١ ـ التجنيد الاجبارى

٢ ـ اعداد الضباط والقواد فى أرقى معاهد العالم.
٣ ـ انشاء مصانع للاسلحة والذخيرة.
٤ ـ تنظيم الجيش والبحرية والطيران على أحدث الاسس.
د) الماديات :
١ ـ استنباط الثروات من الارض وجوف الارض والانهار والبحار والهواء وسائر ما يكتنف التراب القومى من عناصر .
٢ ـ السير قدما فى سبيل تصنيع البلاد بأوسع معانى التصنيع.
٣ ـ نشر شبكات المواصلات بجميع أنواع كل منها.
٤ ـ تنسيق التبادل بين منتجات البلاد العربية وتدعيم التشارك فى استثمار أموالها لمصلحة هذه البلاد .

خامسا ـ الاجراءات العاجلة :

الى أن تقوم الحكومات باتخاذ وسائل النهوض سعيا فى سبيل تحقيق مبادىء الميثاق يتولى اولو الفكر فى مختلف البلاد الدعوة لهذه المبادىء وتكوين الجماعات بانشاء المدارس الحرة والعمل على محو الامية بارسال بعثات التخصص واغاثة المحرومين واعانة المحتاجين وتهيئة منظمات التربية البدنية، وتأليف الشركات الصناعية والتجارية وتنظيم المؤتمرات واذاعة البيانات والمعلومات وتبادل المعرفة عن تطورات الامور الداخلية والعالمية والاعلام عن رسالة العروبة فى خدمة الانسانية وحث الحكومات العربية على السير فى طريق ذلك جميعا .

الفهرس

صفحة

الفاتحة ... ...
امتداد ... ... د
فى المغرب الاوسط او الجزائر ١
تمهيد ٣
المجاهد أبو معزى ٤
حاكم الزعاطشة ٥
ضم الجزائر لفرنسا ٦
رد الفعل ٧
ثورة المهرانية ٩
دفاع مراكش ٩
الحركة الجزائرية ٩
اعلان الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ... ... ١٠
سقوط وزارة بوانكاريه ١١
اجتماع جمعية نجم شمال افريقيا ١٣
ابن باديس وجمعية العلماء ١٤
خليفة اليالو ١٦
عباس فرحات ١٨
بعد انتصار الجبهة الشعبية الفرنسية ١٩
المؤتمر الاسلامى الجزائرى ١٩
مطالب المؤتمر ١٩
حزب الشعب الجزائرى ٢٣
مصالى فى جنيف ٢٣
مشروع بلوم فيوليت ٢٣

صفحة

حزب أصدقاء البيان ٢٤
تأسيس هيئة «أصدقاء البيان» ٢٤
مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ... ... ٢٦
دفاع الجزائريين عن الديموقراطية ٢٦
الاحتفال بعيد النصر ٢٨
استنكار الانجليز والامريكان للفظائع الفرنسية ٢٩
حلول معروضة ٣١
تقهقر موقف فرنسا فى الجزائر ٣١
الشيوعيون والحكم الذاتى ٣١
مشروع الحكم الذاتى ٣٢
الاتحاد الديموقراطى لمسلمى الجزائر ٣٢
الحالة الحاضرة ٣٣
مهزلة مشروع الحكومة ٣٣
جمعية العلماء المسلمين ٣٤
فى تونس او المغرب الادنى ٣٥
احتلال تونس ومراكش ٣٧
ضعف السياسة الوطنية ٣٧
الاصلاح فى تركيا ٣٨
الرأى العام وخير الدين باشا ٣٩
خروج خير الدين من تونس ٣٩
معاهدة باردو واعلان الحماية ٤٠
ارغام الباى على امضاء المعاهدة ٤٠
غزو فرنسا لتونس ٤٠
احتلال الفرنسيين للبلاد ٤٠
الحركة الوطنية بعد الحماية ٤١
حركة المكى ابن عزوز ٤١
جماعة الحاضرة ٤٢
محمد بك فريد ومعهد ابن خلدون ٤٣
حزب تونس الفتاة ٤٣
مرسوم (كريميو) ٤٣

صفحة

حزب المقاومة او حزب تونس الفتاة علي باش حمبة ٤٤
جريدة (التونسى) بالفرنسية ٤٤
احتلال طرابلس الغرب عام ١٩١١ ... ... ٤٥
عني باش حمبة بالاستانة ٤٥
تأسيس هيئة لغزو شمال افريقيا بالاتفاق مع تركيا ٤٦
ثورة (التوارجة) عام ١٩١٧ ... ... ٤٦
جمع أسارى المغاربة فى المانيا وتركيا ٤٧
باش حمبة بالاستانة ٤٧
(مجلة المغرب) فى جنيف ٤٧
الوفد الوطنى لمؤتمر الصلح ٤٩
الثعالبى ومؤتمر الصلح ٤٩
(تونس الشهيدة) للثعالبى ٤٩
الحكم المباشر ٥٠
الثعالبى والدستور ٥٠
حزب جديد للمطالبة بنظام دستورى ٥٠
القرض ـ الوقف ٥٢
غضب الجمهور وخاصة المنتفعين بالوقف ٥٢
الاحتجاج على عمل فلاندان ٥٢
ميثاق الدستوريين ٥٢
اعتقال الثعالبى بباريس ٥٣
وفد الاربعين وتضامن الباى ٥٥
الدستوريون ٥٥
زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لمراكش وتونس ٥٥
وعد الخارجية بتحقيق الاصلاحات ٥٥
تقدم لوسيان سان باصلاحات لسمو الباى ٥٦
رفض الباى للمقترحات ٥٦
توتر العلاقات بين القصر والاقامة ٥٦
تصريح فرنسى مدسوس ٥٦
غضب الباى للتصريح ٥٦
اعلان الباى تكذيبه للخبر ٥٦

صفحة

الباى يريد عزل رئيس الوزارة ووزير التشريفات ٥٦
شهامة محمد الناصر العربية ٥٦
تضامن الشعب مع الملك ٥٦
مظاهرة كبرى ٥٦
محاصرة القصر وتقديم لائحة للملك بابعاد
أشخاص غير مرغوب فيهم ٥٦
وفاة الباى فجأة ٥٦
رحلة الثعالبى للشرق ٥٧
تمثال للكاردينال دولا ٥٨
هياج التونسيين ٥٨
منع تمثيل رواية (فتح الاندلس) ٥٨
ابعاد توفيق المدنى ٥٩
مهاجمة السلطة للسيادة التونسية ٥٩
المظاهرات ٥٩
الحركة النقابية ٥٩
الشباب الدستورى فى الميدان ٥٩
ايقاف جريدة الحزب ٥٩
جريدة (العلم التونسى) ٦٠
ايقاف الجريدة سنة ١٩٢٩ ... ... ٦٠
ظاهرة مريبة فى الاستعمار الفرنسى ٦٠
تشجيع التبشير بالمسيحية ٦٠
المؤتمر الافخارستى ٦٠
اضراب العمال ٦١
تمثال فى قرطاجنة ٦١
قضية التجنيس ٦١
ثورة البلاد ٦٢
الحركة الوطنية وسياسة الادماج ٦٢
مؤتمر قسم الجبل ٦٢
انعقاد المؤتمر فى مايو سنة ٣٣ ... ... ٦٢
قرار المؤتمر ٦٢

صفحة

حل الحزب الدستورى ٦٣
اعفاء مانصورون ٦٣
تعيين بيرتون ٦٣
قضية دفن المتجنسين ٦٣
حادثة المنستير ٦٣
الانشقاق فى صفوف الدستور ٦٣
حل الدستور القديم ٦٤
تأسيس الدستور الجديد ٦٤
جريدة (العمل) ٦٤
بيرتون ولجنة المباحث ٦٤
تعطيل جريدة العمل ٦٤
اعتقال الزعماء ٦٤
اعفاء بيرتون ٦٥
تعيين أرمان ڤيون ٦٥
تونس والجبهة الشعبية الفرنسية ٦٧
رغبة ڤيون فى تحسين الحالة ٦٧
ڤيون والعفو عن المعتقلين ٦٧
الاتحاد النقابى التونسى ٦٧
عودة الشيخ الثعالبى ٦٧
الحزب الجديد والتدابير المستعجلة ٦٨
سفر أبى رقيبة الى باريس ٦٩
زيارة فيينو لتونس ٦٩
أنانية المستعمرين ٦٩
مسيو فيينو ورأيه فى الحالة ٧٠
تصريح ميلران ٧٠
استياء تونس من التصريح ٧٠
الدستوريون ووعود الجبهة ٧٠
مؤتمر الحزب سنة ١٩٣٧ ... ... ٧١
اعتقال انصار الحزب الوطنى سنة ١٩٣٧ ... ... ٧١
جواب الحماية ٧١

صفحة

اعتقال عـلال البهلـوان ٧١
مظاهرات واعتـداءات ٧٢
لجنة الدفاع عن الحريات بتونس ٧٢
أعمال الشباب ٧٢
تأسيس لجنة للدفاع عن الحريـات العامة ٧٢
الحرب العالمية الثانيـة ٧٢
نقل الجنرال بلان لتونس ٧٢
تحميل الاهالى مسؤولية حراسة الاسلاك التليفونية ٧٣
الهدنة الفيشية والمطالبة بالاستقلال ٧٣
المطالبة باطـلاق سراح الزعماء ٧٣
اعتقال اعضـاء الديوان السياسى ٧٤
ارتقـاء المنصف للعـرش ٧٤
تأييد المنصف للمطالـب المستعجلة ٧٤
احتلال الالمان لتونس عام ١٩٤٢ ... ... ٧٤
الدكتور ثامر يقود الحركة ٧٤
تحرير تونس فى مايو سنـة ١٩٤٣ ... ... ٧٥
اعلان الجنرال جيرو خلع المنصف فى مايو عام ١٩٤٣ ٧٥
كفاح الشعب فى السر ٧٧
مغادرة أبـى رقيبة لتـونس ٧٧
تنظيم الديوان السياسى ٧٧
الميثاق الوطنـى ٧٧
احتلال قاعة الاجتماع ٧٧
اعتقال المؤتمرين ٧٨
ميثاق المؤتمر الوطنى التونسـى ٧٨
الحالة الحاضـرة ٨١
الاستقـلال التـام ٨١
اتفاق الحزبين التونسيين ٨١
لجنة تحرير المغرب العربى ٨١
مراكـش او المغرب الاقصى ٨٣

صفحة

الجزائر تحت الحكم التركى ٨٥
مراكش وتركيا ٧٥
المجاهد ابو معزى ٨٥
موقعة أيسلى ٨٥
مدرسة للطبجية ٨٦
تأسيس معمل للسكر ٨٦
انشاء المطبعة المحمدية ٨٦
تغيير نظام الحكومة ٨٧
الوزارات المراكشية ٨٧
الامتيازات الأجنبية ٨٧
تهافت الدول الاجنبية ٨٧
التمثيل السياسى ٨٨
محيى الدين الجزائرى ٨٨
سياسة مولاى الحسن ٨٨
المقاومة الديبلوماسية ٩١
الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ... ... ٩٣
تولية مولاى عبد العزيز ٩٣
الوزير أبا أحمد ٩٤
الشيخ ماء العينين ٩٤
مجلس للاعيان ٩٤
مؤتمر الجزيرة ٩٥
مولاى عبد العزيز والتغلغل الفرنسى ٩٥
خلع المولى عبد العزيز ٩٥
مبايعة عبد الحفيظ ٩٥
البيعة الحفيظية ٩٦
عقد بين الملك والشعب ٩٦
جريدة (لسان المغرب) بطنجة ٩٦
جماعة لسان المغرب ٩٧
جمعية سرية ٩٧
الانقلاب فى تركيا ٩٨
مشروع الدستور المغربى ٩٨

صفحة

تأسيس (منتد الشورى) ٩٩
هجوم الجيش الفرنسى على فاس ١٠١
اعلان الحماية فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ ... ... ١٠١
المقاومة العسكرية ١٠٣
ثورة الجيش ١٠٥
البرلمان الفرنسى والماريشال ليوطى ١٠٥
الحرب الكبرى الاولى ١٠٥
جبالة والريف ١٠٥
محمد آمزيان ١٠٦
فى الاطلس المتوسط ١٠٦
فى الاطلس الكبير ١٠٧
تافيلالت وآيت عطا ١٠٧
موحى السملالى ١٠٧
اغتيال السملالى ١٠٧
الحرب الريفية ١٠٩
عمليات استتباب الامن ١٠٩
والد محمد عبد الكريم ١١٠
تحرير مركز (دار بارا) ١١٠
هجوم الجنرال سيلفستر ١١٠
معركة (انوال) ١١١
موقعة عريت ١١١
انهزام الاسبان ١١١
انتصار الريفيين ١١٢
استئناف برانجى للهجوم ١١٢
دعوة الاسبان للهدنة ١١٢
الاسرى الاسبان ١١٢
معاودة الريفيين للهجوم ١١٣
اجتماع مجلس الوزراء الاسبانى ١١٣
عدم نجاح مؤتمر تطوان ١١٤
اعلان الاحكام العرفية ١١٤
الحرب مع فرنسا ١١٥

صفحة

موقف عبد الكريم من فرنسا ١١٥
الفرنسيـون ووادى ورغة ١١٦
نقل ليوطى وتعيين ستيغ ١١٦
بطولة الشعـب المغربى ١١٦
اسبانيا وشروط الصلح وعرضها على عبد الكريم ١١٧
نفى الأمير الى (لا رينيـون) ١١٩
دستور الجمهورية الريفيـة ١٢١
الانتصار والمؤتمـر الشعبى ١٢١
الجمعية الوطنية ١٢١
الاستقلال والحكومـة الدستورية ١٢١
مواد الدستور ١٢١
المقاومة السياسيـة ١٢٥
الحركة الوطنية بعد الحماية ١٢٧
مظاهرات العـمال ١٢٨
شعور المغاربة فى حرب الريف ١٢٨
فى المؤتمـر الاسلامى بالآستانة ١٢٩
المؤتمر الاسلامى باستوكهلم ١٢٩
السيد العتابى ١٣٠
نزع الملكيـة ١٣١
تمسـك المراكشى بأرضـه ١٣٢
الخلاف بين مولاى يوسف وستيغ ١٣٢
رغبة جلالته فى عزل ستيغ ١٣٢
نقل ستيغ بعد وفاة الملك ١٣٢
الحركة السلفية ١٣٣
خيانة بعض مشايخ الطرق ١٣٣
ديرمانجيم مؤلـف (حيـاة محمد) ١٣٤
الاتجاه السياسى للسلفية الجديدة ١٣٥
من السلفية للوطنية ١٣٩
مجلة (أم البنين) ١٣٩
جمعيـة أحباء الطلبة ١٣٩
الاستيلاء على ماء وادى فاس ١٤٠

صفحة

السياسة البربرية ١٤١
تجنيس المغاربة ١٤١
الدين واللغة العربية فى التعليم ١٤٢
الامة المراكشية تثور ١٤٥
اعتقال الشبان ١٤٥
الكومندان ميلى ١٤٥
اجتماع المجلس البلدى ١٤٥
وفد فاس برئاسة ابن القرشى ١٤٦
مطالب الوفد ١٤٦
تحدى الحماية لممثلى الامة ١٤٦
اعلان حالة الطوارىء ١٤٧
رئيس الجمهورية الفرنسية فى المغرب ١٤٧
صدى المسألة فى العالم الاسلامى ١٤٧
كتلة العمل الوطنى والحزب الوطنى ١٤٩
مقاطعة البضائع الفرنسية ١٥١
مجلة مغرب ١٥٣
جريدة (عمل الشعب) بفاس ١٥٤
مجلة (السلام) وجريدة (الحياة) ١٥٥
مؤتمرات للمطالبة بالصحافة ١٥٥
تغيير المقيم العام ١٥٦
العودة للبلاد ١٥٧
تكذيب جلالة الملك لاشاعة فرنسية ١٥٨
احتجاج الملك على وزارة فرنسا فيما وراء البحار ١٥٩
تأسيس عيد العرش المغربى ١٦١
زيارة الملك لمدينة فاس ١٦١
رفض جلالة الملك اعتقال رجال الكتلة ١٦٢
تضامن الكتلة مع جلالته ١٦٣
تعطيل جريدة الكتلة ١٦٣
برنامج الاصلاحات المغربية ١٦٥
فرض الحماية ١٦٥

صفحة

الحماية مجـرد رقابة ١٦٥
برنامـج الاصلاحات يحوى ١٥ فصلا ١٦٦
تقرير الاقامة العامة للجنة البحر الابيض المتوسط ١٦٧
اعلان مطالب الشعـب المغربى ١٥٨
الحكومة الفرنسية تدرس الاصلاحات ١٦٩
مسألة الممثلين الفرنسيين ١٧١
الخلاف بين المقيم بونصو والجالية الفرنسية ... ١٧١
مطالبة الجالية الفرنسية بالحقوق السياسية ... ١٧١
احتجاج كتلة العمل الوطنـى ١٧٢
اشتداد الخصومة وعجـز بونصو ١٧٤
بيروتـون ١٧٤
عزل بونصو ١٧٥
الكتلة وموقفهـا من بيروتون ١٧٦
الحرب الاهلية الاسبانية ١٧٩
اعتقال الوطنيين ١٧٩
مذكرة للمبعوثيـن الفرنسيين ١٨٠
وفد الكتلة الى برشلونة ١٨٠
جريـدة الريـف ١٨١
المكى الناصرى بالرباط ١٨٢
انشقاق فى كتلة الشمال ١٨٢
الوحدة المغربية ١٨٣
صاحب السمو السلطانى يعمل ١٨٣
المجلس الاعلى للاوقاف ١٨٣
التعليم الاجبـارى ١٨٤
المغرب والجبهة الشعبية الفرنسية ١٨٥
مؤتمر الكتلة بفـاس ١٨٥
المطالـب المستعجلـة ١٨٦
مؤتمر الدار البيضاء ومنعه ١٨٨
مظاهرات تضامنية فى أنحاء المغرب ١٨٨
عمر عبد الجليل مبعوث الكتلة الى باريس ... ١٨٩
الجنـرال نـوجيـس ١٩٠

صفحة

انشقاق عن الكتلة ١٩١
حل الكتلة ١٩٢
الحركة الوطنية لتحقيق المطالب ١٩٥
مباحثات مع الجنرال نـوجيس ١٩٥
وفد الحركة الوطنية الى باريس ١٩٥
الحـزب الوطـنى ١٩٦
جهاد الحزب الوطنى ١٩٩
التمسك بالاسلام ١٩٩
التمسـك بالنظام الملكى ١٩٩
جمعية طلبة شمال افريقيا بفرنسا ٢٠٠
جمعية أصدقاء الطلبة ٢٠١
لجنة الاصلاح الدينى ٢٠١
العطلة الاسبوعية ٢٠٢
الحق النقابى للمغاربة ٢٠٢
حماية الفلاحيـن ٢٠٣
لجنة التقويم الخلقى ٢٠٤
جمعية الشبـان المسلمين والهداية الاسلامية ... ٢٠٦
لجنة حماية فلسطين ٢٠٦
احياء يـوم فلسطين ٢٠٦
المؤتمر الاشتراكى سنـة ١٩٣٧ ... ... ٢٠٧
الـدفـاع عن الفـلاح ٢٠٩
المستعمرون بوادى ايمور ٢٠٩
مظاهرات تضامنية ٢١١
مقاومة البؤس ٢١٢
الحـزب واستقبـال المسيو راماديه ٢١٢
هتاف الشعب بسقوط الحماية ٢١٣
الدفاع عن الدين ٢١٣
مهرجان ١٣ اكتوبر بفاس ٢١٤
الرقابة على الصحف ٢١٤
احتجاب الصحف ٢١٤

صفحة

المؤتمر العام للحزب الوطنى ٢١٥
الميثاق الوطنى ٢١٧
سياسة الجنرال نوجيس ٢١٩
الثورة الوطنيــة ٢٢١
اغلاق جميع المساجد ٢٢١
تضامــن المنطقة الخليفية ٢٢٣
قيام مظاهرات فى تطوان ٢٢٣
احتجــاج ماسينيــون ٢٢٤
استمرار الحركة ٢٢٤
فى المنطقة الخليفيــة ٢٢٦
وضع برنامج للاصلاح الوطنى ٢٢٦
مطالب الشعــب المغربى ٢٢٦
الجالية الاسبانية ٢٢٦
عــزل بيك بيــدر ٢٢٧
تعييــن اسينسيو ٢٢٧
فى الحرب العالميــة الثانية ٢٢٩
سياســة الحــرب ٢٣٠
مجلس شــورى الحكومة ٢٣٠
الحــزب الوطنى وسياسة العمل ٢٣١
الهدنــة الفيشيــة ٢٣١
احتلال اسبانيا لطنجة ٢٣١
مجلة (رسالة المغرب) ٢٣١
وفد الحزب الوطنى فى المشرق ٢٣٢
رابطة الدفاع عن مراكش ٢٣٢
المغاربة اللاجئون الى القاهرة ٢٣٣
مجهودات المنفى ٢٣٥
احتــلال جيش ديجول لمويلا ٢٣٥
المفاوضــة مع عــلال الفاسى ٢٣٦
اللجنــة الوطنية برياسة الجنرال ديجول ٢٣٧
حزب الاستقلال ٢٤٣

صفحة

من الحزب الوطنى لحزب الاستقلال ٢٤٥
عقد مؤتمر عام بالرباط سنة ١٩٤٤ ... ... ٢٤٦
ميثاق ١١ يناير سنة ١٩٤٤ النص الرسمى ٢٤٩
الحلفاء واعترافهم بحق الشعوب ٢٤٩
المطالبة باستقلال المغرب ٢٤٩
حزب الاستقلال كمذهب وكعقيدة ٢٥١
حالة البروليتارية الفلاحية ٢٥٢
فرض التعليم الاجبارى ٢٥٣
الدفاع الوطنى والامن الداخلى ٢٥٤
السياسة الاقتصادية والمالية ٢٥٥
الحكومة ومقاومة تضخم النقد ٢٥٥
السياسة الخارجية ٢٥٦
المطالبة بالاستقلال ٢٥٧
رد الفعل عند الفرنسيين ٢٥٩
الخسائر الفرنسية ٢٦٠
المظاهرات بفاس ٢٦٢
محاصرة المقبرة العمومية ٢٦٣
فرق الكشافة ونقلها جثث الشهداء ٢٦٣
احتلال الجيش للدار البيضاء ٢٦٤
معارضة سياسة الاصلاحات ٢٦٩
اصلاحات جابريال بيو ٢٧٠
ماسيجلى وقبول فرنسا لتنفيذ الاصلاحات ٢٧١
حزب الاستقلال يجيب المسيو بيو ٢٧٢
الاقامة العامة وتأسيس اللجان ٢٧٢
الادارة العامة ٢٧٤
تقرير ليوطى ٢٧٦
النظام الفلاحى ٢٧٨
الدفاع عن سيادة الشعب ٢٨٠
الاحتجاج على انتخابات الفرنسيين ٢٨١
جلالة الملك واحتجاجه على تصرف الفرنسيين ... ٢٨٢

صفحة

سياسة المسيو ايريك لابون ٢٨٣
جابريال بيو وفشل مقترحاته ٢٨٣
تعيين ايريك لابون ٢٨٣
ارجاع الزعماء المنفيين ٢٨٤
تكوين اقطاعية جديدة ٢٨٧
تكوين شركة للفحم ٢٨٨
معارضة سياسة لابون ٢٨٩
تأسيس شركة للطيران ٢٩٠
تضامن المغاربة مع جلالة الملك ٢٩٠
وفد حزب الاستقلال بفرنسا ٢٩١
عزام باشا واتصاله برجال الحزب ٢٩٢
عيد العرش المغربى ٢٩٢
مأساة الدار البيضاء (٧ ابريل سنة ١٩٤٧) ٢٩٥
زيارة جلالة الملك لطنجة ٢٩٥
شهداء ٧ ابريل ٢٩٧
الرحلة الملكية لطنجة ٢٩٩
جلالة الملك وتأخيره الرحلة ٢٩٩
قبول فرنسا وانجلترا للفكرة ٣٠٠
تقديم لابون باسم فرنسا بعض المطالب لجلالة الملك ٣٠٠
قبول جلالة الملك بعض المطالب ورفض بعضها ٣٠١
رفض جلالة الملك دعوة سفيرى أمريكا والبرتغال ٣٠١
عدد خاص من جريدة (العلم) ٣٠٢
صاحب الجلالة يغادر الرباط ٣٠٢
ولاء المنطقة الخليفية ٣٠٣
ولاء المغرب المتحد ٣٠٣
الاقتبالات ٣٠٤
هدية الكشافة الحسنية ـ الامام المجدد بالمسجد ٣٠٥
هدايا الشعب لمليكه ٣٠٦
العودة للرباط ٣٠٨
خطب طنجة ٣٠٩

صفحة

أهمية الزيارة الملكية ٣١١
عودة طنجة للنظام الدولى ٣١٢
أثر الزيارة الملكية فى المسؤولين الفرنسيين ٣١٣
صدى الزيارة فى الصحف الفرنسية والاجنبية ٢١٥
النشاط الوطنى فى المنطقة الخليفية ٣١٧
تقديم مذكرات عن الحالة فى المغرب ٣١٧
نشاط حزب الاصلاح ٣١٨
الحزبان ضد اصلاحات فاريلا ٣١٨
مؤتمر المغرب العربى بالقاهرة ٣٢١
المغرب العربى والجامعة العربية ٣٢٢
انتهاء أعمال المؤتمر واقامة حفلة ختامية ٣٢٤
مكتب المغرب العربى ٣٢٤
فى فرنسا ٣٢٧
اتهام المغاربة بالميل للامريكيين ٣٢٧
استنكار السياسة الاستعمارية فى شمال افريقيا ٣٣٠
اعفاء لابون ٣٣٢
الوطنية المغربية تقرر الصرامة ٣٣٥
توطيد العلائق بين مراكش ومصر ٣٣٧
عزام باشا ودفاعه عن المغرب ٣٣٨
استقبال البطل عبد الكريم ٣٣٩
التجاء الامير الى جلالة الفاروق ٣٤٠
شكر الامير على حسن المقابلة ٣٤١
صدى نزول الامير فى مراكش ٣٤٤
رد الفعل لدى الحكومة الفرنسية ٣٤٤
تأسيس لجنة تحرير المغرب العربى ٣٤٨
الجنرال جوان وسياسته ٣٥٣
حوادث زاوية سيدى الشيخ ٣٥٧
محاولة تفريق كلمة الشعب ٣٥٩
معارضة الوحدة الفرنسية ٣٦٠
فشل الديبلوماسية الفرنسية ٣٦١

صفحة

معارضة اصلاحات الجنرال جوان ٣٦٣
فشل جوان أمام جلالة الملك ٣٧٣
مقاومة الجنرال جوان ٣٧٥
فشل سياسة الجنرال جوان ٣٧٦
فشل آخر للجنرال جوان ٣٧٧
القضية المراكشية وفترة الانتقال ٣٨٠
السلطة التشريعية بيد جلالة الملك ٣٨٣
فشل ثالث مشترك بين الجنراليين ٣٩١
عودة المهدى بنونة من أمريكا ٣٩٤
الشعب التونسى ومواصلة الكفاح لضمان حريته ٣٩٥
رعاية جلالة الملك لحركة الاصلاح ٤٠١
نشاط حزب الاستقلال ٤٠٣
فى الميدان الثقافى ٤٠٣
تأسيس الحزب مجلة (رسالة المغرب) ٤٠٥
فى الميدان الاجتماعى ٤٠٧
العمل لتوحيد الصفوف ٤١٢
تضامن الحزب مع الحركات التحريرية العربية وغيرها ٤١٥
توجيه البلاد نحو الجامعة ٤١٧
ميثاق الامم المتحدة ٤١٧
الدكتور طه حسين بك وبلاد المغرب ٤٢٠
مواجهة الرأى العام العالمى ٤٢٣
الامم المتحدة وقضية فرانكو ٤٢٦
بولندا ورفع قضية مراكش للهيئة ٤٢٩
جوانب القضية المراكشية ٤٣١
معاهدة سنة ١٩١٢ ... ... ٤٣٢
الحماية وخرقها الالتزام ٤٣٣
روزفيلت وقضية المغرب ٤٣٥
الخاتمة ـ خلاصة وتوجيه ٤٣٧
المغرب العربى وعدم قبوله الحكم الفرنسى ... ٤٣٧
بروتوكول الاسكندرية ٤٤٥
العرب وتحرير المغرب ٤٤٩
الاستعمار الفرنسى والاسبانى ٤٥١
الميثاق العربى ـ اقتراح ٤٥٥

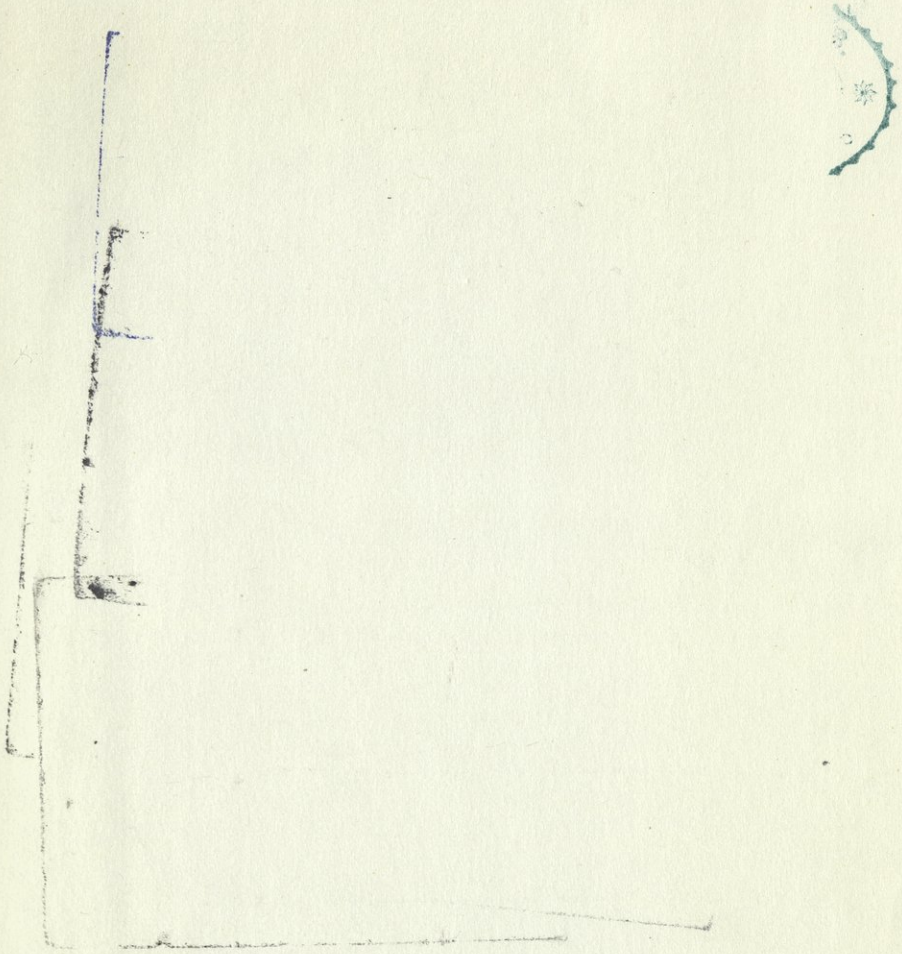

الفاسي ،علال
الحركات الاستقلالية في المغرب العرب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01057390

